

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عبد الله قاسم عبد الله سيفين كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : الكتاب والسنة
الأطروحة مقدمة لئيل درجة : الماجستير في تخصص : الكتاب والسنة
عنوان الأطروحة : ((..الكبر والمتكبرون في ضوء..)) الكتاب والسنة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٦ / ٨ / ١٤٤٠ هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المناقش الخارجي

المناقش الداخلي

المشرف

الاسم : د. وصي بن محمد عباس

الاسم : د. أحمد عطاء بن عبد الجواد

الاسم : د. سليمان الصادق البيرة

التوقيع :

التوقيع :

التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم الكتاب والسنة

الاسم : حسين محمد فليمان

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

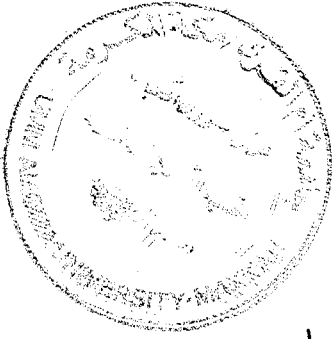
جامعة أم القرى
الدراسات العليا
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة



الكِبَرُ والمُتَكَبِّرُونَ في ضوء الكتاب والسنة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

١٥٩٦ هـ



إعداد الطالب

عبد الله قاسم عبد الله سفيان

٧٠٧ هـ

إشراف فضيلة الدكتور

سليمان الصادق البيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسع كل شيء رحمةً وعلماً والصلاة والسلام على رسول الله الصادق عملاً وكلماً وعلى آله وصحبه والمتخلقين بخلقه إلى يوم الدين وبعد :

هذا بحث مقدم لنيل درجة الماجستير - جامعة أم القرى - كلية الدعوة - قسم الكتاب والسنة ،
وعنوانه :

(الكبر والتكبرون في ضوء الكتاب والسنة) ويشتمل على مقدمة وثمانية فصول وخاتمة .

أما المقدمة فشملت - أهمية الموضوع - أسباب اختياره - صعوبات قابلته - منهجي فيه .

وأما الفصول فالأول في التعريفات والفروقات ، وحوى مبحثين : ١ - تعريف الكبر لغة واصطلاحاً

٢ - الفرق بين الكبر وبعض الألفاظ المرادفة أو المقاربة له والواردة في النصوص الشرعية .

والثاني في دواعي الكبر وأسبابه وحوى مبحثين ١ - دواعي الكبر ٢ - أسباب الكبر .

والثالث في أقسام الكبر - باعتبار حقيقته وباعتبار المتكبر عليه وباعتبار أحكامه وباعتبار أفرادهِ .

والرابع في أبرز علامات الكبر .

والخامس في أحكام الكبر - كفر - كبيرة - مباح .

والسادس ذكرت فيه قصص المتكبرين ومظاهر كبرهم من خلال نصوص القرآن والسنة .

والسابع في آثار الكبر - آثاره الدنيوية - آثاره الآخروية .

والثامن في علاج الكبر - علاجه في القرآن والسنة - علاجه جملة وتفصيلاً .

أما الخاتمة فشملت النتائج المستفادة من البحث .

هذا باختصار ما حواه هذا البحث الذي يتناول قضية مهمة هي قضية التكبر الذي يعد من أخطر وأسوأ

الأخلاق التي حرص الإسلام على تطهير أبنائه منها حتى لا تصيهم عاقبة المتكبرين الأليمة في الدنيا والآخرة .

أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا البحث المتواضع وأن ينفعني وغيري به راجياً عفوه عن التقصير

والإساءة وهو سبحانه ولي ذلك .

والحمد لله رب العالمين والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

العميد (عميد كلية الدعوة وأصول الدين)

د. محمد رضا نصر الدين

المشرف

د. محمد رضا نصر الدين

الطالب

د. محمد رضا نصر الدين

المُقَدِّمَة

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الحمد لله ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، الحمد لله المتصف بكل كمال ، المتفرد بنعوت الجلال والجمال ، المنزه عن كل نقص ، الكبير المتعال ، أحمدته تبارك وتعالى حق حمده ، وأثني عليه الشاء كله ، وهو أهل الحمد والثناء .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولأنه ولا شيء ولا قسم ولا مثل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله وصفوته من خلقه ، أدبه فأحسن تأديبه ، ورباه على عينية ، فبلغ في صفات الكمال البشري ما لم يبلغه بشر قبله ولا بعده ، فصلوات ربي وسلامه وبركاته عليه مانفس جرى ، وعدد ما أحاط به علم الله من ذرات الثرى ، وعلى آله وصحبه خير الورى ، وعلى التابعين لهم ، المتخلفين بأخلاقهم ، صلاة وسلاماً وبركات إلى يوم الدين .

أهمية الموضوع :

أما بعد : فإن للأخلاق في الإسلام قيمتها ومكانتها وأهميتها ، فقد رفع المولى عز وجل شأنها ، وجعل لها الحظ الأوفر من العناية والاهتمام متمثلاً ذلك في دستوره الخالد ، كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

والأخلاق كما هو معلوم إما ممدوحة أو مذمومة ، ولكل أثره على حياة الأفراد والمجتمعات والأمم .

فالأخلاق الممدوحة كالتواضع واللين والعفو والحلم والجود والرحمة والإحسان.... الخ ، آثارها صلاح وسعادة ، وحب وألفة ، وإخاء ومودة ، وعزة ورفعة ، وفلاح وخير يلقي بظلاله الظليل على الجميع .

والأخلاق المذمومة كالكبر والغرور والعجب والبطر والبخل والشح والبغي... الخ ، آثارها : شقاء وفساد وفرقة وتباغض واختلاف وتنافر وذل وصغار وبلاء وشر يطول الجميع .

ومن هنا فقد كان للإسلام موقفه الواضح في حرصه العظيم على غرس فضائل الأخلاق ومكارمها في نفوس أتباعه وتربيتهم عليها ، وحرصه كذلك

على تطهيرهم من كل خلق ذميم وسلوك معوج أثيم ، وقلعه من جذوره من نفوسهم ، ليعلوا ويسموا ، وليكونوا إخواناً ، بنياناً مرصواً يشد بعضه بعضاً ، وجسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، عربهم وعجمهم ، أبيضهم وأسودهم ، قاصيهم ودانيهم ، شرقيهم وغربيهم ، غنيهم وفقيرهم ، أميرهم ومأمورهم .

وقد كانوا كذلك يوم أن نهلوا من المنهل العذب الصافي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يوم أن قالوا لأمر الله تعالى ونهيه : سمعنا وأطعنا ، فتخلقوا بما أمرهم به من الأخلاق الحميدة ، وطهروا أنفسهم مما نهاهم عنه من الأخلاق السيئة الذميمة .

وإن مما حرص الإسلام على تطهير أتباعه منه من الأخلاق الذميمة خلق التكبر والخيلاء ، فإنه من أقبح الأخلاق حتى لقد عدّه بعض علماء الأمة وأئمتها من أركان الكفر^(١) ، إذ أن فيه منازعة الله تعالى صفة من صفاته التي لا تكون إلا له ، ولاتليق إلا به سبحانه وتعالى ، بل لقد عدّه الإمام ابن تيمية - عليه رحمة الله - شرّاً من الشرك ، إذ المشرك يعبد الله تعالى ومعه غيره ، والمتكبر يأنف أن يكون عبداً لله^(٢) .

ومما يدل على عظم قبح هذا الخلق أنه كان أول ذنب مع الحسد عُصي الله تعالى به ، وذلك عندما خلق الله آدم عليه السلام وأمر ملائكته الكرام ومعهم إبليس بالسجود له ، فأطاع الملائكة أمر الله ، وتعظم إبليس ، فأبى أن يسجد قائلاً كما أخبر الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء: ٦١] ، وكما أخبر الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] .

إضافة إلى ذلك فإن التكبر من أعظم الأدواء والآفات التي تنخر في جسد

(١) انظر : الفوائد ، لابن القيم ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : مدارج السالكين ٣٤٥/٢ ، كما ذكر ابن تيمية أن التكبر يولد الشرك ، فمن استكبر عن عبادة الله تعالى لابد أن يعبد غيره تحت أي صورة من صور العبادة... ،

انظر : مجموع الفتاوى ١٠/١٩٥-١٩٩ .

الأمة، وتقوض بنيانها المحكم، وتفرق صفها المرصوص، الذي أراده الله سبحانه وتعالى لها، وذلك لأنه يقود صاحبه إلى إنكار الحق ورده وعدم قبوله، والاستكبار عليه وعلى أصحابه حتى إنه ليبلغ الحال ببعض المتكبرين إلى محاربة الحق وقتل أهله لتكون له الكبرياء في الأرض.

كما أن التكبر يجعل صاحبه ينتقص الآخرين ويستصغرهم ويستعلي عليهم ومن ثم يغمطهم حقوقهم، ويغني عنهم غاية البغي.

كما أنه يقود ويؤدي إلى التخلق بأخلاق سيئة كثيرة، كالحقد والحسد، والبغي والبطر، والرياء والنفاق، والغيبة والنميمة، والغمز واللمز والبهتان.... وغيرها من مردول الأخلاق وسيء الصفات.

وإذا فالتكبر بهذه الصورة الشنيعة مرض فتاك وداء عضال، يؤدي إلى انعدام الثقة والأمان والأمانة والتعاون والمحبة والمودة والألفة بين أفراد الأمة، كما يؤدي إلى زرع الشقاق والتنافر والتناحر بينهم، وغرس البغضاء والشحناء في نفوسهم فيحصل من وراء ذلك شر وفساد عريض يصيب المجتمع بأسره. فكيف يمكن لمجتمع أن يثق أفراده بعضهم ببعض، ويأمن كلُّ جانب الآخر، والغني فيه يطغى على الفقير، فيظلمه بتكبره عليه وأنفته من مجالسته ومحادثته ومخالطته، والأكل والشرب معه، والزواج منه أو تزويجه، ومن أداء سائر الحقوق التي له عليه، حتى إنه ليأنف من ردّ تحية الإسلام عليه، بل وأعظم من ذلك حين يأنف من الوقوف إلى جواره في الصلاة بين يدي رب العالمين.

ومثل ذلك يكون حال ذي الجاه والسلطان والمنصب مع عامة الناس. ومثل ذلك يكون حال العالم ذي الشهادات والإجازات مع الجاهل، أو مع من هو أقل منه في ذلك.

ومثله يفعل العابد الزاهد مع من يراهم أو تخيل له نفسه أنهم أقل منه عبادة وزهداً.

ومثلهم يفعل صاحب الحسب والنسب مع من هم ليسوا من فصيلة وقبيله، وليس لهم حسبه ونسبه.

ومثلهم يفعل الجميل الوضيء مع من هم أقل منه جمالاً ونضارة. أنى لمجتمع أن يعيش في أمان ترفرف السعادة عليه، وتسود المحبة بين

أبنائه ، والابن يتكبر على أبويه ، والأب على أبنائه ، والزوج على زوجته ،
والطالب على معلمه ، والمعلم على تلامذته ، والموظف على مراجعيه ،
والمدير على من هم تحت إدارته... الخ وكل واحد من هؤلاء يأنف من أداء
الحقوق والواجبات التي عليه نحو الآخرين؟!!

إن هذه الصورة وغيرها من صور التكبر تبين لنا فداحة وعظم خطره على
الأفراد والمجتمع والأمة ، ومن ثم فقد قلنا إنه من أعظم الآفات التي تصيب
الأمة وتنخر في جسدها .

ولهذا فقد أولاه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
ما يستحقه من البيان والعلاج ، وذلك على النحو الذي آمل أن يوفقني الله
تعالى إلى بيانه من خلال هذه الرسالة العلمية ، والتي اسميتها : «الكبر
والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة» .

أسباب اختياري للموضوع :

وهي : سبب عام ، وأسباب خاصة بالموضوع .

فأما السبب العام ، فيتعلق بإتمام الدراسة في مرحلة الماجستير ، وذلك
أنه وبعد أن منّ الله سبحانه وتعالى عليّ ووفقني لاجتياز السنة المنهجية
لمرحلة الماجستير في قسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة بجامعة أم القرى -
شرفها الله- أصبح لزاماً عليّ أن أتقدم بموضوع لرسالتي العلمية لأتم بها
دراستي في هذه المرحلة ، فكان أن جالت في خاطري موضوعات شتى
ظلمت متردداً أبحث عن ضالتي بينها ، حتى استقر رأيي بعد استشارة الحق
سبحانه وتعالى ، واستشارة بعض أساتذتي الكرام ، وبعض أهل العلم والمعرفة
على أن أكتب في هذا الموضوع الأخلاقي الهام .

وقد اخترت الكتابة الموضوعية دون التحقيق ، لميلي إليها ، ولما بدا لي
من تعدد فوائدها ، والتي منها :

أ - توسع مدارك الباحث وإثراء ثقافته من خلال اطلاعه على المراجع
العلمية المتعددة للإحاطة بجوانب الموضوع ، وجمع مادة علمية وافية عنه .

ب - يكتسب الباحث من خلال اطلاعه على مختلف المراجع ، وقراءته
لها أسلوباً جيداً مميزاً ينفعه ويفيده بإذن الله تعالى في مستقبل حياته العلمية
عند إرادته كتابة بحث أو رسالة أو تأليف كتاب ، أو عند إرادته التحدث عن

موضوع علمي ما ، ونحو ذلك .

وأما الأسباب الخاصة بالموضوع فهي :

أولاً : أهمية الموضوع وخطره :

فهو موضوع تربوي أخلاقي ، يعالج قضية سلوكية لها خطرها على حياة الأفراد والمجتمعات والأمم ، على النحو الذي أشرت إليه آنفاً ، والذي يأتي تفصيله في أثناء مباحث هذه الرسالة بإذن الله تعالى وتوفيقه .

ثانياً : عدم وجود كتابة مستقلة عنه :

فبالرغم من أهمية الموضوع وخطره إلا أنني وحسب اطلاعي القليل لم أجد من كتب فيه كتابة مستقلة بذاتها ، وأعني في كتاب مستقل وعلى ضوء النصوص القرآنية والنبوية .

غير أنه لم يخل من الكتابة فيه مطلقاً ، فهذا الإمام الحارث المحاسبي قد كتب فيه وبين كثيراً من جوانبه وذلك في كتابه « الرعاية لحقوق الله » ، وتبعه الإمام أبو حامد الغزالي - رحمهما الله تعالى - فكتب فيه في « إحيائه » كذلك موضحاً ^(١) لكثير من جوانبه ، وقرىبا كتب فيه الدكتور : عبد الرحمن حبنكة الميداني بشيء من التفصيل في كتابه « الأخلاق الإسلامية وأسسها » ^(٢) .

هذه هي الكتب الثلاثة التي وجدت أنها ذكرت هذا الموضوع وتعرضت له بكثير من التفصيل ، ولذا فهي مرتكز المصادر التي رجعت إليها بعد كتاب الله تعالى ثم كتب التفسير والحديث وشروحاته ، مع حرصي أن يكون لي أسلوبِي الخاص ، وبالله التوفيق .

ثالثاً : صور التكبر في مجتمعاتنا :

ومما دفعني للكتابة في هذا الموضوع ، تلك الصور المتعددة من صور التكبر والتي تبدو واضحة في واقع حياتنا ، أفراداً وجماعات وأمماً ، فكان لابد من التذكير بخطر التكبر وبيان آفاته التي تعود على الجميع بالشر والفساد ، ليحذره أولوا الألباب والبصائر المتوقدة المتفتحة .

رابعاً : الإفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم :

نظرت في كتاب الله عز وجل وتفكرت فيه فألفيته كما ألفاه الآلاف غيري بحراً لاساحل له ، لاتنقضي عجائبه ، ولاتنفد جواهره ودرره ، على

(١) انظر : ص ٣٧٣ - ٤٩٦ .

(٢) انظر : ١٣٤/٤ - ١٧٥ .

(٣) انظر : ١ - ٦٥٩ - ٧١٧ .

كثرة الغارفين منها ، فأحببت أن أنهل من معينه الصافي ، ورجوت أن أحظى بإحدى درره ، وأفوز بلؤلؤة من لآلئه ، فاستعنت بالله تعالى ، واتجهت صوب شاطئ من شواطئ ذلك البحر الهدار ، فوجدت فيما يليقه من الدرر ويقذفه من الجواهر هدية للصائدين ، غنية عن الغوص في أعماقه بحثاً عنها ، فمددت يدي باسم الله ، لعل فيضاً من فيوضات ربي يدركني ورحمة من رحماته تشملني فأحظى بإحدى تلك الدرر والجواهر ، فكانت بإذن الله تعالى هذه الدرة وهذه اللؤلؤة التي أسميتها [الكبر والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة] .

ولا يخفى على ذوي النفوس المؤمنة ، أن السنة النبوية ماهي إلا فيض من غيض ذلك البحر الهدار ، وعين صافية من ذلك ينبوع الرقراق ، ولهذا عرجت عليها لتكون خير معين على فهم كتاب الله تعالى وإدراك أسرارهِ وعجائبهِ وحكمهِ .

صعوبات اعترضت الطريق :

لقد حفت بهذا البحث مصاعب كثيرة أدت إلى تأخر إتمامه ، وأهمها مايلي :

١ - تأخر موافقة قسم الكتاب والسنة على الموضوع ، حيث استغرق البحث عنه والسعي لموافقة القسم عليه فصلين دراسيين ، فقد تمت الموافقة عليه من لدن مجلس القسم في جلستة الرابعة عشرة بتاريخ ١٤١٢/١٢/٢٨ هـ وهذا أمر لاشك أنه كان له دور في انقضاء فترة زمنية لابأس بها من فترة الدراسة بثلاث سنوات مع السنة المنهجية .

٢ - تغيير الإشراف من سعادة الدكتور : عبد السميع الصائغ - يحفظه الله - إلى سعادة الدكتور : سليمان الصادق -يرعاه الله - .

وتغيير الإشراف يؤدي إلى إعادة النظر فيما كتب سابقاً حتى يكون لدى المشرف الجديد فكرة وافية عنه ، ولربما كانت له بعض الآراء التي تؤدي إلى التعديل والتغيير في الكتابة السابقة .

فلأخفى إذاً دور تغيير الإشراف في حصول التوقف ببعض الوقت عن الماضي قدماً حتى تتم مراجعة السابق .

٣ - قلة مراجع البحث وتوزع مفرداته في مصادر مختلفة قديمة وحديثة ، وهذا أمر أخذ مني وقتاً ليس بالقصير في البحث عن مظان المصادر والمراجع والأبحاث المفصلة بالموضوع ، وقد استعنت بالله تبارك وتعالى في

الأخذ بالأسباب وبذل الجهد المستطاع حسب مايسر لي من وقت وإمكانيات .

وإني مقر سلفاً بما في هذا البحث من نقص وثغرات لأنني أوقن أن هناك من البحوث في هذا الموضوع ، المنتشرة في بلاد المسلمين الواسعة ، وفي جامعاتها المتعددة ، مالم يتيسر لي الاتصال به ، ومن ثم الاطلاع عليه ، ولكن حسبي أنني لم أقصر في الوصول إلى ما أمكنني الوصول إليه من ذلك قدر المستطاع .

والله تعالى أسأل أن يتجاوز عن مابدر مني من تقصير وأخطاء في هذا البحث ، وأن يقبل عثراتي فيه ، وأن يعفو عن زلاتي ، ويتجاوز عن هفواتي ، إنه سميع مجيب .

٤ - قلة بضاعتي وضآلة خبرتي في هذا المجال ، وإن كنت راغباً فيه ، ميّلاً إليه ذا استعداد لابأس به في السير فيه - لكن قلة البضاعة وضعف الخبرة يمثلان عائقاً ، يؤدي إلى بطء السير في العمل .

٥ - عامل نفسي أطلعت عليه سعادة الدكتورين الفاضلين : عبد السميع الصائغ ، وسليمان الصادق ، وقد أعاقني هذا العامل كثيراً ، ولولا فضل الله تعالى عليّ ورحمته بي ، ثم تفهم الشيخين الفاضلين ، ووقوفهما إلى جانبي بحسن التوجيه ، وصدق النصيحة ، لما كان لهذا البحث من إتمام ، فالحمد لله حمداً يستحقه ، ولشيخي الفاضلين من الله حسن الجزاء ، ومني جميل الشكر وجزيله ، وخالص الدعاء .

منهجي في هذا البحث :

هو منهج وصفي تحليلي ، حيث قمت بجمع الآيات القرآنية الواردة في الكبير ومايقابلها ومايرادفها ، وجعلت كل مجموعة منها تحت مبحث خاص بها ، ثم رجعت إلى أقوال المفسرين مستخلصاً منها القول الذي يؤيده الدليل ، وكذلك جمعت الأحاديث الواردة فيه ، وجعلت كل مجموعة في المبحث الخاص بها ، ثم رجعت إلى شروحاتها مستخلصاً منها فوائدها ومدلولاتها .

ثم بعد ذلك قمت بكتابة المباحث بأسلوب الخصاص ، من خلال مااستفدته من الآيات والأحاديث والمراجع التي رجعت إليها .

هذا هو منهجي بشكل عام ، وهناك نقاط بارزة أودّ التنبيه عليها :

أولاً : الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، قد يكون لبعضها أكثر من مدلول وفائدة ، ولهذا قد تكرر في مواضع شتى ، فلا يهولنك ذلك ، فإنني قد حرصت على أن لا أذكر الآية أو الحديث في موضع إلا وله من المدلول ما يستدعي ذلك ، فإن حصل توفيق فمن الله وحده ، وإن حصل زلل فمني ومن الشيطان ، والله أسأل عفوه ومغفرته .

ثانياً : بالنسبة للآيات القرآنية إذا ذكرتها أذكر أسماء السور الواردة فيها ، وكذلك رقم الآية أو الآيات بعدها مباشرة ، لافي الهامش .

ثالثاً : بالنسبة للأحاديث النبوية فقد آثرت في رسالتي ماصح منها ، فإن جاءت في صحيح البخاري ومسلم فأذكرها دون الحاجة إلى الحكم عليها ، لاتفاق الأمة على صحة ما جاء فيهما ، وإن جاءت في غيرهما خرجتهما من مظانها ، ثم حكمت عليها من خلال مقالة أهل العلم المشهود لهم ، بالعلم بها وبأحكامها : فإن شذ شيء عن هذه القاعدة فهو من الضعف الذي يصيب البشر ويعتريهم ، والله سبحانه وتعالى جدير بأن يغفر ويرحم ويعفو ويتكرم .

رابعاً : حاولت الاستدلال والاستشهاد بما يناسب كل مقام من مقامات البحث حسب ماتوفر لدي من المادة العلمية ، من مأثور ، أو معقول ، أو واقع مشاهد ، أو غير ذلك .

خامساً : بالنسبة لما أنقله وأذكره من كلام أهل العلم ، إن نقلته حرفياً وضعته بين قوسين صغيرين ، ثم وضعت له رقماً فوق آخره ، ثم جعلت ذلك الرقم في الهامش ، وذكرت اسم الكتاب الذي نقلت منه والجزء والصفحة في حالة وجود أي من ذلك ، وإن لم أنقله حرفياً بل تصرفت فيه بيسير أو كثير أضفت في الهامش كلمة : انظر ، قبل المعلومات السابقة الذكر .

سادساً : حاولت جهدي أن يكون لي أسلوب خاص في الكتابة ، حيث أقرأ النصوص في المصادر المتوفرة لدي ، ثم أصيغ الموضوع بأسلوبى بعد الاستفادة الكاملة من تلك النصوص والمراجع .

محتويات البحث :

البحث عبارة عن كتاب واحد يشتمل على مقدمة ، وثمانية فصول ، وخاتمة .

فأما المقدمة فتضمنت النقاط التالية :

- أهمية الموضوع .

- أسباب اختياري له .

- الصعوبات التي واجهتني فيه .

- المنهج الذي سلكته في البحث .

وأما الفصول :

فأما الفصل الأول : فهو في التعريفات والفروقات ، وهو عبارة عن مبحثين :

تكلمت في المبحث الأول عن تعريف الكبر لغة واصطلاحاً ، وفي المبحث الثاني عن الفرق بين الكبر وبعض الألفاظ المرادفة له التي وردت في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة من غير إطالة .

والفصل الثاني : عنوانه : دواعي الكبر وأسبابه ، وهو أيضاً مبحثان :

المبحث الأول : ذكرت فيه دواعي تكبر المتكبر من مال وجاه وقوة ونسب...الخ .

والمبحث الثاني : ذكرت فيه الأسباب التي تدفع المتكبر إلى التكبر ، وهي أسباب نفسية وأسباب اجتماعية ، وأسباب سلوكية .

والفصل الثالث : عنوانه : أقسام الكبر ، وتحدثت فيه عن أقسام الكبر باعتبار حقيقته ، وأقسامه باعتبار المتكبر عليه ، وأقسامه باعتبار أحكامه ، وأقسامه باعتبار أفراده .

والفصل الرابع عنوانه : علامات الكبر ، وتحدثت فيه عن العلامات المميزة التي من خلالها يعرف المتكبر .

والفصل الخامس عنونت له ب: أحداث تاريخية للكبر في ضوء الكتاب والسنة :

وتحدثت فيه عن المتكبرين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة مبيناً مظاهر كبرهم حسب مجاء في تلك النصوص الواردة في شأنهم من قرآن أو سنة .

والفصل السادس عنوانه : أحكام الكبر ، وتحدثت فيه عن أحكام الكبر ، وهي ثلاثة : كفر ، وكبيرة ، ومباح ، على النحو الذي تجده في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

والفصل السابع عنونت له ب : آثار الكبر ، وجعلته من مبحثين :

المبحث الأول : في آثار الكبر التي تصيب الأفراد والمجتمع .

والمبحث الثاني : في آثار الكبر الأخروية التي تصيب المتكبر جزاء تكبره .

والفصل الثامن عنونت له ب : علاج الكبر ، وجعلته من مبحثين كذلك :

المبحث الأول : منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة وأساليبهما في عرض قضية الكبر وعلاجه ، وتحدثت فيه عن كيفية عرض القرآن الكريم والسنة النبوية لقضية الكبر والأساليب التي استخدمها في علاجه .

المبحث الثاني : علاج الكبر جملة وتفصيلاً ، وتحدثت فيه عن كيفية علاج الكبر ، لتطهير النفوس منه وحفظ المجتمع من شروره وآفاته : أولاً في علاجه جملة ، ثانياً في علاج كل صورة من صور التكبر على حدة ، كالتكبر بالعلم ، والتكبر بالمال... الخ .

وأما الخاتمة فهي في النتائج المستفادة من البحث ، وبالله التوفيق .



٣٧٠٧

شكر وتقدير :

بعد حمد الله تعالى على توفيقه والثناء عليه بما هو أهله ، أتوجه -من باب أداء الحق لأهله- بالشكر والعرفان الجم إلى الدكتور : عبد السميع بن عبد الباري الصائغ؛ الذي أشرف على رسالتي في بدايتها مكبراً فيه تواضعه الجم ، وجهده المبذول في مساعدتي على تثبيت قدمي على أرض صلبة ، بحسن توجيهه وصدق نصحه ، فجزاه الله عني خير ماجازى معلماً عن تلميذه من حسن الجزاء والثواب .

ثم أتوجه بخالص الشكر والامتنان إلى الدكتور : سليمان الصادق البيرة المشرف على هذه الرسالة حتى نهايتها مكبراً فيه دماثة خلقه ونبل صفاته ، وسداد توجيهاته وخلوص نصائحه ، وحسن تربيته ، فله من الله تعالى خير الجزاء وجزيل الثواب وعظيم الأجر ، وله مني كل شكر وتقدير وتبجيل .

ثم أتقدم بالشكر إلى جامعتنا الحبيبة جامعة أم القرى التي تحمل هذا الاسم الحبيب إلى كل مسلم ، والتي رعت كثيراً من أبناء الإسلام تعليماً وتثقيفاً وإعداداً ، ممثلة في معالي مديرها السابق الأستاذ الدكتور : راشد الراجح ، ومعالي مديرها الحالي الدكتور : سهيل قاضي ، وإلى عمادة كلية الدعوة متمثلة في كل عميد مرّ عليها ، فجزاهم الله تعالى خيراً على ما يبذلون من جهد لخدمة العلم وطلابه .

وإلى قسم الكتاب والسنة ورئيسه السابق والحالي وأعضاء القسم جميعاً .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع أساتذتي الكرام الذين درسوني العلم في مراحلهم المختلفة ، وإلى كل من مدّ لي يد العون في سبيل إنجاز هذا البحث ، فلكم جميع خالص التقدير والثناء والعرفان ، وجزاهم الله تعالى عني جميعاً خير الجزاء وأجزل مثوبتهم وعظم أجورهم ، إنه سميع مجيب .

وفي الختام أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يتقبل مني ومن كل مسلم قليل العمل وكثيره ، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا وسرائرنا وظواهرنا خالصة له وحده دون شريك ، وأن يقلل عثراتنا ، ويتجاوز عن سيئاتنا ، وأن يغفر لنا ذنوبنا صغيرها وكبيرها .

ربنا ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لنا مغفرة من عندك ، وارحمنا ، إنك أنت الغفور الرحيم ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة ،

وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ،
ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا
مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا
على القوم الكافرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك
على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله و على آله وصحبه ومن دعا
بدعوته وسار على نهجه ، واقتفى أثره إلى يوم الدين .

الفصل الأول :

في التعريفات .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تعريف الكبر لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : في الفروقات .

المبحث الأول : تعريف الكبير لغة واصطلاحاً .

أولاً : معنى الكبير لغة :

من خلال النظر في قواميس اللغة العربية عند مادة [ك ب ر] وجدت أنها تدلّ على معنيين :
أحدهما : العَظَمَةُ والعُلُوّ .

وثانيهما : التقدّم في السّن وفي المرتبة ، وذلك على النحو التالي :
الكِبَرُ - بكسر الكاف وفتح الباء - : نقيض الصَّغَر ، تقول : كَبِرَ الرجل كَفَرَح ، يَكْبَرُ كِبَرًا كَعَنْب ، ومَكْبَرٌ كمنزل ، فهو كبير إذا طعن في السن^(١) ، وكبار بالتخفيف وبالتشديد إذا أفرط^(٢) ، والجمع كُبَارٌ - بالضم ثم فتح الموحدة مع تخفيفها ، وكِبَارُون - بفتح الموحدة وتشديدها - والاسم : الكَبِيرُ - بفتح الكاف وسكون الباء^(٣) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْفَنَّا عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وكَبُرَ - بالضم - ككُرُم ، فهو كبير يكْبُرُ كِبَرًا^(٤) .
والكبير في صفة الله تعالى العظيم الجليل ، ومن أسمائه المتكبر والكبير أي : العظيم ، وذو الكبرياء ، أي : صاحب العظمة والترفّع عن الانقياد ، وذلك لا يستحقه غير الله تبارك وتعالى^(٥) ، لأنه تعالى له المحامد كلها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحاثية : ٣٧] .

والتكبير : التعظيم ، وقول المؤذن : الله أكبر ، معناه : الله كبير ، فوضع أفعل بمعنى فاعيل ، وقيل : معناه : الله أكبر من كل شيء ، أي : أعظم ؛ وقيل :

(١) تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٢) انظر : الصحاح ٨٠١/٢ .

(٣) انظر : لسان العرب ٤٣٩/٦ ، والصحاح ٨٠١/٢ .

(٤) انظر : لسان العرب ٤٣٣/٦ ، تاج العروس ٥١٣/٣ ، الصحاح ٨٠١/٢ .

(٥) انظر : لسان العرب ٤٣٩/٦ ، المفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٤٢٢ .

معناه : الله أكبر من أن يعرف كنه كبريائه وعظمته^(١) .

وكبير القوم معلمهم ورئيسهم^(٢) ومقدمهم^(٣) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السُّحْرَ ﴾ [طه: ٧١] .

ويقال : ورثوا المجدَ كَابِراً عن كَابِرٍ ، أي : عظيماً عن عظيم ، وكبيراً عن كبير في العز والشرف^(٤) .

واستكبر الشيء ، وأكْبَرَهُ وَكَبَّرَهُ^(٥) : رآه كبيراً وعظيماً عنده^(٦) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَاهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١] .

والكِبَرُ : بكسر الكاف وسكون الباء : العظمة والتجبر كالكبرياء^(٧) ، وهو في حق الله تعالى وفي صفاته مدح ، وفي وصف غيره ذم .

والكبر كذلك : الإثم الكبير من الكبيرة كالخطء من الخطيئة^(٨) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ ﴾ [الشورى: ٣٧] .

والكبر كذلك : الرفعة والشرف ، ويضم الكاف أيضاً^(٩) .

والكبر أيضاً : معظم الشيء ، ويضم فيه الكاف أيضاً^(١٠) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] .

والتكبر والاستكبار : التعظم والامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥] .

وقد تكبر واستكبر وتكابر ، وقيل : تكبّر من الكِبَرِ وتكابر من السن^(١١) .

(١) انظر : لسان العرب ٤٤٠/٦ ، ٤٤١ .

(٢) انظر : تهذيب اللغة ٢١١/١٠ ، لسان العرب ٤٣٩/٦ .

(٣) انظر : تاج العروس ٥١٤/٣ ، المحكم ١٣/٥ .

(٤) انظر : لسان العرب ٤٤٠/٦ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٤ .

(٥) انظر : لسان العرب ٤٤٠/٦ .

(٦) انظر : لسان العرب ٤٣٩/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٧) انظر : لسان العرب ٤٤٤/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٨) انظر : تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٩) انظر : لسان العرب ٤٤٤/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

(١٠) انظر : المصدرين السابقين .

(١١) لسان العرب ٤٤٤/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

ومن المعاني الأخرى لمادة [ك ب ر] :

أ - الكبر - بفتح الكاف والباء- : نبات له شوك^(١).

ب - الكبر - بفتح الكاف وسكون الكباء- : طبل له وجه واحد^(٢).

ومجمل القول في مادة [ك ب ر] أنها تدور حول المعنيين المذكورين أولاً : العظمة والعلو ، والتقدم في السن والمرتبة .

والمعنى الأول هو المراد بحثه في هذه الرسالة التي أستمَد من الله تعالى العون والتوفيق لإتمامها على وجه حسن يرضيه ، سائلاً متضرعاً إليه أن يغفر لي برحمته ما وقع فيها من الزلل . وأن يعفو بمنه عما اعتراها من كثير التقصير والخلل .

وخلاصة القول : إن موضوع رسالتي هذه هو : الكبر ، الذي يعني العظمة والعلو ، أي : إظهار عظم الشأن ، والذي هو في حق الله صفة مدح ، وفي حق عباده صفة ذم ، إلا في مواطن يأتي بيانها .

ثانياً : معنى الكبر في الاصطلاح :

يذكر الغزالي أن الكبر إما باطن وإما ظاهر ، فالباطن هو : خُلُق في النفس ، وهو أصل الكبر ، والظاهر هو : ثمرة ذلك الخُلُق النفسي ، تظهر في أعمال الجوارح ؛ ولذا فإن اسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وبه أولى ؛ ولهذا يقال عن الإنسان : إذا لم يظهر أثر الكبر على جوارحه : في نفسه كبر ، فإذا ظهر أثر الكبر على جوارحه قيل عنه : تكبر أو متكبر^(٣) .

وقد فسّر الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر جامعاً بين باطنه وظاهره ، فقال : « **الكِبَرُ : بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ** »^(٤) .

« **بطر الحق** » معناه : أن يجعل الحق باطلاً ، ويقال : أن يتكبر عن الحق

(١) انظر : المحكم ١٣/٥ .

(٢) انظر : المحكم ١٤/٥ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ١٤٤/٤ .

(٤) **أخرج مسلم** في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، عن عبد الله بن مسعود

رضي الله عنه ٩٣/١ .

فلا يقبله^(١) ، قال الإمام النووي^(٢) - رحمه الله - : « وأما بَطَرُ الحق فهو : دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً »^(٣) .

وفي رواية « سَفَهُ الحق »^(٤) ، والمعنى : أنه لتكبره يرى الحق سَفَهًا وجهلاً فيردّه ولا يقبله^(٥) .

و « غمط الناس » ، وفي رواية : « غمص الناس »^(٦) كلاهما بمعنى واحد ، أي : ازدراؤهم واحتقارهم وانتقاصهم حتى لا يراهم شيئاً^(٧) .

إذاً فقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الْكِبَرُ : بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ » قد فسر الكبير بشقيه : باطنه وظاهره ، « ووجه الاستدلال على ذلك :

(١) انظر : شرح السنة ١٣/١٦٥ - ١٦٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٠٣ .
(٢) الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام محي الدين أبوزكريا يحيى بن شرف النووي ، الشافعي ، ولد بنوى من قرى حوران سنة إحدى وثلاثين وستمائة ؛ نشأ على حب العلم والاجتهاد فيه حتى ذكر أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشائخه شرحاً وتصحيحاً ، سمع وحفظ الكثير من العلوم والكتب . واعتنى بالتصنيف فجمع شيئاً كثيراً ، منها ما أكمله ، ومنها ما لم يكمله ، ومن ذلك : شرح مسلم ، الروضة ، رياض الصالحين ، المنهاج شرح المذهب ، الأذكار... ، برع في مختلف فنون العلم ، وباشّر التدريس في مدارس عدة ، زاهد ورع عابد ، توفي حيث ولد سنة ست وسبعين وستمائة رحمه الله تعالى .

انظر : البداية والنهاية ١٣/٢٩٤ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٩٠ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٠ عن عبد الله بن عمرو ، وفي رواية عن ابن مسعود : " ولكن الكبير من سفه الحق وازدري الناس " ١/٣٩٩ وفي رواية عن أبي ریحانة وفيه : " إنما الكبير من سفه الحق ، وغمص الناس بعينه " ٤/١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥١ .

(٥) انظر : شرح السنة ١٣/١٦٥ - ١٦٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٠٣ .

(٦) غمط ، غمص ، كلاهما بفتح المعجمه وإسكان الميم ، والأولى بالطاء المهملة ، والثانية : بالصاد المهملة ، والفعل منهما بفتح الميم وبكسرهما كضرب وسمع . انظر : شرح النووي على مسلم ٢/٩٠ ، والقاموس المحيط ٨٠٦ ، ٨٧٨ ، ورواية غمص ، بالصاد المهملة ، هي عند الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبير ٤/٣٦١ .

(٧) انظر : شرح السنة ١٣/١٦٥ - ١٦٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٠٣ .

أن دفع الحق وردّه مع العلم به فيه انحراف في الدين ، وهو من أعمال الباطن ؛ واحتقار الناس وانتقاصهم وإهانتهم بالقول والفعل فيه ابتعاد عن الأخلاق والآداب السلوكية ، وهي من أعمال الظاهر»^(١) ، وبهذا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر الكبر باطنه وظاهره ، والله تعالى أعلم .

وهذا البيان من الرسول صلى الله عليه وسلم للكبر قد أشارت إليه الآية الكريمة من سورة الأحقاف وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١] ، فالآية الكريمة تُبين موقف الكافرين من الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقد جحدوه وسفّهوه ولم يقبلوه ، وسخروا ممن قبله واستنقصوهم وسفّهوهم ، فقالوا : لو كان ماجاء محمد من القرآن والبيانات حقاً وخيراً لكننا نحن أحق بالسبق إليه من هؤلاء المستضعفين ، قالوا ذلك احتقاراً واستصغاراً لمن آمن ، وذلك عندما اعتقدوا في أنفسهم أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية^(٢) ، ثم إنهم يقولون عن القرآن حين لم يؤمنوا ولم يهتدوا به : « هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » ، أي : كذب مأثور عن الأقدمين^(٣) ومأخوذ منهم ، فقولهم هذا وردّهم الحق وتسفيهه وأهله هو عين ما فسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الكبر .

وليست هذه الآية الكريمة هي الوحيدة التي تشير إلى هذا المعنى ، بل إنك ستلاحظ من خلال النصوص القرآنية الواردة في شأن التكبر - كما سيأتي - أنها تُؤكد على إبراز هاتين السعائتين البارزتين في صفات وسلوكيات المتكبرين (بطر الحق وغمط الناس) ؛ لأن الغالب على كل متكبر أن يتلبس بهما .

ولّا عجب أن يكون هذان الخلقان هما الأبرز والأظهر في أخلاق المتكبرين ، وأن تُعنى النصوص الشرعية **ببئانهما** فإنهما أساس كل باطل وأصل كل انحراف واعوجاج ، ومنهما تنشأ وتتولد سائر الأخلاق والصفات

(١) الأخلاق الدينية والحكم الشرعية ٩٣/١ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٨/٤ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٨/٤ .

السيئة المرذولة ؛ ولهذا كان الكبر حجاباً من الجنة وطريقاً إلى النار ، كما سيأتي بيانه بإذن ومشية الحق سبحانه وتعالى .

تعريف العلماء للكبر :

ماسأذكره هنا من أقوال أهل العلم في بيان الكبر كله يدور حول ماتضمنته النصوص القرآنية من الإشارة إلى معنى الكبر ، وذلك بذكرها المعلمين البارزين في سلوك المتكبرين الذين بينهما الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ » .

فتعتبر تلك الأقوال مستنبطة ومستقاة من هذا القول النبوي الكريم .

التعاريف :

- ١ - عرفه الإمام أبوهلال العسكري^(١) بأنه : « إظهار عظم الشأن »^(٢) .
- ٢ - وعرفه الإمام الراغب^(٣) بأنه : « الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره »^(٤) .
- ٣ - وعرفه الإمام الغزالي أبوحامد^(٥) بأنه : « الاسترواح والركون إلى

(١) الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران ؛ وصف بالعلم والفقہ ؛ وغلب عليه الأدب والشعر ؛ من مؤلفاته : « التلخيص » في اللغة ، « الصناعتين » صناعتي النظم والنثر ؛ « ديوان المعاني » وغيرها . ذكر أنه توفي عام ٣٩٥ هـ .
انظر : الأعلام ، للزركلي ١٩٦/٢ ؛ الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ص ٥٥ .

(٢) الفروق اللغوية ٢٠٤ .

(٣) العلامة المحقق الماهر ، أبو القاسم ، الحسين بن محمد بن محمد بن المفضل الأصبهاني ، من أذكى المتكلمين ، من تصانيفه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ، « محاضرات الأدباء » ، « تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين » ، « اختلف في تاريخ وفاته فقيلاً سنة ٤٠٢ ، وقيل : ٥٥٢ .

انظر : سير أعلام النبلاء ١٢٠/١٨ مع الهوامش رقم ١ ، ٢ ، ١٨/١٢١ .

(٤) المفردات في ألفاظ القرآن ٤٢٢ .

(٥) حجة الإسلام الإمام البحر محمد بن محمد بن محمد الطوسي الشافعي ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط ، برع في الفقه والكلام والجدل ، ولي تدريس النظامية ببغداد . من تصانيفه : « المستصفى » في الأصول ، « الوجيز » ، « تهافت الفلاسفة » .

رؤية النفس فوق المتكبر عليه»^(١) .

وعرفه غير هؤلاء بأنه : العزة التي يترتب عليها آثار تضر بالأفراد والمجتمع»^(٢) .

حول التعاريف :

مما سبق يتبين لنا مايلي :

أولاً : أن الأصل في الكبر هو : خلق النفس ، وهو حركة نفسية وهزة قلبية تثمر أعمالاً في السلوك الظاهر تسمى تكبراً ، ومعنى أن الكبر حركة نفسية ، أي : أن النفس عند رؤيتها لذاتها بعين الاستعظام يحدث لديها حركة وهزة واعتداد ، ثم ركون إلى هذه الرؤية ، فإذا ركنت إليها كبرت وانتفخت وتعظمت وتعززت^(٣) ، فإذا حصل لها ذلك ردّت الحق وسفّهته ، واحتقرت الناس وصغرتهم ؛ وهذا ما ترجمه أقوال وأعمال الجوارح ، فكما نعلم أن الإنسان نفس وعقل وجسم ، فالنفس والعقل متبوعان ، والجسم تابع لهما ، والنفس أمارة بالسوء ، والعقل موجه وقائد وكابح ، فإذا ما غفل العقل وركن إلى النفس وأسلم لها القيادة قادتته إلى ما لا يحمد عقباه ، وإذا ما ظل متيقظاً متنبهاً لكل حركة منها ، هدّبها ووجهها وكبح جماحها ، وعندئذ يسلم من غوائلها .

ولما كان العقل بهذه المنزلة ، وكان محل الإدراك والفهم والتمييز ، جعله الله مناط التكليف ، فإذا فقد العقل فلا تكليف ، وإن كانت النفس موجودة ، ومن هنا امتدح الله تعالى أصحاب العقول السليمة ، ويّين أنهم هم الذين يفهمون آياته ويعقلونها ، ويتدبّرون ويتفكرون فيها^(٤) ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ

ولد عام ١٤٥٠ هـ ، وتوفي عام ١٤٥٥ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢-٣٤٦ ،

الأعلام للزركلي ٧/٢٢ .

(١) إحياء علوم الدين ٤/١٤٤ .

(٢) الأخلاق الدينية والحكم الشرعية ١/٩٣ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٤٤ ، ١٥٠ .

(٤) مستفاد من توجيهات الدكتور سليمان الصادق .

أُولُوا الْأَلْبَابَ ﴿ [الزمر: ٩] ، وقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] .

وخلاصة القول أن الجسم ماهو إلا منفذٌ لرغبات النفس وأوامر العقل ، ليس له غير ذلك ، فالنفس تريد التعظم وترغب في الاستعلاء ، والعقل إما أن يهذبها ويكبح جماحها فتقف عند حدها ولا تطلب ما ليس لها ، وإما أن يتركها أو يغفل عنها ويهمل تهذيبها ، فتتمادى في طغيانها وانتفاخها حتى يظهر أثر ذلك على الجسم تكبراً وغطرسة وانتفاشاً بغير حق .

ومما يدل على أن الكبر أصله في القلب قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] ، وفي معناها يقول ابن عباس^(١) رضي الله عنهما : ما يحملهم على تكذيبك إلا مافي صدورهم من الكبر والعظمة^(٢) .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] .

فالآيتان الكريمتان فيهما : أن سبب ما يحصل من المشركين من المجادلة في آيات الله تعالى وعدم الإيمان بها ، وعدم تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء بها وطلبهم لتصديقه أن تنزل عليهم الملائكة تخبرهم بصدقه أو يرون ربهم تبارك وتعالى جهرة يخبرهم بذلك ، سبب هذا الفعل والقول القبيح هو ماوقر في صدورهم ونفوسهم من الكبر والعتو الكبير .

(١) ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، ترجمان القرآن وحبر الأمة ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح ، عُدد من المكثرين لرواية الحديث ، كان في العلم أمة وحده ، له في كل يوم درس في فن من فنونه ، الحديث والفقه والتأويل والحساب والعريية ، ولي البصرة لعلي رضي الله عنه ثم فارقها ، توفي بالطائف سنة ثمانية وستين من الهجرة ، رضي الله عنه وأرضاه .
انظر ترجمته في أسد الغابة ٣/١٩٣ ، والإصابة ٤/٩٠ ، والحديث والمحدثون ، لأبي زهو ص ١٣٩ .

(٢) ذكره الخازن في تفسيره ٦/٩٨ .

ومما يدل كذلك على أن الكبر أصله في القلب قوله الله تعالى :
﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ، على
قراءة التنوين^(١) في (قلب) على أن التكبر صفة للقلب .

« وإنما وصف القلب بالتجبر والتكبر ؛ لأنه منعهما »^(٢) .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ
الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ »^(٣) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ
لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَان »^(٤) .

وقد قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي لِأُحِبُّ الْجَمَالَ ،
حَتَّى لِأُحِبَّهُ فِي شِرَاكِ نَعْلِي ، وَعَلَاقَةِ سِوْطِي ، فَهَلْ تَخْشَى عَلَيَّ الْكِبَرَ ؟ فَقَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قَالَ : عَارِفًا لِلْحَقِّ ، مُطْمَئِنًّا

(١) قراءة أبي عمرو وابن ذكوان . انظر : النشر في القراءات العشر ٣٦٥/٢ .

(٢) انظر : السراج المنير ٤١٣/٢ .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانہ عن ابن مسعود ، وفي
رواية « لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » ٩٣/١ ، وأخرجه
غيره من أهل السنن بألفاظ متقاربة .

انظر : سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ ، وسنن
الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ٣٦٠/٤ ، ٣٦١ ، وسنن ابن
ماجه ، المقدمة ، باب في الإيمان ٣٥/١ ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر
والتواضع ٥٥٧/٢ ، مسند الإمام أحمد ٣٩٩/١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر رض الله عنهما ١١٨/٢ ، وذكره
الهيثمي في مجمع الزوائد ، وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » ٩٨/١ ،
وذكره السيوطي في الجامع الصغير ونسبه لأحمد والأدب المفرد ، وذكره المنذري
في الترغيب والترهيب ، وقال : رواه الطبراني في الكبير واللفظ له ورواته محتج بهم
في الصحيح والحاكم بنحوه ، وقال : « صحيح على شرط مسلم » . انظر : الترغيب
٥٦٩/٣ ، قلت : قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وقال الذهبي : على
شرط مسلم .

انظر : المستدرک ، کتاب الإيمان ٦٠/١ .

إليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ الْكِبَرُ هُنَاكَ ، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ أَنْ تَغْمِطَ النَّاسَ ، وَتَبْطُرَ الْحَقَّ »^(١) .

فمن هذه الأحاديث وأمثالها يستفاد أن الأصل في الكبر هو : خُلُق النفس ، فلا يُتصور أن يظهر الكبر على الجوارح دون أن يكون في النفس منه شيء ، ولكن قد يحصل العكس ، أي : قد يتعظم الإنسان في نفسه ولا يظهر أثر ذلك على جوارحه ، وذلك حين يجاهد نفسه فلا يوافق هواها ، ويغالبها فلا يحقق لها رغبتها وشهوتها تلك ؛ وليس كل أحد يستطيع ذلك ، فالأمر شاق وعصيب يحتاج إلى قوة إيمان وصدق عزيمة وعظيم صبر ، والموفق من ثبته الله تعالى وأمدّه بعونه ونجاه من غوائل نفسه وسلمه من شرورها .

وقد لا تكون المجاهدة والمغالبة هي السبب في عدم ظهور أثر الكبر على الجوارح ، إذ ربما يجبن الذي في نفسه كبر عن إبراز كبره لأجل وجوده في بيئة لا تمكنه من ذلك بأي وسيلة من الوسائل .

ثانياً : عناصر الكبر ثلاثة :

عناصر الكبر ثلاثة :

- ١ - مُتَكَبِّرٌ - بكسر الباء ، وهو المتخلف بخُلُق الكبر .
- ٢ - ومُتَكَبِّرٌ عليه ، وهو من وقع عليه أثر الكبر .
- ٣ - ومُتَكَبِّرٌ به ، وهو السبب الداعي للكَبَر ، من : عِلْم ، أو عمل ، أو جاه ، أو مال ، أو حَسَب ، أو نسب ، أو قوة ، أو جمال ، كما سيأتي تفصيله في موضعه بإذن الله تعالى .

هذا هو الأصل في خُلُق الكبر ، وقد تَشُدُّ حالة من حالاته فيفتقد فيها أحد عناصر الكبر المذكورة ، كأن يفتقد السبب الداعي له مثلاً ، ومثال ذلك ما جاء في صحيح مسلم^(٢) عن أبي هريرة^(٣) رضي الله عنه أن رسول الله صلى

(١) الحديث في مصنف الصنعاني ، قال : أخبرنا عبدالرزاق عن معمر عن قتادة أن رجلاً

قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحديث . انظر : المصنف ٢٦٨/١١ . **والحديث ضعيف .**

(٢) الإمام الحافظ الثبت الحجة الصادق أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، ولد سنة أربع ومائتين ، سمع بمكة والكوفة والعراق ومصر ، شيوخه وتلامذته كثير ، مجمع على جلالته وإمامته وعلو مرتبته وحذقه في صناعة الحديث ، ورع عابد ، من تصانيفه : الصحيح ، الكتاب المسند الكبير على أسماء

<==

الله عليه وسلم قال : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخُ زَان ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ »^(١) ، وفي حديث آخر عند النسائي^(٢) : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّيْخُ الزَّانِي وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ وَالْإِمَامُ الْكَذَّابُ »^(٣) ، وفي حديث آخر عند النسائي كذلك : « أَرْبَعَةٌ يَبْغِضُهُمُ اللَّهُ : الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ ،

الرجال ، العلل ، أوهام المحدثين ، وسواها . توفي في رجب سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور عن بضع وخمسين سنة .
انظر : سير أعلام النبلاء ٥٥٧/١٢ .

(٣) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر الصحابة رواية لحديثه ، الإمام الفقيه المجتهد ، الحافظ ، عبدالرحمن بن صخر الدوسي -على الأرجح- حدث عن أبي وأبي بكر وعمر وعائشة وأسامة رضي الله عنهم وغيرهم ، وحدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين ، أسلم عام خيبر سنة سبع ، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمه أن يحببهما إلى المؤمنين ويحببهم إليهما . استعمله عمر رضي الله عنه على البحرين فما عرف عنه إلا التواضع ، وتذكر حاله الأولى رضي الله عنه وأرضاه . توفي عام سبع وخمسين ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع . والله أعلم .
انظر : سير أعلام النبلاء ٥٧٨/٢ .

(١) صحيح مسلم في ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم إسبال الإزار ١٠٣/١ .

(٢) الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام ناقد الحديث أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي ، ولد بنسأ عام ٢١٥ هـ ، وطلب العلم في صغره ، سمع من خلق كثير ، كان من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر ونقد الرجال وحسن التأليف . جال في طلب العلم في خراسان والحجاز ومصر والعراق والجزيرة والشام والثغور ، رحل إليه الحفاظ ، شافعي المذهب ، ورع متحرّي مجتهد في العبادة ، شهم ، يقيم السنن المأثورة ويحترز عن مجالس السلطان والانبساط في الأكل . توفي بفلسطين لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاث مائة ، من تصانيفه السنن ومسند علي والضعفاء وغير ذلك .

انظر : سير أعلام النبلاء ١٢٥/١٤ .

(٣) سنن النسائي ، كتاب الزكاة ، باب الفقير المختال ٨٦/٥ .

والشيخ الزاني ، والإمام الجائر»^(١) .

إنك حين تبحث عن السبب الداعي للكبر هاهنا لن تجده ، فالمتكبر في هذه الحالة فقير معدم ، وذو عيال لا يملك من حطام الدنيا ما يُطغيه ، فيم يتكبر؟ فهو إذاً متكلف للكبر ، وذلك يدلّ على طغيان نفسي عظيم ، لذا كان الكبر عظيماً ، وهو ممن فقد أسبابه أعظم وأشنع .

قال الإمام النووي -عليه رحمة الله- عند شرح حديث مسلم : «وأما تخصيصه صلى الله عليه وسلم : الشيخ الزاني ، والملك الكذاب ، والعائل المستكبر ، بالوعيد المذكور ، فقال القاضي عياض^(٢) : سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده ، وإن كان لا يعذر أحد بذنب ، لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ولادواعي معتادة أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى ، وقصد معصيته لالحاجه غيرها ، فإن الشيخ لكمال عقله وتمام معرفته بطول مامر عليه من الزمان ، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء ، واختلال دواعيه لذلك عنده ما يُريحه من دواعي الحلال في هذا ، ويخلي سرّه منه ، فكيف بالزنا الحرام ، وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية وقلة المعرفة ، وغلبة الشهوة ، لضعف العقل وصغر السن ، وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته ، ولا يحتاج إلى مداهنته ومصانعته ،

(١) سنن النسائي ، كتاب الزكاة ، باب الفقير المختال ٨٦/٥ .

(٢) هو : أبو الفضل بن موسى بن عمرو بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي ، ولد سنة ٤٧٦ ، إمام الحديث في وقته ، وأعرف الناس بعلومه ، وبالنحو واللغة ، وكلام العرب ، وأنسابهم وأيامهم .

ولي قضاء سبته ثم غرناطة ، له من التصانيف البديعة الشيء الكثير ، منها : الشفا في شرف المصطفى ، والإكمال في شرح صحيح مسلم ، ومشارك الأنوار في تفسير غريب الحديث ، وغيرها .

توفي ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة ، ودفن بمراكش سنة ٥٠٤هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠/٢١٦ — ٢١٨ .

فإن الإنسان إنما يُداهن ويُصانع بالكذب وشبهه من يحذره ويخشى أذاه ومعاتبته ، أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة ، وهو غني عن الكذب مطلقاً؛ وكذلك العائل الفقير قد عدم المال ، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء : الثروة في الدنيا^(١) ، لكونه ظاهراً فيها وحاجات أهلها إليه ، فإذا لم يكن عنده أسبابها ، فلماذا يستكبر ويحتقر غيره؟ ، فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني ، والإمام الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى^(٢) ، والله أعلم. ١.هـ-^(٣) .

وقد يوجد المتكبر ، والمتكبر به ، ولكن يفقد المتكبر عليه ، وذلك عندما يبقى الكبر خلقاً باطنياً لا يظهر أثره على سلوك صاحبه الظاهري ، بمعنى أنه قد يستعظم نفسه ، ولا يحتقر غيره أو يزدريه ، وحينئذ يقال عنه : في نفسه كبر ، ولا يقال : متكبر ، لأن التكبر إظهار عظم الشأن^(٤) ، وذلك يستدعي متكبراً عليه ، والله أعلم .

ثالثاً :

أ - لا بد في تصوير حقيقة الكبر من وجود متكبر عليه ، إذ لا يوصف الإنسان أو يُتَصَوَّر أن يتكبر إلا مع وجود غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة من الصفات^(٥) التي لا تكون صفات كمال على الإطلاق - كما يظن المتكبر - بل لا بد من اقترانها بالتقوى ، وبدونها لا وزن لها عند الله تعالى ، بل تظل قيماً أرضية هابطة لا يلتفت إليها المؤمن ولا يلقي لها بالاً .

ب - ولا يكفي أن ينظر الإنسان إلى نفسه بعين الاستعظام ، ليوصف بأنه متكبر ، فإنه مع ذلك قد يرى أن غيره أعظم منه ، أو قد يراه مساوياً له ، فلا يتكبر عليه^(٦) .

(١) الثروة ليست سبباً وحيداً في الخيلاء والتكبر ، وإنما هناك أسباب أخرى ستعرفها في مكانها إن شاء الله تعالى .

(٢) وهذا غاية الطغيان .

(٣) شرح النووي على مسلم ١٧/٢ .

(٤) انظر : الفروق اللغوية ١٠٤ .

(٥) انظر : الإحياء ١٤٤/٤ .

(٦) انظر : الإحياء ١٤٤/٤ .

إذا متى يوصف الإنسان بأنه متكبر؟

قال الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - : ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ، ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل خلق الكبر؛ فهذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسببه ، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو : خلق الكبر ، فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بعين الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز ، فالكبر عبارة عن : الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضاً عزة وتعظماً* .

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما : الكبر بتلك العظمة عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّاهُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦] كما سبق ذكر ذلك .

وما من شك أن تلك النفخة التي ينتفخها المتكبر هي من الشيطان الرجيم ، والتي كانت سبباً في استكباره عن أمر الله له بالسجود لآدم عليه السلام ، وقال : أنا خير منه ، فلُعِنَ إلى يوم الدين .

إن الشيطان ينفخ في نفس الإنسان ليعظمها له ، ويصغر الناس في عينيه ، ومن ثم يدخله في الكبر ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيز بالله من الشيطان من نفخه ونفته وهمزه^(١) ، قيل : نفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه الموتة^(٢) .

وتلك النفخة الشيطانية هي التي خشىها عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ذلك الرجل الذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح ، فقال له : أخشى أن

(١) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ١٧٦/١ ، عن جبير بن مطعم ، وسنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري ، كتاب الصلاة ، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة ، وسنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب الاستعاذة في الصلاة ٢٦٥/١ عن جبير ، وعنه كذلك أخرجه الإمام أحمد ، كما أخرجه عن ابن مسعود ، وأبي أمامة الباهلي ، وفيه " وشركه " بدل " ونفثه " . المسند ٢٥٣/٥ ، والحديث في صحيح ابن حبان عن جبير .

(٢) أي الجنون ، وإنما سماه همزا ، لأنه جعله من النخس والغمز ، وكل شيء دفعته فقد غمزته . انظر : غريب الحديث ، لأبي عبيد ٧/٣ .

تنتفخ حتى تبلغ الثريا^(١) ، أي : أخشى أن ينفخ الشيطان في نفسك حين ترى الناس وقد التفوا حولك يطلبون ماعندك فتستعظمها حتى تبلغ من الكبر درجة عالية .

فالكبر إذاً نفخة شيطانية تطمس البصيرة ، وتحجب عنها نور المعرفة ، فلا تميز بين الحق والباطل ، فينبغي الحذر منها كل الحذر ، والبعد عنها غاية البعد ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦] ، وينبغي التمسك بخلق التواضع ، خلق عباد الله المتقين من الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، ومن اهتدى بهديهم من الصالحين الربانيين ، ففي ذلك عزّ وسعادة في الدنيا والدين .

رابعاً : يترتب على الكبر أمران هما أبرز مظاهره في السلوك وأصل كل بلية من بلاياه :

الأمر الأول الذي يترتب عليه هو : ردّ الحق ، مع العلم به ، سواء أكان هذا الحق من حقوق الله جل جلاله ، أو من حقوق عباده ، كما قال تعالى عن المكذبين بآياته : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤] ، فلا يرد الحق ويدفعه ويراه باطلاً إلا متكبر عظمت نفسه عنده فانتفش وانتفخ حتى رأى أنه أعلى من الحق ، وأرفع من الإذعان له ، كما هو الحال من إبليس -لعنه الله- الذي رأى أنه أعلى من آدم عليه السلام وأفضل ، فأبى أمر الحق سبحانه وتعالى بالسجود وقال باستعلاء وتعظم : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [ص: ٧٦] ، وكما هو الحال من جنود إبليس وحزبه المأ المستكبرين من كل أمة من الأمم الذين لم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به رسل الله تعالى من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ، وقادهم كبرهم إلى دفعه ورده وتسفيهه ، بل ومحاربتهم ومقاتلة أهله ومناصبتهم العدا ، وذلك غير خاف يلخصه ويبينه قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

(١) انظر : الإحياء ٤/ ١٥٠ .

آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أُولَؤُ جِتُّكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا
وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿[الزخرف: ٢٣، ٢٥] .

وكما هو حال كثير من المتناظرين في مسائل العلم والدين الذين
لا يهتمهم إظهار الحق وإحقاقه بقدر ما يهتمهم إظهار أنفسهم، فتراهم لا يقبلون
الحق، بل يسفهونه، ويدفعون في وجهه بعد أن تبين لهم أنه الحق، وفي
المقابل يصرون على باطلهم، وينصرونه استعلاءً وتعظماً به، وإن تيقنوا أنه
باطل، يخشون أن ينقص رجوعهم إلى الحق من مكانتهم وأقدارهم، وخابوا
وخسروا، فمتى كان الرجوع إلى الحق وترك الباطل منقصة؟! بل هو العلو
بذاته والرفعة والعزة بعينها ولكن القوم قد أعمى الكبر بصائرهم، وران على
أفئدتهم فهم لا يفقهون .

أما الأمر الثاني الذي يترتب على الكبر فهو: احتقار الناس، وازدراؤهم،
والانتقاص من أقدارهم، وإهانتهم بالقول والفعل، فلا يفعل ذلك ولا يصدر إلا
ممن قد عشعش الكبر في نفسه فهو يرى أنه خير ممن احتقره وازدراه.

ألا ترى أن قائد المتكبرين وقودتهم إبليس الرجيم، رأى أنه أكرم من
آدم عليه السلام وأفضل، فقال معظماً نفسه مفتخراً بأصل خلخته محتقراً آدم
عليه السلام وما خلق منه: ﴿قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ
طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، وقال مشيراً باحتقار إلى آدم عليه السلام: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ
خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ
عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] .

ثم ألا ترى إلى ورثة إبليس في كبره وتعاليه على مر الزمن يغمزون
المؤمنين ويسخرون منهم ويحقرونهم مستعلين متطاولين عليهم؟!

هاهم الملاء المستكبرون من قوم نوح عليه السلام يسخرون من المؤمنين
ويحقرونهم ويقولون له: ﴿أَنْتُمْ مِنْ لَدُنْكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]،
ويقولون أيضاً: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا
بَادِيَ الرَّأْيِ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] .

وهاهم قوم صالح يحذون حذو أسلافهم قوم نوح فيسخر المتكبرون
منهم بالمؤمنين من المستضعفين، ويؤثرون الكفر أنفةً أن يتساووا بالإيمان مع

المستضعفين، يظهر ذلك جلياً في الحوار الذي دار بين المستكبرين والمستضعفين وسجله القرآن الكريم عليهم، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦]، أليست هذه مقولة تنفث كبراً وغروراً؟ بلى.

وهاهم كفار قريش أنفوا من الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأوا حوله الضعفاء وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه ليجلسوا هم إليه^(١)، وقالوا بكل كبير وخطرة على المؤمنين وبكل حقيرة لهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، قالوا ذلك بظنهم الكاذب وزعمهم الباطل أنهم هم أولى بالسبق إلى الخيرات والفضائل وأحق بها، لأنهم السادة العظماء أولوا الجاه والثراء، وذووا الحسب والنسب والوجاهة، فإذا سبق إليها غيرهم من الضعفاء فليس هي خيرات ولا فضائل، وهم الذين يقولون كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، وما قالوا ذلك إلا استكباراً وتعظماً عليهم وحقيرة لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، أي: هو سبحانه وتعالى أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم،

(١) أخرج مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا... الحديث.

انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ١٨٧٨/٤. والحديث عند ابن ماجه بلفظ: قال: نزلت هذه الآية فينا ستة: فيّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال. قال: قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لانرضى أن نكون أتباعاً لهم، فاطردهم عنك، قال: فدخل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

انظر: سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء ٥٤٥/٢.

فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم^(١) ، وذلك أن ميزانه العدل الذي يزن به عباده ويفضل به بعضهم على بعض عنده تبارك وتعالى لا يكون بالحسب والنسب والوجاهة والسيادة ولا باللون والجنس ، إنما يكون بالتقوى لا بغيرها ، وفي الحديث : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(٢) .

وخلاصة القول في هذه المسألة : أن احتقار الناس والهزاء بهم وإهانتهم وانتقاص أقدارهم هو ميراث إبليس اللعين يتوارثه المتكبرون على شاكلته في كل زمان ، ولعل حال متكبري زماننا خير شاهد على ذلك ، فانظر إليهم تراهم كذلك .

انظر إلى متكبر بعلمه ، تراه في غاية الحقيرة لغيره من طلبة العلم ، أو من العامة ، وانظر إلى متكبر بماله ، تراه في غاية الاسترذال للفقراء والمساكين ، وانظر إلى متكبر بجنسه أو بلونه ، تراه ينبز غيره بأجناسهم وألوانهم حقيرة واستنقاصاً لهم ، وانظر إلى متكبر بجاهه وسلطانه ، تراه لا يقيم لغيره من الناس وزناً ولا يرى لهم قدراً .

انظر إلى كل متكبر بأي صورة من صور الكبر ، تراه دائم الغمز واللمز والسخرية بغيره ، لأنه لا يراهم شيئاً ، ويرى ويحسب نفسه شيئاً .

انظر إلى كل ذلك واستعد بالله أن تكون منهم أو أن يلحقك أذاهم أو يؤذيك تنتهم ، وكن باستعاذتك مؤتمراً بأمر الله تعالى لنييه صلى الله عليه وسلم حين قال له : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦] .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٤٠/٣ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ١٩٨٧/٤ .

المبحث الثاني : في الفروقات .

بالنظر إلى معاني ألفاظ ورد ذكرها في نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة تبين أن بينها وبين لفظة الكبر ترادف أو تقارب ، فكان من المناسب والمهم أن تُبحث تلك الألفاظ بشكل موجز يتبين من خلاله صلتها بالكبر وأوجه الاتفاق والاختلاف بينهما إن وجدت .

وتلك الألفاظ المشار إليها والمقصودة بهذا المبحث هي :

الاستكبار ، الاستنكاف ، الأشر ، الأنفة ، البذخ ، البطر ، البغي ، التبختر ، التجبر ، التطاول ، التكبر ، التمطي ، الحميَّة ، الخيلاء ، الزهو ، الصَّعر ، الطغيان ، العُتُو ، العُجْب ، العدوان ، العزة ، العظمة ، العُلُو ، الفخر ، الفرح ، المدح .

وبإذن الله تعالى سأذكر هذه الألفاظ مرتبة أبجدياً إلا ما بدا لي مناسبة ذكره في مقام يقتضي تقديمه أو تأخيره ، فإن وفقت في منْحاي فذلك محض فضل الله تعالى وتوفيقه ، وإن أخطأت فذلك هي طبيعة البشر الضعفاء الخطائين ، والله تعالى هو المرجو أن يغفر ويستتر .

الاستكبار والاستنكاف والتكبر والكبر :

تدلّ هذه الألفاظ جميعها على معنى التعظّم والاستعلاء ، غير أن لفظة الكبر تبدو أقرب إلى وصف حركة النفس ، أي : الكبر الباطن ، بينما لفظة التكبر هي أقرب إلى الخُلُق الظاهر على الجوارح ، وهو أثر الكبر الباطن^(١) . وقد عرّف أبوهلال العسكري الكبرَ بأنه : إظهار عظم الشأن ، والتكبر بأنه : إظهار الكبر^(٢) .

أما الاستكبار فهي لفظة تدلّ على الطلب ، أي : يطلب الإنسان أن يكون كبيراً ، وهذا الطلب قد يكون بوسائل محسوسة كالجدّ في طلب العلوم ، أو التعلق بالمظاهر الدنيوية من المال والجاه والحسب وغيرها ، وقد يكون بوسائل غير محسوسة كالرياء والعُجب والحسد والنفاق... وغيرها . وذكر أن الاستكبار هو : شدة الكبر ، وأن السنين والتاء فيه للعد

(١) انظر : مبحث تعريف الكبر في الاصطلاح ، وكلام الغزالي في ذلك .

(٢) انظر : الفروق اللغوية ٢٠٤ .

والحسبان ، فمعنى : استكبر : عد نفسه كبيراً ، أي : عظيماً ، وما هو به . أو تكون السين والتاء فيه للمبالغة . فمعنى : استكبر : اتصف بالكبر^(١) .

والاستنكاف كالاستكبار يدل على الطلب ، غير أن في الاستنكاف معنى الأنفة ، وقد يكون الاستكبار طلب من غير أنفة^(٢) ، فلا استنكاف أشد من الاستكبار ، وهو : التكبر والامتناع بأنفة^(٣) .

ويذكر الإمام الأصفهاني أن هذه الألفاظ تتقارب معانيها ، ثم يفصل ويقول : « فالكبر هو الحالة التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره »^(٤) .

وهذا ما أشرت إليه آنفاً من أن لفظة الكبر تخصّ ما في النفس منه خاصة عند اجتماعها مع لفظة التكبر ولفظة الاستكبار ، أما عند الافتراق فكل واحدة تدل على الأخرى .

ثم ذكر الأصفهاني أن الاستكبار يكون على وجهين : أحدهما : تحرّي الإنسان وطلبه أن يصير كبيراً ، وهذا أمر محمود متى كان على ما يجب ، وفي المكان الذي يجب ، وفي الوقت الذي يجب^(٥) .

أقول : وهذا هو الطلب بالوسائل المحسوسة ، ومعناه : أن الإنسان قد يسعى ويجتهد ويعمل ويثابر لينال منزلة عالية ومكانة مرموقة في مجتمعه وبين أقرانه ، وهو أمر لا شيء فيه ، بل هو من باب التنافس الشريف المحمود الذي يعود على المجتمع والأمة بالخير والنماء شريطة أن يسعى لنيل تلك المكانة العالية من وجهها الصحيح ، وبالوسائل الصحيحة ، وبالطرق المستقيمة ،

(١) انظر : التحرير والتنوير ١/ القسم الثاني ص ٤٢٤ ، ١١١/٨ .

(٢) انظر : الفروق اللغوية ص ٢٠٦ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ٦/ ٥٩ .

(٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٤٢١ .

(٥) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٤٢١ .

ليكون أهلاً لها بحق ، لا أن يسعى لنيلها بالأساليب والطرق الملتوية بغية الوصول إلى شيء لا يستحقه وليس له بأهل ، ثم بعد ذلك عليه أن يحذر غاية الحذر حين يتبوأ تلك المنزلة الرفيعة من أن تؤدّي به إلى خُلُق الكبر المذموم ، الذي نتيجه بطر الحق وغمط الناس ، فتلك هي بداية النهاية وبداية السقوط إلى أسفل دركات الذل والمهانة .

قال الأصفهاني : والثاني : -أي : الوجه الثاني للاستكبار- أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له ، وهذا هو المذموم^(١) .

وهذا الذي ذكر الأصفهاني يأتي على صورتين :
الأولى : أن يتكلف الكبر تكلفاً ، فيُدي من نفسه وينسب لها مكانة هو أدري أنه ليس من أهلها -أي : بمعنى أوضح : يتكبر حين يفقد دواعي التكبر .

الثانية : أن يرى نفسه أكبر من غيره بما ملك من زينة الدنيا ، كالجاه ، والمال ، والولد ، والقوة ، والحسب ، والجمال وغيرها ، أي : يتكبر بهذه الأمور ظناً منه أنه بها يعلو ويسمو .

وكأمثلة على الصورة الأولى نذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ وَالزَّهْوُ ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ غَلَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، حَتَّى كَانَتِ الْمَرْأَةُ الْقَصِيرَةُ تَتَّخِذُ خَفِينَ مِنْ خَشَبٍ ، تَحْشُوهُمَا ثُمَّ تَوَلِّجُ فِيهِمَا رَجُلَيْهَا ، ثُمَّ تَعْمَدُ إِلَى جَنْبِ الْمَرْأَةِ الطَّوِيلَةِ فْتَمْشِي مَعَهَا ، فَإِذَا هِيَ قَدْ سَاوَتْ بِهَا أَوْ كَانَتْ أَطْوَلَ مِنْهَا »^(٢) .

ومن هذه الصورة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَرْبَعَةٌ يَبْغِضُهُمُ اللَّهُ : الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي ، وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ »^(٣) .

ومنها حديث : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »^(٤) .

(١) انظر : المصدر السابق .

(٢) رواه الطبراني في الكبير ٣٢٢/٧ (ح ٧٠٩٤) .

(٣) سنن النسائي ، كتاب الزكاة ، باب الفقير المختال ٨٦/٥ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار
<=

قوله : المتشبع ، أي : المتزين بما ليس عنده أو بأكثر مما عنده ، يتكثر بذلك عند الناس ، ويتزين بالباطل ، كالمرأة تكون للرجل ولها ضرة فتتشبع بما تدعي من الحظوة عند زوجها^(١) ، تريد بذلك غيظ صاحبها وإدخال الأذى عليها ، وكذلك هذا في الرجال أيضاً.

وأما قوله : « كلابس ثوبي زور » ، فإنه الرجل يلبس الثياب تشبه ثياب أهل الزهد في الدنيا ، يريد بذلك الناس ، أي : يريد أن يظهر لهم أنه متصف بتلك الصفة وليس كذلك ، ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه من ذلك ، فهذه ثياب زور ورياء^(٢) .

قال النووي : « وقيل : هو كمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنهما له ، وقيل : هو من يلبس قميصاً واحداً ، ويصل بكميه كمين آخرين ، فيظهر أن عليه قميصين ، وحكي^(٣) : أن المراد هنا بالثوب الحالة والمذهب ، والعرب تكني بالثوب عن حالة لابسها ، ومعناه : أنه كالكاذب القائل ما لم يكن ، وقولاً آخر : أن المراد الرجل الذي تطلب منه شهادة زور فيلبس ثوبين يتحمل بهما فلا ترد شهادته لحسن هيئته ، والله أعلم^(٤) .

وخلاصة هذه الأقوال : أنه المتكلف ما ليس له مع علمه أنه متكلف له .

الضرة ٧/٧٠ ، عن أسماء رضي الله عنها ، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس ، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره ، والمتشبع بما لم يعط ٣/١٦٨١ ، عن عائشة رضي الله عنها .

(١) وهذا في صريح الحديث السابق الذي نصه : عن أسماء أن امرأة قالت يا رسول الله ، إن لي ضرة ، فهل علي جناح إن تشبعتُ من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » رواية البخاري ٧/٧٠ .

(٢) انظر : غريب الحديث ٢/٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٣) نسب النووي هذا القول إلى الخطابي حمّد بن خطاب البستي أبي سليمان ، الفقيه الحافظ الأديب ، صاحب التصانيف الحسنة ، مثل : معالم السنن ، أعلام الحديث ، المتوفى سنة ٣٨٨هـ .

انظر : الأنساب ٢/٣٨٠ ، الرسالة المستطرفة ص ٤٤ .

(٤) شرح النووي على مسلم ١٤/١١١ .

أما الصورة الثانية وهي : رؤية النفس أكبر من الغير بسبب مال أو جاه أو علم...الخ ، فمن الأمثلة عليها : الملاء المستكبرون من أقوام الرسل المتعالون بأموالهم وأولادهم وسلطانهم وأحسابهم وأنسابهم...من لدن نوح عليه السلام إلى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم وكأفراد يذكر في هذه الصورة رأس المتكبرين إبليس عليه لعنة الله تعالى وأتباعه نمرود وفرعون وقارون وصاحب الجنتين وأبوجهل والوليد بن المغيرة^(١)...، وغيرهم ممن غرّهم الجاه والمال والقوة والحسب...الخ ، فاستطالوا بها واستكبروا وكانوا قوماً مجرمين قديماً وحديثاً .

ثم يذكر الراغب الأصفهاني أن التكبر كذلك يكون على وجهين : محمود ، ومذموم .

أما المحمود فهو في حق من وصف به لكون أفعاله الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره^(٢) ، وعلى هذا وصف الله جل جلاله نفسه بالتكبر والكبرياء ، فقال تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحاثية: ٢٣] .

فالتكبر المحمود هو في حق الله تبارك وتعالى لأن محاسنه عز وجل لأول لها ولا آخر ، فني الأولون ويفني الآخرون إنسهم وجنهم وملكهم عاجزين عن حصرها وإدراكها ، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، هو الأول فلا قبله شيء ، وهو الآخر فلا بعده شيء ، وهو الظاهر فلا فوقه شيء ، وهو الباطن فلا دونه شيء ، له المحامد كلها عز شأنه وجل ثناؤه .

وأما التكبر المذموم فيذكر الإمام الأصفهاني أنه في حق من كان متكلفاً لذلك متشبعاً ، وذلك في وصف عامة الناس^(٣) ، وهذا ما جاء ذمه في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) يأتي الحديث عنهم في مبحث خاص .

(٢) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٤٢٢ .

(٣) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٤٢٢ .

تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مَسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿[الزمر: ٦٠]﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ
فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ، وكقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ
مِّنْ كِبَرٍ»^(١) .

إذا فالتكبر المذموم هو في حق العباد ، لأنهم أهل كل ضعف وعجز
وفقر ، وإن كان لأحدهم شيءٌ من المحاسن فمن الله تعالى ، لا من نفسه ،
فالفضل كله لله ، والأمر كله بيده ، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا
مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانہ ، من حديث ابن مسعود
٩٣/١ ، وأخرجه أبوداود في سننه في كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ ،
وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ٣٥/١ ، وفي كتاب
الزهد باب البراءة من الكبر ٥٥٧/٢ ، وأخرجه أحمد ٣٩٩/١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ،
٤٥١ .

الأنفة والحمية والكبر :

١ - الأنفة :

في اللغة : أنف منه - كفرح - يأنف أنفاً وأنفةً - محركتين ، بمعنى : حمي ، وقيل : استنكف^(١) .

وأنف من الشيء إذا كرهه وشرف نفسه عنه ، وأنف الطعام وغيره : كرهه^(٢) .

وأصل الأنف الجارحة ، ثم يسمى به طرف الشيء وأشرفه ، فيقال : أنف الجبل وأنف اللحية ، ونسبت الحمية والغضب والعزة والذلة إلى الأنف ، فقيل : شمع فلان بأنفه للمتكبر ، وترب أنفه للذليل ، وأنف فلان من كذا بمعنى : استنكف ، وقيل : الأنفة : الحمية^(٣) .

وفي الحديث : فحامي من ذلك أنفاً^(٤) - بفتح النون - أراد : أخذته الحمية من الغيرة والغضب . وقيل : هو أنفاً - بسكون النون - للعضو ، أي : اشتد غيظه وغضبه ، وهذا من أحسن الكنايات ؛ لأن المغتاض يرم أنفه

(١) انظر : لسان العرب ، باب الفاء ، فصل الهمزة ٢٥٨/١٠ ، القاموس المحيط ص ١٠٢٥ .

(٢) انظر : لسان العرب ، باب الفاء ، فصل الهمزة ٢٥٨/١٠ ، النهاية في غريب الحديث ٧٦/١ .

(٣) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٨ .

(٤) أخرج البخاري أن معقل بن يسار رضي الله عنه كانت أخته تحت رجل ، فطلقها ثم خلى عنها وهو يقدر عليها ، حتى انقضت عدتها ، ثم خطبها ، فحامي معقل من ذلك أنفاً ، فقال : خلى عنها وهو يقدر عليها ثم يخطبها؟! فحال بينه وبينها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٢] ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه ، فترك الحمية واستقاد لأمر الله .

انظر : صحيح البخاري ، كتاب الطلاق ، باب وبعلتني أحق بردهن ١١٣/٧ ، وأطراف الحديث في كتاب النكاح ، باب من قال : لانكاح إلا بولي ٣٠/٧ ، وفي كتاب التفسير باب ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٢] ٣٥١/٦ .

ويَحْمَرُّ^(١) .

وعلى ضوء هذا فالأنفة هي الحميَّة وكراهة الشيء واستشراف النفس عنه .
أقول : فالأنفة على ضوء هذا المعنى لها جانبان يمدح أحدهما ويذم الآخر .
فالممدوح : كراهة الأمر السيء المذموم واستشراف النفس عنه ترفعاً
عن مواطن الذلة والصغار .

والمذموم : كراهة الأمر الحق الحسن والاستنكاف عنه تكبراً وتعظماً ،
وهذا ما وصف بضده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففي الحديث أنه صلى
الله عليه وسلم كان لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له
الحاجة^(٢) . وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم وعدم تعظمه ، فإن المتعظم
يأنف من فعل ذلك ، يأنف أن يخالط الضعفة والمساكين وأن يمشي أو يأكل
معهم أو يخدمهم بقضاء حاجة لهم... ، لأنه يرى نفسه أرفع من أن يفعل ذلك
استحقاراً لهم وتعظماً عليهم .

فالأنفة على هذا الوجه رديف الكبر والله أعلم .

٢ - الحميَّة :

فعيلة ، وهي : الأنفة ، يقال : حميت عن كذا حميَّة ومحميَّة -
بالتشديد- إذا أنفت منه ، وداخلك عار أن تفعله^(٣) ، وفلان ذوحمية ، أي : ذو
أنفة وغضب^(٤) .

وقد فسرت الحمية كذلك بالجبرية^(٥) ، والغضب ، والغيرة^(٦) .

وورد ذكر الحمية في آية من كتاب الله تعالى هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ
جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٢٦] ، وهي : آية تخبر

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث ٧٦/١ .

(٢) أخرجه النسائي عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه ، في كتاب الجمعة ، باب
ما يستحب من تقصير الخطبة ١٠٩/٣ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٩٠/١٦/٨ .

(٤) انظر : فتح القدير ٥٤/٥ .

(٥) انظر : زاد المسير في علم التفسير ٤٤١/٧ .

(٦) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ١٣٢ ، النهاية في غريب الحديث ٤٤٧/١ ،

فتح القدير ٥٤/٥ .

عن السبب الذي جعل أهل مكة يمنعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين من دخولها ، وهو الحمية التي جعلوها راسخة ثابتة في قلوبهم^(١) ، وذكر أن حميتهم تلك أنهم قالوا : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا في منازلنا فتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا ، واللات والعزى لا يدخلونها علينا .

وقيل : حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح بيسم الله الرحمن الرحيم .

وقيل : حميتهم : عصيتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها^(٢) .

وفي الحديث الذي مرّ قريباً « فحمى من ذلك أنفاً » ، أراد أنه أخذته الحمية من الغيرة والغضب .

ومما سبق نلاحظ أن كل واحدة فسرت بالأخرى فهماً بمعنى^(٣) .
وصلتها بالكبر كما ذكرت آنفاً عند ذكر الأنفة ، وأضيف أنه يمكن عدهما من مظاهر الكبر وآثاره على السلوك ؛ فإن المتكبر يشتد غضبه لأنفته سبب ، بل يغضب ويحمر أنفه في مواطن لاوجه للغضب فيها إلا التعظم والخيلاء ، كأن يُوجّه إلى صواب أخطأ طريقه ، أو يُنبه إلى خطأ وقع فيه ، فيغضب أن يوجهه إلى الصواب أو ينبهه على الخطأ من يرى نفسه خيراً منه وأرفع .

والمتكبر يأنف ويكره الأمر الحسن إذا كان من غيره خشية أن ينال به ذلك الغير ذكراً وثناءً ، يريد هو لتعظمه أن لا يكون لسواه وإن لم يكن يستحقه ، بل هو حقّاً لا يستحقه ، حيث طلبه بالكبر والخيلاء ، وليس بذلك يطلب المجد والذكر وحسن الثناء ، بل بضده من التواضع خلق الرسل والأتقياء .

(١) انظر : فتح القدير ٥/٥٤ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٦/٨ ، فتح القدير ٥/٥٤ .

(٣) ولذا ذكرتهما معا .

البذخ والكبر :

قال في القاموس المحيط : « البَذْخُ -محركة^(١)- : التكبر ، بذخ كفرح ، وتبذخ : تكبر وعلا^(٢) .

وقال في النهاية : « البَذْخُ -بالتحريك- : الفخر والتطاول . والباذِخُ : العالي ، ويجمع على : بُذُخ^(٣) .

وذكر الإمام النووي -رحمه الله تعالى- عند شرحه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخيل الذي فيه : « وأما الذي عليه وزر ، فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبذخاً ورياء الناس فذلك الذي هي عليه وزر » . أن البذخ بمعنى : الأشر والبطر ، بعد ذكره أن الأشر هو : المرح واللجاج ، والبطر هو : الطغيان عند الحق^(٤) .

ومن خلال ماذكر فإن البذخ لا يبعد عن الكبر ، بل كما مر آنفاً قد فسر البذخ بأنه التكبر .

كما فسر أنه الفخر والتطاول ، وهما من أبرز مظاهر التكبر ، وكذا المرح والبطر .

والفخر والتطاول والأشر والبطر والمرح مما سيأتي بيانه في هذا المبحث بإذن الله تعالى .

(١) بالفتح في الباء والذال المعجمة . انظر : شرح النووي على مسلم ٦٩/٧ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ص ٣١٨ .

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث .

(٤) انظر : شرح النووي على مسلم ٦٩/٧ ، ٧٠ .

البَغْيُ والكِبَر :

البغي في اللغة هو التعدي والاستطالة^(١)، وأصله مجاوزة الحد ، فكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء بغيٌ ، يقال : بغي الرجل علينا ، أي : عدل عن الحق واستطال^(٢)؛ وبغي الجرح ، تجاوز الحد في فساده ، وبغت المرأة إذا فجرت لتجاوزها إلى ما ليس لها؛ وبغت السماء ، تجاوزت في المطر حد الحاجة؛ وبغي ، تكبر لتجاوز منزله؛ ويستعمل ذلك في أي أمر كان^(٣) .

ويقال : بغي في مشيته بغيًا ، أي : اختال وأسرع ، والبغي اختيال ومرح في الفرس ، ومنه قولهم : بغي الفرس ، إذا مرح واختال في عدوه^(٤) . وفي الاصطلاح عرفه الراغب الأصفهاني بأنه : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى ، تجاوزه أولم يتجاوزهُ؛ فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية ، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [النحل: ١١٥] ، أي : غير طالب ما ليس له طلبه ، ولا متجاوز لما رسم له^(٥) .

والبغي بمعنى مجاوزة الحد ، يحمد ويذم .
فالمحمود في الخير وهو : تجاوز العدل إلى الإحسان ، والفرض إلى التطوع .

والمذموم في الشر وهو : تجاوز الحق إلى الباطل أو إلى الشُّبْه^(٦) ، وهذا ماجاء ذمه والتحذير منه ، والوعيد عليه في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢] ، وقال

(١) انظر : تهذيب الأسماء واللغات ٣١/٢ .

(٢) انظر : لسان العرب ٨٤/١٨ ، المحكم والمحيط الأعظم ٢٠/٦ .

(٣) انظر : بصائر ذوي التمييز ٢٦٢/٢ .

(٤) انظر : لسان العرب ٨٤/١٨ .

(٥) انظر : معجم مفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٥٩ .

(٦) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٥٨ .

تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من : البغي وقطيعة الرحم »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، وَلَا يَغْيِي بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ »^(٢) ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أفضل؟ قال : « كُلُّ مَخْمُومٍ الْقَلْبِ ، صَدُوقُ اللِّسَانِ » ، قالوا : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب؟ ، قال : « هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغي ، ولا غلّ ولا حسد »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَتَدَلَّى فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَيَغْفِرُ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الشَّرِّ وَالْبَغْيِ »^(٤) .

ويأتي البغي في القرآن الكريم والسنة المطهرة وفي لغة العرب على المعاني الآتية :

١ - مطلق الظلم والفساد ، يقال : فلان يبغي على الناس ، إذا ظلمهم وطلب أذاهم ، والفئة الباغية هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الأدب ، باب في النهي عن البغي ٢٧٦/٤ ، والترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب ٥٧ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ٦٦٤/٤ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البغي ٥٦٦/٢ ، وأحمد في مسنده ٣٦/٥ ، وهو من حديث أبي بكر نفيح بن الحرث رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البغي ٥٦٧/٢ ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال البوصيري : انفرد به ابن ماجه عن الكتب التسعة ، وفي إسناده سنان بن سعد ، وقد اختلف فيه وفي اسمه .

انظر : هامش سنن ابن ماجه الذي هو كفاية الحاجة في تحقيق سنن ابن ماجه ، والزوائد من مصباح الزجاجة ٥٦٧/٢ برقم ٤٢١٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الورع والتقوى ٥٦٧/٢ ، وقال البوصيري : انفرد به عن الكتب التسعة ، قال في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات . انظر : كفاية الحاجة... ٥٦٧/٢ برقم ٤١٢٦ ، هامش سنن ابن ماجه .

(٤) أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة ٣٨٥/٤ .

ومن هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم **عَنْ عَمَّارٍ** رضي الله عنه : « وَيَح^(٢) عَمَّار^(٣) ! تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ »^(٤) .

٢ - **المعصية والذنب** ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ، أي : عاقبناهم بذنبهم^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣] .

٣ - **الحسد** ، يقال : بغى على أخيه بغياً ، حسده ، جاء في اللسان : **والبغي أصله الحسد** ، ثم سمي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود جهده **إرادة زوال نعمة الله عنه**^(٦) .

وعلى هذا المعنى ورد قول الله تعالى : ﴿ بَسْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ

(١) انظر : لسان العرب ٨٤/١٨ .

(٢) كلمة رحمة . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧١٣/١

(٣) أبو اليقظان ، عمار بن يسار بن عامر المنحجي ، حليف بني مخزوم ، من السابقين الأولين إلى الإسلام ، عذب في الله هو وأمه وأبوه عذاباً شديداً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهم وهم يعذبون في رمضان مكة فيقول : « صبراً آل ياسر موعدم الجنة » . أمه سمية ، أول شهيدة في الإسلام ، هاجر إلى المدينة ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان . وهو أول من بنى مسجداً في الإسلام ، شهد قتال مسيلمة ، واستعمله عمر رضي الله عنه على الكوفة ، صحب علياً رضي الله عنه وشهد معه الجمل وصفين وقتل يوم صفين سنة سبع وثلاثين وعمره أربع وتسعون سنة ، وقيل : ثلاث وتسعون ، وقيل : إحدى وتسعون رضي الله عنه وأرضاه .

انظر : أسد الغابة ٤٣/٣ - ٤٧ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة ، باب التعاون في بناء المسجد ٢٥٣/١ ، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) انظر : وجوه القرآن ١٣٥ .

(٦) انظر : لسان العرب ٨٤/١٨ .

يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿البقرة: ٩٠﴾ ، وقوله
تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] ،
وقوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [الحاثية: ١٧] ، وقد فسر البغي هاهنا بالحسد والكراهية
والمنافسة والعناد والمشاقة^(١) .

٤ - الكبر والتطاول وطلب الاستعلاء بالظلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ
إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، وقد فسر البغي هاهنا بالاستطالة على الناس^(٢) .
وفي الحديث : «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، وَلَا يَبْغِ بَعْضُكُمْ عَلَى
بَعْضٍ»^(٣) .

وعند ذكر قصة قارون يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ
مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] ، أي : تجاوز حده في الكبر والتجبر
عليهم^(٤) .

٥ - الطغيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا
فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧] ،
أي : لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من
بعضهم على بعض أشراً وبطراً^(٥) .

٦ - الطلب ، وهو إما طلب لشيء محمود ، أو طلب لشيء مذموم ،
فمتى كان الأول كان الابتغاء محموداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَخْرُؤُنَّ يَضْرِبُونَ
فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/١٢٩ ، ٤/١١٨ ، فتح القدير ١/١١٣ ، ٤/٥٣٠ ، ٥/٧ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٨/١٦٦ .

(٣) سبق تخريجه قريباً ص ٤٤ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٢٠/١٠٦ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٢٤ .

عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا [الإسراء: ٢٨] ،
ومتى كان الثاني كان الابتغاء مذموماً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧] .
ومن المعاني الأخرى للبغي ، الزنى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْرَهُوا
فِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ [النور: ٣٣] .

والسرقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [النحل: ٩٠] .
والكذب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدتْ
إِلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٦٥] .
ومعظم الأمر^(١) .

وبالنظر إلى هذه المعاني التي ورد عليها البغي يتبين لنا وجه الصلة
والارتباط الوثيق بينه وبين الكبر ، فالبغي مطلق الظلم والفساد ، والكبر صورة
من صور ذلك الظلم والفساد ، فما يتكبر إلا ظالم لنفسه وللحق وللخلق ، وأيُّ
فساد بعد هذا الفساد؟!

وبالبغي : المعصية والذنب ، والكبر من أعظم المعاصي وأكبر الذنوب .
وبالبغي : الحسد ، والحسد سبب من أسباب الكبر ، كما أنه نتيجة من
نتائجه ، أما كونه سبباً من أسباب الكبر ، فليس ذلك على الدوام ، بل في بعض
صوره وحالاته كما في قصة أبينا آدم عليه السلام مع إبليس عليه اللعنة إذ كان
حسده لآدم عليه السلام سبباً من أسباب تكبره عليه واستنكافه عن السجود
له ، كذلك كان حسد أهل الكتاب للنبي صلى الله عليه وسلم من أسباب
استكبارهم عن الإيمان به واتباعه بعد ما عرفوه واستيقنوا صدقه فيما جاء به ،
وكذلك فعل مشركوا هذه الأمة وفي مقدمتهم فرعونها أبوجهل - عليه لعنة
الله - الذي حسد بني هاشم على مبعث محمد صلى الله عليه وسلم منهم
رسولاً للعالمين^(٢) ، فاستكبر عن الإيمان وأصرّ على الكفر والطغيان حتى أخزاه
الله تعالى وأهلكه يوم بدر ويوم القيامة يرد إلى أشد العذاب .

(١) انظر لمراجعة هذه الوجوه ، وجوه القرآن ١٣٥، ١٣٦ ، وبصائر ذوي التمييز

٢٦٢/٢ ، ولسان العرب ٨٤/١٨ ، والمحكم المحيط الأعظم ٢٠/٦ ، ٢١ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣١٥/١ - ٣١٦ .

وأما كون الحسد نتيجة من نتائج الكبر فهذا ظاهر بين فالكبر يقود إلى مساوئ الأخلاق وأقبح الخصال ، ومنها الحسد الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب^(١) .

ومن معاني البغي : التعدي والتطاول وطلب الاستعلاء بالظلم وهذا هو عين الكبر ، فما الكبر إلا تعدٍ واستطالة وطلب للاستعلاء بغير حق ، وذلك هو الظلم المبين .

ومن معانيه : الطغيان وهو : مجاوزة الحد وفي الكبر تجاوز للقدر والمكانة إلى قدر لا يستحقه ومكانة ليست له .

وأخيراً نخلص إلى القول بأن البغي أعم من الكبر ، وأن الكبر من معاني البغي وسبب موصل إليه ، والجامع بينهما تجاوز الحد ، غير أن الكبر يشمل المحسوس والمعقول ، والغالب على البغي في المحسوس .

ويستدل على كون البغي أعم من الكبر وكون الكبر سبباً موصلًا إليه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ »^(٢) ، فالحديث في مفهومه يدل على النهي عن الكبر الذي بسببه يكون الفخر والبغي .

وحديث آخر في هذا المقام هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأُمَمِ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَادَاءُ الْأُمَمِ ؟ قَالَ : الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَاجُشُ »^(٣) في الدنيا ، والتباغض والتحاسد حتى يكون

(١) في حديث أخرجه أبوداود عن أبي هريرة مرفوعاً : « إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » ، أو قال « العشب » ٢٧٦/٤ .

وأخرجه ابن ماجه من حديث أنس قال البوصيري : انفرد به ابن ماجه عن الكتب التسعة ، وفي إسناده عيسى بن عيسى ، وقد أشار في الزوائد إلى ضعفه .

انظر : سنن ابن ماجه ٥٦٦/٢ وهامشه : كفاية الحاجة برقم ٢١٠ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار رضي الله عنه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ٢١٩٩/٤ .

(٣) التناجش : من النَّجَشِ وهو أن يمدح السلعة لينفقها ويروجها ، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها . والأصل فيه تنفير الوحش من مكان إلى مكان .

انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢١/٥ .

البغي»^(١).

ففي هذا الحديث الشريف دلالة على أن البغي يكون نتيجة ما يصيب الأمة من داء الأشر والبطر - وهما من دلائل الكبر - والتكاثر والتناجش في الدنيا والتباغض والتحاسد ؛ فكل هذه أدواء خطيرة تؤدي إلى أن يبغى الناس بعضهم على بعض .

قال ابن رجب رحمه الله ويحتمل أن يفسر التناجش المنهي عنه في الحديث بما هو أعم من ذلك ، فأصل النجش في اللغة : إثارة الشيء بالمكر والحيلة ، والمخادعة : إرادة إيصال الأذى إلى المسلم إما بطريق الاحتيال وإما اجتلاب نفعه بذلك ، ويلزم وصول الضرر إليه ودخوله عليه ، وعلى هذا التقدير يدخل في التناجش المنهي عنه جميع أنواع المعاملات بالغش ونحوه... انظر : جامع العلوم والحكم ص ٣٥٥/٣٥٦ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک في کتاب البر والصلة ١٦٨/٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

التبختر والكبر :

التَّبَخُّتُرُ : من بختر ، والبختره والتبختر : « مشية المتكبر المعجب بنفسه »^(١) . وقيل : حَسَنُ المشي والجِسْم ، يقال : بختر وتبختر ، وفلان يمشي البخترية ، ويتبختر في مشيته ، ورجل بَخْتَرِي : صاحب تبختر ، والبختري من الإبل : الذي يتبختر أي : يختال^(٢) .

ومن هنا يتبين لنا أن الكبر أعم من التبخر ؛ إذ يكون في الظاهر كما يكون في الباطن ، كما يتبين لنا أن التبخر ماهو إلا مظهر من مظاهر الكبر ، إذ هو مشية خاصة يمشيها المتكبر أبرز ملامحها تباعد الخطى وبروز الصدر ومد اليدين والنظر المتكرر إلى النفس ومحاسن الجسم .

ولم ترد كلمة يتبختر في القرآن الكريم ، وقد وردت في الحديث الشريف في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ يَمْشِي فِي بُرْدِيهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ، وفي رواية : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي بُرْدَيْنِ... » بنحوه ، وفي رواية : « إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَبَخَّرُ فِي حُلَّةٍ... »^(٣) بنحوه .

فالعلاقة إذاً بين الكبر والتبختر هو كون التبخر من مظاهر الكبر في سلوك المتكبر ، أي : التبخر علامة وصفة للمتكبر تدل على كبره واستعلائه . والله أعلم .

(١) النهاية في غريب الحديث ٧٦/١ .

(٢) انظر : لسان العرب ١١١/٥ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ١٦٥٤/٣ ، باب تحريم التبخر في المشي مع إعجابه بثيابه .

التجبر والكبر :

التجبر : من جَبَرَ ، وجَبَرَ من معانيها أمران هما :

أ - القهر والإكراه ، فنقول : جبره على الأمر وأجبره ، أي : قهره وأكرهه عليه^(١) .

ب - الإصلاح والصلوة ، تقول : « جبر العظم والفقير جبراً »^(٢) ، أي : أصلح المنكسر من العظم حين ربطه ليلتئم^(٣) ، ووصل الفقير وأصلح من شأنه حين أحسن إليه ، فأغناه بعد فقر .

وعلى هذا فالجبار يأتي في صفة الله كما يأتي في وصف العباد كما تبين ذلك من خلال النصوص القرآنية والنبوية ، وتبين أنه إذا كان في :

أ - صفة الله تعالى ، فيأتي على هذه المعاني :

١ - العالي فوق خلقه الذي لا ينال ، فهو سبحانه وتعالى « العلي على كل شيء »^(٤) ، « له علو الذات فإنه فوق المخلوقات » **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** [طه: ٤] ، أي : علا وارتفع ، وله سبحانه علو القدر ، وهو علو صفاته وعظمتها ، فلا يماثله مخلوق ، وله سبحانه وتعالى علو القهر ، فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم فنواصيهم بيده ، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع ، وما لم يشأ لم يكن ، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدرُوا ، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه ، وذلك لكمال اقتداره ، ونفوذ مشيئته ، وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه^(٥) .

٢ - القاهر خلقه على ما أراد من أمر ونهي على ما تقتضيه حكيمته تبارك وتعالى ، فإنه سبحانه وتعالى ذو الجبروت ، القهار لكل شيء الذي دان

(١) انظر : لسان العرب ٥/ ١٨٢ ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/ ١٧٩ ، القاموس المحيط ٤٦٠ .

(٢) القاموس المحيط ٤٦٠ .

(٣) انظر : الكليات ٢/ ١٧٣ .

(٤) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ١٣١ .

(٥) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

وخضع له كل شيء^(١) .

٣ - المتكبر عن كل سوء ونقص وعن مماثلة أحد ، وعن أن يكون له كفوٌّ أو ضدٌّ أو سميٌّ في خصائصه وحقوقه^(٢) .

٤ - الذي يجبر الناس بفائض نعمه^(٣) ، « فهو سبحانه وتعالى الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله ، فيجبر الكسير ، ويغني الفقير ، ويسر على المعسر كل عسير ، ويجبر المصاب بتوقيفه للثبات والصبر ويعوضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها ، ويجبر جبراً خاصاً قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله ، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية ، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب ، وإذا دعا الداعي فقال : اللهم اجبرني ، فإنه يريد هذا المعنى الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع المكاره عنه^(٤) .

ب - وأما في صفة العباد فيأتي التجبر على هذه المعاني :

١ - المتكبر المتعالي عن قبول الحق^(٥) ، أو عن عبادة الله تعالى^(٦) ، ومنه قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ، جبار يعني : متعظم عن اتباع الحق^(٧) ، وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢] ، والمعنى أي : مستكبراً على الله فيما أمرني به ، ونهاني عنه شقياً ، ولكن ذللتني لطاعته ، وجعلني متواضعاً^(٨) .

وسمي المتكبر جباراً ؛ لأنه يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي

(١) انظر : شرح أسماء الله الحسنی في ضوء الكتاب والسنة ، ص ١٣١ .

(٢) انظر : شرح أسماء الله الحسنی في ضوء الكتاب والسنة ، ص ١٣١ .

(٣) انظر : المفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٨٦ .

(٤) شرح أسماء الله الحسنی في ضوء الكتاب والسنة ، ص ١٣٠ .

(٥) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ ، والکليات ١٧٣/٢ .

(٦) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ ، والأشباه والنظائر ١٧٠ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ٦٤/٢٤ .

(٨) انظر : تفسير الطبري ٨٢/١٦ .

لا يستحقها^(١) .

٢ - الْقَتَالُ فِي غَيْرِ حَقٍّ^(٢) ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] ، أي : قَتَالًا فِي غَيْرِ حَقٍّ^(٣) ، وكان من فعل الجبابة قتل النفوس ظلماً بغير حق^(٤) .

٣ - العاتي المتمرد ، وقد يَضْمَنُ معنى المتسلط القاهر^(٥) ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] .

٤ - العظيم الخلق^(٦) ، القوي الطويل^(٧) ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] .

٥ - الشقي الذي يقتل على الغضب ، وقد ذكر هذا المعنى عند بيان قول عيسى عليه السلام : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]^(٨) .

وكما جاء الجبار في صفة الله تعالى ، ووصف الإنسان بأنه جبار ، كذلك وصف القلب بأنه جبار ، فقد قال الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ، وذلك على قراءة التنوين في^(٩) «قلب» وفي «متكبر جبار» على أنهما وصفان للقلب .

والقلب الجبار هو : الذي لا تدخله الرحمة ، أو هو : ذو الكبر لا يقبل موعظة^(١٠) .

هذا بالنسبة لمعاني التجبر والتي دارت عليها أقوال أئمة التفسير عند

انظر: (١) المفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٨٦ .

(٢) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ .

(٣) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٥٠/٢٠ .

(٥) معجم ألفاظ القرآن الكريم ١٧٩/١ .

(٦) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ ، قرة الأعين النواظر ٢٣٣ .

(٧) انظر : الأشباه والنظائر ، للبلخي ١٧٠ .

(٨) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٦/٣ ، وهو قول سفيان الثوري رحمه الله تعالى .

(٩) سبق تخريج القراءة .

(١٠) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ ، وقد مر بك في المبحث الأول أن أصل الكبر في القلب .

تفسيرهم لآيات التجبر الواردة في كتاب الله تعالى ، وكذلك أقوال أئمة اللغة عند مادة [ج ب ر] .

أما بالنسبة للفرق بين الكبير والتجبر ، فقد جاء في « الفروق » لأبي هلال العسكري قوله : « الفرق بين الكبير والجبرية والجبروت ، أن الجبرية أبلغ من الكبير ، وكذلك الجبروت ، ويدل على هذا فخامة لفظها ، وفخامة اللفظ تدل على فخامة المعنى ، فيما يجرى هذا المجرى... ، وَتَجَبَّرَ ، أبلغ من تَكَبَّرَ ، وقال بعض العلماء : تجبر الرجل ، إذا تعظم بالقهر ، وهذا يؤيد ماقلناه : من أنه أبلغ من تكبر ، لأن التكبر لا يتضمن معنى القهر... »^(١) .

وذكر صاحب وجوه القرآن : أنه إذا اجتمع وصف المتكبر مع الجبار ، كان الجبار بمعنى : القتال^(٢) .

بعد هذا ومما سبق نستطيع أن نتيين وجه الصلة بين الكبير والتجبر ، وكذلك وجه الاختلاف ، فنخلص إلى القول بأن : الكبير معنى من معاني التجبر ، كما أنه سبب من أسبابه ، وفي هذه الحالة نقول : إن كل متجبر هو متكبر ، وليس العكس ، بمعنى : أن المتكبر قد لا يكون متجبراً بينما لا بد أن يكون المتجبر متكبراً ، فلا يُتصوَّر ، متجبر إلا وهو متكبر ، أي : لا يفعل أفعال الجبارين من التعالي على الحق والحيد عنه ، وعدم قبوله أو الإذعان له ، ومن القتل بغير حق ، ومن القهر والإكراه والتسلط ، إلا متكبر لا يرى فوقه أحداً ، بل يرى أنه أعلى من الحق ، فهو يفعل ذلك استعظماً لنفسه واستصغاراً لمن سواه .

أما المتواضع الذي لا يرفع نفسه فوق الآخرين ولا يحقرهم فبعيدة عنه أفعال الجبارين .

إذاً فالتكبر درجة قبل التجبر ، والتجبر أبلغ من التكبر ، وكلاهما من مساوئ الأخلاق التي حرص الإسلام على تطهير أتباعه منها لسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة ، وبالمقابل حرص على غرس مايقابلها من مكارم الأخلاق في نفوسهم لعواقبها الحميدة في الدنيا والآخرة .

(١) انظر : الفروق اللغوية ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) انظر : رسالة ماجستير بعنوان : وجوه القرآن ص ١٦٦ .

ولعل تقديم لفظ «متكبر» على لفظ «متجبر» في قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ [غافر: ٣٥] ، ولم يجمع بينهما في وصف الإنسان إلا في هذا الموضع ، لعل ذلك يوحي بهذا المعنى الذي ذكرناه من أن التكبر أولاً ثم التجبر فيكون بذلك التكبر سبباً للتجبر .

لطائف من الآيات الواردة في التجبر :

١ - ورد في لفظ «الجبار» معرفاً بالألف واللام مرة واحدة في وصف الله تعالى ليدل على أن التجبر بحق لا يكون إلا لله تعالى ، الذي له كل صفات العزة والقوة والعظمة والكبرياء .

٢ - ورد لفظ «جبار» بدون الألف واللام مفرداً ، سبع مرات ، وكلها في وصف البشر ، وفي تنكيهه دلالة على نكارتة من المخلوق الضعيف الذي لا يملك من صفات العزة والقوة... ما يجعل التجبر فيه تجبر بحق .

٣ - ورد لفظ «جبارين» بلفظ الجمع مرتين ، كذلك في وصف البشر ، وهو مُنْكَرٌ كسابقه .

٤ - ورد لفظ «جبار» مرة واحدة في وصف القلب ، على قراءة التنوين في قلب وما يليها^(١) .

(١) سبق تخريج القراءة. ص ٤٣ .

التطاول ، الاستطالة والكبر :

التطاول والاستطالة بمعنى العلو والترفع على الناس ، يقال : تطاول واستطال على الناس ، إذا هو رفع رأسه ورأى أن له عليهم فضلاً في القدر والشأن ، يقال : طال عليه واستطال وتطاول إذا علاه وترفع عليه^(١) .

وتطاول إذا أظهر الطُّول أو الطُّول^(٢) ، فالطُّول بضم الطاء ، هو التعظم ورفع النفس ، والطُّول بفتح الطاء هو : الفضل والعلو على الأعداء^(٣) .

ويقال : تطول عليه إذا امتن ، وإنه ليتطول على الناس بفضله وخيره^(٤) .
ففرق إذاً بين التطول والتطاول ، فالتطول يوضع موضع المحاسن ، فهو ممدوح ، والتطاول مذموم ؛ لأنه يوضع موضع التكبر . وقد جاء في الحديث «إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرَّبَاِ اسْتَطَالَه فِي عَرَضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٥) ، والاستطالة في عرض المسلم ، أي : استحقاره والترفع عليه والوقية فيه^(٦) .

أقول : ومن خلال ما سبق تبين لنا أن التطاول والاستطالة بمعنى التكبر ، غير أن لفظة التطاول أو الاستطالة هي أخص بالكبر الظاهر الذي يعبر عنه بالتكبر ، أي : إظهار كبر النفس وتعظيمها ، فالتطاول يحكي مظهراً من مظاهر الكبر ، وهو محاولة المتكبر أن يطول فوق الجميع ، فهو يتطاول برفع رأسه ومدّ قامته ومشيه على أطراف أصابعه لعل وعسى أن تتحقق بغيته ، ولعل في قول الحق سبحانه في معرض النهي عن التكبر والهزاء بالمتكبرين : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ

(١) انظر : لسان العرب ٤٣٨/١٢ فصل الطاء حرف اللام طول .

(٢) انظر : القاموس المحيط ٣١٢ ، مفردات ألفاظ القرآن ٣٢٧ .

(٣) انظر : لسان العرب ٤٤٠/١٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) أخرجه أبوداود من حديث سعيد بن زيد مرفوعاً ، في كتاب الأدب ، باب في الغيبة ، كما أخرج نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً ، انظر : السنن ٢٦٩/٤ ، وحديث أبي هريرة ، قال المنذري : رواه البزار بإسنادين أحدهما قوي . انظر : الترغيب والترهيب ٥٠٤/٣ .

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٥/٣ .

طُولاً ﴿[الإسراء: ٣٧]﴾، لعل في هذه الآية الكريمة إشارة إلى هذا المعنى من أن نفس المتكبر المريضة تتمنى لو أن جسمه في ضخامة أعلى الجبال طولاً؛ لأنه بذلك يمكن له أن يلقي نظرة الإزدراء الحقيقية على عباد الله تعالى أجمعهم، بدلاً من إلقائها على بعضهم، فهو يريد أن يحس بعليائه على الجميع، فإذا كان كأعلى الجبال طولاً تحقق له ذلك^(١).

والحقيقة أن هذا وهم وخيال لاحقيقة له، فمهما تطاول المتكبر فلن يعدو قدره «بل سيظل مشدوداً إلى هذه الأرض التي منها خلق وإليها يعود، ولن يستطيع أن يتجاوز الطول الذي أوجده الله عليه مهما تمدد وتطاول»^(٢). ثم إن التطاول والتكبر ليس طريق الرفعة والمجد، بل طريق الذلة والضعفة عند الله تعالى الذي يمقت المتكبرين ويخزيهم لمنازعتهم له صفته وعند العباد الذين يبغضونهم ولا يكرمون لديهم مقابلة لتعاليتهم عليهم وأنفتهم منهم.

(١) انظر: تأملات في سورة الإسراء ١٦٨.

(٢) انظر: تأملات في سورة الفرقان ١٥٦.

التمطي أو المظيمطاء والكبر :

المط والمطو في اللغة : المد ، تقول : مطا الشيء مطواً : مده ، ومطا بالقوم : مد بهم ، أو مطوت بالقوم مطواً إذ مددت بهم في السير ، وتمطي الرجل : تمدد ، ويقال : التمطي مأخوذ من المظيطة وهو الماء الخاثر في أسفل الحوض ؛ لأنه يَتمْطُطُ أي : يتمدد ، وكل شيء مددته فقد مطوته ، وتمطي النهار : امتد وطال ، وقيل : كل ما امتد وطال فقد تمطي^(١) .

فالتمطي والمظيمطاء إذاً : الخيلاء والتبختر ومد اليدين في المشي ، ومنه الحديث : « إذا مشت أمتي المظيمطاء... »^(٢) ، فهي مشية فيها تبختر ومد اليدين^(٣) .

وقد ورد التمطي في كتاب الله تعالى مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ [القيامة: ٣٣] ، (يتمطي) : جملة حالية من فاعل ذهب ، وقد يجوز أن يكون بمعنى شرع في التمطي ، وتمطي فيه قولان : الأول : أنه من المطا وهو الظهر ، ومعناه : يتبختر أي : يمد مطاه ويلويه تبخترًا في مشيته . الثاني : أن أصله يتمطمط من تمطمط ، أي : تمدد ، ومعناه : أنه يتمدد في مشيته تبخترًا ، ومن لازم التبختر ذلك فهو يقرب من المعنى الأول ، ويفارقه في مادته ؛ إذ مادة المطا : [م ط] ، ومادة الثاني : [م ط ط]^(٤) .

ومما قيل آنفًا نخلص إلى القول : بأن لفظة التمطي تدل على مظهر من مظاهر الكبر ، فالمتكبر إذا مشى تبختر مادًا يديه وظهره ، فالتمطي علامة يعرف بها المتكبر . والله تعالى أعلم .

(١) انظر : لسان العرب ١٥٣/٢٠ ، ١٥٤ .

(٢) أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الفتن ، باب ٧٤ ، وقال : هذا حديث غريب ، وقد رواه أبو معاوية عن يحيى بن سعيد الأنصاري . انظر : ٥٢٦/٤ ، ونص الحديث : « إذا مشت أمتي بالمظيمطاء وخدمتها أبناء الملوك ، أبناء فارس والروم سُلَّط شرارها على خيارها » .

(٣) انظر : لسان العرب ١٥٣/٢٠ .

(٤) انظر : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين ، للدقائق الخفية ٤/٤٥٠ .

الخيلاء والكبر :

الخيلاء بضم الخاء وكسرهما : الكبر والعجب ، وكذا المَخِيلَةُ ، والاختيال : التكبر ، يقال : حال الرجلُ يخولُ خولاً وخالاً واختالَ يختال اختيلاً : إذا تكبر ، وهو ذو مخيلة أو ذو خال ، أي : ذو كبر ، وهو مختال ، أي : متكبر^(١) .

قال الراغب : الخيلاء : التكبر عن تَخْيُلٍ فضيلة تراءت للإنسان من نفسه^(٢) .

وجاء في معجم ألفاظ القرآن : والخيلاء : الكبر والظن في النفس بغرور وازدها ، يقال : اختالَ يختال اختيلاً فهو مختال : تبختر في المشي كبراً وزهواً بفضيلة تراءت له في نفسه ، ثم استعمل في كل كبر وزهو في المشي أو غيره^(٣) .

فإذاً ، المتكبر إنما يختال بصورة يتخيلها لفضيلة غائبة عنه ولا وجود لها على الحقيقة في نفسه ، بل هي ظنٌ وخيال ، وذلك مثل من يحسب السراب ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً^(٤) .

وبالعودة إلى كتاب الله تعالى نجد أن الخيلاء قد ذكرت في ثلاثة مواضع منه ، وكلها بلفظ «مختال» وجميعها في معرض الذم وفيها ترهيب للمختال بتوكيد نفي محبة الله تعالى له ، وهي قول الله تعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَصْعَرْ خَدُكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ، وقوله تعالى : ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٨٩ ، ٩٤ ، شرح النووي على مسلم ٦١/ ١٤ .

(٢) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ١٦٤ .

(٣) انظر : معجم ألفاظ القرآن ١/ ٣٩٠ .

(٤) انظر في معنى الخيال والتخييل والتخيل : مفردات ألفاظ القرآن ١٦٤ .

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد: ٢٣] .

فأما الآية الأولى ففيها الأمر بعبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به جل جلاله ، ثم الأمر بالإحسان إلى الوالدين وذي القرباة واليتامى والمساكين والجيران : (الجار ذي القربى) ، وهو الجار ذي القرباة والرحم ، أو هو الجار لذي القرباة والرحم^(١) ، (والجار الجنب) الذي ليس له قرابة ولا رحم أو هو الجار غير المسلم أو هذا وذاك^(٢) ، (والصاحب بالجنب) وهو كما قيل رفيق الرجل في سفره ، وقيل : امرأة الرجل التي تكون معه إلى جنبه ، وقيل : هو الذي يلزمك ويصحبك رجاء نفعتك ولا يمنع أن تكون الوصية بهم جميعاً ، فكلهم بجنب الذي هو معه وقريب منه وللصاحب على المصحوب حق ولا شك^(٣) ، (وابن السبيل) وهو كما ذكر المسافر الذي يجتاز ماراً ، وقيل : هو الضيف ، (وماملكت أيمانكم) المراد بهم : الأرقاء^(٤) .

ولأن الخيلاء والفخر خلقان سيئان يحملان صاحبهما على الأنفة مما ندب الله تعالى إليه في هذه الآية الكريمة^(٥) ، أي : يحملانه على الأنفة من ذوي قرابته وجيرانه وأصحابه ، ومن المساكين والمماليك فلا يحسن عشرتهم ولا يلتفت إليهم ، بل يتكبر عن إكرامهم^(٦) والإحسان إليهم وأداء حقوقهم ، فإن الله تعالى خصهما بالذكر مُحذراً منهما ناهياً عنهما بأسلوب فيه تنفير منهما وتقبيح لهما ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ، وأيم الله ما حال من لا يحبه الله الجليل بل يبغضه؟ ما حاله في الدنيا والآخرة؟! فمن كان يرجو لقاء الله ويبغي رضاه فليجتنب هاتين الخلتين وغيرهما من خلال السوء .

وأما الآية الثانية ففيها النهي عن إمالة الخدّ عن الناس تكبراً عليهم وعن

(١) انظر : تفسير الطبري ٧٨/٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٧٨/٥ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٨٠/٥ — ٨٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٨٣/٥ .

(٥) انظر : فتح القدير ٤٦٥/١ .

(٦) انظر : تفسير الكشاف ، للزمخشري ٢٦٨/١ ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥١/٢ .

المشي على الأرض تبختراً وخيلاء؛ لأن من يفعل ذلك لا يحبه الله ومن لا يحبه الله خسر الدنيا والآخرة.

وأما الآية الثالثة ففيها النهي عن الفرح فرح الأشر والبطر، ثم ختمت بما ختمت به الآيتان السابقتان ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، ببيان أن محبة الله تعالى لا ينالها المختال الفخور.

وفي السنة المطهرة ورد ذكر الخيلاء في معرض الذم والتحذير في عدة أحاديث، منها: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «الْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ وَالسَّكِينَةِ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ وَالْإِيمَانِ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ»^(٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «أَرْبَعَةٌ يَنْغُضُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّيَّاعُ الْحَلَّافُ وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالشَّيْخُ الزَّانِي وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ»^(٣).

فأما الحديث الأول ففيه وعيد شديد لمن يجر ثوبه ويطيئه زيادة على الحد الشرعي وهو الكعبان بالنسبة للرجل وزيادة شبراً وذراعاً بالنسبة للمرأة، فمن أطال ثوبه زيادة على هذا الحد الشرعي على سبيل التكبر والخيلاء، فإن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، و«من جر إزاره من غير خيلاء»، و«من جر ثوبه من الخيلاء» ٢٦٤/٧—٢٦٦، وأخرجه مسلم في صحيحه ١٦٥١/٣—١٦٥٣ كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء، والحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة بعدة روايات واختلاف في بعض الألفاظ. انظر: صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ٥٧٥/٤، وكتاب المناقب، باب ١٦/٥، وكتاب المغازي، باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن ٣٠١/٦، وانظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه ٧٣٢٧٢/١. والحديث في المسند عن أبي هريرة وكذلك عن أبي سعيد الخدري. انظر: ٣٧٠/٢، ٣١٩، ٣٧٣، ٤١٨، ٤٢٦، ٤٥٧، ٤٨٠، ٤٨٤، ٥٠٦، ٩٦/٣.

(٣) سبق تخريجه.

الله عزوجل لا ينظر إليه نظر رحمة ومحبة^(١).

وأما الحديث الثاني ففيه - أن للإنسان أن يتمتع بطيبات الأكل والشرب واللباس مما أباحه الله عزوجل لعباده ورزقهم إياه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فللإنسان أن يتمتع بذلك مجتنباً فيه الإسراف وهو مجاوزة الحد والخيلاء وهي التكبر، وكذلك يجتنب هاتين الخليتين في صدقته، فهذا الحديث كما جاء في فتح الباري - جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة، فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة فيؤدي إلى الإتلاف، ويضر بالنفس إذا كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال. والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العجب وتضر بالآخرة، حيث تكسب الإثم، وبالدينيا حيث تكسب المقت من الناس^(٢).

والحديث الثالث يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أن الفخر والخيلاء من صفات الفدادين، والفدادون الصواب فيها تشديد الدال جمع فداد وهو من الفديد، وهو الصوت الشديد، فهم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخیلهم وحروثهم ونحو ذلك.

وقوله «أهل الوبر» بفتح الواو والموحدة، أي: ليسوا من أهل المدر؛ لأن العرب تعبر عن أهل الحضر بأهل المدر، وعن أهل البادية بأهل الوبر^(٣).

وقوله: «والسكينة في أهل الغنم»، أي: أن أهل الغنم من صفاتهم الطمأنينة والسكون والوقار والتواضع^(٤)، وذلك على خلاف ما ذكره من صفة الفدادين^(٥)، وإنما خص أهل الغنم بذلك؛ لأنهم غالباً دون أهل الإبل في

(١) انظر: فتح الباري ١٠/٣١٧.

(٢) انظر: فتح الباري ١٠/٣١١، وهذا الكلام ذكره عن الموفق عبداللطيف البغدادي.

(٣) انظر: فتح الباري ٦/٤٣٤.

(٤) انظر: فتح الباري ٦/٤٣٤.

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم ٢/٣٤.

التوسع والكثرة وهما من سبب الفخر والخيلاء^(١) .
 وقوله : «الإيمان يمان ، والحكمة يمانية» فيه مدح لأهل اليمن على نحو
 ما ذكره أهل العلم من كلام طويل ليس هنا مكانه^(٢) .
 وأما الحديث الرابع فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أربعة
 أصناف ييغضهم الله جل جلاله ولا يحبهم بسبب ما اقترفوه من الآثام التي بينها
 الحديث الشريف ، أما الأول فيباع كثير الحلف لترويج مبيعه ، وأما الثاني
 فقير مختال متكبر ، وأما الثالث فشيخ شيبة زان ، وأما الرابع فحاكم ظالم ،
 فهذه الآثام محرمة على سائر الناس ، ولكنها في حق هؤلاء الأربعة أشد
 تحريماً لفقدهم دواعيها^(٣) .
 ومن خلال ما سبق نخلص إلى أن الخيلاء والكبر هما بمعنى مترادفان ،
 وإن وجد فرق دقيق فهو كون الخيلاء تبدو من خلال سلوك المتكبر الظاهر ،
 أي : أنها صفة وعلامة للمتكبر . والكبر يشمل الظاهر والباطن . والله تعالى
 أعلم .

(١) انظر : فتح الباري ٤٣٤/٦ .

(٢) انظر : مثلاً : شرح النووي على مسلم ٣٢/١ ، ٣٣ . وفتح الباري ٦٦٠/٦ .

(٣) على نحو ما سبق بيانه في المبحث الأول من هذا الفصل .

الزهو والكبر :

الزهو من (زها) وهو الكبر والته والفخر والعظمة ، يقال : رجل مَزْهُوٌ بنفسه ، أي : معجب ، وبفلان زَهْوٌ ، أي : كبر ، وقد زُهِيَ كُغْنِي ، وكدعاء قليله ، وأزهى وزهاه الكبر^(١) ، وزهي فلان فهو مزهو إذا أعجب بنفسه وتكبر^(٢) .

هذا ما ذكره أهل اللغة في معنى الزهو ، ومنه نفهم أنه في معنى الكبر ، لكن هناك فرق لطيف بين اللفظتين ذكره الإمام العسكري في الفروق ، فقال : « الفرق بين الكبر والزهو أن الكبر : إظهار عظم الشأن ، وهو فينا خاصة : رفع النفس فوق الاستحقاق .

والزهو على ما يقتضيه الاستعمال : رفع شيء إياها من مال أو جاه وما أشبه ذلك ، ألا ترى أنه يقال : زها الرجل وهو مزهو ، كأن شيئاً زهاه ، أي : رفع قدره عنده ، وهو من قولك : زهت الريحُ الشيء إذا رفعتَه ، والزهو : التزيد في الكلام»^(٣) .

أقول : كلام الإمام العسكري -رحمه الله- يفيد أن الكبر والزهو كلاهما يعنيان : رفع النفس فوق ما تستحقه ، لكن الزهو يعني : رفع النفس للذاتها ، بل يرفعها داع من الدواعي التي يزهو بها المتكبرون كالعلم والعمل والجاه والنسب والقوة والجمال... ، أي : حين كان له نصيب من هذه الأمور ارتفع قدره عنده فزهأ بها ، أما الكبر فهو في النفس أصلاً ، وهو رؤية النفس فوق الآخرين ، ثم يظهر على السلوك في صورتين : بطر الحق ، وغمط الناس ، ومن هنا نفهم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّيْخُ الزَّانِي وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ وَالْإِمَامُ الْكَذَّابُ » أنه خص الفقير المزهو بالوعيد ؛ لأنه تكبر ومامعه من المال ما يرفع قدره عنده ، فليس شيئاً زهاه إذاً بل هو متكلف للكبر ، فاستحق أن يخص بالوعيد ، وإن

(١) انظر : القاموس المحيط ١٦٦٨ ، باب الواو والياء ، فصل الزاي .

(٢) انظر : لسان العرب ٨٠/١٩ .

(٣) انظر : الفروق اللغوية ٢٠٥ .

كان كل متكبر له من هذا الوعيد نصيب ، فإن التكبر شنيع من الغني والفقير ومن كل أحد .

ولم ترد لفظة الزهو في القرآن الكريم ، ولكنها وردت في الحديث النبوي ومن ذلك هذا الحديث الآنف الذكر ، ومنه حديث عائشة^(١) رضي الله عنها في درع لها تأنف جاريتها من لبسه « فإنها تُزهي أن تلبسه في البيت »^(٢) ، أي : تترفع عنه ولا ترضاه^(٣) ، أنفة وتكبراً ، يقال : زُهي يزهي إذا دخله الزهو وهو الكبير^(٤) .

(١) الصديقة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشهر نسائه وأحبهن إليه بعد خديجة رضي الله عنهن أجمعين . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بستتين وقيل بثلاث سنوات وقيل بأربع وقيل بخمس ، وعمرها ست وقيل سبع سنين ، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين ، كانت رضي الله عنها من أفقه الناس وأعلمهم بالطب والشعر وأكثرهم رواية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفيت سنة سبع وقيل ثمان وخمسين ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان ، ودفنت بالبقيع كما أمرت رضي الله عنها وأرضاها .

انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥/٥٠٠-٥٠٤ .

(٢) أخرج هذا الحديث البخاري فقال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا عبد الواحد بن أيمن ، قال : حدثني أبي ، قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها وعليها درع قَطْرٍ ثمن خمسة دراهم ، فقالت : ارفع بصرك إلى جاريتي ، انظر إليها فإنها تُزهي أن تلبسه في البيت ، وقد كان لي منهن درع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كانت امرأة تُقَيِّنُ بالمدينة إلا أرسلت إليّ تستعيره .

انظر : صحيح البخاري كتاب الهبة ، باب الاستعارة للعروس عند البناء ٣/٣٣٠ ، ٣٣١ . والدرع : قميص المرأة ، والقطر - بكسر القاف وسكون المهملة بعدها راءٌ : ثياب من غليظ القطن وغيره ، وقيل : من القطن خاصة . وحكى في ضبط القطر غير هذا ، انظر : فتح الباري شرح البخاري ٥/٣٠٢ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٣٢٣ .

(٤) انظر : فتح الباري شرح البخاري ٥/٣٠٣ .

الصَّعْر والكبر :

الصَّعْر محرّكة : ميل في الوجه ، وقيل : الميل في الخدّ خاصة ، أو هو ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقين .

وصعر خده تصعيراً وصاعره وأصعره : أماله من الكبر ، والتصعير : إمالة الخد عن الناس تهاوناً من كبر كأنه معرض^(١) .

« واصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رعوسها حتى تلفت أعناقها عن رعوسها ، فيشبه به المتكبر على الناس »^(٢) .

ورد ذكر الصعر في القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] .

ومعنى لاتصعر خدك للناس : لاتعرض بوجهك عمن كلمته أو كلمك من الناس استحقاراً منك له واستكباراً عليه ، ولكن أَلن جانبك وابسط وجهك إليه ولا تعرض .

وقيل : إنما نهاه عن أن يفعل ذلك لمن بينه وبينه صعر لاعلى وجه التكبر ، قال مجاهد : الرجل يكون بينه وبين أخيه الحنة^(٣) ، فيراه فيعرض عنه^(٤) .

وقيل : معناه : التشديق في الكلام^(٥) ، « والصواب القول الأول »^(٦) . فالصعر إذاً هو أحد الألفاظ التي تدل على صفة من صفات المتكبر ومظهر من مظاهر كبره ، إذ المتكبر يميل خده أو عنقه ويعرض بوجهه عمن يخاطبه تعالياً عليه واستصغاراً له ، فوجه صلته بالكبر هو هذا .

(١) انظر : لسان العرب ٣/٣٣٣ .

(٢) تفسير الطبري ٧٤/٢١ .

(٣) أي : الخصومة .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٧٥/٢١ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ٧٥/٢١ ، تفسير ابن كثير ٤٥٥/٣ . وهو قول مروى عن

إبراهيم النخعي رحمه الله .

(٦) تفسير ابن كثير ٥٥٥/٣ .

الطغيان والكبر :

الطغيان في اللغة : مجاوزة الحدّ والقدر ، يقال : طغى ، يطغى ، طغيا ، ويطغوا طغياناً ، أي : جاوز القدر وارتفع وعلا في الكفر ، وكل مجاوز حدّ العصيان طاغ؛ وطحى يطغى مثله ، وأطغاه المال ، أي : جعله طاغياً ، وطحى الماء والبحر : ارتفع وعلا على كل شيء فاخرقه^(١) .

والطاغية : الجبار العنيد والأحمق المستكبر؛ وقيل : الذي لا يبالي ما أتى يأكل الناس ويقهرهم لا يشيه تحرج ولا فرق^(٢) .

بعد ماسبق يمكننا أن نعرف الطغيان بأنه : مجاوزة الحد في العصيان .

ويأتي الطغيان في القرآن الكريم وفي السنة على أوجه^(٣) ، وهي كما يلي:

١ - الضلال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَمْدُهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥] .

٢ - العصيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ

غَضَبِي ﴾ [طه: ٨١] .

٣ - الظلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٨] .

٤ - التكبر^(٤) ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْفَى . أَنْ

رَأَاهُ اسْتَفْنَى ﴾ [العلق: ٨، ٧] .

٥ - الارتفاع والكثرة وتجاوز المحل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا

طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١] .

ومن خلال هذه المعاني للطغيان نستطيع أن نتبين وجه الصلة بينه وبين

الكبر ، فالطغيان مجاوزة الحد والقدر ، وفي التكبر تجاوز لقدر ومكانة

المتكبر إلى قدر لا يستحقه ومكانة ليس لها بأهل .

والطغيان : العصيان ، وفي الكبر عصيان مبین لله رب العالمين ، إذ نهى

سبحانه وتعالى عن التكبر ، وأمر بالتواضع فخالف المتكبر وعصى ربه ، بل

ونازعه صفته التي لا تليق إلا به سبحانه وتعالى .

(١) لسان العرب ٢٣١/١٩ .

(٢) لسان العرب ٢٣١/١٩ .

(٣) انظر : نزهة الأعين النواظر ص ٤١٣، ٤١٤ ، وجوه القرآن ص ٣٥٠ .

(٤) وجوه القرآن ص ٣٥٠ .

والطغيان : الظلم ، والتكبر : ظلم عظيم ، إذ يظلم المتكبر نفسه بتعرضه لسخط الله تعالى وغضبه ، ويظلمها بكسبه بغض عباد الله ومقتهم له ، كما أنه يظلم الحق بالاعتداء عليه ورده وتسفيهه ، ويظلم الخلق باحتقارهم ورؤية نفسه فوقهم وغمطهم حقوقهم .

والطغيان : الارتفاع ، وتجاوز المحل ، والمتكبر يرتفع ويتعالى ويتنفش حتى يطغى ويتجاوز قدره .

ومن معاني الطغيان : الضلال ، وفي التكبر : ضلالٌ مبين ، وتنكب عن طريق المهتدين ، وبعد عن صفات المتقين .

وكما ورد ذم الكبر في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد كذلك ذم الطغيان والطغاة ، ومن ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقِيَ اللَّهَ الَّذِي تَخَوَّيْتُمْ أَنْ يُخْزِيَكُمْ إِنْ تَبَغَّيْتُمْ أَنْ تُجَادِلُوا فِي الدِّينِ وَالْحَقِّ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَاللَّهُ يُخْزِي الْمُجَادِلِينَ ﴾ [طه: ٨١] ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ [العلق: ٦، ٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا . لَا بَشِيرَ فِيهَا أَهْقَابًا . لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وَفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا: ٢١، ٣٠] ، ومن ذلك حديث : « بئس العبدُ عبدٌ عتَا وطغى ونسي المبتدأ والمُنْتَهَى »^(١) .

وغير ذلك كثير في القرآن الكريم والسنة النبوية من النصوص الدالة للطغيان والمبينة عاقبته تحذيراً منه وتنفيراً وترهيباً وتخويفاً .

وخلاصة القول في وجه الصلة بين الكبر والطغيان هو : أن الكبر درجة قبل الطغيان ، والطغيان أعم منه ، كما أنه من أعلى درجاته كما هو الحال في البغي والبطر . والله أعلم .

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي عن أسماء بنت عميس الخثعمية قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بئس العبد تخيل واختال ... » كتاب القيامة باب ١٧ وقال الترمذي : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بالقوي . انظر : سنن الترمذي ٤/ ٦٣٢ ، قال العراقي : ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ، ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم ابن عمار وضعفه . انظر : إحياء علوم الدين هامش ٤ ص ١٣٦ مجلد ٤ .

العتو والكبر :

جاء في لسان العرب : عتا يعتو عْتَوْا وَعْتِيًّا : استكبر وجاوز الحد ، والعتا : العصيان ، والعاتي : الجبار ، والعاتي : الشديد الدخول في الفساد ، المتمرد الذي لا يقبل موعظة ، وتعتى فلان : لم يطع ، وفي الحديث : « بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَطَغَى »^(١) . العتو : التجبر والتكبر^(٢) .

وعرّف الإمام الراغب العتو بأنه : النبُو عن الطاعة^(٣) ، أي : الخروج عن الطاعة إلى المعصية .

وقد ورد في القرآن الكريم بمعنى التمرد والعصيان والاستكبار ، فقال تعالى عن قوم ثمود : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] ، عتوا : تكبروا وتجبروا عن اتباع أمر الله تعالى واستعلوا عن الحق^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٦] ، عتوا : تمردوا فيما نهوا عنه^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] ، عتوا عتواً كبيراً ، أي : تجاوزوا في الاستكبار بقليلهم ذلك حدّه^(٦) ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٩] ، أي : عتوا وتمردوا وعصياً وكفراً^(٧) ، وقال تعالى : ﴿ أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢١] ، أي : استمروا في طغيان ونفور عن الحق واستكبار^(٨) ، وقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَكَانَتْ جَاوِلًا مَتْرُوكًا ﴾ [الأنعام: ٦٦] ، عتت : تمردت ، وجاوزت الحد ، واستكبرت ، وعصت ، وكفرت ، ونفرت .

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر : لسان العرب ٢٧/١٥ ، ٢٨ ، باب الواو والياء ، فصل العين المهملة .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣ .

(٤) تفسير الطبري ٢٣٢/٨ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٠٠/١٩ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ١/١٩ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ١٠٧/١٦ .

(٨) انظر : تفسير الطبري ٩/٢٩ .

رَبَّهَا ﴿[الطلاق: ٨] ، أي : تركته ولم تقبله^(١) .

والخلاصة في معنى العتو أنه : التمرد وتجاوز الحد في العصيان والاستكبار ، كما تبين ذلك آنفاً من خلال بيان أهل اللغة والتفسير له .
وعلى ضوء هذا يظهر أن العتو أبلغ من الكبر وتظهر العلاقة بينهما من وجهين :

الوجه الأول : أن الكبر سبب مفضٍ إلى العتو ، فإن العتو سلوك منحرف ، والكبر يفضي إلى كل سلوك من هذا النوع ، فلا يتمرد متمرد على كل ماهو حق ، ويتجاوز حده في العصيان إلا وهو يعتقد في نفسه عظمة تمنعه من الإذعان للحق ، وتقف حائلاً بينه وبين الكف عن كل قبيح من القول والسلوك .

الوجه الثاني : أن العتو يعتبر من الكبر الظاهر ، بحيث إذا ظهر العصيان والتمرد في سلوك المتكبر قيل عنه : عات ، فالعتو أمر ظاهر ملموس محسوس شأنه شأن التكبر .

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٨/١٥٠ .

العجب والكبر :

العُجب في اللغة يدلّ على شدة السرور بالشئ المعجب به ، حتى لا يعادله شيء عند صاحبه ، يقال : فلان معجبٌ بنفسه إذا كان مسروراً بخصالها^(١) ، مزهوا بما يكون منها حسناً أو قبيحاً^(٢) .

وفي الاصطلاح : « إعجاب المرء بنفسه هو : ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله ، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم »^(٣) .
وذكر الإمام الغزالي أن العُجب هو : استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها للمنعِم^(٤) .

إذا العجب يكون بالنفس وخصالها ، من حيث جمال الصورة وحُسن الصوت ، وعظم الخلقة ، وتمام القوة وكمال العقل .
كما يكون العجب بالمال ، وبالحَسَب ، وبكثرة الولد والعشيرة والأصحاب والأتباع والخدم .

وهذا كله من قبل العجب بالأُمور الدنيوية ، حيث يركن الإنسان إلى هذه الأُمور ويغتر بها ، ويفرح أشدّ الفرح ، ويستعظم نفسه لأجلها ، وينسى كونها نعم من الله تعالى يجب عليه أن يحافظ عليها ويستزيد منها ، وذلك بشكر المنعم المتفضل بها ومعرفة حقه سبحانه وتعالى فيها .

أما ما يعجب به الإنسان من قبل الدين ، فإنه يعجب بعلمه وعمله ، كما يعجب برأيه صواباً كان أم خطأً^(٥) .

أما إعجابه بعلمه وعمله ورأيه الصواب ، فمن حيث استكثاره لعمله وعبادته وطاعته واستعظامه لعلمه ومعرفته وإطلاعه وثقافته ، واستحسانه لرأيه وإضافة كل ذلك إلى نفسه حامداً لها عليه ، ناسياً نعمة ربه جل شأنه ومنته وتفضله عليه وإكرامه له .

(١) انظر : الفروق اللغوية ص ٢٠٦، ٢٠٧ .

(٢) انظر : لسان العرب ٧١/٢ فصل العين حرف الباء ، مادة عجب .

(٣) فتح الباري ٢٦١/١٠ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ١٧٨/٤ .

(٥) الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٨ .
نقلاً

وأما إعجابه بالرأي الخطأ يكون منه ، فإن ذلك اتباع لهوى النفس ،
وذلك غاية الخذلان ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] .

وبالعجب بالرأي الخطأ هلك عامة الكفار وأهل البدع من أهل الإسلام ،
وكذلك أهل الخطأ في الفتيا ، حيث يعتقدون صحة قولهم وصواب رأيهم ،
فيستحسنونه بغير علم وضح لهم ولادليل تبين لهم ، فاسترشدوا به ، ولكنهم
تأولوا أو قاسوا على غير قياس ، فأعجبوا بتأولهم وقياسهم وظنوا أنه الحق
المبين ، والحق في غير مذهبوا إليه ، ولكن غفلتهم وجهلهم سبب عجبهم^(١) ،
والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ
مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨] .

وبعد فإن بين العجب والكبر صلة وقاربة كما أن بينهما اختلافاً
وافتراقاً ، أما الصلة التي بينهما فمن وجهين :

الوجه الأول : أن الكبر والعجب كلاهما خلقٌ سيئٌ ، وصفةٌ
قبيحةٌ ، وداءٌ مهلكٌ ، وكل من المعجب والمتكبر سقيمان ، يمقتهما الله
تبارك وتعالى ويغضهما عباده .

ولقد ورد ذم العجب والكبر في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى
الله عليه وسلم في كثير من النصوص .

أما الكبر فموضوع هذه الدراسة ، ومن المؤمل أن يوجد فيها ومن خلال
مباحثها من أدلة الكتاب والسنة في ذمِّ ما المرجو فيها السداد والتوفيق من الله
تعالى .

وأما العجب فنكتفي ببعض الأدلة من الكتاب والسنة الواردة في ذمِّه
وذلك من باب التذكير والتنبيه .

١ - قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ
وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] .

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٣٤٧، ٣٤٨ .

في غزوة حُنين^(١) بلغ جيش المسلمين اثني عشر ألف مقاتل ، وهو عدد لم يبلغه جيش المسلمين في أي غزوة سابقة ، فلما رأى المسلمون كثرة عددهم أُعجبوا به حتى قال قائلهم : لن نُهزم اليوم من قلة^(٢) .

وتلك لحظة من لحظات ضعف النفوس البشرية حين تنسى مصدر النصر وسببه الحق ، اعترت بعضهم ، فكان هذا الدرس الإلهي لهم ليعلموا أن النصر من عند الله تعالى وتأييده وتقديره ، ولادخل للعدَد والعُدَد فيه قلة وكثرة ، ولهذا ما أجدت كثرتهم عنهم شيئاً إذ بغتهم العدو ، فولوا مدبرين لايلوون على شيء ، وما ثبت إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه بعض أصحابه ، ثم أنزل الله تعالى نصره وتأييده لرسوله وللمؤمنين بعد أن بلغ بهم الحال كما وصف الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَصَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] .

قال ابن كثير في تفسيره : « قال ابن جريج^(٣) عن مجاهد : هذه أول آية نزلت من براءة يذكر الله تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وتأييده وتقديره لابعدهم ولابعدهم ، ونبّههم على أن النصر من عنده قلّ

(١) واد بين مكة والطائف ، وكانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، تفسير ابن كثير ٣٥٧/٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل عن الربيع أن رجلاً قال يوم حنين : لن تغلب اليوم من قلة ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ .

(٣) الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم : أبو خالد وأبو الوليد عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج القرشي الأموي المكي ، مولى أمية بن خالد ، صاحب التصانيف ، وأول من دَوَّن العلم بمكة ، حدث عن عطاء بن أبي رباح فأكثر وجود ، وعن ابن أبي مليكة ونافع مولى ابن عمر... الخ ، وحدث عنه : ثور بن يزيد الأوزاعي والليث والسفيان... الخ ، مازال يطلب العلم حتى كبر وشاخ ، كان من أوعية العلم ، ومن أصدق الخلق لهجة وأحسنهم صلاة ، وكان يرى المتعة فتزوج بستان امرأة وقيل بتسعين . مولده سنة ثمانين ووفاته سنة خمسين ومائة للهجرة .

انظر : سير أعلام النبلاء ٦/٣٢٥-٣٣٦ .

الجمع أو كثر، فإن يوم حُين أعجبهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده وإن قلّ الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين»^(١).

٢ - وهذه أيضاً أمثلة من كتاب الله تعالى لأصناف من المعجبين ركنوا إلى ما أعجبوا به من قوة ومال وسلطان وحسب وعلم وعمل، فقادهم ذلك العُجب إلى الاستكبار والتعالى، بل وفي أحيان كثيرة إلى البغي والطغيان، وكان أن وكلهم الله تعالى إلى ما ركنوا إليه وأعجبوا به، فضّلوا عن سواء السبيل، ونالوا من الله تعالى الجزاء الأوفى، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

أ - أعجب صاحب الجنتين بما أوتي من المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وافتخر بذلك على صاحبه الفقير وقال له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، ودخل جنته وقد أخذت زخرفها، وطاب ظلها، وعذب ماؤها، وأينعت ثمارها، وأصبحت بهجة للناظرين، فأخذ به العجب كل مأخذ، ونطق بلسان الجاهل بربه وبنفسه وبحقيقة الحياة الدنيا؛ المتكبر المتعالي بما أوتي قائلاً: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]، وتمادى في تعاليه وتعاضمه حتى أنكر وجحد اليوم الآخر، فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدِدَتْ إِلَيَّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، إنه يقول: إن الساعة لن تقوم ولن يكون هناك بعث ونشور، وعلى سبيل الفرض لو كان هناك رجعة إلى الله لكان حالي خيراً مما أنا عليه الآن، هكذا سوّلت له نفسه المستعلية وخيل له كبره وتغطرسه البغيض فكان من الكافرين.

ولأن قدرة الله لا حدود لها، ولأنه سبحانه وتعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ولأنه جل وعلا هو المعطي وهو المانع، كان لا بد أن ينال ذلك الجاحد جزاء تكبره وكفره، فما هي إلا لحظات معدودة وإذا بكل ذلك النعيم يصبح هشيماً تذروه الرياح، وإذا بذلك المغرور الجاهل ينتبه من غفلته

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٦، ٣٥٧.

فيضرب كفاً بكف ندماً وحسرة، ولكن: لات ساعة مندم^(١).

إن القادر الحكيم قد أمر، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٢، ٤٣]، والحقيقة التي لاجدال فيها هي: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]، فلامال ولابنون ولاجاه ولاسلطان ولاغير ذلك نافع صاحبه أو مغن عنه شيئاً مالم يكن الإيمان بالله هو القائد والمنطلق.

ب - ومن الله تبارك وتعالى على قارون بالمال الكثير حتى إن مفاتحه يعجز عن حملها الجماعة الأقوياء، لكن قارون نسي أن ذلك نعمة وتفضل من الله تعالى، وأعجب بما أوتي، فبغى وطغى واستكبر وتعالى، وقال مستعظماً لنفسه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، يقول إنه ما أوتي ذلك المال الكثير إلا لمحبة الله تعالى له وعلمه أنه أهل لذلك مستحق له^(٢)، وكذب فيما زعم وادّعى، ولهذا ردّ الله جل جلاله عليه زعمه بقوله تذكيراً وترهيباً ووعيداً: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٨٧]، إن الدنيا يعطيها الله تعالى لمن أحب ولمن لم يحب، لكن الإيمان والتقوى لايعطيه إلا لمن يحب، لهذا فكم هم أولئك الذين مُتّعوا بالكثير من زينة الحياة الدنيا أهلّكهم الله بكفرهم وعدم شكرهم، وما أغنت عنهم دنياهم شيئاً.

ونال قارون مانال غيره من المستكبرين وحق عليه العذاب وجعل عبرة لكل معتبر: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

ج - وأعجب قوم عاد بقوتهم وبطشهم وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ناسين قوة الله القوي المتين، ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

(١) مثل يضرب لمن يندم على الشيء يفعله بعد فوات الأوان.

(٢) تفسير ابن كثير ٤١٠/٣.

يَجْحَدُونَ ﴿[فصلت: ١٥] .

ولما كانت قوتهم هي سبب استكبارهم وغرورهم ، أرسل الله عليهم من خلقه وجنوده ريحاً جعلهم ﴿صَرَغَى كَأَنَّهُمْ أَغْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ، فما أغنت عنهم قوتهم ومانفعهم بطشهم .

د - وقد يعجب المؤمن بقوته أيضاً ويتكل عليها ، فيبتليه الله تبارك وتعالى رحمة منه سبحانه وتعالى ليتذكر فيعود إلى الحق ، ومن ذلك ما ذكر عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، تحمل كل واحدة فارساً يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فحرم ما أراد من الولد^(١) .

هـ كما قد يعجب المؤمن بعمله وطاعته ، وقد كان طلحة بن عبيدالله^(٢)

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الجهاد ، باب من طلب الولد للجهاد ٤/١٧٤ ، وفي كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ، ٤/٦٢٥ ، وفي كتاب النكاح باب قول الرجل : لأطوفن الليلة على نسائي ٧/٧٧ ، وفي كتاب الإيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كتاب كفارات الأيمان ، باب الاستثناء في اليمين ٨/٥٤٨ ، وفي كتاب التوحيد باب في المشيئة والإرادة ٨/٨٠٩ ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٣/١٢٧٥ .

أقول : والحديث وإن كان فيه دلالة على قوة نبي الله سليمان عليه السلام وقدرته الكبيرة على إتيان النساء -وتلك من خصائص الأنبياء- إلا أن قوله هذا هو من باب تمنى الخير إلا أن شيئاً عرض له فنسي أن يقول : إن شاء الله مع اليقين بأنه عليه السلام لم يغفل عن التفويض إلى الله تعالى بقلبه ، أما العجب الذي أشار إليه الحارث المحاسبي في «الرعاية» ٣٦٠ والذي ذكرته هاهنا فيقينا ليس هو العجب الذي عرفناه بأنه الركون إلى النعمة مع نسيان إضافتها للمنعم سبحانه وتعالى ، فمن عرف حال الأنبياء وأدبهم مع الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم أعظم من أن يعجبوا بشيء هذا العجب الذميم .

انظر : شرح الحديث في فتح الباري ٦/٥٧١ ، ١١/٧٤٢ ، ٣/٧٤٣

(٢) هو : طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمرو ، القرشي التيمي المكي ، أبو محمد ، أحد العشرة المشهود بهم بالجنة ، ممن سبق إلى الإسلام وأوذي في الله ، غاب عن

<=

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه عمله العظيم يوم أحد ، إذ فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه حتى قال عمر رضي الله عنه : ما زال يعرف في طلحة نأو^(١) منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكن طلحة رضي الله عنه لم ينقل عنه أنه احتقر مسلماً بسبب هذا^(٢) .
وبكل تأكيد فإن عجب طلحة ما كان إلا اعتزازاً وفرحاً بمقام به من عمل صالح عظيم يوم أحد ، يوم أن فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وجاهد دونه أعظم الجهاد رضي الله عنه وأرضاه .

وليت الواحد منا له مثل هذه الأعمال الصالحة الجليلة أو قريباً منها يعتز بها ويرجو عظيم ثوابها عند الله تعالى كما كان حال طلحة رضي الله عنه ، ولكن هيهات أن تساوى حصاة جبلاً ، إنما نرجو رحمة ربنا ومغفرته فرحمته وسعت كل شيء وهو سبحانه وتعالى أهل التقوى وأهل المغفرة .

ونحن إذا أعجب الواحد منا فإنما يعجب بزينة من زينة الحياة الدنيا وبقيمة من قيمها الرخيصة ، ثم يكون منه التكبر والخيلاء ، نسأل الله تعالى عفوه ورحمته .

ومن أدلة السنة النبوية على ذم العجب وأهله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتُهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(٣) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ

بدر ، وشهد أحداً وأبلى فيها بلاء عظيماً ، جواد فياض بالخير ، قتل في سنة ست وثلاثين يوم الجمل مع علي رضي الله عنه ، وهو ابن ثنتين وستين سنة أو نحوها رضي الله عنه .

انظر : سير أعلام النبلاء ٢٣/١ ، اسد الغابة ٥٩/٣ .

(١) أي : عجب .

(٢) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٣٩٢ .

(٣) حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب من جر ثوبه من الخيلاء ٢٦٦/٧ ، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة ١٦٥٣/٣ ، ١٦٥٤ . واللفظ للبخاري .

فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ»^(١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مِثْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ » .

وقال ابن مسعود^(٢) رضي الله تعالى عنه : « الهلاك في اثنتين : القنوط ، والعجب »^(٣) .

فهذه الأحاديث وغيرها دالة على ذم العجب وأهله ، ودالة على أنه داء خطير له عواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة ، فإن الإنسان إذا أعجب نسي ذنوبه ، وإن ذكر شيئاً منها استصغره واستقله ، وما نسيه من ذنوبه لم ير أنه ينبغي أن يتوب منها ، وما استصغره لم يَخَفْ منه ، فيبقى في كلا الحالتين مقيم على ذنوبه فيهلك .

كما أن الإنسان إذا أعجب زكى نفسه ، فإذا زكاها لم يتهمها بالتقصير ، ولم تعظم عليه مخالفتها لأمر ربها ، ومع هذا يظن أنها ناجية^(٤) ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢] .

وإنما ذم العجب في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لأنه - إضافة لما سبق - يدعو إلى أخلاق مذمومة شتى ، ومنها الكبر ،

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ، من حديث إياس بن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه ٣٦٢/٤ ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٢) الإمام الحبر فقيه الأمة أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، المكي ، المهاجري ، البصري ، حليف بني زهرة ، من السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين ، روى وحوى علماً كثيراً ، أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أشبه الصحابة بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم وسمته ، مناقبه جمة كثيرة . مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه وأرضاه .

انظر : سير أعلام النبلاء ٤٦١/١ ، أسد الغابة ٣٥٦/٣ .

(٣) الرعاية لحقوق الله ٣٣٦ . ولم أقف على مرجع سواه .

(٤) انظر : المصدر السابق .

والمن بجميع أعماله واستعظام النفس ، والعمى عن آفاتهما ، والأمن من مكر الله وعذابه ، والثناء على نفسه ومدحها وتزكيتها ، والنظر إلى غيره باستخفاف واستجهاً ، والإصرار على الخطأ ، وعدم قبول النصيحة ولهذه الآفات وغيرها من آفات العجب المؤدية إلى العواقب الوخيمة في دين الإنسان ودنياه ، عُذَّ العجب من المهلكات^(١) .

الوجه الثاني من أوجه الصلة بين العجب والكبر هو : أن العجب أصل الكبر ومبدؤه ، وأعظم أسبابه المؤدية إليه ، فالمتكبر لابدّ أولاً أن يكون معجباً بنفسه أو بما أوتي من صفات الكمال الديني والدنيوي كالعلم والعبادة والمال والجاه وغيرها ، فإذا أُعجب المرء بذلك كانت تلك أول خطوة يخطوها في سلّم الكبر الذي أوله عُجب ، وأوسطه جبروت وبغي وطغيان ، ونهايته كفر بالواحد الديان .

وأما الاختلاف الذي بين العجب والكبر فمن جهتين أيضاً :
الوجه الأول : أنه ليس من الضروري أن يكون المعجب متكبراً ، إذ قد يُعجب الإنسان بنفسه ويستعظم ما أُعطي من دين أو دنيا ، ولكن لا يتعظم ولا يستعلي به على أحد ، فيكون حينئذ معجباً ، لأنه نسي منة الله تعالى بذلك وركن إلى ما أُعطي ولا يكون متكبراً لأنه لم يستطل بذلك على أحد ولم يحقره ، فلا يكون متكبراً إلا إذا أُعجب بنفسه ، ثم نظر إلى غيره نظرة احتقار وازدراء وانتقاص^(٢) .

الوجه الثاني : يختلف العجب والكبر في عناصرهما ، فللكبر ثلاثة عناصر :

١ - متكبر .

٢ - متكبرٌ عليه .

٣ - متكبرٌ به .

أما العُجب فله عنصران فقط هما :

١ - مُعَجَّبٌ .

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٧ ، وإحياء علوم الدين ١٧٧/٤ .

(٢) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٧ ، وإحياء علوم الدين ١٤٤/٤ .

٢ - معجَبٌ به .

وليس هناك معجب عليه ، بمعنى أن الإنسان يكون معجبا وإن لم يكن هناك غيره ، لكنه لا يكون متكبراً إلا مع وجود غيره ، وهو يرى أنه فوقه في دين أو دنيا^(١) ، لذلك عُرِّفَ الكبير بأنه : الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه^(٢) ، كما عُرِّفَ العجب بأنه : ملاحظة النفس بعين الكمال مع نسيان نعمة الله^(٣) .

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٧ ، وإحياء علوم الدين ١٤٤/٤ .

(٢) إحياء علوم الدين ١٤٤/٤ .

(٣) ذكره ابن حجر في الفتح عن القرطبي ٢٦١/١٠ .

العدوان والكبر :

عدا ، العدو : التجاوز ومنافاة الالتئام ، فتارة يعتبر بالقلب ، فيقال له :
العداوة والمعاداة ، وتارة بالمشي فيقال له : العَدُو ، وتارة في الإخلال بالعدالة
في المعاملة ، فيقال له : العُدْوَانُ والعَدُو ، وتارة بأجزاء المَقَرِّ ، فيقال له :
العَدُوَاء ، يقال : مكان ذو عَدُوَاء ، أي : غير متلائم الأجزاء^(١) .
يقال : عدا فلان عَدُوًّا وَعُدُوًّا وَعُدُوَانًا وعداءً ، أي : ظلم ظلمًا جاوز فيه
القدر .

والعادي : الظالم ، وأصله : من تجاوز الحد في الشيء .
والاعتداء والتعدي والعدوان : الظلم ، وكذلك العداء بالفتح والمد .
وعدا الأمر يعدوه وتعَدَّاه : تجاوزه ، وكذا : عدا قدره وطوره .
والتعدي : مجاوزة الشيء إلى غيره^(٢) .
هذا مجمل ما ذكره أهل اللغة في معنى لفظة (عدا) ومشتقاتها ،
وخلاصته : أن العدوان أصله : مجاوزة الحد والقدر والحق .

وهذا المعنى هو الذي جاءت عليه النصوص الشرعية العديدة ، وفسر
بذلك من قبل أهل الشأن ، مثل قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ، أي : فلا تتجاوزوها^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى
وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٣١] ، أي : الذين عدوا ما أحل الله
لهم إلى ما حرم عليهم ، فهم الملومون^(٤) .

وفي الحديث : « سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ »^(٥) ، أي : يخرجون فيه

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٨ .

(٢) انظر : لسان العرب ٣٢/١٥ — ٣٤ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢٨٤/١ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٨٤/٩ .

(٥) أخرجه أبوداود من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه في كتاب الطهارة ، باب
في الإسراف في الماء ٢٤/١ ، وفي كتاب الصلاة باب الدعاء ٧٧/٢ من حديث
سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وأخرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن مغفل
في كتاب الدعاء ، باب كراهية الاعتداء في الدعاء ٤٤٩/٢ ، وأخرجه أحمد من
حديث سعد ١٧٢/١ ، ١٨٣ ، وأخرجه من حديث عبدالله ٨٦/٤ ، ٨٧ ، ٥٥/٥ .

عن الوضع الشرعي والسنة المأثورة^(١).

العلاقة بين العدوان والكبر :

على ضوء ذلك المعنى للعدوان وماعرفناه سابقاً من معنى الكبر ، فإن العلاقة بينهما هي : أن الكبر يعد معنى من معاني العدوان ، إذ العدوان مطلق الظلم ، فيدخل تحته كل صورة للظلم ، ولاشك أن الكبر من تلك الصور البغيضة ، فالمتكبر ظالم لنفسه حين يعرضها لغضب الله تعالى ومقتته ، وبغض العباد وذهمهم ، وظالم لغيره يتطاول عليه ، وظالم للحق بتعاليه عن الإذعان له وأنفته من قبوله .

ومن وجه آخر فإن الكبر سببٌ للعدوان ، فالمتكبر الذي لا يرى أحداً فوقه لا يتورع أبداً عن العدوان بصورتيه : عدوان على الحق ، وعدوان على الخلق .

وحين نتأمل قصص المتكبرين في كتاب الله تعالى تظهر لنا في سلوكياتهم هاتان الصورتان من العدوان ، عدوان على الحق بعدم قبوله وبالصد عنه وبمحاربتة وأهله ، وعدوان على الخلق بتحقييرهم واستعبادهم ، بل وبإيذائهم وتقتيلهم .

وكمثال لهذه الصورة من الظلم والعدوان في سلوك المتكبرين ننظر إلى آيات من كتاب الله تعالى قصت علينا من خبر فرعون الذي علا وتكبر في الأرض علواً وكبراً كبيراً ، وفرعون عليه لعنة الله جحد الحق الذي دونه كل حق ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، وجاءته آيات الله البينات ، فكذب بها واستكبر ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَبَشِيرٍ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨] ، وفرعون استعبد واسترذل العباد وأفسد في الأرض أيما إفساد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٠] .

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ١٩٣/٣ .

فهذا أحد المتكبرين يظهر هذا العدوان المبین في سلوكه ، وغيره من المتكبرين هذا حالهم كل بحسب درجته من التكبر ، وسيأتي بإذن الله تعالى ذكر قصص المتكبرين في فصل مستقل من فصول هذه الرسالة ، والمؤمل أن تذكر على وجه حسن وبالله التوفيق .

وخلاصة ماسبق أن العدوان صورة من صور الكبر الظاهر ، وهو أبلغ من الكبر ، فالكبر قد يبقى خلقاً في النفس لا يظهر له أثر ، لكن العدوان غير ذلك . والله تعالى أعلم .

أوجه العدوان في القرآن :

ذكر العدوان في القرآن على وجهين^(١) :

أحدهما : الظلم الصراح ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] .

والثاني : السبيل ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] .

(١) انظر : نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، لابن الجوزي ص ٤٣٢ .

العزة والكبر :

ذكر الراغب أن العزة : حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ، من قولهم : أرض عزاز ، أي : صلبة ، وتعزز اللحم : اشتد ، وعزّ : كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه^(١) .

والعزة في أصل لغة العرب تعني : القوة والشدة والغلبة والقهر^(٢) ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٤٥] ، أي : أرقاء على المؤمنين رحماء بهم ، أشداء على الكافرين غلظاء بهم^(٣) . وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُلِيتْغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩] ، أي : يطلبون عندهم المنعة والقوة^(٤) . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] ، أي : غلبني ، وقيل : صار أعز مني في مخاطبته إياي ؛ لأنه إن تكلم فهو أبين مني ، وإن بطش كان أشد مني ، فقهرني^(٥) .

وقد تستعار العزة للقلة ، من قولهم : عزّ الشيء ، أي : قل^(٦) . كما قد تستعار للصعوبة ، ومن ذلك قول الله تعالى في وصف رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، أي : صعب^(٧) .

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٢ .

(٢) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٢٨/٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢٨٦/٦ .

(٤) انظر : المصدر السابق .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٤٤/٢٣ ، مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣ .

(٦) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣ ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ

٣٥٩ .

(٧) انظر : المصدرين السابقين .

كما قد تستعار للحمية والأنفة المذمومة^(١)، يعني الكبر، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، أي: هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً^(٢)، تحمله العزة حمية الجاهلية على الفعل بالإثم، أي: بالظلم والعزة والتكبر والمنعة^(٣). وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢]، أي: حميَّة ومشاقة وتكبر واستكبار وتجبر^(٤).

أقول: وكما جاء في كتاب الله الكريم وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن العزة الحقيقية هي لله تبارك وتعالى، فهو العزيز القوي القاهر الغالب القادر القدير المقتدر، يقول الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيَّتُغَوَّنْ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

ففي هذه الآيات البينات تأكيداً إثر تأكيد على أن الله جل جلاله هو المنفرد بالعزة بكل وجه منها لا شريك له ولا مطمع لغيره فيها^(٥)، ومن هنا جاء في الحديث الصحيح: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذْبَتُهُ»^(٦)، فهنا بيان أن العزة والكبرياء صفتان لله تعالى ينفرد بهما عمن سواه، فكما أن الإزار والرداء يشملان صاحبهما ولا يكون له فيهما مشاركتي، فكذلك العز والكبرياء بالنسبة لله جل جلاله لا ينبغي أن يشركه فيهما أحد^(٧).

ويبين الإمام النووي أن الضمير في «إزاره ورداؤه» يعود إلى الله سبحانه

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥/٣/٢.

(٣) انظر: تفسير البغوي ١٨٠/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١١٨/٢٣، تفسير ابن كثير ٢٨/٤، فتح القدير ٤١٩/٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١٣٩/١١، ١٢٠، الجامع لأحكام القرآن ٢١٠/١٤، تفسير

ابن كثير ٥٧٩/١، فتح القدير ٣٤١/٤.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً في كتاب البر ٢٠٢٣/٤، باب تحريم الكبر.

(٧) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٢٨/٣.

وتعالى للعلم به ، وأن في الحديث محذوف تقديره : قال الله تعالى : ومن ينازعني ذلك أعذبه ، قال : ومعنى : ينازعني : يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك ، قال : وأما تسميته إزاراً ورداءً فمجاز واستعارة حسنة ، معناها : أن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له ، قال : فضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق وله ألزم واقتضاهما جلاله^(١) .

ولما كانت العزة لله تعالى وحده يعز بها من يشاء ويذل من يشاء ، فإنه وصف أولياءها فقال : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ، والمعنى : أن القوة والغلبة لله وحده ولمن وهبها له وأفاضها عليه من رسله وصالحى عباده لالغيرهم^(٢) ، فما عزة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أنفسهم وبأنفسهم ، ولكنها من الله وبالله سبحانه وتعالى ، فهم أعزاء به سبحانه ، هو الذي يمدهم بالقوة والشدة والغلبة والمنعة ويؤيدهم بالنصر والتمكين .

وهذه الآيات نزلت في شأن المنافقين حين قال قائلهم^(٣) وكانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة من الغزوات^(٤) - كما بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] ، يعنون بالأعز أنفسهم ، وبالأذل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فنزلت هذه الآية الكريمة لدفع هذا الباطل والإفك وزهقه مبينة أن العزة لله تعالى ولأوليائه وأحبائه رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

لقد استعز المؤمنون بطاعة ربهم وعبادته وتوحيده ، فكانوا أهلاً لأن

(١) انظر : شرح النووي على مسلم ١٦/١٧٣ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥/٢٣٢ .

(٣) هو رأس النفاق : عبدالله بن أبي بن سلول ، وفي ذلك حديث مخرج في الصحيحين وغيرها .

(٤) هي كما ذكر غزوة بني المصطلق من خزاعة ، وهي غزوة المريسيع ، قال ابن إسحاق سنة ست ، وقال موسى بن عقبة سنة أربع .

انظر : معلقه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب غزوة بني المصطلق ٥/٢٢٢ ، وانظر ذكر الغزوة في سيرة ابن هشام ٢/٢٨٩ .

يمنحهم جل جلاله العزة في الدنيا والآخرة . واستعز غيرهم من المنافقين والكافرين بمن لا يملك العزة ولا يستحقها ، وطلبوها من غير واهبها ، فمانالوا إلا الذل والخزي في الدارين ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] .

إن الذي ينشد العزة عليه أن يلتمسها من مصدرها ، ولا مصدر لها سوى الله رب العزة والجلال ، قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠] ، وهذا تنبيه لذوي الأقدار والهمم لمعرفة من أين تنال العزة ، ومن أين تُستحق ، فمن طلبها وصدق في طلبها من الله تعالى بافتقار وذل وسكون وخضوع وجدها عنده غير ممنوعة ولا محجوبة عنه ، ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده^(١) ، ولن ينال شيئاً ؛ لأن فاقده الشيء لا يعطيه .

ومن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ويدخل دار العزة فليقصد بالعزة : الله تعالى والاعتزاز به ، فإنه من اعتز بالعبد أذله الله ، ومن اعتز بالله أعزه سبحانه وتعالى^(٢) ، فلقد اعتز المؤمنون بالله فأعزهم ، وجعل العزة لهم ، كما جعلها لنفسه جل جلاله ، ولقد استعز المنافقون بأهل الشرك والكفر ، فعادوا بالذل وبأؤوا بالصغار ، وجاء تفرعهم وتوابعهم بقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِغْتُمْ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩] ، فهذا الاستفهام في الآية هو لتفريع أولئك المنافقين الذين قصدوا ابتغاء العزة ممن لا يملكها ، فوبخهم الحق سبحانه وتعالى وبين لهم أن العزة له كلها جل جلاله^(٣) ، وهو المعز سبحانه وتعالى الذي يهب العزة لمن يشاء من عباده^(٤) ويمنعها من يشاء منهم ، فهو سبحانه وتعالى القائل في كتابه الكريم : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٧/١٤/٢١٠ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١/١٤/٢١٠ .

(٣) انظر : فتح القدير ١/٥٢٦ .

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٢٢٨ .

قَدِيرٌ ﴿[آل عمران: ٢٦] .

العزة في القرآن الكريم :

ذكرت العزة في القرآن الكريم على أوجه هي ^(١) :

١ - العظمة ، وهي عظمة بحق ، وذلك في شأن الله تعالى ، ومنه الآية الكريمة : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١] ، وعظمة بغير حق ، وذلك في شأن العباد ، ومنه قول الله تعالى : ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] .

٢ - المنعة ، كما في قوله تعالى : ﴿أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩] .

٣ - الحميَّة ، كما في قوله تعالى : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢] .

٤ - الغلبة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] .

٥ - الشدة والقوة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] .

العلاقة بين العزة والكبر :

قد تبين لنا مما سبق أن العزة في وجه من وجوها تعني التعزز الذي هو الأنفة والكبر ومن ثم فإن العزة أعم من الكبر ، وعلاقته بها أنه وجه من وجوها ، ولا يكون هذا التعزز المذموم إلا في حق العباد حينما تأخذهم العزة بالإثم فيستعلون على الحق ويستكبرون عن قبوله ويتطاولون على الخلق ويأنفون منهم .

قال الله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦] .

فهذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً ^(٢) ، فهو ييدي من نفسه لمن حوله الصلاح ويدعي الخير ويظهر من ذلك مايطن خلافه ، حتى إذا تولى

(١) انظر : **نزهة** الأعين النواظر ٤٣٤ ، وجوه القرآن ٣٩٠ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٥/٣/٢ .

مكانة فيهم إذا بباطنه الخبيث يظهر ، فإذا هو مَكْرٌ وشرٌّ وفساد يهلك الحرث والنسل ، فإذا ما نصح وذكّر بالله الذي كان يُشْهَدُهُ ويحلف به على مافي قلبه من الخير وقيل له : اتق الله ! ولا تفسد هذا الفساد ، إذا هو يتعزز ويأنف من أن يقال له ذلك ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ ، أي : لم يقبل الوعظ بل حملته العزة حمية الجاهلية على الفعل بالإثم ، أي : بالظلم والتكبر والمنعة^(١) .

وقال تعالى في وصف الكافرين : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص: ٢] ، أي : في حمية وكبر وامتناع من قبول الحق^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] ، أي : ذق العذاب أيها المتعزز المتكبر في زعمك وفيما كنت تقوله^(٣) .

وجاء في الحديث في بيان سبب رفع قريش لِبَابِ^{الكعبة} عند بنائها قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها : « وَهَلْ تَدْرِينَ لِمَ كَانَ قَوْمُكَ رَفَعُوا بَابَهَا؟ قَالَتْ : قُلْتُ لَا ، قَالَ : تَعَزُّزًا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا ، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوْنَهُ يَرْتَقِي حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ » ، أي : فعلوا ذلك تكبراً وتشدداً على الناس ، وجاء في بعض النسخ (تعزراً) براء بعد زاي من التعزيز ، أي : التوقير ، فيما أن يراد توقير البيت وتعظيمه ، أو تعظيم أنفسهم وتكبرهم على الناس^(٤) .

ولقد كانت قريش تظهر الاستكبار والتعظم يحرم الله جل جلاله كما بين الله تعالى ذلك فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] ، أي : أنهم كانوا إذا تلى عليهم آيات الله يولوا عنها كراهة أن يسمعوها ، مستكبرين بحرم الله يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه ، يقولون لا يظهر علينا فيه أحد ؛ لأننا أهله ، كما كانوا يعتقدون في نفوسهم أن لهم بالمسجد الحرام أعظم الحقوق

(١) انظر : تفسير البغوي (معالم التنزيل) ١/١٨٠ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢/١٥٣ ، زاد المسير ٧/٩٩ ، تفسير ابن كثير ٤/٢٨ ، فتح القدير ٤/٤١٩ .

(٣) انظر : فتح القدير ٤/٥٧٩ .

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٢٢٨ .

والمنازل على الناس فيستكبرون لذلك^(١).

وخلاصة القول في العلاقة بين العزة والكبر أن الكبر من معانيها ولا يكون إلا في حق العباد، وأما العزة الحقّة فله تعالى لا يشاركه فيها أحد، إلا أنه سبحانه يهب منها لعباده المؤمنين ما يشاء من الغلبة والنصر والشدة والتمكين. والله أعلم.

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٨/١٨، الجامع لأحكام القرآن ٩١/١٢/٦، تفسير ابن كثير ٢٥٩/٣، مجموع الفتاوى ١٦٣/١١.

العظمة والكبر :

العِظَم بكسر العين خلاف الصَّغَر ، عِظْم كصَغُر عِظْماً وعظامه فهو عظيم وعُظام كغراب وزُنَّار^(١) عُظَام .

وعِظْمُه تعظيماً وأعْظَمه : فخَّمه وكَبَّرَه^(٢) .

واستعظمه وأعظمه : رآه عظيمًا^(٣) .

واستعظم الرجل وتَعَظَّم : تكبَّرَ^(٤) .

والعظمة والعُظَّامة كَرُمَّانة ، والعظُموت : الكبر والنخوة والزهو^(٥) .

هذا مجمل ما ذكر في معنى العظم في اللغة ، ومنه يتبين لنا أن العظمة والتعظم بمعنى الكبر والتكبر ، فتكبر : رأى نفسه كبيراً ، وكذا تعظم : رأى نفسه عظيمًا .

والعظمة في الحقيقة لا تكون إلا الله عز وجل فهو سبحانه وتعالى العلي العظيم الذي جاوز قدره وجل عن حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته^(٦) .

جاء في الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ »^(٧) .

ففي هذا الحديث ضرب الله عز وجل الإزار والرداء مثلاً في انفراده بصفة الكبرياء والعظمة ، أي : ليستا كسائر الصفات التي قد يتصف بها الخلق مجازاً

(١) انظر : القاموس المحيط ١٤٧٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : المصدر السابق .

(٤) انظر : المصدر السابق .

(٥) انظر : لسان العرب ٤٩٠/١٢ ، القاموس المحيط ١٤٧٠ .

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٥٩/٣ ، ٢٦٠ .

(٧) أخرجه أبوداود في كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع ٥٥٧/٢ ، وأحمد ٣٧٦/٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ ، وانفرد به ابن ماجه بإخراجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ٥٥٧/٢ .

كالكرم والرحمة وسواها ، وشبه الله عزوجل هاتين الصفتين بالإزار والرداء ؛ لأن المتصف بهما يشملانه كما يشمل الرداء والإزار الإنسان ، ولأنه لا يشاركه في إزاره وردائه أحد ، فكذلك الله عزوجل لا ينبغي أن يشاركه فيهما أحد^(١) ، والله المثل الأعلى .

ولا يوصف العبد بالعظمة إلا إذا أريد بها كبره وتجبره الذي به ينازع ربه العلي العظيم صفة كبريائه وعظمته التي لا يستحقها سواه تبارك وتعالى ، ولآجل ذلك توعدده الله عزوجل بأن يقذفه في النار كما في الحديث الذي أماننا .

ولا يقذف الله تعالى عبداً من عبده في نار جهنم إلا وهو غضبان عليه ، والمتعظم هذا حاله يوم يلقي ربه الجليل سبحانه وتعالى ، فقد جاء في الحديث : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ » ، والتعظم هو الكبر .

وخلاصة ماسبق أن العظمة في حق الله تعالى هي صفته التي تليق به جل جلاله ، فهو العظيم عظمة لا يقدر قدرها إلا هو عزوجل . أما العظمة في وصف العبد فهي التكبر بغير حق ، فعبد مخلوق لامتتهى لضعفه وعجزه وافتقاره ، ليس له من خصائص العظمة مثقال ذرة بل أصغر من ذلك . والله تعالى أعلم .

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٤٤ .

العلو (الاستعلاء) والكبر :

معنى العلو :

علا : العُلُوُّ ضد السُّفْل ، والعُلُوُّ : الارتفاع ، وقد علا يعلو علُوًّا ، وهو عال ، وَعَلِيَ يَعْلَى علًا فهو عليٌّ^(١) .

والفرق بين عَلَا وَعَلِيَ أن علا في القدر والأمكنة ~~بغير~~ ، وهي في الأول أكثر ، وقيل : إن علا يقال في المحمود والمذموم ، وَعَلِيَ في القدر والشأن ، فالعلي هو الرفيع القدر ، ولا يقال إلا في المحمود^(٢) .

والعلي في وصف الله تعالى معناه ، يعلو أن يحيط به وصف الوصفين وعلم العارفين^(٣) .

ووصف الله جل جلاله نفسه بالعلو في عشرين وخمسة مواضع تارة بلفظ [تعالى] وأخرى بلفظ [العلي] ، وثالثة بلفظ [الأعلى] ، ورابعة بلفظ [المتعال] ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١] ، وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢] ، والمعنى : ارتفع وعلا عز وجل عن أن يكون له مثل أو شريك أو ظهير ، وعلا عز وجل عن شرك المشركين ووصفهم إياه بما يصفون^(٤) ، مما لا يليق بجلاله وعزته وملكوته .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢] ، فالله هو العلي ، أي : ذو العلو على كل شيء وكل شيء دونه ، والله هو الكبير ، أي : العظيم الذي كل شيء دونه ولا شيء أعظم منه سبحانه وتعالى^(٥) .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١] ، لاربّ أعلى منه وأعظم ، أقول : بل لارب على الحقيقة إلا هو سبحانه وتعالى

(١) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٣٤٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : المصدر السابق .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٥٨/١٤ ، ٥٠/١٨ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٩٦/١٧ .

رب كل شيء ومليكه .

وحيث وصف الله تعالى نفسه بلفظ التفاعل (تعالى) فإن ذلك منه على سبيل المبالغة لا على سبيل التكلف كما يكون من البشر^(١) ، قال الله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] .

العلو في القرآن الكريم :

ذكر العلو في القرآن الكريم ودل على المعاني التالية :

١ - الارتفاع في المكان ، أو في القدر والمكانة .

وكل علو وصف به الله عز وجل فإنه يشمل هذين الوجهين .
أما علو المكان فعلاً يليق بجلاله سبحانه ، نثبته له كما أثبتته هو لنفسه في كتابه الكريم وبقوله المبين ، وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة ، ونُقِوضُ كيفيته إليه سبحانه وتعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

وأما علو القدر وجلاله ، فَمَنْ أَجَلُّ وَأَعْلَى مِمَّنْ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٥-٨] .

قال الله تعالى في شأن نبيه إسماعيل عليه السلام : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مريم: ٥٧] ، أي : إلى مكان ذو علو وارتفاع^(٢) .

وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ، أي : تنزه الله علا فارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة من ادعائهم له شركاء من الجن واختراقهم له بنين وبنات ، وقوله [تعالى] تفاعل من العلو والارتفاع^(٣) .

(١) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٣٤٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٩٦/١٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢٩٨/٧ .

٢ - الغلبة والقهر :

فقولك استعلى على الناس بمعنى غلبهم وقهرهم وعلاهم^(١) ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ [طه:٦٤] ، أي : قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره^(٢) .
والله عزوجل هو الذي علا خلقه فقهرهم بقدرته^(٣) ، قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد:٩] ، (الكبير) الذي كل شيء دونه ، (المتعال) : المستعلي على كل شيء بقدرته^(٤) .

٣ - التنزه عما لا يليق :

ومنه قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٢] .

٤ - العظمة والتكبر والتجبر :

يقال : علا فلان في الأرض إذا استكبر وطغى^(٥) .
فما كان من ذلك في وصف الله تعالى فهو بحق ، فهو جل وعلا العظيم الجبار المتكبر ، قال تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١] .
وما كان في وصف العباد فهو استعلاء بغير حق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:٨٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَّ عُلوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٤] ، وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فسادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] ، فقد ذكر أهل التفسير في معنى العلو الوارد في هذه الآيات أنه التكبر والتجبر والطغيان والتعظم^(٦) .

(١) انظر : لسان العرب ٣٢٤/١٩ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٨٤/١٦ .

(٣) انظر : لسان العرب ٣١٨/١٩ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١١٣/١٣ .

(٥) انظر : لسان العرب ٣١٧/١٩ .

(٦) انظر على سبيل المثال : تفسير الطبري ٢٠/١٥ ، ٢٧/٢٠ ، ١٢٢ ، تفسير ابن

٥ - الشرف :

ومنه قول الله سبحانه في وصف السموات : ﴿ تَنْزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه:٤] ، والمعنى : أنها الأشرف والأفضل بالإضافة إلى
هذا العالم^(١) .

هل الاستعلاء يذم مطلقاً؟

الاستعلاء هو : طلب العلو ، وقد يكون كما ذكر الراغب : طلب العلوّ
المذموم ، أي : التكبر والاستطالة ، وقد يكون طلب العلاء - بفتح العين
المهملة - أي : الرفعة وشرف المكانة بالحق والعدل ، قال : وقوله
تعالى : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ [طه:٦٤] ، من قول سحرة فرعون حين
جمعهم فرعون لغلبة موسى عليه السلام يحتمل الوجهين^(٢) .

جاء في فتح القدير : «وأما العلو : فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر
على الغير والتطاول على الناس ، وليس منه طلب العلو في الحق والرئاسة في
الدين ، ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن»^(٣) .

علاقة العلو بالكبر :

مما سبق نستخلص أن العلو والكبر مترادفان بمعنى العظمة ، والاستعلاء
كالتكبر في الوجهين المذكورين آنفاً . والله تعالى أعلم .

كثير ٢٧/٣ ، ٣٩١ ، ٤١٢ ، فتح القدير ١٥٨/٤ ، ١٨٨ ، ٤٤٥ .

(١) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٣٥٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) فتح القدير ١٨٨/٤ .

الفخر والكبر :

في اللسان : الْفَخْرُ وَالْفَخْرُ وَالْفُخْرُ وَالْفَخَارُ وَالْفَخَارَةُ... التمدح بالخصال وعد القديم ، وقد فخر ففخر فخراً وفخرة حسنة... فهو فاخر وفخور ، وكذلك افتخر ، وتفاجر القوم : فَخَرَ بعضهم على بعض ، والتفاخر : التعاضم ، والتَّفَخُّر : التعظيم والتكبر... ، وَفَخِيرُك : الذي يفاخرك... ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣] ، الفخور : المتكبر^(١) .

وقال الراغب : الفخر : المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ، ويقال له : الْفَخْرُ ، ورجل فاخر وفخور وفخير على التكثير... ، ويقال : فخرت فلاناً على صاحبه أفخره فخراً ، حكمت له بفضل عليه ، ويعبر عن كل نفيس بالفاخر ، يقال : ثوب فاخر ، وناقفة فخور : عظيمة الضرع كثيرة الدر ، والْفَخَارُ : الجِرَارُ ، وذلك لصوته إذا نُقِرَ ، كأنما تُصَوَّرُ بصورة من يكثر التفاخر^(٢) .

وفي النهاية : « الفخر : ادعاء العِظَم والكِبَر والشرف »^(٣) .

وفي تفسير الطبري : الفخور : « هو المفتخر على عباد الله بما أنعم الله عليه من آلائه ، وبسط له من فضله ، ولا يحمد على ما آتاه من طَوْلِه ، ولكنه به مختال متكبر ، وعلى غيره به مستطيل مفتخر »^(٤) .

وحين التأمل فيما سبق تظهر لنا علاقة الفخر بالتكبر ، وهي : كونه مظهراً من مظاهر التكبر وصفة من صفات المتكبر ، فإن المتكبر يتباهى بتعداد ما حباه الله تعالى من النعم دون شكر له سبحانه ، ولوعدها شكراً وتحديثاً بنعمة الله غير مختال بها ، لما ذُكِرَ ذلك منه ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدد نعم ربه تعالى ، وهو الذي أمره الله تعالى بقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا سَيِّدُ

(١) انظر : لسان العرب ٦/ ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) انظر : المفردات في ألفاظ القرآن ٣٧٤ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤١٨ .

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٨٤ ، وقد ذكر نحو هذا عن مجاهد وابن جريج . انظر : ٨/ ١٢ .

وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ وَيَدِي لِوَاءِ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ...»^(١)، أي: لأقول ذلك تبجحاً، ولكن شكر الله وتحدياً بنعمه^(٢).

ومما يدل على أن الفخر من مظاهر التكبر، أنه ذكر في القرآن الكريم في خمسة مواضع، في ثلاثة منها ذكر مقروناً بالاختيال تالياً له، وقرن في الرابع بفرح الأشر والبطر، وفي الموضع الخامس ذكر في معرض ذم الحياة الدنيا، وأنها حياة لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، وكل ذلك مآله إلى الفناء والزوال.

والمواضع التي أشرنا إليها هي كالتالي:

١ - قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

٢ - وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

٣ - وقال تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

٤ - وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ. وَلَكِنَّ أَذْقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل ٣٠٨/٥، وفي كتاب المناقب، باب في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ٥٨٧/٥، وقال: حسن صحيح في الروايتين، والحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة ٥٩٥/٢، وأشار البوصيري إلى ضعف علي بن زيد بن جدعان، أحد رجال الإسناد، ثم قال: إلا أن للمتن شواهد كثيرة. انظر: كفاية الحاجة بهامش السنن ٥٩٥/٢.

وأخرجه أحمد في مسنده ٢/٣، وأخرجه عن ابن عباس ٢٨١/١، ٢٩٥، وأخرجه عن أنس بن مالك ١٤٤/٣، وأخرج نحوه عن أبي بكر رضي الله عنه ٥/١.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤١٨/٣.

عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿٩-١٠﴾ [مزد: ٩-١٠] .

هـ - وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠] .

ومما يدل كذلك على كون الفخر من مظاهر الكبر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْتَغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» .

والحديث يدل بمفهومه على أن الكبر يؤدي إلى الفخر والبغي .
والخلاصة أن الفخر من مظاهر الكبر والعظمة .

الفرح والمرح والبطر والأشر ، والكبر :

هذه الألفاظ تتداخل معانيها وتتقارب ، بحيث قد فسر أهل العلم بعضها ببعض ، وبعض ، ولعل الفرق اللطيف بينها هو : أن بعضها أبلغ من بعض على النحو الذي يأتي من خلال ماذكر من كلام أهل العلم حولها . وقد جمعتها هنا لهذا السبب راجياً أن أكون قد وفقت للصواب .

أما الفرح فهو كما ذكر الإمام الراغب : انشراح الصدر بلذة عاجلة ، قال : وأكثر ما يكون في اللذات البدنية^(١) .

وعرفه الإمام البغوي^(٢) بأنه : لذة في القلب بنيل المشتهى^(٣) .
وماسبق يعني : أن الصدر ينشرح والقلب يجد لذة وسروراً حينما يتحقق للإنسان ما يشتهي ويطلبه .

أقول : وقد فسر الفرح المنهي عنه والوارد ذمه في كتاب الله الكريم بأنه : فرح الأشر والبطر كما سيأتي قريباً بعد الانتهاء من تعريف بقية الألفاظ .
وأما المرح فقليل : هو شدة الفرح والتوسع فيه ، وقيل : هو التكبر في المشي ، وقيل : تجاوز الإنسان قدره ، وقيل : هو الأشر والبطر ، وقيل : هو النشاط .

وأما البطر فهو الطغيان عند النعمة^(٤) ، وعرفه الراغب بأنه : دَهَشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقها ، وصرفها إلى غير

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٣٨٩ .

(٢) الإمام الحافظ الفقيه أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء ، ولد في أوائل العقد الرابع من القرن الخامس الهجري في بلدة (بغشور أوبغ) من بلاد خراسان ، شافعي المذهب . رحل كثيراً في طلب العلم فأوتي منه الكثير حتى لقب بالإمام ومحي السنة وشيخ الإسلام ، محدث ، فقيه ، مقارئ ، لغوي ، جامع لعلوم القرآن والسنة ، دَيِّنَ زاهد عابد . كانت وفاته ما بين (٥١٠هـ - ٥١٦هـ) بعد أن بلغ الثمانين أو تجاوزها رحمه الله تعالى ورضي عنه . من تأليفه : شرح السنة والتهذيب في الفقه الشافعي .

(٣) انظر : تفسير البغوي (معالم التنزيل) ٣٧٥/٢ .

(٤) انظر : فتح الباري شرح البخاري ٣١٧/١٠ ، وقد ذكر ابن حجر أن هذا هو أصل البطر ، قال : واستعمل بمعنى التكبر .

وجهها^(١) ، وذكر بأنه أبلغ من الفرح^(٢) .

وذكر الشيخ الدكتور/عبدالرحمن حبنكة الميداني^(٣) بأن البطر يستعمل في عدة معان ، قال : ففي المشي والحركة والعمل يدل على التبخر والخيلاء والخروج عن حد الاعتدال والاتزان في ذلك ، قال : وعند مفاجأة النعمة يدل على التصرف المعبر عن الدهش والحيرة وقلة الاحتمال ، وعند دوام النعمة الكثيرة يدل على الطغيان فيها والخروج عن حد الاعتدال إلى الإسراف والتبذير والاستهانة ، قال : وفي أحوال المسرة يدل على شدة المرح والإفراط فيه ، قال : وعند مواجهة الحق يكون البطر بالاستعلاء عليه والاستكبار عن قبوله والتفريط في شأنه والاستهانة به^(٤) .

وأما الأشر فقد ذكر الراغب بأنه شدة البطر ، قال : فالأشر أبلغ من البطر^(٥) . وذكر بأن معنى الأشر : النشاط^(٦) .

هذا بعض مذكره أهل العلم من معان للفرح والمرح والبطر والأشر ، ومنه يتضح الآتي :

أولاً : تقارب تلك المعاني وتداخلها ودلالة بعضها على بعض .
ثانياً : أن الفرح أصل لما يليه (أي للمرح والبطر والأشر) .
ثالثاً : أن الكبر سبب لها ، وهي من مظاهره في سلوك المتكبر .
رابعاً : أن المرح أبلغ من الفرح ، والبطر أبلغ من المرح ، والأشر أبلغ من البطر .

والفرح يمدح ويذم .

أما ما كان منه ممدوحاً فهو ما كان مقروناً بالشكر والتواضع والسكنية ،
وأما المذموم فما كان مقروناً بالجحود والأشر والبطر ، أو كان فرحاً بمعصية
أو بحصول لذة عاجلة فانية مع تفويت اللذة الحقة الدائمة كالفرح بالحياة

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٤٨ مادة (بطر) .

(٢) نظر : مفردات ألفاظ القرآن ١٤ مادة (أشیر) .

(٣) محاضر بقسم الشريعة في جامعة أم القرى بمكة .

(٤) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ٦٦٢/١ .

(٥) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ١٤ .

(٦) انظر : فتح القدير ١٢٦/٥ .

الدنيا وشهواتها وزينتها والركون إليها وإيثارها على الحياة الآخرة الباقية .
 وتأمل النصوص الشرعية الواردة في هذا المجال يتضح لنا ما ذكر من
 المقال ، فعلى وجه مدح الفرح جاء قول الحق سبحانه وتعالى في وصف
 الشهداء الذين قتلوا في سبيله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا
 بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ
 بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .
 يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
 فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ
 مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ
 بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٦] .

فهذه الآيات البينات ذكر فيها الفرح على وجه المدح ؛ لأنه فرح بحق ،
 فرح بنعمة الله تعالى وفضله ورحمته ونصره ، فرح لأشرف فيه ولا بطر .
 وأما ذكر الفرح على سبيل الذم والتنفير فقد كان هو الغالب في كتاب
 الله تعالى ، وذلك لأن غلبة الفرح والسرور يصحبهما التكبر والاختيال^(١) .

وقد ذم الفرح في سبع عشرة آية من كتاب الله هي كالتالي :
 قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَمَسَسْنَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا
 بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ
 أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠] .
 وقال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ
 اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا
 بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] .

(١) انظر : البحر المحيط ٣٧/٦ .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] .
 وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس: ٢٢] .
 وقال تعالى : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمَدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦] .
 وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٣] .
 وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩، ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] .
 وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] .
 وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] .
 وقال تعالى : ﴿ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢] .
 وقال تعالى : ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣] .
 وقال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥] .

وماذم الفرح في هذه الآيات البينات إلا لأنه فرح بغير حق ، فكيف يفرح المنافقون والكفار بما يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من السوء ويكون فرحاً بحق؟ أم كيف يفرح الإنسان بما يؤتيه الله من فضله فيطغى ويطر ويحجد ولا يشكر ويكون فرحه هذا بحق؟ أم كيف يفرح المرء بزخرف الحياة الدنيا ويفضله على نعيم الآخرة ، ثم هو به أشرف فخور فيكون فرحه هذا بحق؟

إذا ينبغي للإنسان أن يكون فرحه إذا فرح بنعمة الله وفضله وأن يكون في فرحه هذا شاكراً مستكيناً غير بطر ولا أشرف ، فهذا هو الفرح الممدوح وماسواه فمذموم .

وإذا كان الفرح قد ذكر في نصوص الشرع على وجه المدح تارة وعلى وجه الذم أخرى ، فإن المرح والبطر والأشرف لم يذكروا إلا على وجه الذم فقط .

أما المرح فذكر في ثلاث آيات من كتاب الله تعالى :

أولها : قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥] .

وقد فسر المرح في هذه الآيات بأنه الأشرف والبطر والمشي بتبختر وتمایل وخيلاء في غير شغل ولا حاجة ، وذلك مشي الجبارين المتكبرين^(١) .

وأما البطر فذكر في آيتين من كتاب الله تعالى هما : قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فُتِنَكَ مَسَاكِنُهُمْ

(١) انظر : تفسير الطبري ٤/ ٨٥ ، ٨٦ ، الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٠/ ١٦٩ ،

٧/ ١٤/ ٤٨ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣ .

لَمْ تُسْكَنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ [القصص: ٥٨] .

وكلا الآيتين نزلتا في شأن قريش ، فأما الآية الأولى فتحكي حالهم وقد خرجوا من مكة بطرين مختالين أشربين طالبين ثناء الناس والتمدح إليهم والفخر عندهم^(١) ، خرجوا لملاقاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله يقولون بطراً وفخراً : والله لانرجع حتى نرد بدرأً فنقيم عليه ثلاثاً وننحر الحزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً^(٢) .

ولقد تحقق لهم ما طلبوا ، فسمعت بهم العرب وتناقلت خبرهم ، لكن على غير ما أملوا ، حيث كانت نتيجة بطرهم وصددهم عن سبيل الله أن أخزاهم الله وأذلهم فأمسوا على أرض بدر ما بين قتيل وأسير أو هارب لا يلوي على شيء .

وأما الآية الثانية ففيها وعيد لكفار مكة وتحذير لهم أن يبطروا نعمة الله تعالى عليهم ولا يشكروها فيصيبهم ما أصاب البطرين قبلهم من الهلاك والدمار . ومن نصوص السنة الشريعة في شأن البطر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا »^(٣) . وقوله صلى الله عليه وسلم في الخيل : « ... وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ وَزْرٌ فَالَّذِي يَتَّخِذُهَا أَشْرًا وَبَطْرًا وَبَذَخًا وَرِيَاءَ النَّاسِ فَذَلِكَ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ وَزْرٌ ... »^(٤) .

فالذي يجر إزاره بطراً - بفتح الطاء على المصدر ، أو بكسرهما على

(١) انظر : فتح القدير ٣١٥/٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٩/١٠ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب من جر ثوبه من الخيلاء ٢٦٥/٧ .

(٤) متفق عليه . أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب الخيل لثلاثة ... ٤٣٠/٤ ،

وكتاب المساقاة ، باب شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار ٢٣٩/٣ ، وكتاب

المناقب ٥٨/٥ ، وكتاب التفسير ، باب فمن يعمل مثقال ذرة خيراً

يره... ٥٦٧/٦-٥٦٩ ، وكتاب الاعتصام ٨٧١/٨ ، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة

٦٨٣/٢ ، باب إثم مانع الزكاة ، وهذا لفظه ، والحديث عن أبي هريرة رضي الله

عنه .

الحال- أي: تكبراً وطغياناً^(١)، والذي يتخذ الخيل كذلك على هذا الحال كلاهما مرتكبان معصية تستوجب العقوبة من الله سبحانه وتعالى .

وأما الأشر، ففيه آيتان من كتاب الله عز وجل هما :
قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ . سَيَعْلَمُونَ
غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦]، وفسر الأشر بأنه : مجاوزة الحد في
الكذب^(٢)، كما فسر بأنه المرح والنشاط، أو البطر والتكبر، قيل : وهو
أنسب بالمقام^(٣) .

ومن السنة أيضاً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِي نَفْسُ
مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَبِيَّتَن نَّاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَشْرٍ وَبَطَرٍ وَلَعِبٍ وَلَهْوٍ فَيُصْبِحُوا قِرْدَةً
وَحَنَازِيرَ بَاسْتِحْلَالِهِمُ الْمَحَارِمَ وَالْقَيْنَاتِ وَشُرْبِهِمُ الْخَمْرَ وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا
وَلُبْسِهِمُ الْحَرِيرَ »^(٤) .

وخلاصة القول : أن ذكر المرح والبطر والأشر في كتاب الله تعالى
وكذا فيما اطلعت عليه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد إلا على
وجه الذم، أما الفرح فقد سبق ذكر مجيئه على وجهي الذم والمرح، إنما ثمة
أمر ينبغي التنبه له، وهو : أنه قد ذكر أن من معاني المرح والأشر : النشاط،
والنشاط إذا صحبه بطر وتكبر فلاشك في قبحه وذمه، أما إذا أريد به ما يصاد
الكسل ففي هذه الحالة يمدح ولا يذم ؛ لأن الكسل مذموم شرعاً والنشاط
ضده .

أقول : ومما سبق قد اتضح لنا وجه الصلة بين هذه الأربعة وبين التكبر،
وهو أنها من مظاهره في سلوك المتكبر، فالتكبر يكون منه الفرح والمرح
والبطر والأشر وكل ذلك بغير حق . والله أعلم .

(١) انظر : فتح الباري شرح البخاري ٣١٧/١٠ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٨٤/٤ .

(٣) انظر : فتح القدير للشوكاني ١٢٦/٥ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه

الفصل الثاني :

دواعي الكبر وأسبابه .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : دواعي الكبر .

المبحث الثاني : أسباب الكبر .

هذا الفصل معقود للإجابة على تساؤلين هما :

بماذا يتكبر المتكبر؟ ولماذا يتكبر؟

وللإجابة على هذين التساؤلين قسمت هذا الفصل إلى مبحثين ، جعلت

عنوان الأول : دواعي الكبر ، والثاني : أسباب الكبر .

وقد كنت قسمت هذا التقسيم قبل أن أطلع على كتاب «دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها» ، فلما وقفت عليه وجدت مؤلفه قد سبقني إلى هذا التقسيم ، وأني وافقته فيه ، غير أن الموافقة في الإجمال لم تستمر في التفصيل ، فقد ذكر هو خمسة دواعٍ وجعلها رئيسية ، وأشار إلى أنه قد يوجد غيرها هي أقل شأنًا منها^(١) ، بينما ذكرت أنا تسعة دواعٍ ، كما حصل الاختلاف في ذكر الأسباب على النحو الذي سيأتي في حينه قريباً - إن شاء الله تعالى - وبالله التوفيق .

(١) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها ١٧٤-١٨٣ .

المبحث الأول : دواعي الكبر

ويعنى هذا المبحث - كما سبق وأشرت - بالإجابة على التساؤل الأول الوارد في هذا الفصل من الرسالة ، وهو : بماذا يتكبر المتكبر؟ وسأذكر - بإذن الله تعالى - في هذا المجال أموراً تسعة متى ما حصلها الإنسان أو حصلت له - كلها أو بعضها - كانت مدعاة لأن يستعظم نفسه لأجلها ، فيتكبر مزهواً بها ، لاعتقاده أنه بها يصبح في غنى عن غيره ، وفي أمن من بأسهم لانتفائها فيهم وتوفرها فيه^(١) .

وكما يذكر الإمام الغزالي فإن العبد لا يتكبر إلا حين يستعظم نفسه ، ولا يستعظم نفسه إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال التي جماعها إلى كمال ديني ودنيوي . فالديني هو : العلم والعمل . وأضيف إليهما المعتقد^(٢) .

والدنيوي هو : النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار^(٣) . وأضيف إليها الجاه والسلطان .

ولم يسم الغزالي هذه الأمور دواعياً ، وإنما سماها أسباباً^(٤) ، وبعد تدقيق النظر بدا لي أن أجعلها تحت مسمى (دواعي الكبر) ، وذلك لكون السبب هو : ما يلزم من وجوده الوجود ، ومن عدمه العدم لذاته^(٥) .

وهذه الأمور بالنسبة للكبر ليست كذلك ، فلا يلزم من وجود المال - مثلاً - وجود التكبر ، ومن عدمه عدمه ، وكذا الشأن في بقية الأمور المذكورة .

وإذا كانت هذه هي دواعي الكبر التي بها - في غالب الحال - يتكبر المتكبرون ، فلاشك أن هناك أسباباً جنحت بهم إلى التكبر بها ، وذلك ما سنحاول معرفته وإلقاء الضوء عليه في المبحث الذي يلي هذا المبحث بإذن الله تعالى .

(١) انظر : التحرير والتنوير ٤٤٤/٣٠ ، ٤٤٥ .

(٢) وهذا ذكره صاحب كتاب [إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها] ١٧٥ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ١٤٩/٤ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ١٤٩/٤ .

(٥) انظر : أصول الفقه الإسلامي د/وهبة الزحيلي ٩٤/١ ط الأولى ١٤٠٦ هـ - دار

الفكر - دمشق .

الداعي الأول من دواعي الكبر : المعتقد .

أعني بالمعتقد : الدين الذي تدين به أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات ، وقد يكون ديناً باطلاً ومعتقداً فاسداً من أصله ، وقد يكون حُرِّفَ عن أصل صحيح .

فدين عُباد الطاغوت من دون الله تعالى هو دين ومعتقد باطل وفاسد من أساسه ، ودين اليهود والنصارى له أصل صحيح ، لكنه لم يبق على ذلك الأصل ، بل حُرِّفَ وبُدِّلَ من قِبَلِهِمْ حسب أهوائهم .

وفي أمة الإسلام فرق حادت في عقيدتها عن طريق الحق والصواب حتى أصبحت تلك الفرق كما قال الله عزوجل : ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] .

أقول : تلك المعتقدات الفاسدة يزيناها الشيطان لمعتقديها ، فيرونها حقاً لامية فيه ، ولا يمكن الرجوع عنه ، فيعضون عليها بالنواجذ لايحيدون عنها ، متبعين أهواءهم ، مستكبرين بها على غيرهم .

وإن المتأمل لقصص المتكبرين في القرآن الكريم ليجد أن من أسباب استكبار أولئك الأشقياء هو تعصبهم لمعتقدات باطلة زائفة توارثوها جيلاً إثر جيل فضلوا بها عن سواء السبيل .

فهؤلاء قوم نوح عليه السلام اتخذوا أصناماً يعبدونها من دون الله ، فبعث الله عزوجل فيهم نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، ونبذ عبادة تلك الأصنام التي لاتملك من الأمر شيئاً لالنفسها ولالعبديها ، فبلغ نوح عليه السلام رسالة ربه ودعا قومه إلى الحق بكل جهد وبكل أسلوب ، ولكنهم أصروا على الشرك بالله واستكبروا غاية الاستكبار عن توحيد الله ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ١-٩] .

دعوة في الليل والنهار سراً وعلانية بالترغيب تارة ؛ وبالترهيب أخرى ؛ وبلغت الأنظار إلى آيات الواحد القهار في الأنفس وفي الكون الدالة على وحدانيته وتفردہ جل جلاله تارة ثالثة .

والنتيجة : ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧] ، بل ويتواصون فيما بينهم هذه الوصية الجائرة : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] .

ولم كل هذا الاستكبار؟ حجتهم : أنهم على دين آبائهم الأولين ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٢٤] .

وحذت عاد حذو قوم نوح فاستكبروا عن الإيمان بالله وحده عاكفين على دين آبائهم الأولين ، وفي شأنهم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] ، يستكبرون عن عبادة الله وحده ، ويستعجلون عذابه أنفة أن يتركوا دين آبائهم .

وسلك قوم ثمود مسلك قوم نوح وقوم هود ، فاستكبروا عن التوحيد وأبوا أن يفارقوا دين آبائهم الزائف ، وقالوا لنبیهم صالح عليه السلام كما قص القرآن الكريم خبرهم فقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦١، ٦٢] .

وعلى ذلك النهج المعوج مضى قوم مدين ، فقالوا لنبی الله شعيب عليه السلام وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده كما ذكر الله تعالى عنهم : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] .

وحجة المستكبرين عن توحيد الله هذه تتكرر فيردها قوم إبراهيم عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلَ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكَمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٦٩—٧٤] .

وتتكرر تارة أخرى على لسان فرعون وقومه المستكبرين ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ . قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٥—٧٨] .

وختم الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم صلواته وسلامه وبركاته بصفوتهم محمد صلى الله عليه وسلم فإذا مستكبروا أمته كالمستكبرين السابقين حجتهم واحدة واهية داحضة ، يقول لهم صلى الله عليه وسلم كما أمره ربه جل جلاله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦] ، فيجيئونه بقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢] . وقد قال الله تعالى في شأنهم : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٌ ﴾ [ص: ٨—١] .

وإنها لعقيدة فاسدة يتوارثها كل المشركين بالله المستكبرين عن توحيده ، فالله عز وجل يخاطب نبيه فيقول : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ

مَقْتَدُونَ ﴿ [الزخرف: ٢٣] .

هذا في جانب استكبار أهل العقائد الفاسدة من أصولها الذين تعصبوا لتلك العقائد وأنفوا من تركها واتباع الدين الحق الحنيف الذي جاءت به رسل رب العالمين .

أما في جانب أهل العقائد المحرفة عن أصلها الصحيح وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فقد كان استكبارهم بعقائدهم المحرفة المنحرفة كاستكبار أولئك المشركين ، بل أشد وأعظم .

فها هو القرآن الكريم يسجل عليهم أقوالاً لهم في غاية البجاجة والوقاحة والتعظيم والاستكبار ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨] .

وسبحان الله ! هذا بهتان عظيم ! فقوم اعتدوا على مقام الألوهية الجليل ، فوصفوا الحق سبحانه وتعالى بما لا يليق به ، بل أحياناً وصفوه سبحانه وتعالى بما يتنزه عنه آحاد خلقه ، وقوم بدلوا الدين الحق ، وحرفوا الكتب المنزل ، وكذبوا الرسل وقتلوه ، يزعمون هذا الزعم الكاذب ويعتقدون هذا الاعتقاد الفاسد ، هذا ما لا يصدقه من له مثقال ذرة من عقل وبصيرة .

ولما كان أهل الكتاب على هذا المعتقد الباطل ، فإنهم لما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للرسل والأنبياء وأنزل عليه كتاباً مصداقاً لما سبقه من الكتب ومهيماً عليها ، وشرع له شرعاً ناسخاً لما قبله لا يقبل من أحد سواه ، وقفوا مستكبرين عن الإيمان به وبما أنزل إليه زاعمين - كذباً - أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم من الكتب ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١] .

واستكبر أهل الكتاب بعقيدتهم المحرفة فجحداوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته وهم الذين يصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] .

نعم يعرفونه هذه المعرفة ، فقد بشرت به رسلهم ، ووصف لهم في كتبهم ، ولكن تأبى عليهم نفوسهم المستعلية المصابة بداء الهوى ترك معتقداتهم المحرفة المنحرفة «أنفة أن يكونوا تبعاً لغيرهم»^(١) .

هذه الأنفة تفضحها مقالة هرقل ملك الروم حينما أشار على قومه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنفوا وغضبوا ، فقال لهم مطمئناً: «إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فلقد رأيت»^(٢) .

فهذا القول من هرقل يدل دلالة بينة على تعصبهم لدينهم الذي دعاهم إلى التكبر على أصحاب الديانات الأخرى ومن بينها الدين الإسلامي الحنيف^(٣) .

واليهود والنصارى وإن اتفقوا والمشركون على الاستكبار عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنفوا أن يتركوا معتقداتهم الباطلة والمحرفة ، إلا أن كل فريق منهم يرى أنه على الحق ، وأن الحق معه ، ويرى سواه ليس على شيء ، وفي بيان ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

(١) انظر : المغازي للواقدي ٥٠٢/٢ .

(٢) جزء من حديث أبي سفيان مع هرقل ، أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ٦٢/١ ، وفي كتاب الجهاد والسير ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة ٤٥٤/٤ ، وفي كتاب التفسير باب : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ..﴾ [آل عمران: ٦٤] ، ٣٦٠/٦ .

والحديث أخرجه مسلم ، لكن بدون هذه العبارة المذكورة ، في كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ١٣٩٣/٣ . والحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها ص ١٧٦ .

الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿البقرة: ١١٣﴾ ، والذين لا يعلمون الذين قالوا مثل مقالة اليهود والنصارى ، قيل : هم كفار العرب الذين لا كتاب لهم اقتدوا بأهل الكتاب ؛ لأنهم جهلة لا يقدرّون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم . وقيل : هم طائفة من اليهود والنصارى لا علم عندهم ^(١) .

والآيات المذكورة سابقاً وهي قول الله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] .

هذه الآيات البينات تعني أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة ^(٢) . فاليهود يقولون : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، ويقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون : كونوا يهوداً تهتدوا ، وهكذا تقول النصارى عن أنفسهم ^(٣) .

ولا يقتصر أمر الاستكبار بالعقائد المحرفة والفاصلة على اليهود والنصارى والمشرّكين ، بل هناك فرق ظهرت في أمة الإسلام حادت عن جادة الصواب ، وانتحلت عقائد ما أنزل الله بها من سلطان ، ووقفت كل فرقة عند معتقدها لاتحيد عنه ولا تبغي به بدلاً ، ترى أنها على الحق وسواها على الباطل ، يقرأ أصحابها النصوص الشرعية فيتأولونها بحسب أهوائهم وما يوافق إراداتهم ، كل فرقة مستكبرة في نفسها ، محقرة لغيرها دون إنصات لصوت الحق وداعيه ، ينطبق عليهم قول الحق جل جلاله : ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] .

واقع معكوس :

أقول : ولئن استكبر أولئك الهالكون من اليهود والنصارى بعقائدهم الضالة المنحرفة التي ورثها لهم آبائهم ، وأبوا إلا التمسك بها والانتصار لها

(١) انظر : فتح القدير ١/ ١٣٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : فتح القدير ١/ ١٢٩ .

وتمجيدها وتبجيلها ، فإن الإمة الإسلامية اليوم ابتليت بأقزام يتناولون على عقيدتها وشريعتها ، متبعين كل ناعق من شرق وغرب .

هؤلاء الأقزام يستكبرون عن الانقياد لعقيدة سلفهم الصالح الزاكي ، يرون ببصائر مطموسة عمهة أنها لاتصلح لحاضر الزمن ، فقد انتهى زمن صلاحيتها وعادت لاتنفع زمن الحضارة والتقدم كما يزعمون ، ولذا فإن المتمسك بها هو عندهم متخلف متأخر رجعي...

وخابوا وخسروا ، فإن دين الإسلام الذي بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم دين أكمله الله تعالى لهذه الأمة وارتضاه لها ، وجعله خاتماً للأديان ، فهو دين صالح لكل زمان ومكان ، تحمل شريعته السعادة والخير والصلاح والفلاح للبشرية في الدنيا والآخرة .

وليس ذنب هذا الدين العظيم أن بدا المنتسبون إليه متأخرين عن ركب الحضارة المادية ، فإنهم هم الذين أهملوا وقصروا وتكاسلوا وتقاعسوا مخالفين في ذلك تعاليمه التي تدعو إلى الجد والمثابرة والسعي والعمل ، والإفادة مما بثه الله عزوجل في هذا الكون الفسيح من أسرار وعجائب وآلاء لاتحصى ولا تعد ، فالله عزوجل يقول في الدستور الخالد لهذه الأمة : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] ، ويقول تعالى : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ [هود: ٦١] ، وهو القائل جلا وعلا : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، إلى غير ذلك من النصوص الشرعية التي تحت أمة الإسلام على العمل الجاد المثمر الذي يقويها ويقودها إلى العزة والمجد وقيادة الأمم ، كما قد حصل لها ذلك في قرونها الأولى يوم أن كانت أمة مسلمة حقا كما أراد الله تعالى لها ومنها أن تكون .

إن أولئك البعداء الذين يستكبرون عن اتباع هذا الدين القويم ويستنكفون عن الانقياد لتعاليمه السامية ويرون وهم المنسوبون إليه والمحسوبون عليه أنه دين أقل نجمه ، ماهم إلاثلة جهلوا دينهم ، ومنهم من تربى ونشأ بين أحضان اليهود والنصارى وعلى أعينهم وتغذى من ثقافتهم الضالة المضلة ، فإذا هو ينهق كنهيقهم ، مردداً مايقولونه عن قصد منهم ماكر

خبيث ، وجهل منه وغباء كبير عن ديننا الإسلامي الحنيف ، مع أن الله تعالى قد عراهم وكشف سرائرهم وأبان عن نياتهم الخبيثة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وخلاصة القول : أن المعتقد يعد داعياً من دواعي التكبر كما قد رأينا فيما سبق من أمثلة لاستكبار أهل المعتقدات الضالة والباطلة ، تبين موقفهم المعاند المكابر من العقيدة الصحيحة التي جاءت بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، فلقد استكبروا عن قبول تلك العقيدة السليمة أنفة أن يتركوا معتقداتهم الفاسدة التي تغلغت في نفوسهم وأشربوها في قلوبهم فعسر عليهم مفارقتها ، حتى إن تبين لهم بطلانها وفسادها ، وليس أدل على ذلك من موقف أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وقف معه وسانده وآزره وناصره ، ولكنه لم يفارق دين آبائه مع شدة حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هدايته حتى آخر لحظات حياته الدنيوية ، ففي الحديث الصحيح : « لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ : أَيُّ عَمٍّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ : عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... »^(١) . وجاء في بعض روايات الحديث : قال رسول

(١) متفق عليه ، وهذا لفظ البخاري ، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله ٥٨٦/٢ ، وفي كتاب مناقب الأنصار ، باب قصة أبي طالب ١٣١/٥ ، وفي كتاب التفسير ، تفسير سورة براءة ، باب ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ... ، ٤١١/٦ ، وتفسير سورة القصص ، باب إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وفي كتاب الإيمان والنذور ، باب إذا قال : والله لا أتكلم اليوم ، فصلى ... ، ٥٣٥/٨ .

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، انظر : صحيح مسلم ٥٤/١ .

الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
قال : لولا أن تعيرني قريش ، يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت
بها عينك ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...) الْآيَةَ »^(١) .
وهكذا أودت أنفة أبي طالب أن يفارق معتقد أبيه الفاسد^{به} إلى جهنم ،
وبئس المصير .

ولم يكن أبوطالب إلا مثالا لأقوام تبعوا ويتبعون آباءهم في معتقداتهم
الجاهلية الباطلة ، والحق جلي لهم ، ولكنهم في استكبار عنه معرضين ، فبعدا
وسحقاً للقوم الظالمين .

(١) هذه الرواية عند مسلم ٥٥/١ .

الداعي الثاني من دواعي التكبر : التكبر بالعلم .

إذا كان خطر الكبر على عامة الناس كبيراً...وفتنتهم به عزيمة ، فإنه على العلماء منهم خاصة أكبر خطراً وأعظم فتنة ، إذ هو أسرع إليهم ، وهم أقرب إلى التلبس به من غيرهم ، وذلك لأن للعلم جمالاً وكمالاً وعزة ، لا يلبث العالم أن يستشعرها ، فيستعظمها لذلك ويستصغر سواها متعزراً بعزة العلم مزهوا بجماله وكماله^(١) .

وعزة العلم وجماله وكماله هي : ثمار فضيلته ومكانته وشرف أهله ومكانتهم عند الله تبارك وتعالى ثم عند عباده .

أما عند العباد فإن للعلم قدراً رفيعاً ، والعلماء يتبوعون بينهم المكانة والمنزلة العالية ، يحلونهم ويوقرونهم ، ويحفظون لهم قدرهم ، ويعرفون لهم فضلهم تعظيماً وإجلالاً وإكراماً لما أوتوه من العلم الذي تتوقف سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة عليه ، وهم في أمس الحاجة إليه ، فالعلماء بالنسبة لسائر الناس نجوم هداية يهتدون بها في طريق سيرهم إلى ربهم تبارك وتعالى ، ومشاعل نور يبددون بها ظلمات الجهل والشرك والكفر والشبه والشكوك والفتن والضلال ، لذلك كان لهم منهم ذلك الإجلال والتبجيل الكبير ، وكان لهم بينهم ذلك القدر السامي والشرف العظيم .

وأما قدر العلماء عند الله جل جلاله وشرفهم لديه فعظيم جليل ، بينته الآيات من كتاب الله الكريم ، والأحاديث من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ليس هذا مجال بسطها ، ولكننا نستشهد بشيء منها كمفتاح لمن أحب أن يدخل من هذا الباب الجليل الشريف .

قال الله تعالى في فضل من يعلم الحق فيتبعه على من عمي عنه : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩] ، أي : أفهذا كهذا الاستواء^(٢) ، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩] ، أي : إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة

(١) انظر : إحياء علوم الدين ١٤٩/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢ .

الصحيحة^(١)، ولا شك أن العلماء إذا أخلصوا لله وعملوا بما علموا هم أهل العقول السليمة الصحيحة .

وفي آية مشابهة لهذه يقول تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩] .

وقال تعالى مبينا أن العلماء هم أهل الخشية الحققة له سبحانه وتعالى ، لأنهم علموا من جلاله وعظمته مالم يعلم غيرهم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وقال تعالى معدلا أهل العلم قارناً شهادتهم بشهادته سبحانه وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] ، فلقد استشهد الله عزوجل باهل العلم على أجل مشهود به وهو التوحيد ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته؛ وفي ضمن ذلك تعديلهم ، فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح^(٢) .

ومن الأحاديث في بيان فضل العلم وشرف أهله عند الله عزوجل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »^(٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْخُوتِ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ

انظر:
(١) تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢ .

(٢) مدارج السالكين ٤٩٠/٢ .

(٣) الحديث متفق عليه من حديث معاوية رضي الله عنه ، فقد أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ١٠٠/١ ، وفي كتاب فرض الخمس ، باب قول اله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١] ٥١٢/٤ ، وفي كتاب الاعتصام ، باب تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل ٧٥٧/٨ .

وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة ٧١٨/٢ ، ٧١٩ ، وفي كتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ١٥٢٤/٣ .

الْخَيْرَ^(١) .

وإنما كان للعلم هذا القدر الجليل وتبوأ العلماء هذه الدرجة العالية لما للعلم من فوائد جمة جليلة يبينها العلماء العاملون الموفقون بتوفيق الله لهم ، فتعود على العباد بالسعادة والفلاح ، وتعود على الحياة بالخير والصلاح . فالعلم هو الدليل إلى معرفة الله عزوجل بأسمائه الحسنی وصفاته العلی ، وهو الطريق القويم إلى الإيمان به الإيمان الصحيح ، فمن سار في درب العلم وسلك طريقه ولم يعوج عنه وصل إلى الله تعالى من أقرب الطرق وأسهلها . وإنه لا طريق إلى معرفة الله عزوجل حق المعرفة ، وإلى الإيمان به حق الإيمان ، ومن ثم الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة في جنته ، إلا طريق العلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل كتبه ، فهو الدليل عليه ، والطريق المستقيم الموصل إليه^(٢) ، من سلكه وصل ، ومن تنكبته تاه وضل ، ومن هنا ذكر الله تبارك وتعالى العلم فبدأ به قبل العمل ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩] .

ولما كان العلم هو طريق الإيمان بالله تعالى ومعرفة حق الإيمان والمعرفة ، كان العلماء هم أهل الخشية لله عزوجل ، والخوف منه ، لأنهم هم العارفون به سبحانه وتعالى وبصفاته ونعوت جلاله وعظمته المُقَدَّرُونَ حق قدره عزوجل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، أي : إنما يخشاه حق الخشية العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعزيز القدير العليم ، الموصوف بصفات الكمال ، المنعوت بالأسماء الحسنی ، كلما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل ، كلما كانت الخشية له أعظم وأكثر^(٣) .

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه في كتاب العلم ، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة . وقال : هذا حديث غريب . انظر : الجامع الصحيح ٥٠/٥ .

(٢) انظر : جامع العلوم والحكم ٣٧١ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٦١/٣ .

والعلماء كذلك هم الذين يفقهون عن الله آياته ويعقلونها ويتدبرونها ومن ثم يعملون بها ويهدون الناس إلى الخير بنورها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاوِنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] .

وبالعلم يعبد الله تعالى ويدعى إليه على بصيرة، وذلك سبيل الأنبياء، والعلماء ورثتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

وبالعلم يهتدي في ظلمات الجهل والشبه والشكوك والفتن^(١)، فبه يرشد الضال ويهتدي الحائر، ومن هنا جاء الأمر بسؤال أهل العلم عما لا يعرفه السائل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] .

«والعلم ثواب جار مدى الحياة وبعد الممات»^(٢)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(٣) .

والعلم سبب لنزول رحمة الله تعالى وسكينته وطريق للوصول إلى جنته، به يذكر العالم ربّه في أعلى مقام بين الملائكة البررة الكرام، قال صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(٤) .

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ٣٧١.

(٢) الترغيب والترهيب ١/١٠٧، وهو من كلام المعلق: مصطفى محمد عمارة.

(٣) سنن الترمذي، كتاب الأحكام، قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن

وعلى الذكر، عن أبي هريرة ٤/٢٠٧٤ .

وأخرج البخاري جملة: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا

ولفضل العلم وكرامته «فإن كل شيء يطلب المغفرة للعالم العامل بعلمه»^(١) ، وسبق ذكر الحديث الذي فيه : «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْخُوتِ لَيَصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»^(٢) .

ولأخير في الدنيا ولاقيمة لها عند الله تعالى إلا ماكان فيها من ذكر الله سبحانه وتعالى وماوالاه ، ومن عالم يدعو إلى الرشاد ، ومتعلم يطلب السداد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ وَمَا وَالَاهُ أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»^(٣) .

ورفع العلم وانتقاصه من أشراط الساعة ، ولاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق حين يفقد العلم ، فلايوجد من يقول : الله ، الله . ذلك أنه إذا رفع العلم حلّ محله الجهل ، فحصل الهرج والمرج ، واختلطت الأمور ، ووقع الناس في الضلال؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ»^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(٥) .

إلى الجنة" في كتاب العلم ، باب ^{العلم} قبل القول والعمل ٩٩/١ .

(١) الترغيب والترهيب ١٠٧/١ ، وهو من كلام المعلق : مصطفى محمد عمارة .

(٢) سبق قريباً .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، وقال : حسن غريب . انظر : الجامع الصحيح

٥٦١/٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد ١٥٧/٣ من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم ١٤٤/١ ، وفي كتاب

الاعتصام ، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ٧٥٦/٩ .

وأخرجه مسلم في كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه ٢٠٥٦/٤ ، والحديث عن

عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما .

والعلماء العاملون بعلمهم ناجون من عذاب الله تعالى ، مغفورة ذنوبهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفصل عباده : إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي »^(١) .

والعالم ألد أعداء الشيطان ، يهدم بنيانه ، ويسفه رأيه ، ويحاربه وأنصاره ، ويحذر الناس من غوايته وإضلاله ، ويدعوهم إلى العلم ميراث محمد صلى الله عليه وسلم^(٢) ، الذي به يهتدون ويرشدون ، وإلى الجنة يسلكون ، ومن النار يفرون ، ولذلك تشتد عداوة الشيطان للعالم العامل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَقِيَّةٌ وَاحِدَةٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ »^(٣) .

وأهل العلم العاملون به هم أهل الأخلاق الحميدة ، والخصال النبيلة ، لا يستوتون مع من لا علم له ، تفكر في هذه الآيات البينات التي تشير إلى هذا المعنى ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٨٤/٢ ، قال في المجمع : ورواته موثقون ١٢٦/١ ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب : ورجاله ثقات ، ١٠٧/١ .

(٢) انظر : الترغيب والترهيب ١٠٧/١ ؛ من كلام المعلق .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب العلم ، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة ، وقال : هذا حديث غريب ، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم . انظر : الجامع الصحيح ٤٨/٥ .

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨٦/١ .

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿الرعد: ١٩، ٢٥﴾ .

وخلاصة القول : أن العلم لا يتوقف نفعه على حدّ، «فهو كالغيث ينزل من السماء، فيقع على الظراب والآكام، وبطون الأودية، ومنابت الشجر»^(١)، ويعم خيره الإنسان والحيوان والطير والشجر وكل ما يصل إليه .

قال في «مدارج السالكين» - : دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة، والعلم هاد، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثتهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول... ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال؛ به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحّد، ويُحمد ويمجد، ...، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضى الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام والعمل مأموم، وقائد والعمل تابع.... والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام... وهو حجة الله في أرضه ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ومدنيهم من كرامته؛^(٢) .

إذاً وبعد أن تبين لنا هذا الفضل والشرف والخير العظيم للعلم، فلنقائل أن يقول : إن العلم من شأنه -والحال كذلك- أن يورث الخشوع والسكينة، وأن يكون طريقاً للتواضع، لالغرور والتكبر والاستعلاء، فكيف يحصل عكس ذلك؟! كيف نرى بعضاً ممن أوتي شيئاً من العلم يزداد به كبراً وغطرسة لاتواضعاً وسكينة؟! .

والجواب على ذلك من وجهين كما ذكر الإمام أبو حامد الغزالي -عليه رحمة الله- قال : «فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً؟ فاعلم أن لذلك سببين :

أحدهما : أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً، وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله،

(١) مدارج السالكين ٤٨٩/٢ .

(٢) انظر : مدارج السالكين ٤٨٩/٢، ٤٩٠ .

والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع ، دون الكبر والأمن ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، فأما ماوراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات ، فإذا تجرد الإنسان ^{لها}حتى امتلأ منها ، امتلأ بها كبراً ونفاقاً ، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً ، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة ، وهذه تورث التواضع غالباً .

السبب الثاني : أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ، رديء النفس ، سيء الأخلاق ، فإنه لم يشغل أولاً بتهذيب نفسه ، وتركيب قلبه بأنواع المجاهدات ، ولم يرض نفسه في عبادة ربه ، فبقي خبيث الجوهر ، فإذا خاض في العلم أي علم كان ، صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً ، فلم يطب ثمره ، ولم يظهر في الخير أثره ، وقد ضرب وَهْبٌ لهذا مثلاً فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً ، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المر مرارة ، والحلو حلاوة ، فكذلك العلم يحفظه الرجال ، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً ، والمتواضع تواضعاً ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به ، فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً ، علم أن الحجة قد تأكدت عليه ، فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً^(١) .

ويتضح مما سبق من مقالة الإمام الغزالي أنه قسم العلم إلى علم حقيقي ، وصناعة ، وعنى بالعلم الحقيقي العلم الشرعي ، علم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه هو العلم النافع الذي به يعرف العبد ربه ويعرف نفسه ، فيعرف أنه عبد مربوب للرب الحق المعبود جل جلاله وتقدسست أسماؤه ، فإذا عرف العبد ذلك عظم ربه ومعبوده تبارك وتعالى غاية التعظيم ، وقدره حق قدره ، وعلم أن الكبر لا يليق إلا به ، ولا يكون إلا له ، ولا يستحقه إلا إياه ، فإنه سبحانه وتعالى هو الخالق العلي الأعلى ، ذو الجبروت والملكوت الأحد الصمد ، الإله الحق ، مالك الملك ، رب العالمين ، المتصف وحده بصفات العظمة والجلال ، المنعوت وحده بنعوت الكمال

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٠ .

والجمال ، فقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ
الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦] ، وقال
تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ
الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحاثية: ٣٦، ٣٧] .

فإذا علم العبد ذلك وتيقنه يقيناً لامرية فيه ، أدرك حقيقة نفسه وضآلتها ،
بل وضآلة كل ماسوى الله عزوجل ، فعلم إذ ذاك أن اللائق به هو وكل العبيد
الضعفاء الفقراء الأذلاء الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً إلا ما شاء الله ويأذنه
وعلمه وعونه وتوفيقه ، علموا أن اللائق بهم - وهذا شأنهم - إنما هو الإخبات
والتذلل لله رب العالمين ، والتواضع ولين الجانب لعباده الذين هم وهم في
العبودية له تعالى سواء ، العزيز منهم عنده والأكرم لديه والأقرب منه والأعلى
مقاماً والأرفع درجة عنده أتقاهم له وأكثرهم له ذكراً ، وأعظمهم له محبة
وإجلالاً وأشدهم منه خوفاً ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ،
﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ
آْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧] .

فشأن العلم الحقيقي إذاً أن يثمر التواضع والسكينة ، ويورث الخشعية
والخضوع والاستكانة ، فإذا حصل ضد ذلك من الأمن والغرور والكبر
والخيلاء ، فالسبب في ذلك هو ما ذكره الإمام الغزالي بقوله : « أن يخوض
العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ، رديء النفس ، سيء الأخلاق ، فإنه لم
يشتغل أولاً بتهذيب نفسه ، وتركية قلبه بأنواع المجاهدات ، ولم يرض نفسه
في عبادة ربه ، فبقي خبيث الجوهر ، فإذا خاض في العلم أي علم كان ،
صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً ، فلم يطب ثمره ، ولم يظهر في الخير
أثره ... »^(١) .

وهذا الذي ذكره الإمام الغزالي ذو شقين :
الأول : أن المتكبر في هذه الحالة لم يتعلم العلم ليعمل به ، بل كانت

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٠ .

نيتة حين دخله وخاض في غماره غير صالحة ، أي : أنه لم يقصد من طلبه وجه الله تعالى ، ولم يخلص فيه نيتة له سبحانه ، بل هدف في طلبه للعلم تحقيق رغبة دنيوية ، فقط .

فقد يكون طلبه ليذكر به في الناس ، أي : رياءً وسمعة ، ليتنفش ويتعالى حين يقال عنه : عالم ، قاريء ، حافظ ، ... الخ .

وقد يكون طلبه ليحصل به شهادة ينال بها جاهاً أو منصباً يأكل من خلاله أموال الخلق بحق وبغير حق ، فهذا وأمثاله ممن يطلبون الدنيا بما يتعلمون يرون في التكبر ما يحفظ لهم مقاصدهم الدنيا ، ويخشون إن تواضعوا أن يفقدوا حظوظهم ومطالبهم السفلية .

إن من يطلب العلم الحقيقي ليتوصل به إلى غرض دنيوي تافه زائل يحرم من أعظم ثماره وهي الخشية والخشوع والسكينة والتواضع ، ذلك أنه أصاب علماً جرى على لسانه دون أن يجاوز ترقوته ويصل إلى قلبه ، وعلم لا ثمرة له في القلب هو علم لا نفع فيه ولا يثمر إلا شوك الكبر وزقوم الأمن وحنظل الغرور والعجب والخيلاء ، وهو حينئذ يكون وبالاً وحجة على حامله .

إن العلم النافع هو ما كانت ثمرته في القلب ، لا ما جرى على اللسان ، ولذلك جاء في الأثر : « الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ ، فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ »^(١) .

وفي كتاب الله تعالى ضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً بيناً لمن أخذ العلم وحمله ، ولم يعمل به ، ولم يكن له من ثمرته نصيب ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥٠] .

وهكذا كل من أخذ من العلم شيئاً ولم يعمل به ، ولم يخالط قلبه ،

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة ، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله . وهو من قول الحسن ٧٠/١ .

قال المنذري : رواه الخطيب في تاريخه بإسناد حسن ، ورواه ابن عبد البر في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد حسن . انظر : الترغيب والترهيب ١٠٣/١ .

مكتفياً بحفظ حروفه وترديد كلماته ، مضيقاً حدوده ، ماهو إلا كالحمار البليد الذي يحمل على ظهره أسفار العلم والحكمة والمعرفة دون أن يكون له من ثمارها اليانعة الدانية حظ وقسم .

ولقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن قوم من أمته حفظوا كتاب الله وقرعوه ، لكنهم نبذوا العمل به وراء ظهورهم ولم ينتفعوا به حين قرعوه بألسنتهم ، وأغلقت أبواب قلوبهم وبصائرهم دونه ، فما جاوز تراقيهم ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ خُلُوقَهُمْ أَوْ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ»^(١) فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَى سَهْمِهِ إِلَى نَصْلِهِ إِلَى رِصَافِهِ فَيَتَمَارَى فِي الْفُوقَةِ هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَيْءٌ»^(٢) .

ونذكر هنا والحديث عن الانتفاع بالعلم وعدمه المثل الذي ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم لما جاء به من الهدى والعلم وأقسام الناس في تلقيه وقبوله والانتفاع والنفع به ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ

(١) أي : الصيد الذي ترميه فتقصده وينفذ فيه سهمك ، وقيل : هي كل دابة مرمية .
انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/٢٦٨ .

(٢) الحديث متفق عليه .

أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع ٢٨٤/٥ ، وفي كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ٤٧/٥ ، وفي كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا.. ﴾ [هود: ٥٠] ٥٩٣/٦ ، وفي كتاب فضائل القرآن ، باب من رأى بقراءة القرآن ٦٠٣/٦ ، وفي كتاب استتابة المرتدين ، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ٢٢٧/٩ ، وفي كتاب التوحيد ، باب قراءة الفاجر والمنافق ٨٤٠/٩ .

وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٧٤٠/٢ — ٧٥٠ .

فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(١).

إن الغيث به غوث الأرض وحياتها، ينزل من السماء فتحيى به بإذن الله بعد موتها، لكن ليس الأرض كلها في ذلك سواء، بل هي ثلاث بُقع كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم:

بقعة طيبة صالحة إذا نزل الغيث قبلته وخالط ذراتها، فحييت به وأنبئت الكلاً والعشب، فانتفع به الإنسان والطير والحيوان، بل وكل كائن حي، فنعمة البقعة هي انتفعت ونفع الله بها.

وبقعة ثانية صلبة قاسية لم يخالط الغيث ذراتها، فلم تنتفع به في ذاتها، لكنها حفظته وأمسكته، فانتفع به غيرها، حيث شرب الناس منه وسقوا وزرعوا، فهي بقعة نفعها لغيرها.

وبقعة ثالثة بئست البقعة هي، قيعان مستوية ملساء لا تقبل الماء ولا يجد له فيها مسلكاً، ولا تمسكه فينتفع به غيرها، بل يمر عليها ويستقر في غيرها، دون أن يكون لها من خيره نصيب.

والرسول صلى الله عليه وسلم حين ضرب هذا المثل شبه حال أمته وشأنهم عندما يهطل عليهم غيث الهدى والعلم، بحال الأرض عندما يهطل عليها غيث السماء، فإنهم ينقسمون إلى أقسام ثلاثة:

قسم يقبل الهدى والعلم فيعلم ويعمل ويعلم «فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها، وأنبئت فنفعت غيرها»^(٢).

فهذا القسم خير الأقسام، والعلماء على هذا الحال هم العلماء حقاً، الذين يرفعهم الله تعالى درجات، وهم المعنيون بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

(١) الحديث متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم ١٠٥/١.

وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم ١٧٨٧/٤. وراوي الحديث أبو موسى رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري ٢٣٤/١.

وقسم جاءه الهدى «وجمع العلم غير أنه لم يعمل بنوافله؛ أو لم يتفقه فيما جمع؛ لكنه أدّاه لغيره فانتفع به ، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء ، فينتفع الناس به»^(١) .

وقسم ثالث يأتيه الهدى والعلم فلا يسمع الهدى ولا يحفظ العلم ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض الملساء التي مرّ عليه الماء فلا هي انتفعت به ، ولا هي حفظته لينتفع به غيرها .

وعندما ننظر إلى حال المتكبر بعلمه نجد أنه إما أن يكون من القسم الثاني الذي لم ينتفع بعلمه ، حيث لم يعمل به حين دعاه إلى التواضع والسكينة ، فتكبر وتعالى ، ولكنه مع ذلك قد يأتي من ينتفع بما جمع من نصوص العلم وعرف من قواعده ، وفي هذا نوع خير .

وإما أن يبلغ به الكبر مبلغاً أعظم من ذلك فيكون بمنزلة البقعة الملساء من الأرض التي لا خير فيها لذاتها ولا لغيرها ، وذلك حين يمنع كبره عن الانتفاع بالعلم أو نفع غيره به .

والشق الثاني الذي يؤخذ من كلام الإمام الغزالي هو أهمية تربية النفس وتهذيب سلوكها ، قبل الخوض في طلب العلم ، فإن العلم تحلية لا بدّ أن تسبقه تخلية ، لذا ينبغي على من أراد طلب العلم أن ينظر في نفسه نظرة الطبيب الحاذق ، متحسناً عللها وأمراضها ، ليقدم لها العلاج النافع من التربية والتهذيب وفق المنهج المحمدي على صاحبه صلوات الله وسلامه؛ فإذا ماتمت له بغيته من تربية نفسه وتزكيتها من كل علة شرع يخوض غمار العلم لأنها أصبحت عندئذ صالحة ومهيأة لثمر فيها العلم ثماره الطيبة المنشودة .

والإمام الغزالي أشار إلى كيفية تربية النفس حين قال : «فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرُض نفسه في عبادة ربه»^(٢) .

إن التربية والتعليم جناحاً طائر ، ولا يستقيم طيران الطائر ما لم يرفرفاً معاً ، فالتربية والتعليم يجب أن يسيرا معاً جنباً إلى جنب ، لأنه لا غنى لأحدهما عن

(١) فتح الباري ٢٣٤/١ .

(٢) إحياء علوم الدين ١٥٠/٤ . أقول : قد أشار الغزالي في غير موضع من الأحياء إلى أمور في التزكية وأنواع من المجاهدات لا يوافق عليها ؛ لما يظهر فيها من بعد عن المنهج النبوي السوي ، فالتزكية ينبغي أن تكون وفق ما جاء في كتاب الله تعالى ، وأن تؤخذ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقتبس من سيرته الزكية .

الأخر ، فمجاهدة النفس بأنواع المجاهدات في عبادة الله تعالى يجب أن تكون عن علم لتصح وتسلم من أمراض الجهل الخطيرة ، والعلم يجب أن يقرن بالتربية ليثمر الثمار المرجوة ، وقد تتقدم التربية أو التعليم في حالات معينة يحتاج إليها حسب ما يراه المربون والمعلمون من الحاجة لذلك .

ورحم الله الإمام الغزالي ، فلقد أشار عن علم ، ونطق عن فهم ، وقال عن حكمة وخبرة حين نبّه إلى أهمية التربية ، فهذا حال وواقع أمتنا يشهد بذلك .

إن الأمة اليوم في ضياع وتيه كبير ، فقدت هويتها ، وتاهت عن أصولها ، فانحدرت إلى مؤخرة الركب ، بعد أن كانت هي القائدة الرائدة ، وأضحت تابعة بعد أن كانت متبوعة ، فلماذا حصل ويحصل ذلك؟

هل هي أمة جاهلة؟ هل تفتقد المعلمين والمتعلمين؟ هل تفتقر إلى دور العلم؟ وهل تنقصها مراجعه؟

بكل تأكيد سيأتي الجواب على هذه التساؤلات بالنفي؛ فالأمة ليست جاهلة ، وهي غاصة بالمعلمين والمتعلمين ، زاخرة بدور العلم ومصادره ومراجعته ، ولله الحمد والمنة على ذلك .

إذاً لماذا هذا الضياع وهذا الانحدار؟

الجواب ، لأنها أمة أهملت المنهج السوي في التربية ، كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لقد ربي محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فكانوا يأخذون العشر آيات من كتاب الله تعالى لا يتجاوزونها إلى غيرها ، حتى يتعلموها ويعملوا بما فيها ، فتعلموا العلم والعمل جميعاً^(١) ، فهل نحن كذلك؟

هذا كتاب ربنا تعالى ، وهذه سنة نبيه صلى الله عليه وسلم بين أيدينا ، يحفظهما ويتلقاهما الكثيرون منا ، فهل تربينا عليهما؟ هل طبقناهما في واقع

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن السلمي ، قال : حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يقرءون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا مافي هذه من العلم والعمل ، قالوا : فعلمنا العلم والعمل . انظر : المسند ٤١٠/٥

حياتنا كما يجب أن يكون التطبيق؟ لوفعلنا ذلك لما كان هذا حالنا! ولشابهنا الجيل الذي لم ولن يتكرر ، جيل الصحابة الكرام -رضوان الله تعالى عليهم- الجيل الذي سما وساد وفاح مسكاً ملاً الجبال والوهاد ، لأنه جيل تربى على يد محمد وتخرج من مدرسته صلى الله عليه وسلم .

إذاً أمتنا اليوم بحاجة إلى المعلم المربي على المنهج السوي ، المستمدة أصوله من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا حصل ذلك ، فإن الأمة ستنهض من كبوتها ، وتفيق من سباتها ، وستعود لتتبوأ مركز القيادة والريادة المسلوب منها .

ما سبق ذكره كان حول التكبر بالعلم الحقيقي -العلم الشرعي- وما الذي يجعل حامله يتكبر به مع أن أعظم ثماره التواضع والسكينة .

أما بالنسبة لعلوم الصناعات والتي ذكرها الإمام الغزالي -عليه رحمة الله- كعلم الطب والحساب والجدل وغيرها ، فالأمر فيها كما ذكر الإمام من أن طالبها إذا تجرد حتى امتلأ منها ، امتلأ بها كبراً وغروراً ونفاقاً^(١) .

وإنما كان الأمر فيها كذلك لأنها لاتربط الإنسان بربه وخالقه تعالى رباطاً وثيقاً مباشراً ، مع أنه في جوانب منها قد يستدل بها عليه ، لكنها لاتعرفه مقام العبودية له سبحانه وتعالى ، ولاتوقفه فيه ، ولاتربيه على الإخبات له تعالى ، لأن يناييعها في هذا المجال شديدة الشح ، بل هي جافة .

لذا ينبغي لطالب هذه العلوم أن لاتكون هي غايته ومنتهى قصده ، فيتجرد لها مكتفياً مستغنياً بها عن العلم الشرعي النافع ، بل لابد له أن يطلب من العلم الشرعي ما يصلح نيته ، ويوضح مسلكه ، ويهذب سلوكه ، ويروض نفسه ، ويكبح جماح كبرها وغرورها وعُجبها ، فإنه مامن نفس إلا ولها حظها من العُجب والغرور ، فإذا لم تروض ولم تُهذب وأصاب من هذه العلوم الجافة تربوياً ، فإنها حينئذ تجد متنفساً لها تخرج من خلاله العجب والغرور الكامن فيها .

والمتكبرون بهذه العلوم لا يخفون قديماً وحديثاً .
فما أصحاب الفرق والمذاهب الضالة ، وما أهل الفلسفة والجدل

^١ انظر:
(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٠ .

الباطل ، المتقولون على الله ، المجادلون في آياته بغير حق ، ماهؤلاء وغيرهم من أهل الأهواء والشهوات الذين يردون الحق لمخالفته رغباتهم ، ويسفهون الخلق مستصغرين لهم لعدم موافقتهم في باطلهم ، ما هم إلا متكبرون ، همهم إرضاء غرور أنفسهم ، لذا تراهم يصرون على باطلهم ، ويجحدون الحق وإن استيقنوه ، ويجادلوا بباطلهم ليدحضوا به الحق الواضح خشية أن تنتقص أقدارهم وتسفه أحلامهم عندما يتبين بطلان وفساد آرائهم ومذاهبهم ومعتقداتهم .

ثم إن بعضاً ممن يحملون شهادات في تلك العلوم كالطب والهندسة والفلك في أيامنا متكبرون مختالون يرون أن لأحد يساويهم في مكائهم ، ينظرون إلى أنفسهم نظر استعظام واستعلاء ، وينظرون إلى غيرهم ممن لا يحمل مثل شهاداتهم نظر استصغار واستنقاص .

ولعل السبب في انتفاشهم وخيلائهم -إضافة إلى ماسبق الإشارة إليه من فقدان هذه العلوم للجانب السلوكي التربوي- هو : طغيان الماديات حتى ملكت على الناس أفئدتهم ورائت على قلوبهم ، فأصبحوا ينظرون إلى أصحاب هذه الشهادات -التي تجلب المال والشهرة- نظرة إكبار وإجلال مستنقصين غيرهم ممن ليس في مجالهم .

هذه النظرة المادية الظالمة جعلت كثيراً ممن يحمل تلك الشهادات الصناعية يختالون بها ويستعلون علواً كبيراً .

أقول : ولا يفهم إنسان من هذا الكلام أنه دعوة إلى نبذ هذه العلوم وترك طلبها وتحصيلها ، بل إن طلبها أمر ضروري وفرض كفائي لحاجة الأمة إليها في كثير من مجالات حياتها ، ولكن الذي نرمي إليه هو أن لا تكون هذه العلوم هي الغاية التي يتجرد لها طالبها ، ثم لا يلتفت إلى غيرها من العلوم الشرعية النافعة التي توجهه الوجهة الصحيحة ، وتلزمه المسار السليم فيسير في حياته على هدى وبصيرة .

نعم مالذي يمنع وجود طبيب أو مهندس أو فلكي يحفظ كلام الله تعالى ، ويعرف سنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟ لاشيء يمنع من ذلك أبداً! بل فيه خير كثير وصلاح عظيم للفرد والمجتمع والأمة .

فمثلاً : الطبيب الذي رباه كتاب ربه تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه

وسلم لن يأتي يوماً إلى مريض ليزهق روحه بحجة تخليصه من آلامه أو إلى كبير في السن فيفعل به ذلك بحجة أن دوره في الحياة قد انتهى ، ولن يأتي يوماً ما لينتهك عرض مسلمة عندما تعوزها الحاجة إلى الاختلاء به ، لن يفعل كل ذلك وغيره مما حرم عليه ، لأنه يعلم أن الأمر كله لله ، هو وحده الذي يعلم مصالح عباده ويقدر ماينفعهم ، ويعلم ما يضرهم ، فلا يحق له وهو العبد الضعيف أن يحكم بموت أحد أو حياته ، لأن ذلك ليس له ، وليس هو مقامه ، وإنما مقامه أن يجتهد في بذل الأسباب التي أمر الله بها ، ثم يسلم قياده لله تعالى ، فهو العليم الحكيم ، وهو الشافي وهو الكافي ، وهو الضار ، وهو النافع ، وهو على كل شيء قدير سبحانه وتعالى ، فهو القائل : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢] ، والقائل : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] .

ولن يفعل ذلك أيضاً لأنه يعلم أنه محاسب عليه بين يدي ربه ، ولن يفلت من عقابه يوم يلقاه ، فالله تعالى يقول : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٨، ٧] .

وكذلك المهندس الذي ملأت جوانب نفسه خشية الله يوم أن تربي على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، هذا المهندس لن تسمح له نفسه المهذبة المتريبة الزاكية أن يغش في أدوات بناء المباني السكنية وغيرها ، ليكسب من ورائه مبلغاً من المال يأخذه ويأكله حراماً ، ثم يحاسب عليه يوم الدين ، ولن يفعل ذلك لأنه يعلم أنه سيأتي يوم يسقط فيه ذلك البناء على رؤوس ساكنيه ومن فيه فترهق أرواح بريئة ، وتشرد أسر مسكينة ، وتهدر أموال طائلة ، وكل ذلك جريمة عظيمة له من إثمها حظ كبير ، ولن يفلت من بطش الله وانتقامه ، فهو القائل : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ، والقائل : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

ومثلهما الفلكي الذي تهذب في مدرسة القرآن الكريم والسنة المطهرة ،

وتربى فيها ، لن يقول يوماً ما لما يشاهده ويطلع عليه من أسرار إلهية وبدائع ربانية في هذا الكون الفسيح ، لن يقول : إن ذلك صنع الطبيعة ، بل سيعود إلى كتاب الله الكريم ليقرأ فيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنى تُؤْفَكُونَ . كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [غافر: ٦٢، ٦٣] ، وقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤] ، فيعلم أن للكون رباً عظيماً مبدعاً هو الخلاق العليم سبحانه وتعالى .

وهكذا نرى أن أصحاب هذه العلوم إذا تربوا على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونهلوا من معينهما الصافي ، سثمر فيهم ثمار الخير ، وسيوظف صاحب كل ذي علم منهم علمه لصالح مجتمعه وأمته ، طلباً لثواب الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، ولن يجعل من علمه معولاً للهدم ووسيلة للشر وأداة للفساد خوفاً من الله تعالى أن يذيقه العذاب جزاءً وفاقا ، في يوم الدين الذي يقول الله تعالى فيه : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

ومما سبق نخلص إلى مايلي :

أولاً : إن خطر الكبر على العلماء كبير ، فهو إليهم أسرع منه إلى غيرهم ، وبليتهم به أقرب من سواهم ، وذلك لأن للعلم عزة وجمالاً وكمالاً ، لا يلبث العالم الذي لم يمنح نور التوفيق^(١) ، ولم يخالط العلم بشاشة قلبه أن يستشعر ذلك فيستعظم نفسه ويزهو .

ولما كان العلم من أعظم ما يتكبر به^(٢) ، وكان العلماء على خطر عظيم منه ، قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : « تواضعوا لمن تعلمونه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم » ، أي :

(١) انظر : الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١١٩ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٠ .

لا يزكوا عند الله إذا تكبرتم بـ^(١).

وللإمام الغزالي كلام يقع في مقتل ، يصور فيه خطورة الكبر على العلماء ، حيث قال : « فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له عالم ، ثم لا يحركه عز العلم وخيلاؤه ، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه ، ينبغي أن لا يفارق ، ولو بعد مكانه ، ينبغي أن يرحل إليه للإفادة منه ، ثم يذكر أن هذا الصنف من العلماء قد ولى زمانه وانقرض في الأول ومن يليهم ، ثم يقول : بل يعزف زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضاً إما معدوم ، وإما عزيز...^(٢) » .

وإذا كان هذا كلام الإمام الغزالي عن علماء وقته وزمانه ، والخير فيهم كثير ، فماذا بوسعنا أن نقول عن حال زماننا الذي تتابعت فيه الفتن وانقرض عقدها ، وفقد الإخلاص وعدم رجالة^١ ، وصارت الدنيا ومتاعها الزائل وزخرفها الزائف أكبر الهم ومبلغ العلم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؟! ثانياً : التواضع والسكينة أعظم ثمار العلم ، فإذا حصل عكس ذلك من الكبر والأمن فمرده إلى الأسباب التالية :

عدم صلاح النية في طلب العلم ، وطلبه للدنيا ، لا لله تعالى .
عدم العمل بالعلم وما يدعو إليه من حميد الأخلاق والصفات ، أي : عدم التزكي به وعليه ، ومن كان هذا حاله ، فإن مامعه هو صورة العلم للاحقيقته ، فهو مجرد جامع حارٍ لنصوص لم يتهذب بها .
يقول ابن الجوزي - عليه رحمة الله تعالى - في علماء من هذا النوع لم يعملوا بعلمهم ، فلم ينتفعوا به ، فتكبروا وتعاضموا ، وخاضوا في الذنوب والمعاصي : « وليس العلم بمجرد صورته هو النافع ، بل معناه ، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به^(٣) » .

ويقول : « فتفكرت - أي في حال العلماء الذين يعصون الله تعالى - فإذا العلم الذي هو معرفة الحقائق والنظر في سير القدماء ، والتأدب بآداب القوم ،

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٤ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ١٥٠/٤ ، ١٥١ .

(٣) صيد الخاطر ١٥٧ .

ومعرفة الحق وما يجب له ، ليس عند القوم؛ وإنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم ، وليس كذلك العلم النافع ، إنما فهم الأصول ، ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه ، والنظر في سير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والتأدب بآدابهم ، وفهم ما نقل عنهم ، هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال»^(١) .

ويقول : ومن العلماء ذو نية خبيثة ، يقصد بالعلم المباهاة لا العمل؛ وقليل من العلماء من تسلم له نيته ويحسن قصده ، وذلك الذي أراد الله به خيراً ، فرزقه حسن القصد في طلب العلم ، فهو يحصله لينتفع به وينفع^(٢) .
ويقول : « رأيت أكثر العلماء مشغولين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده ، وليس العلم صور الألفاظ ، إنما المقصود فهم المراد منه ، وذلك يورث الخشية والخوف منه ، ويرى المنة للمنع بالعلم ، وقوة الحجة له على المتعلم»^(٣) .

وجاء في كتاب « الزواجر » : « من شأن العلم أن يوجب مزيد الخوف والتواضع ، لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في شكر نعمته ، لكن من يتكبر فسببه أن علمه إما أن يرجع إلى الدنيا ، أو لأنه لم يخلص النية فيه ، فخاض فيه على غير وجهه ، فأتج له تلك القبائح»^(٤) .

ونتذكر هنا المثل الذي ضربه الإمام وهب بن منبه -رحمه الله- لمن أخذ العلم ونيته فاسدة وباطنه خبيث ، يقول الإمام وهب : « العلم كالغيث ينزل من السماء حلوّاً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم يحفظه الرجال ، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً ، علم أن الحجة قد تأكدت

(١) صيد الخاطر ٣١٣.

(٢) انظر : صيد الخاطر ٣٤٢.

(٣) صيد الخاطر ٤٣٨.

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر ، للإمام ابن حجر ١١٩/١.

عليه ، فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً»^(١) .

٣ - استشعار عزة العلم وجماله وكماله مع فساد النية في الطلب وترك العمل بالعلم ، والتعلق بصورته لبحقيقته .

جاء في الزواجر : « وكذلك العلماء الذين ظهرت عليهم سيما الصالحين يسرع إليهم الكبر ، لكون الناس يترددون إليهم بقضاء مآربهم ، والمبالغة في إكرامهم ، فيرون حينئذ أنهم أرفع وأحق بأن يكون الناس دونهم لعدم وصولهم إلى صور أعمالهم ، وما دروا أن ذلك ربما يكون سبباً لسلبهم»^(٢) .

واستشعار عزة العلم وجماله وكماله أمر لا بد منه للعالم ، لكنه على وجهين :

إما أن تكون ثمرة ذلك التواضع والسكينة والترفع عن السفاسف والبعد عن الرزايا ، وعن مواطن الذلة والضعفة ، فهذا هو الاستشعار الحق الممدوح .

وإما أن تكون نتيجته الغرور والأمن والتكبر فهذا هو المذموم المرذول .

وإن عدم استشعار عزة العلم بصورته الأولى ، الصورة الحققة الممدوحة يؤدي إلى الوضاعة في المواقف والسلوكيات ، كما هو واضح عند كثير ممن ينتسبون إلى العلم ، حيث تراهم يذلون أنفسهم بتملقهم وتزلفهم إلى أهل الدنيا ، ويقفون بين أيديهم مواقف الذلة يستجدون منهم دنياهم .

وكان الأجدر بهم أن لا يفعلوا ذلك حفاظاً على عزة العلم وكرامته ، ولكنهم فعلوه حين لم يستشعروا تلك العزة والكمال والكرامة ، فمن هنا نقول : إن استشعار عزة العلم وكماله وجماله بالصورة التي تؤدي إلى صونه والسمو به على مواطن ومواقف الذلة والصغار أمر مطلوب بل ولازم .

٤ - انحراف الشخص نفسه وعدم قابليته للعلم :

قد يطلب العلم من باطنه خبيث تعشعش فيه طباع السوء ، وهذا لا يزيده العلم إلا طغياناً ، فيحتاج أولاً إلى غسل باطنه وتطهيره من ذلك الخبيث حتى يصلح ويصبح قابلاً لأن يثمر فيه العلم ثمار الفضيلة والخير ، وإلا لما كان ذلك .

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٥ ، إحياء علوم الدين ١٥٠/٤ .

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١١٩/١ .

ومثل هذا مذكور في المثل الذي ضربه الإمام ابن منبه وذكرناه آنفاً .
ما ذكر من الأسباب كان بالنسبة للعلوم الشرعية ، أما فيما يتعلق بسواها
من العلوم كعلم الجدل والطب والحساب والهندسة... وغيرها ، فهناك سببان
آخران :

أولهما : جفاف هذه العلوم من الجانب التربوي الذي يهذب السلوك
ويربي النفس مع تجرد أصحابها لها ، وعدم أخذهم من العلوم الشرعية
ما يعطيهم هذا الجانب المفقود في علومهم ، ولذا فإنه ينبغي عليهم إذا أرادوا
الرشاد والسداد أن لا يتجردوا لهذه العلوم كل التجرد ، وأن يكون لهم من
العلوم الشرعية ما ينير لهم الطريق ، ويفتح لهم أبواب الخير والهدى .

ثانيهما : النظرة المادية -الظالمة- المعظمة لهم من معظم الناس ،
وخاصة في أزماننا هذه ، فكثير من الناس يرى أن هذه العلوم هي التي تواكب
وتوافق متطلبات العصر ، والذي ينعت بالتقدم والتحضر ، ومن ثم فإن الحاجة
تبقى ملحة إلى أصحابها ، ومن ثم يفوزون بالمكانة العالية ، ويحظون بالجاه
والمال على حد تعبير العوام ، بل وكثير ممن ينتسبون للعلم يرون أن هذه
العلوم يضمن بها صاحبها مستقبله ، ومعلوم أن المستقبل ليس للإنسان علم
به ، وإنما علمه عند الله سبحانه وتعالى .

هذه النظرة المادية جعلت من أصحاب هذه العلوم يتعاضمون ويتعالون
بها ، ظنا منهم أن لأحد مثلهم .

ومعلوم أن المجتمع قد يكون سبباً لظهور المتكبر حين يطبل له ، ويكيل
له المديح بحق أو بغير حق ، أو حين يقف فيه موقف السلب فلا يوجهه
ولا يأخذ على يديه .

وقد ذكرنا هذا الأمر بشيء من التفصيل عند مبحث أسباب الكبر فينظر هناك .

أبرز صفات المتكبر بالعلم :

للمتكبر بالعلم صفات وعلامات يتسم بها ويعرف من خلالها ، تبرز
كبره وتبدى زهوه ، وهي صفات من شأنها أن تجعله في أحط المنازل وأسفل
الدركات عند الله تعالى ، وعند عباده ، لأنه إنما يرفع الله تعالى درجات
العلماء العاملين ، وتعلو بين الخلق مراتبهم ، والمتكبر بالعلم ليس منهم ، لبعده
عن أجل صفاتهم ، وهي التواضع واللين في غير مذلة ولاهوان ، فلا حجب له

ولاكرامة عند الله تعالى ولا عند عباده .

ولعل أبرز صفات المتكبر بالعلم إضافة إلى الصفات التي يشترك فيها مع سائر المتكبرين مايلي :

أولاً : رد الحق وكتمانه ، وعدم الرجوع إليه ، بل والمجادلة بالباطل لدحضه :
ويحصل منه ذلك عندما لا يكون الحق موافقاً لهواه ومؤيداً لرأيه ، أو جاء به من يراه دونه في العلم والفضيلة ، فهو يفعل ذلك ليحفظ جاهه أنفة أن يقال : إن الحق في غير مذهب إليه ، وحتى لا ينال غيره مرتبة أو يحرز فضلاً وشرفاً ، يظن بكبره أنه لا يستحقه سواه .

وتظهر هذه الصفة الذميمة جلية عندما يقف ذلك المتكبر محتاجاً ومناظراً ، فإنه إن ظهر الحق على يديه أو تبين أنه قد وافقه انتفش وتعاضم ، حتى لا يرى من حاججه وناظره شيئاً .

وإن تبين أنه قد جانب الصواب وأن الحق ليس إلى جانبه ولا موافقاً لهواه ، فإنه لا يقبله ولا يرجع إليه ، بل يصصر على باطله ، ويجادل به لدحض الحق ، ولربما حاربه وسعى للقضاء على صاحبه ، إرضاءً لكبر نفسه وعتوها .
وهذا طغيان نفسي مبعثه حب الذات وإرادة التقدم والامتياز ، وهو خلق مجبولة عليه النفس البشرية ، ولا شيء فيه إن طلب من وجهه الحق ، ولم يؤد بصاحبه إلى الطغيان على الآخرين .

ولا يحصل ذلك إلا حين تهذب النفس وتزكى ، ويقوم سلوكها ، أما إن أهملت وأغفل تهذيها وتقويم سلوكها ، فإنها تنجح إلى الطغيان الذي يقود إلى كتمان الحق ورده ، والمجادلة بالباطل لدحضه ومحاربته والسعي للقضاء عليه وعلى أهله .

ثانياً : المتكبر بعلمه فظ غليظ « إن وَعَظَ عَنَفٌ ، وإن وَعُظَ عَنَفٌ »^(١) ، لا يعرف اللين ، ولا يجتمع مع الرفق ، بل الشدة صفتة ، والغضب خلقه ، والغلظة ديدنه .

إن وَعَظَ عَنَفٌ ، لأنه حين وعظه وتعليمه ونصحه وتوجيهه يرى نفسه خيراً ممن يعظهم ويعلمهم ، ويرى أن ليس فيهم من يساويه أو يُدانيه ، فينظر

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٤ .

إليهم نظرة مستعلية ، لذا فهو لا يرفق بهم ، ولا يلين لهم ، بل هو دائم التعنيف لهم ، يسمعهم الكلام الجارح ، ويوجه إليهم النقد اللاذع ، «أنفة أن يكلمهم بالسوية ، لأنهم عنده ليسوا مثله»^(١) .

والمتكبر بالعلم يثور في وجه من يعلمه ويغضب عليه لأنفه الأسباب ، ولا يقبل عذره إن أخطأ ، ولا يوجهه إلى الصواب بحسن الكلام وطيب الخطاب ، بل يسمعه مالا ينبغي من كلمات التجريح والتحقير ، وهذا الأمر لاشك أنه منفر للمتعلم ، يجعله ييغض معلمه ، ويمقت تعليمه ، فينفر منه ، ولا ينتفع به ، ولربما ينفر من العلم نفسه نظراً للصورة المشوهة التي رسمها ذلك المتكبر للعلماء والواعظين .

هذا هو إمام المعلمين وقادة المريين محمد صلى الله عليه وسلم يوجهه ربه تبارك وتعالى إلى التواضع لأتباعه المؤمنين ، والرفق بهم وعدم الغلظة عليهم ، قال تعالى : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] ، وقال تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقُلُوبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، فلله ما أجمل هذا التوجيه الرباني لصفوة الخلق محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الرفق واللين طريق لأسر القلوب ، وامتلاك الأفتدة ، وإن العنف والغلظة طريق للوحشة والفرقة والتباغض والتنافر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الأمين حين قال موجهاً ومرشداً : «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنَزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ»^(٢) ، وهو عليه الصلاة والسلام الذي قال : «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٣) .

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٤ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرق ، من رواية عائشة رضي الله عنهما . ٢٠٠٤/٤ .

(٣) متفق عليه من رواية أنس رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحولهم

ولقد كان صلى الله عليه وسلم هو القدوة في ذلك ، فهذا رجل يدخل المسجد فيقول فيه ، ويهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبطشوا به ، فيمنعهم صلى الله عليه وسلم ويقول : « دَعُوهُ وَهَرِّيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا »^(١) مِنْ مَاءٍ أَوْ ذُنُوبًا^(٢) مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ »^(٣) ، ثم يدعو ذلك الرجل إليه فيبين له خطأه ويرشده إلى الصواب ، وهو يقول له : « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِلذِّكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ »^(٤) .

وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حافلة بمثل هذه المواقف الحانية التي ينبغي التأسي بها ، والتعلم منها ، والتربي عليها ، ليحصل الخير والفلاح ، ولتكون السعادة في الدنيا والآخرة .

والمتكبر بالعلم إن وعظ أو وُجِّه له النصيح عنف وغضب ، وثار في وجه ناصحه ، وواعظه لرؤيته نفسه فوق الوعظ والواعظ ، وفي غنى عن النصيحة والناصح ، فكيف يعظه أحدٌ وهو العالم النحرير؟ وكيف يحتاج إلى النصيحة وهو البحر الزاخر؟!

إن هذا في ظنه السيء عارٌ عليه - وانتقاص من قدره ، لذا فهو يغضب وتنتفخ أوداجه ليحفظ بذلك جاهه وقدره أن يחדش أو ينتقص .

بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ١/١٠٠ ، وفي كتاب الأدب ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا .. » ٨/٣٥٩ .
وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد ، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ٣/١٣٥٨ ، ١٣٥٩ .

(١) السَّجَلُ : الدلو المملئ ماءً . انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/٣٤٤ .
(٢) الذنوب : الدلو العظيمة ، وقيل لاتسمى ذنوباً إلا إذا كان فيها ماءً . انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/١٧١ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء ، باب صب الماء على البول في المسجد ١/١٦٤ ، وفي كتاب الأدب ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا » ٨/٣٥٩ . والحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة ، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد ١/٢٣٧ ، وهو من رواية أنس رضي الله عنه .

ولا يفعل ذلك إلا من أعمى الكبر بصيرته ، فلم يعد يميز بين الحق والباطل ، وإلا لعلم أن الله تعالى يقول : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ، ولعلم أنه كغيره من البشر غير معصوم من الخطأ والزلل ، ولعلم كذلك حاجته إلى إخوانه كحاجتهم إليه ، عملاً بقول الحق تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [المائدة: ٢] .

ولو فقه هذا المتكبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لما كان هذا حاله ، ولعلم أن قبول النصيحة والانتفاع بالموعظة والذكرى من صفات أولياء الله المؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ [الذاريات: ٥٥] ، ويقول جل شأنه : ﴿فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ [الأعلى: ١٣، ٩] .

بل إن صفوة الخلق وأتقاهم لله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم يخاطبه ربه تعالى بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١، ٣] ، فكيف يكون الهادي البشير صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى التوجيه والتذكير؟! وهذا الجاهل المتعالم في غنى عن ذلك؟!!

خاب وخسر إذاً من أنف عن قبول النصيحة واستكبر عن الاستماع للتوجيه وظن أنه غير محتاج لذلك ، متناسياً ضعفه وعجزه ، غير مدرك أنه مهما بلغ علمه فإن ما يجهله أكثر ، ومهما بلغت معرفته فإن ما خفي عليه أعظم ، وأنه يظل محتاجاً لنصح إخوانه وتوجيههم كما أنهم في حاجة لنصحه وتوجيهه ، فما خفي عن أحدهم علمه الآخر ، وما غمض عن أحدهم أدركه الثاني ، وهكذا يظل الجميع في حاجة لبعضهم ليكونوا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ»^(١) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، عن أبي موسى رضي الله عنه ٢٦٥/١ .

ثم إن عدم قبول النصيحة والغضب عند سماعها صفة قوم ذمهم الله تبارك وتعالى وتوعدهم في كتابه بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٦]، أي: إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله وقيل له: اتق الله وأنزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق، امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي: بسبب ما شتم عليه من الآثام^(١).

يفعل كل ذلك الشر والفساد، فإذا قيل له: اتق الله، تذكيراً له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه، أنكر أن يقال له هذا القول؛ واستكبر أن يوجه إلى التقوى، وتعاضم أن يؤخذ عليه خطأ، وأن يوجه إلى صواب، وأخذته العزة لابلحق وابلعدل وابلخير، ولكن بالإثم، فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة، ورفع رأسه في وجه الحق الذي يذكر به، وأمام الله بلاحياء منه، وهو الذي كان يشهد الله على ما في قلبه، ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء^(٢).

وهذه الآية نظير قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢].

فالذين كفروا عندما تأتيهم آيات الله ويواجهون بالحُجج والدلائل الواضحة الداحضة لباطلهم لا يقبلون ذلك، ولا يواجهون الدليل بالدليل، ويقارعون الحجة بمثلها، ولكنهم تأخذهم العزة بالإثم، فيلجأون إلى العنف والبطش والشدة، لأنهم لا يملكون غيرها لنصرة باطلهم وإرضاء علوهم وعتوهم، وهذا شأن كل متكبر جبار على سطح الأرض.

٣ - والمتكبر بما جمع من علم تجده دائم التحقير للعوام والتعظيم عليهم، ينظر إليهم كأنهم الحمير التي لاتعقل والدواب التي لاتفقه، يرى أنه

(١) تفسير ابن كثير ٢٥٤/١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٢٠٥/١.

الأعلى وهم الأدنون وأنسبه الشريف العزيز وهم الأسفلون الأراذل ، ولذلك فإنه يعتقد أن له عليهم حقوقاً وواجبات لا ينبغي لهم أن يقصروا فيها ، أو يتهاونوا في أدائها ، فهو يرى أنه يستحق منهم كل تبجيل وتوقير ، وأن عليهم أن يكونوا طوع أمره ، قائمين على خدمته ، ساهرين على راحته ، وإذا قصر أحدهم في ذلك فتلک زلة لا تغتفر .

وهو إذ يطلب ويتوقع منهم ذلك فإنه بالمقابل لا يراهم شيئاً ، ولا يرى لهم عليه حقاً أو واجباً ، وبينما هم يتشرفون بخدمته وقضاء حوائجهم ، بينما هو يأنف من خدمتهم ، ويستكبر عن قضاء حوائجهم أو إعانتهم على ذلك .

ولأن المتكبر بالعلم يرى نفسه فوق العوام ، فإنه في غالب أمره وحاله لا يبدأهم بالسلام ، بل ينتظر منهم أن يبدأوه ، ويرونه ولا يبرهم ، ويعودونه ولا يعودهم ، ويصلونه ولا يصلهم ، ويهشون له ويشون وهو عابس مقطب الجبين ، إن نظر إليهم فمن أعلى ، وإن جلس بينهم فله المكان الأعلى .

وإن يوماً ما أتى على نفسه فبدأ أحدهم بالسلام أوردّه عليه أو عادّه في مرضه أو أجاب دعوته أو وصل رحمه أو أعانه في قضاء حاجته بدا له أن قد فعل به ما لا يستحق من مثله أن يفعله بمثله ، ورأى أنه قد تفضل عليه وأكرمه ، وأن ذلك صنعة له عنده ، ويبدأ له عليه ، يلزمه شكرها ومكافأته عليها .

فالمتكبر بالعلم إذ يستجمل العوام أو من هو أقل منه علماً ، ويستذلهم ويحط من شأنهم ويرتفع عنهم ويأنف من مخالطتهم ، فإنه لا يفعل ذلك إلا وهو يرى نفسه خيراً منهم في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فيسبب انتسابه للعلم الذي له الشرف والشأن العظيم والقدر الجليل عند الله تعالى وبين الناس ، فهو إذ ينتسب للعلم يعتقد أنه قد حاز ذلك الفضل ، واستحق ذلك الشرف فيكون إذا أرفع درجة وقدرًا ، وتكون له الخيرية عليهم .

والحق الذي لا جدال فيه أن للعلم شرفاً ، وأي شرف ! لكن هذا الشرف لا يناله ولا يستحقه كل منتسب للعلم ومدع أنه من أهله ، إنما يشرف بشرف العلم وينال فضله من عمل به وأخلصه لربه ، أما من تعلمه لينال به حظاً من حظوظ الدنيا ثم ترك العمل به ، ونبذه وراءه ظهرياً فلا ينال عزه وشرفه ، بل يكون حجة قائمة عليه ، والويل له يوم يسأل عن علمه ماذا عمل فيه .

وأما ما يعتقده المتكبر بالعلم من أنه خيرٌ من غيره في الآخرة فسببه ظنه أن له عند الله قدراً ليس لهم، لذلك فهو يرجو لنفسه من النجاة والفلاح ما لا يرجو لهم، ويخاف عليهم أكثر من خوفه على نفسه حين يظن أنه ناج، وأنهم هالكون، وأنه واصل وهم منقطعون، وهذا هو الجهل والغرور بعينه، فالأعمال بالخواتيم، ورب جاهل عارف بقدره مستكين لربه خائف منه متواضع لخالقه، هو عند الله سبحانه وتعالى خير وأزكى من عالم متكبر آمن مغرور، بل هو كذلك؛ فإنه لا قدر عند الله جل جلاله لمن تكبر على عباده، واستصغره وظن أنه خير منهم، فهو تبارك وتعالى يضع المتكبرين دركات، ويرفع المتواضعين درجات، وهو العزيز الحكيم.

وشيء آخر يجهله المتكبر بعلمه، وهو أن الحجة عليه أكبر منها على غيره، ممن ليس له مثل حظه من العلم لأنه علم الملم يعلموا فعملوا مالم يعمل، حيث خافوا على أنفسهم وأمن على نفسه، ورجوا له الفلاح، وخاف عليهم الهلاك، وتواضعوا له، وتكبر عليهم، وتقربوا إلى الله تعالى بحبه وتوقيره، وأنف هو عن مجالستهم ومخالطتهم، وبذلك تكون الحجة عليه لا عليهم، ويكونون هم بتواضعهم وخوفهم وإشفاقهم خيراً منه وأزكى عند الله تعالى، ويكون هو بتكبره وأمنه واغتراره بربه على خطر عظيم من مقت الله وسخطه، لأنه نازعه صفته التي لا يستحقها إلا هو سبحانه وتعالى^(١).

٤ - والمتكبر بما جمع من علم يأنف أن يقول لشيء لا يعرفه : لأعرفه، لذا فهو إن سئل سارع بالجواب، وبادر إلى الفتوى، دون رويّة أو تأكيد، المهم أن يقول شيئاً وإن خطأً، يفعل ذلك لأمرين :

أولاً : لحبه الظهور والبروز، وإرادته التصدر والتقدم.

ثانياً : لخوفه أن ينكسر جاهه أو ينتقص من قدره، حين يقال عنه : سئل

فلم يجب! أو سئل فقال : لا أعلم!

والمبادرة بالجواب والمصارعة إلى الفتوى خلاف منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام عليهم رضوان الله تعالى، وسلف الأمة الصالح رحمهم الله تعالى.

(١) ملخص من الرعاية لحقوق الله ٣٨٣، ٣٨٩.

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إن سئل عن شيء من أمر الدنيا لا يعلمه قال : لا أعلم ، وكذلك إن سئل عن أمر شرعي ليس عنده من الله تعالى سابق علم ، فإنه يسكت ويرجئ الإجابة حتى يُعلمه ربه تبارك وتعالى .

ففي حديث جبريل عليه السلام حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة أجاب صلى الله عليه وسلم بقوله : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ »^(١) ، أي : أنا وأنت يا جبريل لانعلم من أمرها إلا ما علمناه ربنا سبحانه وتعالى .

وسئل صلى الله عليه وسلم في أمور غير هذه لم يكن يعلمها عند السؤال فما كان صلى الله عليه وسلم يجيب إلا حين يأتيه الوحي من عند الله سبحانه وتعالى .

وفي مدرسة النبوة تعلم الصحابة الكرام ، ومن ذلك المنهل العذب الرقاق نهلوا؛ ثم على أيديهم تربي التابعون الأخيار وسلف الأمة الأطهار ، فساروا أجمعين على المنهج المحمدي السوي ، فكانوا يتحرزون فيما يقولون إن سئلوا واستفتوا ، بل كانت الفتوى شديدة عليهم ، يود أحدهم أن يكفيه أخوه همها ، وكانوا إن سئلوا يقولون لما لا يعلمون : لانعلم ، الله تعالى أعلم ، يقولون ذلك دون تردد ، ودون خوف من انتقاص أقدارهم أو سقوط جاههم عند وبين الخلق ، لأن ذلك أهون عليهم من أن تكون الحجة عليهم بين يدي ربهم ، فيهنونون عليه وتسقط أقدارهم لديه .

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى : « أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنهم أحد يسأل عن حديث

(١) متفق عليه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ... ١/٨٩ ، وفي كتاب التفسير ، تفسير سورة لقمان ، باب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤] ٦/٤٨٠ .

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... ١/٣٩ ، وهو عنده عن عمر رضي الله عنه في نفس الكتاب والباب ١/٣٧ .

أو فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه ذلك»^(١).

٥ - والمتكبر بالعلم دائم المفارقة والمباهاة به ، وله في ذلك مسلكان^(٢) :

المسلك الأول : لاتفتّر لسانه عن تعداد مناقبه ومحامده ، فهو يفاخر بتفننه في العلوم المختلفة وبكثرة جمعه لها وحفظه لمتونها ، ومعرفته بأصولها وقواعدها وإدراكه لدقائقها وأسرارها ، ويفاخر بكثرة شيوخه ومعلميه ، وعلو كعب من أخذ عنهم وتلقى تعليمه على أيديهم وأنهم هم الذين لا يوجد في الساحة غيرهم ، يفاخر بما سبق في كل فرصة سانحة بمناسبة وبغير مناسبة ، يتعظم بذلك ويختال يقول : أنا أحفظ من المتون كذا وكذا ، وأخذت من العلوم كذا ، وأخذت علمي عن كذا وكذا من المشائخ ، ولقيت العالم الفلاني ، ودرست على العلامة الفلاني ، وحصلت من الجهد الفلاني ، أنا لاتعجزني من العلم مسألة ، ولاتقف في وجهي منه معضلة ، نظري ثاقب ، وذهنى وقاد ، وثقافتى واسعة ، أنا خريج الجامعة الفلانية أو المعهد الفلاني أو الكلية الفلانية ، أنا حاصل على شهادة كذا وشهادة كذا ، وعندى إجازة في كذا وإجازة في كذا... ويظل يؤنن ويؤنن مفاخرأ مباهيا منتفخا متعاليا متطاولاً حتى يخال نفسه فوق الثريا ، بينما لم تجاوز قدماه الثرى .

وهو إذ يعظم نفسه كل هذا التعظيم فإنه بالمقابل وحتى لا يكون سواه وحتى تبقى له المكانة التي يطلبها يحقر من شأن الآخرين ويصغرهم يقول لأحدهم : من أنت؟ وماذا تعرف من العلوم؟ ومن هم معلموك؟ وماهى الكلية أو الجامعة التي درست فيها؟ وماهى شهادتك؟.... إلى غير ذلك مما يفخر به عليه معظما نفسه منتقصاً له متعاليا عليه .

المسلك الثانى : أن يجتهد كل الاجتهاد ويحرص غاية الحرص أن تكون له الغلبة إذا ناظر أو جادل ، وأن يسهر ويتعب نفسه كثيراً في تحصيل علوم يتجمل ويتباهى بها في المحافل والمجالس والمناسبات ، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة ، وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على

(١) حلية الأولياء ٣٥١/٤ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ١٥٣/٤ .

الأقران ويتعظم عليهم^(١) ، وكان يكفيه من هذه العلوم قليلها بل ولربما أقل القليل منها .

وكذلك فإنه ومن قبيل المفاخرة والمباهاة يحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها ، لالعمل بها أو خشية ذهابها ، ولكن ليرد على من أخطأ فيها ، فيظهر فضله ، ونقصان أقرانه فيزهو بذلك ويتنفس ، ولذلك فإنه يفرح إذا أخطأ واحد منهم ليرد عليهم ، ويسوؤه إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه^(٢) .

وليس فقط تظهر مباهاته ومفاخرته في حفظ الأحاديث متناً وإسناداً ، بل وفي حفظه لمختلف نصوص العلوم المتفرقة حتى ما يلزمه حفظه منها ، ولو عمل بها وأفاد منها وبها لحمد ذلك منه ، ولكنه يقف عند المفاخرة والمباهاة بها فقط يتعظم بذلك ويتعالى .

ولقد ورد النهي عن المباهاة في العلم والمفاخرة به ، وورد الوعيد الشديد عليه ففي الحديث : « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ »^(٣) ، وفي رواية : قال : « لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا لِيُتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ »^(٤) ، وفي حديث آخر : " مَنْ تَعَلَّمَ

(١) انظر : إحياء علوم الدين ١٥٣/٤ .

(٢) إحياء علوم الدين ١٥٣/٤ .

(٣) أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في كتاب العلم ، باب فيمن طلب بعلمه الدنيا ، وقال : « حديث غريب ، لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم ، تكلم فيه من قبل حفظه » . انظر : السنن ٣٢/٥ .

وأخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ مقارب في المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به ٩٥/١٠ ، وأخرجه هنا أيضاً عن أبي هرير رضي الله عنه . انظر ٩٨/١ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال البوصيري : انفرد به عن الكتب الستة . قال في الزوائد : « رجال إسناده ثقات » . انظر : سنن ابن ماجه وبهامشه كفاية الحاجة ٩٥/١ .

صَرَفَ الْكَلَامَ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
صَرَفًا وَلَا عَدْلًا^(١) .

وهذا الأمر اجتمعت فيه سيئات كثيرة أعظمها تعلم العلم لغير الله ، ثم
الرياء ، ثم المفاخرة ، وعدم العلم بالعمل ، وتعظيم النفس واحتقار الآخرين .
وكل هذه سيئات عظيمة نهى الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه
وسلم عنها ، وتوعدا الوعيد الشديد عليها كما مرّ ، ويأتي ذكره في ثنايا هذا
البحث كلاً في موضعه ، وبالله التوفيق .

٦ - والمتكبر بالعلم كثير الغمز واللمز للعلماء الذين يفوقونه علماً ،
وهم أحسن منه عملاً ، يفعل ذلك أنفة أن يعترف لهم بالفضل والتقدم ، حسداً
لهم وتعظيماً لنفسه .

فلا يكاد يذكر أحدهم أمامه إلا أخذ في تعداد مثالبه وذكر معاييه ،
ولربما لمزه بما ليس فيه ، بل لربما بلغ به الكبر والحسد مبلغاً أعظم من
ذلك ، فيتهمه في دينه ، ويشكك في عقيدته .

كل ذلك لئلا يكون له الفضل عليه ، وليبقى هو المشار إليه بالبنان ،
فيقال : لله دره ، ماعمله وماأزكاه!!

وبئس هذا الصنيع وقُبْحُ فاعله ، فأين هو من فعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصحابه الكرام ومن تربى على أيديهم من سلف الأمة الصالح؟!
أين هو منهم وقد كانوا ينزلون الناس منازلهم ويعترفون لهم بأقدارهم ،
ويتواضع أحدهم لمن هو دونه فضلاً عما هو فوقه ، أين هو من هذا الصنيع

قال المنذري : « رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي كلهم من رواية
يحيى بن يعقوب الغافقي ، عن ابن جريج ، عن أبي الزبير عنه ، ويحيى هذا ثقة
احتج به الشيخان وغيرهما ، لا يلتفت إلى من شذ فيه ، ورواه ابن ماجه أيضاً بنحوه
من حديث حذيفة » . انظر : الترغيب والترهيب ١/١١٦ ، وحديث حذيفة رضي الله
عنه المشار إليه . انظره في سنن ابن ماجه المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل
به ٩٧/١ .

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ماجاء في المتشدد في الكلام ٣٠٢/٤ عن
أبي هريرة .

الذي يورث المحامد ويكسب المعالي؟

لقد عميت بصيرته عن هذا الطريق الحق ، فسلك طريق الشيطان الرجيم
وخطا خطواته ، ورضي لنفسه أن يتخلق بخلقه ، فهو على خطر عظيم من أن
يكون مصيره مصير قائده في الكبر إبليس اللعين .

تنبيه :

هذه الصفات التي ذكرت هي صفات يشترك فيها كل المتكبرين بأي
داع من دواعي الكبر ، ولكن المتكبر بعلمه أقرب إلى التلبس بها من غيره ،
ولذا أحببت أن أذكرها ههنا بشيء من التفصيل فتأملها وقس على ذلك سائر
المتكبرين . والله أعلم .

الداعي الثالث من دواعي التكبر : العمل .

وأعني به مايفعله الإنسان من العبادة ويأتيه من أنواع الطاعات والقربات أو يظن أنه كذلك ، فإن العمل إما صالح وإما طالح .
فالصالح ماكان لله تعالى خالصاً ، وكان على الوجه الذي شرعه سبحانه وتعالى وأرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام .

والطالح ماخالف ذلك كأعمال الكفار والمنافقين والمبتدعين ، فإن لهؤلاء المذكورين أعمالاً في ظاهرها أو أصلها أعمال بر وطاعة ، يظنون أنها مغنية عنهم شيئاً ، وليست كذلك ، فلايقبل الله تعالى منهم ولاثقل بها موازينهم ، بل تصبح هباءاً منثوراً ، وذلك لأنها لم يقصد بها وجه الله ، ولم توافق شرع الله ، وخالفت هدي رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً . ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٢-١٠٦] .

فهذه الآية الكريمة وإن اختلفت في الذين عُتُوا بها^(١) ، فإن الصواب أنها عامة في كل من عمل عملاً من الصالحات وعبدالله تعالى ، على غير طريقة مرضية ، وهو يحسب أنه بفعله ذلك مصيب مطيع ، وأن عمله مقبول ، وليس كذلك ؛ بل هو بفعله ذلك مسخط لله عزوجل ، وعمله مردود عليه ، ويوم الحساب لا يغني عنه شيئاً^(٢) .

وعلى النحو من هذه الآية قول الحق سبحانه وتعالى عن المستكبرين المكذبين بلقائه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا . وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٣] .

(١) ف قيل هم : القسيسون والرهبان ، وقيل : كافة أهل الكتاب ، وقيل : هم الخوارج .

انظر : تفسير الطبري ٣٢/١٦-٣٤ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٣٤/١٦ ، تفسير ابن كثير ٣/١١٢ .

فهؤلاء المستكبرون عملوا أعمالاً اعتقدوا أنهم فيها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل جل جلاله إذا هي لاشيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء أبداً، وإنما كانت كذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذ^(١).

متى يتكبر المتكبر بعمله؟

العمل كالعلم كمال ديني له عزة وقدر وجلال، فإذا استشعر العامل عزة عمله وجلالة قدره أعجب به، أي: لاحظ نفسه فيه ونسي نعمة ربه في هدايته وتوفيقه إليه وإعانتة عليه، فإذا هو مغتر به يظن أنه منجيه، ثم هو بعد ذلك متعظم متعزز متكبر، يأتيه الشيطان من حيث لا يدري فيزين له عمله، ويريه أنه قد بلغ به مبلغاً من التقى والصلاح يعجز غيره عن بلوغه، كما يصغر ذنوبه في عينه إن لم يرها له حسنات، ويعظم له ذنوب غيره، بل وقد يريه حسناتهم سيئات، كما يخفى عليه عيوب عمله وآفاته وجهله وتقصيره فيه، يريه نفسه مجتهداً مكثراً، وغيره مسرفاً مقصراً، فإذا هو في استعلاء ممقوت، يستجمل الناس ويستحقرهم ويتقال أعمالهم، يحسبهم هالكين غير ناجين، مقطوعين غير موصولين، ويحسب نفسه بل يعتقد أنه ناج واصل. فإذا حصلت عنده هذه العقيدة الزائفة، تخلق بأخلاق الكبر من الخيلاء والتباهي والتفاخر، وكل خلق ذميم يدخل تحت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ».

فائدة في أظهر أخلاق المتكبرين بالعلم والعمل.

يذكر الإمام الغزالي من أخلاق المتكبرين بالعلم والعبادة أنهم فيما يتعلق بالدنيا يستحقرون الناس وينظرون إليهم نظراً إلى البهائم، ويتوقعون قيامهم بقضاء حوائجهم وتوقييرهم، والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالعلم

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٣٢٦.

والورع والتقوى ، وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ ، يتوقع أحدهم أن يُبدأ بالسلام والزيارة وسائر أفعال البر والمعروف ، فإن بدأ هو أحدهم بالسلام أورد عليه ببشر أو زاره أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنعة عنده يبدأ عليه ، يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم مالا يستحقون من مثله ، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ، ويزورونه فلا يزورهم ، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه ، فإن قصر فيه استنكره واستعظم ذلك منه وكأنه السيد وهم العبيد والموالي .

وأما فيما يتعلق بأمر الآخرة فتكبر العالم والعابد على الناس بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، بل يرى نفسه ناجياً ، وهم هالكين ، **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَارِكُونَ** . فائزاً وهم خاسرين ، راشداً وهم ضالين^(١) .

وما يظن هذا الظن إلا مزدر بعباد الله ، مغتر بالله تعالى آمن من مكره ، غير خائف من سطوته^(٢) ، وتلك والله صفات الخاسرين ، فقد قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ١٤٩ ، ١٥١ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ١٥١ .

الداعي الرابع من دواعي التكبر : المال .

المال نعمة من نعم الله تبارك وتعالى على البشرية ، يعطي منه ما شاء متى شاء لمن يشاء ، تفضلاً منه وإحساناً ، وكرماً وامتناناً ، وفق علمه وعدله وحكمته ، ويمنعه من يشاء متى شاء كذلك وفق علمه وعدله وحكمته ، فإنه تعالى الملك العدل الحكيم الخبير ، إذا أعطى وبسط فلحكمة ، وإذا منع وقبض فلحكمة .

وحكمة الله تعالى في كل أمر قضاه مايجهله البشر منها أكثر وأعظم مما يدركون ، والمال مال الله سبحانه وتعالى ، وهو المتصرف فيه بعلمه وحكمته يعطي منه ويمنع من يحب ومن لا يحب ، فإذا أعطاه الله عبداً من عباده لم يكن ذلك دليلاً على حبه له ورضاه عنه وعلو درجته عنده ، كما أنه إذا منعه لم يكن ذلك دليلاً على بغضه له ، وعدم رضاه عنه ، وانحطاط درجته عنده ، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] .

ولقد بين الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم خطأ من ظن أن إعطاء المال وبسط الرزق دليل على الإكرام والإعزاز ، وأن منعه وقبضه دليل على الإهانة والإذلال ، وبين الحكمة من ذلك ، والتي جهلها أصحاب الظن السيء هذا وأنها الابتلاء والامتحان ، فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ . كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥، ١٧] ، أي : ليس الأمر كذلك ، وإنما هو ابتلاء واختبار من الحق تعالى لعباده ليتبين من الشاكر إذا أعطى ومن الصابر إذا منع ، ومن الكافر الباغي إذا أعطى ، ومن الساخط الجازع إذا منع .

إن الله تبارك وتعالى يعطي من ماله العبد البار من عباده فيشكره على منّهِ وعطائه ، ويمنعه ويقدّر عليه رزقه فيصبر على ابتلائه ويسلم لحكمه وقضائه ، ويزداد في الحالين إيماناً وبراً .

وإن الله سبحانه وتعالى يعطي من ماله العبد الفاجر من عباده فيطغى ولا يشكر ، ويمنعه ويضيق عليه رزقه ، فيسخط ولا يصبر ، ويزداد في الحالين عتواً وفجوراً .

فالحكمة إذاً من بسط الرزق وقبضه وسعته وضيقه هي الابتلاء والاختبار

كما هو حال الحياة الدنيا كله ابتلاء واختبار ، لتمييز الشاكرون عن الكافرين ، أما الإكرام والإعزاز أو الإذلال والمهانة عندالله تعالى فلادخل للمال عطاءً أو منعاً فيه ، فليس هو الميزان عنده في إكرام عبيده أو إذلالهم ، بل الميزان الذي به يتفاضلون فيَكْرُمُونَ أو يذلون ، ميزان أسمى وأرفع من هذا الحطام الزائل ، إنه ميزان التقوى والإيمان لاميزان سواه ، فأحب عباد الله إليه وأكرمهم عليه وأرفعهم درجة لديه أطوعهم وأتقاهم له ، وإن لم ينالوا من حطام الدنيا شيئاً ، وأبغض عباده إليه وأهونهم عليه ، وأحطهم شأنًا وأرذلهم درجة لديه ، الكفرة الفجرة ، المضيعون فرائضه ، المستخفون بحقوقه ، المتعدون حدوده ، المنتهكون حرماته وإن مُلِّكُوا الدنيا بحذافيرها ، وليس أدلّ على ذلك مما قصه علينا كتاب ربنا من قصص الملأ والملوك والطغاة الذين دانت لهم الأمم ، ومُلِّكُوا أقطار الأرض وأعطوا من خزائنها ، كالملأ من قوم نوح وعاد وثمود وكنمرود وفرعون وقارون.

لقد كان أولئك الطغاة ملوك الأرض وفتح عليهم من خزائنها مالا يحصيه العاد ، فهل كانوا كرماء على الله تعالى أعزاء لديه يوم أن كفروا به وبرسله؟ هل نفعتهم أموالهم وكنوزهم حين لم يؤمنوا بالله ربهم ولم يتقوه؟ كلا! لقد كفروا بأنعم الله ولم يشكروا له ، فكان بطشه بهم شديداً ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأذلّهم وأخزاهم في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشدّ وأحزى ، يوم يساقون إلى جهنم وهي تفور ، فيدعون على أنفسهم بالويل والثبور ، ويقول الواحد منهم : ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ . هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٩] .

وبالمقابل فإن أولياء الله المتقين الذين آمنوا به وصدقوا المرسلين ، والذين لم يملكوا من حطام الدنيا شيئاً ، وكانوا فيها مستضعفين وكان الذين أجرموا منهم يضحكون ، وبهم يتغامزون ويهزءون ، وعليهم بأموالهم يفخرون ويتكبرون ويتطاولون ، هم أهل الكرامة والعزة والدرجة الرفيعة والمقام السامي عند رب العالمين ، مكن لهم في الأرض وأورثهم إياها ، ووعدهم وعد الحق : ﴿جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] .

وصدق الحق تعالى إذ يقول : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا

وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ . وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿[سبأ: ٣٧، ٣٨] .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] .
وبعد لعل سؤالاً يتبادر إلى الذهن هاهنا وهو : هل جمع المال وتحصيله مذموم؟
والجواب يأتي من منطلق النصوص الشرعية الواردة في هذا الشأن والتي نستأنس هنا ببعضها .

أولاً : نصوص قرآنية :

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] .

وقال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] .

ثانياً : نصوص نبوية :

جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ»^(١) .

وفي الحديث الصحيح كذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغْدُوَ أَحْسِبُهُ قَالَ إِلَى الْجَبَلِ فَيَحْتَطِبَ فَيَبِيعَ فَيَأْكُلَ وَيَتَصَدَّقَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ»^(٢) .

(١) أخرجه البخاري من حديث المقداد رضي الله عنه ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ١٢٣/٣ .

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الزكاة ، باب

فمن هذه النصوص الشرعية وأمثالها يعلم أن المال زينة الحياة الدنيا وضرورة من ضروراتها الملحة ، لا بد منه لكي تستقيم الحياة البشرية ، وتصلح معاش أهلها ، ومن هنا جاء أمر الله تبارك وتعالى لعباده بأن يسعوا في الأرض مبتغين من فضله آكلين من رزقه ، باذلين الأسباب في تحصيل ذلك الفضل والرزق .

والله تبارك وتعالى إذا أمر عباده بذلك فإنه تعالى يبين لهم بأن الرزق الذي أمرهم بالسعي في طلبه هو : الرزق الطيب الذي يطلب من أوجه الحلال ويصرف في الأوجه الحلال .

أما المال المجموع من الحرام والمنفق في الحرام فقد نهى الله تبارك وتعالى عباده عنه وحذرهم منه ، وذم المبتغين له الساعين في كسبه وتوعدهم عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٨٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا

الاستغفار عن المسألة ٦٢١/٢ ، وباب قول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ٦٢٤/٢ ، وفي كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ١٢٤/٣ .

وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب كراهة المسألة للناس ٧٢١/٢ .
وأخرجه البخاري من حديث الزبير رضي الله عنه في كتاب الزكاة ، باب الاستغفار عن المسألة ٦٢١/٢ ، وفي كتاب المساقاة ، باب بيع حطب الكأء ٢٤٠/٣ .

الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿ [النساء: ٢] .

ومن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن قوله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبَّ يَا رَبَّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ »^(٢) .

كما أن في المال حقوقاً أوجبها الله على أهله ، وأخرى حثهم إليها ووعدهم الأجر والثواب الجزيل عليها ، كالزكاة والكفارات والنفقة الواجبة ، وكالإنفاق في جهاد أعداء الله ، والصدقة في وجوه البر وسبل الخيرات بأنواعها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَاً عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] ، وقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٧٠٣/٢ ، عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب في القيامة ، وقال : « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُرَيْجٍ هُوَ بَصْرِيٌّ وَهُوَ مَوْلَى أَبِي بَرْزَةَ وَأَبُو بَرْزَةَ اسْمُهُ نَضْلَةُ بْنُ عُيَيْدٍ » .

انظر : سنن الترمذي ٦١٢/٤ ، والحديث عن أبي بركة الأسلمي رضي الله عنه .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا
لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠] .

إذا فمن خلال النصوص الشرعية الواردة في شأن المال نخلص إلى أنَّ السعي في تحصيله وجمعه أمر مباح ، ولا شيء فيه ، بل أمر الشارع الحكيم سبحانه وتعالى به إذ به قوام حياة البشر ، لكنه يمدح ويمدح جامعه ، أو يذم ويذم جامعه ، فيمدح إذا تحققت فيه هذه الأمور ، والله تعالى أعلم .

١ - جمعه من حلال ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ
حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] .

٢ - إنفاقه في الحلال وفي وجوه الخير ابتغاء مرضات الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

٣ - مراعاة حق الله تعالى فيه الذي أوجبه كالزكاة ، قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا
لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠] .

٤ - عدم كنزه وإمساكه بخلاً وشحاً وتقتيراً ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ
يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا
مَا كُنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥] .

٥ - ترك التباهي والتفاخر والتعالي به ، فإنه عرض زائل ومتاع فان ، لا قيمه له بلا إيمان ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ
عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا
وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧] .

٦ - عدم حبه حباً جماً ، حتى يمتلك عليه قلبه ، فيتخذه نداً لله يحبه كحبه ، ولربما أعظم ، من أجله يحب ويغض ، وفيه يوالي ويعادي ، فإن فعل فقد ضل ضلالاً بعيداً ، قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُّونَ
عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا

وفي الحديث : «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم....» .
فإن تحققت هذه الأمور في المال وجامعه ، مُدح ومُدح جامعه ، وإلا ذُم
وذُم جامعه .

وخلاصة القول : نعم المال الصالح في يد العبد الصالح^(١) ، يتقرب به إلى
ربه المنعم المتفضل به سبحانه وتعالى ، فينفقه في مرضاته ، ويجاهد في
سبيله ، ويعين به إخوانه ، يواسي مسكينهم ، ويكسب معدمهم ، ويصل
رحمهم ، وينفس كربة مكروبهم ، ويفرج هم مهمومهم ، ويتغني فيه طيبات ما
أحل الله له مأكلاً ومشرباً ، وملبساً وزينة ومركباً ، فنعم الجامع ونعم ما جمع .
وبئس المال الفاسد في يد العبد الفاجر ، يصد به عن سبيل الله ،
ويتعرض لسخطه ومقته حين يرتكب به المحرمات ، ويأتي الموبقات ، وحين
يختال ويطنغي ويتكبر ويغمرط الحقوق ، وحين يشغله عن طاعة ربه وعبادته ،
فبئس الجامع وبئس ما جمع .

قال ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى : ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ
مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الْمَبَآئِ﴾ [آل عمران: ١٤] ، : «وحب المال تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر
على الضعفاء والتجبر على الفقراء ، فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في
القربات ، وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح
محمود شرعاً»^(٢) .

فالمستفاد من نصوص الشريعة في جمع المال
وتحصيله هو أن لا يكون ذلك هو هم المؤمن وشغله الشاغل ، لأن المال يلهي

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن
العاص رضي الله عنه : «يا عمرو! نعم المال الصالح للمرء الصالح» ، وفي رواية :
«نعم بالمال الصالح للرجل الصالح» . انظر : المسند ٤/ ١٩٧ ، ٢٠٢ . قال
العراقي : أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط بسند صحيح . انظر : تخريج
العراقي على هامش الإحياء ٨/ ٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٩ .

ويطغي ، فالمطلوب هو التوسط في ذلك ، وإن وجد في الأمة أفراد تتوفر فيهم القدرة على جمع المال ، فيكونوا من ذوي الأموال الوفيرة فلاضير في ذلك أبداً ماداموا يعرفون حدود الله في جمعه وإمساكه وإنفاقه .

ولنا في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل والأسوة ، فلقد كان ظاهر حالهم التوسط في هذا الأمر ، كما أنه وجد فيهم أغنياء وأثرياء أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وعن سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلهمهم مالهم أو يطغهم ، بل كان طريقاً لهم ووسيلة إلى الفوز برضوان الله رب العالمين ورحمته ، فبهم فلنقتد ، وعلى نهجهم فلنسر ، عسى الله أن يلحقنا بهم ، والله ذو فضل عظيم .

أسباب التكبر بالمال :

بعد هذه المقدمة حول المال والأمر في جمعه وتحصيله ، والشأن في قدره وقيمته ، نأتي لذكر الأسباب التي تؤدي إلى التكبر به ، وهي إضافة إلى الأسباب العامة للتكبر^(١) ، كما يلي :

١ - الشعور بالاستغناء الذاتي :

حين يجري المال في يد صاحبه ويرى أنه يستطيع أن يحوز به ويتملك من زخارف الدنيا وزيناتها ما يحلو له من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح ، وأن يكون له الخدم والحشم ، وأن يتبوأ مراكز الصدارة والتقدم ، فإنه يشعر بالاستغناء الذاتي عن غيره ، وتكون نتيجة هذا الشعور مايلي :

أ - نسيان مصدر النعمة ، وبالتالي عدم شكر المنعم المتفضل بها سبحانه وتعالى .

ب - نسبة هذه النعمة إلى النفس ، وأنها حصلت له بمجهوده وعرقه وبذكائه وشطارته وبجده وكده .

ج - وإن تذكر أنها من الله تعالى اعتقد كرامته عليه ، وعلو قدره لديه ، وأنه أهل لذلك ، وهذا هو الغرور بعينه .

د - نسيان أن المال عارية عنده متى شاء واهبه أخذه أخذه دون أن

(١) انظر : فصل دواعي التكبر وأسبابه . ص ١٠٧

يكون له حول وقوة في إمساكه كما لم يكن له حول وقوة في تحصيله إلا بالله ومنه سبحانه وتعالى .

هـ - ونسيان هذا الأمر يجعله يظن أن ماله لن ينفذ ويفنى ، ويحسب أنه مُخلِّدٌ في هذه الحياة ، فيختال به ويطغى .

و - عمى بصيرته عن التصور الحقيقي للقيم التي بها يسمو المرء ويعلو فيحسب أن المال منها ، وليس هو كذلك ، بل هو وسيلة من وسائل تحصيلها في حال سلوك صاحبه المسلك الصحيح في ذلك .

كما قد يكون وسيلة للانحطاط إلى أسفل دركات الذل والمهانة ، وذلك حين يجعل صاحبه من نفسه عبداً له ، وخادماً يخدمه ، غير مبالٍ في سبيل جمعه وكنزه ، بأن يطأ بقدميه كل سلوك قويم ، وكل خلق مستقيم ، وتلك ذلة وأي ذلة!! .

وفيما قصه القرآن الكريم علينا من قصص المتكبرين بأموالهم ، دليل على ما ذكرناه من حصول هذه الأمور من التكبر .

فقد قص علينا كتاب ربنا في سورة الكهف من الآية الثانية بعد الثلاثين وحتى الآية الرابعة بعد الأربعين خبر رجلين :

أحدهما : غني متكبر متعلق بزينة الحياة الدنيا ، والآخر : فقير لا يملك من حطام الدنيا ما يملك صاحبه ، ولكنه يملك ما هو أعلى وأسمى وأغلى ، يملك قيمة الإيمان وثروة العقيدة ، فأعظم وأكرم بها من قيمة وثروة .

لقد أنعم الله تعالى على الأول وجعل له بستانين تحف وتحديق بهما النخيل من كل جانب ، وأنبت في خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مقبل مثمر في غاية الجودة والكمال ، لم ينقص منه شيء ، والأنهار تجري من خلالهما^(١) .

أمر في غاية الإبداع والإمتاع ، قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣] .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٧/٣ .

فهل قابل نعمة الله تعالى عليه بالشكر والعرفان؟

وهل أدرك أن الحكمة في إعطائه ومنع صاحبه هي الابتلاء والاختبار؟
كلا؛ لقد غره ماله فلم يشكر واهبه إياه ربه وموالاه سبحانه وتعالى ،
وغره فتكبر به واستعلى على صاحبه وقال له متفاخراً عليه بماله معيراً له
بفقره: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ [الكهف: ٣٤] .

ودخل صاحب الجنتين جنته الدنيا ، دخلها وهو ظالم لنفسه « بكفره
وتمرده وتكبره وتجبره وتعديه لقدر نفسه وإنكاره المعاد»^(١) ، فقال وقد أخذ
به العجب كل مأخذ : ﴿ما أظن أن تبدي هذه أبداً﴾ [الكهف: ٣٥] ، قال ذلك
اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في
جوانبها وأرجائها ظن أنها لاتفنى ولاتفرغ ولاتهلك ولاتلف وذلك لقلّة عقله
وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا وكفره بالآخرة^(٢) .

وهكذا هم أهل المال والثراء المغترون في كل زمان ومكان يظنون بقاءه
ويستبعدون تلفه وفناءه ، ذلك أنهم يغيب عنهم أنه ليس منهم ابتداءه ، وليس
إليهم بقاؤه ، بل هو من الله تعالى هو الذي يهبه متى شاء ويقبضه إذا شاء ، أما
هم فليسوا إلا منفذين لقضاء الله تعالى وحكمته فيه ، فعليهم أن يبرعوا من
حولهم وقوتهم ويستشعروا حول الله تعالى وقوته حتى تطامن نفوسهم من
كبريائها وغرورها .

ولم يكن تكبر الغني على صاحبه الفقير وظنه أن ماله لن ينفد هو غاية
غروره ومنتهى طغيانه ، بل لقد وصل به الطغيان إلى أن كفر بربه وخالقه
سبحانه وتعالى عندما جحد اليوم الآخر يوم قيامه بين يديه ، فقال: ﴿وما أظنُّ
الساعة قاتلة﴾ [الكهف: ٣٦] .

وإنكار يوم القيامة وجحده أو نسيانه والغفلة عنه طريق لكل شر ، كما
أن الإيمان به وتذكره سبيل كل خير ، فإن من لا يؤمن بيوم القيامة أو من ينساه
لايتورع عن فعل أي قبيح ، لأنه آمن من المحاسبة عليه أو ناسٍ لذلك وساهٍ
عنه ، أما من يؤمن بلقاء الله تعالى ومحاسبته له على كل صغيرة وكبيرة أتاها

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣ .

في حياته الدنيا فإنه سيحرص على فعل الخير ليلقى جزاءه الحسن ، وسيحرص على ترك السوء ليسلم من عاقبته الوحيدة .

فالمتكبر إذاً إما أن يكون جاحداً ليوم الحساب فهو آمنٌ من الجزاء ، وإما أن يكون ناسياً له فهو في غفلة عن الجزاء ، ولو آمن بيوم الحساب أو كان متذكراً له لما وسعه إلا التواضع ابتغاء مرضاة الله ورجاء رحمته ، واتقاء سخطه وخوفاً من عذابه .

نعود إلى القصة فنرى ذلك الغني لازال في غروره وطغيانه ، فمع أنه قد كفر بربه وجحد لقاءه إلا أن غروره جعله يتخيل نفسه -لو فرض ورد إلى ربه- أحسن مما هو عليه في الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ وَلئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ [الكهف: ٣١] ، ما الذي جعله يعتقد ذلك؟ أليس هو الغرور؟

بلى ليس غيره! وذلك حين اعتقد كرامته على ربه بما أعطاه من ذلك النعيم إذ لولم يكن كريماً عليه -بظنه- لما أعطاه إياه .

وهو اعتقاد غير صحيح ، ومفهوم سقيم لميزان الكرامة والعزة عند الله تعالى ، فكما سبق وذكرنا أن المرء لا يسمو ويرتفع بما يؤتي من زخرف الحياة الدنيا من مال أو جاهٍ أو حسبٍ أو قوة ، بل بإيمانه وتقواه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، ولكن المشغوفين بمتاع الدنيا الزائل وزخرفها الزائف لا يعقلون ذلك ولا يدركونه ومن ثم لا يقيمون له في حياتهم وزناً فذرهم في طغيانهم يعمهون .

أما موقف المؤمنين أهل القيم السامية المدركين لها ببصائرهم الحية فيمثل ذلك الفقير المعترف بإيمانه بربه تبارك وتعالى ، فقد قال لصاحبه الغني المتكبر : ﴿ أَكْفَرْتِ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧] ، ينكر عليه كفره بربه الذي أوجده من العدم ، ويذكره بضعفه وهو أصله إذ هو من تراب يداس بالأقدام ثم من نطفة من ماء مهين ، فكيف يطغى كل هذا الطغيان يوم أن يصبح بأمر الله وقدرته رجلاً ، ناسياً نعمة ربه وقدرته عليه ، وضعفه هو وافتقاره إليه؟ وبين له أنه لن يكفر بربه وإن امتحنه بالفقر : ﴿ لكننا هو الله ربي ، ولا أشرك بربي أحداً ﴾ [الكهف: ٣٨] ، ثم

يذكره بأنه كان الواجب عليه إذ دخل جنته أن يتذكر أنها بمشيئة الله كانت ، وبقدرته أينعت ، وبحوله وقوته تؤتي ثمارها ، وإذا أراد بها أمراً غير ذلك فلا مردّ له ، كان عليه أن يتذكر ذلك ، فلا يرضى لنفسه أن تطغى وتتكبر : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف: ٣٩] .

ثم يذكره أنه بإيمانه بربه تعالى يرجو أن يؤتى في الدار الآخرة خيراً مما افتخر عليه به في هذه الحياة الدنيا ، كما يذكره بقدره الله تعالى وأنه إذا شاء ذهب بجنته وأهلكها بما يشاء من أمره ، فتصبح بعد بهجتها تراباً أملساً ، كأن لم تغن بالأمس : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [الكهف: ٤٠، ٤١] .

وقد كان . قال تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢] .

لقد حل بجنته أمر الله فأصبحت خاوية لاشيء فيها ، فإذا بصاحبها الذي ظن أنها لن تفتنى إذا به في حالة من الذهول والحسرة والأسف ، « يُصَفِّقُ كَفِّهِ مَتَأْسِفًا مَّتَلَهْفًا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا »^(١) .

وإذا به في هذه اللحظة يتذكر ربه فيتمنى أن لو شكره ولم يكفره ، فيقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢] ، خاصة وهو يرى أن ما افتخر به واستعز من مال وولد لم يغن عنه شيئاً : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٣] .

ثم ختمت القصة بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٤] ، قال ابن كثير : « اختلف القراء هاهنا ، فمنهم من يقف على قوله : « وما كان منتصراً هنالك » ، أي : في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ، ويتديء بقوله : « الولاية لله الحق » ، ومنهم من يقف على « وما كان منتصراً » ، ويتديء بقوله : « هنالك

(١) تفسير ابن كثير ٨٩/٣ .

الولاية لله الحق» ، ثم اختلفوا في قراءة «الولاية» ، فمنهم من فتح الواو^(١) من الولاية فيكون المعنى : هنالك الموالة لله ، أي : هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسَنًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤] . ، وكقوله إخباراً عن فرعون : ﴿ حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] .

ومنهم من كسر الواو^(٢) من الولاية ، أي : هنالك الحكم لله الحق ، ثم منهم من رفع الحق^(٣) على أنه نعت للولاية... ومنهم من خفض القاف^(٤) على أنه نعت لله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ ، أي : خير جزاءً ، والأعمال التي تكون له عز وجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير^(٥) .

هذه القصة العظيمة التي حوت كل هذه المعاني رأيت أن أختتم الحديث عليها بنقل سطور مما قاله الإمام سيد قطب في ظلاله عند تفسيرها ، والشيخ له لمسات رائعة فائقة المذاق ، تأبى النفس الذواقة إلا أن تأخذ نصيبها منها ، فعليه رحمة الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى : « ثم تجيء قصة الرجلين والجنيتين تضرب مثلاً للقيم الزائفة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعترزة بزينة الحياة ، والنفس المعترزة بالله ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس ، صاحب الجنيتين نموذج للرجل الثري ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو ، انظر : السبعة في القراءات ، لابن مجاهد ٣٩٢ .

(٢) وهي قراءة : حمزة والكسائي . انظر : كتاب السبعة في القراءات ٣٩٢ .

(٣) وهي قراءة : أبو عمرو وحمزة والكسائي . انظر : كتاب السبعة في القراءات ٣٩٢ .

(٤) وهي قراءة : ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم . انظر : كتاب السبعة في القراءات ٣٩٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٨٩/٣ .

خالدة لاتفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه ، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتر بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره....»^(١) .

ثم يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها... ﴾ ، «ويختار التعبير كلمة «تظلم» في معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه ، فبطر ولم يشكر ، وازدهى وتكبر ، وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما ، ويزدهيه النظر إليهما ، فيحس بالزهو وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ [الكهف: ٣٤] .

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ، وقد نسي الله ونسي أن يشكره على ما أعطاه ، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً ، أنكر قيام الساعة أصلاً ، وهبها قامت ، فسيجد هنالك الرعاية والإيثار!! أليس من أصحاب الجنات في الدنيا ، فلا بد أن يكون جنبه ملحوظاً في الآخرة...؟!

إنه الغرور الذي يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء ، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الحياة الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في المأل الأعلى! فما داموا يستطيّلون على أهل هذه الأرض ، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!

فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفير ولاجنة عنده ولا ثمر ، فإنه معتر بما هو أبقي وأعلى ، معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله الذي تعنوا له الجباه ، فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكراً عليه بطره وكبره ، يذكره بمنشئه من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم ، وينذره عاقبة البطر والكبر ، ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار^(٢) ، : ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره....أو يصبح مأوها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴾ .

قال : وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلاتبالي المال

(١) في ظلال القرآن ٢٢٧٠/٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٧٠/٤ .

والنفر، ولاتداري الغنى والبطر، ولاتتلثم في الحق، ولاتجامل فيه الأصحاب، وهكذا يشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم، وهو يطمع في فضل الله، وأن نقمة الله جبارة، وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار، ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار، فلقد كان ماتوقعه الرجل المؤمن ﴿وأحيط بثمره...﴾.

يقول: وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها، مهشمة محطمة، وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحنناً على ماله الضائع وجهده الذاهب، وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته، ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك إلا أن اعترازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن، ويندم عليه ويستعيز منه بعد فوات الأوان.

هنا يتفرد الله تبارك وتعالى بالولاية والقدرة، فلا قوة إلا قوته، ولانصر إلا نصره، وثوابه هو خير الثواب، ما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يبقى ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ [الكهف: ٤٣، ٤٤].

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان...^(١).

أقول: والغرور عند الشعور بالاستغناء الذاتي هو الذي جعل قارون يختال ويبغي على قومه حين غرته كنوزه التي أثقلت مفاتها عواتق العصبية أولي القوة من الرجال، فظن أنها خالدة مخلّدة له واعتز بها، ومادخله شك في فنائها وزوالها، وفرح بها فرح البطرين الكافرين نعم ربهم، الغافلين عن لقاءه، الجاهلين قدرته وجبروته، المتكئين على حولهم وطولهم، المغترين بما يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم.

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٧١.

قال الله تعالى في شأن قارون: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] .

«لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالا كثيرا ، يصور كثرته بأنه كنوز -والكنز هو المحبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول- وبأن مفاتيح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال... من أجل هذه بغى قارون على قوته....»^(١) .

ووجد قارون من قومه من يحاول رده عن بغيه ورجعه إلى النهج القويم الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء ، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراهم ، ولا المتاع المعتدل به ، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ، وقبل ذلك مراقبة الله الذي أنعم عليهم ومراعاة الآخرة ، وما فيها من حساب...^(٢) .

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧] .

«لاتفرح» فرح الزهو المنبعث من الاغترار بالمال ، والاحتفال بالثراء والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ....، لاتفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال ، وينسي نعمته وما يجب لها من الحمد والشكر ، لاتفرح فرح الذي يستخفه المال فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ويتناول به على العباد....،

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ فهم بذلك يردونه إلى الله الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتباهين المتطاولين بسلطانه على الناس"^(٣) .
﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ . «أي : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧١٠، ٢٧١١ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٥/٢٧١١ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٧١١ .

التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة»^(١) .

﴿ولاتنس نصيبك من الدنيا﴾ "أي : مما أباح الله فيها من المأكول والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فآت كل ذي حق حقه"^(٢) .

﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ "أي : هذا المال هبة من الله وإحسان ، فليقابل بالإحسان فيه ، إحسان التقبل ، وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران"^(٣) .

﴿ولاتبغ الفساد في الأرض﴾ "أي : لاتكن همتك بما أنت فيه أن تفسد في الأرض وتسيء إلى خلق الله"^(٤) ، "الفساد بالبغي والظلم ، والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة ، والفساد على صدور الناس بالخرج والحسد والبغضاء ، والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال" .

﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ "كما أنه لا يحب الفرحين" .

هذا مانصح به قارون من قومه ، فما كان جوابه؟ "لقد كان رده جملة واحدة تحمل شتى معاني الفساد والإفساد"^(٥) .

﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص: ٧٨] ، أي : أنا لاأفتقر إلى ماتقولونه ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعمله بأني أستحقه ، ولمحبته لي ، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فيّ أنني أهل له ، وقد روي عن بعضهم أنه أراد (إنما أوتيته على علم عندي) أي : أنه كان يعاني علم الكيمياء ، وهذا

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١١ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٠ .

(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١١ .

القول ضعيف ، لأن علم الكيمياء في نفسه باطل ، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل... وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتمول بسببه ، والصحيح : المعنى الأول ، ولهذا قال الله تعالى رداً عليه فيما ادّعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا﴾ [القصص: ٧٨] ، أي : قد كان من هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن محبة مناله ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولهذا قال : ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي : لكثرة ذنوبهم ،... وقد أجاد عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير قوله "قال إنما أوتيته على علم عندي" قال : أي : لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال ،... وهكذا يقول من قبل علمه إذا رأى من وسع الله عليه : لولا أن يستحق ذلك لما أعطى" (١) . يقول سيد قطب في الظلال عند قوله : "إنما أوتيته على علم عندي" : "إنما أوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طوّع لي جمعه وتحصيله ، فمالكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه وتتحكمون في ملكيتي الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهد الخاسر ، واستحقاقته بعلمي الخاص؟! "

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ويعميه الثراء ،

وهو نموذج مكرر في البشرية ، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه ، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك ، غير محاسب على ما يفسد بالمال ، وما يحصل ، غير حاسب لله حساباً ، ولانظر إلى غضبه ورضاه... (٢) .

قلت : وما أكثرهم في مجتمعاتنا ، فكم نسمع أن فلاناً بدأ حياته من الصفر ، وجد واجتهد ، وكان ذا ذكاء وفطنة ، فوصل إلى ذروة الثراء ، هكذا نكرر هذه المقولة بيننا دون أن نرجع الأمر إلى الله تعالى ، ومشيتته ، وتقديره ،

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤١٠/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٧١٢/٥ .

وحوله، وطوله .

وكم هم الذين لا يراعون حقوق الله في أموالهم ! وكم هم الذين ينفقونها فيما حرم الله عليهم ! فإذا نُصَحُوا قالوا : نحن أحرار فيما نفعل في أموالنا التي جاءت إلينا بعد جهد وكد ومعاناة ، والتي جمعناها بذكائنا وفهمنا ونشاطنا وشطارتنا !

أفليس هذا هو الغرور الذي يحجب عن صاحبه الحقائق وإدراكها ، فيظل يعيش في غرة من الأوهام ، تكذب عليه نفسه وشيطانه بما صورت بعضه الآيات القرآنية السابقة على لسان قارون وصاحب الجنتين وفرعون !!
والاغترار بزينة الحياة الدنيا ومن ثم الشعور بالاستغناء الذاتي هو الذي بلغ بفرعون من الطغيان مبلغاً جعله يتناول على مقام الألوهية ، فيقول له لقومه : ﴿ مَا عَمِلْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] .

حين تملك فرعون مصر وتصرف في أهلها واستعبدهم واستقوى عليهم ، ظن أن لا سواه فقال تلك الكلمة الشنيعة ، قالها وهو يشعر بحوله وقوته ويختال بملكه وسلطانه .

لكنه يوم حل به بطش الله الجبار ، ونزل به عذابه الأليم قال وقد زالت الغشاوة عن عينيه فعلم ضعفه وذله ، وأدرك عجزه وهوانه ، وقد خذله ماله وما أغنى عنه جنده ، ولانفعه سلطانه : ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] .

قال ذلك : وقد نسي قولته الأولى حين غره ملكه وسلطانه فتناول به على مقام ربه وإلهه الذي يعلن الإيمان به في هذه اللحظة .

وهكذا حال الإنسان : يختال ويطغى حين يستشعر حوله وطوله ، وينسى حول الله تعالى وطوله ، فإذا ما انكشفت له حقيقة نفسه عند أقل ضر وبلاء يصيبه عاد ذليلاً كسيراً إلى صاحب الحول والطول حقاً ، قيم السموات والأرض ، الواحد القهار ، رب العالمين جل شأنه وعز سلطانه .

تلك حقيقة يذكرها القرآن الكريم في أكثر من موضع :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفِّرُ كُفُورًا . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَكُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» [هود: ٩٠، ١١] .

« يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحمه الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة حصل يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحد لماضي الحال ، كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً ، وهكذا إذا أصابته نعمة بعد نقمة : ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي : يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ ، أي : فرح بما في يده ، بطر فخور على غيره ، قال الله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ ، أي : على الشدائد والمكاره ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ، أي : في الرخاء والعافية ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ ، أي : بما يصيبهم من الضراء ﴿ وأجر كبير ﴾ ، بما أسلفوا في زمن الرخاء... »^(١) .

عند تفسيره لهذه الآيات يقول الإمام سيد قطب : « إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظته الحاضرة ويطغى عليه ما يلبسه ، فلا يتذكر ماضى ، ولا يفكر فيما يلي ، فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه مع أنها كانت هبة من الله له ، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء ، لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه ، ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً .

﴿ إلا الذين صبروا ﴾ ، صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، فإن كثيراً من الناس يصبرون على الشدة تجلداً وإباءً أن يظهر عليهم الضعف والخور ، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر...
﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ، في الحالين ، في الشدة بالاحتمال والصبر ، وفي النعمة بالشكر والبر .

﴿ أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ، بما صبروا على الضراء وبما شكروا في السراء .

إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة ، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء ،

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٤ .

وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء، ويربطه بالله في حاله، فلا يتهافت ويتهاوى ويتهاون تحت مطارق البأساء، ولا ينتفخ ويتعالى عندما تغمره النعماء... وكلا حالي المؤمن خير، وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

٢ - وقال الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُتَوَسَّعْ قَنُوطًا . وَلَئِنْ أَدْخَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥١].

«والمعنى أن الإنسان لا يمل من دعاء ربه بالخير»^(٢)، يسأله شتى أنواعه من المال والصحة والبنين والقوة والتوفيق وتيسير الأمور... ومختلف أنواع الخير، فإذا مسه ضد ذلك من الفقر والمرض والضعف... وغيرها من أنواع الابتلاءات فإنه ييأس ويقنط من رحمة الله، «أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير»^(٣)، فإن جاءه الفرج من الله تعالى وأصابه برحمة الله خير بعد ما كان في شدة اغتر وزعم أن الله تعالى أعطاه ذلك لعلمه بأنه يستحقه، وقد يصيبه الغرور أكثر من ذلك فيكفر بقاء الله تعالى ويكذب بيوم القيامة كما كان الأمر من صاحب الجنتين، وكما هو قول الله تعالى هنا حاكياً عن الإنسان الذي خوله نعمته فأصابه البطر فكفر، وقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ويتمادى به الطغيان فيقول: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾، أي: ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلى ربي كما أحسن إليّ في هذه الدار، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين، ولهذا جاء هذا التهديد والوعيد من الحق تبارك وتعالى ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أي: هذا العقاب والنكال جزاء من كان هذا

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١١٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/١١٢.

عمله وهذا حاله مع ربه لا يصبر على ابتلائه ولا يشكره على نعمائه ، بل يقنط
حال البلاء ويطغى عند السراء .

ثم يعود النص القرآني ليؤكد إعراض الإنسان عن طاعة ربه واستكباره
عن الانقياد لأوامره في حال من الله تبارك وتعالى عليه بالسراء ، وتذللته وكثرة
وطول مسئلته في حال ابتلاء الله بالضراء ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا
مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ
كَأَن لَّمْ يَدْغُنْآ إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢] .

ومما جاء في الظلال عند ذكر هذه الآيات نقتطف مايلي :

إنه رسم دقيق صادق للنفس البشرية التي لاتتهدي بهدي الله فتستقيم
على طريق .رسم يصور قلبها وضعفها ومراءها وحبها للخير وجودها للنعمة
واغترارها بالسراء وجزعها من الضراء .

هذا الإنسان لايسأم من دعاء الخير ولايمل طلبه ، وإن مسه الشر مجرد
مس ، فقد الأمل والرجاء...ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته ، ذلك أن
ثقتة بربه قليلة ، ورباطه به ضعيف!

وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر استخفته النعمة
فنسي الشكر واستطاره الرخاء فغفل عن مصدره ، وقال : هذا لي ، نلتها
باستحقاقي ، وهو دائم علي ، أو نسي الآخرة واستبعد أن تكون...وانتفخ في
عين نفسه فراح يتألى على الله ويحسب لنفسه مقاماً عنده ليس له ، وهو ينكر
الآخرة فيكفر بالله ، ومع هذا يظن أنه لو رجع إليه كانت له وجاهته عنده!
وهو غرور...

وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه ، استعظم وطفى ، وأعرض ونأ بجانبه ،
فإذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ويصغر ويتضاءل ويتضرع ولايمل الضراعة ،
فهو ذو دعاء عريض^(١) .

٣ - وقال الله تعالى : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَاهُ

(١) انظر : في ظلال القرآن ٥/٣١٢٩، ٣١٣٠.

نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قَدْ
قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ
بِمُعْجِزِينَ ﴿[الزمر: ٤٩، ٥١] .

تأكيد لما ذكرناه آنفاً من نسيان الإنسان لربه وطغيانه وغروره عندما
تصيبه السراء وتضرعه إلى ربه وتذللّه بين يديه عندما تصيبه الضراء، ناسياً أو
جاهلاً أن الأمر في الحالين راجع إلى الابتلاء والاختبار من الله تعالى لعباده .

وإن زعم صاحب النعمة أن الله أعطاه إياه لعلمه أنه مستحق لها فقد زعم
هذا الزعم كثير ممن سلف من الأمم السابقة ، فهل كان زعمهم صحيحاً وهل
نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون؟ كلا ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠] ، بل كما قال تعالى : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ
بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] .

فما الحكمة إذاً من بسط الرزق وقبضه؟ وما الحكمة من السراء والضراء
تصيب الإنسان؟

إنه الابتلاء والاختبار ليعلم الصابر من الجازع ، والشاكر من الكافر ،
ولهذا قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢] .

يقول صاحب الظلال: «إن الضر يُسقط عن الفطرة ركام الأهواء
والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التي تحجب عنها الحق الكامن
فيها ، وفي ضمير هذا الوجود ، فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده ،
حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء نسي هذا الإنسان ما قاله في الضراء ،
وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء ، وقال عن النعمة والرزق والفضل : ﴿إِنَّمَا
أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ،... قالها قارون ، وقالها ويقولها كل مخدوع بعلم أو
صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان غافلاً عن مصدر النعمة ،
وواجب العلم والقدرة ومسبب الأسباب ، ومقدار الأرزاق»^(١) .

(١) في ظلال القرآن ٣٠٥٦/٥ .

ويقول: «هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم، فانتهت بهم إلى السوء والوبال ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئاً، وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين، فسنة الله لا تتبدل وماهم بمعجزين فالله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل.

فأما ما أعطاهم الله من نعمة، وما وهبهم من رزق، فإنه يتبع إرادة الله وفق حكمته وتقديره في بسط الرزق وقبضه ليلتي عباده ولينفذ مشيئته كما يريد: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢]، فلا يجعلوا آيات الله سبباً في الكفر والضلال وهي جاءت للهدى والإيمان»^(١).

إذاً فالشعور بالاستغناء الذاتي سبب من أسباب اختيال المترفين وتكبر الأثرياء الواجدين سابقاً ولاحقاً، وذلك حين يغرمهم المال وتبطرهم النعمة، وحين يظنون كرامتهم عند ربهم، وأفضليتهم على غيرهم بما أوتوا، وحين يتصورون كنوزهم وأموالهم دائمة لاتفنى ولا تبديد، زاعمين أنها حصلت لهم بكدهم وجدهم وذكائهم وشطارتهم، ناسين أو متناسين أو غافلين عن أنها من الله سبحانه وتعالى والأمر فيها إليه تعالى، وإن كانوا هم قد بذلوا الأسباب فمن ذا هيأها لهم؟ من ذا الذي منّ عليهم بذكاء الأفهام، وصحة الأبدان، وقوة الأجسام؟ أفليس هو الله تعالى، الذي لو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم وأوهى قواهم وهو على ذلك قدير؟

بلى إنه الله جلت قدرته وهو القائل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والقائل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فليعلم كل مغرور بماله فرح أشير بطر بكنوزه هذه الحقيقة وليطامن من غروره وكبريائه، فالكبرياء ليست له، بل لمن يستحقها، ولا يستحقها إلا الممدوح بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقصان، ومن يكون كذلك سوى الله الواحد القهار، ذو العزة التي لاتضام والقوة التي لاترام سبحانه

(١) في ظلال القرآن ٣٠٥٧/٥.

وتعالى؟!

٢ - السبب الثاني من أسباب تكبر أرباب الأموال هو : النظرة المادية السائدة في المجتمعات ، فإنه يسود المجتمعات وبخاصة المجتمعات الكافرة التي لا تبني حياتها على شريعة الله أو المجتمعات المسلمة حين تبتعد عن المنهج الذي ارتضاه الله وترضى لنفسها اتباع كل ناعق من مشرق أو مغرب ، أقول : يسود هذه المجتمعات وسيطر على نفوس أهلها نظرة معظمة مقدسة للمال وصحبه ، حتى إنه ليغدو صاحب المال فيهم ذو شأن وقدر كبير ، وإن لم يكن ذا دين مكين وخلق قويم ، ولذا فإنهم يتزلفون إليه وينافقونه ويكبرونه ، بل ويدلون أنفسهم بين يديه طمعاً فيما يليق به إليهم من فتات مالدیه .

تلك النظرة الجائرة التي تعظم المال وترفع من قدر أصحابه هي التي تجعلهم إضافة إلى شعورهم بالاستغناء الذاتي يزدون في عتوهم واستكبارهم ، وذلك أنهم عندها يتخيلون علو قدرهم ورفعة شأنهم ، فينفخ الشيطان في نفوسهم ، ويملأها غروراً وخيلاً .

وتلك النظرة الجائرة ليست وليدة زمن دون غيره بل هي ميراث يتوارثه أولوا البصائر المطموسمة والنظرات القاصرة ، والمثل الزائفة ، الذين غابت عنهم قيمة الإيمان أو حجبت أفئدتهم عنها ، فلم يدركوها ميراث يتوارثونه جيلاً بعد جيل .

وفي كتاب الله البيان :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٦، ٢٤٧] .

اختلف في بيان النبي المذكور هنا على أقوال ذكرها أهل التفسير ،

فليرجع إليها من شاء ذلك^(١) .

وعلى كل حال فما يهمنا هو مغزى القصة وذلك يتحقق وإن لم يعرف من هو النبي المذكور فيها ، فلنأخذ بظاهر القرآن الكريم الذي لم يحدد ذلك لكونه ليس هو المقصود ، فهم جماعة من بني إسرائيل كان لهم هذا الطلب من نبيهم المبعوث إليهم .

لقد طلب هؤلاء القوم من نبيهم أن يملك عليهم ملكا يقاتلون معه وتحت رايته في سبيل الله ، فحذرهم نبيهم من ترك القتال إذا كتب عليهم ، فقالوا : لانفعل وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال نكثوا عهدهم لإقليل منهم .

ولما أجيئوا إلى طلبهم أن يكون لهم ملكاً^(٢) ، وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، وكان طالوت رجلاً من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ، لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن طالوت من ذلك السبط ، ثم هو أيضاً فقير لا يملك من المال ما يقوم به الملك^(٣) ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال .

وجاء الجواب من نبيهم : ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] .

يقول لهم نبيهم : ذلك اختيار الله تعالى واصطفاه لاختياري أنا واصطفائي ، فالملك ملك الله تعالى يؤتيه من يشاء بعلمه وحكمته ، وهو سبحانه وتعالى واسع الفضل يختص برحمته من يشاء ، كما أنه تعالى عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه ، ثم إن طالوت وإن لم يكن في بيت الملك فيكم ولم يكن من أهل الثراء منكم ، فإنه أعلم منكم وأنبأ وأشكل وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة فيها ، أي هو أتم علماً وقامة منكم^(٤) .

وهكذا نلاحظ بل نرى النظرة المادية لدى هؤلاء القوم وهم يقفون هذا الموقف الرافض لمن ارتضاه الله سبحانه وتعالى واختاره ملكاً لهم محتجين

(١) انظر على سبيل المثال : تفسير ابن كثير ٣٠٧/١ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٠٨/١ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣٠٨/١ .

بأنه ليس من بيت الملك فيهم، كما أنه فقير لامال عنده، فكيف يملك عليهم؟ إنهم أحق بالملك منه بزعمهم لأنهم ورثته، ولأنهم أصحاب الثراء والمال.

وفي قصة قارون نرى نفس النظرة المعظمة للمال وصحبه، فلقد خرج قارون على قومه في زينته مختالاً متبختراً بماله، فلما رآه القوم، قال أصحاب النظرة القاصرة التي لاتعدو الحياة الدنيا، قالوا وقد دُهِشُوا وبُهِرُوا بحال قارون: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

وشهد الموقف طائفة من أولي البصائر التي نورها الله بالإيمان فعلمت أن المال قيمة أرضية ودنيوية دنيا، لاتقوم مقام الإيمان والعمل الصالح، فقالوا مذكرين أولئك المبهورين المشدوهين بزينة قارون: ﴿وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

ولم يمض من الوقت إلا قليل، ويريد الله تعالى أن يحل عقابه بقارون فيخسف به وبداره الأرض يهوي في بطنها ذليلاً صاغراً لاناصر له من أحد، وليس بمنتصر بمال أو جاه^(١).

ويشهد القوم هذه النهاية المخزية لقارون، فتستيقظ نفوس الذين بهرتهم قبل زينة قارون، فيقولون وقد عاد إليهم رشدهم: ﴿وَيَكَاَنَ اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَاَنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

إن المال ليس إلا رزق من الله تعالى يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء من عباده، وليس إعطاؤه أو منعه دليلاً على حبه وبغضه، وإلا لما كانت هذه نهاية قارون المؤلمة المخزية.

ولما كان الأمر كذلك، قال الحق سبحانه وتعالى في نهاية قصة قارون: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

الدنيا فانية، والآخرة باقية، فليستكبر وليستعلي عبّاد الدنيا، فليس لهم في الآخرة من نصيب، وليصبر المتقون على ابتلاء الله لهم بالسراء والضراء،

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣٠٨/١.

فإن العاقبة لهم ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠] .

وفرعون أعظم طاغية متكبر تناول على مقام الألوهية وادّعى لنفسه مالم يدّعه إبليس عليهما لعنة الله ، فقال كما أخبر عنه الحق تعالى : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] ، وقال كذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] .

فرعون هذا عليه لعنة الله كان ملكه وجاهه وماله من أسبابه بغيه وتكبره ، فهو الذي يقول كما يقص القرآن الكريم : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأُكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٦] .

هكذا تبجح فرعون بملكه مِصْرَ وتصرفه فيها مفتخراً زاعماً أنه خير من موسى عليه السلام الذي لا يملك مثل ملكه ، ويصفه بأن مهين وكذب عليه لعنة الله إلى يوم الدين بل هو الذليل المهين الوضيع الحقير ، ولو جمعت له الدنيا من أطرافها .

ولقد لقي فرعون من قومه خفة في أحلامهم ونقصانا في عقولهم ، وميلاً إلى مظاهر الدنيا ، فخدعهم بقوله هذا ، واستمال به قلوبهم ، فمالوا إليه ، وأطاعوه ، وقبلوا قوله ، وكذبوا موسى ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ، أي : خارجين عن طاعة الله^(١) ، ولذلك أغرقهم الله وجعلهم عبرة للمعتبرين إلى يوم الدين .

ونأتي ننظر حال كفار قريش ، فنرى كيف أن تلك النظرة المادية كانت من أسباب تكبرهم وكفرهم ، فهم الذين قالوا وقد بعث فيهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاءهم بكتاب الله : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] ، يعنون بالقريتين : مكة والطائف ،

(١) انظر : فتح القدير ٥٦٠/٤ .

واختلف في الرجلين على أقوال^(١) :

قال ابن كثير : « والظاهر أن مرادهم كبير من البلدتين »^(٢) ، وقال الشوكاني^(٣) : « وظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه ، واسع المال ، مسود في قومه »^(٤) .

ومعنى قولهم هذا أنهم ينكرون أن يكون القرآن الكريم كلام الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم إذ لو كان من عند الله لنزل على رجل عظيم له الجاه والمال والرياسة كالوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي أو غيرهما ، ولما نزل على محمد وليس له من الرياسة والمال شيء .

هكذا قالوا ، وهكذا زعموا حينما غفلوا عن المثل العليا ، وركنوا إلى الدنيا وشغفوا بزينتها الفانية حباً ، وهم القائلون : ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] ، والقائلون : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ

(١) قيل : عن الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمر الثقفي ، وقيل : عن عمرو بن

عمرو بن مسعود الثقفي ، وقيل : عن عتبة بن ربيعة ، وقيل : جبار من جبابرة قريش ، وقيل : الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وقيل : عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد بباليل بالطائف .

انظر : تفسير ابن كثير ١٣٧/٤

(٢) تفسير ابن كثير ١٣٧/٤ .

(٣) محمد بن علي بن محمد بن عبدالله ، إمام علامة ، بحر مجتهد ، عابد ، زاهد ،

مصنف بارع . ولد في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة ١١٧٣ هـ في بلدة هجرة

شوكان من قرى السحامية إحدى قبائل خولان ، نشأ بصنعاء ، وأخذ في طلب العلم

وسماع العلماء الأعلام في مختلف العلوم ، وحفظ الكثير من المتون حتى صار إماماً

يشار إليه ، ورأساً يرحل إليه . ولم يزل مكباً على العلم قراءة وتدريساً حتى جاء أجله

ولقي ربه ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ .

انظر : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .

(٤) فتح القدير ٥٥٤/٤ .

حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا
رَّسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٠، ٩٣] .

وهم القائلون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ، يريدون
دين الله الذي جاء به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ويريدون أن لاخير فيه ،
لأنهم سبقوا إليه من قبل المستضعفين الذين ليس لهم مالهم وجاههم ، فلو
كان خيراً إذا بزعمهم ماسبقوا إليه ، فلايمكن أن يُسبقوا إلى خير أبداً وهم
أولى به ، لأنهم أهل الجاه والسيادة والمال .

ويلخص القرآن الكريم ويوجز ماسبق فيذكر أن تلك النظرة القاصرة إلى
المال المعظمة له كانت سبباً من أسباب كبر المتكبرين ، وكفر الكافرين في
كل أمة سابقة ، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ
إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] .

يكفرون بالله ربهم تبارك وتعالى ويكذبون رسله عليهم الصلاة والسلام ،
ثم يزعمون أنهم ناجون من عذاب الله ، لماذا؟ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا
وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ، فهل حقاً كثرة المال والولد مع الكفر تنجي من
عذاب الله؟

كلا! فلقد أهلكهم الله تعالى في الدنيا ، فلم تغن عنهم أموالهم وأولادهم
من عذاب الله وبطشه من شيء ، وفي الآخرة يردون إلى أشد العذاب ، ولن
تغني عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله من شيء ، فيتصارخون في النار ،
يقول أحدهم : ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ . هَلْكَ عَنِّي
سُلْطَانِيَةً﴾ [الحاقة: ٢٧، ٢٩] .

وها هنا مسألة ، وهي : أن ماذكرته فيما سبق يمثل جانب الكفر في
نظرة أهله إلى المال وتقديسهم له ، وكونه ميزاناً من موازين القيم عندهم ،
فهل يصيب المؤمن من ذلك شيء؟

والجواب : نعم ، وذلك حين يقل منسوب الإيمان لديه ، فينسى لقاء
ربه ، وينشغل بزخرف الدنيا عن نعيم الآخرة ، ويفقد التصور للقيم الحقة
المثلى .

أو حين يعيش في مجتمع مادي ، وسط بيئة مادية تقدر المال وتعظم

أصحابه ، أو حين يتربى مترفاً وينشأ متنعماً تتحقق كل رغباته وشهواته ، وهو يرى من أقرانه من يعيش في حاجة لأقل القليل عنده ، أو لنقل يعيش يكابد المصاعب لتوفير ضرورات الحياة ، وذاك قد توفرت له الضروريات والكماليات ، والفرق بينهما أن الأول بيده المال يحقق به رغباته وشهواته ، والآخر فقير لا يملك من المال ما يحقق له ذلك .

حين يكون هذا حاله مع فقدانه المذهب والمربي الذي يقوم سلوكه ، فيصله بربه تبارك وتعالى ، ويقف به عند القيم الإيمانية ليغرسها في نفسه ، ويريبه عليها ويعرفه القيم الدنيوية الأرضية الزائفة ليحذر الركون إليها والانشغال بها وتقديمها على قيم الإيمان ، حين يكون هذا حال المؤمن فإنه لاشك سيجنح إلى الغرور والتكبر بالمال .

ومن هنا لزم الحرص الدائم على توثيق صلة المؤمن بالله تبارك وتعالى ليقوي إيمانه ويتهذب سلوكه وتصح مفاهيمه وترسخ القيم المثلى في نفسه .
ونذكر واقعة من العهد النبوي تدل دلالة واضحة على أن المؤمن قد يقع في هذه النظرة المادية الدنيوية ، هذا الواقعة أخرجها الإمام البخاري^(١) في صحيحه عن سهل بن سعد^(٢) رضي الله عنه أنه قال : "مر رجل على رسول

(١) هو : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه أبو عبد الله . ولد في شوال سنة أربع وتسعين ومائة ، طلب العلم صغيراً ، سمع ببلخ ونيسابور والري وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر والشام . وروى عنه خلق كثير منهم الترمذي وأبو حاتم... ، صنف التصانيف الحسان ومنها : كتاب التاريخ والأدب المفرد وكتابه الصحيح الذي اتفق على جلالته وصحته ، كان عجباً في الحفظ وسعة العلم والذكاء ، وأثنى عليه العلماء بما هو أهله ، عرف بالورع والعبادة الصلاح والكرم والسماحة ، امتحن فصير . وكانت وفاته يرحمه الله ليلة عيد الفطر عند صلاة العشاء سنة ست وخمسين ومائتين . وعاش اثنتين وستين سنة إلا بضعة عشر يوماً .
انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩١-٤٧١ .

(٢) ابن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري الساعدي ، من مشاهير الصحابة ، غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من حزن إلى سهل . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي وعاصم بن عدي... ، روى عنه ابن العباس وأبو حازم والزهري وآخرون ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة . مات سنة إحدى وتسعين . وقيل : قبل ذلك .

الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ماتقولون في هذا؟ » قالوا : حريّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يستمع ، قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : « ماتقولون في هذا؟ » قالوا : حريّ إن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يستمع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » ، وفي رواية : "مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك في هذا؟ » ، فقال : رجل من أشرف الناس ، هذا والله حريّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رأيك في هذا؟ » ، فقال يارسول الله : هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حريّ إن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا »^(١) .

إنه مقياسٌ ماديٌّ بحثٌ ، به يظهر الوجيه الغني خير وأفضل من الفقير ، لذا فهو أولى بأن لا يرد له طلب ، فإن خطب زوج ، وإن شفع شُفّع ، وإن قال يسمع قوله ، أما الفقير فلا شيء من ذلك .

وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد بهذا السؤال عن الرجلين أن يمتحن أصحابه ليرى مدى تخلصهم من مفاهيم الجاهلية وقيمها الزائفة ، فإن وجد في نفوس بعضهم شوائب لازالت عالقة بها ، سارع إلى تربيتهم ليتحرروا من سلطانها^(٢) ، وهذا دأبه صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه ، يوجههم ويرشداهم إلى القيم الحقيقية التي تقاس بها أقدار الناس ، وينتزع من نفوسهم كل مفهوم خاطيء ، وكل سلوك معوج ، وهاهو هنا صلى الله عليه وسلم يقول : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » .

انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ١٤٠/٣ .

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين ١٤/٧ ، وفي كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر ٤٦٥/٨ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية ٦٩٢/١ .

وهو بهذا صلى الله عليه وسلم ينبه أصحابه ويرشدهم ويوجههم مبيناً لهم خطأ نظرهم إلى الرجلين ، ووزنهم لهما بميزان الشرف والمال - ميزان أهل الدنيا - فيذكر لهم صلى الله عليه وسلم - وهو الذي زكاه ربه - فقال: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣] ، أن الرجل الفقير الذي رأوه دون الشريف هو عند الله وفي ميزانه خير وأعظم من ملء الأرض من مثل ذاك ، ذلكم أن الله تبارك وتعالى لا يزن عباده بميزان القيم الدنيوية الزائفة ، بل يزنهم بميزان الإيمان والتقوى ، فمن رجحت كفة إيمانه وتقواه فهو الكريم عظيم القدر والشأن عنده ، وإن لم يكن له من حظوظ الدنيا وزخارفها نصيب .

ومن خفت كفة إيمانه وتقواه فلاكرامة ولاقدر وإن كان له من حظوظ الدنيا وزخارفها ماكان ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة »^(١) . لماذا؟ لأنه ليس له من تقوى الله تعالى نصيب .

بينما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وكان نحيلاً أشد ما يكون النحل حتى ذكر أنه رضي الله عنه من نحالته لم يستطع يوم بدر حمل رأس أبي جهل ، فربطه بشيء وقام يجره جراً ، ومع هذا فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه - وقد عجبوا من نحالة قدميه - : « إنها عند الله أثقل من جبل أحد »^(٢) .

لماذا؟ لأنه يحمل في صدره : لاإله إلا الله ، كلمة التوحيد التي لو

(١) الحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب التفسير تفسير سورة الكهف ، باب قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥] ، ٤٤٧/٦ .

وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٧/٤ . والحديث راويه أبوهريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يجتني سواكاً من الأراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مم تضحكون؟ » ، قالوا : يابني الله من دقة ساقيه ، فقال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد » . ٤٣١/١٠ .

وضعت السموات والأرض في كفة ، ووضعت هي في كفة ، لرجحت بهن ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق فقد ورد في الحديث « أن موسى عليه السلام قال : يارب علمني شيئاً اذكرك به وأدعوك به ، قال : قل : لا إله إلا الله . قال : يارب كل عبادك يقول هذا . قال : قل : لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصني به ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهم لا إله إلا الله »^(١) .

وفي حديث آخر أن نوحاً عليه السلام أوصى ابنه فقال : « أوصيك بقول لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت في كفة ووضعت السموات والأرض في كفة ، لرجحت بهن ، ولو كانت حَلَقَةً لقصمتهن حتى تخلص إلى الله »^(٢) .

وفي ختام هذه المسألة نخلص إلى أن هذه الأسباب هي أبرز الأسباب التي تؤدي إلى التكبر بالمال إضافة إلى الأسباب العامة المذكورة في مبحث أسباب الكبر ، وهو المبحث الذي يلي هذا المبحث .

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ٥٢٨/١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٧٠/٢ ، ٢٢٥ .

وأخرجه الحكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ٤٩/١ .

الداعي الخامس من دواعي الكبر : الحسب والنسب .

للحسب والنسب معان كثيرة خلاصتها : أن الحسب في الأصل : الشرف بالآباء وما يعده الناس من مفاخرهم^(١) . والنسب : القرابة أو هو في الآباء خاصة^(٢) .

وعلى ضوء هذا فإن الحسب والنسب قيمة دنيوية يتطاول بها أهل الجاهلية قديماً وحديثاً الراكون إلى دنياهم ، المخدوعون بقيمتها الرخيصة ، الغافلون عن القيم المثلى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ »^(٣) .

والمتكبرون بأحسابهم وأنسابهم تراهم يتكاثرون بآبائهم ، ويتفاخرون بهم أحياء وأمواتاً . ويتطاولون بالأصل والفصل ، ويستعلون بالقبيلة والعشيرة أو باللون والجنس على من سواهم يفعلون ذلك ولسان حالهم ومقالهم (أنا خير منه) .

(أنا خير منه) كلمة آثمة تفوه بها رئيس حزب المتكبرين ووليهم : إبليس اللعين ، معللاً بها استكباره عن السجود لآدم عليه السلام وعصيانه بذلك أمر ربه جل جلاله ، ولم أنت خير من آدم يالعين؟

قال اللعين معتزاً بأصل خلقتة مستنقفاً أصل خلقة آدم عن ظن سيء وقياس فاسد : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » [ص: ٧٦] .

هذه الكلمة الإبلسية الآثمة ، والحجة الشيطانية الداحضة في التعظم والاستكبار هي ما يتججح به المتكبرون بأحسابهم وأنسابهم على وجه الخصوص ، وكل المتكبرين بأية صورة من صور الكبر سواها على وجه العموم .

يقول المتكبر بحسبه ونسبه لمن تكبر عليه : أنا خير منك أصلاً وفصلاً ،

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٨١/١ ، والقاموس المحيط ص ٩٤ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ص ١٧٦ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، باب في النياحة ٦٤٤/٢ .

وأشرف قبيلة وعشيرة ، وأعلى حسباً ونسباً ، أنا ابن الأكرمين من سلالة العز والشرف ، أنا من بلد الأمجاد وموطن الأنجاد ، وأنت من أنت؟ وأي حسب لك؟ وأي منقبة ومكرمة لآبائك...؟

ويظل ذلك المتكبر يفتخر بحسبه ونسبه ، منتقصاً لغيره مزدرياً أصله وحسبه محتقراً جنسه نابزاً له به وبعشيرته وفصيله ، يقول : ياهندي وياسندي ، أو ياحجازي ، أو يانجدي ، أو يايمني... ، ويقول : ياابن الحذاء ، أو ياابن الحلاق ، أو ياابن الغسال... ، ويقول : ياوضع النسب ، يامنحط الأصل... ، إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدل على استصغاره له وتعظمه عليه .

وكذلك من يرى نفسه حسيباً نسيباً فيتعظم بذلك ، تراه يأنف غاية الأنفة من مجالسة أو محادثة أو مخالطة من يراه دونه حسباً ونسباً ، ويتصف نحوه بسائر الصفات التي يتصف بها المتكبرون إظهاراً لعظم شأنهم وعلو قدرهم ، من حيث لا يعلمون أنها طريق لذلهم وهوانهم على الله تعالى وعلى خلقه .

والتكبر بالحسب والنسب نعمة جاهلية تقسم المجتمعات إلى طبقات وفصائل مختلفة ، فتؤدي إلى التنافر والتناحر والافتراق ، وذلك حين ينقسم الناس إلى ملاٍ مستبدين ، ورعاع مستضعفين ، فيظلم الملاؤ المستضعفين ويغمطونهم حقوقهم ويستعبدونهم ، ويحقّد المستضعفون على الملاٍ فيكونون لهم كل عداوة وبغضاء ، فيبقى الجميع لا يأمن جانباً الجانب الآخر ، وهمه محاربتة وعداوتة والقضاء عليه .

وبالعودة إلى ماقصه علينا كتاب الله تعالى من قصص المتكبرين نجده لم يغفل هذه الصورة من الكبر ، فلقد ذكر لنا أن من أعظم أسباب استكبار الملاٍ عن الإيمان بالله تعالى والانقياد لرسله عليهم السلام هو : تعزّزهم بما كان عليه أبائهم وتمسكهم به ، يقولون كما حكى القرآن الكريم عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢] ، ويعيرون الرسل بأنهم ما اتبعهم إلا المستضعفون الذين ليسوا من ذوي الواجهة والنسب .

قال الملاؤ المستكبرون من قوم نوح عليه السلام : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] ، : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧] .

وقال الملائكة المستكبرون من قوم صالح لمن آمن من المستضعفين: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦] ، يكفرون بالله تعالى أنفة أن يتساووا والمستضعفين الذين سبقوهم إلى الإيمان به سبحانه وتعالى .

كما أن وجهاء قريش وزعماءها طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد من حوله المستضعفين الذين آمنوا به ، أمثال : بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي... ، ليجلسوا إليه هم وحدهم ، أنفة أن يجلسوا مع أولئك المستضعفين فيكونون سواءً مع أن الحقيقة أنهم ليسوا سواء ، لكن لا كما ظن وزعم أولئك الجاهلون ، بل كما قال الله تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] .

فالمؤمنون في الجنة وأولئك في النار .

وقفة مع حاضر الأمة (للمذكرى)

لعله من المناسب الآن أن نتلفت حولنا متأملين أحوالنا ، وسنرى كم نعاني من هذه الصورة من صور الكبر الطبقي الشيطاني الجاهلي ، فلقد غدا أهل لا إله إلا الله يتميزون ويتفاضلون لامتداد ما حققوه من مفهوم هذه الشهادة العظيمة وطبقوه في واقع حياتهم ، ولكن بأجناسهم وأحسابهم وألوانهم ، وسائر قيم أهل الجاهلية ، فأنى اتجهت ويمت وجهك تجد هذا التمايز ، فأبناء البلد مواطنون لهم الحق في كل شيء ، وإخوانهم في العقيدة من غير جنسهم وبلدهم أجناب لا يحق لهم مقارنة أنفسهم بأبناء البلد في شيء ، بل هم خدم لهم وأجراء!! وأنى للخدام والأجير أن يتساوى مع سيده!!؟

هذه النعرة الجاهلية وللأسف الشديد ليست على مستوى الأفراد ، إذا لهان الخطب قليلاً ، بل هي أيضاً على مستوى الجماعات والحكومات ، تعمل وسائل الإعلام المختلفة على تضخيمها ، ويرعاها ويذكي نيرانها من حملهم الله تعالى أمانة حفظ وحدة الأمة وترباطها .

وقد لا يتوقف الأمر على هذا التمايز الجاهلي بين أبناء البلدان المختلفة ، بل يتعدى ذلك إلى أن يكون بين أبناء البلد الواحد ، فتوجد الطبقات المختلفة ، فهذا يفخر بعشيرته وقبيلته ، وغيره مثله ، وسواهم كذلك ، وكل

واحد منهم ينتقص الآخرين وينبزههم بعشائريهم وأصولهم معتقداً أنه خير منهم وأفضل .

إنها سلبية من سلبيات كثيرة ، دواهي أصابت المجتمعات الإسلامية ، فغدت القلوب متافرة ، والأرواح متاكرة ، والصفوف متفرقة ، والكلمة مختلفة ، وبذلك غدت الأمة تقبع في مؤخرة ركب الأمم ، بعد أن كانت تحمل لواء التقدم وسائر الأمم تلهث تبغي اللحاق بها .

أقول : لقد اطلع أخ لي في الله تعالى على نحو من كلامي هذا في محاولة ربط واقعنا المعاصر بموضوع دراستي هذه ، فقال : ربما اعترض عليك ، إذ كيف يكون موضوع بحثك هو الكبر والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة ثم أنت تخرج إلى هذا المجال؟

فقلت : سبحان الله! وما جدوى أي دراسة وبخاصة في المجال الأخلاقي إذا لم يكن فيها التفات لمعالجة واقع الأمة المعاصر؟! ثم أظن ظان أن القرآن الكريم والسنة المطهرة جاءا ليكونا مختصين بأهل زمان أو مكان معين؟! أم أنهما دستوران لأمة الإسلام قاطبة من لدن ولادتها وحتى يرث الله الأرض ومن عليها؟!

إن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يتناولوا هذه القضية الأخلاقية ذات الأبعاد الخطير بقصد علاج قوم نوح أو قوم عاد... أو غيرهم من الأمم الغابرة ، أو فقط لمعالجة المتكبرين الذين وجدوا على عهد النبوة المحمدية وفي عصرها ، بل لمعالجة هذا الانحراف الخطير متى ظهر في أمة الإسلام سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أو المجتمعات .

ومن هذا المنطلق فإن دراسة هذه القضية قضية الكبر ومحاولة البحث عن سبل علاجها وذلك في ضوء الكتاب والسنة ليست دراسة لها على أنها قضية كانت وولى زمانها ، بل على أساس أنها قضية مستمرة متواصلة ، لها في كل زمان ومكان وراثتها الذين يرثونها عمن سبقهم من الجاهلين ، ولذا ينبغي أن لا يغفل عنها أبداً .

وكذا الحال في كل قضية أخلاقية أو عقائدية تناولها كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبيين والإيضاح ، ينبغي أن تأخذ الأمة منها العبر والعظات ، لتستفيد منها في حاضرها ومستقبلها ، كما أفادت منها في ماضيها . والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وزبدة الكلام في هذا الداعي من دواعي الكبر وهو النسب والحسب أن المتكبر به شأنه أن يتعاضم على الدوام ويتفاخر بآبائه وأصوله ، وبقبيلته وفصيلته ، وماحازوا من الفضائل وماكان لهم من المآثر ، ثم هو ينتقص الآخرين يغمزهم بأنسابهم ويلمزهم بأجناسهم ، ناظراً لنفسه بعين الاستعظام ولهم بعين الاحتقار والاسترذال ، ثم يؤدي به تعظمه هذا عليهم إلى غمطهم حقوقهم وإلى عدم قبول الحق منهم ، وفي هذا الأمر ماقد علمت من الشر والفساد الذي يصيب الأمة أفراداً وجماعات .

فائدة :

لا ينبغي علينا أن نتجاهل أمراً له وجوده ، وهو : أن هناك من الأنساب ما تتطلع إليه النفوس لشرفه وزكاة سلالاته ، كما هو الحال في أنساب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى يصطفيهم من أكرم وأطهر وأنبل السلالات البشرية ، ليكونوا موضع ثقة من أرسلوا إليهم ، وحتى لا يجد المتعنتون فيهم مطعناً يطعنونهم به ، قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ، أي : يختار ويجتبي رسلاً من الملائكة ومن الناس يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء ، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق^(١) .

وفي الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٢) .

وفي الحديث أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس؟ قال : «أكرمهم أتقاهم» ، قالوا يانبي الله ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله ، قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا نعم . قال :

(١) انظر : تفسير السعدي المسمى بـ(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص ٤٩٥ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم من حديث وائلة بن الأصقع ١٧٨٢/٤ .

فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(١) .

وعند إجمالة النظر في هذه النصوص التي بين أيدينا يتبين لنا أن الله تعالى يختار رسله وأنبياءه ويصطفاهم من أكرم وأزكى السلالات البشرية ، وهذا دليل على أن هناك أنساباً لها قيمتها وشرفها ، لكن ليس بها يكون التفاضل عند الله سبحانه وتعالى ، بل نكرر دائماً بالتقوى ، ولذا عندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس ، أجاب أول ما أجاب : « أكرمهم أتقاهم » ، وهو بهذا صلى الله عليه وسلم يقرر لهم القيمة السماوية للسمو والعلو ، لكنهم كانوا يسألونه عن أكرم الناس من ناحية أصولهم التي ينتسبون إليها ويتفاخرون بها ، وما خفي ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أراد تنبيههم إلى ما هو أسمى من ذلك وأعلى ، فلما تحقق له صلى الله عليه وسلم ما أراد بين لهم ما طلبوا بيانه ، فأكرم الناس يوسف النبي ابن النبي ابن الخليل ، وأكرم بهذا نسباً ، وأكرم الناس في زمن السؤال وبعده « من جمع بين الشرف في الجاهلية والشرف في الإسلام ، وكان شرفهم في الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع ومنافرتة ، خصوصاً بالانتساب إلى الآباء المتصفين بذلك ، ثم الشرف في الإسلام بالخصال المحمودة شرعاً ، ثم أرفعهم مرتبة من أضاف إلى ذلك التفقه في الدين ، ومقابل ذلك من كان مشروفاً في الجاهلية ، واستمر مشروفاً في الإسلام ، فهذا أدنى المراتب .

والقسم الثالث : من شرف في الإسلام وفقهه ، ولم يكن شريفاً في الجاهلية ، ودونه من كان كذلك ، لكن لم يتفقه .

والقسم الرابع : من كان شريفاً في الجاهلية ، ثم صار مشروفاً في الإسلام ، فهذا دون الذي قبله ، فإن تفقه فهو أعلى رتبة من الشريف الجاهل»^(٢) .

(١) الحديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذِ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٦٥] ، ٥٩٧/٤ ، وباب قول الله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ [البقرة: ١٣٣] ، ٦٠٦/٤ .

وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب من فضائل يوسف عليه السلام ١٨٤٦/٤ .

(٢) فتح الباري شرح البخاري ٥١٢/٦ .

الداعي السادس من دواعي التكبر : القوة .

وأعني بالقوة هاهنا قوة البدن ، لاقوة الجاه والمال والأنصار والأتباع والجنود... ، فهذه لها مكانها من هذا المبحث الذي بين أيدينا ، فأرجو من الله التوفيق لإيضاحها .

التكبر بالقوة :

يمن الله عزوجل على عباده بمنن لاتعد ولاتحصى ، فيقابل الموفقون تلك النعم بالشكر والعرفان ، والتواضع والإخبات ، ويقابلها المخذولون بالجحود والبطر والطغيان .

وإن من النعم التي يمن الله تعالى بها على من يشاء من عباده نعمة القوة والصحة والعافية ، فإذا بعضهم معجب بذلك ، أشر مختال فخور ، يتطاول بقوته على الضعفاء ، ويستعملها في أذيتهم وسلبهم حقوقهم ، كما يستعملها في نصره الباطل وخذلان الحق وبخاصة إذا كان في الحق معارضة لهواه وتسفيه لرأيه ومسلكه .

وتظهر على المتكبر بقوته سائر الأخلاق الذميمة التي تظهر على المتكبرين كافة ، ومنها : الفخر والزهو بقوته وشدته ، والتباهي بصحته ، والهزاء بالضعفاء والعاجزين والسخرية منهم ، والأنفة من صحبتهم ومعاشرتهم .

ولقد أبرز القرآن الكريم هذا الداعي من دواعي التكبر فيما قصه علينا من قصص المتكبرين الذين أمدهم الله تعالى ومتعهم بنعمة القوة ، فركنوا إليها غير شاكرين ، وأعجبوا بها مستكبرين .

ومن أبرز أولئك المستكبرين بما أوتوا من قوة ممن ذكر في كتاب الله تعالى خبرهم قوم عاد وثمود .

فأما عاد فلقد وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ٦-٨] ، أي : لم يخلق مثلهم في زمانهم في الطول والقوة والشدة والبطش^(١) . وهم الذين خاطبهم نبيهم هود عليه السلام بقوله كما جاء في كتاب الله ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً

(١) انظر : تفسير الطبري ١٧٧/٣٠ ، وفتح القدير ٤٣٥/٥ .

تَعْبُثُونَ . وَتَخْرِدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿الشعراء: ١٢٨-١٣٠﴾ ، وهذه نتيجة مامتعوا به من نعمة القوة التي ذكرهم بها هود عليه السلام فقال كما حكى القرآن ذلك ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] ، أي : اذكروا نعمة الله عليكم أن جعلكم تخلفون قوم نوح في سكنى الأرض التي كانوا فيها^(١) ، ثم زادكم عليهم في أجسامكم طولا وعظماً ، وزاد في قوامكم على قوامهم نعمة منه بذلك عليكم ، فاذكروا نعمه وفضله واشكروه على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به^(٢) .

فهذه الآيات البينات تدل على أن الله تعالى أنعم على قوم عاد بضخامة الأجسام وقوة الأبدان ، فكيف قابله هذه النعمة؟ يقول الله تعالى في شأنهم : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدَّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ، أي : تكبروا عن الإيمان بالله وتصديق رسله ، واستعلوا على من في الأرض^(٣) ، وقالوا في تعظم كبير ﴿مَنْ أَشَدَّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ، ومرادهم بهذا القول المقيت أنهم يمتنعون بقوتهم من بأس الله^(٤) ، وأنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من عذابه ، ولهذا قال الله تعالى استنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم^(٥) : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] ، والمعنى : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ، فإنه الله العظيم الذي خلقهم وخلق سائر الأشياء ، وركب فيها قواها الحاملة لها ، وإن بطشه شديد^(٦) ، وهو القادر على أن ينزل بهم من

(١) انظر : فتح القدير ١١٨/٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢١٦/٨ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١٠٢/٤ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ١٠٢/٤ .

(٥) انظر : فتح القدير ٥١٠/٤ .

(٦) انظر : تفسير ابن كثير ١٠٢/٤ .

عقابه ماشاء^(١) .

وأما ثمود فقد خلفوا عاداً ، ومتعوا بالقوة ، فكانوا يقطعون الصخر ويخرقونها وينحتون من الجبال بيوتاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩] ، أي : خرقوا الصخر ودخلوه فاتخذوا بيوتاً ، ونظير هذا قول الله تعالى عنهم : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٢] .

وقال نبي الله صالح عليه السلام لقومه ثمود مذكراً ومرشداً : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤] ، يذكرهم نعمة الله عليهم مرشداً لهم أن يستعملوها في طاعته ولا يعيشوا بها ولأجلها في الأرض فساداً .

وكذبت ثمود واستكبرت كما فعلت عاد ، فأهلكهم الله وقطع دابرهم ، كما فعل بعاد ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٤-٨] .

وخلاصة القول : أن القوة البدنية وضخامة الأجسام وشدتها داع دعا أولئك القوم إلى الاستكبار والتعظم ، ويدعو غيرهم على مر الأيام إليه ، غير أنه ينبغي أن ندرك أن الغالب على التكبر بهذا الداعي أن يكون فردياً ، إذ ليس كل الناس في سائر الأمم يتساوون في القوة المذكورة .

ثم أيضاً ينبغي أن ندرك أن ثمة قوى أخرى غير قوة البدن تدعو إلى ذلك الاستكبار والتعظم المقيت ، كقوة الجند والسلاح والسلطان وقوة الاقتصاد ، فإننا لَنَظَرْنَا في واقعنا المعاصر لرأينا أن العالم تسيطر عليه دول قوية في هذه المجالات ، وتلك الدول تشمخ بأنوفها فوق الدول التي لا تمتلك تلك القوى ، وكم هي تلك المواقف والصور التي تبرز تعظم تلك الدول وخيلاءها مما لا يخفى على المتبصر الفطن ، بل وحتى على غيره ، فكم تعتدي دولة قوية

(١) انظر : فتح القدير ٥١٠/٤ .

على أخرى ضعيفة وتتدخل فيما لا يعنيه من شئونها، وكم تسلب من حقوق وتزهق من أرواح؟ وكم تحارب أية محاولة من دولة مستضعفة لبناء نفسها؟ وكم تقف مع الظالم والقوى ضد المظلوم والضعيف؟ كم وكم...، كم تفعل ماتفعل من القبائح، وهي الآمرة الناهية، ليس لأحد أن يخالف أمرها ونهيها، وإن حاول أحد أن يدافع عن كرامته الممتهنة وحقه المسلوب أو يعبر عن رفضه للظلم والإذلال فالويل له من إرهابي متطرف يززع الأمن وييث الرعب، ويظهر الفساد، وإن كان طفلاً ألقى حصاة في وجه عدوه الغاشم، فارتدت إلى صدره رصاصة مزقت أحشاءه.

إن تعظم تلك الدول بقواها المذكورة لحدود له، فهي تنظر إلى الآخرين كخدام وجدوا لتحقيق مصالحها، وليس من حق أحدهم أن يرفع رأسه، بل عليه أن يظل مطأطأً له ليسلم، وإلا لبقى جسداً بلارأس.

فليتعاظم أولئك المأفونون كيفما شاءوا لنرى إلى أي مدى سيصلون في خيلائهم وانتفاشهم، فلقد تعاظم غيرهم وتناولوا فهووا من عليائهم أذلاء صاغرين، وماهي إلا سنة الله تعالى في خلقه يداول الأيام بينهم، ويذيق المستكبرين منهم عذاباً مهيناً وإن أملى لهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُهُمْ هَوَاءً . وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٦].

الداعي السابع من دواعي الكبر : العدد .

قصص المتكبرين في القرآن الكريم شواهد حية دالة غاية الدلالة على أن كثرة الأبناء والأنصار والأتباع والعشيرة والجنود.... ، داع رئيس لظهور التكبر .

قال الله تعالى مجملاً حال المستكبرين من سائر الأمم مبيناً منطقهم السقيم وهم يعللون كفرهم بالله ورسله ، واستكبارهم عن الانقياد للحق واتباع الهدى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] .

وقص علينا كتاب ربنا خبر صاحب الجنتين المتعظم بماله وولده على صاحبه الفقير ، وهو يقول له مزهوا عليه : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤] ، أي : أعز عشيرة وأكثر خدماً وحشماً وولداً^(١) .

نحن أكثر ، أنا أكثر وأعز ، منطق سقيم ينفث تعظماً واستعلاءً ، يردده كل مختال بكثرة ماله أو بنيه أو عشيرته أو أتباعه أو جنده... ، وهو منطق ليس بجديد ، بل هو من جنس قول المستكبر الأول إبليس اللعين ، وقد استكبر عن السجود لآدم عليه السلام ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ .

ولافرق بين ماقاله إبليس لعنه الله وماقاله صاحب الجنتين ، ويقول من كان على شاكلتهم ، فكل ذلك يعني رفع النفس واحتقار الآخرين .

ومنذ أن خط إبليس طريق التكبر وإلى أن تفتى الحياة الدنيا يلقى المتكبرون « سلسلة واحدة بطريقة تفكيرهم وتقديرهم للنعم »^(٢) ، وتعززهم وتعظمهم بما يَفْنَى من القيم ، فهاهوذا أبو جهل يستعلي بكثرة قومه وعشيرته ، ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند المقام ، فمر به أبو جهل بن هشام ، فقال : يا محمد! ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره . فقال يا محمد! بأي شيء تهددني؟ أما والله إنني لأكثر هذا الوادي نادياً ، فأنزل الله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُو

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٤٦/١٥ ، تفسير ابن كثير ٨٧/٣ .

(٢) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق ص ١٨١ .

ومتع الله تعالى الوليد بن المغيرة المخزومي بكثرة المال والولد ، فإذا به يُدبر عن الحق ويستكبر عن الانقياد للقرآن^(١) ، بعد أن تبين له أنه الحق ، وفيه نزل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَفَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴿[المدثر: ١١-٣٠] .

وقد نزلت سورة من كتاب الله تشنع على أقوام شغلهم التفاخر والتكاثر بالأحياء منهم والأموات عن كل شيء يجب عليهم الاشتغال به من طاعة الله تعالى والعمل لحياتهم الآخرة^(٢) ، حتى كانوا من سكان القبور .

قال الله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿[التكاثر: ١، ٢] . قيل : نزلت هذه السورة في حين من قريش : بني عبدمناف وبني سهم ، كان بينهما لواء ، فتعادوا السادة والأشراف أيهم أكثر؟ فقال بنوعبدمناف : نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً . وقال بنوسهم مثل ذلك ، فكثرتهم بنوعبدمناف ، ثم قالوا نعد موتانا ، حتى زاروا القبور فعدوا موتاهم ، فكثرتهم بنوسهم ؛ لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية^(٣) .

وقيل : نزلت في اليهود ، قالوا : نحن أكثر من بني فلان وبني فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً^(٤) .

وقيل : نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان ، وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ، يشيرون إلى القبور ،

١ ابن كثير
(١) انظر : تفسير ٤٧٢/٤١ .

(٢) انظر : فتح القدير ٤٨٨/٥ .

(٣) انظر : أسباب النزول للواحدي ص ٥٣٧ .

(٤) انظر : أسباب النزول ص ٥٣٧ .

ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك^(١) .

وليس هذا فحسب ، بل إن الآيات القرآنية في شأن المتكبرين ليجد المتأمل فيها دلالة واضحة على أن العدد عدد الآباء والأبناء... كان من دواعي استكبار المستكبرين ، فإن الآيات الكريمة تؤكد أن المستكبرين في الغالب هم المملأ من كل أمة ، والمملأ هم السادة أولوا الجاه والمال والسيادة ، وهي أمور تستلزم كثرة الأتباع والأنصار... التي يغتر بها أولئك الجاهلون ، فإذا هم بها يتفاخرون ويتكاثرون ، حتى ييغتهم الأجل وهم في غفلة معرضون .

ولقد هلك أولئك الغابرون وماطويت صفحة التكبر بهلاكهم ، بل يبقى إرثاً لمن بعدهم من الجاهلين ، مابقيت الحياة الدنيا متاع الغرور .
فهذا ذو جاه وسلطان يطغى ويتفاخر بكثرة أنصاره وجيوشه... ، وهذا ذو مال يتكاثر بخدمه وحشمه... ، وهذا صاحب علم يستطيل بكثرة تلاميذه وقاصديه... ، وهذا ذو عيال يتعالى بكثرة بنييه ، وهذا مغتر بحسبه ونسبه يتفاخر بأبائه وأجداده وقبيلته وعشيرته... ، وكل ذلك متاع الغرور .

وصدق الله الجليل -ومن أصدق من الله قيلاً- فهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] .

فالتكاثر والتفاخر باق في أهل الحياة الدنيا مابقيت تغرهم بزخرفها الزائل ولهوها الباطل .

يتفاخرون فيما بينهم ويتكاثرون بالأموال والأولاد والأنساب والأحساب^(٢) والقوة والخلفة... ، يتفاخرون بهذا وهو زينة دنيوية خادعة ، ومتاع قليل زائل مشتغلين به عن طلب الحياة الطيبة في دار القرار .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥/٨٢٢ ، وفتح القدير ٥/٤٨٩ ، ولباب النقول في أسباب النزول ص ٢٣٤ .

(٢) انظر : فتح القدير ٤/١٧٥ .

الداعي الثامن من دواعي التكبر : الملك والسلطان والمنصب .

جرت سنة الله عزوجل واقتضت حكمته البالغة أن لايجعل عباده طائفة واحدة متساوية في الرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم والأشكال والمحاسن والألوان^(١)... ، بل قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، فجعل منهم الغني والفقير والمأمور والأمير والراعي والرعية والقائد والمقود والسيد والمسود.... .

ولهذا التفاوت والاختلاف الذي جعله الله تعالى بين عباده حكم وأسرار ، أجلها وأعظمها ما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله الحق : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] . وبقوله سبحانه وتعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] .

فالابتلاء هو أجل حكمة ربانية وسر إلهي في خلق الله تعالى عباده على هذه الصورة من التفاوت ، وهو على نوعين :

الأول أشارت إليه الآية الأولى وقول الله تعالى فيها : ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ ، أي : ليختبركم في الذي آتاكم حتى يعلم وهو الخلاق العليم الشاكرين منكم والجاحدين والصابرين منكم والساخطين والمتكبرين منكم والمتواضعين .

والثاني أشارت إليه الآية الثانية وقول الله تعالى فيها : ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ، أي : يتتلى بعضهم ببعض ، فيستخدم الغني الفقير ، والرئيس المرعوس ، والقوي الضعيف ، والحر العبد ، والعاقل من هو دونه في العقل ، والعالم الجاهل... ، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا ، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين ، فجعل الله سبحانه وتعالى البعض محتاجاً إلى البعض لتحصل المواساة بينهم في الحياة الدنيا ومتاعها ، ويحتاج هذا إلى

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٠٨ ، ٤/١٣٧ ، وفتح القدير ٤/٥٥٤ .

هذا ، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا هذا^(١) . ولو كانوا طائفة واحدة لحصل الخلل والفساد في حياتهم ومعاشهم ، فسبحان الحكيم العليم .
وعندما تغيب هذه الحكم والأسرار عن أصحاب المناصب عاليها وواطئها ، ولا يدركونها فإنهم يشعرون بعزة الجاه والسلطان فيتعظمون ويستعلون .

ويدفعهم بعد ذلك إلى هذا التعظم ويزيد من طغيانهم أمور أربعة :
الأول : شعورهم بالاستغناء عن العالمين ، وإحساسهم بحاجة الناس إليهم ، أما كون الناس بحاجة إليهم فحق جلي ، لكن شعورهم بالاستغناء عنهم شعور كاذب تخدعهم به نفوسهم المستعلية ، فالحق أن الناس جميعاً غنيهم وفقيرهم ورئيسهم ومرعوسهم... ، ... ، لاتنقطع حاجة بعضهم لبعض ، فبعضهم لبعض خدم ، شعروا بذلك أم لم يشعروا ، وأقروا به أم لم يقرؤا ، فهكذا خلقهم ربهم تبارك وتعالى : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا﴾ ، فالكل في حاجة الكل ، والكل بحاجة إلى الكل ، فلا الملك في غنية عن المملوك ، ولا الرئيس في غنية عن المرؤوس...

الثاني : جهلهم بحقيقة ما يعتزون به من الملك والجاه والمنصب .
فإنهم يظنون أن ذلك تشريف شرفهم الله تعالى به عن محبة لهم ورضوان عنهم .

وهذا مفهوم سقيم قد عرض الحديث عنه في أكثر من موضع لدحضه ، وبيان أن محبة الله تعالى لاتنال بقيم الدنيا وزخرفها ، إنما يحب الله المتقين الذين عرفوه رباً محموداً وإلهاً فرداً معبوداً ، ففروا إليه مخلصين ، وأقبلوا عليه محبتين ، فنالوا بذلك محبته وإكرامه أبد الأبد .

ثم إن ما هم فيه من جاه وسلطان إنما هو تكليف ومسئولية وأمانة عظيمة حُمِّلوها ، وبحملها تنوء الجبال الراسيات ، وستشتد مساؤلهم عنها ومحاسبتهم عليها ، فإن ضيعوها والتكبر أقرب طريق لذلك فتكون وبالاً عليهم ، وسيأتي الحديث عن هذا عند ذكر علاج التكبر بهذا الداعي ، في مكانه من البحث بإذن الله تعالى .

(١) انظر : فتح القدير ٥٥٤/٤ .

الثالث : تملق المتملقين ونفاق المداهنيين ودجل الدجالين وتصفيق الناعقين .

فذو السلطان والجاه يكثر حوله هؤلاء وأولئك طمعاً فيما عنده من زينة الدنيا ومتاعها ، فتراهم يخطبون وده بالتطيل وكيل المديح بحق وبغير حق ، وقليل هو الحق من ذلك ، فكثيراً ما يصفونه بما ليس فيه ، بل كثيراً ما يعتدون في وصفه على صفات لاتليق إلا بجلال الخالق سبحانه وتعالى حتى ليخال نفسه في مقام غير مقام البشرية التي جبلت على النقص والضعف والخطأ ، فكيف بعد ذلك لا يدخله من التعظم ما يدخله ؟

إن للمدح تأثيراً في النفس لا يخفى ، فالنفس يعجبها أن تمدح ويثنى عليها ، وهي ضعيفة وأمارة بالسوء ، فإذا حصل لها من ذلك مارامت خيف عليها العجب ، ومن بعده التكبر ، وبخاصة حين يضعف سلطان الإيمان عليها فلا يقوى على الصمود في وجه رغباتها وأهوائها ، ومن هذا المنطلق ورد النهي عن المدح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي .

ويشتد تأثير المدح ويعظم خطره على النفس إذا كان بغير حق ، ويزداد خطره ويعظم أكثر فأكثر إذا كان كذلك واجتمع مع عزة الملك والسلطان ، فلاتسل حينها عن طغيان النفس وخيلائها .

وسيأتي بإذن الله في المبحث القادم ذكر المدح كسبب من أسباب الكبر الاجتماعية وذلك بشيء من التفصيل .

الرابع : ذل الأتباع وخضوعهم .

وأعني به ذل المرعوسين والأتباع للرؤساء والقادة أعظم من ذلهم وخضوعهم لربهم ذي الجلال والكبرياء ، حتى يملكونهم نواصيهم يجرونهم بها حيث شاءوا ، محجوراً على عقولهم أن تفكر وألستهم أن تنطق ، وأذانهم أن تسمع ، وأعينهم أن تبصر إلا بما وما يشتهي السادة ويوافق أهواءهم .

ولست أرمي ههنا إلى سلب الولاية والرعاة ما يجب لهم من الطاعة التي أمر بها الله عز وجل وهي الطاعة بالمعروف في المعروف ، وإنما رمت الطاعة العمياء التي لاتفرق بين حق وباطل ، وحلال وحرام ، ومعروف ومنكر ، وصالح وفاسد ، فهذه طاعة ما أنزل الله بها من سلطان ، لابل هي عبادة وتأليه لغير الله بنص كتاب الله تعالى وبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد

قال الله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] .

وما كانت عبادة أولئك لأحبارهم ورهبانهم لإطاعتهم واتباعهم في
تحريم الحلال وتحليل الحرام ، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا
اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ »^(١) .

فلما كان التحليل والتحريم من خصوصيات الربوبية ، كانوا في طاعتهم
لأولئك الأحرار والرهبان بمنزلة المتخذين لهم أرباباً ؛ لأنهم أطاعوهم كما
تطاع الأرباب^(٢) .

فهذا الانقياد على هذه الصورة من الذلة والصغار دافع للطغاة أن يزدادوا
طغياناً إلى طغيانهم ، وعلواً في الأرض وفساداً واستكباراً ، فما الذي يمنعهم من
ذلك ، وقد طأطأ الناس لهم رقابهم فما وجدوا فيهم من يقف في وجه
طغيانهم راضياً بعبوديته لله رب العالمين خالِعاً ربقة العبودية لمن سواه كائناً
من كان؟

ولو وجد الطغاة رجالاً يأبون أن يقادوا كما تقاد الشياه للمسلخ بغير
وعي ولا هدى متنازلين عن كرامتهم التي منحهم إياها ربهم جل وعلا ، فإنهم
لن يجدوا متنفساً لطغيانهم واستعلائهم .

ولنضرب مثلاً بحقير الطغاة فرعون عليه لعنة الله فقد ادعى الربوبية وزعم
الألوهية فما وجد في الناس وهم يعرفون زور قوله وبهتان ادعائه من يقول له :
مأنت إلا عبد مثلنا ، مربوب لرب العالمين وإلههم ، الخالق الرزاق المحيي
المميت ، لا تملك من أمرك شيئاً فضلاً عن أن تملك الكون كله ، ولو وجد
ذلك لتحطمت كبرياؤه وهوى من عليائه ، ولكنه وجد قوماً لهم قلوب
لا يفقهون بها ، وأعين لا يبصرون بها ، وآذان لا يسمعون بها ، فاستخفهم
فأطاعوه ، فعلا ظهورهم واستذلهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة التوبة ٢٧٨/٥ ، وقال : « هذا

حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس
بمعروف في الحديث » .

(٢) انظر : فتح القدير ٣٥٢/٢ .

قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿الزخرف: ٥١-٥٤﴾ .

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ ، أي : حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله وكيده وغروره فاطاعوه فيما أمرهم به ، وقبلوا قوله وكذبوا موسى ، وقيل : استجملهم فاطاعوه بخفة أحلامهم وقلة عقولهم ، وقيل : وجدهم خفاف العقول فاستخف بهم وقهرهم حتى اتبعوه^(١) .

وهذا أمر يستوي فيه الطغاة المتجبرون جميعاً ، فلو ذل لهم الناس على هذه الصورة لازدادوا تجبراً واستكباراً ، ولو وجدوهم لا يرضون بالعبودية إلا لله رب العالمين لتحطمت على أسوار إيمانهم نفوسهم المستعلية .

وخلاصة ما ذكر هي : أن الجاه والسلطان والمنصب كما تبين من دواعي الكبر الأساسية بل هو أعظم الكمالات الدنيوية مدعاة له^(٢) لدى المستكبرين الذين عرض علينا القرآن الكريم قصصهم وأمثالهم من المبهوتين بزخرف الدنيا وزينتها في كل زمان ومكان .

ولهذا كانوا يخشون أن يسلب منهم فيلجأون إلى الاستكبار عن اتباع رسل الله تعالى ليبقى ملكهم وجاههم ، كما كان حال فرعون وقومه الذين قالوا لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ، وقد فسرت الكبرياء هنا بالملك والسلطان ، فهم يخشون أن تكون لموسى وهارون عليهما السلام وتنزع منهم^(٣) .

(١) انظر : فتح القدير ٤/ ٥٦٠ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٧/ ١٩٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١١/ ١٤٧ ، والمحرر الوجيز ٧/ ١٩٤ .

الداعي التاسع من دواعي الكبر : الجمال .

اقتضت حكمة الله عزوجل الحكيم العليم أن يخلق عباده متفاوتين في صفاتهم الخلقية ، فهذا طويل وهذا قصير ، وهذا أبيض وهذا أسود ، وهذا مكتمل الأعضاء وآخر يعتريه نقص فيها ، وهذا في خلقته وضاءة ووسامة ، وآخر في خلقته عيب ودمامة...

هكذا شاء الله عزوجل أن يخلق عباده ، وهكذا أراد لهم وله الحكمة البالغة في ذلك أدركها البشر أو قصرت أفهامهم عن إدراكها .

والحكمة التي نستطيع إدراكها من خلق الله عزوجل عباده على هذا الوصف هي الابتلاء والاختبار ، فإنه عزوجل يمتحن عباده ويبلو إيمانهم به ، وشكرهم له على نعمه ، وتسليمهم لقضائه ، فالمؤمن حقاً يدرك هذا الحكمة الإلهية ، فيشكر الله عزوجل إن أعطاه حظاً من الجمال ، ويُسلم له ويصبر على ابتلائه إن لم يعط أو أُعطي خلافه ، وكلا الأمرين له خير ، فهو إما فائز بأجر الشاكرين ، أو بأجر الصابرين .

ومن ضعف إيمانه فغابت عنه هذه الحكمة الإلهية فإنه يطغى ويطمر عندما يقسم له من الجمال ويجزع ويسخط عندما يُقدَّر عليه فيه ، أو يبتلى بضده ، وكلا الحالين شر وبلاء ، فبطره بالنعمة حرمه أجر الشاكرين ، وسخطه عند البلاء حرمه أجر الصابرين ، وذلك هو الخسران المبين .

كيف يتكبر الجميل بجماله؟

المتكبر بما قسم له من صفات الحسن والجمال من شأنه أن تظهر عليه سائر الصفات الذميمة التي يتصف بها المتكبرون عموماً ، بيد أن هناك صفات منها تبدو أكثر ظهوراً على سلوكه ، ولعل أبرزها مايلي :

١ - الاختيال في المشي :

فالمتكبر بجماله يمشي متبخترًا مختالاً مزهواً بنفسه ناظراً في عطفه متأملاً قوامه ومحاسنه ، متصوراً نفسه أجمل من في الكون ، ينظر إلى ذاته نظرة علو وإلى غيره نظرة دون ، وقد يكون هو الأدنى وهم الأعلو ، بل هو كذلك ، والدليل تكبره وخيلاؤه ، فما يتكبر إلا خسيس وضعيف أما الكريم الرفيع فلا يرضى لنفسه إلا التواضع خلق الملائكة المقربين ، وصفة الأنبياء والمرسلين ومن اقتدى بهم من عباد الله المخلصين ، وفقنا الله لأن نكون على نهجهم

سائرين ، ومعهم في أعلى عليين .

٢ - الفخر والتباهي بالنفس وصفات جمالها واستصغار الآخرين .

فمن شأن المتكبر بجماله أن يتفاخر ويتباهى بأوصافه التي يراها جميلة ، فهو مثلاً : يتفاخر ويتباهى باعتدال قامته ، واكتمال خلقتة ، وبهاء طلعتة ، وبياض بشرته ، ونعومة جلده ، ووضاءة صورته ، وعذوبة صوته ، وحلاوة منطقته ، وحوار عينيه ، واستقامة أنفه... ونحو ذلك ، مما يترأى له جميلاً وحسناً من صفاته الخلقية ، وفي المقابل لا يفتقر عن استصغار غيره وتحقيره وغمزه ونبزه له ببعض صفاته التي خلقه الله تعالى عليها ، وابتلاه بها ، كالقصر والعور والصمم والعرج والبرص والقرع... الخ ، يفعل ذلك جاهلاً بخطره العظيم عليه ، إذ كيف يسخر من صفات هي خلق الله تعالى ابتلاءً لبعض عباده وهو الحكيم الخبير ، وليست هي من ذات الإنسان وكسبه ، فالسخرية منها واستصغار البشر بسببها هي في الحقيقة سخرية من خالقها ومن قدره وحكمه وحكمته ، ومن أظلم ممن يفعل ذلك؟ وأي جناية جناها على نفسه بإساءته الأدب مع ربه جل جلاله؟

إن الهزء بعباد الله والتنقص منهم كبيرة من الكبائر التي يعظم خطرها وشرها .

هذه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفة أنها كذا وكذا ، تعني أنها قصيرة ، فيقول لها الرسول صلى الله عليه وسلم مريباً ومبيناً عظم ما قالت : « لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ »^(١) ، أي : لأنتنته وغيّرت ريحه^(٢) .

فإذا كانت أم المؤمنين رضي الله عنها جعلتها غيرة النساء تقول ذلك ، وما يُظن بأم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق إلا خيراً ، فما يظن بها أن تقول ذلك تكبراً واختيالاً ، إذا كان هذا ظننا بأم المؤمنين ومع ذلك يوجهها الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التوجيه الشديد ، فيبين لها صلى الله عليه

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في الغيبة ، عن عائشة رضي الله عنها

٢٦٩/٤ .

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١٣/٢ .

وسلم أنها قالت كلمة من الشر عظيمة من عظمتها أنها لومزجت بماء البحر
لكانت سبباً في فساده وتكدره وتنته وتغيره ، فكيف إذا بمن يقول ماهو أعظم
من ذلك وأدهى ، ويقول على سبيل التكبر والخيلاء على الآخرين والسخرية
بهم والاستهزاء؟

٣ - الإسراف في الملبس :

المتكبر بجماله من شأنه أن لا يلبس من الثياب ومختلف الملابس إلا
ما كان جديداً دائماً ، أما ما يلي فمن العار أن يعلو جسده ، وكذلك من شأنه
أن لا يلبس إلا ما غلا ثمنه ليباهي به ، وإلا ما كان مبرزاً للمحاسن والمفاتن ملفتاً
للأنظار ليتباهى به .

ولا يهتم المتكبر أن يلبس مافيه مخالفة صريحة لشرع الله عز وجل كأن
يكون طويلاً يجاوز الكعبين ، أو يلبس حريراً ، أو يلبس مايصلح للنساء فيكون
متشبهاً بهن ، فكل ذلك ممانهى الشرع عنه وتوعد عليه ، ولكن المتكبر
لا يبالي بذلك إرضاء لشهوة نفسه المتعالية .

٤ - الاهتمام الزائد بشعر الرأس :

من شأن المتكبر بجماله المبالغة في العناية بشعر رأسه فوق ماهو
مطلوب ومحمود ، حيث يبالغ في دهنه وتمشيطة وإطالته ويصرف في ذلك
الأوقات الطويلة والأموال الطائلة ، ولربما قصه بطرق فيها تشبه بمن لا خلاق
لهم في الآخرة من أعداء الله تعالى ، ثم هو يختال به ويزهو ، وهو أمر قد
استفحل وفشى وانتشر في أيامنا هذه بين الرجال والنساء ، فكم هم أولئك
الذين تشبهوا بأعداء الله تعالى في الشرق والغرب وقلدهم في أمور كثيرة ،
ومنهم قص شعورهم بطرق وعلى أشكال تخالف أوامر الشرع الحنيف ، بل
وتنفر وتتقزز وتتأفف منها النفوس السليمة والفطر المستقيمة والأذواق
الصحيحة؟ وكم هن اللاتي حاكين الكافرات الفاجرات ، فقصصن أشعارهن
وصففنها كقصهن وتصفيفهن؟ ومنهن من تقصه كالرجال حتى لتشبه الرجل ،
فلا يكاد يميز بينهما .

يفعلون ويفعلن ذلك بحجة التجميل ، والحقيقة أن البصير ليرى فيه
تشويهاً للجمال وتقبيحاً للحسن ، ولكن القوم فسدت أذواقهم واعتلت
مفاهيمهم ، وسفلت هممهم فغدوا لشرع الله مخالفين ، ولخلقه مشوهين ،

وبأعدائه متشبهين ، صم بكم عمي ، لا يعقلون الحق المبين ، ولا يميزون بين الدر والطين .

كل ذلك حصل ويحصل بسبب انقطاع أو ضعف الصلة بين العباد وبين ربهم تبارك وتعالى يوم أن هجروا كتابه الكريم ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وتركوا التربي عليهما ، وركنوا إلى غيرهما ، ففترقت بهم السبل ، وتشاعت الأهواء فضلوا عن سواء السبيل ، وبالعودة إليهما والنهل من سلسيلهما سيكون صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، فعسى الله تعالى بمنه وكرمه أن يقيض لأمتنا علماء صالحين مصلحين مريين ، يأخذ بأيديهم ويوفقهم للعودة بأبنائها إلى النبع الأصيل ليهدونهم بإذنه إلى صراطه المستقيم .

نعود إلى أساس حديثنا فنقول : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَنْمُو رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجَّلٌ جُمَّتْهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

فمن هذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث التي سبق ذكرها والتي ورد فيها النهي عن الاختيال وجر الثياب وإطالتها وكذلك العمامة على سبيل المخيلة نستشف مانستدل به على ماذكرته آنفاً من صفات التكبر بالجمال ، فالآيتان الكريمتان تنهيان عن المشي في الأرض على سبيل الخيلاء ، وكذلك الحديث الشريف ، ولا يفعل ذلك إلا مزهوٌ بنفسه معجب بماله من الصفات الحسنة ، والحديث الشريف قد أفصح عن ذلك فبين أن سبب ماحل بذلك الرجل من عقاب هو مشيه مختالاً معجباً بنفسه مزهواً بحلته التي لبسها وبجمته التي رجليها ومشطها ، فكان جزاء تعاليه واختياله أن خُسِفَ به ، فهو في الأرض يتسافل فيها كما كان يتعالى على ظهرها إلى يوم القيامة

٥ - الأنفة من أهل البلاء :

من شأن المتكبر بجماله أن يأنف من مخالطة ومعاشرة المصابين بالآفات والبلايا المختلفة ، ناظراً إليهم^{لل}بعين الرحمة والرفق والشفقة ، ولكن

بعين الاستخفاف والاستصغار ظناً منه أنه خير منهم ، وذلك الظن أرداه فهو من الخاسرين ، فالخيرية بالدين وفي دينه دخن ، إذ لو صفا دينه لما تكبر وتعظم ، واختال على غيره واستطال ، وكان من الخاشعين المخبتين الهينين اللينين ، الذين لربهم خاضعون مستكينون ، ولإخوانهم متذللون متواضعون ، وأولئك حقاً هم أهل الكرامة وأهل للإكرام ، وأولئك هم حقاً أهل الدرجات العلى ، وأهل الرفعة في الآخرة والأولى ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصاص: ٨٣] .

٦ - إخفاء المحاسن وإبراز المعاييب :

فمن شأن المتكبر بجماله أن يشتغل بإبراز معاييب الآخرين ، ويعمل جاهداً على إخفاء محاسنهم خاصة من كان مثيله أو أمثل منه في الجمال والحسن ، وهو يفعل ذلك لئلا يقال عن أحد إنه أجمل منه ، يريد بذلك دوام تعظمه واختياله بجماله .

وخلاصة القول : أن المتكبر بجماله يتصف بما يتصف به المتكبرون في أي صورة من صور التكبر ، وليست هذه الصفات المذكورة هاهنا هي كل صفاته ، بل هي كما بدا لي أقرب إليه من غيرها ، والله تعالى أعلم ، فعد إلى مبحث صفات المتكبرين ، فلعلي أكون قد ذكرت هناك من صفات المتكبرين ما فيه الغنية عن إعادته هنا ، وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المبحث الثاني : أسباب الكبر.

بعد معرفة دواعي الكبر ، وهي الأمور التي يكون بها التكبر ، نأتي الآن
لنتعرف على الأسباب التي جعلت المتكبر يتكبر بتلك الدواعي ، وهي إضافة
إلى الأسباب الخاصة التي ذكرتها عند الحديث عن دواعي الكبر كلاً على
حدة - تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - أسباب نفسية .
- ٢ - أسباب اجتماعية .
- ٣ - أسباب سلوكية .

أولاً : الأسباب النفسية^(١) :

مجموعة من الرغبات الجامحة تكمن داخل النفس البشرية ، هذه الرغبات النفسية إذا أطلق لها العنان فلم تهذب ، وتركت دون رقيب من إيمان يحكم قيادها ، انحرفت بالنفس عن الطريق السوي ، وألقتها في مهاوي الردى ، ذلك أنها تحجب البصيرة ، بل وتطمسها ، فلاتعد تبصر الحقيقة مهما بدت واضحة جلية ، وذلك لمخالفتها هواها ، وتعارضها مع رغباتها وشهواتها .

ومن تلك الرغبات الكامنة في النفس البشرية ثلاث رغبات تؤدي بها إلى الاستعلاء المقيت والاستكبار الذميم ، وهي :

أولاً : الرغبة بعدم الخضوع لأحد^(٢) :

تود النفس البشرية أن تظل حرة طليقة مستقلة بذاتها ، غير خاضعة لغيرها ، وقد تتوقف هذه الرغبة عند أدنى مداها -أي إرادة عدم الخضوع للمخلوق- وقد تمتد -عند البعض- حتى تبلغ أقصى مداها ، وذلك حينما يتمرد العبد المخلوق الضعيف العاجز الفقير على أوامر الملك الديان الخالق العظيم ، القوي المتين ، الغني العزيز الحميد ، ويستنكف عن عبادته ، ومن ثم جاء الوعيد الشديد من الحق سبحانه وتعالى للمستكبرين المستنكفين عن عبادته بأن لهم عنده العذاب الأليم ، لا يجدون لهم من دونه ولياً ولا نصيراً ، وبالمقابل جاء وعده سبحانه وتعالى للمؤمنين به الخاضعين العابدين له بأن يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

(١) ذكر هذه الأسباب النفسية الثلاثة التي نوردتها الدكتور عبد الرحمن حسن حينكة الميداني في كتابه "الأخلاق الإسلامية وأسسها" ١/٦٦٠، ٦٦٢ - ط الأولى

١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م ، دار القلم ، دمشق ، بيروت .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٠ .

أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿[النساء: ١٧٢، ١٧٥] .

لقد كانت الرغبة بعدم الخضوع لأحد من أكبر الدوافع لدى المكذبين لرسول الله الجاحدين لآياته ، التي تدفعهم للتكذيب والاستكبار .

يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيقول مبينا ما في نفوسهم من استعظام شأنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] ، جاء في الظلال : « لقد عظم شأنهم في نظر أنفسهم ، فاستكبروا وطفخوا طغياناً كبيراً... لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت في أعينهم وتضخمت وعظمت حتى ليحسبونهم شيئاً عظيماً في هذا الكون ، يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا ويصدقوا... »^(١) .

ونرى هذه الرغبة صريحة يعلنها فرعون وملأؤه المستكبرون عن الإيمان بموسى وهارون كما ذكر القرآن الكريم عنهم : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٧] ، إنهم هم الأمرون الناهون المتبوعون وقوم موسى لهم مسخرون خاضعون ، فكيف ينقلب الحال ويصبحوا تابعين خاضعين ، إن ذلك لا يكون حتى ولو كان الثمن التكذيب والاستكبار ، وكانت النتيجة الخزي والهلاك : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٨] .

ومن قبل قال الملاء المستكبرون من قوم نوح : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .

إنها نظرة قاصرة من القوم ، وذلك حسب قصور أنفسهم عن إدراك حقيقة الرسالة التي جاء بها نوح عليه السلام ، فلقد خافوا أن يتفضل عليهم نوح وتعلو منزلته على منزلتهم ، فيكون هو الأمر الناهي وهم له خاضعون ،

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٥٨ .

وهذا ما لا يريدون ، لذا ظلوا في طغيانهم يعمهون .

وخلفهم بعد هلكتهم قومٌ مدين ، فقالوا لنبي الله شعيب عليه السلام : ﴿ ياشُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [هود: ٨٧] ، يريدون : أنهم أحرار في عقيدتهم ، أحرار في أموالهم ، ولن يخضعوا لأحد يأمرهم بترك معتقد آبائهم ، وينهاهم عن التصرف في أموالهم حسب ما يشاؤون .

وينشأ عن هذه الرغبة شعور نفسي بالاستغناء الذاتي^(١) ، فمن يرغب في عدم الخضوع لأحد يداخله شعور مغرور كاذب بأنه مستغن بذاته لا يحتاج لأحد حتى ولو كان الله رب العالمين سبحانه وتعالى .

ويتعاضم هذا الشعور المغرور حتى يستولى على جوانب النفس ، فإذا استولى عليها وملك قيادها تولد عنه في سلوك المتكبر الطغيان^(٢) : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ . أُنْزِلَتْ آيَاتُنَا لِقَافٍ فَاسْتَكْبَرَ وَظَلَمَ لُطُفًا كَبِيرًا ، حَتَّى قَالَ قَوْلَهُ الْأَثْمَةُ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] ، وظن نفسه شيئاً فنادى في قومه متبجحاً : ﴿ يَاقَوْمِ أَإِلَهِىَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢] ، وحين كفر السحرة به وسجدوا لله رب العالمين قال لهم : ﴿ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَابَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [طه: ٧١] .

وكما ظن فرعون أنه مستغن بجاهه وسلطانه فبغى وطغى ، ظن قارون أنه مستغن بماله وعلمه فبغى ، وأكد استغناؤه بذاته بقوله لمن نصحه من قومه وأرشده إلى الخير وذكره بحق الله تعالى في ماله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] ، أي : لم أكن محتاجاً لأحد في وصول هذا المال إليّ ، بل أنا الذي جمعته وحصلته بجهدي وقوتي ، وذكائي وخبرتي ، وعلمي ودرايتي ، هذا ما قاله قارون موسى وما أكثر القواريين في زماننا هذا الذين

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٠ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٠ .

يقولون قوله!! فليحذروا من مصيره الذي آل إليه بسبب بغيه وطغيانه؛ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١] .

ذلك الشعور المغرور ، شعور المتكبر بالاستغناء بذاته ، هو الذي يجعل كل من تكبر بماله أو انتفش بسلطانه أو تعالى بعلمه أو تطاول بحسبه ونسبه ، هو الذي يجعل هؤلاء يحددون الحق ولا يقبلونه ، استعلاء بالباطل وتعظماً بغير حق ، فبئس ما يصنعون ، قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ، «أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ، (ظلموا وعلوا) أي : ظلموا من أنفسهم سجية ملعونة ، (وعلوا) ، أي : استكباراً عن اتباع الحق»^(١) .

ثانياً : الرغبة بالتفوق والامتياز على الآخرين ، والتقدم عليهم :

الرغبة بالتفوق والامتياز على الآخرين ، والتقدم عليهم ، وإرادة العلو في الأرض ولو بغير حق ، وينشأ عن هذه الرغبة شعور مغرور بالاستعلاء الذاتي^(٢) .

ينبغي أن يعلم أن إرادة التفوق والامتياز ، والرغبة في نيل المراتب المتقدمة والتطلع لعلو المنزلة مما فطر عليه الإنسان ، وهو في حد ذاته أمر لا شيء فيه ، بل إن المرء يحمد عليه إن طلبه من وجهه الصحيح ، وكان أهلاً ومستحقاً له ، فمثلاً : الطالب المجد الذي أسهر ليله وأتعب نفسه وحفظ وقته وجد وثابر ، ولم يقصر في التحصيل ، هذا الطالب من حقه أن يتطلع للامتياز ، ويرغب في التفوق ، ذلك أنه سلك الطريق الصحيح لنيل التقدم والامتياز ، لكن بقي عليه بعد ذلك أن يحافظ على تفوقه وامتيازته بالتواضع وعدم التكبر ، فالعز والعلو الحقيقي يكون في التواضع لله تعالى الوهاب المتفضل ، ولين الجانب لخلقه ، وعدم التكبر عليهم .

أما الطالب الكسول الذي أضاع وقته وقصر في الجد ، ونام عن التحصيل ، فليس من حقه ، بل ومن الظلم أن يطلب التفوق ونيل المراتب

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٠ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ٦٦٠ .

الأولى ، ذلك أنه طلبٌ للعلو بغير حق ، ومن يطلب العلو بغير حق فهو المتكبر المغرور .

ولو كشفنا الغطاء عن نفوس المتكبرين وأزحنا الستار عنها لتبين لنا أن مما يدفعهم إلى الاستكبار والاستعلاء رغبتهم في العلو في الأرض بغير الحق ، وإليك الأمثلة :

١ - نبدأ بالملأ أشراف قريش والعرب الذين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرد من حوله من ضعفاء المؤمنين وسخروا منهم ، وأرادوا أن يميزهم عليهم ويخصهم بمجلس خاص بهم أنفة واستكباراً أن يجلسوا إلى أولئك الضعفاء فيتساوا معهم ، وهذه هي قاصمة الظهر - بالنسبة لهم - إذ كيف يليق بهم أن يهبطوا من علوهم المزعوم إلى منزلة أولئك الضعفاء؟!

روى الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص^(١) قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : أطرده هؤلاء لا يجترؤن علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال^(٢) ورجلان نسيت أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] .

(١) سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري ، أبو إسحاق ، أحد العشرة ، وآخرهم موتاً . روى كثيراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وروى عنه جمع من الصحابة وكبار التابعين ، أحد الفرسان وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وهو أحد الستة أهل الشورى ، رأس من فتح العراق ، ولي الكوفة لعمر ، وهو الذي بناها ، كان مجاب الدعوة ، مات سنة إحدى وخمسين .

انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٨٣/٣ .

(٢) بلال بن رباح ، يكنى أبا عبد الكريم ، وقيل : أبا عبد الله ، وقيل : أبا عمرو . وأمه حمامة ، مولى أبي بكر الصديق ، وكان مؤذناً للرسول صلى الله عليه وسلم وخازناً ، شهد بدرًا والمشاهد كلها . وكان من السابقين إلى الإسلام ، وممن عذب في الله عز وجل فصبر . آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح ، وكان أول من أذن في الإسلام . مات سنة عشرين ، وهو ابن بضع وستين سنة .

انظر : أسد الغابة ٢٠٦/١ - ٢٠٩ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : مر الملاء من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب^(١) وبلال وعمار^(٢) وخباب^(٣) وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟! أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟! أنصير تبعاً لهؤلاء؟! اطردهم ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فنزلت هذه الآية^(٤) : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣] .

وروي عن خباب في قول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] ، قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم في نفر في أصحابه ، فأتوه

(١) هو : صهيب ابن سنان بن مالك النمري ، أبويحيى ، الرومي ، من السابقين إلى الإسلام ، وممن عذب في الله ، هاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر تلك السنة . شهد بدرًا والمشاهد بعدها . مات سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين سنة .

انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٢٥٤/٣ .

(٢) هو : عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة العبسي ، أبو اليقظان ، حليف بن مخزوم ، من السابقين وممن عذب في الله هو وأبوه وأمه سمية رضي الله عنهم ، هاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها ، ثم شهد اليمامة وبها قطعت أذنه . استعمله عمر على الكوفة . قتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين وله ثلاث وتسعون سنة .

انظر : الإصابة ٢٧٣/٤ .

(٣) هو : خباب بن الارت بن جندلة بن سعد التميمي ، مولى بني زهرة ، أبو عبد الله ، من السابقين الأولين ومن المستضعفين ، أول من أظهر إسلامه ، وعذب لأجل ذلك عذاباً شديداً ، شهد المشاهد كلها ، نزل الكوفة وبها مات سنة سبع وثلاثين . وعاش ثلاثاً وستين سنة .

انظر : الإصابة ٤١٦/١ ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢١/١ .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٠٠/٧ .

فخللوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبيد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً ، قال فدعا بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب ، ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبريل ، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] ، فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة من يده ، ثم دعانا فأتيناه^(١) .

ورؤي عن سعد قال : نزلته هذه الآية في ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ابن مسعود ، وقال : كنا نستبق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وندنو منه ، ونسمع منه ، فقالت قريش تدني هؤلاء دوننا؟! فنزلت^(٢) : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] .

وباء القوم بالخسران ، وعادوا يقولون باستعلاء وغرور ذميم عن المؤمنين : ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ، إنهم يقولون -وهم كاذبون- لو كان هذا الدين الذي جاء به محمد خيراً لكننا نحن السابقين إليه ، نحن ذووا المكانة وأصحاب الجاه والمقام ، فكيف يمن الله على هؤلاء الفقراء الضعفاء من بيننا ويتركنا؟! وكيف يهديهم إلى الخير قبل أن يهدينا؟

هذا هو ميزانهم الباطل الذي يزنون به القيم ، أما ميزان الحق سبحانه وتعالى فلا مكان فيه لهذه القيم الأرضية الصغيرة التي يتعاطم بها الناس في جاهلياتهم^(٣) ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فلا الغنى ولا الجاه ولا المكانة الاجتماعية هي التي ترفع قدر الإنسان وتعلي شأنه ، إنه الإيمان وحده ، به يكون التفاضل وعلى أساسه يكون التمايز ، ولهذا فقد كرم سبحانه وتعالى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٢٩٧/٤ ، حديث رقم ٧٣٣١ ، وأخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٠١/٧ .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه ، وقال ؛ حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . انظر : المستدرک ٣١٩/٣ .

(٣) في ظلال القرآن ١١٠١/٣ .

أولئك الضعفاء وأعلى قدرهم ، لإيمانهم وطاعتهم ، فنهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم استجابة لطلب الكبراء وتحقيقاً لرغباتهم ، كما أمره أن يصبر ويجلس معهم ، لا يتركهم ليجلس إلى أولئك الغافلين عن ذكره المتبعين أهواءهم ، فقال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] .

وكرم الله تبارك وتعالى أولئك الضعفاء المؤمنين غاية التكريم ، حينما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتدئهم بالسلام ويشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم^(١) ، : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

٢ - ولم يكن هذا الأمر من مستكبري قريش بدعا ، بل لقد حذوا في ذلك حذو المستكبرين من الأمم السابقة لهم ، فها نحن نقرأ ماسطره القرآن الكريم عن الملاء المستكبرين من قوم نوح الذين سخروا من المؤمنين به ووصفهم بالأراذل ، أي : ناقصي المكانة ، كما وصفوهم بالسفه في الرأي وخفة العقل ، وطلبوا من نوح عليه السلام أن يطردهم وقالوا : ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِلْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] .

هذه الصورة من الكبر هي صورة الكبر الطبقي ، إذ يرى ذووا الرياسة والجاه والمال والحسب أن لهم الفضل على غيرهم ، وأنهم أعلى منزلة وأرفع مقاماً ، فيترفعون عن مجالسة الضعفاء ، ويغمزونهم ويلمزونهم ، ويسخرون منهم ، ولا يقبلون الحق إن صدر عنهم ، وهي صورة قائمة تتكرر صباح مساء ، نراها ماثلة أما أعيننا في ذلك الذي يفتخر بجنسه ويراه أعلى الأجناس ، فتراه وتسمع فخره به ، ونبزه لأصحاب الأجناس الأخرى بأجناسهم ، يقول لهذا : ياهندي ولذاك يامصري ولآخر يايمني ، وهكذا ينبز كلا بجنسه انتقاصاً لهم واستعلاءً بجنسه عليهم .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٤٠/٢ .

وتمثل أمامنا هذه الصورة القائمة للكبر في من يفتخر بلونه ويتنقص غيره لسواد بشرته أو لبياضها ، ويتطاول عليه وينبزه بلونه الذي خلقه الله عليه .
وإنها لموروث الجاهلية الضالة التي جاء الإسلام ليظهر النفوس منها ، ويخرجها من ظلماتها الكالحة إلى نوره الساطع ، ولذلك يوم أخطأ الصحابي الجليل أبوذر الغفاري^(١) - رضي الله عنه وأرضاه - على بلال بن رباح رضي الله عنه وأرضاه ، وقال : يا بلال ، أدبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « طف الكيل ، أتعيره بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » ، قال أبوذر : على ساعتني هذه من كبر السن ؟ قال : « نعم ، هم إخوانكم »^(٢) ، يذكره صلى الله عليه وسلم بحقوق الإخوة والتي منها ، « إلغاء فوارق اللون والعرق واللغة والطبقة الاجتماعية »^(٣) مبيناً له صلى الله عليه وسلم أن التفاخر باللون وبسواه هو من خصال أهل الجاهلية ، وقد وبخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أباذر بهذا مع عظيم منزلته من الإيمان ، وإنما وبخه بذلك تحذيراً له عن معاودة مثله ؛ لأنه وإن كان معذوراً بوجه من وجوه العذر ، لكن وقوع ذلك من مثله يستعظم أكثر ممن هو دونه^(٤) .

ولأن خير الخطائين التوابون فقد ندم أبوذر رضي الله وتاب وبلغ من توبته أن طلب من بلال رضي الله عنه أن يطأ على وجهه استرضاءً له مما عيره به من سواد أمه^(٥) ، وحتى يكسر شوكة نفسه فتسمو عن صفات الجاهلين .

(١) اختلف في اسمه والمشهور أنه : جندب بن جنادة ، قيل : كان إسلامه بعد أربعة ، وانصرف إلى بلاد قومه ، فأقام بها حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ومضت بداراً وأحداً ولم تتهياً له الهجرة إلا بعد ذلك ، وكانت وفاته بالرَبْذَة سنة إحدى وثلاثين ، وقيل في التي بعدها وعليه الأكثر . انظر : الإصابة ٦٢/١ .

(٢) الحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب المعاصي من أمر الجاهلية ٧٨/١ ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب إطعام المملوك مما يأكل ١٢٨٢/٣ ، ١٢٨٣ .

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٦٩٠/١ .

(٤) انظر : فتح الباري ١١٦/١ .

(٥) انظر : المصدر السابق ٦٩٠/١ .

ثالثاً : الرغبة بإخفاء ما يشعر به المتكبر من نقص في ذاته^(١) أو في عمله :

إحساس المتكبر وشعوره بالنقص في ذاته أو في عمله يجعله يسلك طريق التكبر والتعالي رغبة منه في إخفاء هذا الإحساس ودفن هذا الشعور ، وذلك حتى لا يكشف الناس نقصه فيصغر في أعينهم وهو حريص أن يكون في أعينهم كبيراً ، ولكنه سلوك غبي منه به يفضح نفسه لا يسترها ، ويكشف نقصه وعيبه لا يخفيه ، وبه ينحط قدره لا يعلو ، إذ بتكبره وانتفاخه يوجه إليه الأنظار وترمقه الأعين ، فيتبين لها ما يحاول أن يخفيه بتعاليه واستكباره من نقص وعيب ، وعندئذ يحتقر ويستصغر ويفقد حب الناس وتقديرهم بعد أن حرم من محبة الله عز وجل والتي لا ينالها المتكبرون ، قال تعالى : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِيبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] .

وكان الأجدر به إذا أراد أن يستر نقصه وينال محبة الله تعالى وحب خلقه وتقديرهم أن يتواضع ويستكين ويلين جانبه ، فالتواضع ولين الجانب طريق للعزة والسمو ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إن العبد إذا تعظم وعدى طوره ، وهصه الله إلى الأرض ، وقال : إخصأ خسأك الله ، فهو في نفسه كبير ، وفي أنفاس الناس صغير ، حتى لهو أصغر عند الناس من خنزير^(٢) » ، وفي الحديث : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةٌ رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةٌ وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ^(٣) » ، وفي الحديث الآخر : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦١ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩/٩٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر ، وقال البوصيري : انفرد به عن الكتب التسعة ، وفي إسناده دراج بن سمعان أبو السمع البصري ، وفيه خلاف ، وثقه ابن معين وأبوداود وغيره ، وقال ابن عدي في الكامل : « أحاديث <=

فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(١) .

دراج مما يتابع عليه» ، وضعفه أبوحاتم والنسائي والدارقطني .
انظر : سنن ابن ماجه وبهامشه كفاية الحاجة ٥٥٧/٢ ، وأخرجه أحمد في مسنده
٧٦/٣ .

(١) أخرجه الإمام أحمد ١١٨/٢ ، قال أحمد شاكر : «إسناده صحيح ، وهو في الأدب
المفرد ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٨/١ ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال
الصحيح ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٥٦٩/٣ ، وقال : رواه الطبراني
في الكبير ورواته محتج بهم في الصحيح والحاكم بنحوه ، وقال : صحيح على
شرط مسلم» .

انظر : مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر ١٩٢/٨ .

ثانياً : الأسباب الاجتماعية

يعد الكبر من الأخلاق التي لها نوازع فطرية في نفس الإنسان ، مثل حب التسلط والتملك والعلو وإرادة التميز وغيرها ، فالإنسان بطبعه يحب ذلك لكنه إما أن يتربى ويتهذب فيطلب ما يستحقه ويهذب هذه النوازع النفسية فلا تميل به إلى التكبر والخيلاء ، وإما أن تبقى هذه النوازع بلا توجيه وتعديل وتقويم وتهذيب فتجرح به إلى بطر الحق وغمط الخلق في سبيل تحقيقها ، وذلك هو التكبر .

والمجتمع بشقيه الصغير المتمثل في الأسرة الواحدة ، والكبير الذي يتعدى نطاقها له دوره البارز في إثارة هذه النوازع النفسية أو توجيهها وتقويمها ، إذ كل إنسان يكتسب من مجتمعه الذي ينشأ فيه معارف ومهارات وعادات وأخلاقاً كثيرة منها ما هو حق وصالح ، ومنها ما هو باطل وفاسد^(١) .

ومن هنا فالكبر من الأخلاق الفاسدة التي للمجتمع بشقيه دوره المهم في تنميته وإظهار ما كمن منه في نفس الفرد الذي يعيش فيه .

ونبدأ بالمجتمع الصغير فنقول :

إن أهم عضوين في الأسرة هما الأب والأم ، وغير خاف ما للآباء والأمهات من تأثير بالغ على أبنائهم سلباً وإيجاباً ، فهما نقطة البداية والانطلاقة في العملية التربوية ، وأكبر مؤثر فيها ، وعليهما مدارها ، إذ يفتح المولود عينيه فيرى أول ما يرى والديه ، ويسمع أول ما يسمع كلامهما ، ويتلقى أول ما يتلقى منهما ، ثم بين أيديهما يشب ويتزعرع وعلى عينيها يصنع .

وهكذا فالوالدان هما واضعا اللبنة الأولى والأهم في تكوين شخصية ولدهما وتحديد معالم سلوكه ، حيث يتلقفانه صفحة بيضاء ، فيكتبان وينقشان في قلبه الغض وفؤاده الطري ما يريدان ويريان من المعتقدات والأخلاق والسلوكيات ، فيشب ويكبر على ذلك الأساس متشعباً بمماربي عليه من تلك المعتقدات والسلوكيات .

هذا ما بينه المعلم والمربي الأمثل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية ١/٧٥٦ .

بقوله : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاقرءوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] »^(١) ، ومعنى الحديث : أن كل مولود من بني آدم يولد على الفطرة السليمة المستقيمة ، وهي دين الإسلام ، فإن ترك وما ولد عليه ، لم يعدل عنه إلى غيره ، ويوم أن ينحرف عنه إلى غيره فإن ذلك الانحراف ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه ، بل حصل له بسبب خارجي لو سلم منه لاستمر على الحق^(٢) .

والسبب الخارجي الأعظم الذي يعترض طريق هذا المولود فينحرف به عن فطرته هو ما بينه الرسول الله صلى الله عليه وسلم هنا بقوله : « فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » ، فالوالدان إذا هما السبب في انحراف المولود عن الإسلام إلى الكفر ، إما بتعليمهما إياه أو بترغيبهما فيه^(٣) .

ولزيادة بيان وتوضيح هذا الأمر فقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم له مثلاً ، وذلك حين شبه المولود يولد على الفطرة بالبهيمة تولد سليمة لم يذهب من بدنّها شيء حتى يكون أهلها يفعلون ذلك ، فلا تكن مثلاً جدعاء ، أي : مقطوعة الأذن حتى يفعل بها ذلك أهلها .

وكذا المولود يولد على الفطرة المستقيمة لكنه لا يبقى عليها إلا إذا كان أبواه مستقيمين عليها ، لأنهما سيرضعانه إياها ويربّيانها عليها ، أما إن كان أبواه منحرفين عنها ، فسينشأ على دينهما ، ويشب على معتقدهما ، لأنهما سيربّيانها عليه وسيعلمانها إياه .

إذاً فالحديث الشريف يبين عظم الأثر الذي يتركه الوالدان على ولدهما حتى إنهما لينحرفان به عن فطرته السليمة المستقيمة التي فطره الله تعالى وفطر

(١) الحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ ٥٧٦/٢ .

وأخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤ ، ٢٠٤٨ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه .

(٢) انظر : فتح الباري ٣/٣١٧ .

(٣) انظر : فتح الباري ٣/٣٢٠ .

الناس جميعاً عليها ، كما قال تعالى في معرض الأمر لنبه عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] .

فإذا كان للأبوين هذا التأثير على الابن في باب الدين والعقيدة ، فكذلك يكون تأثيرهما عليه في باب السلوك والأخلاق ، فالأب والأم ذا الخلق الفاضل والسلوك السوي ستكون ثمرتهما للأمة عضواً فاضلاً مستقيماً نافعاً غير ضار ، والأب والأم ذا الخلق الفاسد والسلوك المنحرف لن يخرجاً للأمة إلا مسخاً منهما ، حنظلة مرة لانفع فيها .

وكذلك الأبوان المهملان في تربية أبنائهم على الخلق القويم - وإن كانا غير منحرفين - سيكون إهمالهما هذا سبب في انحراف أبنائهم عن جادة الحق وسبيل الرشاد .

ومن ثم فإننا نرى بعض الصور التي تبعث في النفس الأسى والحزن من خلال صور أبناء بعض أهل الالتزام المعروفين بالدين والاستقامة ، حيث نرى أبناءهم في سبيل غير السبيل الذي سلكوه ، وذلك سببه التقصير والإهمال في متابعة هؤلاء الأبناء تربوياً وترك الحبل لهم على الغارب ظناً من أولئك الآباء أن الابن قد لا يتأثر أو لا تضره عوامل ومشاهد الانحراف التي يراها في مجتمعه ، ونتيجة هذا التقصير في هذا الجانب وانشغال الآباء بأنفسهم أو بأمور أخرى عن متابعة أبنائهم تربوياً ، نشاهد هذا الخلل في صور كثير من هؤلاء الأبناء ، وذلك على مدى رقعة العالم الإسلامي ، مما نتج عنه عدم استطاعة الأمة النهوض من كبوتها والقيام من عثرتها حتى الآن .

وما نريد أن نستفيده مما سبق ونخلص ونصل إليه هو أن التكبر من أعظم وأقبح السلوك المنحرف الذي يكون للأبوين دورهما في بروزه ونمائه لدى ولدهما ، وذلك بطريقتين هما : الوراثة ، والتقليد ، وسوء التربية ، وسنعرض لها بشيء من التفصيل .

السبب الاجتماعي الأول : الوراثة والتقليد :

بعد أن عرفنا من خلال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنف الذكر ، مالوالدين من أثر بالغ على ولدهما عقيدة وسلوكاً ، نصل إلى القول بأن الإنسان -إلا ما شذ- هو ابن أسرته وبيئته التي يعيش وينشأ فيها على أخلاقها ومعتقداتها وعاداتها يتربى ويشب ، وذكرنا سابقاً أن الأبوين هما الأصل والمنطلق في العملية التربوية للابن .

ومن هنا فقد يولد إنسان في أسرة عرفت واشتهرت بالتكبر والتعالي ، يتوارث ذلك أبنائها عن بعضهم البعض جيلاً بعد جيل ، كما يتوارث غيرهم أي خلق آخر ممدوحاً كان أم مذموماً ، كالتواضع والسكينة والشجاعة أو البخل والشح والجبن... ونحوها .

هذا الإنسان الذي يولد وينشأ في هذه الأسرة المتعالية المتكبرة ووسط هذه البيئة المتعاطمة غالب أمره أن يصاب بهذا الداء الخبيث فينشأ متكبراً وارثاً الكبر عن أبويه وعمن حوله من أقاربه وأبناء أسرته ، أو محاكياً ومقلداً لهم في ذلك .

وكيف يسلم من الكبر من يشب يراه في خلق والديه وأقاربه يراه في أقوالهم وأفعالهم ، ويراه في حركاتهم وسكناتهم ، ويراه في سلوكهم وتعاملهم مع الناس من حولهم؟

كيف يسلم من الكبر من يشب وسط أسرة تتفاخر وتتباهى وتتعاظم وتزهو بمالها من حسب ونسب أو بما تملك من جاه وسلطان ، أو بغير ذلك مما يتفاخر به ويعتز أهل القيم الدنيوية الرخيصة؟

كيف يسلم من الكبر من يعيش وسط أسرة ترى نفسها فوق الآخرين فتتعالى عليهم وتنتقص من شأنهم وتحط من أقدارهم؟

كيف يسلم من الكبر من يُغرس فيه الكبر غرساً؟ يقال له : أنت من بني فلان الذين فعلوا وفعلوا ، وكان لهم من الأمجاد كذا وكذا ، أنت ابن فلان سليل الشرف والعز ، صاحب الجاه العظيم مالك المال الكثير ، حامل الشهادات العالية ، يجب ان ترفع برأسك وتشمخ بأنفك فلا أحد يساويك أو يدانيك ، أترك مصاحبة فلان ، ولا تحط من قدرك بمجالسة علان ، فأين هم منك ، وأين حسبهم من حسبك ، ونسبهم من نسبك؟ فأنت أحسن منهم

نسبا ، وأغرق جاهاً وأصالة ، لايدانيك منهم أحد ، وإنما هم في مقام الخدم لك ، فلاتتدنى بنفسك لمخالطتهم أو مؤانستهم ، بل وحتى تحية الإسلام لاتبدأهم بها وإن بدءوك فلك الخيار في ردها من عدمه .

وعليك أن تظهر وتبرز من نفسك في أقوالك وأفعالك وسائر أحوالك مايدل على تميزك على غيرك وعلوك عليه ، ممن هو ليس من أبناء جنسك أو وطنك أو مجتمعك أو ممن ليس من أصلك وفصلك ، فلايكون منك تواضع ولين لهم ولاسؤال ولاجلوس إليهم ، بل عليك أن تأنف حتى من وقوفهم معك في الصلاة متحرياً أن تقف بجانب من يشبهك قوة في النسب والقبيل والبلاد والجاه والمال .

فمثل هذا الذي ينشأ على مثل هذه المفاهيم الخاطئة والتربية المنحرفة مصيره أن ينال حظه من هذا الداء الخبيث داء التعالي والكبرياء ، وقد نجده ينشأ مزدوج الشخصية ، غريب الأطوار والسلوك ، فهو على من هو أضعف وأقل منه قارون زمانه وفرعون عصره ، ولكنه أمام من يحس بحاجته إليه أو بتفوقه عليه عبد يرتمي تحت قدميه ، فبعداً وسحقاً لهؤلاء الأشباه .

فالوراثة والتقليد إذا سبب من الأسباب الاجتماعية التي تعمل على إيجاد المتكبر وتساعده على إظهار ما كمن في نفسه من الكبر ، وهو أمر مشاهد ومعلوم ، فكم من أسرة وبيئة قرأنا أو سمعنا عنها ، بل وعرفناها يتوارث الكبر أبناءؤها ويظهر على سلوك صغيرهم وكبيرهم محاكين في ذلك ومتبعين ومقلدين آباءهم .

ولو عدنا إلى كتاب الله تعالى لوجدناه يقص علينا قصص الحق ويخبرنا خبر اليقين أن وراثة الآباء وتقليدهم واتباعهم كان من أعظم أسباب كفر الكافرين ، واستكبار المستكبرين عن اتباع الحق المبين ، والإيمان بالله تعالى وبأنبيائه والمرسلين .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . قَالَ أُولَٰؤُاْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ

وحاصل القول في هذا السبب الاجتماعي ومن منطلق هذه الآية الكريمة أنه ليس خاصاً بالأسرة الصغيرة، لكنه البداية ليشمل بعد ذلك المجتمع كله كما قد تبين ذلك من خلال قصص المتكبرين في القرآن الكريم، وكيف أن الخلف منهم اتبعوا السلف وورثوا منهم ذلك الخلق الذميم وحاكوهم فيه .

السبب الاجتماعي الثاني : سوء التربية :

إذا وجد المتكبر وانحدر من أسرة لم تعرف بالكبر أو تذكر به فلا يمكننا في هذه الحالة أن نقول : إنه ورث الكبر عن أسرته ، ولكن يمكننا القول : إن الإهمال وسوء التربية من تلك الأسرة كان له دروه المؤثر في مساعدة ذلك المتكبر على تنمية وإبراز ما كمن من الكبر في نفسه ، بمعنى أن البناء التربوي كان هشاً على غير ما ينبغي أن يكون ، وحدثت فيه أخطاء أدت بذلك المتكبر إلى أن يسلك هذا المسلك المنحرف .

وأبرز تلك الأخطاء على مابدا لي والله تعالى أعلم هي كالاتي :
أولاً : عدم توثيق صلة الابن بربه وخالقه سبحانه وتعالى وذلك من خلال هذه الصور :

أ - الإهمال في تعويده منذ نعومة أظفاره على أداء فرائض الإسلام ، وتربيته على القيام بها على الوجه اللائق ، لاتقليداً ومحاكاة ، بل رجاء رحمة الله وخوفاً من عذابه عز وجل .

وأعظم الفرائض التي يجب تربية الابن عليها هي الصلاة عماد الدين وركنه الثاني بعد الشهادتين ، وأجل وأعظم مايصل الإنسان بربه ومولاه جل جلاله .

فينبغي أن يحافظ الآباء على هذه الصلاة ، وأن يقوموا بها خير قيام ، وأن يربوا أبناءهم عليها طاعة لله تعالى ، فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] .

وقد ذكر في معنى الآية وكيف يقي الإنسان أهله نار جهنم أقوالاً عن

جماعة من الصحابة والتابعين^(١)، ملخص هذه الأقوال ومفادها أن على الإنسان أن يلزم تقوى الله تعالى، وأن يؤدب أهله ويعلمهم ما فرض الله تعالى عليهم ومانهاهم عنه، فيأمرهم بالقيام بأمر الله وينهاهم ويزجرهم عن معصيته ويعينهم ويساعدهم في الحالين^(٢).

قال ابن كثير -عليه رحمة الله- وفي معنى الآية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: «مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ وَإِذَا بَلَغَ عَشَرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا»^(٣)، قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعاصي وترك المنكر^(٤).

إن الصلاة من أعظم ما يصل العبد بسيده، والمخلوق بخالقه سبحانه وتعالى، وبالتالي إذا أقامها الإنسان على الوجه الصحيح فإن سلوكه سيستقيم، وخلقه سيتهدب، ونفسه ستزكو، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي: «مواظبتها تحمل على ترك ذلك»^(٥)، وذلك لما فيها من الموعظة بقراءة القرآن، ولأنها تشغل بدن المصلي كله فإذا دخل فيها وخشع وأحبت لربه وتذكر أنه واقف بين يديه وأنه يراه ومطلع عليه صلحت ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، فلا يأتي الفحشاء من هذا حاله^(٦).

(١) منهم علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير ابن كثير ٤/٤١٧.

(٣) أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه عن جده مرفوعاً، وأخرج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع». انظر: سنن أبي داود ١/١٣٣.

وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي على شرط مسلم. انظر: المستدرک ١/٢٥٨.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٤١٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٤٢٥.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/١٣، ٢٣٠، ٢٣١.

جاء في الظلال عند ذكر هذه الآية : « (وأقم الصلاة) إن الصلاة حين تقام تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فهي اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها ، وهي تطهر وتجرد لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما »^(١) .

ولعظم أمر الصلاة أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأمر أهله بها والاصطبار على القيام بها ، فقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢] .

وامتدح الله نبيه إسماعيل عليه السلام بأمره لأهله بالصلاة فقال : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥] .

إذا حين يأمر الله تعالى بالقيام بالصلاة وبأمر الأهل ومنهم الأبناء بذلك ، وحين يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الآباء أن يعلموا أبناءهم الصلاة ويأمرهم بها إذا بلغوا سبع سنين ، وأن يضربوهم على التقصير فيها إذا بلغوا عشر سنين ، فإن الله تبارك وتعالى ونبيه صلى الله عليه وسلم يريدان بهم جميعاً الخير كل الخير ، فعليهم الامتثال لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكن الملاحظ وأعني في أزمنتنا هذه خاصة ، أن الآباء معظمهم مقصرون في هذا الجانب كثيراً ، فأصبح كثير منهم لايهتم بأمر الصلاة في ذات نفسه فضلاً عن أن يربي عليها أبنائه ، بل الطامة الكبرى أن تجد من الآباء من يطلب منهم أبنائهم إيقاظهم للصلاة إذا ناموا فلا يفعلون بحجة الرحمة بهم والشفقة عليهم ، فلا يودُّون أن يُقْلَقُوا راحتهم ويزعجوا هناءهم ، وبئست الرحمة والشفقة هذه!! ألا رحموهم وهم يقبعون أمام أدوات اللهو الباطل المحرم الساعات الطوال ، يرون ويسمعون ويقرءون مايهدم الدين والأخلاق ويقتلعهما من جذورهما؟ وأفلا رحموهم وهم يصادقون من لاخير فيهم فيجلسون إليهم الأوقات الطويلة ويتعلمون منهم مايوردهم موارد الهلاك في الدنيا قبل الآخرة؟

إن الرحمة الحقيقية بالأبناء تكون في تربيتهم على طاعة الله تعالى والقيام بفرائضه وامتثال أوامره والوقوف عند حدوده لينالوا بذلك رضاه وينجوا من سخطه وعذابه ، أما أن يُرَبَّوا على غير ذلك فهو غاية الضرر بهم ، ومنتهى

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٨ .

الظلم لهم ، من حيث لا يشعرون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
ما أودّ أن أقوله بعد هذا هو : إن الصلاة تزكي النفوس وتطهرها من كل
فحشاء وكل منكر وتغرس فيها كل خير ومعروف ، ومن أعظم المنكر
والفحشاء الذي تطهر الصلاة منه نفوس المصلين الكبر والخيلاء .

ففي الصلاة ذل وسكينة وخضوع وخشوع وإخبات لله رب العالمين ،
فالقلب خاشع والعين دامعة ، واللسان له ذاكرة وبحمده لاهجة ، والأعضاء
والجوارح بين يديه راکعة ساجدة ، والجباه والأنوف له على التراب راغمة ،
والظهور لعظمته منحنية .

وكل شيء في الصلاة يوحى للعبد المصلي بضغفه وقلة حيلته ، وعظمة
وعزة مولاه ومالكة ، فيعلن خضوعه وإخباته واستكانته له جل جلاله وعز ثناؤه
وتقدست أسماؤه .

وفي الصلاة إشعار للإنسان بمساواته لإخوانه في دينه فقيرهم وغنيهم
أميرهم ومأمورهم ذكرهم وإنائهم ، فالجميع من أصل واحد ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] ، والجميع خلقوا لشيء واحد ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، والجميع مصيرهم واحد ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ
ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] ، ثم يكون الموعد واحداً ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
تُبعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦] ، وهناك تجازى كل نفس بما كسبت ، فيحصل التمايز
والتفاضل ، فريق في الجنة يُنادون : ﴿أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] ، وفريق في السعير ، يُكبَّتُونَ بالقول ﴿فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] .

عندما يشعر المرء بمساواته لإخوانه الذين يصفون أقدامهم إلى قدميه بين
يدي ربهم ، ويضعون جباههم على الأرض بجوار جبهته سُجداً لله ، ويحنون
ظهورهم كما يحنى ظهره رُكعاً لله ، فإنه لن يتعالى عليهم ، بل سيلين
ويتواضع لهم .

وعندما يعلم أن النار مأوى المتكبرين ويتيقن ذلك ، فسينفذ بجلده ولن
يتكبر إنقاذاً لنفسه من عذاب السعير .

نخلص أخيراً إلى أن إهمال تربية الأبناء على المحافظة على الصلاة والقيام بها وتعميق آثارها في نفوسهم يجعل صلتهم بالله تبارك وتعالى منقطعة ، ومن تنقطع صلته بالله تعالى فلا عجب إن انحرف عن الطريق السوي إلى غيره المعوج تحت أية صورة من صوره ، والتي منها التكبر والخيلاء .

وكذلك الشأن في سائر فرائض الإسلام ينبغي أن يربى الأبناء وينشأون عليها ، فكلها مطهرة للنفوس من التكبر والخيلاء ومن أي انحراف آخر متى ما أقيمت على الوجه الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى ، فيجب على الآباء تربية الأبناء على القيام بها وتعظيمها ، وقبل ذلك يجب عليهم أن يكونوا هم القدوة والأسوة لهم في هذا الشأن ، وبالله التوفيق .

وثمة أمر ينبغي أن نلاحظه ولا يغيب عن أذهاننا ونحن في هذا الصدد ، وهو أننا لم نخص الصلاة بمزيد ذكرها هنا إلا لأن من أعظم آثارها إذا أقيمت كما ينبغي ، قيام العبد بأداء الفرائض والواجبات الأخرى التي فرضت وأوجبها عليه ربه الحكيم العليم ، وابتعاده عن سائر الفواحش التي نهاه تعالى عنها .

ولهذا فإن الله تعالى حين أمر بإقامة الصلاة أتبع ذلك ببيان أثرها على حياة مقيمها ، فقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

وحين نتبع النصوص القرآنية والنبوية حين الأمر بالصلاة نجد أنها كثيراً ما تقرن الصلاة بالزكاة ، وهذا أمر له مدلوله ، وهو أن الإسلام لا يربي أتباعه على أن يعيشوا لأنفسهم وخاصتهم ، بل يربيهم على أن يعيشوا لأنفسهم ولغيرهم .

فإذا كانت الصلاة هي مسئولية المسلم فيما بينه وبين ربه ، وهي تعني غاية الخضوع والخشوع والذل والإخبات والتواضع له سبحانه وتعالى ، فإن الزكاة هي مسئوليته في الإحسان فيما بينه وبين خلق الله ، وهي تعني التواضع لهم بإعطائهم حقوقهم ، فإن المتكبر بخيل مختال ، يمنع أصحاب الحقوق حقوقهم ، ولهذا فقد ورد الجمع بين البخل والخيلاء في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ

كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا . الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿ [النساء: ٣٦، ٣٧] .

هذان المعلمان العظيمان ، إحصان العبد فيما بينه وبين ربه ، وإحصانه فيما بينه وبين الخلق اشتملت عليهما النصوص الشرعية عند ذكر الصلاة والزكاة ، وعند ذكر الثناء على المؤمنين ، وهذه أمثلة على ذلك :

١ - قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠١] .

فلو أن النص القرآني الكريم وقف بعد تحديد صفات هؤلاء المؤمنين عند قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ، لأمكن لقائل أن يقول : إن الإسلام يربي أصحابه على مسئوليتهم الخاصة التي لا تتعدى نطاق الاهتمام بالنفس ، ولكن لما ذكر الصفة التالية في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، دلّ على أن مسئولية المسلم تتعدى نطاق المسئولية الخاصة ، فهو مطالب بهذا وذاك^(١) .

٢ - وهذا المدلول قد جاء عند ذكر صفات المؤمنين في أول سورة المؤمنون^(٢) ، وأواخر سورة الفرقان^(٣) ، وفي سورة المعارج^(٤) ، وفي كثير من نصوص القرآن الكريم .

فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتواضع وأداء الأمانات وحفظ الفروج والإعراض عن اللغو والإحسان إلى المساكين واليتامى ، وعدم الإسراف ، وعدم البخل ، وإتيان كل حسن ، وترك كل سوء ، هي من صفات المؤمنين الذين أمرهم الله تعالى بها وامتدحهم عليها ، وتدل كل الدلالة على أن الإسلام يربي أصحابه على الإحسان فيما بينهم وبين ربهم ، والإحسان فيما بينهم وبين خلقه .

(١) مستفاد من توجيهات د/سليمان الصادق ، أثابه الله .

(٢) من الآية رقم ١ وحتى الآية رقم ١١ .

(٣) من الآية رقم ٦٣ وحتى الآية رقم ٧٧ .

(٤) من الآية رقم ١٨ وحتى الآية رقم ٣٥ .

٣ - ومن الحديث الشريف الدال على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «بُنيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(١).

فالصلاة والزكاة ركنان من أركان الإسلام التي لا يقوم بناؤه إلا بإقامتها، والصلاة تعني الإحسان فيما بين العبد وربّه، والزكاة تعني الإحسان فيما بين العبد وإخوانه، ولذا كانتا قرينتين لا تفترقان في معظم النصوص الشرعية الواردة بشأنهما، ومن هنا وقف الصديق أبوبكر رضي الله عنه وأرضاه ذلك الموقف الحاسم من الذين امتنعوا من أداء الزكاة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»^(٢).

ودائماً تقدم الصلاة على الزكاة في النصوص الشرعية، وذلك لأنها حق الله تعالى، بينما الزكاة حق العباد، فيقدم حق الله تعالى على حق العباد، وكذلك لأن الزكاة أثرٌ من آثار إقامة الصلاة على وجهها، وكذا بقية فرائض الإسلام وشرائعه كما سبق وأشارت إلى ذلك.

لذا كان من الواجب تربية النفس والأهلين على القيام بفرائض الإسلام وتعميق آثارها في النفوس، حتى يبقى الإنسان محسناً فيما بينه وبين ربّه، ومحسناً فيما بينه وبين الخلق، في غاية الذل والخضوع لربّه، وغاية اللين والتواضع لإخوانه، وبهذا تستقيم الحياة وتحسن في الدارين.

ب - عدم تربية الأبناء على حب الله تعالى، والخوف منه، وتعظيم أوامره ونواهيه، فالابن قد يسيء فيكذب ويشتم ويلعن ويسخر ويغتاب ويؤذي ويتكبر ويقصر في الحقوق والواجبات، وقد يحسن فيصدق ويتواضع ويحافظ

(١) الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس ١/٦٧، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب أركان الإيمان ودعائمه العظام ١/٤٥.

(٢) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/٥٩٣، وفي كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٩/٧٤٨، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/٥١.

على جميل الأخلاق وحميد الخلال ، ويؤدي ما عليه من حقوق وواجبات ، قد يفعل هذا وهذا فلا يجد في الحالين الموجه له التوجيه السديد ، بحيث يربطه بربه تبارك وتعالى مينا له أن فعله الخير يرضاه الله له ويحبه منه ، ويثيبه عليه ، لأنه هو الذي أمره به ، وأن فعله السوء حرام ، لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه ، وسيعاقبه على فعله ، لأنه قد نهاه عنه وحذره منه .

فإن وجد هذا التوجيه السديد تربى على حب الله وخشيته ، ونشأ معظماً أوامره ونواهيه ، لكنه لن يتربى وينشأ على ذلك ، إن لم يجد توجيهاً ، أو وجده ولكنه لا يربطه بربه تبارك وتعالى ، بل يظهر له الأمر على أنه دنيوي اجتماعي ، كأن يقال له عند فعله السوء : هذا عيب ، سيقول الناس عنك : كذا وكذا ، وسوف لن يحبوك ، لأنك فعلته ، أو يقال عند فعله الحسن : أحسنت ، هذا أمر يحبك الناس لأجله ويحمدونك عليه ، وغير ذلك من الأقوال والتوجيهات التي لا تربطه بالله تعالى ، بل بالعبيد .

والتوجيه بهذا الشكل لا بأس به ، متى ما كان بعد ربط تلك الأفعال بمحبة الله تعالى ورضاه أو ببعظه وسخطه ، حتى يكون الدافع لفعل الخير حب الله وابتغاء مرضاته ، ولترك السوء حب الله كذلك وخوف عقابه ، وحتى ينشأ معظماً أوامره بربه تعالى ونواهيه .

أقول : لو تربى على تعظيم الله تعالى وتعظيم أوامره ونواهيه لما تكبر واختال لأنه حينها يخالف أمر الله تعالى له بالتواضع ، ويؤتي مانهاه عنه من التكبر منازعاً له في صفة من صفاته المتفرد بها سبحانه وتعالى ، وهو بذلك يعرض نفسه لما لا يطيقه من سخطه تعالى وعقابه .

ج - عدم تربيتهم على تذكر اليوم الآخر الذي يشاب فيه المحسن على إحسانه ، ويجازى فيه المسيء على إساءته ، فتذكّر هذا اليوم العظيم له وقعه وأثره على النفوس ، حيث تبقى دائمة الصلة بالله تعالى والمراقبة له في كل أحوالها ، تأتي وتفعل ما أحب ورضي لتنال ثوابه ورضاه يوم تلقاه ، وتذر ماكره وسخط لتأمن من سخطه وعذابه يوم العرض عليه والوقوف بين يديه .

أما نسيان ذلك اليوم العظيم والغفلة عن هوله يوم يقف العبد الضعيف ذليلاً منكسراً ، بين يدي الواحد القهار ليلقى جزاء ما قدمت يدها ، نسيان ذلك اليوم العظيم والغفلة عنه وعن هوله ، يقطع صلة العبد بربه تعالى ، وينسيه

مراقبته له وإطلاعه عليه وإحصاءه كل صغيرة وكبيرة من أمره ، وعندها لا ييالي أبات أمسحطاً له أم مرضيه ، ولذا نجد أن جل المستكبرين المذكورة قصصهم في كتاب الله تعالى ينكرون ويحددون اليوم الآخر .

فلو تربى الإنسان منذ صغره على تذكر اليوم الآخر وما يقع فيه على المتكبر من ذلة وصغار حين يبعثه ربه على صورة ذرة تداس بالأقدام ثم يساق إلى جهنم لتكون مسكنه ومأواه ، لو تربى الإنسان على تذكر ذلك وتذكر الجزاء للمتواضعين ، لأدرك قبح الكبر وسوء عاقبته فعمل على تطهير نفسه وتزكيتها منه ابتغاء مرضاة الله وخوف عذابه يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

فعلى الآباء تربية أبنائهم على تذكر اليوم الآخر يوم لقاء الله تعالى ليأمنوا عليهم من الزيغ والضلال والانحراف عملاً بقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] .

ثانياً : الدلال الزائد المفسد للأبناء :

ومن صور ذلك الدلال :

أ - تنفيذ كافة رغباتهم وتحقيق جميع شهواتهم وإن كانت أحياناً فوق طاقتهم ، وأحياناً غير ضرورية ، بل قد تكون أحياناً ضد مصالحهم ومصالح أبنائهم وخطراً عليهم ، كأن يترك للابن الحرية المطلقة في اختيار أصدقائه وجلسائه وخبرته في الحياة قليلة فلا يحسن الاختيار ، فيعود ذلك عليه وعلى أسرته بل وعلى المجتمع بالوبال ، أو كأن يطلب الولد من أبيه شراء سيارة - حالياً - وهو لا زال فتى مراهقاً ، غائبة عنه الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها أو يعرض غيره لها إن لم يحسن القيادة ، فيجيبه الأب إلى طلبه فينطلق يبعث يلهو يسابق الريح في سيره غير عابئ بما قد يلاقيه من الأخطار ، وكم من فتى أزهر روحه أو روح غيره بسوء تصرفه في قيادة سيارته .

إن حب الآباء لأبنائهم وسعيهم لإسعادهم لا ينكر عليهم ، فتلك فطرة الله التي فطر عليها خلقه ، وإنما الذي ينكر عليهم أن يتحول ذلك الحب إلى دلال مفسد يشقى معه الآباء والأبناء والمجتمع .

ولسائل أن يسأل الآن ، ما علاقة الدلال بالكبر ؟

والجواب : إن الابن المدلل المجابة جميع مطالبه ، المحققة كل شهواته ، المنفذة كل رغباته ، المطاعة كل أوامره دون تبصر وحكمة وتوجيه ، يجعله ذلك يشعر بأنه خير وأحسن من غيره ، ويظل ينمو لديه ذلك الإحساس حتى يصل به إلى مرحلة التكبر والخيلاء على من حوله خاصة من الذين ليس لهم ماله لظنه أنه خير منهم وأنهم أدنى منه .

ب - والصورة الثانية من صور الدلال المفسد للأبناء تتمثل في جانب السكوت عن أخطائهم صغيرة كانت أو كبيرة ، فلا يلقون عليها العقاب المناسب ولا تواجه تلك الأخطاء بحزم وحكمة ، بل وفي بعض الأحيان تجد من الآباء من يقف إلى جانب ابنه حين يخطئ على غيره .

وهذا الأمر يجعله يشعر بأهميته ومكانته التي خولته أن لا يحاسب على أخطائه في حق الآخرين وسوء تصرفاته معهم ، بل قد يوقف إلى جانبه ، ومن ثم يشعر بأفضليته عليهم فتعظم نفسه لديه فيختال ويتكبر عليهم .

وأود أن أذكر بعض قصص من الواقع في هذا الجانب نظرتها عيناى وسمعتها أذناى ، سائلا الله تعالى مغفرته وعفوه عني وعن أصحابها وعن كل مسلم .

١ - ذات مرة طفل لم يتجاوز عمره الحادية عشرة من السنين يدخل مع أبيه أحد المساجد لأداء الصلاة فيحمل الابن حذاءه ويضعه أمامه في أول المسجد قرب حافظة للمصاحف الشريفة ، فينصحه أحد المصلين وهو في سن أبيه بأن يخرج به إلى المكان المخصص للأحذية عند باب المسجد ، فما كان من الصغير إلا أن ذهب إلى أبيه الذي كان قد أخذ مكانه في الصف ، شاكياً له ذلك الناصح ، وإذا بالأب يشتت غضباً ويقوم إلى ذلك الناصح مخاصماً له على مرأى ومسمع الصغير ومن هم في المسجد من المصلين ، يقول له : مادخلك بالولد؟ دعه يضع حذاءه في المكان الذي يرغب أو نحوه من هذا القول ، وكلما أراد ذلك الناصح أن يتكلم قال له : اسكت ولا تتكلم ، وأقيمت الصلاة في هذا الوقت ، فما كان من ذلك الناصح وقد تملكه الغضب إلا أن خرج من المسجد دون أن يصلي ولسان حاله ومقاله : تركت المسجد لك ولابنك .

إنني لست مع هذا الذي خرج من المسجد وقد أقيمت الصلاة ، فهذا

خطأ ما كان ينبغي له فعله ، في ذات الوقت لست مع ذلك التصرف السيء من الأب ، فالأمر بسيط ، ولا يستدعي كل ذلك الغضب والخصام داخل بيت من بيوت الله تعالى والتي لها حرمتها وجلالتها .

لقد أخطأ الابن حينما ذهب شاكياً لأبيه ذلك الرجل لمجرد أنه قال له : أخرج حذاءك من المسجد ، فكان على الأب أن يواجه هذا الأمر بحكمة تحفظ للرجل هيئته ووقاره ، وتوجه الصغير إلى حسن الخلق مع الناس واحترام الكبار منهم وتقديرهم ، لكن أن يحصل منه ما حصل ، فإن ذلك قد يجعل الابن يتناول على الآخرين لأنه لم يشعر بخطئه بل قد يظن أن الحق كل الحق معه ، وهذا يجعله يشعر بقيمته وقدره ، فيتعظم ويختال .

٢ - وذات مرة رأيت رجلاً قد تجاوز الستين من عمره يلاطف ولداً صغيراً لا يتجاوز الخامسة يقف إلى جوار أبيه فيرفع الولد رجله محاولاً رفس ذلك الرجل الذي يعرفه ويعرف أباه ويجاورهم في السكن ، فغضب الأب وواعباً لم يغضب من ولده ، وإنما من الرجل ، وقال له بحدة : لاتمزح معه ، فهو سريع الغضب قد يؤذيكَ ، وعندها ما فعل لك؟

عجبا كل العجب لهذا الأب ، أفما كان من اللائق والأجدر به أن يلتفت إلى صغيره ويقول له : كيف ترفس من هو أكبر منك ويمزح معك؟ لاتفعل ذلك مرة أخرى ، وعليك باحترام الناس وتقديرهم ، فهذا هو التوجيه السليم في مثل هذا الموقف ، لا مافعله ذلك الأب عن غفلة منه ، إنه سوء تربية ربما غرست في نفس صغيره خلقاً سيئاً ، هو التطاول على الآخرين وعدم اللين لهم مادام أنه يجد من يقف معه في خطئه .

ربما أكتفي بهاتين القصتين كإشارة إلى ما يعجب به واقعنا من مواقف سلبية تدل على سوء التربية التي تؤدي إلى أوخم العواقب والنتائج داعياً الآباء إلى غرس الفضائل في نفوس أبنائهم بحكمة في القيادة وحسن وسداد في النصيح والتوجيه ، ليقطف الجميع ثمار ذلك خيراً وفلاحاً وبراً وصلاحاً .

وخلاصة القول : إن الدلال الزائد الذي لاطائل تحته يفسد الأبناء وربما أدى بهم إلى الانحراف عن السلوك المستقيم والخلق الأمثل القويم ، فعلى الآباء أن يقودوا سفينتهم بحكمة وحنكة ودراية ليقووا على مواجهة أمواج الحياة الهائجة المتلاطمة .

ثالثاً : ومن الأخطاء في تربية الأبناء : تفضيل بعضهم على بعض ، وعدم العدل بينهم في الإعطاء والمنع ، والثواب والعقاب ، فمن الملاحظ أن بعض الآباء يعمد إلى تفضيل أحد أبنائهم على إخوانه ، فينال منهم كل رعاية وعناية ودلال ، إن طلب وجد دون إبطاء ، وإن قال صدق دون روية وخاصة فيما يجري بينه وبين إخوته من مخاصمات ومشاجرات تجري بين كل الصغار ، وإن أخطأ أو قصر لا يعاقب ، في المقابل غيره من إخوانه إن طلب لم يجب ، وإن أجب فبعد تضرع وتعنيف ، وإن قال لا يصدق ، وإن صدق فبعد شك وارتياب ، وإن أخطأ فما أسرع ما يقع عليه العقاب ، هذا وإن أتى ذلك حسناً نال عظيم المديح وجزيل الثواب ، وإن أحسن غيره لا يشجع ولا يثاب .

إنه لأسلوب سيء في التربية فيه من الظلم والإجحاف مافيه وبالتالي فضرره كبير وخطره جسيم ، فهو يزرع الحقد والحسد والعدواة والبغضاء والتنافر في نفوس الأبناء الذين يرون هذا الميل الواضح من آبائهم نحو أخ لهم وتفضيلهم له عليهم ، ويشعرون بالجور الواقع عليهم منهم .

لقد أثر يعقوب النبي عليه السلام في حبه ولده يوسف وشقيقه على إخوتهما ، -أو هكذا ظن الأبناء- ويعقوب نبي من أنبياء الله تعالى لا يمكن أن يظلم بقية أبنائه أو يجور عليهم ، وإن أحب يوسف ومال إليه قلبه أكثر منهم فلشيء أراد الله تعالى ، ومع هذا فقد غلا الحقد والحسد في نفوسهم ونزع الشيطان فيها من كيده وتسويله حتى سؤل لهم قتل أخيهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ . إِذْ قَالَُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧-١٠] .

هكذا زين الشيطان لهم قتل أخيهم ، فألقوه في قاع البئر ليتخلصوا منه فيخلص لهم حب أبيهم ، فإذا كان هذا فعل الحقد والحسد الذي زرعه الشيطان في نفوس أبناء نبي ، فغيرهم أولى أن يفعل بهم ذلك ، خاصة إذا أدركنا أن تفضيل نبي لأحد أبنائه على إخوته ليس بحال من الأحوال كتفضيل غيره من أفراد الناس غير المعصومين .

وبالإضافة إلى كون هذا الأسلوب الخاطيء يزرع الحقد والحسد... فإنه ينمي في نفس ذلك الابن المفضل المدلل بغير وجه حق، الإحساس بالخيرية والأفضلية على إخوانه أولاً ثم على سائر من حوله فإذا ما أحس ذلك تعظم في نفسه ثم تكبر وتعالى على الآخرين.

ومن هنا فقد جاء الأمر النبوي التوبوي من رسول الله صلى الله عليه وسلم للآباء بالعدل بين أبنائهم.

فعن النعمان بن بشير^(١) رضي الله عنه قال: إن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني نحت ابني هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكل ولدك نحتته مثل هذا؟»، فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فأرجعه».

وفي رواية قال: تصدق عليّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟»، قال: لا، قال: «اتقوا الله وأعدلوا في أولادكم»، فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وفي رواية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بشير ألك ولد سوى هذا؟»، قال: نعم، قال: «أكلهم وهبت له مثل هذا؟»، قال: لا، قال: «فلا تشهدي إذاً، فإني لا أشهد على جور»^(٢).

يأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشهد على هذه الهبة لأنه صلى الله عليه وسلم رأى أن فيها جوراً على بقية الأبناء وظلماً لهم، ومن ثم يقول صلى الله عليه وسلم معلماً ومريئاً: «اتقوا الله وأعدلوا في أولادكم».

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاص بن زيد الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الله، أول مولود في الإسلام بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً، كان قاضي دمشق، واستعمله معاوية على الكوفة ثم حمص. قتل سنة خمس وستين. انظر: الإصابة ٢٤٠/٦.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب الهبة للولد ٣/٣١٨، وأخرجه مسلم في كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة ٣/١٢١-١٢٤٤، روايات متعددة منها عن جابر رضي الله عنه ٣/١٢٤٤.

وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم للآباء بتقوى الله تعالى ،
وبالعدل بين أبنائهم ، وكانت الأولى كافية ، فتقوى الله تعالى تستلزم العدل
بين الأبناء ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أراد التأكيد على هذا الأمر ، لعلمه
وإدراكه بما فيه من الخير والصالح في توفير الأمن والاطمئنان داخل الأسرة
والمحافظة على تآلفها وترابطها ، وبما في ضده من الظلم من المفسد
والشرور المقوضة للبناء الأسري ، والمقطعة لروابطه العظيمة التي أمر الله تعالى
بالمحافظة عليها .

فعلى الآباء توخي العدل بين أبنائهم في كل أمر مادي أو أدبي قدر
المستطاع ، حتى لا يشعر المفضّل باستغلاله والمهضوم بالظلم الواقع عليه ،
فيتولد من ذلك شر وفساد كبير .

رابعا : ومن الأخطاء في تربية الأبناء ، ما يقع من الآباء من إهمال مراقبة
سلوك أبنائهم لتقويم معوجه أولا بأول ، فعلى الآباء أن لا يغفلوا عن مراقبة
سلوك صغارهم حسنه وسيئه ، فما ظهر منه حسن عملوا على رعايته وتثيبت
جذوره في نفوسهم لينمو بنموهم ويكبر بكبرهم ، وما ظهر منه معوج
ومنحرف عملوا على تقويمه وتهذيبه وقلعه من جذوره ، قبل أن يستفحل أمره
فيصعب علاجه .

ومما يمكن أن يظهر من السلوك المعوج على الصغير وينبغي إصلاحه
فور ظهوره خلق الكبر الممقوت المذموم ، لذا فإن تربية الولد منذ حداثة سنه
على كرهه وعدم الاتصاف به أمر هام ، لأنه إن تعود الولد على ازدراء الناس
والتكبر على أقرانه والتعالي عليهم في صغره فإن هذه الخصلة الممقوتة لن
تتركة عند كبره وبلوغه سن التكليف^(١) .

والكبر كما نعلم من أعظم أمراض القلب ، « ومسئولية الأب في متابعة
ولده ومراقبته ومعرفة أمراض قلبه وعلاجها لا يقف عند حدود التعريف بالمرض
والتوجيه بالعبارة فقط ، بل يسلك معه الأسلوب التربوي العملي الذي يستأصل
الداء من داخل النفس حتى لا يبقى له أثر يحرمة من دخول الجنة ، فإن الكبر
وإن قل يحرم صاحبه الجنة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ

(١) مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٨ .

مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ^(١) .

والأسلوب التربوي العملي في علاج الابن من داء الكبر يكون حسب ما يظهر عليه من صوره وآثاره وذلك على النحو التالي :

أ - قد يكون الابن ممن يميل إلى رأيه ويراه أنه الحق الذي لاحق سواه ، ومن ثم فهو لا ينصاع للحق إذا جاء على لسان إخوته أو من يخالفهم من أقرانه وأصدقائه خاصة إن كان الولد قد وصل سناً مناسبة للفهم والإدراك كأن بلغ عشر سنين فما فوق ، فإنه في هذه الحالة إن مال إلى رأيه ولم ينصع للحق لأنه جاء على لسان غيره ، مستعظم لنفسه مسفه للآخرين ، فينبغي على الوالد أن يحذره من هذا السلوك وينفره منه بأن يبين له مقت الله تعالى لمن يفعل وحرماته من دخول جنته وغضبه عليه وإذلاله له .

ولا يكتفي بهذا التوجيه ، بل يلزمه بأن ينصاع للحق ويقبله ويعلن ذلك أمام أصدقائه معتذراً عن خطئه حين رد الحق ، وما كان ينبغي له أن يفعل .
فإن فعل الابن ذلك كان له درساً عملياً جيداً يستفيد منه عدم الوقوع في مثله مستقبلاً ، فإن عاد أعيد معه الدرس حتى يتدرب فلا يعود لمثله أبداً^(٢) .

ب - وقد يظهر على الابن حب التسلط والتصدر على إخوته وأصدقائه ، فيرغب ويحب أن يظهر بصورة القائد الأمر الناهي لهم ، ولا يرضى بغير ذلك ، ولا يقبل إلا الصف الأول ، والسير في الأمام ، وفي هذه الحالة فإنه يدرب على ترك هذا السلوك بضده ، فيؤمر بالتزام التوسط في المجلس والسير بين الزملاء أو خلفهم ، وأن يقدمهم على نفسه ، فإن دعاهم إلى البيت أمر بالقيام على خدمتهم.... في تواضع دون كبر ، أو إحساس بالفضل وأجلسهم في صدر المكان^(٣) ، وجلس بينهم مبتسماً مرحباً حريصاً على أن لا يميز عنهم بأكل أو شرب أو مجلس وأن لا ينفرد برأي كما يحرص أن يسمع أكثر من القول..... الخ .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانہ ٩٣/١ ، من حديث عبدالله بن مسعود ، وسنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ ، وسنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ٦١/٤ .

(٢) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٨ .

(٣) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٨ .

ج - وقد يظن الولد أنه أفضل من إخوانه وأصحابه وأنه متميز عنهم ، فعلى الأب أن يسعى لاستئصال هذا الاعتقاد بأن يبين له مميزات إخوته وأصدقائه ، ويذكر له الجوانب التي يتفوقون بها عليه ، ليتبين له أنه كغيره من إخوته وقرنائه لديه مميزات وعنده نواقص وأنه إن تفوق في جانب من الجوانب فإن غيره يتفوق عليه في جوانب أخرى ، فلا يتكبر ولا يتعالى .

وحين يسلك الأب هذا المسلك فإنه يحذر أن يتعدى حدود الاعتدال في بيان نواقص الابن ومميزات الآخرين ، فإنه إن تطرف في هذا الأسلوب وبالعكس فربما ساق الولد إلى الشعور بالنقص ، وهذه آفة أخرى لها مساوئ خطيرة وتحتاج إلى علاج آخر^(١) .

فالمطلوب أن يعطيه من البيان ما يحتاج إليه لتستقيم نفسه ، وتعادل تصرفاته .

وقد يغتر الابن بقوته ، فعلى الأب أن يبين له أن هناك من هو أشد منه قوة من قرنائه ، وإن تمادى في الاغترار بقوته فلا بأس بأن يلقيه درسا عمليا من خلاله يتعلم أن هناك من هو أقوى منه ، بأن يطلب منه أن يتصارع مع أحد أقرانه الذي يرى الأب أنه سيصرعه ويتغلب عليه ، فحين يصرعه سيكون ذلك درسا له ، فلن يغتر ويفتخر بقوته على أقرانه ، ولا يختار له من لا يستطيع التغلب عليه ، لأنه حينئذ سيصرعه ، وذلك سيجعله يزداد غرورا إلى غروره وكبرا إلى كبره^(٢) .

هـ - وقد يخجل الابن ويترفع عن خدمة أهله خاصة إذا كان من أسرة ثرية ، فيأنف أن يرى حاملا مشتريات أهله ، أو خارجا بالنفايات من البيت لوضعها في مكانها المخصص في الشارع .

وعلاج ذلك يكون بضده ، أي : بأن يؤمر بالنزول إلى السوق وشراء الحاجيات وحملها ، كما يؤمر بإخراج النفايات من البيت^(٣) ، بل والمشاركة في أعمال البيت المناسبة له والتي في مقدوره ، فإن ذلك مما يساعده على

(١) انظر : مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩ .

(٢) انظر : مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩ .

(٣) انظر : مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩ .

التخلص من الكبر والتعالي .

و - وقد يلاحظ على الابن الترفع على الفقراء والضعفاء والمساكين والأنفة من مخالطتهم ومعاشرتهم لإحساسه بأنه خير منهم ، ففي هذه الحالة يؤمر بالجلوس معهم والإحسان في معاملتهم ، ويكون الأب قدوة له في ذلك ، حيث يزورهم ويصطحبه معه ، ويدعوهم إلى منزله ويجلس بينهم ويكرمهم ، ويأمر ولده بتقديم الطعام والشراب لهم والجلوس والأكل معهم....وبهذا يذهب عنه مايجده في نفسه من الترفع والتعظم^(١) .

ي - وقد يفتخر الابن على أقرانه بمميزات خَلْقِيَّة كالجمال أو الطول أو القوة أو فكرية كالذكاء والفهم والنباهة ، فدور الوالد في علاج هذا هو : أن يبين له أن هذه الصفات التي يفتخر بها هي من نعم الله تبارك وتعالى عليه ، ولست من كسبه وليس له حفظها وبقاؤها ، بل إذا شاء الله تعالى حرمانه منها فعل دون أن يملك لنفسه شيئاً ، فالواجب عليه أن يشكر ربه تعالى عليها ، ومن شكره عليها عدم الافتخار والتعالي بها على عباد الله تعالى الذين لم يؤتهم الله تعالى إياها لحكمته سبحانه وتعالى ، كما يبين له أن من أصيب بعاهة في جسده أو بلاهة في طبعه وبلادة في فهمه فإن ذلك قدر الله تعالى عليه لادخل له فيها ، فلا يذم بسببها ولا يستنقص ، والذي ابتلاه وعافا غيره قادر على أن يعافيه ويتلي الآخر ، فالكل تحت مشيئة الله وقدره وحكمه وأمره وله الحكمة البالغة سبحانه وتعالى^(٢) .

عندما تتبين للابن هذه الحقائق وتستقر في نفسه لاشك أنه سيذهب عنه مايجده في نفسه من الكبر والتعالي والخيلاء .

وهكذا يظل الأب متيقظاً لخلق ابنه ، كلما بدا منه مظهر من مظاهر الكبر عالجه بضده ، وهذبه بالقول السديد ، والفعل الرشيد ، والقدوة الحسنة ، ويفعل هذا معه في غرس كل الفضائل في نفسه واستئصال كل الرذائل منها .

السبب الاجتماعي الثالث من أسباب الكبر هو : المدح .

والمدح هو الثناء بالذكر الحسن الجميل ، وهو ممدوح ومذموم :

(١) انظر : مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩ .

(٢) انظر : مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ٢٠٠، ٢٠١ .

فالممدوح ما كان حقاً لمن يستحقه ، فهو من باب إنزال الناس منازلهم ، والاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ، لكن ينبغي أن يكون قصداً ، حتى لا يجد الشيطان ثغرة ينفذ منها إلى نفس الممدوح فيزين لها العجب وليس بعده إلا التكبر .

والمذموم : ما كان بغير حق ، بحيث يمتدح من لا يستحق المدح ، ويشني على من ليس أهلاً للثناء ، إما بزيادة على ما فيه ، أو بما ليس فيه أصلاً ، زوراً ونفاقاً لهوى في نفس المادح .

وقد جاء في النصوص الشرعية ما يدل على وجهي المدح هذين ومنها :

١ - قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴿ [النساء: ٤٩، ٥٠] .

هذه الآية الكريمة جاءت في ذم اليهود والنصارى الذين زكوا أنفسهم بقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . إلخ ، وزعمهم أنهم لا ذنوب لهم ، وكل ذلك كذب وزور يختلقونه على الله تعالى ، وهو يبين لا يخفى كذبه على سامعيه^(١) .

والآية الكريمة وإن نزلت في أهل الكتاب إلا أنها عامة في كل من نحى هذا المنحى ، فزكى نفسه بما ليس فيه^(٢) ، وعلى هذا ففيها ذم التمداح والتزكية^(٣) ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : - إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء ، يلقي الرجل ليس يملك له نفعاً ولا ضرراً فيقول : والله إنك لذيت وذيت فلعله أن يرجع ولم يحظ بحاجته بشيء وقد أسخط الله عليه^(٤) ، ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ٤٩] .

قال في فتح القدير - بعد ذكره اتفاق المفسرين على أن المراد بالآية اليهود ، واختلافهم في المعنى الذي زكوا به أنفسهم : واللفظ يتناول كل من

(١) انظر : تفسير الطبري ، ١٣٠/٥ .

(٢) انظر : تيسير الكريم المنان ، للسعدي ، ص ١٤٧ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١/٥٢٤ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١٢٨/٥ .

زكى نفسه بحق أو يباطل من اليهود وغيرهم ، ويدخل هذا في التلقب بالألقاب المتضمنة للتركية ، كمحيي الدين ، وعز الدين ونحوهما ، ومرد التركية إلى الله تعالى ؛ فهو العالم بمن يستحقها من عباده ومن لا يستحقها ، فليدع العباد تركية أنفسهم ويفوضوا أمر ذلك إليه سبحانه ، فإن تركيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس وطلب العلو والترفع والتفاخر^(١) .

٢ - ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] .

وقد اختلف أهل التفسير في من المراد بهذه الآية ، فذكر بعضهم أنهم قوم من أهل النفاق كانوا يقعدون خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا العدو ، فإذا انصرف اعتذروا إليه وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

وقال آخرون : هم قوم من أحبار اليهود كانوا يفرحون بإضلالهم الناس ونسبة الناس إليهم إلى العلم .

وقال آخرون : هم قوم من اليهود فرحوا باجتماعهم على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحبون أن يقال لهم أهل صلاة وصيام .

وقال آخرون : هم من بدل كتاب الله وفرحوا بذلك ويحبون أن يحمدهم الناس على ذلك .

وقيل : غير ذلك^(٢) .

قال في فتح القدير : والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملاً بعموم اللفظ ، وهو المعتبر دون خصوص السبب ، فمن فرح بما فعل

(١) انظر : فتح القدير للشوكاني ، ٤٧٧/١ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ٢٠٥/٤ - ٢٠٨ .

وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل ، فلا تحسبته ناج من عذاب الله^(١) .

٣ - وقال الله تعالى في معرض النهي عن تركية النفس ومدحها وتبرئتها من الآثام والثناء عليها^(٢) : ﴿ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢] .

٤ - وجاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يشني على رجل ويطريه في المدح فقال : « أهلكم - أو قطعتم ظهر الرجل » وفي رواية : « ويلك ، قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك » مراراً ، ثم قال : « من كان منكم مادحاً أخاه لامحالة فليقل : أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه » ، وفي رواية : أنه عندما ذكر عنده رجل ، فقال رجل : ما من رجل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه في كذا وكذا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويحك ، قطعت عنق صاحبك . . . الحديث »^(٣) .

« يطريه » : من الإطراء وهو المبالغة ومجاوزة الحد في المدح^(٤) ، « أهلكم - أو قطعتم ظهر الرجل . . . قطعت عنق صاحبك » ، والمراد بكل منها الهلاك لأنه من يقطع عنقه يقتل ومن يقطع ظهره يهلك^(٥) .

(١) انظر : فتح القدير ، ٤٠٩/١ .

(٢) انظر : فتح القدير ، ١١٣/٥ .

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، في كتاب « الشهادات » باب « إذا زكى رجل رجلاً كفاه » ٣٥١/٤ .

وفي كتاب « الشهادات » باب « ما يكره من التمدح » ٣٤١/٨ ؛ وباب « ما جاء في قول الرجل ويلك » ٣٧١/٨ ؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه في كتاب « الشهادات » باب « ما يكره من الإطناب في المدح وليقل ما يعلم » ٣٥١/٤ ؛ وفي كتاب « الأدب » باب « ما يكره من التمدح » ٣٤٠/٨ .

وأخرجه مسلم عنهما في كتاب « الزهد والرقائق » باب « النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط ، وخيف من فتنة الممدوح » ٢٢٩٦/٤ .

(٤) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٢٧/١٨ ؛ فتح الباري ، ٥٨٤/١٠ .

(٥) انظر : فتح الباري ٥٨٤/١٠ .

« ويحك » كلمة رحمة وتوجع ، « ويلك » كلمة عذاب .

« لامحالة » لاحيلة له في ترك ذلك ، بمعنى : لا بد ، ويحتمل أن يكون من الحول أي القوة والحركة ، « حسيه » كافيه ، ويحتمل أن يكون من الحساب أي محاسبة على عمله الذي يعلم حقيقته . « لأزكي » أي لا أقطع على عاقبة أحد ولا ضميره لأن ذلك مغيب عني ، وجيء بذلك بلفظ الخبر ومعناه : لا تزكوا أحداً على الله لأنه أعلم به منكم^(١) .

وفي الحديث الصحيح أيضاً : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثي في وجوه المداحين التراب » .

وفي رواية : « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابُ »^(٢) .

وفي الحديث الآخر الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ »^(٣) .

ينهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يمدحوه بالباطل ، كما أفرطت النصارى وبالغت في مدح عيسى ابن مريم -عليه السلام- فقالوا : ابن الله ، بل زعموا أنه إله^(٤) .

فهذه النصوص الشرعية جاءت في معرض ذم المدح والنهي عنه ، وقد جاءت نصوص أخرى تفيد أنه لا يذم مطلقاً بل منه ما يمدح .
فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مُدح في الشعر والخطب والمخاطبة فلم يحث في وجه مادحه تراباً .

(١) انظر : فتح الباري ، ٥٨٤/١٠ .

المدح - الزهد

(٢) أخرجه مسلم في كتاب « الزهد والرقائق » باب « النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة الممدوح » ٢٢٩٧/٤ .

(٣) أخرجه البخاري عن عمر -رضي الله عنه- في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب « قول الله : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ (مريم : ١٦) » ٦٣٢/٤ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما -في كتاب « الحدود » باب « رجم الحبلى في الزنى إذا أحصنت » ٥٧٨/٥ .

(٤) انظر : فتح الباري ، ٦٠٦/٦ .

وهو صلى الله عليه وسلم قد مدح كثيراً من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، كقوله لأبي بكر رضي الله عنه حين ذكر في الإزار ما ذكر : « إنك لست ممن يفعل ذلك خيلاء »^(١) .

وغير ذلك مما مدح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه^(٢) ، وهو من جملة المدح لكنه لما كان صدقاً محضاً وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر مُدَح به .

قال النووي : قال العلماء : وطريق الجمع بين نصوص النهي ونصوص المدح أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف ، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح ، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهى في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به كان مستحباً والله أعلم^(٣) .

وذكر الغزالي أن في المدح ست آفات ، أربع في المادح ، واثنان في الممدوح ، فأما التي في المادح : فالأولى : أنه قد يفرط فيه فينتهي به إلى الكذب .

والثانية : أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضراً له ولا معتقداً لكل ما يقوله فيصير به مرئياً منافقاً .

والثالثة : أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل إلى الاطلاع عليه .

والرابعة : أنه قد يُفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق .

وأما التي في الممدوح ، فالأولى : أنه قد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما

(١) أخرجه البخاري عن عمر رضي الله عنهما في كتاب « فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » ، باب « قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلاً » ٦٥/٥ ؛ وفي كتاب : « اللباس » باب « من جر إزاره من غير خيلاء » ٢٦٤/٧ ؛ وفي كتاب « الأدب » باب « من أثنى على أخيه بما يعلم » ٣٤١/٨ .

(٢) وهو كثير ، انظر : ما ذكر في مناقب الصحابة وفضائلهم على سبيل المثال ، انظر : كتاب : « فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » في صحيح البخاري ٦٠/٥ - ٩٨ ؛ وكتاب « فضائل الصحابة » في صحيح مسلم ١٨٥٤/٤ - ١٩٧٣ .

(٣) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٢٦/١٨ .

مهلكان .

والثانية : انه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتّر ورضي عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً ، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك^(١) .

وحاصل القول في هذه المسألة : إن من مدح بما فيه وأمن عليه العجب والكبر وسواهما من الفتن فلا بأس ، بل يستحب إذا تحققت منه مصلحة - كما ذكر النووي رحمه الله تعالى .

وأما المدح بالباطل فمنهي عنه لأنه كذب وزور ونفاق ، ويدخل في النهي ، المدح إذا كان حقاً لكن خيف معه على الممدوح أن يداخله عجب وكبر أو يحدّث فيه فتور عن العمل وتقصير عن السعي في الطيبات والازدياد من الخيرات اتكالاً على ما وصف به^(٢) .

فائدة :

في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احثوا في وجه المداحين التراب » السابق ذكره ، للعلماء في المراد بهذا الحديث خمسة أقوال :
الأول : حمله على ظاهره^(٣) ، فيحثى التراب في وجوه المداحين ، وقد فعل الصحابي راوي الحديث هذا^(٤) ، فجعل يحثو الحصباء في وجه رجل مدح عثمان رضي الله عنه ، فقال عثمان : ما شأنك؟ فذكر الحديث^(٥) .

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٣/٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٨٥ .

(٣) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٨٥ .

(٤) وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة النهرازي ، وقيل : الحضرمي ، يكنى أبو الأسود ، وقيل : أبو عمرو ، أسلم قديماً وتزوج ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب ، هاجر الهجرتين وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد ، وكان أول من قاتل على فرس في سبيل الله ، مات سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وكان ابن سبعين سنة . انظر : الإصابه ، ١٣٣/٦ .

(٥) انظر : صحيح مسلم ، ٤/٢٧٩٧ ، وقد سبق قريباً .

الثاني : يعني الخيبة والحرمان^(١) ، أي خيبتهم فلا تعطوهم شيئاً^(٢) .
الثالث : قولوا له : بفيك التراب ، إعلماً له بكرهية قوله ، والعرب تقول ذلك لمن تكره قوله^(٣) .

الرابع : ذلك يتعلق بالمدوح ، كأن يأخذ تراباً يذره بين يديه ويتذكر بذلك مصيره إليه فلا يطغى بالمدح الذي سمعه^(٤) ، ويتواضع ولا يعجب ، قال النووي : وهذا ضعيف^(٥) .

الخامس : المراد إعطاء المادح ما طلب بقصد قطع لسانه عن عرضه بما يرضيه من الإعطاء^(٦) .

وعلى ضوء ما سبق فإن المدح سبب يفضي إلى العجب والكبر ، وبخاصة إذا كان مدحاً بالباطل ، فحينئذ يشعر المدوح بقيمة وقدر أعطيه ، ولم يك جديراً به وأهلاً له فيتكبر ويتعاضم ليبقى له ذلك .
فالظالم والفاسق حين يمدحان زوراً ونفاقاً ، أو جنباً وخوراً يشعران بالاستعلاء ، فيزدادون عتواً وطغياناً ، والسبب أن المادحين قد زينوا لهم أفعالهم الباطلة الفاسدة وألبسوها لباس الحق والصلاح وأنزلوهم مقاماً هم أحقر من أن يبلغوه ، فلا عجب حينها أن يتعظموا وينتفشوا .

السبب الاجتماعي الرابع من أسباب الكبر : التهمة لمجرد الظن .

قد يظلم المجتمع شخصاً فيتهمه بالكبر وهو منه براء ، وذلك لأن أعين الناس في المجتمع تظل تتلصص وترقب الآخرين لعلها تظفر بهنة أو تلحظ زلة ، وهنا قد يبدو على شخص ما بعض المظاهر التي تظهر على المتكبرين ، فيرمى ويتهم بأنه منهم وهو ليس كذلك .

(١) انظر : فتح الباري ، ٥٨٥/١٠ .

(٢) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٢٨/١٨ .

(٣) انظر : فتح الباري ، ٥٨٥/١٠ .

(٤) انظر : فتح الباري ، ٥٨٥/١٠ .

(٥) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٢٨/١٨ .

(٦) انظر : فتح الباري ، ٥٨٦/١٠ .

فمثلاً قد يطيل ثيابه ويلبسها وذلك من مظاهر الكبر وقد ورد النهي عنه والوعيد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في الفصل الرابع بإذن الله ، ولكنه بفعله هذا ما قصد الخيلاء ، ولعل له عذراً فيه ، فعله جاهل بالنهي ، أو لعله غير متعمد للفعل ، أو لعل له عذراً آخر كمن يتأذى من برد أو سواه ، ولكن الناس لم يطلعوا على عذره فرموه لمجرد الظن والتخمين .

ولهذا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » .

قال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله إن أحد شقي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لست ممن يصنعه خيلاء »^(١) .

ففي هذا الحديث إنه لا حرج على من جر إزاره بغير قصده مطلقاً ، وفيه اعتبار أحوال الأشخاص في الأحكام باختلافها^(٢) .

وعلى هذا فليس كل من انجر ثوبه عُد متكبراً ، ولكن من انجر ثوبه بغير اختياره فعليه أن يتعاهده بالإصلاح ، ولا يتمادى في إسباله كما كان الصديق رضي الله عنه يفعل ذلك .

ومثل آخر لمن يتهم بالكبر وهو بريء منه فقد يحب إنسان أن يكون مظهره حسناً وملبسه حسناً ومسكنه حسناً ومركبه حسناً فيوصم جهلاً من قبل مجتمعه بالكبر ، وهذا من الجهل ، فإن للإنسان أن يتمتع بطيبات ما أحل الله له غير مسرف مختال ، يشهد لهذا الحديث الصحيح الذي فيه : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » قال رجل : إن الرجل يحب أن

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه في كتاب : « اللباس » ، باب : « من جر إزاره من غير خيلاء » ٢٦٥/٧ ؛ وفي كتاب : « فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلاً » ٦٥/٥ ؛ وفي كتاب « الأدب » باب « من أثنى على أخيه بما يعلم » ٣٤١/٨ .

وأخرجه مسلم ، لكن ليس فيه ، قال أبو بكر في كتاب « اللباس والزينة » باب « تحريم جر الثوب خيلاء » ١٦٥١/٣ ، ١٦٥٣ .

(٢) انظر : فتح الباري شرح البخاري ، ٣١٣/١٠ .

يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »^(١) .

فالذي يتبادر إلى الذهن والله أعلم أن هناك من يعد ما ذكره السائل من باب الكبر فأراد أن يستوضح الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفعله أو يتركه عن بينة فيبين له رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الكبر وأن ما ذكره لا يدخل فيه إنما هو من باب الجمال ، والله عز وجل جميل لا يدرك جماله يحب الجمال من عباده .

ومثال ثالث فيمن يتهم ويظن به الكبر وهو ليس كذلك فقد يوجد شخص في طبعه ميل إلى الوحدة والانفراد وعدم المخالطة وطبائع الناس التي فطرهم الله تعالى عليها تختلف ، فينظر إليه على أنه متكبر ، وما به ذلك .

ويظل هذا وذاك يلحظ في أعين الناس ، وربما سمع في أقوالهم اتهاماً له بذلك الخلق الذي هو منه بريء ، فلربما وجدها الشيطان فرصة سانحة للدخول عليه من هذا الباب ، فيزين له الكبر ويدخله فيه كردة فعل غير حميدة لاتهام الناس له به ، فيكون المجتمع بظنه السيء قد ساهم وتسبب في إيجاد متكبر ينظم لقافلة المتكبرين السائرة في درب الهالكين . والله أعلم .

فعلى المجتمع أن يترث قبل أن يصدر الأحكام جزافاً ، وأن يتحقق قبل أن يتهم ، وأن يعطي الفرصة للشخص في الدفاع عن نفسه وإبداء عذره ، فإن كان جاهلاً علم ، فإن علم فأصر فهو متكبر ، وإن كان معذوراً فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فإن زال عذره فتمادى ونصح فلم يعد إلى الحق فهو متكبر .
فالإصرار على الباطل والتمادي فيه وعدم الرجوع إلى الحق هي صفات للمتكبر حقاً .

السبب الاجتماعي الخامس من أسباب الكبر : عدم الأخذ على يد السفية .

يساهم المجتمع مساهمة كبيرة في ظهور المتكبر ، وذلك حين يقف موقف السلب ممن بدت عليه مخايل التعظم والطغيان ، فلا يأخذ على يده

(١) أخرجه مسلم في كتاب « الإيمان » . باب « تحريم الكبر وبيان » ٩٣/١ ، عن ابن

مسعود رضي الله عنه .

ليكبج جماح رغبته ، فيتقوم خلقه ويتهذب سلوكه ، بل يتركه يتمادى في استعلائه وتعظمه الذي يكون المجتمع أول من يتجرع علقمه ، ويعظم الأمر إذا تملك ذلك المتعالي شيئاً من أزمنة الأمور في مجتمعه فلا تسل حينها عن بطره وشره .

فلا بد أن يكون للمجتمع دوره في الأخذ على يد السفیه ، والمتكبر أحد السفهاء ، فالسفينة واحدة وخرم من جانب منها يتسبب في غرقها كلها . وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي امتدح الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، إلا من باب الأخذ على أيدي السفهاء ليصلح المجتمع ويسلم من سوءهم وفسادهم .

وقد لعن بنو إسرائيل بسبب إخلالهم بهذا الأمر العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مَنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ ، ٧٩] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حذر أمته من أن يفعلوا فعل بني إسرائيل ، فلا يأخذوا على يد السفیه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، قال : فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان متكئاً فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم^(١) على الحق أطراً^(٢) .

(١) أي تعطفوهم عليه . انظر : النهاية في غريب الحديث ، ٥٣/١ .

(٢) أخرجه الترمذي ، وهو لفظه في كتاب : « تفسير القرآن » باب : « من سورة المائدة » وقال : هذا حديث حسن غريب ، وقد روي عن محمد بن مسلم بن أبي الوضاح عن علي بن بزيمة عن أبي عبيدة عن عبدالله - يعني ابن مسعود - نحوه ، وبعضهم يقول : عن أبي عبيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا ، ٢٢٥/٥ ، ورواه بنحوه هذا اللفظ ، ٢٥٣/٥ .

وأخرجه أبو داود في كتاب « الملاحم » باب « الأمر والنهي » ١٢٠/٤ ، ١٢١ .

ثالثاً : الأسباب السلوكية .

وأعني بها ما يذم من الصفات والأخلاق وهي ستة أسباب :

١ - الجهل .

٢ - العجب .

٣ - الحقد .

٤ - الحسد .

٥ - الرياء^(١) .

٦ - الهوى .

فأما الجهل والعجب والهوى فأسباب رئيسية أصلية ملازمة لكل صور التكبر لاتنفك عنها ، فلا يكون متكبراً دون أن تكون هي مثار تكبره ، وموقد اشتعاله .

وأما الحقد والحسد والرياء ، فأسباب لبعض صور التكبر لا لكلها ، فقد يكون تكبر ولا يكون سببه أحدها ، بل الغالب والله أعلم حصول العكس ، وهو كون الكبر سبب يفضي إلى هذه الأخلاق السيئة ، وهي من آثاره وثماره القبيحة ، ولا يثمر الكبر إلا كل قبيح ، وسأذكر هذه الأسباب بشيء من التفصيل والبيان بإذن الله تعالى :

١ - الجهل :

وهو نقيض العلم ، وهو دركات وظلمات بعضها فوق بعض^(٢) ، وهو أعظم الأسباب ، بل هو أصلها وأسها ، فهو الباعث لكل ذنب ، والأصل لكل قبح وسوء ، ولذلك لما كان التكبر من أعظم الذنوب وأقبح القبائح وأسوأ السيئات كان الجهل هو باعته وأصله فلا يتكبر إلا جاهل ، ومن هنا قال السلف الصالح عند قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ

(١) ذكر الأسباب الخمسة الأولى للإمامان المحاسبي والغزالي . انظر : الرعاية لحقوق

الله ، ٣٧٧ ؛ إحياء علوم الدين ، ٤/ ١٤٦ ، ١٥٦ ، وقد أضفت الهوى كسبب

سادس حسب ما بدا لي من خلال النصوص الشرعية والله أعلم .

(٢) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق ، ص ١٦٩ .

عَلِيماً حَكِيماً ﴿[النساء: ١٧] .

قالوا : إن كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة عمداً كان أو غيره ؛ وقالوا :
إن العبد مادام يعصي الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته ، وإن من
جهالته عمل السوء ؛ وقيل : كل من عمل بمعصية فهو جاهل حيث عمل
بها^(١) .

أقول : والجهل بهذه الصورة قد يلزم المتكبر حتى يُرديه في سقر خالداً
مخلداً فيها ، وذلك شأن المتكبرين عن الإيمان بالله تعالى وبما أمر بالإيمان به
الذين يموتون على ذلك كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ
يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء: ١٨] .

وقد يكون الجهل حالة تطرأ على العبد فيرتكب المعصية ، ويأتي السوء
ثم يعود إليه رشده فينزع عن فعله ويتوب إلى ربه ؛ وهذا شأن المؤمنين الذين
وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا
اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

فهؤلاء وقد اعتراهم الجهل فظلموا أنفسهم بفعل السوء ثم أفاقوا من
غفلتهم وزالت غشاوة الجهل عنهم فتذكروا أن لهم رباً يأخذ بالذنب وهو
شديد العقاب ، ويقبل التوبة وهو الغفور التواب ، فأقبلوا عليه وأنابوا إليه
نادمين مستغفرين كما قال الله تعالى : (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)
أي نزعوا عن الذنب ، ولم يصروا عليه بعد أن زالت عنهم غشاوة الجهالة ،
ولعل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو
مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب
بها وهو مؤمن... »^(٢) ، هو من هذا القبيل ، فالزنى والسرقة وشرب الخمر

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٢٩٨/٤ ، ٢٩٩ .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب « المظالم » باب « النهي
بغير إذن صاحبه » ٢٧٩/٣ ، وفي كتاب « الأشربة » باب « قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا
الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم
=>

ذنوب لا يأتيها العبد إلا حين تعتريه جهالة فيغيب عنه نور الإيمان ، ولوحضره
رشده وإيمانه ما فعل .

وكذلك كل ذنب لا يأتيه العبد ولا يقع فيه إلا حين يحجب دخان الجهل
نور المعرفة والإيمان عن بصيرته ، لكن المؤمن يذكر ربه فيعود إليه فيهديه
الصراط المستقيم ، وغيره يبقى في جهالته حتى ترديه في سواء الجحيم .

ومما يستأنس بالاستدلال به على جهالة المتكبرين قول الحق جل وعلا
في وصف عباده المؤمنين المكرمين : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

فقد وصفهم الله تعالى بالتواضع والسكينة التي تجعلهم لا يقابلون أهل
الجهل والسفه والحمق بمثله ، بل يقابلون جهالتهم تلك بالقول السديد والفعل
الرشيد .

فهذا منطوق الآية الكريمة وهو ينفي الجهل عن المتواضعين ، فمفهومها
يثبته للمتكبرين .

وجهل المتكبرين حقيقة دل عليها كتاب الله عز وجل ، وله صور :

الصورة الأولى : الجهل بالله تبارك وتعالى :

وهذه هي أم الجهالات ورأسها ، وإليها تعود سائر ما فهي منبع الشر
والسوء كله ، فما أشرك بالله ولا كفر به ولا كذب رسله واستكبر عن آياته
ولا وصفه بما هو منزله عنه ، ولا نسب إليه ما لا يليق بجلاله وقُدسيته ولا اجتراً
على معصيته إلا جاهل به سبحانه وتعالى ، جاهل بما له من صفات الكمال
والجمال والقدرة والعزة والكبرياء والجلال ، أما من عرف الله تعالى حق
المعرفة فإنه لا شك يجله ويعظمه ويقدره حق قدره مدعناً له خاضعاً مستكيناً

تفلقون ﴿ (المائدة: ٩٠) ؛ وفي كتاب « الحدود » باب « ما يحذر من الحدود »
٥٦٦/٨ ؛ وباب « إثم الزناة » ٥٨/٨ ؛ وهو عنده في هذا الباب عن ابن عباس رضي
الله عنهما ٥٧٩/٨ ، ومن قبل في باب « السارق حين يسرق في نفس الكتاب »
٥٧١/٨ .

وأخرجه مسلم ، في كتاب « الإيمان » ، باب « بيان نقصان الإيمان بالمعاصي »
٧٧/٧٦/١ ، حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

متذللاً خاشعاً ، عن نهيه منتهياً ، ولأمره طائعاً ، ولحدوده حافظاً ، ولحقوقه مؤدياً ، يرجوا رحمته الواسعة ، ويخشى عذابه الأليم .

إن العبد لو عرف تفرد الله جل جلاله بالعزة والعظمة والكبرياء لأدرك أنه إن تكبر فإنما هو معتد على حق ربه ومولاه جل وعلا الذي لا يشاركه فيه سواه منازع له سبحانه جل شأنه ، صفته التي لا تليق إلا به ، فهو بذلك يعرض نفسه ، وهو العاجز الذي لا يملك من أمره شيئاً لسخط مولاه القدير المتكبر الجبار الذي لا يرد بأسه ، والذي تقف السماوات والأرض ومن فيهن في عجز تام أمام سطوته وقدرته وجبروته سبحانه وتعالى .

وإذا فلن يتكبر عبداً عرف أن الكبرياء لله وحده ، وأن من نازعه كبريائه استحق مقتله وعذابه ، وهو القادر على إنفاذه ، لا يمنعه منه مانع ولا يردعه عنه راد .

وشواهد جهل المتكبرين بالله تعالى نراها في كتاب الله الكريم بارزة جليلة ، نراها في محاجة نمرود الكافر العاتي للخليل إبراهيم عليه السلام في ربه تبارك وتعالى وادعائه لنفسه الحقيرة الخاسئة ما ليس لها ، كما جاء بيان ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

ونراها في طغيان فرعون الذي من جهله بالله جل جلاله ، زعم أنه هو الإله والرب ، وقال لموسى عليه السلام وقد جاءه رسولاً من رب العالمين ما بينه الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، وبقوله : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٤٩] ، ونراها في تغت المأ المستكبرين من أقوام الرسل من لدن نوح إلى النبي صلى الله عليه وسلم الخاتم محمد عليه وعلى جميع المرسلين قبله صلوات الله وسلامه وبركاته ، وصددهم عن سبيل الله ، وعبادتهم غيره من الملائكة والبشر بل وحتى من الكواكب والشجر والحجر والحيوان ، ووصفهم لله جل وعلا بما لا يليق به ، ونسبتهم إليه ما هو منزّه عنه ، وطلبهم الآيات ثم جردها ، واستعجالهم العذب . . . وغير ذلك مما يدل على سفههم وحمقهم وجهلهم

بالله جل جلاله ، ولقد بين الله تعالى شأن هؤلاء المستكبرين ووصفهم بالجهل في آيات من كتابه الكريم ، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨] .

وقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧] .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١] .

وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام يخاطب قومه المستكبري الذين احتقروا المؤمنين واستصغروهم وطلبوا منه أن يطردهم : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩] .
وقوله سبحانه على لسان هود عليه السلام يخاطب قومه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٣] .

فهذه الآيات الكريمات تبين أن المستكبرين يجهلون عظمة الله تبارك وتعالى ، ولذلك يصرون على تعنتهم ويظلمون في طغيانهم يعمهون .

ومما يدل كذلك على جهل المستكبرين بالله تبارك تعالى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] .

فلو قدروا الله حق قدره لما أنكروا إرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ، ولما أشركوا به تعالى عما يشركون وعما يقولون علواً كبيراً .

الصورة الثانية : الجهل بالنفس .

الضعف والعجز والنقص والذل والافتقار والاحتياج صفات ملازمة

للإنسان منذ وجوده بعد أن لم يكن شيئاً - وحتى يستقر في دار قراره في الدار الآخرة ؛ فمن عرف هذه الحقيقة عن نفسه ألزمها السكينة والخشوع ، المنزلة التي هي أهلها ، وألبسها رداء التواضع والخضوع ، الرداء اللائق بها والمناسب لها ؛ ولو تطلعت حيناً ما - والنفس جموحة وأماراة بالسوء - إلى لبس رداء الكبرياء والعظمة ، فإنه يأبى عليها ذلك ، يأبى عليها أن تلبس ماهو لله الكبير المتعال ، وليس لغيره كائناً من كان ، لأنه سبحانه وتعالى هو الخالق ، والمخلوق غيره ، وهو الرب ، والعبد سواه ، وهو الملك الحق ، والمملوك غيره ، وهو الغني الحميد ، والفقير المحتاج غيره ، وهو الحي القيوم والميت سواه ، وهو القوي القادر والضعيف العاجز سواه ، وهو الباقي ولا بقاء لغيره ، وهو العزيز العظيم والذلة والصغار من شأن خلقه ، سبحانه له المحامد كلها ، منزه عن النقائص كلها تبارك وتعالى وتقدس وتمجد ، له الكبرياء في السماوات والأرض ، ليس لسواه منها مثقال ذرة ، بل أصغر من ذلك .

هذا حال من عرف ربه تبارك وتعالى وعرف نفسه حق المعرفة ، أما من جهل معرفة ربه جل وعلا وعمي عن حقيقة نفسه فإنه يخالها شيئاً كبيراً عظيماً تستحق مرامته وجنحت إليه من التكبر والتعظم ، فإذا به ينازع مولاه الجليل القدير رداءه ، ويجاذبه إزاره ، ويعتدي على صفته المتفرد بها جل جلاله ، ولعمرو الله من المنازع؟ ومن المنازع؟ عبدٌ ينازع رباً ، ومخلوق ينازع خالقاً ، وضعيف عاجز ذليل فقير ينازع قوياً جباراً عزيزاً مجيداً غنياً حميداً ، وميتٌ ينازع حياً قيوماً لا تأخذه سنة ولا نوم ، أفليس هذا هو عين الجهل؟

ويصاحب جهل الإنسان بنفسه جهله بالكون من حوله ، فإنما هو كائن صغير لا يذكر في كون هائل عظيم فيه مما خلق الله تعالى ما يكون هو بجواره لاشيء أبداً إذا نظر إليه مجرداً من تكريم الله له بالعقل والإيمان ، فأى شيء هو بجوار السماوات والأرض؟ بل أى شيء هو بجوار شيء فيهما كالجبل مثلاً؟ بل كصخرة من جبل؟ أترأه لو لم يكرمه الله تبارك وتعالى بالعقل ، ويسخر له الكون ويذلله ، أترأه يقوى على محاربة أسد أو فيل أو جمل مثلاً؟ .

أترأه يصمد أمام ريح عاتية أو سيل جارف؟ وقس على ما سبق قيمة

الإنسان بجوار كثير من مخلوقات الله تعالى ، فستجد أن النتيجة دائماً هي أن الإنسان بلا عقل ولا إيمان وتوفيق ورعاية من الواحد المنان لا شيء يذكر أبداً .

وجهل المتكبر بنفسه وبالكون من حوله حقيقة دل عليها قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر: ٥٦-٥٨] .

ففي قوله تعالى : ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، بيان لجهل المتكبرين الذين دفعهم كبرهم إلى المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان بكون خلق السماوات والأرض أكبر وأعظم من خلقهم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ ، فالأعمى هو من عمي عن هذه الحقيقة ، حقيقة ضالته أمام خلق السماوات والأرض ، فتعظم وتكبر يجادل في آيات الله ، والبصير هو من رأى هذه الحقيقة فأذعن وخشع واستكان لله الواحد الديان .

ومن روائع صاحب الظلال قوله عند تفسير هذه الآيات : « إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة ، ينسى أنه كائن صغير ضعيف ، يستمد القوة لا من ذاته ، ولكن باتصاله بمصدر القوة الأول ، من الله ؛ فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ ويورم ويتشامخ ويتعالى ، يحيك في صدره الكبر ، يستمد من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر ، ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله »^(١) .

ثم يقول : « والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر ، وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه ؛ والكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته ، ومحاولة أخذ مكان ليس له ، ولا تؤهله له حقيقته ، وليست له حجة يجادل بها ، ولا برهان يصدع به ، إنما ذلك هو الكبر وحده ، ولو أدرك

(١) في ظلال القرآن ، ٣٠٨٩/٥ .

الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود ، ولو عرف دوره فأتقنه ، ولم يحاول أن يتجاوزه ، ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو ، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود . . . لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح ولتطامن كذلك وتواضع وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله ، وفي استسلام لله وإسلام» أهـ^(١) .

ثم يقول : « ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقي في هذا الكون الكبير ، وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس ، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية ، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته ، وحين يقيس الإنسان نفسه بالنسبة إلى السماوات والأرض يطامن من كبريائه ويتصاغر حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة ، إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه ، والذي من أجله كرمه فهو وحده الذي يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم ، فأين الإنسان من هذا الكون الهائل؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير؟ »^(٢) .

ثم يقول عند قوله تعالى : (وما يستوي الأعمى والبصير . . .) « فالبصير يعلم ويعرف قدره وقيمه ، ولا يتطاول ولا يتنفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويصير ، والأعمى لا يرى ولا يعرف مكانه ، ولا نسبته إلى ما حوله ، فيخطئ تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به ، ويتخبط هنا وهناك من سوء التقدير به ، وكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء ، إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير ، وهذا عمي وجهل فهو يسيء . . . يسيء كل شيء ، يسيء إلى نفسه ، يسيء إلى الناس ، يسيء قبل كل شيء إدراك قيمته وقيمة ما حوله ، ويخطئ في قياس نفسه إلى ما حوله ، فهو أعمى والعمى عمى القلوب »^(٣) .

وآية أخرى من كتاب الله الكريم ، تشير إلى جهل المتكبر بنفسه

(١) في ظلال القرآن ، ٣٠٨٩/٥ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣٠٩٠/٥ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٣٠٩٠/٥ - ٣٠٩١ .

وبالكون من حوله بأسلوب فيه تهكم بالمتكبرين ، وهي قوله تعالى في معرض النهي عن المشي في الأرض على سبيل التكبر والخيلاء : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

وكأن المتكبر حين يمشي في الأرض لا يرى إلا نفسه فيخالها أعظم موجود فيتبختر ويتشامخ ، فتأتي هذه الآية الكريمة لتذكره بضعفه وعجزه ، وتوقفه على حقيقة قدر نفسه ، فإنه مهما ضرب الأرض بعقبه اختيلاً ، ومهما تطاول فلن يقدر على خرقها أو مطاولة جبالها ، فهو أعجز وأضعف من أن يفعل ذلك ، ومخلوق ليس أقوى ولا أعلى من جماد ، جدير به أن يتواضع ويستكين ولا تغره وتخدعه نفسه ، فيبغي لها منزلة هي أحقر من أن تبلغها .

فإذاً : إذا جهل الإنسان ضعف نفسه وعجزها وضآلتها وجهل آيات ربه في الكون جمع إلى التكبر والخيلاء إظهاراً لعظمة يظنها ويتخيلها ، ولو تبصر لوقف عند مقام العبودية لله رب العالمين الذي يقتضي منه التواضع والتذلل والخشية واللين .

الصورة الثالثة : الجهل بحقيقة ما يتكبر به :

تعرفنا في المبحث السابق على الأمور التي يستعظم الإنسان نفسه لأجلها فيتكبر ويستعلي ، وهي المعتقد والعلم والعمل والمال والجاه والنسب والقوة والجمال . . . ؛ ومقصودي هنا أن أشير إلى جهل المتكبر بحقائق هذه الأمور جهلاً يجعله ينظر إليها على أنها هي القيم التي تعلو به وترفع قدره وشأنه ، والحقيقة أنها ما خلا المعتقد والعلم والعمل تبقى كمالات وقيم دنيوية لا ينبغي أن يقاس الإنسان بقدر حظه منها ، ولا أن تكون هي ميزان رفعته وكرامته أو صغاره ومهاتته ، لأنها ليست منه ولا إليه إضافة إلى أنها متاع زائل ولهو باطل .

والأمر كذلك عند الله جل جلاله وعند عباده المهتدين فالله جل جلاله لم يجعل هذه الأمور ميزاناً يتفاضل بها عباده ، وعلى أساسها يكرمون أو يهونون ، لأنها من متاع الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا برمتها لا تزن عنده سبحانه وتعالى جناح بعوضه^(١)؛ بل جعل سبحانه وتعالى التقوى هي الميزان

(١) أخرج الترمذي في كتاب « الزهد » باب « ماجاء في هوان الدنيا على الله عز وجل » <=

والقيمة الأسمى ، فذو التقى عزيز مكرم وإن كان لا يلوي على شيء من متاع الدنيا ولهوها ، وغيره مهان مذل وإن كان ذا حظ وافر منه ، هذه القيمة الجليلة هي الميزان الرباني الرفيع الذي يتسامى إليه وبه يتفاضل أولو الألباب والبصائر من عباد الله تعالى ، فلا يقيمون للدنيا وزخرفها قيمة ، ولا يقيمون العباد بما لهم منها بل بما يظهر لهم منهم من تقوى الجليل العظيم سبحانه وتعالى .

أما أصحاب الجهالات المختوم على قلوبهم المطموسة بصائرهم ، فإن الدنيا هي ميزانهم للرفعة والعزة والسمو ، فمن كان ذا حظ منها عز وتعزز ، ومن قل حظه فيها استذل واستصغر ، ولهذا فإننا نجد فيما قصه القرآن الكريم من قصص الرسل عليهم صلوات الله وسلامه مع أقوامهم أنه ما جنح إلى الاستكبار عن الإيمان بالله تعالى ، والانقياد للرسول - في الغالب - إلا الملاء أصحاب الجاه والمال والنسب ومن تبعهم من الأراذل ، وذلك لجهلهم بقيمة الإيمان الحق ، وتعززهم بالقيم الدنيوية المنحطة ، وليس أدل على تلك الجهالة من أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كانت تأتيمهم بالنور والهدى والرحمة ، فكانوا ينفرون من ذلك كما وصفهم الحق جل جلاله بقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] ، ولتعظيمهم كانوا يطلبون أن ينزل على كل واحد منهم كتاباً كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم^(١) ، كما قال تعالى بعد الآيات السابقة ، ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مِّنْشَرَةً ﴾ [المدثر: ٥٢] ، وما كان نفورهم وإعراضهم هذا إلا اغتراراً أو تعززاً بالحياة الدنيا ، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ونفروا من أسمى القيم وأحطها ، ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » ثم قال : « وفي الباب عن أبي هريرة قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه » ، انظر : الجامع الصحيح ، ٥٦٠/٤ .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٧٦ .

وصور تعزز أولئك الجاهلين المستكبرين بالدنيا وركونهم إلى قيمها في القرآن الكريم كثيرة نذكر منها على سبيل المثال والإشارة [١] مايلي :

١ - التصريح بتعززهم بالدنيا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [سبا: ٣٤، ٣٥] ، ومن ذلك قول قوم عاد ، ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] ، وقول صاحب الجنيتين لصاحبه وهو يحاوره ، ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤] ، وقول فرعون الملعون ، ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١] .

هكذا يكفر أولئك الجاهلون المستكبرون بما جاء به رسول الله تعالى من الحق والهدى متعززين متفاخرين بأموالهم وأولادهم وقواتهم ، يقولون كما قرأت : (نحن أكثر أموالاً وأولاداً) ، (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) ، (من أشد منا قوة؟) ، حاذين حذو المتكبر الأول إبليس الرجيم الذي قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦] .

٢ - اعتقادهم محبة الله تعالى لهم وكرامتهم عليه ، وزعمهم أن ما هم فيه باقٍ لهم في الدنيا والآخرة لو كان هناك آخرة كما يقول المرسلون . حين يتفاخر أولئك الجاهلون بما يتفاخرون به من متاع الدنيا ، ويعلنون تعززهم به فإنهم يظنون ، بل يزعمون ويدعون أنهم عند ربهم مكرمون ، والدليل ما بسطه لهم من الدنيا ؛ ثم هم يتخيلون ذلك المتاع باقٍ لن يبيد ، ومخلد لهم في الدنيا ، وإن فنيت الدنيا وكان هناك آخرة حقاً كما يقول المرسلون فسيجدون عند ربهم خيراً مما كان لهم في الدنيا .

هذا مقالته صاحب الجنيتين حين دخل جنته ، ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رَّدِدْت إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥] ، وهذا قاله قارون حين بغى على قومه : قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] ، أي : إنما أعطاني الله هذا المال لمحبتة ولعلمه في أنني أستحقه^(١) ، وهو نفس الذي قاله ويقولته المترفون

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٤١٠/٣ .

أولوا النعمة والحشمة والثروة والرياسة الذين استكبروا عن الإيمان بالله وكذبوا رسله كما بين الجليل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] ، والمعنى ، أنهم يعتقدون أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتناؤه بهم ، وانه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة^(١) .

يقول صاحب الظلال : « والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائف ، ويغرمهم ما هم فيه من ثراء وقوة فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ، ويخالون أنه آية الرضا عنهم ، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء »^(٢) اهـ .

٣ - استكبارهم عن الانقياد للرسل : ومن أسباب ذلك :

أ- أنهم كانوا يرون ويعتقدون أن الرسول ينبغي أن يكون من الوجهاء أصحاب المال ، وإن لم يكن كذلك قبل أن يرسل فليأيد به إن أرسل ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] .

يقول المشركون من العرب : لو كان هذا الذي أتى به محمد قرآناً من عند الله لنزل على رجل من أهل مكة أو الطائف عظيم الجاه ، واسع المال ، مسوّد في قومه^(٣) ، وهم الذين يقولون من معرض الهزء والاستنكار كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٧-٩] ، ومن قبل قال فرعون عن موسى عليه السلام كما بين الحق ذلك في قوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٥٤٨/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢٩١٠/٥ .

(٣) انظر : فتح القدير ، ٥٥٣/٤ .

الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿الزخرف: ٥٢، ٥٣﴾ .

إن المستكبرين لجهلهم بالقيم الحقّة السامية وتعلقهم وتعزّزهم بالحياة الدنيا ، لا يقبلون ولا يصدقون أن يكون الرسول ممن ليس له الجاه والكنوز ، وكذلك لا يقبلون أن يملك عليهم من هو كذلك ، ولهذا لم يقبل الملائكة من بني إسرائيل من بعثه الله تعالى لهم ملكاً ، وقالوا معترضين : ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ، يقولون : كيف يكون طالوت ملكاً علينا ، وما هو من بيت الملك فينا ، ولامن أصحاب الثراء الواسع ؟ .

ب - خوفهم على ذهاب حظهم من الدنيا :

لقد كانت السيادة للملائكة المستكبرين ، فكانوا يستعبدون الناس ويستردلونهم ، وكانوا يفعلون بجاههم وأموالهم ما يحلو لهم دون حسيب أو رقيب ، فلما جاءتهم رسل الله تعالى بدينه الحق الذي يساوي بين الجميع ، بل ويرفع المستضعفين المؤمنين فوق الملائكة المستكبرين ، والذي يقف في وجه صاحب الجاه والمال أن يستعمله في البغي والظلم وفي النزوات والشهوات المحرمة لما جاءتهم الرسل بهذا الدين الحق خافوا على دنياهم وحظوظهم منها واستكبروا عن الانقياد له ، فهذا فرعون وملؤه لما جاءهم موسى عليه السلام بالحق من عند الله قالوا : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨] ، خافوا على الرياسة الدنيوية وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا لأنهم إذا أجابوا الرسول وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، ولم يبق للملك رئاسة تامة ، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات^(١) .

ومن قبل قال أهل مدين لنبي الله شعيب عليه السلام حين نهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] ، يقولون : دينك هذا جاء ليصرفنا عن دين آبائنا وليتحكم في أموالنا فيمنعنا من التصرف فيها بالطريقة التي نرضينا ، يريدون كيف ندخل

(١) أنظر : فتح القدير ، ٤٦٥/٢ .

في دين هذا شأنه؟ .

٤ - استصغارهم لأتباع الرسل .

وذلك لكونهم من المستضعفين غير أولي الجاه والمال إلا قليلاً منهم ، فكان ذلك من أسباب إغراضهم عن الإيمان أنه أن يتساووا بهم كما قال قوم نوح عليه السلام : ﴿ اٰنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْاَرْذَلُوْنَ ﴾ [الشعراء: ١١١] ، وكما قال مشركوا قريش : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا اِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١] ، وغير ذلك مما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى^(١) ، وقد سبقت بعض الإشارات المتفرقة إليه في المباحث السابقة .

تلك هي صور الجهل التي تجنح بالعبد إلى التعظم والتكبر ، وإذا تأملتها وجدت أنني ما قصدت بالجهل صورته الظاهرة ، وهي الجهل بالقراءة والكتابة (الأمية) ، وإنما قصدت ما هو أعظم من ذلك وأشد خطراً وهو عمى القلب والبصير عن رؤية وإدراك الحقائق الموصلة إلى سعادة العبد ، فهذا هو الجهل حقاً ولو كان الموسوم به قد برع وحاز قصب السبق في شتى مجالات العلم والثقافة ، وأشارت إليه البنان بذلك ، فإنه لا خير في علم ومعرفة من هذا النوع مالم يتوصل به العبد إلى مرضي ربه تبارك وتعالى .

ولأمي^١ استقر في قلبه إجلال الله تعالى وتوقيره وسكنت نفسه خشيته خير من ملء الأرض من مثل متعالم رام التكبر والخيلاء .

(١) في الفصل الخامس من رساله .

٢ - العجب :

وهو كالجهل سبب أصيل من أسباب التكبر ، إذ هو كما عرّفه الإمام الغزالي - عليه رحمة الله - : استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم^(١) ، أي أن المعجب يستعظم ما هو فيه من نعمة العلم أو العمل أو المال أو القوة . . . فرحاً بها مطمئناً إليها غير خائف على زوالها وتبدلها ؛ ولا يكون فرحه هذا من حيث إنها نعمة وعطية وهبة من الله جل جلاله ، بل من حيث إنها كمال ورفعة هي صفته ومنسوبة بأنها له ؛ أي باختصار ، يرى أنه أهلها وينسى أنها نعمة من ربه جل جلاله ، فيعتز بها ويغتر .

ومن هنا يتبين لنا أن الكبر وليد العجب ورضيعه ، إذ لا يتكبر المتكبر إلا بنعمة قد أعجبه فاستعظمها ناسباً لها إلى نفسه ناسياً أنها من ربه تبارك وتعالى متخيلاً أنها لن تفنى أبداً ، ويتضح هذا من خلال القصة الواردة في سورة الكهف ؛ قصة الرجل الذي منّ الله عليه فأعطاه المال والبنين ، فإذا هو معجب بما أوتي من نعمة فرح بها مطمئن إليها ، لا يراها محض امتنان من المنعم المنان سبحانه وتعالى ، بل يرى نفسه أهلاً لها ، ثم إذا هو يتفاخر بها ويتعزز ولا يظن أنها تفنى أبداً ، بل ويكفر بواهبها سبحانه وتعالى ، ويحدد لقاءه في اليوم الآخر ، ثم يفترض مجيء ذلك اليوم ، فيؤكد في غرور أنه ملاق خيراً مما هو فيه في دنياه .

وهكذا فقد أعجب الرجل بماله وبنيه فأخرجه عجبه ذلك إلى التكبر به على صاحبه الفقير فتفاخر قائلاً : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف : ٣٤] ، ومما يستدل به على أن العجب سبب للكبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يتبختر يمشي في بردين قد أعجبه نفسه فحسف الله به الله الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »^(٢) ،

(١) انظر : إحياء علوم الدين ، ٤/ ١٧٨ .

(٢) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب « اللباس » باب « من جر ثوبه من الخيلاء » ٢٦٥/٧ وأخرجه مسلم في كتاب « اللباس والزينة » باب « تحريم التبخر في المشي مع إعجابه بثيابه » ٣/ ١٦٥٣ ، ١٦٥٤ .

فهذا الرجل قد نظر إلى نفسه حين لبس تلك الثياب فأعجبته فاستعظمها ، فإذا به يمشي في الأرض متطاولاً مختالاً .

ولما كان العجب ينسي العبد نعمة ربه جل جلاله ، وأنه منه وبه سبحانه وتعالى لا بنفسه ، وكان الكبر الذي تعظم شروره وتكثر مفسده من نتائجه لم يرضه الله تبارك وتعالى من عباده المؤمنين الذين كانوا مع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين ، وعلمهم درساً عظيماً حين قال قائل منهم وقد أعجبته كثرة المجاهدين : لن نهزم اليوم من قله ، علمهم سبحانه وتعالى درساً عظيماً ذكرهم به أن النصر والغلبة منه وبه سبحانه وتعالى ، لا من كثرة العدد ، ولا بقوة العدة ، فكانت الهزيمة من أول المعركة ، وتفرق الجميع لا يلوون على شيء إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفرٌ معه ، ثم من الله تعالى على جنده فجمعهم بعد فرقة ، وثبتهم بعد زلزلة ، وآمنهم بعد خوف ، ونصرهم بعد هزيمة ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦] .

وخلاصة القول ، أن العجب من أعظم أسباب الكبر إذ يعجب كل ذي نعمة لا يقدر قدرها يعجب بها فيستعظم نفسه لأجلها ، فإذا هو بها متكبر مختال .

ولعله من المفيد أن ننتبه هاهنا إلى مسألة وهي أن كل متكبر معجب وليس كل معجب متكبر ، بمعنى أن المعجب بنعمة ما قد لا يتكبر بها على أحد وإن كان في الغالب أنه يفعل ، إذ ليس بعد نسيان المنعم ونسبة النعمة إلى النفس إلا التعظم والتعزز والفخر والخيلاء ، لكن المتكبر هو في الأصل معجب بما يتكبر به .

٣ - الحقد :

حقد عليه حَقْدًا ، وَحَقْدًا وَحَقْدًا ، أمسك عداوته في قلبه وتربص لفرصتها^(١) ، فالحاقد هو إنسان في قلبه عداوة لآخر ، لاحد لها ، إلا إفناء المحقود عليه وإلغائه من الوجود^(٢) ، كما ذكر أن أبا جهل قال وهو في سكرات موته : أخبروا محمداً أنني أموت وما أحد أبغض إلي منه^(٣) .

إن الحاقد يكن في صدره العداة والبغض للمحقود ، ويدعوه ذلك العداة إلى مقابلته بأخلاق المتكبرين فيحقره وينال منه ويتفاخر عليه ، ولا يتواضع له ، ولا يقبل منه نصحاً ويرد الحق ويدفعه إذا جاء من جهته ، ويحرص جهده أن يتقدم عليه . • ويرى الإمام الغزالي أن هذا الحقد يحمل على التكبر من غير عجب يسبقه كمن يتكبر على من يرى أنه فوقه أو مثله ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدًا ورسخ في قلبه بغضه ، فلذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع^(٤) .

وحاصل القول إن الحقد داء خطير إذا تغلغل في النفس أورث في صاحبه عللاً مفسدة ، ومن ضمنها علة الكبر^(٥) .

والحقد والكبر يتبادلان الأدوار ، فتارة يكون الحقد سبباً للكبر - كما مر آنفاً - وأخرى يكون الكبر سبباً في حصول الحقد ، إذ المتكبر المتعالي يغضب إذا خُطئ له قول ، أو سُفّه له رأي ، ويغضب إذا وُجّه له حق أخطأه ، أو أُرشد إلى صواب جانبه ، يغضب من ذلك لأن نفسه المتعظمة تخيل له أنه فوق أن يخطئ ، وأنه فوق التوجيه والموجه وأعلى من النصح والناصح .

فإذا وجد وحاله هذا من يقول له : أخطأت أو جانب الحق فارجع إليه أكن له في صدره الحقد والغل والبغضاء ، ولو قدر أن يوصل إليه الأذى لفعل دون إبطاء .

(١) انظر : القاموس المحيط ، ٣٥٤ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، حينكه ، ٦٦٠/١ .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن كثير ، ١٣١/٣ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ، ٦٥٦/٤ .

(٥) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق في العهد المدني ، ١٧٢ .

ويشهد لما ذكرت قيام المستكبرين المذكورة قصصهم في كتاب الله تعالى في وجه المرسلين ومناصبتهم العداء ، وإعلانها حرباً لاهوادة فيها ضدهم ، لأجل أنهم قالوا لهم كما قال الخليل عليه السلام لقومه : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤] .

سفه المرسلون عليهم صلوات الله وسلامه -أحلام أقوامهم وآبائهم حين اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله لاتملك لنفسها ولا لهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وتركوا عبادة الإله الحق رب العالمين سبحانه وتعالى ، فغضبوا لذلك وأنفوا ، وتغلغل الحقد والغل في أحشائهم فحاربوا دعوة الحق ودعائه بكل وجه قدروا عليه .

وهكذا يفعل الكبر في النفوس ، فيغرس فيها كل خلق وسلوك سيء ، ولهذا كان حجاباً من الجنة وباباً إلى النار كما ثبت ذلك في النصوص الشرعية ، وستأتي في فصل علاج الكبرياء بإذن الله تعالى .

وخلاصة القول : إن الحقد سبب يفضي إلى التكبر ، وهو من الآثار السيئة للكبر .

٤ - الحسد :

وهو تمنى زوال النعمة عن الغير .

فالحاسد إذا رأى نعمة على غيره من عباد الله تعالى ، تمنى لنفسه ، وتمنى زوالها عن غيره ، وهذا داء خبيث يفتك بالنفوس فتكاً ، وله آثاره السيئة التي يعد التكبر والتعالي من أسوأها ، فإنه كما يرى الغزالي كالحقد ، يؤدي إلى بغض المحسود ويوجب عداؤه ، ومن ثم تظهر أخلاق المتكبرين على الحاسد في معاملته للمحسود فتراه يحقد الحق إن جاء به ، ولا يقبل له نصحا ، ويأنف أن يتعلم منه علماً ، معرضاً عنه مظهراً ترفعه عليه . . . وكل ذلك بسبب نار الحسد التي تضطرم في أحشائه وبين ضلوعه ، مع أنه قد يعترف في نفسه بفضيلة وخيرة المحسود ، ولكنه لا يقر بذلك علناً حسداً وبغياً ، فذاك الأبعد الرحيم إبليس قد علم إكرام الله تعالى وتشريفه لآدم عليه السلام حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، ولكنه لم يقر بذلك بل لجأ إلى الجدال بالباطل مدعياً أنه خير من آدم عليه السلام ، ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص:٧٦] ، ومقال إلا زوراً ومنكراً دعاه إليه حسده لآدم عليه السلام على تلك المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أنزله الله تعالى إياها ، فإذا به يتعالى عليه ويزعم أنه خير منه ، وكما حسد إبليس الرحيم آدم عليه السلام فتعظم عليه وغمطه حقه ؛ حسد أهل الكتاب العرب على مبعث محمد خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً فيهم ، وحسدوه صلى الله عليه وسلم على ما حباه الله تعالى من الرسالة والنبوة ، وكرمه وأتمه على سائر الأمم فغمطوه حقه كاتمين صفته والبشارة به التي وردت في كتبهم وعلى السنة رسلهم عليهم الصلاة والسلام ، وكفروا به وبما جاء به من البينات من ربه تبارك وتعالى ، فهم الذين يقول الله فيهم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة:٨٩، ٩٠] .

يخبر الحق سبحانه وتعالى عن اليهود أنهم كانوا من قبل أن يبعث محمد

صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه سيبعث لما يجدونه في كتبهم من البشارة به ومن صفته ، فكانوا يطلبون من الله تعالى النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث ، ويخبرون به ، وكانوا يقولون للعرب إذا بلغهم منهم ما يكرهون ، إن نبياً ليعتد الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم^(١) .

فلما بعث صلى الله عليه وسلم كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل^(٢) ، وهم يعرفون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حسداً للعرب أن يكون منهم فتبدلوا الكفر بالإيمان وباعوا أنفسهم به ، فلعنهم الله تعالى وذمهم وغضب عليهم وتوعدهم بالعذاب المهيّن .

(بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله) ، أي بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم عن تصديقه ومؤازرته ونصرته .

وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، ولا حسد أعظم من هذا^(٣) .

(فبأءوا) أي رجعوا وصاروا أحقاء^(٤) (بغضب على غضب) ، قيل : غضب الله عليهم بما ضيعوا من التوراة أولاً^(٥) ، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبغيهم عليه^(٦) ، وقيل : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى عليه السلام ، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن^(٧) ، وقيل : غير ذلك .

ولما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة : (وللكافرين عذاب مهين) .

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، ٢١١/١ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

(٤) انظر : فتح القدير ، ١١٣/١ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

(٦) فتح القدير ، ١١٣/١ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

وكما حسد أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا إلا الكفر به وهم يعرفون أنه رسول الله حقاً ، كذلك حسده زعماء قريش فاستكبروا عن تصديقه واتباعه والإيمان بما جاء به من كتاب ربه جل جلاله حتى قال أجهلهم وأطغاهم أبوجهل -لعنه الله- : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق^(١)ه .

وإنها لعبارة تنفث حسداً لا حدود له يتوقد في صدر أبي جهل فيحرق كل بذرة خير فيه ويعصف بأي أمل من اتباعه للهدى الذي أرسل الله به نبيه ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم .

لقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بالحق فعرفوه وعرفوا صدقه فيما جاءهم به ولكنهم حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً ولجّوا فيما هم عليه من الكفر ، يقولون كما حكى عنهم كتاب الله تعالى : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] .

أي اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم ، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥] .

ولقد كان الحسد أحد الأدواء التي جنحت بالمستكبرين إلى الأنفة من اتباع رسول الله تعالى وقد جاءهم بالحق المبين من عنده ، وذلك أنهم حسدوه على اجتباء الله تعالى واصطفائه واختياره له من بينهم لينال شرف الرسالة والنبوة ، فكانوا يقولون : كما قال تعالى : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ، ويقولون : ﴿ أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] .

ويقولون : ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٦] .

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ، ٣١٦/١ .

وحاصل ما سبق أن الحسد يدعو إلى بغض المحسود ، ومن ثم إلى التعظم عليه واستصغاره وعدم قبول الحق الذي يأتي به أو يدعو إليه ، فهو إذاً سبب من أسباب الكبر .

والحسد كالحقد تارة يكون سبباً للتكبر على هذه الصورة المذكورة ، وأخرى يكون من ثماره الفاسدة .

فالمتكبر حقود حسود لكل ذي نعمة وخير لأنه لتعظمه يرى أنه وحده الجدير بذلك كما قال السفهاء المتكبرون من قريش عن المؤمنين بالله تعالى المتبعين رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ، وكل من التكبر والحسد والحقد أدواء مهلكة ينبغي اتقاءها والمبادرة إلى التطهر منها والتخلص من أرجاسها طلباً للسلامة من عواقبها الوخيمة .

٥ - الرياء :

وهو ترك الإخلاص في العمل بمراقبة غير الله فيه ، أي طلب المنزلة والذكر عند الخلق ، فلا يعمل المرائي عملاً وإن كان من أعمال الآخرة إلا ويقصد من ورائه إبراز فضيلته للناس لينال مدحهم وثناءهم ، فهو يعمل العمل لاليزكو به عند الله ، بل ليذكر به بين الناس ، ليقال : قارئ ، عالم ، كريم ، زاهد ، ...

فالرياء كما يرى الغزالي يدعو إلى أخلاق المتكبرين وإن لم يكن في النفس كبر ، حتى إن المرائي ليناظر من يعلم أنه أفضل منه ولا يكون بينهما معرفة ولا محاسدة ولا حقد ، فيمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة أن يقال : إنه أفضل منه ، فيكون باعثه على التكبر - والحالة هذه - الرياء المجرد ، بحيث لو خلا به لكان لا يتكبر عليه ، وقد ينتمي المرائي إلى نسب شريف كاذباً ثم يتكبر على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ، ويرتفع عليه في المجالس ، ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير ، وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه لمعرفة كذبه في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين^(١) .

إذاً لما كان المرائي يطلب بما يظهر من العمل مدح الناس وثناءهم والذكر والمنزلة بينهم ، كان لا بد له أن يبحث عن الوسائل التي توصله إلى غايته ، فكان أن وجد في التكبر إحدى الوسائل التي تحقق بغيته ، فهو يتكبر على من يعلم يقيناً أنه خير منه فيظهر أنه أغزر منه علماً وأوسع اطلاعاً وأرفع نسباً وأكثر عملاً وأشد قوة ، وأعظم فهماً وفطنة ، ويقابله بسائر أخلاق المتكبرين إرادة طمس فضيلته وواد شرفه وعزته ليبقى هو لا غيره الممدوح من الناس ، المذكور بينهم بالفضل ، المشار إليه بعلو المكانة ورفعة القدر .

وهكذا فإن الرياء أحد الأسباب المفضية إلى التكبر ، ولكنه كالحقد والحسد ، ليس سبباً ملازماً لكل تكبر كما هو شأن العجب والجهل اللذان لا يفارقان التكبر أبداً لأن منشأهما ، فكل متكبر هو في الأصل معجب جاهل أعجب بزينة دنيوية ، وجهل في عجبه ذلك ، فإذا به يتعظم ويتعالى وهو

(١) انظر : إحياء علوم الدين ، ١٥٦/٤ .

الوضيع الحقيقير .

وخلاصة القول في الرياء وسابقية -الحقد والحسد- أنها أدواء تدعوإلى
التخلق بأخلاق المتكبرين ، وإن لم يكن في النفس كبر ، فالمتكبر حقيقة هو
من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير
بعين الاحتقار ، وإن أطلق على من يفعلها -ولا كبر في باطنه- أنه متكبر
فلأجل التشبه بأفعال الكبر^(١) والله أعلم .

(١) انظر ، إحياء علوم الدين ، ١٧٥/٤ .

٦ - الهوى :

وهو ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات ، من غير داعية الشرع^(١) .
وسمي الهوى بهذا لأنه كما قيل يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل
داهية ، وفي الآخرة إلى الهاوية^(٢) .

ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه^(٣) .
وهو أم الجهالات ورأس الضلالات ، به كفر الكافرون ، وأشرك
المشركون ، وكذبت الرسالات السماوية ، وحرفت الكتب الإلهية ، وعصي
الله عز وجل ، وخولف أمره ونهيه ، فالهوى كما يقرر القرآن الكريم اتخذ
إلهاً من دون الله .

قال الله عز وجل : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكَيْلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣] .

أي أطاع هواه كما يطاع الإله^(٤) ، وكان مهما استحسنت من شيء في
هوى نفسه جعله دينه ومذهبه^(٥) .

فلا عجب بعد ذلك أن يكون الهوى سبباً أصيلاً ومباشراً في استكبار
المستكبرين ، وكونه كذلك حقيقة أثبتها الله الكريم ، فبين أن الهوى هو الذي
دفع الملاء المستكبرين من أقوام الرسل إلى مخالفتهم وتكذيبهم ، وعدم اتباع
الحق الذي جاءوهم به من عند الله تعالى .

لقد جاءت رسل الله تعالى بالحق والهدى من عنده فوقف أهل الأهواء
لهم بالمرصاد مستكبرين مكذبين صادّين ، وقد فعلوا ذلك حين أدركوا أن
الحق طريقه واحدة بينة واضحة لا مجاملة فيه ولا مdahنة ، وحين أدركوا أنه
ضد الأهواء والرغبات التي تخالف منهج الخالق الحكيم وشرعه وكل أهوائهم
هي كذلك .

(١) انظر : التعريفات للجرجاني ، ص ٣٢٠ .

(٢) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، ص ٥٤٨ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/٢/١ ، ١٩ .

(٤) انظر : فتح القدير ، ٧٧/٤ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ، ٣٣٢/٣ .

ولو وجدوا الحق موافقاً لأهوائهم لكانوا أول المدعين ، ولكنهم وجدوا أن الحق يريد لأهوائهم أن توافقه ، وهم يعلمون أنها ليست كذلك ، ولا يريدون أن تكون كذلك ، فعرفوا وأعرضوا وكذبوا واستكبروا .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] .

ينعت الله تعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم إنما يتبعون أهواءهم فيعرضون عن الحق لأجل مخالفته أهوائهم^(١) ، وفي الآية تويخ لهم على سوء صنيعهم بالرسول وبيان أن ذلك سجية لهم^(٢) ، كلما جاءهم رسول من عند الله بالأمور المخالفة لأهوائهم وآراءهم وبالإلزام بأحكام التوراة شق عليهم ذلك فكذبوا بعض الرسل وقتلوا بعضهم^(٣) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يُلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يُلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦] .

قيل : هذا رجل من بني إسرائيل ، بل من علمائهم ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه في الشدائد ، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه ، وترك دين موسى^(٤) ، وستأتي قصته في الفصل الخامس بإذن الله تعالى .

والمقصود أنه مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ١/ ١٢٦ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ، ١/ القسم الثاني/ ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ، ١/ ١٢٦-١٢٧ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ، ٢/ ٢٧٥ .

ونعيمها وغرتها كما غرت غيره من أولي البصائر والنهي^(١) .

وقيل : اتبع هواه : أي اتبع ما يهواه من حطام الدنيا ، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله .

وقيل : كان هواه مع الكفار .

وقيل : اتبع رضى زوجته ، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] .

هذا نهى للرسول صلى الله عليه وسلم أن يطيع المأ المستكبرين من قريش في طلبهم منه أن يطرد من آمن به من المستضعفين ليجلسوا هم إليه ، وما فعلوا ذلك إلا لأن لهم قلوباً غافلة عن ذكر الله ، وأهواء مخالفة للحق الذي جاء من عنده سبحانه وتعالى ، فنفسهم المستعلية تأبى أن تساوى بالضعفة والفقراء ، وهكذا آثروا أهواءهم على الحق^(٣) واستكبروا عن الانقياد له ، لأن فيه مخالفة لأهوائهم ، فهو لا يفرق بين رئيس ومرعوس ، ولا بين قوي وضعيف ، ولا بين فقير وغني ، فالكل عنده سواسية بالإيمان يسمون ، وبالكفر والاستكبار يذلون .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] .

أي فإن لم يستجيبوا لقولك لهم : ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩] ، أو فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به فإنما يتبعون آرائهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حجة ولا برهان^(٤) .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٢/ ٢٧٦ .

(٢) فتح القدير ، ٢/ ٢٦٥ .

(٣) انظر : فتح القدير ، ٣/ ٢٨٢ .

(٤) انظر : فتح القدير ، ٤/ ١٧٨ .

قال الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ [القمر: ٣٠، ٣١] .

هذا بيان لتكذيب المستكبرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم له ، ولما جاء به من آية انشقاق القمر واتهامهم له في ذلك بالسحر ، وما فعلوا ذلك إلا اتباعاً لأهوائهم الضالة .

وحاصل القول : أن هذه الآيات البينات وغيرها دالة على أن المستكبرين عن الانقياد لله تعالى ورسله عليهم السلام إنما كان ذلك منهم اتباعاً لأهوائهم ورغباتهم وشهواتهم التي لاتوافق الحق ، ومنها أنهم يريدون العلو في الأرض والجبروت ، والحق لا يواتيهم ولا يقرهم على ذلك ، ومنها أنهم يشتهون حياة لا رقيب لهم ولا حسيب عليهم فيها ، يأتون مათهواه أنفسهم حقاً كان أم باطلاً وخيراً كان أم شراً ، وصلاًحاً كان أو فساداً ، والحق يريد لهم حياة الحق والخير والصلاًح والفضيلة ، وهكذا لما وجدوا أن الحق لا يوافق أهواءهم جحدوه وأعرضوا واستكبروا عنه .

الفصل الثالث :

أقسام الكبر .

- ١ - أقسامه باعتبار حقيقته .
- ٢ - أقسامه باعتبار أحكامه .
- ٣ - أقسامه باعتبار أفرادهِ .
- ٤ - أقسامه باعتبار المتكبر عليه .

من خلال النظر فيما جاء من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في شأن الكبر يمكن تقسيمه إلى ما يأتي :

أولاً : ينقسم الكبر باعتبار حقيقته إلى قسمين : باطن ، وظاهر .

فالكبر الباطن هو : ما استقر في النفس وكن فيها من العظمة ، وهذا القسم هو الأصل في خلق الكبر ، ومنه يكون الكبر الظاهر .

والكبر الظاهر هو : ما ظهر من آثار ذلك الخلق النفسي على جوارح المتكبر وسلوكه ، كالخيلاء والفخر والبغي وتسفيه الحق وتصغير الخلق... الخ مما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

وكما ذكر الإمام أبو حامد الغزالي فإن اسم الكبر بالخلق الباطن أولى ، أما الخلق الظاهر فاسم التكبر به أولى^(١) ، لكن لا يعني أن هذا الأمر على إطلاقه ، بل يمكن أن يطلق اسم الكبر على النوعين ، وكذلك التكبر ، وبخاصة إذا افترقا ، لكن إذا اجتمعا فحينئذ يمكننا أن نقول : إن كل اسم دل على نوع ، على النحو المذكور آنفاً .

وهذا التقسيم للكبر هو ما توحى به النصوص الشرعية ، ولم يكن الغزالي حين ذكره -والله أعلم- إلا مستلهماً له منها ، فلقد ذكر النوعان هذان في القرآن الكريم والسنة النبوية .

أما الكبر الباطن فقد جاء ذكره في القرآن الكريم صريحاً في عدة مواضع ، وذلك على النحو التالي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] .

ففي هذه الآية الكريمة إخبار من الحق تبارك وتعالى عن ما يقوله ويطلبه الذين لا يرجون ثواب الله على طاعته ولا يخافون عقابه على معصيته ، فهم يطلبون نزول الملائكة من السماء لتخبرهم بصدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به ، أو أن يكونوا هم رسل الله تعالى إليهم بدلاً عنه ، بل وتمادوا في طغيانهم حتى طلبوا رؤية الحق سبحانه وتعالى عياناً ليخبرهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسوله إليهم .

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ١٤٤ .

ويبين الحق سبحانه وتعالى أن السبب في تعنتهم وطغيانهم، هذا هو .
مأضمروه من الاستكبار عن الحق ومن العناد في قلوبهم^(١) ، فقال سبحانه
وتعالى : ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ .

«والعتو : مجاوزة الحد في الطغيان ، والبلوغ إلى أقصى غاياته ، ووصفه
بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر
والعظم ، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر ، حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم ،
بل جاوزا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه وتعالى ورؤيته في
الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان ، ولقد بلغ هؤلاء الرذلة بأنفسهم
مبلغاً هي أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله ، أو تعد من المستعدين له ،
وهكذا من جهل قدر نفسه ، ولم يقف عند حده ، ومن جهلت نفسه قدره ،
رأى غيره منه ما لا يرى»^(٢) .

فموضع الشاهد من الآية الكريمة هو قوله تعالى : ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ﴾ ، أي : الذي دفعهم إلى هذا التعنت والعتو هو ما استقر في أنفسهم
من الكبر والعظمة .

٢ - وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ،
كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٥٦] ، وموضع الشاهد من الآية هو قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٣) ، فقد وصف الحق سبحانه وتعالى القلب
بأنه متكبر جبار ، ويّين عز وجل أنه يطبع على تلك القلوب المتكبرة .

٣ - وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] .

يبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية أن سبب مجادلة المجادلين في
آيات الله ومماراتهم فيها ، وعدم قبولها هو مافي نفوسهم من الكبر والتعظم .

(١) انظر : فتح القدير ٦٩/٤ .

(٢) فتح القدير ٦٩/٤ .

(٣) على قراءة التنوين في (قلب) وما يليها ، وسبق ذكر القراءة .

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره: إن الذين يخاصمونك يا محمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات (بغير سلطان أتاهاهم) يقول: بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيها (إن في صدورهم) يقول: مافي صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك وقبول الحق الذي أتيتهم به، حسداً منهم على الفضل الذي آتاك لله، والكرامة التي أكرمك بها من النبوة (ماهم بباليغيه) يقول: الذي حسدوك عليه ليسو بمدركيه ولانائليه، لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي يدرك بالأماني، وقد قيل: إن معناه: إن في صدورهم إلا عظمة ماهم بباليغي تلك العظمة، لأن الله مذلهم»^(١)، وقال: «وقوله: (فاستعذ بالله، إنه هو السميع البصير) يقول تعالى ذكره: فاستجر بالله يا محمد من شر هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء»^(٢).

وفي السنة المطهرة جاء ذكر الكبر الباطن صريحاً في أحاديث منها:
قوله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ».

وقوله صلى الله عليه وسلم لمن قال له: إني لأحب الجمال، حتى إني لأحبه في شراك نعلي، وعلاقة سوطي، فهل تخشى علي الكبر؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ الْكِبَرُ هُنَاكَ، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ أَنْ تَغْمِطَ النَّاسَ، وَتَبْطُرَ الْحَقَّ».

فهذه الأحاديث الشريفة تدل دلالة واضحة على أن الكبر يكون في القلب، وإلا لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم محدثه وقال له: فكيف

(١) تفسير الطبري ٧٦/٢٤، ٧٧.

(٢) تفسير الطبري ٧٦/٢٤، ٧٧.

تجد قلبك؟ فلما اطمئن صلى الله عليه وسلم أنه لم يفعل ذلك بدافع من التعظم في قلبه ليزهو به على الآخرين ، بين له صلى الله عليه وسلم حقيقة الكبر ، وأنه بطر الحق وغمط الناس ، أي : رد الحق ، وتسفيهه ، واحتقار الناس واستصغارهم .

فيدل هذا على أن الكبر في القلب أصله ، فإن طهر منه القلب ، قبل الحق واطمئن إليه ، وتواضع للخلق ولم يتعال عليهم ، أما إن لم يطهر منه فستكون النتيجة بطر الحق وغمط الناس .

فعلى العاقل أن يفتش في قلبه ويتعهد بالرعاية والتزكية ليطهره من هذا الخلق الرذيل ، ومن سائر الأمراض والآفات التي قد تصيبه فتفسده ، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله .

هذا بالنسبة للكبر الباطن ووروده في القرآن الكريم والسنة المطهرة .
وأما الكبر الظاهر فتكاد كل النصوص القرآنية والنبوية تذكره وتدل عليه ، بل هي كذلك ، وذلك لأنه أعظم خطراً وأشدّ بلاءً من الكبر الباطن ، فإن الباطن مادام في نفس صاحبه لم يظهر على سلوكه بقي خطره على المتكبر فقط ، بينما يتعدى خطر الكبر الظاهر المتكبر إلى غيره ، وكذلك فإن علاج الكبر مادام في النفس أسهل من علاجه إذا ظهر على الجوارح .

وحقيقة يجب أن لا تُغفل وهي أن الكبر الباطن لم يفرد ذكره في النصوص القرآنية والنبوية ، بينما أفرد الكبر الظاهر ، وذلك لدلالته عليه واستلزامه له ، فلا يمكن أن يكون متكبراً إلا وفي نفسه كبر ، بينما قد يوجد الكبر في النفس ولكنه يلاقي مجاهدة من صاحبه فلا يستسلم لهوى نفسه فيتركها تطغى عليه ، ومن ثم فلا يظهر أثر للكبر على سلوكه وجوارحه ، وإذا عدنا إلى النصوص السابقة التي استدلت بها على ذكر الكبر الباطن في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لوجدناها كذلك تذكر الكبر الظاهر متمثلاً في بعض آثاره على السلوك ، فقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] ، فيه ذكر لكبر النفس وذكر لآثاره في السلوك والتي تمثلت في جحدهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم تصديقه فيما جاءهم به ، وطلبهم أن يرسل الله إليهم الملائكة إما ليخبروهم بصدق محمد

صلى الله عليه وسلم أو ليكونوا هم رسل الله تعالى إليهم بدلاً منه صلى الله عليه وسلم، بل بلغ بهم تعظمهم في أنفسهم أن طلبوا رؤية الله تعالى عياناً في الدنيا ليخبرهم بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذه آثار من آثار التكبر عظيمة .

وقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٥٦] ، وكذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦] ، هاتان الآيتان الكريمتان تبيان أن تعظم الكافرين بالله تعالى في أنفسهم برز في سلوكهم ، مجادلةً في آيات الله بغير حجة وبرهان ، ورداً لها ، وعدم قبولها ، وكذلك تجبراً في الأرض بغير حق .

هذا فيما يتعلق بالآيات الكريمات ، أما بالنسبة للأحاديث الشريفة فهي كآيات القرآنية تذكر نوعي الكبر هذين - أعني الكبر الباطن والكبر الظاهر .

فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » ، قد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر في نهايته بقوله : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ » ، وهكذا فسر صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي ذكرناه آنفاً ، وفيه : « لَيْسَ الْكِبَرُ هُنَاكَ ، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ أَنْ تَغْمِطَ النَّاسَ ، وَتَبْطُرَ الْحَقَّ » ، ففسر الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر بأبرز مظاهره في السلوك ، بطر الحق ، وغمط الناس ، وهذا هو التكبر الظاهر ثمرة الكبر الباطن .

وكذا الشأن في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشْيَيْهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ » ، ففيه ذكر مظهر من مظاهر الكبر ، وهو الاختيال في المشي ، ولم يكن هذا الاختيال إلا ثمرة التعظم في النفس .

ولو تتبعنا بقية النصوص الواردة في شأن الكبر لوجدناها على شاكلة
ومنوال هذه النصوص التي أماننا تبين الكبر بشقيه ، وتركز أكثر على الظاهر
منه للأسباب التي ذكرتها سابقاً .

وإنني لأرجو الله تعالى أن يوفقني لتوضيح تلك النصوص من الكتاب
والسنة في ثنايا مباحث هذه الرسالة ، وخاصة المبحث الخاص بالحديث عن
آثار الكبر وعلاماته على سلوك المتكبرين .

ثانياً : ينقسم الكبر باعتبار أحكامه إلى ثلاثة أقسام :

١ - كفر .

٢ - كبيرة من الكبائر .

٣ - مباح .

كبر الكفر هو : التكبر عن الإيمان بالله جل جلاله ، والأنفة من
الخضوع له والانقياد لرسله عليهم الصلاة والسلام .

والكبر الذي هو كبيرة من الكبائر هو تكبر الأقران والنظر من العباد
على بعضهم البعض ، تكبراً غير صارف عن الإيمان .

والكبر المباح هو العزة التي تعني الترفع عن السفاسف ، والسمو بالنفس
إلى الأمور العوالي .

هذا باختصار ، وسيأتي التفصيل في الفصل الخاص بأحكام الكبر بإذن الله
تعالى .

ثالثاً : أقسام التكبر باعتبار أفراده ، وهي قسمان :

١ - تكبر فردي .

٢ - تكبر جماعي .

فأما التكبر الفردي فيحصل من فرد معين بذاته ، كما قص علينا القرآن الكريم خبر أفراد من المتكبرين ، يتقدمهم إبليس عليه لعنة الله .

ومنهم : نمرود ، وفرعون ، وهامان ، وقارون ، وصاحب الجنتين ، وأبوجهل ، والوليد بن المغيرة ، وأبي بن خلف... ، وغيرهم مما يأتي بيانه - بإذن الله تعالى - في فصل مستقل من فصول هذه الرسالة عنوانه : أحداث تاريخية للتكبر في ضوء الكتاب والسنة .

وفي السنة النبوية نجد قصة الأكل بشماله في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقصة الرجل ممن كان قبلنا... وغيرهم مما يأتي بيانه كما أشرت قريبا .

ولعله من المناسب هنا ذكر بعض صور التكبر الفردي من واقعنا المشاهد :

فهذا حاكم ظالم متكبر مستبد يأنف من قبول الحق والرجوع إليه ، خشية اهتزاز عرشه ، وذهاب جاهه ، وضعف سلطانه ، وهو كذلك لايهتم بأمر رعيته صلح أم فسد ، فالمهم عنده أن يبقى على كرسي الحكم لايتزحزح عنه ليبقى في عليائه ، غير مبال بما حُمِّل من الأمانة العظيمة ، أمانة القيام بمصالح عباد الله تعالى الذين استرعاه الله عليهم ، وأمانة حكمهم بشريعة الله ، والقيام فيهم باتباع منهج الله ممثلاً في كتابه الكريم وسنة نبيه العظيم صلى الله عليه وسلم .

إن الحاكم المتكبر يظن أن الناس عبيده وخدمه ، فعليهم أن لايقصروا في خدمته والسهر على راحته ، وعليهم تنفيذ أوامره دون إبطاء أو مناقشة وإن كانت ضد مصالحهم ، بل وإن كانت تخالف أمر الله تعالى وحكمه وشرعه ، وإن ظهر في الساحة من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الإصلاح وإلى العودة إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون لهما الحكم في الحياة كما أراد الله تعالى ، فالويل له ولمن وافقه ، من

ذلك الحاكم المتكبر المتجبر ، الويل له من بطشه وجبروته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ولو أدرك الحاكم أنه خادم قبل أن يكون مخدوماً ، وأنه حارس قبل أن يكون محروساً ، وأنه مؤتمن أمانة عظيمة سيسأل عنها في يوم عظيم بين يدي القهار العظيم ، لو أدرك ذلك لما تعالى واستطال وبغى واختال ، ولكان له في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي خلفائه الراشدين ، ومن سار على منهجهم من الحكام المسلمين أسوة وقدوة في الخشية والسكون والسكينة والتواضع .

فأين المتكبر من حاكم المسلمين الأول محمد بن عبد الله الذي كان يجلس وسط أصحابه فلا يعرفه الداخل عليهم ولا يميزه من بينهم حتى يقال له : هذا رسول الله؟! أترى هذا الحاكم موجود الآن؟!

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم من أراد أن يلقاه أو يكلمه لقيه وكلمه دون عناء ودون وجل ، فلم يكن الحراس يحيطون به من كل جانب ، ولم يكن على بابه حارس أو حاجب ، فهل يوجد هذا الآن؟

و خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشدون كان أحدهم إذا ولي أمر المسلمين قال : أيها الناس ، إني وليت عليكم ، ولست بخيركم...أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم...إن أحسنت فأعينوني ، وإن أخطأت فقوموني... ، يقول هذا وهو صادق فيه ، وترجمه أعماله وسيرته فلا يخالف عمله قوله ، فهل من حاكم يفعل ذلك الآن؟!

وغير هذا من صور تواضع الحاكم المسلم كثير ، هي الآن تكاد تفقد إن لم تكن قد فقدت بالفعل عند كثير من حكام المسلمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وصورة ثانية للكبر تظهر من خلال رئيس أو مدير أو صاحب منصب في عمل ما ، يستعلي بمنصبه ذاك ، فينظر إلى رؤوسيه أو من هم تحت إدارته ، أو مراجعيه ، نظرة احتقار واستصغار ، مقصراً في أداء حقوقهم ، متهاوناً في حفظ كراماتهم ومقاماتهم .

وصورة ثالثة تظهر من خلال ثري معتر بأمواله مزهو بها ، ينظر إلى

الفقراء بكل حقيره ، مترفعا عليهم ، آنفاً من مخالطتهم في مجلس أو محفل أو مشرب أو مأكّل ، لا يفكر بالزواج منهم ولا يقبل أن يزوجهم ، وكل ذلك لأنه من طبقة فوق طبقتهم ، فهو من طبقة الأغنياء الوجهاء ، وهم من طبقة الفقراء المعدمين .

ورابعةٌ تظهر من خلال شخص يزعم أنه حسيب شريف ، فيختال وينتفش معتزاً بحسبه منتقصاً الآخرين مسترذلاً لهم ، نابزاً لهم بأجناسهم وفصائلهم ، ولسان حاله ومقاله كلسان حال ومقال قائده إبليس القائل عن آدم عليه السلام : أنا خير منه ، وهذا يقول : أنا وطني كذا ، أنا الحسيب من سلالة حسب ، فأنا خير من سائر الأجناس الأخرى .

وخامسة تظهر من خلال إنسان يستأجر عمالاً للقيام بعمل له ، فإذا أنجزوا عملهم - بعد عناء ومشقة - ماطلهم في إعطائهم أجرتهم ، وقد ينتقص منها ، وقد يطغى أكثر فيجحدّها ولا يعطيهم منها شيئاً ، فمن يفعل هذا لاشك أنه متكبر مغرور يرى نفسه فوق هؤلاء المساكين ، فلا يرى لهم عليه حقاً ، وهو بهذا يعرض نفسه لهذا الوعيد الشديد الذي في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : « ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ »^(١) .

وسادسة تظهر من خلال زوج ينظر إلى زوجته على أنها خادمة عنده فلا يعطيها من حقوقها شيئاً ، أو زوجة تتكبر على زوجها وتستعلي عن خدمته وأداء سائر حقوقه عليها لكونها من أسرة غنية أو حسيبة أو لكونها ذات جمال أو لكونها تحمل شهادة دراسية لايحملها .

وسابعة تظهر من خلال طالب أو متعلم لا يوقر معلمه ، ويتعالى عليه ، ولا يقبل بنصحه ، ولا يعير توجيهه انتباهها ، ويريد منه أن يمنحه النجاح وإن لم يستحقه ، كل ذلك سببه ما في نفسه من الكبر والتعظيم عليه ، وطالب كهذا لا يمكن أن ينال العلم ، لأن العلم هبة ونفحة ربانية لا ينالها المتكبرون ، ولأنه

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب البيوع ، باب إثم من باع حراً ١٧٧١٣ ، وفي كتاب الإجارة ، باب إثم من منع أجر الأجير ١٩٢/٣ .

سيمنعه كبره من ذلك ، فقد قيل : « لا يتعلم العلم مستح ولا متكبر »^(١) .

وثامنة تظهر من خلال متعالم حمل شهادات وإجازات ، فهو يفخر بها ويزهو ويتعالى على غيره ، يقال له : شيخ أو أستاذ أو دكتور ، ويجعل في مدرسة أو كلية أو جامعة.... ليعلم وليربي ، فإذا كبره على تلامذته كبير ، يعنفهم لالتأديب ، ويهزأ بهم إذا وقعوا في خطأ دون توجيه ، لا يقبل عذر معتذر ، ولا اعتذار مقصر ، وقد يغمطهم حقوقهم فلا يعطي الواحد منهم ما يستحقه من التقدير والدرجة ، خاصة الدرجة الكاملة ، ولسان حاله ومقاله إذا أعطي الطالب الدرجة كاملة فماذا يُعطى هو وهو المعلم الجهيد؟
يفعل كل ذلك إرضاء لكبر نفسه وخيلائها ، حتى لا يكون من يعلو عليه أو يساويه .

وتاسعة تظهر من خلال شاب متعه الله بنضرة الشباب ، وأعطاه القوة والنشاط ، وأنعم عليه بالصحة والعافية ، فإذا به يختال بذلك ، إذا مشى تبختر ، وإذا تكلم تفخّم ، لا يعتذر إذا أساء ، ولا يقبل العذر من من أخطأ ، ومادري المسكين أن النضرة يخلفها ضمور ، والشباب يعقبه مشيب ، والقوة والنشاط يتلوهما ضعف وعجز ، بل ومادري أن قدرة الله تعالى لا حدود لها ، فلربما في لحظة واحدة يتبدل حاله بأمر الله تعالى إلى غير الحال التي هو بها مزهو ومختال ، فيصبح يقلب كفيه حسرة وأسفا ، وهيئات أن ينفعه ذلك .

تلك كانت بعض صور للمتكبرين والتي تضج بها مجتمعاتنا وغيرها كثير ، وهي شاهدة على أن التكبر لم يكن قضية ماضية ولى زمنها ولن يعود ، بل ستبقى صور التكبر قائمة ما وجد أناس يقتفون أثر إبليس الرجيم ويرفعون شعاره الذميم : أنا خير منه .

وأما التكبر الجماعي وهو القسم الثاني من أقسام الكبر باعتبار أفراد ، فلا يخفى ما جاء في القرآن الكريم من قصص المتكبرين أمثال قوم نوح وعاد

(١) هذا قول مجاهد يرحمه الله ، ذكره البخاري في صحيحه تعليقا في كتاب العلم ، باب الحياء في العلم ١/١٢٧ ، قال في الفتح : « وصله أبو نعيم في الحلية من طريق علي بن المديني ، عن ابن عيينة ، عن منصور ، عنه ، وهو إسناد صحيح على شرط المصنف » . فتح الباري شرح البخاري ١/٣٠٥ .

و ثمود ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى وكفار قريش... وغيرهم ممن
ذكرهم كتاب الله تعالى ، ويأتي بيانهم في الفصل الخاص بهم .
فلم يكن استكبار هؤلاء عن الإيمان بالله تعالى وأنفتهم عن الانقياد
لرسله فردياً ، بل كان جماعياً ، حيث يتمالأ الملاء منهم على ذلك ويقفون في
وجه الرجل والرسالات معرضين عن دين الله صادين عن سبيله ، إما محافظة
على ميراث الآباء والأجداد أو خشية ذهاب سلطانهم وجاههم ، أو تعظماً أن
ينقادوا لبشر أو أنفة أن يتساووا مع المستضعفين المسارعين إلى الإيمان بالله
تعالى وبرسله الكرام عليهم صلواته وسلامه .

رابعاً : أقسام الكبر باعتبار المتكبر عليه

ينقسم الكبر بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - تكبر على الله تعالى .
- ٢ - تكبر على الرسل الكرام .
- ٣ - تكبر على سائر الناس من الأقران والنظرء .

١ - التكبر على الله عزوجل :

التكبر على الله عزوجل له صور متعددة ، كما يستفاد من نصوص القرآن الكريم ، وهي على النحو التالي :

أ - التعدي على مقام الربوبية والألوهية بادعائها ، أو ادعاء خصيصة من خصائصها ، وهذا منتهى الطغيان والجبروت والتعظم ، لم يحصل إلا من نمرود وفرعون عليهما لعنة الله تعالى ، فقد خاصم وجادل نمرود إبراهيم عليه السلام في ربه تبارك وتعالى جاحداً له، منكرأ أن يكون إله غيره ، وعندما قال له إبراهيم عليه السلام : ربي الذي يحيي ويميت ، قال : أنا أحيي وأميت ، مدعياً لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرةً ، موهماً أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت^(١) .

وتبع فرعون نمرود في عتوه وطغيانه وتعديه على مقام الربوبية والألوهية ، فقال لقومه : أنا ربكم الأعلى ، وقال لهم : ما علمت لكم من إله غيري .

ولم أجد فيما قصه القرآن الكريم من قصص المتكبرين من قاده كبره إلى التطاول على مقام الربوبية والألوهية بادعائها لنفسه غير هذين الاثنين فحتى أول المتكبرين إبليس لم يقم هذا المقام البالغ ذروة العتو والطغيان .

ب - الأنفة من عبادته أو إفراده بالعبادة دون سواه .

خلق الله تعالى الخلق وأوجدهم من العدم ليعبدوه وحده لا شريك له ، فهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

(١) انظر : تفسير البغوي (معالم التنزيل) ٢٤١/١ ، وتفسير ابن كثير ٣٢٠/١ ، ٣٢١ .

ولقد كان الناس على التوحيد حتى زين لهم الشيطان عبادة غير الله تعالى ، فاتخذوا آلهة شتى يعبدونها من دونه ، فأرسل الله تعالى رسله إليهم مؤيدين بالكتب والآيات ، يدعونهم إلى العودة إلى التوحيد الخالص ، إلى إفراد الله تعالى وحده بالعبادة ، ونبذ عبادة ماسواه من الآلهة الباطلة التي لاتملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولاتملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضرراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ﴾ [الفرقان: ٣] ، فكانت مهمة الرسل دعوة هؤلاء الجاهلين الفاسقين والعودة بهم إلى ميدان الوحدانية ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

ولكن كثيراً من أولئك الضالين كانوا قد ألفوا عبادة الآلهة المختلفة وأشربتها قلوبهم ، فكان أن استكبروا عن عبادة الله تعالى وحده وأنفوا من ذلك ، وقاموا يجادلون في آيات الله ويكذبون رسله ، ويتواصون فيما بينهم على التمسك بآلهتهم وآبائهم وعدم تركها لعبادة إله واحد لاشريك له . ولننظر فيما قصه علينا القرآن الكريم من قصص هؤلاء المستكبرين فسنجد هذه الحقيقة جلية لا مرية فيها .

لقد أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه فقال لهم : ﴿ يَأْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، أي : إنا لنراك في دعوتك إيانا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا في ضلال عن طريق الحق ^(١) .

وهود عليه السلام حين قال لقومه : ﴿ يَأْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥] ، قالوا له : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] ، كما قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكََاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦] ، اتهموه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٣٢ ، وفتح القدير ٢/٢١٦ .

بالسفاهة والحمق والكذب حين دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، ثم لشدة تمردهم على الله تعالى ونكوصهم عن طريق الحق استعجلوا العذاب الذي كان يعدهم به هود عليه السلام^(١) .

وكما أصر قوم نوح عليه السلام على الإشراك بالله تعالى وقالوا : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنْ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] ، أصر قوم عاد كذلك فقالوا : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣] .

وعلى نفس الطريق الضال سار قوم ثمود ، فقالوا لنبيهم صالح عليه السلام حين قال لهم : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٦١] ، قالوا له : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢] .

وبنفس المنطق الأعوج رد أهل مدين على نبي الله شعيب عليه السلام وقد قال لهم : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٨٤] ، فقالوا له : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [هود: ٨٧] ، قالوا ذلك مستهزئين به منكرين عليه ، أمره لهم بعبادة الله تعالى وحده^(٢) .

وبعث الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للأنبياء والمرسلين ، بعثه داعياً إلى توحيده وترك عبادة ماسواه ، فأى موقف وقفه المستكبرون من قومه؟

يخبرنا الله سبحانه وتعالى بذلك فيقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٠] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصفات: ٣٥، ٣٦] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ

(١) انظر : فتح القدير ٢/ ٢١٨ .

في تفسيره

(٢) انظر : فتح القدير ٢/ ٥١٨ .

أَنْ اَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَاد . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿ص: ٤-٧﴾ .

إنهم يستكبرون عن قول لا إله إلا الله ويأنفون من السجود للرحمن
سبحانه وتعالى ، بل يقولون إنكاراً واستهزاءً ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ ، أي :
« لا نعرفه ولا نقرّ به »^(١) ، كما أنهم يتهمون الرسول صلى الله عليه وسلم
ويقذفونه بالشعر والجنون والسحر والكذب لدعوته إياهم إلى عبادة إله واحد
هو الله عز وجل ، ويعلنون تعجبهم من ذلك ، ثم يتواصون بالصبر على آلهتهم
ومعبوداتهم الباطلة الزائفة .

وليس المجال مجال الحديث عن الشرك وصوره وأسبابه... الخ ، إذ
لطال بنا المقام ، ولكنها إشارة إلى إحدى صور التكبر على الله تعالى ، وهي
الاستكبار عن إفراده بالعبادة .

وحاصلها : أن رسل الله تعالى دعوا أقوامهم إلى أن يخلصوا دينهم لله
وحده ، فلا يعبدوا ولا يتخذوا آلهة سواه ، فأنف المستكبرون منهم من ذلك ،
ولزموا ما كانوا يعبدون هم وأبائهم ، وظلوا في طغيانهم يعمهون ، فلم تغن
عنهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله من شيء حين أخذهم الله
بذنوبهم ، ولن تغني عنهم شيئاً حين يقال لهم : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌ
فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠] .

ج - ومن صور التكبر على الله تعالى وصفه سبحانه وتعالى بما لا يليق
به ، أو نفى ، أو تحريف ، أو تشبيه ، أو تعطيل صفاته اللاتقة به سبحانه
وتعالى ومن ذلك :

١ - افتراءات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الله سبحانه وتعالى
بقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقول اليهود : عزيز ابن الله ، والنصارى :
المسيح ابن الله ، وقول اليهود : يد الله مغولة ، وقولهم : إن الله فقير ونحن
أغنياء ، وقول النصارى : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقولهم : إن الله ثالث
ثلاثة ، وقول أهل الكتاب : إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا

(١) تفسير ابن كثير ٣٣٧/٢ .

بقربان تأكله النار ، إلى غير ذلك من الافتراءات التي تجرأ أهل الكتاب بها على الحق سبحانه وتعالى .

٢ - ومن ذلك قول المشركين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن الملائكة بأنهم بنات الله .

٣ - ومن ذلك إلحاد المشركين في أسمائه سبحانه وتعالى وعدولهم بها عما هي عليه ، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، فسموا بعضها اللات ، اشتقاقاً من اسم الله الذي هو الله ، وسموا بعضها : العزى ، اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو العزيز^(١) .

ويلحق بهؤلاء من ألحد في أسماء الله تعالى من أهل الفرق التي ظهرت في الأمة الإسلامية ، فأغواه الشيطان وأزله عن سواء السبيل ، فكان منهم من عطل أسماء الله تعالى وصفاته الحسنی ومنهم من حرفها ، ومنهم من شبهها ، ومنهم من مثلها ، وكلهم ألحد فيها وعدل بها عن الحق .

والحق هو ماذهب إليه أهل السنة والجماعة حين أثبتوا لله تعالى من الأسماء والصفات الحسنی ما أثبتته لنفسه في كتابه أو أثبت له رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل .

د - ومن صور التكبر على الله تعالى جحد آياته سبحانه وتعالى ، والمجادلة فيها بالباطل وبغير حجة أو برهان ، والاستكبار عن قبولها ، والإعراض عنها والاستهزاء بها .

وآيات الله تعالى إما أن تكون آيات كونية مشاهدة ، وإما أن تكون آيات مقروءة في الكتب وعلى ألسنة الرسل ، وإما أن تكون معجزات أيد بها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام دالة على صدقهم وصدق ما جاؤوا به .

وكل هذه الآيات بأنواعها الثلاثة دالة على عظمة الله جل جلاله ووحدانيته ، داعية إلى إفراده بالعبادة دون سواه ، لكن المستكبرين تعظمت أنفسهم عن قبولها والإذعان لها ، فقاموا يحدونها ويجادلون بالباطل لدحضها ، ويتخذونها هزواً معرضين عنها مكذبين بها ، فكان أن حاق به ما كانوا به يستهزئون ، فنزل بهم عذاب الله في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد

(١) انظر : تفسير الطبري ١٣٢/٩ .

وأبقى .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] .

هذه الآية الكريمة تصور حال الظالمين عند احتضارهم وهم في سكرات الموت وكرباته والملائكة يضربونهم ويعذبونهم ويكتونهم بقولهم لهم : أخرجوا أنفسكم ، أي : أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التي وقعتم فيها ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب ، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وسلموها إلينا لنقبضها ، ثم يزيدونهم تبكيتاً بأن ييشرونهم بالعذاب المهين الذي مبتدؤه في هذه اللحظات مبينين لهم سبب استحقاقهم له ، وهو : أنهم كانوا يقولون على الله تعالى غير الحق ، فيقولون : ما أنزل الله على بشر من شيء ، ويقولون : أوحى إلينا ولم يوح إليهم شيء ، ويقول قائلهم : سأنزل مثل ما أنزل الله ، كما أنهم كانوا يستكبرون عن آيات الله فلا يصدقوا ولا يعملوا بها^(١) ، ولا يخضعون لأمر الله أو رسوله ، ولا ينقادون لطاعته^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مَّجْرِمِينَ ﴾ [الحاثية: ٣١] .

هذا والآيات القرآنية التي تبين هذه الصورة من الاستكبار على الله تعالى كثيرة ، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى عند ذكر قصص المتكبرين وصور تكبرهم التي قصها وبينها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وذلك في المبحث الخاص بالحديث عن المتكبرين الذين وردت قصصهم في القرآن والسنة .

هـ - ومن صور التكبر على الله تعالى : التحاكم إلى غير شرعه والحكم بغير ما أنزل خاصة إذا خالف هوى النفس وعادات الآباء ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ

(١) انظر : فتح القدير ١٤٠/٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٧٦/٧ .

تَرِ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿النساء: ٦٠-٦١﴾ .

فمن تحاكم إلى غير شرع الله كان عاتياً على الله ، ولا يفعل ذلك إلا حين يظن أن الحق والعدل والخير فيما تحاكم إليه من الطاغوت لا فيما شرعه الله تعالى ذوالجبروت والعزة والملكوت سبحانه وتعالى ، لذا فهو يستكبر أن يتحاكم إلى شرع الله عزوجل ، وهذا فعل المنافقين ، أما المؤمنون فلا يتحاكمون إلا إلى الله تعالى ، قال الله تعالى في ذم المنافقين ومدح المؤمنين : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿النور: ٤٧-٥٢﴾ .

٢ - التكبر على الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام :

التكبر على الرسل الكرام يأتي على صور متعددة ، منها :

أ - الأنفة من اتباعهم لبشريتهم .

فالمستكبرون كما يظهر من قصصهم في القرآن الكريم أنفوا من اتباع رسل الله تعالى ولسان حالهم ومقالهم : كيف نخضع لبشر مثلنا يقودنا

ويسوسنا ويأمرنا وينهانا ، يقول : افعلوا هذا ولا تفعلوا هذا؟ كيف ننقاد لبشر مثلنا يريد أن يتفضل علينا؟ أنى يكون له الفضل علينا وليس يختلف عنا في البشرية؟

قال المستكبرون من قوم نوح عليه السلام كما أخبر القرآن عنهم : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ، يقولون : هو إنسان مثلكم يريد أن يترفع عليكم ويتعاضم بدعوى النبوة^(١) ، فيصير له الفضل عليكم فيسودكم وتكونوا له تابعين منقادين لأمره^(٢) .

وقال المستكبرون من قوم هود : ما هذا إلا لبشر يأكل كأكلكم ويشرب كشربكم ، كذبوا رسول الله هوداً عليه السلام وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم مستنكفين عن اتباع رسول بشري ، فكونه مساوياً لهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم^(٣) ، يقولون : لئن اتبعتموه إنكم لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم إياه^(٤) .

ومثل هذه الأنفة أظهرها قوم صالح عليه السلام ، فقالوا : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُغُرٍ . أَأَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥] ، يقولون : لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منها ، ثم تعجبوا من كونه أوحى إليه من دونهم ووصفوه بالكذب الذي تجاوز الحد^(٥) ، أو بالبطر والتكبر وهو أنسب بالمقام كما قال في فتح القدير^(٦) ، ويعني والله أعلم أنهم أرادوا أنه يريد بدعوى النبوة التعظم عليهم والرفعة بينهم .

ومثل ذلك قال المستكبرون من قوم شعيب عليه السلام : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا

(١) انظر : تفسير الطبري ١٦/١٨ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٥٤/٣ .

(٣) انظر : فتح القدير ٤٨٣/٣ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٩/١٨ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٢٨٤/٤ .

(٦) انظر : فتح القدير ١٢٦/٤ .

أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿الشعراء: ١٨٥، ١٨٦﴾ .

وتلك مقالة قالها المستكبرون فرعون وملؤه : ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ
مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] .

وقال المستكبرون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما قال
تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ
بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] .

وهكذا تشابهت قلوب المستكبرين من الأمم جميعها فقادتهم أنفتهم من
الانقياد لبشر مثلهم إلى الاستكبار عن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وطاعة أمره
ونهيهِ وتصديق رسله المخلصين فباؤوا بالذلة ورجعوا بالعذاب المهين .

ب - إيذاؤهم بالقول والفعل .

لقد لقي المرسلون من المستكبرين صنوف الأذى قولاً وفعلًا ، فقالوا
عنهم : كاذبين أفاكين ، وقالوا : سفهاء ومجانين ، وقالوا : سحرة
ومسحورين ، وتوعدوهم بالحبس والرحم والضرب والإخراج والإحراق ، بل
فعلوا ذلك وطبقوه ، وماوقفوا في إيذاؤهم عند حد .

والشواهد من النصوص على هذا كثيرة نذكر بعضها على سبيل المثال
ليتضح به ماقدما من المقال .

قال تعالى في ذكر الملا المستكبرين من قوم نوح عليه السلام : ﴿قَالُوا
لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] ، يتوعد الملا
المستكبرون نبي الله نوحا عليه السلام ، يقولون : لئن لم تترك عيب ديننا
وسب آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة ، وقيل : من المشتومين ، وقيل :
من المقتولين^(١) .

وقال تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ
مَبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، يصف المتكبرون نوحا عليه السلام بالضلالة ؛ لأنه دعاهم
إلى عبادة الله تعالى وحده .

وقال تعالى في ذكر الملا المستكبرين من قوم هود عليه السلام : ﴿إِنْ

(١) انظر : فتح القدير ١٠٩/٤ .

نَقُولُ إِلَّا اغْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ [هود: ٥٣، ٥٤] ، يكذبون بآيات الله ويصرون على عبادة غيره
وعدم الإيمان به سبحانه وتعالى ثم يقولون : مانظن ياهود إلا أن بعض آلهتنا
التي تعيها وتسفه رأينا في عبادتها قد أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب
ذلك^(١) .

ووصف الملاً المستكبرون هودا عليه السلام بالكذب فيما جاءهم به ،
فقالوا : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ
بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨] .

وقال تعالى في شأن المستكبرين من قوم صالح عليه السلام : ﴿قَالُوا إِنَّمَا
أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] ، أي : مسحوراً لاعقل لك^(٢) .

وقال تعالى في شأن المستكبرين من أهل مدين : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ
لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَانُوا فِي السَّعْيِ وَالْإِعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٨٨] ، يتوعدون نبي الله شعيبا
عليه السلام ومن آمن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم
والدخول معهم فيما هم فيه^(٣) .

وقال تعالى عن قوم لوط عليه السلام : ﴿قَالُوا لئن لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] ، يقولون متوعدين : لئن لم تنته يالوط عن نهينا
عن إتيان الذكران لنخرجنك من بين أظهرنا وبلدنا^(٤) .

وقال الله عز وجل في شأن المسكتبرين من أمة محمد صلى الله عليه
وسلم : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، يخبر الله تعالى
رسوله صلى الله عليه وسلم بتآمر المشركين عليه ليثبتوه ، أي : يقيدوه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٦٥/٢ ، فتح القدير ٥٠٥/٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٦/٣ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢٤٢/٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٠٦/١٩ .

ويحبسوه^(١)، وقيل: ليثبتوه بالجراحات^(٢)، وقيل: ليسحروه^(٣)، أو يقتلوه أو يخرجوه من مكة من بلده وبلد أهله^(٤).

ومن قبل قال قوم إبراهيم عليه السلام كما أخبر الحق سبحانه وتعالى عنهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وفعلوا ما توعدوه به فأوقدوا له ناراً عظيمة وألقوه فيها، ولكن الله تعالى حفظه ونجاه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُوجَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُجِرَتْ جَزُورٌ بِالْأُمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا^(٥) جَزُورٍ بَيْنِي فَلَانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفِي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَاثْبَعَتْ أَشَقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ...»^(٦).

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٣١٤.

(٢) انظر: فتح القدير ٢/٣٠٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٩/٢٢٦.

(٤) انظر: فتح القدير ٢/٣٠٢.

(٥) السَّلا: بفتح السين المهملة وتخفيف اللام مقصور، وهو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة. انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ١٢/١٥١.

(٦) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته ١/١٧٢، وفي كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى ١/٢٧٧.

وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب مالقي النبي صلى الله عليه وسلم من

وفي الحديث الآخر «يَبْنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَحَنَقَهُ حَنَقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾» [غافر: ٢٨] (١).

وفي الحديث الآخر كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٢).

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وغيرها كثير فيها بيان لما لقيه المرسلون عليهم صلوات الله وسلامه من المستكبرين من أقوامهم من ألوان الأذى قولاً وفعلاً، فصبروا وصابروا وجاهدوا في الله حق جهاده، وبلغوا دين الله تعالى وقاموا بشرعه لا يخافون فيه لومة لائم، غير مباليين بما يلقونه من ذلك الأذى العظيم، فصلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ونسأله تعالى أن يجعلنا بهم في حياتنا مقتدين وعلى نهجهم سائرين، وأن ينيلنا شفاعتهم يوم الدين ويرزقنا مرافقتهم في جنات النعيم.

ج - الهزاء والسخرية بهم .

وهذا لون من ألوان الأذى الذي لقيه رسل الله تعالى وقبولوا به من المستكبرين، فقد قال الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام وقومه المستكبرين: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، وأخبر الحق تعالى أن المستكبرين قالوا لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقال المستكبرون لنبي الله هود عليه السلام: ﴿إِنَّا

أذى المشركين والمنافقين ١٤١٨١-١٤٢٠ .

(١) أخرجه البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، في كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً» ٧٠/٥.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان ١٠/٥، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ١٤١٧/٣ .

لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ [الأعراف: ٦٦] ، وقال الطاغية المتكبر فرعون لعنه الله ساحراً ومستهزئاً بموسى عليه السلام : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] .

ومن قبل قال المستكبرون لنبي الله شعيب عليه السلام على سبيل السخرية والهزاء : ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] .

وقال المستكبرون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يشيرون إليه هازئين ساخرين كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] .

د - طلب الآيات منهم ، ثم تكذيبها .

مما كان يتعنت به المستكبرون على رسل الله تعالى أنهم كانوا يطلبون منهم أن يأتوهم بالآيات المعجزات الدالات على صدق رسالاتهم ليؤمنوا بهم ويتبعوهم ، فلما يجري الله عز وجل آياته على أيدي رسله عليهم الصلاة والسلام ويؤيدهم بها إذا أولئك المستكبرون يكذبون بها ويكفرونها ويزعمون أنها سحر سُحروا به ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ٩، ١٠] ، يكذب أولئك المستكبرون رسل الله تعالى فيما جاءوهم به ويكفرون به ثم يقولون لرسول الله تعالى : فأتونا بحجة على ماتقولون تبين لنا حقيقته وصحته ، فنعلم أنكم فيما تقولون محقون .

وهل هم صادقون فيما يقولون؟ كلا! إنما هو التعنت والاستكبار ، فهؤلاء قوم ثمود يقولون لصالح عليه السلام : ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤] ، فلما أخرج الله تعالى لهم ناقة من هضبة من الأرض آية باهرة ، دليلاً على نبوة صالح عليه السلام وصدق مقالته ، وحذرهم نبيهم صالح عليه السلام من أن يتعرضوا لها بسوء ، لم يلبثوا أن

عقروا تلك الناقة، وطلبوا العذاب جهلاً واستكباراً، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا
النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

وهاهو فرعون يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦] ، فلما أظهر موسى عليه السلام آيات ربه التي أيده
بها كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا
هِيَ يَبْيَضُاءٌ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨] ، إذا بفرعون يحاول دحض الحق المبين باتهام
موسى عليه السلام بأنه ساحر، فيلتفت إلى ملئه قائلاً: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ
أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] ، وقال فرعون وملؤه
المستكبرون مصرين على الاستكبار والتكذيب: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا
فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢] .

وختم الله عز وجل الرسل والرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، فإذا
الملاّ المستكبرون يقفون موقف الغابرين مستكبرين مكذبيين، يرون آيات الله تعالى
تجري على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فلا يؤمنون ولا يصدقون، قال الله
تعالى: ﴿اِقْرَبْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ .
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ١-٣] ، وفي الحديث المتفق عليه:
«أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر
شقيين، حتى رأوا حراء بينهما»^(١) .

فهذه النصوص وغيرها براهين ساطعة تدلل على هذه الصورة من استكبار
المستكبرين على رسل رب العالمين، حيث يطلبون منهم الآيات الدالة على صدقهم،
فإذا جاءتهم لا يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ

(١) الحديث راويه أنس بن مالك رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله
عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر ٥/٥٧، وفي كتاب مناقب الأنصار، باب
انشقاق القمر ٥/١٢٦، وفي كتاب التفسير، سورة اقتربت الساعة، باب وانشق
القمر ٥٢١/٦ .

وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر ٤/٢١٥٨ .

لِيُؤْمِنَ بِهَا قُلُوبٌ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿[الأنعام: ١٠٩، ١١٠] .

هـ - قتلهم .

أعطى صور الاستكبار على رسل الله عز وجل هي : قيام المستكبرين بقتلهم ، فمن الأنبياء من أرادوا قتله ، فنجاه الله تعالى كما فعل بإبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، وكما تأمر الأشقياء من قوم صالح عليه السلام عليه وقالوا : ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] ، وكما تأمر المشركون على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليحبسوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، ومن الأنبياء من تحققت فيه مشيئة الله الحكيم سبحانه فخلص إليه المستكبرون فقتلوه ومنهم زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام^(١) .

وقتل الأنبياء كما يحدثنا القرآن الكريم هو سلوك بني إسرائيل ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ، وقال تعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] .

روى عن ابن مسعود رضي الله عنه : « كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار »^(٢) .

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٨/٢/١ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ، قال : حدثنا يونس بن حبيب ، ثنا أبوداود ، ثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر الأزدي ، عن عبدالله بن مسعود ،

وذكر الحديث .

هذا هو غاية التجبر والاستكبار على رسل الله الكرام ، وهذه هي أبشع صورة له أن يقتل نبي جاء بالخير والهدى والنور من عند ربه ليخرج العباد من ظلمات الشرك والوثنية وينقذهم من عذاب السعير : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٨، ٩] .

٣ - التكبر على سائر الناس :

وأما التكبر على سائر الناس من غير الأنبياء والمرسلين ، فيأخذ أشكالاً وصوراً متعددة كذلك ، وكلها داخلية تحت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه للكبر بأنه : بطر الحق وغمط الناس من هزء وسخرية بهم ، واستنقاص واسترذال لهم ، وترفع وتعظم وبغي وفخر وتطاول عليهم وأنفة منهم ، وتسفيه لأحلامهم وآرائهم ، وعدم قبول الحق إن جاء من قبلهم ، ومعاملتهم بالقسوة والجفاء ، وعدم الرفق بهم واللين لهم ، والبخل بأنواع الخير عليهم وعدم إعطائهم حقوقهم من الإحسان والبر والمودة ، والتقدم عليهم في كل محفل ومجلس...

وأعظم صورة للاستكبار على سائر الناس هي : إزهاق أرواحهم كما هو الشأن في أعتى صور المستكبرين على رسل الله تعالى وسبق قريباً .

ويشهد لما ذكرت من هذه الصور للاستكبار النصوص من الكتاب والسنة ومنها مايلي :

قال تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] .

هكذا قال المستكبرون من قوم نوح عليه السلام يقولون لانؤمن لك ولا تتبعك وتتأسى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك^(١) ، ولم يكن

انظر : تفسير القرآن العظيم ١/ ١٢٦ ، وذكره في الدر المنثور ١/ ١٤٢ ، ونسبه إلى

أبي داود الطيالسي وابن أبي حاتم .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٣ .

ذلك عن ترو^١ منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد مادعوتهم أجابوك فاتبعوك^(١). يستنقصون الفقراء والمستضعفين أتباع الرسل، ويصفونهم بالسفلة، ويعتونهم بخفة العقل وسفاهة الأحلام، ويأنفون من قبول الحق الذي اتبعوه، ثم إذا هم لأنفتهم منهم يطلبون من نوح عليه السلام أن يطردهم إن طمع في إيمانهم، فقال لهم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مَلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

وحذا المستكبرون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حذو أولئك المستكبرين من قوم نوح، فطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يطرد من حوله ممن آمن به من الفقراء والمستضعفين أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي...؛ ليجلسوا هم إليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ولماذا يطلب أولئك المستكبرون من الرسل طرد من آمن بهم وصدقهم واتبعهم؟ إنهم يفعلون ذلك ترفعاً عليهم واستنقاصاً لهم كونهم فقراء مستضعفين ليسوا كمثالهم أشرافاً ورؤساء وسادة وأغنياء، وهذا من جهلهم وحمقهم وقلة عقلهم؛ لأن الشرف والغنى والعزة باتباع الحق، والردالة والصغار والفقر بمخالفته، فعزة النفس وغناها بالإيمان لاتدانيها عزة بزخرف ومتاع زائل.

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

هكذا يقول المستكبرون من قوم صالح عليه السلام لمن آمن به من المستضعفين على طريق الاستهزاء والسخرية^(١): أتعلمون صالحاً صادقاً

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤٥٨/٢.

(١) انظر: فتح القدير ٢٢٠/٢.

أم كاذباً فيما يقول^(١)؟

فأجابهم المستضعفون : إنا مؤمنون برسالته مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم ، هل تعلمون برسالته أم لا؟ فأجابوهم بذلك مسارعة إلى إظهار مالهم من الإيمان وتبليهاً على أن كونه مرسلاً أمر واضح مكشوف لا يحتاج إلى السؤال عنه^(٢) ، فقال المستكبرون استهزاء وتهكماً بالمستضعفين : إنا بالذي آمنتم به كافرون ، حملهم الكبر على أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء^(٣) .

وقال الله تعالى بعد أن أمر بتوحيده وبالإحسان إلى الوالدين والأقربين والجيران واليتامى والمساكين والأصحاب وابن السبيل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] ، وما ذكر الاختيال والفخر هاهنا إلا لأنهما خلقان يمنعان صاحبهما من الإحسان إلى من ذكر ، ويحملانه على الأنفة مما ندب الله تعالى إليه في هذه الآية^(٤) .

وجاء في الحديث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَتَبَخَّرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » ، فهذا الحديث في مفهومه يدل على حصول الفخر والبغي على الآخرين من قبل المتكبر .

وفي حديث آخر أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعليه جبة من طيالسة مكفوفة بالديباج أو مزرورة بديباج ، فقال : إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ كُلَّ رَاغٍ ابْنِ رَاغٍ ، وَيَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ .
فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغَضَّبًا ، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ فَاجْتَذَبَهُ ، وَقَالَ : لَا أَرَى عَلَيْكَ ثِيَابَ مَنْ لَا يَعْقِلُ ، ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ ، فَقَالَ : إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ

(١) انظر : تفسير السعدي ص ٢٥٧ .

(٢) انظر : فتح القدير ٢/ ٢٢٠ .

(٣) انظر : تفسير السعدي ص ٢٥٨ .

(٤) انظر : فتح القدير ١/ ٤٦٥ .

فَقَالَ : إِنِّي قَاصِرٌ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ آمُرُكُمَا بِاِثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنْ اِثْنَتَيْنِ :
أَنْهَاكُمَا عَنِ الشُّرْكِ وَالْكِبْرِ.... الحديث^(١) .

ففي الحديث دلالة على أن المتكبر يرى نفسه فوق الآخرين ،
فيستحققهم ويزدريهم ، ويظهر ذلك من خلال قول الأعرابي لرسول الله صلى
الله عليه وسلم بأنه يريد أن يرفع كل راع وابن راع ، وهذا يعني أنه مستخف
بهم ولا يراهم أهلاً للرفعة وعلو الشأن والتقدم ، ولذلك غضب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقام من مجلسه ليجذب الأعرابي بمجامع ثيابه التي جاء
مختالاً فيها ثم وصفه بعدم العقل والفهم ، ويعني -والله أعلم- أنه جاهل
بالميزان الحق الذي ترجح فيه كفة الإيمان على كفة سائر القيم الأرضية
الدنيوية مجتمعة التي يعتز بها ويفخر أهل الجاهلية .

ولما كان الهزؤ بالناس واستحقارهم من دلائل التكبر ذكر الرسول صلى
الله عليه وسلم لأصحابه ، وصية نوح عليه السلام لابنيه والتي فيها : «وَأَنْهَاكُمَا
عَنِ اِثْنَتَيْنِ : أَنْهَاكُمَا عَنِ الشُّرْكِ وَالْكِبْرِ» .

وقول الله تعالى في معرض النهي عن التكبر : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ،
فيه دلالة على صورة من صور الاستكبار على الناس ، وهي : إمالة الوجه
والإعراض عنهم تعالياً وتكبراً ، فإن الصعر هو : الميل ، ويقال : أصاب البعير
صعر ، إذا أصابه داء يلوي عنقه ، والمعنى : لاتعرض بوجهك عن الناس
تكبراً عليهم واحتقاراً منك لهم إذا كلمتهم أو كلموك أو لقيتهم ولقوك ، بل
ألن جانبك وابسط وجهك إليهم^(٢) .

ولا يقف بغى المتكبر على الناس عند هذا الحد من الهزء والاستصغار
والأنفة والإعراض... ، بل يتعدى ذلك إلى صورة أبشع وهي : إيصال الأذى

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٠/٢ ، ٢٢٥ ، وأخرجه الحاكم في المستدرک ٤٩/١

وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤٥٥/٣ ، فتح القدير ٢٣٩/٤ .

إليهم بأي وجه من الوجوه يستطيعه ، وعلى قدر طاقته وجهده وإمكاناته ومكانته ، ومن ذلك : الضرب والسجن والتعذيب .

ولنا فيما فعله المستكبرون من قريش بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبدأ الدعوة الشاهد والدليل على ذلك ، حيث لم يقف المستكبرون عند حد استصغار المؤمنين كما مرّ بعض ذلك ، بل أذاقوا من قدروا عليه منهم ألوان التعذيب والنكال ، فكانوا يعذبون أحدهم عذاباً لا قبل له به لولا أنه يستمد قوته من ربه الذي آمن به جل جلاله .

ولوسئلت جنات مكة ، فأنطقها الله تعالى ؛ لأخبرت خبر اليقين بمالقيه المستضعفون المؤمنون على أيدي المستكبرين من قريش من أشكال التنكيل وألوان التعذيب ، وحتماً ستنتطق بذلك يوم ينطقها الله تعالى القائل قول الحق سبحانه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [الزلزلة: ١-٥] .

يذكر في السيرة أن مستكبري قريش عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، يفعلون ذلك بالمستضعفين منهم ليفتنوهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم ، وكان بلال بن رباح رضي الله عنه ممن عذب في الله تعالى ، فكان أمية بن خلف الجمحي -لعنه الله وأخزاه- يخرججه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله ! لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد^(١) .

كما كان آل ياسر ممن عذب في الله كذلك ، فكانت بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة »^(٢) .

(١) انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام ٣١٧/١ ، ٣١٨ .

(٢) انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام ٣١٧/١ ، ٣١٨ .

وقد سئل ابن عباس رضي الله عنه : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ فقال : نعم والله ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويגיעونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، حتى إن الجعل ليمر بهم ، فيقولون له : أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، افتدأء مغهم مما يبلغون من جهده^(١) .

والضرب والحبس والتعذيب من وسائل الطغاة المستكبرين قديماً وحديثاً في مواجهة أهل الحق ليفتنوهم عنه ، وهم يفعلون ذلك لأن الحق الذي من أجله يعذبون من يعذبون يخالف أهواءهم ويعارض شهواتهم ورغباتهم الضالة الفاسدة .

ويلغ الاستكبار على الناس أعتى وأشنع صوره حين يلجأ المستكبرون إلى تقتيل المستضعفين كما هو الشأن في جانب الاستكبار على المرسلين ، فلقد علا فرعون في الأرض علواً كبيراً ، وكان من آثار علوه ذلك ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] ، وما ذكره الله تعالى في شأنه مع السحرة حين سجدوا لله رب العالمين بقوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [طه: ٧٠، ٧١] .

إن الطغاة - المستكبرين يقتلون لأتفه الأسباب ، لا بل يقتلون من لا يستحق القتل من دعاة الخير والحق والصلاح ؛ ليخرسوا صوت الحق الذي معهم ، حتى لا يعلو لغط باطلهم .

ومافعله أصحاب يس بناصحهم الأمين هو من هذا القبيل ، فقد قتلوا من جاء يدعوهم إلى اتباع رسل الله تعالى إليهم في دعوتهم إليهم إلى عبادة ربهم

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٠/١ .

وخالقهم جل جلاله وترك عبادة غيره مما يتخذ من آلهة لاتنفع ولا تضر، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَبْعُثُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مَهْتَدُونَ. وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون. إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ [يس: ٢٠-٢٥]، قيل: إن اسم هذا الرجل هو: حبيب النجار، وكان نجاراً، وقيل غير ذلك، وأنه لما سمع بخبر الرسل جاء يسعي وكان يعبد الله في غار، فلما قال ما قال لقومه وصرح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه، وقيل: وطئوه بأرجلهم، وقيل: أحرقوه، وقيل: حفروا له حفرة فألقوه فيها^(١). وخلاصة القول أن المتكبر قد يصل به الطغيان إلى قتل الأبرياء إرضاءً لهواه واستخفافاً بمن قتله.

(١) انظر: فتح القدير ٣٦٥/٤.

الفصل الرابع : علامات الكبر

حال المتكبر لا يخفى على من يراه أو يلقاه أو يعاشره ، فإن له علامات تظهر على شمائله وفي أقواله وفي مشيه وفي حركاته وسكناته وفي سائر تقلباته في أحواله^(١) ، فيعرف من خلالها ويشار إليه بها .

وهي علامات كثيرة ترجع إلى معلّمين بارزين في سلوك المتكبر بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ » . فبطر الحق وغمط الناس أثران رئيسيان للتكبر ، وعنهما تتولد سائر الآثار والصفات السيئة في أخلاق المتكبرين .

وبتأمل النصوص الشرعية في هذا المجال نجد أنها أشارت إلى كثير من العلامات التي تظهر على المتكبر فتفضحه وتبدي ما في نفسه من التعظم والترف .

وستكون الوقفة في هذا الفصل مع أبرز تلك العلامات التي أشارت إليها النصوص لينكشف حال المتكبر لمن خفي عليه ، ولتعرف علامات التكبر فيتقيها ويحذر من التلبس بها من يرجو السلامة من هذا الداء الخطير المهلك . وبإذن الله تعالى ، سأذكر أولاً العلامة أو العلامات ، ثم أثنى بالاستشهاد لها بما يدل عليها من النصوص من غير إطالة ، وذلك لأن النصوص تتكرر في أكثر من موضع ، وفي كل موضع تذكر بحسب مناسبتها له بأي وجه من أوجه المناسبة .

١ - بطر الحق :

أي رده وجحده وتسفيهه مع الاستهانة به والاستعلاء عن قبوله^(٢) ، وكتمانه والصد عنه والوقوف في وجه المتمسكين به والداعين إليه والسائرين في سبيله والقائمين بنصرته ، وذلك إرضاءً لهوى النفس وشهوتها ورغبتها . فالذي يجحد الحق ويستعلي عن قبوله ، ويصر على مخالفته وتسفيهه وإن تبين له أنه الحق الذي لا جدال فيه لمجرد أنه جاء مخالفاً لرأيه ، أو لما كان قرره وعمل به ، أو لأنه صادر من غيره ، ليس له دافع يدفعه إلى ذلك إلا الاستكبار والتعظم ، لأنه يخشى من الحق أن ينزله من عليائه التي تخيلها له

(١) انظر : إحياء علوم الدين ، ١٥٧/٤ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ٦٦٣/١ .

نفسه المريضة ، أو لأنه يخشى إذا هو تقبل الحق الصادر عن غيره أن ينال المجد والكرامة ذلك الذي صدر عنه الحق أو بينه أو دعا إليه فيكبر به عند الناس وينازعه مكانة اجتماعية يطلبها لنفسه^(١) .

وأعظم حق يطره المتكبر هو حق الله تعالى في أن يعبد وحده لا شريك له ، وأن يطيع أمره ونهيه ، وأن يتحاكم إلى شرعه ، حق الله تعالى عليه في أن يكون عبداً مخبتاً خاضعاً له خاشعاً متذللاً بين يديه ، ثم حق الرسل عليهم صلوات الله وسلامه في الإيمان بهم وتصديقهم واتباعهم والتأسي والاقتداء بهم .

ثم حق سائر الناس في التواضع واللين لهم والشفقة والرحمة بهم ، والإحسان إليهم ، والقيام بما يجب عليه لهم من حقوق وواجبات فرضها الشرع أو دعت إليها الإنسانية وليس فيها مخالفة له .

لقد قص القرآن الكريم قصصاً كثيرة من قصص المتكبرين فوجدناهم يأنفون من عبادة الله تعالى وحده دون شريك ويحجدون آياته وينكرونها ويكذبون رسله ويخالفونهم ويسخرون منهم وممن تبعهم ، بل ويقتلون فريقاً منهم .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ، لقد كان حق الله تعالى على إبليس اللعين أن يطيع أمره حين أمره أن يسجد مع الملائكة لآدم عليه السلام ، ولكنه بطر هذا الحق فلم يسجد كما أمره الله تعالى ؛ ومرة أخرى بطر حق آدم عليه السلام في أن يسجد له بأمر الله ، وقد كان الدافع لإبليس إلى بطر حق الله تعالى ثم حق آدم عليه السلام هو التكبر والتعظم حين رأى نفسه خيراً من آدم ، وأن آدم دونه فكيف يسجد الأعلى للأدنى بزعمه؟ كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: ٦١] .

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ١/ ٦٦٣ .

قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩ ، ٦٠] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٥-٢٧] . وقال الله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكََاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٥، ٦٦] . وقال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٩ ، ٦٠] .

وقال الله تعالى في قوم صالح عليه السلام : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَاْفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥ ، ٧٦] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [الحجر: ٨١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [فصلت: ٢٦] .

وقال سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ . وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِن كُُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴾ [ص: ١٢، ١٤] .

فهذه الآيات البينات ، وغيرها مما مضى وسيأتي بإذن الله تبين كيف أن المستكبرين جحدوا حق الله في توحيده وعبادته وطاعته وتصديق رسله والإيمان بكتبه وآياته والرفق واللين بخلقه والإحسان إليهم .

فهو إذا استكبار أدى إلى بطر حق الله ثم حق رسله ثم حق خلقه .

ومما يستدل به على بطر المتكبر حق عباد الله تعالى بعد بطره **حق الربِّه**

قول الله سبحانه : ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ

وَأَنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ النساء: ٣٦ ، فقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ، بعد أن أمر بتوحيده والإحسان إلى هؤلاء المذكورين فيه إشارة إلى أن المختال الفخور يأنف من عبادة الله وحده ، كما أنه يأنف من الإحسان إلى المذكورين في الآية ، فلا يقوم لهم بواجب ، ولا يحسن عشرتهم ومرافقتهم وصحبتهم .

وخلاصة القول : أن بطر الحق علامة بارزة للمتكبرين ييطرون الحق ؛ تارة لأنه يخالف ماورثوه عن آبائهم وأسلافهم من معتقدات زائفة وسلوكيات خاطئة .

وتارة لأنهم يرون فيه أنه يساويهم بالمستضعفين وممن ليسوا من وجهاء القوم ورؤسائهم ومقدميهم . وثالثة لأنه صدر عن غيرهم ؛ ورابعة لأنه لا يرضى لهم العلو في الأرض بغير الحق .

٢ - المجادلة :

والمجادلة : مفاعلة من الجدَل ، وهو القدرة على الخصام والحجة فيه^(١) ، والمجادلة هي المناظرة والمخاصمة والمنازعة بالقول لإقناع الغير برأيك^(٢) ، وهي نوعان :

محمودة : وهي ما كانت لإظهار الحق ، كما جادل الأنبياء أقوامهم ليظهر لهم الحق ، فمن قبله أفلح وأنجح ، ومن رده خاب وخسر^(٣) .

ومن الجدال الممدوح ، الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن وردهم بالجدال إلى المحكم^(٤) .

ومذمومة : وهي الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق ،

(١) انظر : التحرير والتنوير ، ١٩٤/٥

(٢) انظر : التحرير والتنوير ، ١٩٤/٥ ؛ ١٠٥/١٣

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، ٢٠/٩/٥

(٤) انظر : فتح القدير : ٤٨١/٤

ويراد بها : دحض الحق وإزالته^(١) .

والمجادلة المذمومة هي المعنية هنا ، فإن المجادلة بالباطل هي إحدى وسائل المتكبرين لدحض الحق ، وليس ذلك عن شبهة عندهم ، بل إنهم يجادلون في الحق وقد تبين لهم ، واستيقنوه ، ولكن أهواءهم التي يخالفها تأبى عليهم الانقياد له فيلجئون للجدل فيه بغية إلباسه لباس الباطل والزيف ليصدوا عن سبيله ويشوشوا على من رام اتباعه .

ثم إنهم يجادلون بغير حجة ولا برهان ولا دليل من عقل صحيح أو نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى^(٢) .

يحدثنا القرآن الكريم عن المستكبرين فيكشف لنا حالهم ، وهم يجادلون رسل الله تعالى بالباطل ليدحضوا به الحق في أية صورة من صوره ، يجادلون في ذات الله ويجادلون في توحيده وصفاته ، ويجادلون في أمره ونهيه ، ويجادلون رسله في صدق رسالتهم وفيما جاؤوا به من الهدى والنور من عنده .

قال أول المتكبرين ومن سن لهم هذا السلوك القبيح : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص:٧٦] ، يقول هذا يجادل به رب العالمين حين قال له سبحانه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] .

يدعي الخيرية على آدم عليه السلام ولا حجة له على ذلك ولا برهان ، إنما هو الظن الآثم والقياس الفاسد .

فلقد جادل اللعين رب العالمين الذي خلقه وخلق آدم ويعلم وهو العليم الخبير من منهما خير من الآخر ، فما كان له أن يرفع نفسه بين يدي الله تعالى ، ويزعم هذا الزعم الذي ليس له عليه برهان .

وورث المستكبرون في كل أمة هذا السلوك المنحرف من زعيمهم إبليس -لعنه الله- فقاموا يجادلون رسل الله تعالى فيما جاءوهم به من الحق يتبعون في ذلك أهواءهم ويمشون خلف شياطينهم فالله تعالى يقول : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِجَادِلْكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، ٢٠/٩/٥ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، ٢١٨/٣ .

لَمْشْرِكُونَ ﴿[الأنعام: ١٢١] .

أي يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المبينة للصواب قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم^(١) ، وقد ذكر أن المقصود بالشياطين هنا شياطين الجن يوحون لأوليائهم من الإنس : كيف تعبدون شيئاً لاتأكلون مما قتل ، وتأكلون أنتم ما قتلتم . وقيل : شياطين فارس أوحوا إلى أوليائهم من قريش أن خاصموا محمداً وقلولوا له إن ما ذبحت هو حلال وما ذبح الله فهو حرام ، وقيل : كان المجادلون قوماً من اليهود خاصموا النبي صلى الله عليه وسلم في الميتة فقالوا : نأكل ما قتلنا ولانأكل ما قتل الله^(٢) .

وأياً كان المعني بالآية أكان المشركون أم سواهم فإن هذا جدال بغير حجة ولا برهان إنما هو رأي من آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسد الكون ، وهي آراء يقدمها أصحابها على شرع الله تعالى وأحكامه ، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين الذين يريدون أن يضلّوهم عن سواء السبيل^(٣) .

ولقد أضلت الشياطين الملاء المستكبرين من أقوام المرسلين المختومين بمحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا كما أخبر الحق سبحانه وتعالى بقوله الحق : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٤، ٥] .

وصور مجادلة المستكبرين لرسولهم كثيرة ومنها :

– المجادلة في ذات الله وصفاته :

ومن ذلك مجادلة ومحاجة نمروذ إبراهيم -عليه السلام في ربه تعالى - كما أخبر الحق سبحانه في ذلك فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي

انظر : فتح القدير ، ١٥٨/٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٥/٨ - ١٩ ؛ أسباب النزول ، ص ٢٥٧ ؛ لباب النقول في

أسباب النزول ، ص ١٤ .

(٣) انظر : تيسير الكريم المنان - للسعدي ، ص ٢٣٤ .

رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾ .

فتأمل هذا الحوار والجدال الذي دار بين إبراهيم خليل الله عليه السلام وبين النمرود -لعنه الله- ، وقول إبراهيم -عليه السلام- يصف ربه تبارك وتعالى بما هو صفة له على الحقيقة من الإحياء والإماتة ، وما قاله النمرود مقابل ذلك حين قال (أنا أحيي واميت) وأراد بذلك المعنى المجازي للإحياء والإماتة^(١) .

فإنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياءً ويقدر على أن يقتل فيكون ذلك إماتة ، وهذا هو الجدال بالباطل ، فإن إبراهيم عليه السلام أراد أن الله تعالى هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد ، ولو قال له ابتداءً ربي الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد لبهت في أول وهلة^(٢) ، ولذا لما لجأ إلى التمويه سلم له إبراهيم تسليم الجدال وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه^(٣) ، ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾ ، فكانت حجة لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة^(٤) ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾ ، أي انقطعت حجته وما أمكنه أن يقول : أنا آتي بها من المغرب لأن ذوي الأبواب يكذبونه^(٥) .

وممن جادل في ذات الله تعالى وصفاته فرعون مصر على عهد موسى - عليه السلام- فهو القائل ﴿ وَمَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿الشعراء: ٢٣﴾ ، والقائل : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ﴿طه: ٤٩﴾ .

والقائل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ

(١) انظر : تفسير القرطبي ، ١٨٦/٣/٢ . (الجامع لأحكام القرآن) .

(٢) انظر : فتح القدير ، ٢٧٧/١ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ، ١٨٦/٣/٢ .

(٤) انظر : فتح القدير : ٢٧٧/١ .

(٥) انظر : تفسير القرطبي ، ١٨٦/٣١٢ .

عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿[القصص: ٣٨]﴾ ، فهذا من فرعون على سبيل الجحد لله رب العالمين ، وحتى ينتصر لباطله يلجأ إلى هذا البعث الذي لا طائل تحته ليغالط قومه ويوهمهم بكمال اقتداره^(١) .

ومثال آخر للمجادلة في صفات الله تعالى في قول الله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿[يس: ٧٧، ٧٨]﴾ .

فهذا جدال في قدرة الله عز وجل على البعث^(٢) والنشور وإحياء من أرمّت عظامه في القبور :

قيل المقصود بالإنسان هنا أبي بن خلف الجمحي ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففتته بين يديه وقال : يا محمد ، يبعث الله هذا بعد ما أرم؟ فقال : « نَعَمْ ، يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا وَيُمِيتُكَ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ » ، فنزلت هذه الآية^(٣) .

وقيل : هو العاص بن وائل السهمي فعل ذلك^(٤) .

وأيا كان المعني بهذا فمعنى الآية خطاب الإنسان من حيث هو ، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أولياً ، والآية مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم سبحانه على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها كما

(١) انظر : فتح القدير ، ١٧٣/٤ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١٠٦/١٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ٣٠/٢٣ ؛ أسباب النزول ٤٢٣ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ٣٠/٢٣ ؛ لباب النقول ، ص ١٨٢ ، وقد أخرج الحاكم في المستدرک (١) : ٢٤٤ .

وصححه عن ابن عباس : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففتته وقال : يا محمد ؛ أيعث الله هذا بعد ما أرم ، قال : « نَعَمْ ، يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا ، يَمِيتُكَ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ » قال : فنزلت : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿[يس: ٧٧]﴾ ، إلى آخر السورة ، ٤٢٩/٢ .

كانت^(١)، فإن من خلق من لاشيء قادر أن يعيد من خلقه إذا أفناه .
وفي الآية إنكار وتعجب من حال هذا الإنسان المخلوق من أضعف
الأشياء ، فإذا هو بعد ذلك شديد الخصومة كثير الجدل في أمر قد قامت عليه
فيه حجج الله تعالى وبراهينه^(٢) .

١ - ومن المجادلة على هذه الصورة ماذكر عند قول الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] ، من أن
هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث حين خاصم في الله عز وجل فزعم أنه
غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابا^(٣) .

وقد تكررت الآية في نفس السورة فقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الحج: ٨-١٠] .

وقد تكررت الآية للمبالغة في الذم والتوبيخ ، وقد وصف ذاك المجادل
في آيات الله في كل آية بزيادة ، فهو يجادل في الله ويخاصم بغير علم
يعلمه ، بل بجهل منه بما يقول ، وهو يتبع في قوله وجداله ذلك كل شيطان
مرید^(٤) ، أي متمرد على الله وهو العاتي ، وسمي بذلك لخلوه عن كل خير ،
والمراد إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر^(٥) .

وفيما جادل به النضر بن الحارث ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه كلما أنزل شيء من القرآن كذب به .
وثانيها : أنه زعم أن الملائكة بنات الله .

(١) انظر : فتح القدير ، ٣٨٣/٤ .

(٢) انظر : فتح القدير ، ٣٨٣/٤ .

(٣) انظر تفسير الطبري ، ١١٤/١٧ ؛ تفسير القرطبي ، ٦/١٢/٦ ؛ لباب النقول ،

ص ١٤٨ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١١٥/١٧ .

(٥) انظر : فتح القدير ٤٣٦/٣ .

وثالثها : هو ما سبق من قوله إن الله لا يقدر على إحياء الموتى^(١) .
وقد بينت الآيات أن النضر كان يجادل تلك المجادلة بغير علم ولا
برهان ولا هدى ، وقصده منها أن يصد المؤمنين بالله عن دينهم الذي هداهم له
ويستزِلَّهم عنه^(٢) .

وإن كان السبب في نزول الآيتين خاصاً ، فإن الاعتبار بما يدل عليه
اللفظ ، وهو يدل على أن من الناس فريق يجادل في الله ، فيدخل في ذلك كل
مجادل في ذات الله أو صفاته وشرائعه الواضحة^(٣) .

والمتكبرون هذا دأبهم بدليل أن الله تعالى قد وصف هذا المجادل فيه
بقوله : ﴿ثَانِي عَظْفِهِ﴾ ومعناه : أنه لا وِ عنقه مرحاً وتكبراً ، وانتصاب (ثاني
عظفه) على الحال من فاعل يجادل ، والمعنى : يجادل في الله حال كونه
متكبراً^(٤) .

ومن هذه الصورة في المجادلة في الله تعالى بغير حجة ولا برهان قول
المشركين : الملائكة بنات الله ، وقول اليهود : عزيز ابن الله ، وقولهم : نحن
أبناء الله وأحباءه ، وقولهم : يد الله مغولة ، وقولهم : ما أنزل الله على بشر
من شيء ، وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً... ، وقول النصاري :
المسيح ابن الله... ، إلى غير ذلك من أمثلة المجادلين في الله تعالى بالباطل من
القول والفساد من الرأي والداحض من الحجج .

(١) انظر : زاد المسير ٤٠٥/٥ ، وقد ذكر أن القول الأول لابن عباس ، والثاني
لمقاتل ، والثالث لأبي سليمان الدمشقي ..

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٢٢/١٧ .

(٣) انظر : فتح القدير ، ٤٣٩/٣ .

(٤) انظر : فتح القدير ، ٤٣٩/٣ .

ب : المجادلة في توحيد الله :

انحرف العباد عن التوحيد واتخذوا لأنفسهم آلهة يعبدونها من دون الله جل وعلا ، فأرسل الله عز وجل رسله المصطفين الأخيار ليخرجونهم من ظلمات الشرك والضلال التي وقعوا فيها فجاء كل رسول قوم إلى قومه يحمل رسالة ربه يقول : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، فانبرى المستكبرون يجادلونه في دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، مدلين في ذلك بحجة داحضة هي أنهم وجدوا آبائهم على خلاف ذلك فهم على آثارهم يهرعون .

قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] .

فأجابه الملائكة المستكبرون ، ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، وقال هود عليه السلام لقومه ، ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥] ، فأجابه الملائكة المستكبرون : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦] ، وقالوا : ﴿ أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] .

وقال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٧٣] ، فأجابه المستكبرون : ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢] .

وقال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، فأجابه المستكبرون : ﴿ يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] .

وقال إبراهيم عليه السلام لقومه : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ، فحاجه قومه وقالوا : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ، قال : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤] ، قالوا : ﴿ أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥] ، قال : ﴿ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ

الشَّاهِدِينَ ﴿[الأنبياء: ٥٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي
اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١] ، والمعنى أن إبراهيم عليه السلام حين تبرأ من قومه
ومما يعبدون من دون الله قال : ﴿ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] ، جعل قومه يجادلونه فيما
ذهب إليه من التوحيد وينظرونه بشبه من القول باطلة فقال لهم : أتجادلونني
في أمر الله وأنه لا إله إلا هو وقد هداني إلى الحق وبصّرني به وأنا على بينة منه
فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة^(١) ، ثم دلل لهم على بطلان
قولهم فيما ذهبوا إليه بأن آلهتهم التي يعبدونها لا تملك من الأمر شيئاً فهو
لا يخافها ولا ييالي بها ، وكان الأولى بهم أن لا يعبدوها وهي كذلك ، بل
يعبدوا الإله الحق الذي بيده ملكوت السموات والأرض ويخافوا منه وهو
القدير ، وقد أشركوا به ما ليس لهم على ألوهيته حجة واضحة وبرهان ساطع .
ولأن قلوب المستكبرين تشابهت ، فقد كان هذا الجدل في توحيد الله
تعالى وحقه بالألوهية دون سواه هو سبيل المستكبرين من قوفهم خاتم الرسل
محمد صلى الله عليه وسلم الذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
نبذ عبادة الأصنام وعبادة الله وحده لا شريك له ، فقالوا : ﴿ هَذَا سَاحِرٌ
كَذَّابٌ . أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا
فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [ص: ٤-٧] ، يستكبرون عن عبادة الله
تعالى وحده ويجادلون رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك متهمين له
بالسحر والكذب متعجيين أن يكون ثمت إله واحد لا آلهة شتى ، مدلين
بحجتهم وبرهانهم على ما ذهبوا إليه وقالوه ، وهي أن هذا القول مختلق لم
يكن مسموعاً به في الملة الآخرة التي قيل : ملة النصارى ، وقيل : ملة

(١) انظر : تفسر ابن كثير ١٥٧/٢ .

قريش^(١) .

ولعمر الله ما أوهى حجّتهم ، وما أسخف قولهم ، أفإن ضل الأولون
وكانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، كان ذلك حجة لمن بعدهم أن يضلوا كما
ضلوا؟ .

وصورة أخرى لمجادلة المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم
بينها الله تعالى في كتابه الكريم بقوله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا
إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ
هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨] ، يذكر في التفسير أن المراد في هذا
مناظرة عبدالله بن الزعبري مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى لما
قالت له قريش : إن محمداً يتلو : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ، فقال : لو حضرته لرددت عليه
ولخصمته ، فقالوا : وما كنت تقول له؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح
تعبده النصارى ، وهذا عزيز تعبده اليهود ، ونحن نعبد الملائكة ، أفهم من
حصب جهنم؟ ، فعجبت قريش من مقالته ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم وفرح
وفرحوا بذلك ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كُلُّ مَنْ
أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ ،
وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ »^(٢) .

وقيل : خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن كان كل من
عبد غير الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير
والملائكة^(٣) .

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : « إنه
ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير » ، وقد علمت قريش أن النصارى تعبّد
عيسى ابن مريم وما تقول في محمد ؛ فقالوا : يا محمد : ألسنت تزعم أن
عيسى كان نبياً وعبدًا من عباد الله صالحا ، فلأن كنت صادقاً فإن آلهتهم

(١) انظر : فتح القدير ، ٤/٤٢١ .

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية ، انظر : سيرة ابن هشام ، ١/٣٥٩ .

(٣) انظر : فتح القدير ، ٤/٥٦١ .

لكما تقولان ، فأنزل الله عز وجل^(١) : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] ، فكان ضرب هذا المثل من قبل قريش من قبيل الجدل والمراء لأنهم يعلمون أنه غير وارد على الآية لأنها لما لا يعقل وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ، ثم هي خطاب لقريش ، وإنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعين أن مقاتلتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها^(٢) .

ج - مجادلة الرسل في صدق رسالتهم :

لقد لقي المرسلون عليهم السلام تعنتاً كبيراً وجدلاً كثيراً من المستكبرين ، وبخاصة الملائكة منهم حول رسالتهم ، فلقد كذبوهم ووجدوا أن يكونوا رسلاً من عند الله تعالى ووصفوه بالكذب وبالجنون والضلال والسفاهة والسحر حين قالوا لهم : نحن رسل الله إليكم . وما اكتفوا بهذا ، بل كانوا زيادة في التعنت والجدل يطلبون منهم المعجزات التي تؤيدهم ثم لا يؤمنون .

وأي حجة لهم على هذا الإنكار وهذا التعنت والجدال؟ إنهم يزعمون أن الله تعالى لا يمكن أن يرسل من البشر رسولاً ، ولو شاء لأرسل من الملائكة ، أما بشرٌ مثلهم يأكل ويشرب ، وينام ويتعب ، كمثلهم سواء بسواء ، فكيف يختار ويصطفى من بينهم؟ وبأي شيء يمتاز عنهم ليفضل عليهم؟ يكون واحداً منهم فإذا هو يقول : إني رسول الله إليكم ، فلماذا هو لا غيره؟

بهذا الهذيان وهذه الحجة الواهية وهذا الجدل الباطل الذي لا يستند إلى برهان واضح وسلطان بين يحاولون دحض الحق ؛ والحق أن ما يدفعهم إلى ذلك إنما هو الحسد والبغي واتباع الهوى تعظماً أن ينال الفضل سواهم وأن يكونوا أتباعاً مقودين ، وقد كانوا من قبل هم الملائكة القادة والسادة .

قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧] ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ٣١٨/١ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، ١٤٢/٤ .

فَقَالَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، وَقَالُوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥] .

وَقَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٢٥] ، فَقَالَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦] ، وَقَالُوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤] ، وَقَالُوا : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٨] .

وَقَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٤٣] ، فَقَالَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤] ، وَقَالُوا : ﴿ أَبَشَرًا مِثْلَنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . أَأَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌّ ﴾ [القمر: ٢٤-٢٥] .

وَقَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٧٨] ، فَقَالَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦] .

وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥] ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١] ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُهُ : ﴿ أَنْتُمْ مِّنْ لِّبَشَرِينَ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧] .

وَلَمَّا صَدَعَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةِ رَبِّهِ عِزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْمُسْتَكْبِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ يَتَخَبَطُونَ وَيَهْذُونَ : ﴿ أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] ، ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ

يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿الفرقان: ٧-٨﴾ : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] .

وبمثل هذا الجدال الباطل من المشركين جادل اليهود فقالوا^(١) : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ، وما يقولون هذا عن جهل - كما هو شأن المشركين - بل إنهم ليعلمون أنهم مفترون ، فلقد سلفت إليهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب وهم الذين إذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] ، ولكن قاتل الله الحسد والبغي والهوى فهي الدافعة لهم إلى هذا الجدال الباطل .

د - المجادلة في آيات الله .

قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] .

هذا نص صريح بأن الكبر من آثاره في السلوك المجادلة بالباطل لدحض الحق ، ومن صور تلك المجادلة ، المجادلة في آيات الله تعالى الدالة على توحيده ، وصدق رسله وحقيقة نبواتهم^(٢) .

يخاطب الحق سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم يقول له : إن الذين يخاصمونك فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات^(٣) إنما يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة^(٤) بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيه^(٥) ، وما يدفعهم إلى ذلك إلا ما استقر في نفوسهم من الكبر الذي جعلهم لا يتبعونك ولا يقبلون الحق الذي جئتهم به ، حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله والكرامة التي أكرمك بها من النبوة ،

(١) وقيل : إن المشركين هم الذين قالوا ذلك ، ورجحه الطبري ، انظر : تفسير الطبري

٢٦٨/٧ ؛ وكذا رجحه ابن كثير ، انظر : تفسير ابن كثير ١٦١/٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٧٠/٧ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ٧٦/٢٤ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٩١/٤ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ، ٧٦/٢٤ .

لكن الله تعالى مذلهم فلن يبلغوا تلك العظمة وما أرادوا من الاستعلاء^(١) ، ولن ينالوا ما راموه من إخماد الحق وإعلاء الباطل ، بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع^(٢) .

والآية الكريمة قيل نزلت في المشركين ، وقيل نزلت في اليهود حين ادعوا أن الدجال منهم ويكون في آخر الزمان وعظموا أمره وقالوا نملك به الأرض^(٣) .

ومعنى ﴿إِنْ مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ ، أي عظمة ما هم بباليغها لأنهم قوم رأوا أنهم يقل ارتفاعهم إن اتبعوا رسول صلى الله عليه وسلم وتنقص أحوالهم ، ويرتفعون إذا لم يكونوا له تبعاً ، فأعلم الله عز وجل أنهم لن يبلغوا الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب^(٤) والمجادلة والتعظم .

وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير ، أي يطلبون النبوة أو يطلبون أمراً كبيراً يصلون به إلى النبي صلى الله عليه وسلم من القتل ونحوه وما هم بباليغي ذلك .

وقيل : في صدورهم تكبر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطمع أن يغلبوه ولن يبلغوا ذلك^(٥) .

وقيل : المعنى ، إن تعظمت اليهود على محمد صلى الله عليه وسلم وجادلوه في الدجال وأنه سيخرج عن قريب فيرد الملك إليهم فذلك كبر لا يبلغونه^(٦) .

ومما يستدل به على أن المجادلة في آيات الله تعالى مظهر من مظاهر التكبر قول الله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٧٧-٧٦/٢٤

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٩١/٤

(٣) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ، ٣٢٦٨/١٠ ؛ تفسير القرطبي ، ٢١٢/١٥/٨ ؛ لباب النقول ص ١٨٦ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ، ٢١٢/١٥/٨ .

(٥) انظر : فتح القدير ، ٤٩٧/٤ .

(٦) انظر : تفسير القرطبي ، ٢١٢/١٥/٨ .

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿غافر: ٣٥﴾ .

ومعنى الآية أن الله تعالى يمقت ويغض أشد المغت والبغض ، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون ويغضون من يدفع الحق بالباطل ويجادل الحجة بغير دليل معه ، ومن بغض الله تعالى لهم طبع على قلوبهم وهو يفعل ذلك سبحانه وتعالى بكل متكبر جبار ، فيطبع على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً^(١) .

والشاهد من الآية على أن المجادلة بالباطل من خلق المتكبرين ، أن الله تعالى بعد بيان مقتته للذين يجادلون في آياته قال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ فكان في ذلك دلالة على أن التكبر والتجبر من آثارهما المجادلة الباطلة بالحجة الداحضة يريد بها المتكبر الاستعلاء على كل ما هو حق .

والمجادلة في آيات الله تعالى في سلوك المتكبرين المقصوص خبرهم في كتاب الله تعالى أخذت صوراً متعددة ، منها ما ذكرت قبل من المجادلة في ذات الله وفي أسمائه وفي توحيده وفي صدق رسله ، ومنها التكذيب بكل آية جاءتهم بها الرسل الكرام مقروءة كانت أم مشاهدة محسوسة كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥] .

يخبر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن من المشركين قوم يحملهم في أوقات بعض الدواعي إلى استماع ما يتلو من القرآن الكريم^(٢) ، وما يدعوا إليه من توحيد ربه وأمره ونهيه^(٣) ، لكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه^(٤) ولهذا لا يفقه ما يقوله صلى الله عليه وسلم ولا يوعيه قلبه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٨٦/٤ .

(٢) انظر : تفسير السعدي ، ص ٢١٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ١٦٩/٧ .

(٤) انظر : تفسير السعدي ، ص ٢١٦ .

ولا يتدبره^(١) ، ولا ينتفع به لأن الله تعالى قد جعل على قلوبهم غطاءً وغشاءً لئلا يفقهوا كلامه فصانه عن مثلهم وجعل في آذانهم صمماً فلا يستمعون ما ينفعهم^(٢) .

ثم وصفهم الله عز وجل بأنهم لظلمهم وعنادهم وتمردهم لا يؤمنون بشيء من الآيات البينات والحجج الساطعات الدالات على الحق والشهادات بصدق رسول الحق صلى الله عليه وسلم ولا ينقادون لها ولا يصدقون بها بل يجادلون بباطلهم ليدحضوا به الحق المبين يقولون عن آيات الله تتلى عليهم ، ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، أي مأخوذة مما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث أو الأباطيل والترهات^(٣) .

ونحو هذه الآية في قول المشركين عن القرآن بأنه أساطير الأولين قول الله تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] .

وقالوا كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] ، يعنون أن القرآن ليس من عند الله وإنما هو كلام تعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غلام رومي ، اختلف فيه على أقوال ذكرت في كتب التفسير^(٤) ، وهذا من جهلهم وحمقهم ، إذ كيف بغلام أعجمي لا يفهم كلام العرب يكون منه ذلك الكلام الفصيح البليغ المعجز ، وهم العرب أولوا الفصاحة والبيان في لغتهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل آية منه؟ ولهذا قال الله تعالى رداً عليهم وتسفيهاً لمقالتهم : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] .

وبمثل هذه المجادلة في آيات الله تعالى من قبل المشركين المستكبرين على عهد النبوة المحمدية جادل المستكبرون رسل الله تعالى إليهم فيما

(١) انظر : تفسير الطبري ، ١٦٩/٧

(٢) انظر : تفسير السعدي ، ص ٢١٦ .

(٣) انظر : فتح القدير ، ١٠٨/٢ ؛ تفسير السعدي ، ٢١٩ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١٧٧/١٤ - ١٨٠ .

جاءوهم به من الآيات والحجج والبراهين كما قال الله عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥] .

ولعل فيما سبق ذكره من صور مجادلة المتكبرين في الصفحات السابقة غنية عن الإطالة هاهنا إضافة إلى ما سيذكر - بإذن الله تعالى - في الفصل الخاص بقصص المتكبرين - أعني الفصل الخامس الذي يلي هذا الفصل .

وخلاصة القول : إن المجادلة بالباطل لدحض الحق علامة بارزة في سلوك المتكبرين يتخذونها وسيلة لإحقاق باطلهم وتزيين زيفهم وتصحيح يدعهم ونصرة آرائهم وأقوالهم ومذاهبهم ، ولتشويه وجه الحق الحسن وصورته الوضأة ، وطمس نوره المبين تشويشاً على متبعيه وعلى من أراد اتباعه ، والهوى هو دافعهم إلى ذلك .

ولا يقتصر الجدل على المتكبرين عن الإيمان بالله تعالى وتصديق رسله والاهتداء بآياته ، بل هي وسيلة منكرة يلجأ إليها كل متكبر على أي وجه من أوجه التكبر تحقيراً للحق المخالف لهواه واستعلاءً بالباطل الموافق له ، فالمتكبر بالعلم يجادل ليظهر أنه أعلم من غيره وأكثر اطلاعاً وأصوب رأياً ، وكذا المتكبر بمعتقدده يجادل ليظهر أنه أصح معتقداً ومذهباً .

وكذا المتكبر بعمله أو بقوته أو بسلطانه أو بحسبه أو بجماله كل منهم يجادل ليظهر أنه خير من غيره ممتاز عنه متفوق عليه .

وما يجادل أولئك بحجة بينة وسلطان ظاهر ، بل جدالاً بالباطل لدحض حق وإحقاق باطل ، ولكن الله عز وجل وهو الحق يعلي الحق ويرفع أهله ، ويدل الباطل ويضع المبطلين .

٣ - الفخر :

وهو الافتخار وعدُّ المآثر تعظماً^(١) ، أو هو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ونحوها^(٢) .

(١) انظر : شرح النووي على مسلم ، ٣٤/٢ .

(٢) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٣٧٤ .

والفخر والتكبر كما يبدو من النصوص الشرعية خلقان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فقد ذكر الفخر في القرآن الكريم مقروناً بالخيلاء تالياً لها -والخيلاء هي الكبر .

وكذلك جمع بين الفخر والخيلاء في أكثر من نص نبوي شريف .
قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] .
وقال تعالى : ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣] .

وفي الحديث : « ثلاثة يبغضهم الله عز وجل : الفخور المختال ، وأنتم تجدون في كتاب الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ، والبخيل المنان ، والتاجر والبيع والحلاف »^(١) .

وفيه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الإزار فقلت : أين أتزر؟ فأقنع ظهره بعظم ساقه وقال : « هَاهُنَا أَتَزِرُ فَإِنْ أَيْتَ فَهَاهُنَا ، أسفل من ذلك ، فإن أبيت فهاهنا -فوق الكعبين- فإن أبيت فإن الله عز وجل لا يحب كل مختال فخور »^(٢) .

وفيه : « الفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم » وفي رواية : « والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أصحاب الغنم »^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٦/٥ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤٨٢/٣ ، عن أبي تميمة الجهيني عن رجل من قومه .

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه . أخرجه البخاري في كتاب « بدء الخلق » ، باب

« خير مال المسلم يتبع بها شعف الجبال » ، ٥٧٦/٤ ؛ وفي كتاب « المناقب » باب « ٣ »

، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب « تفاضل أهل الإيمان فيه » ، ٧٢/١ ، ٧٣ .

وفيه : « والخيلاء التي يبغض الله ، الخيلاء من الفخر والكبر »^(١) .

فمن هذه النصوص وأمثالها يستفاد أن الفخر من علامات الكبر ، فإن المتكبر على أي وجه من أوجه التكبر يفخر ويتباهى بما يظن أنه أهل لأن يفخر ويتباهى به ، فالتكبر بعلمه - مثلاً - يفخر ويتباهى بكثرة ما جمع من أنواع العلوم وحصل من المعارف ، وبكثرة ما ألف وصنف ، وكثرة من درس عليه وتلقى منه ، كما يفخر بشهاداته وإجازاته ، وكذا المتكبر بماله يتفاخر بكثرته وتعدد أشكاله من مسكن ومركب ومأكل ، وكذا المتكبر بقوته يفاخر بها ، صرعت فلاناً ، وضربت فلاناً ، وكذا المتكبر بحسبه يفخر به ويعدد مآثر آبائه وأجداده ، ويتباهى بطيب أصله وشرف نسبه ، وكذا كل متكبر يفخر ويتباهى بما هو متكبر به ، فلا تأتيه فرصة إلا وتنطلق لسانه بالفخر ، يرفع بذلك نفسه متعظماً على الآخرين لا يرى أحداً منهم يفوقه أو يدانيه شرفاً وفضلاً ورفعة ومجداً ، فهو يذكر ما يخيل إليه ويظن أنه ممتاز به على الناس تبجحاً بنفسه وتعريضاً باحتقار غيره^(٢) .

٤ - البخل :

٥ - الرياء :

وهاتان الصفتان يدل عليهما قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا . الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٦-٣٨] .

بعد أن بين الله تعالى أنه لا يحب كل مختال معجب بنفسه متكبر على الخلق فخور يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله^(٣) ، وأن الاختيال والفخر يمنعان من القيام بالحقوق التي أمر الله تعالى بها ، وصف سبحانه وتعالى المختالين الفخوريين ذاماً لهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ

(١) أخرجه أحمد عن جابر بن عتيك رضي الله عنه ٤٤٥/٥ .

(٢) انظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ٩٥/٥ .

(٣) انظر : تفسير السعدي ، ص ١٤٣ .

يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ ثم قوله بعد ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، فتبين أن الاختيال والفخر مانعان من الإحسان حاملان على البخل لأنهما اختيال وفخر فرحا بالأعراض الفانية وركوناً إليها واعتماداً عليها فيبخل المختال بتلك الأعراض خوفاً من زوالها .

والبخل كما هو واضح من الآية لا يقتصر على الأمور الحسية بل يشمل كذلك الأمور المعنوية كالبخل بالعلم والنصيحة ، ويدخل في ذلك البخل بإلقاء السلام ورد التحية ، وطلاقة الوجه وحسن المنطق ونحوها .

وليت المتكبر بخيل في نفسه ، بل هو أسوأ من ذلك يمقت السخاء والإحسان حتى من غيره ، ولذا فإنه موصوف بقوله تعالى : ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ ، وأمرهم للناس إما بقولهم ، وإما بحالهم حين يحملون غيرهم على البخل بما يروا من اختيالهم وافتخارهم عليهم ، فيكونون لهم قدوة سيئة في ذلك^(١) .

ووصفوا بوصف ثالث هو قوله تعالى : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، أي يكتُمون ما آتاهم الله من العلم ، وذكر أن المراد بهم اليهود الذين جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله في التوراة ، وقيل هم المنافقون ولا يخفى مافي اللفظ من معنى أوسع من ذلك وأكثر شمولاً وأعم فائدة .

وإذا بدا المتكبر محسناً منفقاً فإنما يفعل ذلك لمجرد الرياء والسمعة ليتسامع الناس بأنه كريم ، ويتطاول على غيره بذلك ويطرفع عليه ﴿

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٣٨] ، فإذا المتكبر بخيل لايجود بالخير ، فإذا أنفق أنفق رياءً وسمعة ، وهذا يعني أن المختال المتكبر إما أن يبخل بالإحسان فيمنع النفقة ، وإما أن يمنع وصفها التي تقبل به فيفعلها رياءً وسمعة فلا تغني عنه

(١) انظر : تفسير المنار ، ٩٩/٥ .

(٢) انظر : فتح القدير ، ٤٦٦/٢ .

٦ - الاختيال والتبختر في المشي :

إذا مشى المتكبر مط ظهره وشمخ بأنفه ومد يديه وضرب الأرض بقدميه ، وهذه مشية التبختر والخيلاء كأن ما على الأرض سواه .
قال الله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ [القيامة: ٣١-٣٣] ، يصف الله تعالى ذلك الإنسان الذي لم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن ولم يصل لربه بل كذب وتولى عن طاعة الله ثم هو يمضي إلى أهله منصرفاً إليهم يتبختر في مشيته افتخاراً بذلك - ومعنى (يتمطي) أي يلوي مطاه أي ظهره ، وذكر أن المعنى بهذا هو أبوجهل لعنه الله^(١) .

وقد سبق ذكر الحديث الذي فيه : « إذا مشت أمتي لمطيماً . . . الحديث » . وفيه دلالة على تبختر المتكبر في المشي^(٢) .
وكذلك يدل على هذه الصفة من صفات المتكبرين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يتبختر يمشي في بردين قد أعجبه نفسه فحسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »^(٣) .
ومما يستدل به في هذا المجال قول الله تعالى في معرض التكبر :
﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] .

فها هنا نهى عن المرح في المشي ، وهو الخيلاء والتبختر^(٤) ، وقد بين الحق بعد ذلك صفة المشي الحسن المحمود بقوله : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾

(١) انظر : تفسير الطبري ، ١٩٩/٢٩ ، ٢٠٠ ؛ تفسير ابن كثير ، ٤٨١/٤ ؛ فتح القدير ، ٣٤١/٥ .

(٢) سبق تخريجه في الفصل الأول من هذه الرسالة .

(٣) سبق تخريجه في الفصل الأول من هذه الرسالة .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤٣/٣ .

[لقمان: ١٩] ، أي توسط فيه^(١) ، وكن متواضعاً ولا تمش مشي البطر والتكبر ، ولا مشي التماوت^(٢) ، وهذا ما وصف الله تعالى به عباده فقال : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ، أي بسكينة ووقار من غير استكبار ولا مرح ولا أشعر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً^(٣) .

وقد رأى أحد التابعين أحدهم يمشي متبختراً فقال : أفّ أفّ . شامخ بأنفه . ثاني عطفه ، مُصعّر خده ، ينظر في عطفيه أي حميق ينظر في عطفيه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها^(٤) . فهذا الذي ذكره في وصف ذلك المتبخر هو من مظاهر الاختيال في المشي .

ومن الأحاديث الدالة على هذه الصفة كذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من رجل يتعازم في نفسه ويختال في مشيته إلا لقي الله وهو عليه غضبان » .

« يتعازم في نفسه » : هذا هو الكبر ، أي يرى نفسه عظيماً كبيراً .
« ويختال في مشيته » وهذا هو أثر ذلك الكبر فمن يرى نفسه عظيماً ، إذا مشى اختال وتبخر ليمتاز عن الآخرين ، ويظهر ترفعه عليهم .
وحاصل القول : أن التبخر في المشي علامة من علامات الكبر وأثر ظاهر على سلوك المتكبر .

٧ - الاختيال باللباس :

ويكون إما بالإسراف فيها أو بإسبالها ويدل على ذلك قول رسول الله

(١) انظر : فتح القدير ، ٢٣٩/٤ .

(٢) انظر : تفسير السعدي ، ص ٥٩٧ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ، ٣٣٧/٣ .

(٤) قائل هذا الكلام هو الحسن البصري عليه رحمة الله وقد رأى ابن الأهثم وهو المنصور يمشي على تلك الحالة من التبخر ، وقد خرّج هذا الأثر ابن أبي الدنيا في الخمول والتواضع كما ذكر ابن كثير . انظر : تفسير ابن كثير ٤٣/٣ .

صلى الله عليه وسلم : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا غير إسراف ولا مخيلة »^(١) .

الإسراف مجاوزة الحد في كل فعل أو قول ، والمخيلة هي الخيلاء أي : التكبر^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله إلى من جرَّ ثوبه خيلاء » ، وفي رواية : « من جرَّ ثوبه مخيلة لم ينظر الله إليه يوم القيامة »^(٣) .

وفي الحديث : « وَإِيَّاكَ وَتَسْبِيلَ الْإِزَارِ فَإِنَّهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ وَالْخِيَلَاءُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »^(٤) .

وفي الحديث : « الْإِسْبَالُ فِي الْإِزَارِ وَالْقَمِيصِ وَالْعِمَامَةِ ، مِنْ جَرِّ شَيْئٍ خِيَلَاءٍ لَمْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٥) .

فهذه الأحاديث - وشبهها - دالة على وقوع الاختيال باللباس .
وتلك علامة من علامات الكبر ، فالمتكبر يحرص على أن لا يلبس

-
- (١) علقه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس ٢٦٤/٧ .
وأخرجه موصولاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده يرفعه - ابن ماجه في كتاب اللباس ، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة ٣٧٨/٢ .
وكذا أخرجه النسائي في كتاب الزكاة باب الاختيال في الصدقة ٧٩/٥ .
وكذا أخرجه أحمد ١٨٢/٨١/٢ .
- (٢) انظر : فتح الباري ، ٣١١/١٠ .
- (٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، ٣١٠/١٠ ؛ وباب : « من جرَّ ثوبه من الخيلاء » ، ٣١٦/١٠ .
- (٤) أخرجه أبوداود من حديث جابر بن سليم في كتاب « اللباس » ، باب « ماجاء في إسبال الإزار » ٥٦/٤ .
- (٥) أخرجه أبوداود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب « اللباس » ، باب : « في قدر موضع الإزار » ، ٦٠/٤ .
وأخرجه ابن ماجه في كتاب : « اللباس » ، باب : « طول القميص كم هو » ، ٣٧٠/٢ ، وفيه : قال أبوبكر : ما أغربه ، وأبوبكر هو ابن أبي شيبه . انظر : فتح الباري ٣٢٢/١٠ . ففيه أن عبدالعزيز بن أبي داود فيه مقال .
وأخرجه أحمد في مسند وهذا لفظه . انظر : المسند ، ٦٥ ؛ ٦٤٢٦٣/٥ ، ٣٧٨

إلا أنفس الملبوسات وأغلاها ثمناً وأكثرها جذباً للأنظار ، وقد يكتفي بلبس القطعة منها مرة أو مرتين ثم يأنف أن تُرى عليه مرة أخرى فيرميها ليلبس غيرها .

ولا يعني هذا أن لا يتجمل المرء بما أحل الله له شكراً لنعمة الله عليه ، بل القصد أن يحذر من الإسراف والخيلاء ، فهذا هو الممنوع ، وإذا أمنه المرء فليأكل وليشرب وليلبس وليتصدق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث أولاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كل ماشئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان : سرفاً أو مخيلة^(١) .

وتؤكد النصوص أن التجمل وابتغاء المرء أن يكون حسن الهيئة لا يُنهى عنه ولا يُذم مبتغيه ، فقد صح في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » فقال رجل : إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »^(٢) .

وفي الحديث الآخر أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً جميلاً ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل حبيب إلي الجمال وأعطيته منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد ، إنا قال : بشراك نعلي ، وأما قال : بشيئع نعلي ، أفمن الكبر ذلك؟ قال : « لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس »^(٣) .

وفي حديث آخر ذكر وصية نوح عليه السلام لابنه وفيه : وأنهاك عن الشرك والكبر ، قيل : هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال : أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال : « لا » قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال : « لا » ، قال : أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون

(١) ذكر البخاري تعليقاً في صحيحه في كتاب اللباس ٢٦٤/٧ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب « الإيمان » باب : « تحريم الكبر وبيانها » ، ٩٣/١ .

والترمذي بنحوه في كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ، ٣٦١/٤ .

(٣) أخرجه أبوداود عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب « اللباس » باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ .

إليه؟ ، قال : « لا » قيل : يارسول الله فما الكبر؟ قال : « سفه الحق وغمط الناس »^(١) .

وفي الحديث الآخر : إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهيناً وشراكي نعلي جديداً ، وذكر أشياء أخر حتى ذكر علاقة سوطه ، أفمن الكبر ذاك يارسول الله ، قال : « لا ذاك الجمال ، إن الله جميل يحب الجمال ، ولكن الكبر من سفه الحق وغمط الناس »^(٢) .

وأما الإسبال في اللباس وجره فقد وردت في النهي عنه أحاديث مطلقة وأخرى مقيدة ، فأما المقيدة فقد ورد فيها النهي عن الإسبال على سبيل الخيلاء كما مرّ بك بداية ذكر هذه الصفة ، وأما المطلقة فقد ورد فيها النهي عن الإسبال مطلقاً مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار »^(٣) .

والذي خرج به أهل العلم من هذه الأحاديث أن الإسبال للخيلاء كبيرة ، وأما لغير الخيلاء فظاهر الأحاديث تحريمه أيضاً ، لكن استدل بالتقييد في هذه الأحاديث بالخيلاء على أن الإطلاق في الزجر الوارد في ذم الإسبال محمول على المقيد هنا فلا يحرم الجر والإسبال إذا سلم من الخيلاء ، إلا أن الإسبال مذموم على كل حال^(٤) .

قال النووي : الإسبال تحت الكعبين للخيلاء ممنوع منع تحريم ، ولغيرها منع تنزيه^(٥) ، ثم قال : « قال القاضي : قال العلماء : وبالجمله يكره

(١) عند أحمد في مسنده ١٧٠/٢ ، وقال أحمد شاكر ، إسناده صحيح . انظر : مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر ، ٨٧/١٠ ، والحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) عند أحمد في مسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ٣٩٩/١ ، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح ، انظر : المسند بشرح أحمد شاكر ٣٠١/٥ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب ما أسفل الكعبين فهو في النار ٢٦٥/٧ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي الباب أحاديث أخرى ليس المقام مقام إطالة فيها .

(٤) انظر : فتح الباري ، شرح البخاري ، ٣٢٣/١٠ .

(٥) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ، ٦٣/١٤ .

كل ما زاد عن الحاجة والمعتاد في اللباس من الطول والسعة»^(١) .
 ودلت الأحاديث على أن الإسبال لا يختص بنوع من الثياب ، فكما
 يكون في الإزار يكون في الرداء ، وفي الثوب وفي سائر ما يلبس كالسراويل
 ونحوها ، كما هو واضح من الحديث المذكور قبل ، وفيه : « **الإسبال في
 الإزار والقميص والعمامة** » ، وفي حديث صحيح آخر : « **ما خصَّ إزاراً
 ولا قميصاً** »^(٢) وفي آخر : « ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإزار
 فهو في القميص »^(٣) .

كما دلت الأحاديث - وشاهدها قول الرسول صلى الله عليه وسلم :
 « **وإياك وإسبال الإزار فإنه من الخيلاء** » ، و المخيلة - على أن الإسبال وجر
 الثياب مظنة الخيلاء أي يستلزمها ولو لم يقصدها اللابس^(٤) .

وخلاصة القول : أن الإسبال من علامات الكبر ، فالمتكبر يتعمد إطالة
 ثيابه ، والخروج بها عن الحد المعروف والمألوف ، وتراه يمشي بها متبختراً
 مختلاً .

وليس فقط الإسبال في الثياب دليل على الخيلاء بل هناك صور أخرى
 لتلك الخيلاء بالثياب ، ومنها أشكال الثياب وأصنافها وأنواعها وما يصرف في
 الحصول عليها من كثير الأموال إسرافاً وتبذيراً بقصد التفاخر والتعظيم
 والخيلاء ، وهذا في الرجال وفي النساء وإن كان في النساء أكثر فإن الواحدة
 منهن وبخاصة المتعالية المتعجرفة تحرص على أن يكون لها من الملابس كل
 جديد وغريب وغالي لتفخر على بنات جنسها ، لترضي بذلك غرورها
 واستكبارها^(٥) .

وهذا الأمر قد يجر إلى مفاسد أخرى كأن لا يستطيع عائل تلك المرأة

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ٦٣/١٤ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب « اللباس » باب : « من جر ثوبه من الخيلاء » عن
 عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، ٢٦٦/٧ .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب « اللباس » باب : « ما جاء في قدر موضع الإزار » ،
 ٦٠/٤ .

(٤) انظر : فتح الباري ، ٣٢٤/١٠ .

(٥) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ٦٨٠/١ ، ٦٨١ .

المتعالية توفير مطالبها التي تفوق طاقته ، فيلجأ إلى السرقة أو الرشوة أو الغش ، ليرضي طموحها وغرورها ، وهذا أمر مشاهد وواقع لا يحتاج إلى برهان ، وهو أمر لاتخفى مفسده وآثاره السيئة على الأمة كافة والله أعلم .

٨ - لِيُ الْعُنُقُ أَوْ الرَّأْسُ أَوْ الْجَانِبُ وَتَصْغِيرُ الْخَدِ :

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٨-٩] .

وروت هاتان الآيتان في وصف الذين يجادلون في آيات الله ليدحضوها بجهلهم وضلالهم معرضين عن الحق المبين مستكبرين عن اتباعه ، وفي قول الله تعالى (ثاني عطفه) تصوير لحالة أولئك المجادلين في آيات الله المعرضين عنها ، فإنهم يتكبرون ويتبخثرون لاوين أعناقهم ورقابهم ورءوسهم معرضين مؤلّين لا يريدون أن يسمعوا ما يقال لهم من الحق وما يقرأ عليهم من الآيات ، فمعنى : (ثاني عطفه) ، أي لاوهيا رقبته أو رأسه ، وأصل العطف الجانب ، وعطف الرجل : جانباه من لدن رأسه إلى وركيه ، قيل : وإنما عبر العلماء هنا بالعنق مع أن العطف يشمل العنق وغيرها ، لأن أول ما يظهر فيه الصدود عنق الإنسان يلويه ويصرف وجهه عن الشيء بليها^(١) .

فقول الله تعالى في وصف المخاصم في آياته : (ثاني عطفه) ، كناية عن كبره واستعلائه ، فإنه إذا دعي إلى الحق أعرض عن داعيه ، ولوى عنقه ولم يسمع ما يقال له استكباراً^(٢) .

وقال الله تعالى في معرض النهي عن التكبر : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩] .

فقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ، معناه ، لاتعرض بوجهك عن كلمته تكبراً واستخفافاً بمن تكلمه واستحقاراً له ، وقيل : وأصل الصعر

(١) انظر : أضواء البيان ، للشنقيطي ، ٢٦/٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٢١/١٧ .

دائماً يأخذ الإبل في أعناقها أي رعوسها حتى تلفت أعناقها عن رعوسها ، فيشبهه به الرجل المتكبر على الناس^(١) .

وهذه إحدى وصايا لقمان الحكيم -رحمه الله تعالى- لابنه ، فإنه قد أوصاه أولاً بوصايا تتضمن أن يكون كاملاً في نفسه مكماً لغيره ، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] ، فلما أوصاه بذلك كان يخشى بعدهما من أمرين :

الأول : التكبر على الغير بسبب كونه مكماً له .

والثاني : التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه ، ولذلك أوصاه بأن لا يتكبر على الناس ولا يمش في الأرض متبخترًا فإن الله تعالى لا يحب المختال الذي يكون به خيلاء ، وهو الذي يُري الناس عظمة نفسه ، وهو التكبر ، ولا يحب جلَّ جلاله من يكن مفتخرًا بنفسه ، وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه^(٢) .

وذكر الرازي لطيفة في هذه الآيات : وهي أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل في الأمر ، حيث قال : (أقم الصلاة) ، وهذا كمال المرء في نفسه ، ثم قال : (وأمر بالمعروف) وهذا ما يختص بتكميل الغير .

قال : وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال : (ولا تصعر خدك) ثم قال : (ولا تمش في الأرض مرحاً) لأن في طرف الإثبات من لا يكون كاملاً لا يمكن أن يصير مُكَمَّلاً ، فقدم الكمال ، يعني من لا يكون مصلياً لا يصير آمراً بالمعروف ، فمن لا خير فيه لنفسه فكيف يريده لغيره؟

قال : وفي طرف النفي ، من يكون متكبراً على غيره يكون متبخترًا لأنه لا يتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبخترًا في نفسه قد لا يتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس ، فقدم نفي التكبر ، ثم نفي التبختر لأنه لو قد نفى التبختر لزم منه نفي التكبر فلا يحتاج إلى النهي

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٧٤/٢١ .

(٢) انظر : تفسير الرازي ، ١٣١/٢٥ .

عنه^(١) .

ويعني رحمه الله تعالى : أنَّ التبختر في نفس المرء ، والتكبر يكون في سلوكه الظاهر أي على الناس ، فلو لم يكن متبخترًا لما كان متكبرًا ، ولهذا لما نفى التكبر أولاً أثبت له الصفتين . والله أعلم

وقال تعالى في وصف المنافقين : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥] .

يصف الله عز وجل أولئك المنافقين بأنهم إذا دعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم الله تعالى مما وقعوا فيه من معصيته حركوا رؤوسهم وهزوها استهزاءً برسول الله صلى الله عليه وسلم وباستغفاره ، وأعرضوا عما دُعوا إليه مستكبرين عن المصير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لهم^(٢) .

وفي قوله : (لَوَّوْا) قراءتان : الأولى بالتشديد في الواو ، والأخرى بالتخفيف^(٣) ، والأكثر على القراءة الأولى ، وتعني أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها^(٤) ، وفي الحديث الصحيح عن زيد بن أرقم^(٥) قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدة ، فقال عبدالله بن أبي لأصحابه : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فأرسل إلى عبدالله بن أبي ، فسأله فاجتهد يمينه ما فعل ،

(١) انظر : تفسير الرازي ، ١٣١/٢٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٠٨/٢٨ .

(٣) قرأ بالتخفيف نافع وحده ، وقرأ الباقر بالتشديد ، انظر : السبعة في القراءات لابن مجاهد ، ص ٦٣٦ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١٠٨/٢٨ .

(٥) ابن زيد بن قيس بن النعمان مختلف في كنيته ، قيل : أبوعمر و قيل أبو عامر ، استصغر يوم أحد ، وأول مشاهدته الخندق ، غزا مع الرسول صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة ، له حديث كثير ، شهد صفين مع علي رضي الله عنه ومات في الكوفة أيام المختار سنة ست وستين ، وقيل ثمان وستين رضي الله عنه وأرضاه .

انظر : الإصابة : ٥٦٠/١

قالوا : كذبَ زيدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله عز وجل تصديقي في [إذا جاءك المنافقون] فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلوّوا رءوسهم^(١) ، وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية غير ذلك ، ومفاد تلك الآثار أنها نزلت في المنافقين حين لووا رءوسهم استكباراً أن يستغفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١] .

من الصفات الذميمة في الإنسان -الإنسان الكافر بخاصة-^(٣) أنه ينسى شكر المنعم على نعمه عليه ويذهب بنفسه ويتكبر ويتعظم ، فإذا مسه الضر إذا هو يتذكر كاشف الضر ، فيقبل على دوام دعائه مبتهلاً متضرعاً^(٤) ، وفي التعبير بقوله (دعاء عريض) دليل على الكثرة والدوام^(٥) أي يكثر الدعاء ويدوم عليه حتى ينكشف ضره ، ومعنى (أعرض ونأى بجانبه) أي صد بوجهه وتباعد بجانبه^(٦) .

وخلاصة القول: إن هذه الآيات البينات تشير إلى علامة من علامات الكبر وهي : لي العنق أو الرأس أو الجانب ، وتصعير الخد وإمالتها على سبيل الخيلاء والتكبر ، وهي علامة تظهر على سلوك المتكبرين يعبرون بها عن تعظيمهم واستعلائهم عن الحق وعلى الخلق فإذا خوطبوا بالحق من قبل أهله لووا رءوسهم وثنوا جنوبهم هزءاً واستخفافاً بهم وبما معهم من الحق ، ومن هذا القبيل الإجابة بحركة الوجه أو اليدين أو غيرهما من الجسم كرفع الحاجبين

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة المنافقون ، قوله : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم...) الآية (المنافقون : ٤) ، ٥٣٦/٦ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير ، ١٠٩/٢٨ - ١١٠ ؛ الدر المنثور ، ٣٣٤/٦ - ٣٣٧ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز ، ٢٣/٥ ؛ تفسير الرازي ، ١١٩/٢٧ .

(٤) انظر : تفسير الرازي ، ١١٩/٢٧ .

(٥) انظر : المحرر الوجيز ، ٣٢/٥ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ، ١٢٥/١١ ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت - الأولى .

١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

وغمز العين وشد الحنك ، ومط الشفاه وإشارة اليد ورفع الرأس أو خفضه^(١)..

٩ - التشديق في الكلام :

ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ الْمُتَكَبِّرُونَ »^(٢).

« الثرثارون » : هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق^(٣).

« المتشددون » : هم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز ،

وقيل : أراد بالمتشدد : المستهزي بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم^(٤).

وقيل : المتشدد هو المتكلم بملء شذقيه تفاصحاً وتعاضماً واستعلاءً

على غيره^(٥).

« المتفهيقون » : الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم ،

مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع^(٦).

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ١/٦٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي عن جابر رضي الله عنه في كتاب : « البر والصلة » . باب : « ماجاء في معالي الأخلاق » وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وروى بعضهم هذا الحديث عن المبارك بن فضالة عن محمد بن المكندر عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر فيه عن عبدربه بن سعيد ، وهذا أصح . انظر : سنن الترمذي ، ٤/٣٧٠.

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ولم يذكر المتفهيقون . انظر : المسند ، ٢/٣٦٩.

وأخرجه عن أبي ثعلبة الحشني بنحو حديث جابر عن الترمذي . انظر المسند ، ٤/١٩٣-١٩٤.

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/٢٠٩.

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/٤٥٣.

(٥) انظر : الترغيب والترهيب للمنذري ، ٣/٥٦٢.

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/٤٨٢.

وقيل : المتشدد والمتفهب بمعنى واحد^(١) .

ورود في حديث آخر « إن الله عز وجل يفض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها »^(٢) .

والمقصود بهذا الوعيد هو الذي يتشدد في الكلام ويفخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلاً بلسانها لفاً^(٣) .

والذي يؤخذ مما سبق هو أن التفخم في الكلام من علامات الكبر ودلائل التكبر ، فالتكبر إذا تكلم فخم كلامه ولف به لسانه يتعاطم بذلك ويستعلي ، كما أنه يتوسع فيه ويكثر منه ويتكلفه ليشار إليه بالفصاحة والبلاغة والبيان فيزيد انتفاشاً وانتفاخاً .

١٠ - القسوة والغلظة :

المتكبر فظ غليظ لا تعرف الرحمة والرأفة طريقاً إلى قلبه ، ولا يجد اللين والرفق مسلكاً إلى نفسه ، عابس الوجه مقطب الجبين غليظ المنطق ، سيء السلوك ، وهو كذلك لأنه نظر إلى نفسه فرفعها ونظر إلى الناس حينما رفع نفسه فرآهم دونه فحقرهم ، وإذا هم بخيلائه لا يستحقون الإحسان إليهم بأية صورة من صور الإحسان حتى ولو بكلمة طيبة أو بنظرة باسمة .

وإن قصص المتكبرين في القرآن الكريم، وفيما هو مشاهد من واقع الحياة ماضيها وحاضرها شاهدة على أنهم والرفق والرحمة واللين والإحسان يسيرون في خطوط متوازية لا يمكن أن تلتقي إلا حين يغسل الإيمان تلك النفوس المتعظمة المتعالية ويظهرها من ذلك الرجس والدنس .

لقد ألقى المتكبرون خليل الله إبراهيم عليه السلام في نار موقدة وقتلوا كثيراً من رسل الله عز وجل إليهم ، واضطهدوا أهل الخير والصلاح ، فأين الرحمة من هذا كله؟

أين الرفق والإحسان ، والمتكبرون يسحبون بلالاً رضي الله عنه ، وغيره

(١) انظر : الترغيب والترهيب ، ٥٦٢/٣ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، ١٦٥/٢ ،

١٨٧ .

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر : ٧٣/٢ .

من المؤمنين على رمضاء مكة في هجيرها المشتعل .
وأين الرفق والإحسان وأبوجهل يطعن امرأة ضعيفة مسكينة لاحول لها
ولا قوة بحرية في قلبها فيقضي عليها؟
وأين الرحمة والإحسان من الطاغية المتكبر فرعون وهو يُقَتَّل ويُذَبِّح
أطفالاً تأبى كل فطرة سليمة أن يتعرضوا لأقل أنواع الأذى؟
أليس من الغلظة والطغيان والجبروت أن يُسَجَّن الدعاة المصلحون في
سجون البغي وأهله ويُذاقون فيها ما لا يوصف من التعذيب والتقتيل؟
إن هذا وغيره كثير ليشهد بأن للمتكبرين قلوباً قد انتزعت الرحمة منها ،
ولعل ذلك هو من آثار طبع الله عز وجل على تلك القلوب بتكبرها ، فإذا هي
غلف إلا عن الشر والسوء .

ومما يشهد على أن الجفاء والغلظة والقسوة خلق المتكبرين أن الله عز
وجل قال في وصف قوم من النصارى واليهود : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً
لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا
سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ
الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢ ، ٨٣] .

فالنصارى المعنيون بهذا من صفاتهم أنهم لا يستكبرون ، ولذا فهم أقرب
الناس مودة للمؤمنين ، وقلوبهم رقيقة شفافة إذا سمعوا كلام الله تعالى
لا يملكون إلا أن تفيض أعينهم من الدمع ، وتجد به فيسارعون إلى الإيمان ،
أما اليهود والمشركون فمفهوم الآية أنهم يستكبرون ، ولذلك فإن قلوبهم
لا تعرف المودة للمؤمنين ، بل هم أشد الناس عداوة لهم .

وشاهد آخر على غلظة وجفاء المتكبرين وقسوتهم هو قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « الفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر ، والسكينة
في أهل الغنم ، والإيمان يمان والحكمة يمانية »^(١) ، وفي رواية « والجفاء

(١) متفق عليه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري في « بدء الخلق » ، باب

« خير مال المسلم » ٥٧٦/٤ ، وفي كتاب ، « المناقب » باب : « ٣ » ١٦/٥ .

وأخرجه مسلم في كتاب : « الإيمان » ، باب : « تفاضل أهل الإيمان فيه » ٧٢/١ ، ٧٣ .

وغلظ القلب في الفدّادين عند أصول أذنان البقر» وفي رواية «أذنان الإبل من حيث يطلع قرن الشيطان - في ربيعة ومضر»^(١).

وفي رواية: «غلظ القلوب والجفاء في المشرق، والإيمان في أهل الحجاز»^(٢).

«الفدّادون»: بتشديد الدال عند الأكثر، جمع فدّاد بالتشديد، وهم الذين تعلوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، ويقال: فدّ الرجل يفدّ فدّاً إذا اشتدّ صوته، وقيل: هم المكثرون من الإبل، وقيل: هم الجمالون والبقارون والحمارون والرعيان.

وقيل: «الفدّادون»، بتخفيف الدال والمراد بها البقر التي يحرث بها وأهلها أهل جفاء وغلظة^(٣).

وفي الحديث برواياته المختلفة مدحٌ لأهل اليمن وأهل الحجاز وذم لأهل المشرق.

قيل: وفي ذم أهل المشرق إشارة إلى شدة كفر المجوس، فإن مملكة الفرس ومن تبعهم من العرب كانت من جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة، وكانوا في غاية القسوة والتكبر والتجبر.

وذمّ الفدّادون من ربيعة ومضر لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم وذلك يفضي إلى قساوة القلوب^(٤).

وقيل: وخصّ أهل الغنم بالسكينة الدالة على السكون والوقار والتواضع لأنهم غالباً دون أهل الإبل في التوسع والكثرة، وهما من أسباب الفخر

(١) متفق عليه، عن أبي مسعود؛ أخرجه البخاري في كتاب: «المناقب»، باب (٣)، ١٥/٥، وفي كتاب المغازي، باب «قدوم الأشعرين» ٣٠١/٦، ٣٠٢.

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه، ٧١/١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه ٧٣/١.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤١٩/٣.

(٤) انظر: فتح الباري شرح البخاري، ٤٣٣/٦.

والخيلاء^(١) .

قلت : فالحديث شاهد على أن الغلظة والشدة والقسوة من أخلاق المتكبرين ، فهذا وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم بالفخر والخيلاء ، كما وصف الآخرين باللين والرقّة ، فقلوبهم ذات خشية واستكانة سريعة الاستجابة والتأثر بالموعظة والتذكير سالمة من الشدة والقسوة التي وصف بها أولئك^(٢) .

فقلوب المتكبرين إذا غليظة لاتفهم ولاتعقل ولاتلين لموعظة ، ولاتخشع لذكرى^(٣) .

وشاهد آخر على غلظ وجفاء المتكبرين هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مَتَّعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ » وفي رواية : « كُلُّ جَوَّازٍ زَنِيمٍ مُتَكَبِّرٍ »^(٤) .

وفي حديث آخر : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ عِبَادِ اللَّهِ؟ الْفُظَّ الْمُسْتَكْبِرُ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ؟ الضَّعِيفُ الْمُسْتَضَعْفُ ، ذُو الطَّمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ،

(١) انظر : فتح الباري شرح البخاري ٤٣٤/٦ .

(٢) انظر شرح النووي على مسلم ، ٣٤/٢ .

(٣) متفق عليه ، عن حارثة بن وهب رضي الله عنه ، أخرجه البخاري في كتاب

« التفسير » تفسير سورة القلم ، باب قوله : « عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ » ، القلم / ١٣ ،

٥٤٤/٦ ؛ وفي كتاب : « الأدب » ، باب : « الكبر » ٣٤٤/٨ ، وأخرجه مسلم في

كتاب « الجنة » باب « النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء » ٢١٩٠/٤ .

لو أقسم على الله لأبرّ الله قسمه»^(١) .

فانظر كيف جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه الأوصاف لأهل النار ، فهم : كل عُتْل ، جَوَّازٌ ، زَنِيمٌ ، فَظٌّ ، مُسْتَكْبِرٌ ، أَوْمَتَكِبِرٌ .
فَالْعُتْلُ : بضم العين والتاء ، هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل^(٢) ،
وقيل : الجافي عن الموعظة ، وقيل : الفظ الغليظ من كل شيء ، وقيل :
الفاحش والآثم ، وقيل : الغليظ العنيف ، وقيل غير ذلك ، وكلها معانٍ
مقاربة^(٣) .

وَالجَوَّازُ : بفتح الجيم وتشديد الواو ، وبالظاء المعجمة ، هو الجموع
المنوع ، وقيل : كثير اللحم المختال في مشيته . وقيل : القصير البطين ،
وقيل : الفاخر بالخاء^(٤) .

وقيل : الفظ الغليظ^(٥) .

وَالزَنِيمُ : هو الدَّعِيُّ في النسب الملتصق بالقوم وليس منهم^(٦) .

وَالْفَظُ : هو سيء الخلق ، أو الشديد الخشن الخلق^(٧) .

وَأما المتكبر والمستكبر : فهو صاحب الكبر الذي هو بطر الحق
وغمط الناس^(٨) .

وعلى ضوء ما سبق فإن في هذه النصوص النبوية إشارة إلى ما ذكرت من
كون القسوة والغلظة والجفاء من علامات الكبر في سلوك المتكبرين ، فالجمع
بين هذه^{المعاني} يدل على ذلك والله تعالى أعلم .
وتزداد الدلالة وضوحاً حينما نتأمل ما وصف به رسول الله صلى الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٠٧/٥ ، قال المنذري : ورواه رواة الصحيح
إلا محمد بن جابر : انظر : الترغيب والترهيب ، ٥٦٤/٢ .

(٢) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٨٨/١٧ .

(٣) انظر : فتح الباري شرح البخاري ، ٨٥٧/٨ .

(٤) انظر : شرح النووي على مسلم ١٨٨/١٧ .

(٥) انظر : فتح الباري شرح البخاري ، ٨٥٧/٨ .

(٦) انظر : شرح النووي على مسلم ١٨٨/١٧ .

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤٥٩/٣ .

(٨) انظر : شرح النووي على مسلم ١٨٨/١٧ .

عليه وسلم - بالمقابل - أهل الجنة من صفات تدل على تواضعهم ورقة قلوبهم ولينها : كل ضعيف متضعف أو مستضعف ، فالضعيف مَنْ نفسه ضعيفة لتواضعه وضعف حاله في الدنيا ، والمتضعف من يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لخموله وضعف حاله في الدنيا^(١) .

فهذا حال المتواضعين وضده حال المتكبرين . والله أعلم

١١ - الكذب :

في الحديث الصحيح أن رجلاً أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله ، فقال : « كُلْ يَمِينِكَ » ، قال : لأستطيع ، قال : « لَا اسْتَطَعْتُ ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ » ما منعه إلا الكبر ، قال : فما رفعها إلى فيه .

فهذا رجل فيه كبر يأكل بشماله فيأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل يمينه فمنعه الكبر أن يطيع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كاذباً : لأستطيع ، أي : لأستطيع أن أكل يميني ، يتظاهر بعله تمنعه من الأكل يمينه ، وهو كاذب ، مامنه إلا الكبر ، فكان الكبر دافعاً له للكذب ، فجوزي على ذلك بأن شئت يمينه ، فإذا هو فعلاً لا يستطيع رفعها بعد ذلك إلى فيه .

فالمتكبر يكذب لتغطية كبره تارة ، ويكذب لإبرازه تارات ، فيدعي لنفسه ما ليس عنده كعلم أو مال أو نسب شريف أو قوة وشجاعة أو ظرافة أو سوى ذلك مما يهدف من ورائه نيل المرتبة العليا والمنزلة الرفيعة بين الناس .

وهذا كذب يكذبه المتكبر فيما بينه وبين الناس يرجوا أن ينال الرفعة بينهم ، وليس بنائل لأن الله يذل المتكبر ويضعه ، وأعظم من ذلك كذب المتكبر على ربه تبارك وتعالى وتقول له عليه بغير علم ، كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] ، يقول : إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه أنني أستحقه ولمحبته لي^(٢) ، وهذا محض افتراء وكذب ، وتقول

(١) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٨٧/١٧ ؛ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ٨٥٦/٨ .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ، ٤١٠/٣/٣ .

على الله تعالى بغير علم ، ولهذا عوقب بما عوقب به من الذلة والهوان .
ونحو هذا ما قاله صاحب الجنتين : ﴿ وَلَئِنْ رَدِدْتَ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا
مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦] .

ونحوه قول اليهود والنصارى : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨] ،
وقولهم ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة: ١١١] ، يقول
اليهود والنصارى هذا وهم الذين وصفوا الله تعالى بما لا يليق به وبجلاله
سبحانه وتعالى ، وكذبوا رسله وقتلوه وحرفوا كتبه وبدلوها ، فأى افتراءٍ
للكذب أشنع من هذا؟

ونحوه كذلك ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا
أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] .

قيل : نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب ، كان يسجع ويتكهن ويدعي
النبوة ويزعم أن الله أوحى إليه^(١) .

وقيل : في عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، كان قد أسلم وكان يكتب
الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأملى عليه يوماً قول الله تعالى :
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] ، فلما انتهى إلى
قوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١٣] ، عجب عبدالله من تفصيل خلق
الإنسان فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « هكذا أنزلت عليّ » ، فشك عبدالله حينئذ ، وقال : لئن كان محمدٌ
صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال ،
وذلك قوله : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ وارتد عن الإسلام ، ثم
أسلم يوم الفتح^(٢) .

(١) ذكره الطبري عن قتادة ، انظر تفسيره ٢٧٣/٧ ، ٢٧٤ .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ٤٥/٣ ، عن شرحبيل بن سعد ، وانظر : تفسير

الطبري ، ٢٧٣/٧ ، ذكره عن السدي وهو في أسباب النزول ص ٢٥٤ .

فهذا محض افتراء وكذب يتقوله المستكبرون ، يريدون الرفعة والله
مذلهم : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ .

١٢ - غمط الناس :

أي الاستهانة والاستخفاف بهم والاستحقار والاستصغار لهم والتعالي
والترفع عليهم ، وصور ذلك كثيرة من الهزاء والسخرية والغمز واللمز والتعير
والتنقيص والغيبة والنبز وفضح العيوب وكشف النقائص ، والترفع عن
مجالستهم ومخالطتهم ومزاوجتهم - وبخاصة الفقراء والمستضعفين منهم -
وعدم الإحسان إليهم أو الإعتراف لهم بحق أو واجب^(١) .

فالمتكبر يفعل كل ذلك إرضاءً لاستكباره واستعلائه بنفسه ، فإنه يرى
نفسه كبيراً عظيماً ، ويرى غيره أصغر منه وأقل شأنًا ، فهو يقابلهم بهذا السيء
من الأخلاق والمعاملة استخفافاً بهم وتعظماً عليهم .

وشواهد هذا التعظم على الناس والاستحقار لهم فيما قصه القرآن الكريم
من خبر المستكبرين كثيرة قد سبق الإشارة إليها غير ذي مرة مما أغنى عن
إعادتها هنا .

والمقصود أن المتكبر لا يرضى أن يتساوى مع غيره في شيء ، بل هو
يطمح إلى أن يكون الأرفع والأعلى ، ولذا فإنه يتنقص الآخرين ويعيبهم لتحقيق
له غايته الخبيثة ومقصده الدنيء .

ولقد نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن السخرية واللمز والتنايز
بالألقاب والظن والتجسس والغيبة فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن
يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم
بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
تَوَّابٌ رَّحِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٧٤ .

وَقَبَائِلَ لَتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴿[الحجرات: ١١، ١٣] .

فتأمل قوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ، بعد نهى المؤمنين
عن السخرية بإخوانهم ، وقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ، بعد نهى
المؤمنات عن السخرية بأخواتهن .

وستجد أن السرف في ذلك هو أن الذي يسخر من غيره إنما يدفعه إلى
ذلك شعوره بأنه خير منه -وهذا هو الكبير- ولهذا عقب الله تعالى على ذلك
بقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ، مَنَّهُنَّ ، ليبين للساخرين خطأهم في
اعتقادهم أنهم خير من المسخور منهم ، فعسى أولئك لهم عند ربهم الدرجات
العلی ، وأولئك المسخرون لا قيمة لهم ، وذلك حينما يوزن الجميع بميزان
التقوى الذي لا يزن الله تعالى بميزان سواه .

يؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد النهي عن السخرية ، وما ذكر بعد من
سوء الأخلاق : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَائِلَ لَتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ، فتأمل هذه الآية الكريمة وستجد أنها تقول : يا أيها
الساخرين المنازين المتجسسين الظانين ظن السوء المغتابين ، تذكروا أصلكم
لتعلموا أن لا أحد منكم يمتاز عن الآخر ، فالجميع من آدم خلقوا وخلق آدم
من تراب فأصل الجميع تراب ، فكيف وبأي شيء يمتاز ابن التراب على أخيه؟
ثم زد في تأملك للآية الكريمة وستجدها تشير إلى أن التمايز الذي يتميز
به أولئك المتخلفون بهذه الأخلاق إنما هو في أمور دنيوية يظنها الجاهلون
قيماً تستحق أن تكون ميزاناً للتفاضل والتسامي كالمال والنسب والقوة.... ؛
ولهذا قال الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، أي لاتزنوا الناس
وأنفسكم بسوى ميزان التقوى ، فإنكم إنما تنالون العزة والسمو به ، فمن كان
تقياً فهو العزيز الرفيع الكريم عند ربه ، ومن كان فاجراً عصياً فهو الذليل
المهين ، ولاشك أن التقوى تمنع صاحبها من التخلق بهذه السيئات .

وحتى لا يدعي التقوى ويزعمها من ليس أهلها ، ختم الله تعالى هذه الآية
بقوله (إن الله عليم خبير) ، أي هو عليم بعباده لا يخفى عليه منهم شيء ، يعلم
من يقوم منهم بتقواه ظاهراً وباطناً ، ومن لا يقوم بذلك لظاهراً ولا باطناً ،

فيجازي كلاً بما يستحق^(١) .

واعلم رحمنا الله جميعاً أن ما ذكرته هاهنا إنما هو إشارة لما قصدت الاستدلال عليه من كون تحقير الناس علامة من علامات الكبر ، وإلا فهذه الآيات البينات فيها من الحكم والأحكام واللطائف والأسرار ما لا يتسع المقام لذكره ، وهو جدير بأن لا يجهله كل ذي لب وبصيره ، فتتبعه من مظانة من كتب التفسير وغيرها ، ولا تحرم نفسك من دقائق أسرارها ، وجليل حكمه وفوائده .

وخلاصة القول في هذا الفصل ، أن هذه العلامات التي ذكرت للكبر تعد هي الأبرز والأظهر في سلوكيات المتكبرين كما بدا لي والله أعلم .
وإن كان للكبر علامات أخرى غيرها إلا أنها داخلية تحتها ، ويجمع هذه وتلك القول الموجز الجامع لمن أوتي جوامع الكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الكبر بطر الحق وغمط الناس** » فكل خلق ووصف وأثر سيء هو من آثار هاتين الصفتين ، بطر الحق وغمط الناس ، لكن ينبغي أن لا يوصم إنسان بالكبر لمجرد ظهور بعض علاماته عليه ، فهناك بعض العلامات وإن كانت دالة على الكبر إلا أنها قد لا تكون كذلك في شخص ما مثل الإسبال مثلاً ، فليس لمجرد أن شاهدت إنساناً مسبلة ثيابه أتهمه بالكبر ، إذ قد يكون له عذره كما كان لأبي بكر الصديق عذره فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنك لست ممن يصنعه خيلاء** » عندما قال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله : إن أحد شقيّ إزارى يسترخي إلا أن أتعهد ذلك منه بعد سماعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء** » ، إنما هناك علامات لا تظهر إلا على المتكبر مثل بطر الحق واستحقار الخلق ، فلا يفعل هذا إلا متكبر يمنعه كبره من أن يذعن للحق أو يلين لأهله لأنه يرى نفسه أعظم من ذلك .



(١) انظر : تفسير السعدي ، ص ٧٤٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

غودج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عبد الله قاسم عبد الله سيفين كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : الكتاب والسنة
الأطروحة مقدمة ليل درجة : الماجستير في تخصص : الكتاب والسنة
عنوان الأطروحة : الكبر والتمكبرون في ضوء الكتاب والسنة

وبعد :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٦ / ٨ / ١٤٤٠ هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

الناقش الخارجي

الناقش الداخلي

المشرف

الاسم : د/ د. محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن

الاسم : د/ أحمد عطاء بن عبد الجواد

الاسم : د/ سليمان الصادق البيرة

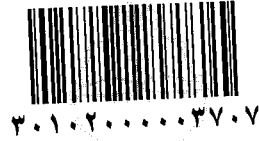
يعتمد

رئيس قسم الكتاب والسنة

الاسم : حسين محمد فلبان

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



جامعة أم القرى
الدراسات العليا
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

الكِبَرُ والمُتَكَبِّرُونَ في ضوء الكتاب والسُّنة

١٥٩٧

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير



إعداد الطالب

عبد الله قاسم عبد الله سفيان

٢٧٧

إشراف فضيلة الدكتور

سليمان الصادق البيرة

الفصل الخامس :
قصص المتكبرين في ضوء القرآن والسنة

جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية قصص كثير من المتكبرين ،
بدءاً بأولهم وقائدهم إبليس اللعين ، وانتهاءً بالمتكبرين على عهد النبوة
المحمدية الخاتمة .

وقد بينت هذه القصص صور استكبار أولئك الجاهلين على ربهم تبارك
وتعالى أن يعبدوه ويوحدوه ، وأن يطيعوا أمره ونهيه ، وأن يرضوا بحكمه ،
ويقبلوا شرعه سبحانه وتعالى .

كما بينت صور استكبارهم على رسل الله عز وجل الذين جاءوهم
بالبينات والهدى من ربهم ، فلم ينقادوا لهم ، ولم يصدقوهم ، أو يصدقوا بما
جاءوا به من البينات ، بل قابلوهم بكل تعنت وصد ، ولاقوهم بسائر صنوف
الأذى حسية ومعنوية .

كما بينت تلك القصص صور تكبر المتكبرين على عباد الله أمثالهم
وتعظمهم واستعلائهم عليهم واستضعافهم واسترذالهم .

بينت قصص القرآن والسنة حال المتكبرين هذا بياناً شافياً وافياً ، ثم
بينت ماحل بهم نتيجة كبرهم وغرورهم ، من مقت الله وإذلاله وأخذهم لهم
أخذ عزيز متكبر مقتدر .

ثم يكون العذاب والخزي الأكبر عند رجوعهم إليه في دار الخلود
والبقاء .

وفي هذا البيان عبرة وذكرى لمن يأتي من بعد أولئك المتكبرين إلى يوم
الدين لعلهم يحذرون من الوقوع في مثل ماوقعوا فيه من الكبر ، حتى لا يحيق
بهم ماحق بأولئك من العذاب .

وإنني بإذن الله تعالى سأحاول في هذا الفصل من الرسالة أن أذكر تلك
القصص لا بالتفصيل الدقيق ، ولكن بما يفي بالغرض من ذكرها ، وهو إبراز
صور تكبر أولئك المتكبرين ، وذلك من خلال الآيات القرآنية والأحاديث
النبوية التي قصت علينا خبرهم ، حسب الترتيب الزمني لهم ، سائلاً الله تعالى
عونه وتوفيقه وسداده .

ولنبداً بقصة أول المتكبرين وإمامهم : إبليس لعنه الله .

أولاً : المتكبر الأول : إبليس عليه لعنة الله تعالى .

من هو إبليس؟

بعيداً عن اختلاف أهل العلم في تحديد أصل إبليس ، وهل كان من الملائكة أم لم يكن منهم؟ يكفينا في ذلك ظاهر ماجاء في كتاب الله تعالى ، ومناصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] ، فظاهر هذه الآية الكريمة أن إبليس ما كان من الملائكة ، بل هو من الجن ، وكيف يكون من الملائكة وقد جاء في كتاب الله تعالى بيان مامنه خلق الجن؟ وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنه خلقت الملائكة ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥] ، وثبت عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قوله : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »^(١) ، فهنا بيان لأصل خلق الملائكة وأصل خلق الجن ، وأن الملائكة خلقوا من نور ، والجن خلقوا من نار ، وفرق بين النور والنار عظيم ، فإبليس إذاً من الجن ، بل هو أبوهم كما جاء في تفسير الطبري عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] ، «وعني بالجان ههنا إبليس أبا الجن ، يقول تعالى ذكره : وإبليس خلقناه من قبل الإنسان من نار السموم»^(٢) .

مامعنى إبليس؟

إبليس على وزن إفعِل ، من الإبلّاس ، وهو الإيأس من الخير ، والندم والحزن ، قيل : وكان اسم إبليس : الحارث ، وإنما سمي إبليس حين أبلّس

(١) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها في كتاب الزهد والرقائق ، باب في

أحاديث متفرقة ٢٢٩٤/٤ ، حديث رقم ٢٩٩٦ .

(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٤ .

فغير ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٧] ، أي : آيسون من الخير ، نادمون حزناً^(١) .

على من تكبر إبليس؟ ولماذا؟

كان تكبره وتعظمه على آدم عليه السلام ، وذلك حين خلق الله عز وجل آدم عليه السلام وأراد تكريمه وتشريفه ، فأمر ملائكته الكرام ومعهم إبليس أن يسجدوا له ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون طائعين أمر ربهم عز وجل ، وهذا شأن الملائكة الكرام البررة ، فقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦] ، وأبى إبليس أن يسجد ، فعصى أمر ربه ، وكان من الكافرين .

وأما لماذا تكبر إبليس على آدم عليه السلام ، فذلك أمر قد بينه الله عز وجل بقوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: ٧٣، ٧٤] ، وقوله في آية أخرى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤] ، فبين الحق سبحانه وتعالى أن الذي منع إبليس من السجود لآدم عليه السلام هو استكباره وتعظمه عليه ، وهذا ما أقر واعترف به إبليس اللعين وأبداه ولم يخفه ، وذلك حين قال له الحق سبحانه وتعالى بعد أن لم يسجد : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥] ، وفي آية أخرى : ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٢] ، وفي آية ثالثة : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] .

فاجاب عليه اللعنة إلى يوم الدين : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] ، وفي موضع آخر : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣] ، وفي موضع آخر : ﴿ قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا . قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الإسراء: ٦١] ، نظر إبليس عليه لعنة الله إلى أصل خلقته وخلق آدم عليه السلام ، وأنه خلق من نار ، بينما آدم خلق من تراب ، فزعم أن النار

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٢٧/١ وقد ذكر هذا القول عن السدي.

أشرف من التراب ، فهو إذاً أشرف وأعلى من آدم ؛ لأن شرف الأصول يوجب شرف الفصول ، ولذا قال : أنا خير منه ، أي : لا أسجد لمن أنا خير منه وأشرف ، وهو دوني ، فلا يليق بالأعلى أن يسجد للأدنى ، فالذي منع إبليس من السجود لآدم هو تعظمه ورؤية نفسه خيراً منه ، وكذلك حسده له لتكريم وتشريف الله له ، إذ خلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته^(١) .
لقد زعم إبليس أن النار أفضل من الطين ، فهل كان زعمه هذا حقاً وصواباً؟

كلا! فلقد كان زعماً كاذباً وقياساً فاسداً ، فليس كل مخلوق من الفضائل يمكن أن يكون فاضلاً ، هذا إذا سلّم لإبليس عليه لعنة الله تعالى أن النار أفضل من التراب^(٢) .

هل أبى إبليس أولاً أم استكبر؟

في سورة ص ذكر الحق سبحانه وتعالى استكبار إبليس ، ولم يذكر إباءه ، فقال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] ، وفي سور طه ذكر الحق سبحانه وتعالى الإباء ولم يذكر الاستكبار ، فقال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦] ، وفي سورة البقرة ذكر الحق سبحانه وتعالى الأمرين معاً ، وقدم الإباء على الاستكبار ، فقال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤٠] ، فأيهما كان أولاً؟

يذكر أهل التفسير أن الإباء مقدم على الاستكبار في ظهورهما عليه ، وأن الاستكبار والأنفة مقدمة في معتقده^(٣) ، يعني : أن الذي ظهر على إبليس أولاً هو : الإباء والامتناع من السجود ، لكن الاستكبار هو الأصل وهو مقدم على الإباية في باطن إبليس اللعين ، فلولم يبطن الاستكبار والتعظم لما أبى أن يسجد ، ولذا حين سأله الله تبارك وتعالى عن سبب امتناعه من السجود لآدم

(١) انظر في هذا المعنى : تفسير الطبري ٨/ ١٣٠، ١٣١ ، تفسير ابن عطية ٥/ ٤٤٢ ، تفسير الفخر الرازي ٧/ ١٤/ ٣٥ .

(٢) فنّد العلماء زعمه الباطل وذكروا أن التراب أفضل من النار من عدة وجوه ، فانظرها في : تفسير الطبري ٨/ ١٣٠، ١٣١ ، وتفسير السعدي ص ٢٤٧ .

(٣) انظر : تفسير ابن عطية ١/ ٢٤٧ .

قال مُخْرِجاً ما في نفسه من الكبر والعظمة : أنا خير منه .

وهكذا عصى إبليس عليه لعنة الله تعالى أمر ربه تبارك وتعالى وامتنع عن السجود لآدم عليه السلام ، فما الذي قاده إلى ذلك؟ يقول الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر امتناع إبليس عن السجود : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥] ، أي : قال الله عز وجل لإبليس عليه اللعنة حين لم يسجد لآدم : أي شيء منعك من السجود للمخلوق الذي كرمته فخلقته بيدي؟ استكبرت؟ يقول : أتعظمت عن السجود لآدم ، فتركت السجود له استكباراً عليه ، ولم تكن قبل من المتكبرين العالين؟ (أم كنت من العالين) يقول : أم كنت كذلك من قبل ذاعلو وتكبر على ربك^(١)؟

والاستفهام في الآية للتوبيخ والتفريع ، أي : استكبرت بنفسك حين أبيت السجود لآدم؟ أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا^(٢)؟

قال الله عز وجل مبيناً جواب إبليس عن سؤاله أي شيء منعه من السجود : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦] ، أي : لم أسجد للذي أمرتني بالسجود له لأنني خير منه ، وكنت خيراً لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين^(٣) ، يقول هذا لأن في زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين ، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استُدْعِيَتْ كما يستدعي الخادم ، وإن استُغْنِيَ عنها طردت ، وأيضاً فالطين يستولي على النار فيطفئها ، وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض^(٤) .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس الرجيم : ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٢] ، فيكون نفس الجواب ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١١] ، وفي آية أخرى يقول : ﴿ لَمْ

(١) انظر : تفسير الطبري ١٨٦/٢٣ ، ١٨٥/٢٣ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١٤٩/١٥/٨ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٨٦/٢٣ .

(٤) انظر : فتح القدير ٤٤٥/٤ .

أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿[الحجر: ٣٣]﴾ ، وفي آية أخرى يقول مظهر اهزئه وحقريته لآدم عليه السلام : ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: ٦١] .

إذاً هو الكبر والتعظم داء إبليس الذي منعه السجود لآدم كما أمره الله تعالى .

مظاهر تكبر إبليس على سلوكه :

أخيراً ومن خلال ماسبق من ذكر قصة استكبار إبليس نخلص إلى ذكر أبرز مظاهر ذلك الاستكبار على سلوكه ، ونسردها سرداً موجزاً ، وهي كما يلي :

- ١ - امتناعه من السجود لآدم طاعة لله عز وجل .
- ٢ - افتخاره على آدم عليه السلام بأصل خلقته وقوله (أنا خير منه) .
- ٣ - إصراره على المعصية وعدم التوبة إلى الله تعالى منها .
- ٤ - علمه بعزة الله تعالى وإقسامه بها ، ومع ذلك لم يورثه علمه ذاك ما يليق بعزة الله تعالى من الإجلال والسكينة والخشوع .
- ٥ - إرادته إغواء بني آدم أجمعين وإقسامه أن يفعل ذلك .

ثانياً : استكبار قوم نوح عليه السلام :

نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله :

عشرة من القرون بعد آدم عليه السلام كان العباد فيها متمسكين بعقيدة التوحيد ، لم يعرفوا لهم إلهاً غير الله تعالى^(١) ، ثم زين لهم الشيطان عبادة الأصنام ، فأطاعوه وعبدوا مازين لهم عبادته ، وأشركوا بالله ربهم .

ومن ثم انتشر الفساد في الأرض ، وعم البلاء فيها بعبادة الأصنام ، فأراد الله عزوجل الخير بعباده ، بأن يعيدهم إليه موحدين مخلصين ، ويطهرهم من رجس عبادة الأصنام التي زين لهم الشيطان ، فأغواهم بعبادتها ، فكان أن اصطفى منهم عبده نوحاً عليه السلام وبعثه فيهم رسولاً إليهم ليخرجهم - بإذن الله تعالى - من ظلمات ماوقعوا فيه من الشرك إلى نور التوحيد .

حمل نوح عليه السلام رسالة ربه فبلغها قومه ، وقام بها أبلغ قيام ، وانطلق يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، ونبذ عبادة ما اتخذوه من أصنام جعلوها آلهة لهم يعبدونها من دونه بكل طاقته وجهده ، وماترك عليه السلام سبيلاً لتبليغهم رسالة ربه وإرجاعهم إلى التوحيد إلا سلكه ، ولا أسلوباً إلا استعمله ، فدعاهم بالليل والنهار ، ودعاهم بالجهر والإسرار ، ودعاهم فرادى وجماعات ، يرغبهم تارة ، ويرهبهم أخرى ، ويذكرهم بنعم ربهم ثالثة ، ويبين لهم بطلان تلك الآلهة تارة رابعة... ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ اعْبُدُوا

(١) أخرج ابن سعد في الطبقات ، قال : أخبرنا قبيصة بن عطيّة السواني ، أخبرنا سفيان بن سعيد الثوري ، عن أبيه ، عن عكرمة ، قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . انظر : الطبقات الكبرى ٤٢/١ ، وأخرجه ابن حبان عن أبي أمامة بدون قوله : (كلهم على الإسلام) . انظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ٦٩/١٤ .

اللَّهُ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [نوح: ٤١-٤٠] .

يخبر الحق جل جلاله في هذه الآيات البينات أنه بعث نوحاً عليه السلام رسولاً إلى قومه داعياً لهم إلى توحيد سبجانه ، فليس لهم إله غيره يستحق منهم أن يعبدوه ، منذراً لهم أن يأخذهم عذاب أليم عظيم من الله تعالى إن هم بقوا على شركهم وأصروا على عبادة غيره جل جلاله ، مبيناً لهم سعة رحمة الله وعظيم حلمه وعفوه : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ، أي : إن أتعلموني فيما أمركم به من عبادة الله وحده وأنهاكم عنه من عبادة الأصنام ، وصدقتم بما أرسلت به إليكم ، واتقيتم الله ربكم بترك محارمه واجتناب مآثمه غفر لكم ذنوبكم ، ومدّ في أعماركم ودرأ عنكم العذاب^(١) ، وهذا ترغيب وماقبله تهيب .

وقال الله تعالى عن رسوله نوح عليه السلام وهو يبين مقدار ما بذل من جهد وطاقة وكثرة ماسلك من أسلوب في دعوة قومه إلى توحيد ربهم : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا . مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا . لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٥٠-٢٠] .

لقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى توحيد ربهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة متنوعة ، فكان دعاؤه لهم دائماً في الليل والنهار من غير تقصير ولا كلل^(٢) ، : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥٠] ، مظهراً

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٥٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥/٢٩٧ .

لهم الدعوة مجاهراً لهم تارة^(١)، ومسرراً تارة أخرى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ [نوح: ٩٠، ٨٠] .

تارة يرغبهم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح: ١٠-١٢] ، أي: سلوا ربكم عز وجل المغفرة من ذنوبكم السابقة وتوبوا إليه عن الكفر، فإنه كثير المغفرة للمذنبين التائبين^(٢)، فإنكم إذا تبتم إلى الله تعالى واستغفرتموه وأطعتموه وآمنت به كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع وأدر لكم الضرع، وأعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها^(٣) .

وتارة يخوفهم مذكراً لهم بعظمة ربهم لافتاً لهم لتتبع آيات عظمتهم جل جلاله ووحدانيته في أنفسهم وفي الكون الفسيح من حولهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣] ، أي: مالكم لا تعظمون الله تعالى حق عظمتهم، فلاتخافون من بأسه ونقمتهم^(٤)، ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَاراً﴾ ، أي: خلقكم على أطوار مختلفة ، وهي التي ذكرها الله عز وجل بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] ، فكيف يحصل

التقصير في توقير من خلق الإنسان على هذه الأطوار البديعة؟

وبعد هذه اللفتة إلى الأنفس تاتي لفتة أخرى إلى آيات الله العظيمة في

(١) انظر: فتح القدير ٢٩٧/٥ .

(٢) انظر: فتح القدير ٢٩٧/٥ ، ٢٩٨ .

(٣) انظر: تفسر ابن كثير ٤/٤٥٣ .

(٤) انظر: تفسر ابن كثير ٤/٤٥٣ .

(٥) انظر: فتح القدير ٢٩٨/٥ .

الكون الدالة على كمال قدرته وبديع خلقه وأنه تعالى الحقيق بالعبادة
 لاسواه ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ
 نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ، أي : انظروا إلى عظيم قدرة الله تعالى في
 خلقه سبع سموات متطابقة بعضها فوق بعض^(١) ، وفي مفاوته بين القمر
 والشمس في الاستنارة ؛ ليتوصل العباد بذلك إلى التصرف فيما يحتاجون إليه
 من المعاش^(٢) ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
 وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
 يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] ، وكما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ
 وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن
 رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ
 تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢] .

ويزيد نوح عليه السلام قومه تذكيراً وتنبهاً وتخويفاً ، تذكيراً بنعم الله ،
 وتنبهاً إلى عظيم قدرته ، وتخويفاً من يوم لقائه ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ
 نَبَاتًا﴾ ، أي : أنشأكم منها إنشاءً ، فاستعير الإنبات للإنشاء لدلالته على
 الحدوث والتكوين^(٣) ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ، يعيدكم فيها
 بالموت ويخرجكم منها يوم القيامة ، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ ،
 أي : خلقها لكم بسطها ومهداها^(٤) ، وفرشها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على
 بَسْطِكُمْ في بيوتكم^(٥) . «وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة
 الله وعظمته في خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من
 المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرزاق ، جعل السماء بناءً والأرض

(١) انظر : فتح القدير ٢٩٨/٥ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٥٤ ، وفتح القدير ٢٩٩/٥ .

(٣) انظر : فتح القدير ٢٩٩/٥ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٥٤ .

(٥) انظر : فتح القدير ٢٩٩/٥ .

مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عدل له ولاند ولا كفاء ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير^(١).

ولأن الناس غالباً -وأصحاب الجاه منهم خاصة يخافون على مافي أيديهم، ويخشون على دنياهم، فإن نوحاً عليه السلام قال لقومه وهو ينصحهم ويدعوهم إلى توحيد ربهم؛ ليعلموا صدقه وإخلاصه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢]، قال لهم: إني لأسألكم على نصحي لكم ودعائي إياكم إلى توحيد الله عز وجل مالاً، أجراً على ذلك، فتتعمدون في نصيحتي وتظنون أنني بفعلتي هذا أطلب عرضاً من أعراض الحياة الدنيا، وإنما أطلب جزاء الله وثوابه^(٢)، أي: فأمنوا خيراً لكم، فإني لأرجو منكم شيئاً، ولكنني أرجو لي ولكم حسن الجزاء والثواب من الله ربي وربكم.

وهذا أسلوب من الأساليب التي سلكها نوح عليه السلام مع قومه، إرادة هدايتهم الصراط المستقيم، لعلهم حين يطمئنون على دنياهم، ويروه عليه السلام لا يألوا جهداً في دعوتهم ونصحهم دون أن يطلب أو ينتظر أجراً وجزاء، لعلهم يتفكرون فيعقلون فيسلكون سبيل الحق والهداية ويرعّون عن سبل الباطل والضلال والغواية.

موقف قوم نوح من الدعوة :

لم يخل نوح عليه السلام في سبيل دعوة قومه إلى توحيد الله تعالى، وترك عبادة ماسواه بوقت ولا جهد ولا طريقة، ولكنه عليه السلام وجد قوماً قد أشربوا في قلوبهم عبادة الأصنام، فما وجد منهم إلا آذاناً صماً وأعيناً عمياً وقلوباً غلفاً لا تجدي معها موعظة ولا ينفع ترغيب ولا ترهيب، ولا تؤثر فيها بشارة ولا نذارة، فلم يستجيبوا له، بل قاموا في وجهه مكذبين، وفروا من وجه دعوته معرضين مستكبرين، «واستمروا على الضلالة والطغيان وعبادة

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٢/٢٩.

الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به ، وتوعدهم بالرحم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم»^(١) كما سيأتي .

قال الله تعالى في بيان موقف قوم نوح من دعوته إياهم إلى توحيد ربهم : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبُّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩] ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥-٧] ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: ٢١-٢٤] .

فهذه الآيات المحكمات تبين في جلاء موقف قوم نوح عليه السلام من دعوته لهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، وكيف أنهم قابلوه بالتكذيب والاستكبار ، والتهكم والاستصغار ، وكيف أنهم أصروا على كفرهم وشركهم غاية الإصرار ، فإنهم :

١ - وصفوه بالجنون والضلال ، وانتهروه وزجروه بالسب وأنواع الأذى ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ .

(١) البداية والنهاية ١/ ١٠٠ .

٢ - واستنقصوه ومن آمن به واستجهلوه وقالوا عنهم كاذبين ، ووصفوههم بالسفلة الذين لا عقول لهم ولا فكر ولا نظر ، ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ، يعللون كفرهم وطغيانهم واستكبارهم وتكذيبهم بعلل ثلاث :

الأولى : قولهم : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ ، ينكرون أن يكون الله تعالى يرسل من البشر رسولا إلى خلقه^(١) ، يقولون : نحن وأنت مشتركون في البشرية ، فلست بِمَلَكٍ^(٢) ، فلم يكن لك إِذَا مَزِيَّةٌ عَلَيْنَا تستحق بها النبوة دوننا^(٣) .

الثانية : قولهم ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ ﴾ ، أي : ما نراك آمن بك إلا الذين هم سفلتنا من الناس كالباعة والحاكة وأشباههم ، ولم يتبعك الرؤساء ولا الأشراف منا^(٤) ، وما كان أتباع أولئك لك عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر ، بل بمجرد مادعوتهم أجابوك فاتَّبِعوك^(٥) ، وذلك لأنه ليس لهم عقول يفكرون بها كما ينبغي هذا بزعمهم - وكذبوا والله - فهم الكاذبون .

الثالثة : قولهم : ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ، أي : وما ننتبين لكم علينا من فضل نَلْتَمُوهُ لما خالفتُمونا في ديننا ، فنتبعكم طلب ذلك الفضل وابتغاء ما أصبتموه بخلافكم إيانا وعبادتكم إلها واحدا^(٦) ، بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها^(٧) .

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٦/١٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤٥٨/٢ .

(٣) انظر : فتح القدير ٤٩٣/٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٢٧/١٢ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٤٥٨/٢ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ٢٧/١٢ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ٤٥٩/٢ .

التفاته :

إنه لمنطق سقيم هذا الذي سلكه قوم نوح عليه السلام في اتهامهم له بالضلالة ووصفهم لاتباعه بالخفة والسفاهة ، وهو منطق المستكبرين الضالين أهل القيم الرخيصة في كل زمان ومكان ، فإنهم لا يتورعون أبداً عن وصف أهل الصدق والخير والصلاح بضد ذلك من الكذب والسوء والضلالة والسفه والإفساد ، ثم هم يزعمون لأنفسهم خصال الخير والصلاح والإصلاح ، وماهم بأولياء ذلك ولكنه الطغيان والاستكبار .

أ - قال قوم نوح عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، وقالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] .

ب - وقال قوم عاد لنبي الله هود عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكََاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦] .

ج - وقال فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] .

د - ويصف الله تعالى المنافقين بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١-١٣] .

هـ - وإلى الآن وحتى يرث الله الأرض ومن عليها سيظل هذا منهج المستكبرين الجاهلين ، يدعون الإصلاح ويزعمون الإصلاح ، ويقفون في وجه المصلحين الصالحين حقاً ، متهمين لهم بالإفساد ناسبين لهم الفساد... وكما ظل المستكبرون الأولون في طغيانهم وعمائيتهم حتى أحاط بهم عذاب الله سيظل المستكبرون الآخرون في ذلك حتى يلحقوا بهم ويصيبهم ما أصابهم ، فإن الله تعالى لبالمرصاد لكل طاغية مستكبر جبار .

عودة إلى الآيات :

٣ - وقال قوم نوح في معرض تكذيبهم له : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .

وهذه علة رابعة وخامسة يعللون بها تكذيبهم وجحودهم ، يقولون : إن نوحاً بزعمه أنه رسول رب العالمين إنما يطلب أن يصير له الفضل عليهم بأن يسودهم حتى يكونوا تابعين له منقادين لأمره^(١) ، فهو يريد الترفع والتعظيم عليهم بدعوى النبوة^(٢) ، ثم عادوا يجحدون أن يكون ثمة بشراً رسولاً ، فلو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة^(٣) ، هذه علة ، والعلة الأخرى في قولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ ، يعللون كفرهم وتكذيبهم بأنهم ماسمعوا بمثل هذا المدعي للنبوة من البشر ، أو بمثل مايدعوههم إليه من عبادة إله واحد لاإله غيره هو الله رب العالمين^(٤) ، ماسمعوا بمثل هذا في أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية^(٥) ، وهذا باعتقادهم سبب كبير لأن ينفروا ويكذبوا ويستكبروا .

٤ - وتصور الآيات حالة قوم نوح وهم يستقبلون دعوة التوحيد بالفرار وغاية الإعراض والاستكبار : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥-٧] .

يدعوههم رسول الله نوح عليه السلام أن يرجعوا إلى ربهم ليغفر لهم ماسلف منهم من الإشراك به ، فيأبون ولايزدادون إلا تمادياً على الباطل ونفوراً عن الحق^(٦) ، وإمعاناً في النفور والإعراض يجعلون أصابعهم في آذانهم ويغطون وجوههم بثيابهم لئلا يروا نوحاً ويسمعوا مايقول لهم مصرين على الكفر مستكبرين عن قبول الحق^(٧) .

وبلغ من إصرارهم على الكفر والاستكبار أن كانوا يتواصون فيما بينهم

(١) انظر : تفسير الطبري ١٨/١٦ ، فتح القدير ٣/٤٨ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٢٥٤ .

(٣) انظر : فتح القدير ٣/٤٨ .

(٤) انظر : فتح القدير ٣/٤٨ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٢٥٤ .

(٦) انظر : تفسير السعدي ص ٨٢٣ .

(٧) انظر : فتح القدير ٤/٢٩٧ ، تفسير السعدي ص ٨٢٣ .

أو يوصي كبارؤهم أتباعهم أن لا يتركوا عبادة الآلهة التي يعبدونها وهي : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . قيل : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتهم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة ، ففعلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس : إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فزين لهم ذلك ، فأطاعوه ، وكانت تلك هي ابتداء عبادة الأوثان^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا . وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢١-٢٤] .

نهاية رحلة الاستكبار :

استمر نوح عليه السلام في دعوته قومه إلى توحيد ربهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، غير مكترث ولا مبال بما يلاقيه منهم من الإعراض والصد والتكذيب والتسفيه .

ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أمد بعيد وزمن متطاوّل بلا شك ، فما هي النتيجة؟ وما هو المحصول؟ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] .

على مدى هذه السنين لم يؤمن بالله تعالى مع نوح عليه السلام إلا القليل من قومه ، قيل : كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم ، وقيل : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا أبناء الثلاثة وزوجات آبائهم الأربع^(٢) .

ألف سنة إلا خمسين عاماً وقوم نوح عليه السلام مصرون على عتوهم واستكبارهم ، كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به واتباعه وبمحاربتة ومخالفته ، حتى كان الوالد إذا بلغ ولده وفهم عنه كلامه وصّاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح عليه السلام ماعاش أبداً ، وكأن سجايهم

(١) انظر : تفسير الطبري ٩٩/٢٩ ، وفتح القدير ٣٠٠/٤ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ١٠٤/١ ، ١٠٥ .

كانت تأبى الإيمان واتباع الحق^(١) ، ولهذا قال نوح وهو يدعو ربه : ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] .

وهنا لما أيس نوح عليه السلام من إجابتهم وأحس أن لاخير يرجى فيهم ولاإيمان يرجى منهم ، وكانوا قد طلبوا العذاب الذي توعدهم به وأنذرهم إياه واستعجلوه ، وقالوا : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] .

هنا لجأ نوح عليه السلام إلى ربه مستغيثاً مستنصراً ، قال : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨] ، وقال : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ، ودعا ربه فقال : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] .

واستجاب الله عزوجل دعوة رسوله نوح عليه السلام وأعلمه بنزول العذاب بقومه وأمره أن يصنع سفينة ينجيه الله فيها ومن معه من المؤمنين ، ومن أراد من سائر المخلوقات .

وأنذر نوح قومه عذاب الله وجعل يصنع السفينة التي أمره الله بصنعها ، وكلما مر عليه جماعة من قومه وهو كذلك سخرها منه ، فيذكرهم نوح عليه السلام المصير الذي ينتظرهم ، ولكن القوم في غفلة معرضون ، قال الله تعالى : ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ . وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٦-٣٩] .

وحان الموعد الذي قضاه الله تعالى لإهلاك القوم المستكبرين ، وركب نوح عليه السلام السفينة ومعه القلة المؤمنة ، وأمر بأن يحمل معه من كل زوجين اثنين مما خلق الله عزوجل ، قال الله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

(١) انظر : البداية والنهاية ١٠٢/١ .

وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ . وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا
وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿هود: ٤٠، ٤١﴾ .

وأمر الله عز وجل سماءه وأرضه بأمره الذي لا يرد ، فإذا ماء السماء
ينهمر ، وإذا الأرض تتفجر عيوناً ، قال الله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ
بِمَاءٍ مِنْهُمْ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ ﴾ [القمر: ١١، ١٢] .

ماء السماء ينصب انصباباً شديداً والأرض كلها عيونٌ متفجرة ، أمر
مهول لاطاقة لمخلوق به ، ولذا هرع المستكبرون هاربين لا يلوون على شيء ،
يطلبون النجاة وقد نبذوا أطواقها ، ويغنون السلامة وقد ضلوا طريقها ، فهيهات
هيهات ، لقد نزل بهم أمر الله الذي لا مرد له ، فكان الغضب الإلهي الذي
لا يبقى ولا يذر .

أمواج من الماء كالجبال عمت الأرض طولها وعرضها ، سهلها وجبالها
وقفارها ورمالها ، فأين النجاة؟ لقد أهلك من على وجه الأرض من الأحياء ،
فلم يبق منهم عين تطرف ، ولم ينج إلا نوح عليه السلام ومن معه على ظهر
السفينة ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا
بَعْدَ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢] .

وكان ممن غرق ابن لنوح عليه السلام كان من القوم الكافرين فأغرق
معه ، قال الله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ
وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَاوِي إِلَى
جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ
بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣] .

وقد أدركت نوح عليه السلام عاطفة الأبوة ، فدعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي
مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] .

يريد نوح عليه السلام أن ابنه من أهله وقد وعده الله أن ينجيّه وأهله ،
فكان الجواب من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ
غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] ، يبين تعالى لعبده ورسوله نوح عليه السلام أن القرابة
قرابة الدين لا قرابة النسب ، فهو وإن كان من أهله نسباً إلا أنه لم يؤمن به ولم

يتبعه ، فلا تنفعه قرابة النسب .

وكان سؤال نوح عليه السلام ذلك عن ظن منه بعموم وعد الله له بنجاة أهله من آمن ومن لم يؤمن^(١) ، ولهذا قال له ربه : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] ، يرفع الله نبيه نوحا عليه السلام بهذه الموعظة عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين^(٢) .

ولما أدرك نوح عليه السلام أن سؤاله لم يطابق الواقع وأن دعاءه كان عن وهم توهم بادر إلى الندم والاعتراف بالخطأ طالباً مغفرة ربه ورحمته^(٣) سبحانه وتعالى ، : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧] .

وهكذا أغرق الله عز وجل أولئك المستكبرين عن توحيده واتباع رسوله ، وكما علوا بكفرهم ، علاهم الطوفان ، وكما أغرقوا في طغيانهم أغرقوا بالماء .

وحقت كلمة الله عز وجل على القوم المستكبرين ، وفاز بالنجاة عباده المؤمنون ، وكانت عبرة إلى يوم الدين ، ولاتنفع العبر إلا المؤمنين ، جعلنا الله تعالى برحمته ومنه منهم إنه هو البر الرحيم .

ملخص مظاهر الاستكبار عند قوم نوح .

- ١ - تكذيب نوح عليه السلام واتهامه بالضلال .
- ٢ - الهزء بنوح عليه السلام وبالمؤمنين به .
- ٣ - جعل الأصابع في الأذان وتغطية الوجوه بالثياب نفوراً من الحق وإعراضاً عنه .
- ٥ - استعجالهم العذاب .
- ٦ - إصرارهم على الكفر حتى الهلاك .

(١) انظر : تفسير السعدي ص ٣٣٨ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥٠٣/٢ ، ونسب هذا القول إلى ابن العربي .

(٣) انظر : فتح القدير ٥٠٣/٢ .

ثالثاً : استكبار قوم عاد :

من هم قوم عاد؟

هم قوم من العرب ، من قبيلة يقال لهم : عاد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح ، فعاد اسم رجل ، ثم سميت به القبيلة ، وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل ، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها : الشَّحْر ، واسم واديهـم : مغيث ، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، قد أسكنهم الله عز وجل الأرض وبوأهم فيها وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وأنعم عليهم عز وجل بنعم كثيرة كما سيأتي ذكر ذلك قريباً ، فما كان منهم إلا أن بغوا في الأرض ، وأشركوا بالله تعالى فعبدوا الأصنام من دونه ، وكانت لهم أصنام ثلاثة ، صنم يقال له : صُداء أو صدأ ، وثانيهم يقال له : صمود ، وثالثهم يقال له : الهباء أو هراً ، فأرسل الله تعالى إليهم نبيهم هود بن عبدالله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوض بن رام بن سام بن نوح عليه السلام^(١) ، فكان حالهم وشأنهم مع رسول ورسالة ربهم ما قصه علينا القرآن الكريم .

القرآن يقص علينا خبر عاد

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ [الشعراء: ١٢٣—١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ كَرَّ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النَّذَرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

(١) انظر: تفسير الطبري ٢١٧/٨، والبداية والنهاية ١١٣/١.

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿[الأحقاف: ٢١]﴾ .

هذا بيان من الحق سبحانه وتعالى أنه لما أشركت عاد بربها وعبدت أصناماً لاتضر ولاتنفع واتخذتها آلهة من دون الله ، أراد الله عزوجل بها خيراً ، فأرسل إليهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فدعاهم إلى الله عزوجل ، وأمرهم أن يوحدوه فهو الإله الحق الذي مالهم من إله غيره^(١) ، وبين لهم أن تلك الأصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله إنما هي محض افتراء فإنه لا إله سواه^(٢) .

وحذرهم عقاب الله وأنذرهم عذابه إن لم يتقوه فيعبدوه وحده لا شريك له .

فلما بلغ هود قومه رسالة ربه ما كان موقفهم؟

لقد نحوا منحى قوم نوح عليه السلام ، فكما خلفوهم في سكنى الأرض ، خلفوهم في تكذيب رسول ربهم وتسفيهه ، ووجد آياته والإصرار على التمسك بآلهتهم الباطلة ، والتكذيب بقاء الله تعالى ، واستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، واستعجلوا عذاب الله فأدركهم وحق عليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة .

قال الحق سبحانه وتعالى في بيان ماأشرت إليه : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] ، أي : قالوا له هذا القول بعد أن قال لهم : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، يتهمونه بالسفاهة وهي الخفة والحمق والضلالة عن الحق والصواب ؛ لأنه دعاهم إلى ترك دينهم ونبد عبادة آلهتهم^(٣) .

يبين هذا قولهم له عليه السلام كما قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] ، هكذا يستنكرون أن يدعوهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده وترك معبوداتهم التي كان عليها آباؤهم ، وهذا سفه وحمق في نظرهم السقيم العليل ، ثم يتهمونه تهمة أدهى من السفه والحمق وهي

(١) انظر : تفسير الطبري ٢١٧/٨ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٥٧/١٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢١٥/٨ .

الكذب ، فيقولون : ﴿وَأَنَا لَنَنْظُنَّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ، ويقولون كما في آية أخرى : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨] ، أي : هو كاذب في قوله : إنه رسول رب العالمين^(١) ، ينكرون رسالته ويصمون به بالسفاهة والكذب ، استبعاداً منهم أن يكون من البشر رسولاً ، فهم الذين يقولون كما أخبر الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤] ، ويقولون : ﴿لَوْ شَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] ، ولهذا قال لهم هود عليه السلام نافياً ما اتهموه به من السفه والكذب ، مثبتاً رسالة ربه إياه ، منكرأ عليهم إنكارهم أن يكون بشراً رسولاً ، يقول لهم كما بين الحق سبحانه وتعالى ذلك بقوله : ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٩] ، يقول عليه السلام : يا قوم ليس الأمر كما قلتم فما أنا بسفيه ولا ضال ولا كاذب ، بل أنا مرسل إليكم من رب العالمين سبحانه وتعالى ، أبلغكم ما أوحى إلي ربي أن أبلغكم إياه ، وأنا في ذلك مخلص النصيح لكم شفقة بكم ، كما إني أمين فيما أبلغكم به من رسالات ربي لا أكذبكم ولا أخون رسالات ربي^(٢) ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تعجبوا أن يكون رسول الله إليكم رجلاً منكم ينذركم بأسه ويخوفكم عذابه^(٣) ، ثم بين لهم عليه السلام أن دعوته إياهم دون أن يسألهم على ذلك أجراً دليلاً على نصحه لهم وصدقته فيما جاءهم به ، فإنه لو كان طامعاً فيما عندهم لانتظر أن يكافئوه على دعوته ، ولكنه غير طامع إلا فيما عند الله سبحانه وتعالى فعليه أجره وثوابه ، ولهذا قال لهم : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١] ، وقال : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧] .

(١) انظر : تفسير الطبري ٢١٥/٨ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢١٢/٨ .

ثم بعد ذلك أخذ هود عليه السلام يذكر قومه بنعم الله تعالى عليهم لعلهم يذكروها فيشكروا المنعم بها جل جلاله ، فقال لهم : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩] ، وقال لهم : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٢، ١٣٤] ، يذكرهم أن الله عز وجل أنعم عليهم فجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح عليه السلام « أي : جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها ، أو جعلهم ملوكاً »^(١) . وتفضل عليهم سبحانه وتعالى بنعمة أخرى وهي : أنه سبحانه زاد في أجسامهم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح ، وفي قوامهم على قوامهم^(٢) ، وفي الآية أيضاً وعيد وتذكير لهم بما حل بقوم نوح الذين عصوا رسول ربهم فأهلكهم الله ، وجعلهم خلفاء من بعدهم : فليتقوا الله أن يحل بهم نظير ما حل بهم من العقوبة فيهلكهم ويُبدّل منهم غيرهم كما بدلهم من قوم نوح^(٣) .

ومن نعم الله تعالى التي أمدهم بها ، ما أمدهم به من المواشي والبنين والبساتين والأنهار^(٤) ، فذكرهم هود عليه السلام بها لعلهم يشكرون الله تعالى عليها فيكون بذلك فلاحهم^(٥) .

ثم دعا هود قومه إلى استغفار الله عز وجل لذنوبهم ، والتوبة إليه عز وجل مما وقعوا فيه من الشرك والتكذيب والاستكبار ، فإنهم إن فعلوا ذلك زادهم الله تعالى من نعمه ، فأنزل عليهم الغيث فأصلح بذلك بساتينهم وزروعهم ، وكذلك زادهم قوة إلى قوتهم ، أي : شدة إلى شدتهم ، أو خصبا إلى خصبهم ، أو عزاً إلى عزهم ، ثم حذرهم من الإعراض عما دعاهم إليه والإقامة على الكفر والإصرار عليه^(٦) ، قال الله تعالى حاكياً ما قاله هود عليه

(١) فتح القدير ٢/٢١٨ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٨/٢١٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٨/٢١٦ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٩/٩٦ .

(٥) انظر : فتح القدير ٢/٢١٨ .

(٦) انظر : فتح القدير ٢/٥٠٥ .

السلام : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢] .

ثم عاد هود عليه السلام يذكر قومه ما هم فيه من اللهو والعبث وظلم الناس وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض ويحذرهم من ذلك ويخوفهم عذاب الله تعالى^(١) ، فقال لهم : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١] ، ثم قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٥] ، ومعنى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ، أي : ينون في المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً باهراً ، يفعلون ذلك لا للاحتياج إليه ، بل لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة^(٢) ، ومعنى ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴾ ، أي : يتخذون البروج المشيدة والبنيان المخلد ، لكي يقيموا فيه أبداً ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو زائل عنهم كما زال عمن كان قبلهم^(٣) .

وبعد كل هذا الوعظ والتذكير والنصح والتوجيه والبشارة والندارة والترهيب والترغيب ينبري القوم المطبوع على قلوبهم يقولون لنبيهم الناصح الأمين هود عليه السلام بكل عتو واستكبار كما حكى القرآن عنهم : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨] ، يقولون : وعظك وعدمه سواء عندنا لانبالي بشيء منه ولا نلتفت إلى ماتقوله ، فلن نؤمن لك ولن نصدقك على ما جئتنا به^(٤) ، ويقولون : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، وفي (خلق) قراءتان : قراءة بضم الخاء واللام (خلق)^(٥) ، وأخرى : بفتح الخاء وإسكان اللام

(١) انظر : تفسير الطبري ٩٦/١٩ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٤/٣ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٤/٣ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٩٧/١٩ ، وفتح القدير ١١١/٤ .

(٥) وهي قراءة : نافع وابن عامر وعاصم وحزمة . انظر : كتاب السبعة ، لابن مجاهد

(خَلَقَ)^(١) ، والمعنى على القراءة الأولى : « ما هذا الذي جئنا به ودعوتنا إليه من الدين إلا خلق الأولين ، أي : عاداتهم التي كانوا عليها ، وقيل المعنى : ما هذا الذي نحن عليه إلا خلق الأولين وعاداتهم »^(٢) ، والمعنى على القراءة الثانية : ما هذا الذي تدعونا إليه إلا كذب الأولين واختلاقهم وأساطيرهم^(٣) ، والظاهر والله أعلم أن المراد بالآية قول من قال : ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأولين وفعلهم ، فإنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه لهواً ولعباً ، وبطشهم بالناس بطش الجبابة ، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم فأجابوا نبيهم بأنهم يفعلون ذلك احتذاءً منهم سنة من قبلهم^(٤) .

ويبقى القوم في ضلالهم وعمائتهم ، فيظنون أن آلهتهم الباطلة قادرة على نفع من عبدها ، وإلحاق الضرر بمن سَفَّها ، ولذا فإنهم يقولون لهود عليه السلام وهم يُكذِّبونه : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا غَيْرُكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود: ٥٤] ، أي : مانقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التي تعيب وتسفه رأينا في عبادتها وتذمها (بسوء) ، أي : بجنون ، فنشأ من جنونك ماتقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها^(٥) ، فيجيبهم هود عليه السلام على فريتهم هذه بما يدل على عدم مبالاته بهم وبآلهتهم ، وعلى وثوقه بربه تبارك وتعالى وتوكله عليه ، وأنهم وآلهتهم لا يقدرُونَ على فعل شيء مما يريدون به ، بل الله سبحانه وتعالى هو الضار النافع^(٦) ، يقول تعالى في بيان مقاله نبيه هود عليه السلام لقومه : ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِّنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] ، فأعلن هود براءته من آلهتهم التي يعبدونها وأشهد الله عز وجل على ذلك كما أشهد قومه ، ثم يبين

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبوعمر والكسائي . انظر : كتاب السبعة ، لابن مجاهد ص ٤٧٢ .

(٢) فتح القدير ١١١/٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٩/٩٧ ، ٠٨ ، وفتح القدير ١١١/٤ .

(٤) انظر : المصدرين السابقين .

(٥) انظر : فتح القدير ٥٠٥/٢ .

(٦) انظر : المصدر السابق .

لهم عجزهم وآلهتهم حين تحداهم أن يجتمعوا جميعاً لكيده وإلحاق الضرر به ولا يتأخرون في ذلك إن استطاعوا -ولن يستطيعوا- لأنه متوكل على ربه وربهم ورب كل شيء الذي مامن شيء يدب على الأرض إلا وهو مالكة ، وهو في قبضته وسلطانه ذليل له خاضع^(١) ، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، أي : هو على الحق والعدل سيعصمني من كيدكم ولن يسلطكم علي^(٢) .

ثم عاد يحذر قومه ويوعدهم عذاب الله إن أصروا على ما هم عليه من الكفر والضلال ، فقال لهم : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧] ، أي : إن أدبرتم معرضين عما أدعوكم إليه من توحيد الله تعالى ، وترك عبادة الأوثان^(٣) ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ ، أي : ليس إلا ذلك ، وقد لزمتمكم الحجة^(٤) ، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ، أي : يهلككم ويستبدل منكم قوماً غيركم في دياركم وأموالكم ، يوحدونه ويخلصون له العبادة^(٥) ، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ ، « يقول : ولا تقدرّون له على ضرر إذا أراد إهلاككم أو أهلككم ، وقد قيل : لا يضره هلاككم إذا أهلككم ، لا تنقصونه شيئاً ، لأنه سواء عنده كنتم أو لم تكونوا »^(٦) ، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ ، أي : إن ربي على جميع خلقه ذو حفظ وعلم ، وهو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء^(٧) .

واستبعد قوم هود عذاب الله ، فقالوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨] ، لأنهم منكرون لقاء الله ، لا يؤمنون ببعث ونشور

(١) انظر : تفسير الطبري ٦٠/١٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥٠٥/٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٦٠/١٢ .

(٤) انظر : فتح القدير ٥٠٥/٢ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ٦٠/١٢ ، وفتح القدير ٥٠٥/٢ .

(٦) تفسير الطبري ٦١/١٢ .

(٧) انظر : المصدرين السابقين .

وحساب وجزاء ، فهم الذين قالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ . أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ . هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٨] .

واستمر القوم مصرين على ضلالهم واستكبارهم فأعلنوا قرارهم الأخير الذي لارجعة فيه ، وهو : أنهم لن يتركوا آلهتهم التي اتخذوها من دون الله ، ولن يؤمنوا لهود عليه السلام أبداً ، فليأتهم بعذاب الله الذي توعدهم به إن كان من الصادقين ، قال الله تعالى مبيناً هذا الإصرار على الكفر : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢] .

فلما استعجلوا عذاب الله وطلبوا من هود أن يأتيهم به قال لهم : ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٣] ، أي : إنما مرد ذلك إلى الله تعالى وحده ، هو العالم بوقت مجيئه ، وما أنا إلا مبلغ لكم ما أرسلت به إليكم من ربي وربكم من الأعذار والإنذار^(١) ؛ لتكون الحجة عليكم ليس إلي سوى ذلك ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ ، « حيث بقيتم مصرين على كفركم ولم تهتدوا بما جئكم به ، بل اقترحتم ما ليس من وظائف الرسل »^(٢) ، ولقد قال لهم من قبل : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

(١) انظر : فتح القدير ٢٣/٥ .

(٢) فتح القدير ٢٣/٥ .

الْمُنْتَظِرِينَ ﴿[الأعراف: ٧١]﴾ ، يقول : « قد حل بكم عذاب وغضب من الله »^(١) ، فجعل ما هو متوقع كالواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه ، وقيل معنى وقع : وجب ، والرجس : العذاب ، وقيل : هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر^(٢) .
﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ، يستنكر عليهم مجادلته ومخاصمتهم له في الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿فِي أَسْمَاءٍ﴾ ، يعني : « أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها ، جعلها أسماء ؛ لأن مسمياتها لاحقيقة لها ، بل تسميتها بالآلهة باطلة ، فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها فقط »^(٣) ، ولهذا قال : ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ، « يقول : ما جعل الله لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجون بها ، ولا معذرة تعتذرون بها ؛ لأن العبادة إنما هي لمن ضر ونفع وأثاب على الطاعة ، وعاقب على المعصية ورزق ومنع ، فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس فإنه لا نفع فيه ولا ضر إلا أن تُتخذ منه آلة ، ولا حجة لعابد عبده من دون الله في عبادته إياه ؛ لأن الله لم يأذن بذلك ، فيعذر من عبده بأنه يعبد اتباعاً منه أمر الله في عبادته إياه ، ولا هو إذا كان الله لم يأذن في عبادته مما يرجي نفعه ، أو يخاف ضره في عاجل أو آجل ، فيعبد رجاء نفعه أو دفع ضره »^(٤) ، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ، أي : « فانتظروا ما طلبتموه من العذاب ، فإنني معكم من المنتظرين له ، وهو واقع بكم لا محالة ونازل عليكم بلا شك »^(٥) .

فلما قوبل هود عليه السلام بكل هذا الصد والإعراض ، ورأى أن قومه لا يزيدون مع مرور الأيام إلا إصراراً على الكفر والعتو والاستكبار ، لاذ بالله العزيز الجبار ، مستنجداً مستنصراً ، فدعاه سبحانه وتعالى قائلاً : ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ ﴿[المؤمنون: ٣٩]﴾ .

(١) تفسير الطبري ٢٢٢/٨ .

(٢) انظر : فتح القدير ٢١٨/٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) تفسير الطبري ٢٢٣/٨ .

(٥) فتح القدير ٢١٨/٢ .

واستجاب الله عز وجل دعاء عبده ونبيه هود عليه السلام فأنجاه ومن معه من المؤمنين ، وأنزل بأسه بالقوم المستكبرين فأذلهم وأخزاهم وقطع دابرهم ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٨-٦٠] .

كيف أهلك الله قوم عاد

يقول الله تعالى منها إلى عظيم ماحل بعاد من العذاب : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ٨٦] .

إذاً فقد نزل بالقوم بلاء عظيم يشير إلى هوله الاستفهام في الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، فما ذلك البلاء؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في بيان ما أنزل بعاد من بطشه وعذابه : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤١] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لَّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [نصلت: ١٦] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مَّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَّحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا

فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨٦﴾ [الحاقة: ٨-٦] .

هذه الآيات الكريمة ترسم وتصور مصرع عاد قوم هود ، كأنما نشاهده ، فبينما القوم ينتظرون الفرج بعد الشدة التي أصابتهم من جراء انقطاع المطر عنهم ثلاث سنين ، وكانوا قد أرسلوا وفدًا لهم إلى الحرم يستسقون ، كما كان شأن أهل ذلك الزمن إذا أصابهم جهد وبلاء هبوا إلى مكة وبها بيت الله الذي يعظمونه يطلبون الغوث عنده^(١) ، فبينما قوم عاد في كربهم ينظرون نحو السماء ينتظرون الفرج إذا بهم يرون عارضاً من السحاب قد أقبل نحو ديارهم ، فظنوا أنه الغيث والرحمة والخير ، فقالوا فرحين مستبشرين : (هذا عارض ممطرنا) ، لكن الأمر ليس كما ظنوا ، فما يحمل لهم عارض السحاب الذي رأوه إلا النقمة والشر والعذاب^(٢) ، ولذا قال لهم هود عليه السلام : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ ، أي : بل في هذا السحاب ما استعجلتموه من العذاب حين قلتم : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، فنشأ من تلك السحاب ريح شديدة الهبوب ، عاتية عقيمة لانفع فيها ، بل عذاب أليم ، سخرها الله عز وجل عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابة ، فدمرت كل شيء في طريقها ، وتبعت القوم فأهلكتهم قاطبة ، حتى قيل : إنها كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والمغارات فتلفهم وتخرجهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة^(٣) .

واعترل هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلاماتلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس^(٤) ، وهكذا نجى الله تعالى عبده ورسوله وحزبه المؤمنين ، وأهلك الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢] ، وقال سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ

(١) انظر : تفسير الطبري ٢١٨/٨ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ١٢١/١ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ١٢١/١ ، ١٢٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٢٢٠/٨ .

آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجِّنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ [هود: ٥٨] .

ونبقى مع الذكر الحكيم لنشاهد من خلال آياته البينات كيف أضحي القوم بعد أن أهلكوا ، يقول تعالى : ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْقَعِرٍ ﴾ [القمر: ٢٠] ، أي : كانت الريح تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها ، قيل : كانت تقلعهم من الأرض فترمي بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم ، وتبين رؤوسهم من أجسادهم ، وقيل : تنزع الناس من البيوت ، وقيل : من القبور ؛ لأنهم حفروا حفائر فدخلوها ، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْقَعِرٍ ﴾ ، الأعجاز : جمع عجز ، وهو مؤخرة الشيء ، والمنقعر : المنقطع المنقلع من أصله ، يقال : قعرت النخلة ، إذا قلعتها من أصلها ، شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليس لها رؤوس ، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً ثم كبتههم على وجوههم ^(١) .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] ، هكذا بعد سبعة أيام من الريح الصرصر العاتية أمسى القوم ملقين على الأرض جثثاً هامدة بلارعوس ، ومن ضخامة أجسامهم كأنهم أصول نخل بالية أو خالية لاجوف لها ^(٢) .

وإنه لعذاب عظيم يقابل ماكانوا فيه من اغترار بضخامتهم وشدتهم وقوتهم ، فهم الذين قالوا : من أشد منا قوة ، وهم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ٧، ٨] ، وهم الذين قال لهم نبيهم : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٠] ، ولما كان هذا حالهم أرسل الله عليهم جنداً من جنوده وهو تلك الريح العقيم فدمرتهم ذلك الدمار ، وماأغنت عنهم قوتهم وشدتهم شيئاً ، ليعلموا أن من خلق الله سواهم من هو أقوى منهم وأشد ، فكيف بقوة القوى الجبار سبحانه وتعالى؟ إن ذلك مما لاتدركه العقول ولا تعلم كنهه الأفئدة .

(١) انظر : فتح القدير ١٢٥/٥ .

(٢) انظر : فتح القدير ٢٨٠/٥ .

وكان في إهلاك عاد بهذه الصورة الفظيعة عبرة لكل من جاء بعدهم حتى لا يغتر أحد بقوته ولا يستعلي بشدته فإن القوة لله جميعاً، قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩]، وحتى لا يئس أحد من خلق الله من رحمته وعفوه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]، وذلك لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] .

هذا ملخص قصة استكبار عاد وتكذيبهم لرسول الله هود عليه السلام، ثم ما حل بهم من العذاب جزاء ذلك، وإن أردت الاستزادة والتفصيل فعد إلى كتب التفسير متأملاً متدبراً كتاب الله تعالى، وستجد ما تطلب. والله أعلم.

وكما سلف في قصتي استكبار إبليس وقوم نوح من إيجاز مظاهر التكبر على سلوكهم، فهذه أيضاً مظاهر التكبر على سلوك المستكبرين من قوم عاد موجزة:

- ١ - تكذيب نبيهم هود عليه السلام فيما جاءهم به واتهامهم ووسمهم له بالسفاهة والحق والكذب والجنون .
- ٢ - الأنفة من اتباع هود عليه السلام ؛ لأنه بشر مثلهم .
- ٣ - إصرارهم على الكفر بالله عز وجل ، والتمسك بآلهتهم الباطلة .
- ٤ - جحدهم بآيات ربهم وعصيانهم رسله ، واتباعهم أمر كل مستكبر على الله حائد عن الحق جبار عنيد .
- ٥ - إنكارهم البعث والنشور .
- ٦ - بناؤهم القصور المحكمة والبروج المشيدة لهواً ولعباً إظهاراً للقوة وظناً منهم أنهم يخلدون بذلك .
- ٧ - قولهم : من أشد منا قوة ، وذلك حين متعهم الله عز وجل بسعة في أجسامهم ، فبدل أن يشكروا الله تعالى على نعمه كفروها واغتروا بها وقالوا : من أشد منا قوة .
- ٨ - إظهارهم الفساد في الأرض ببطشهم الجبارين .
- ٩ - استعجالهم عذاب الله تعالى وطلبهم أن يأتيهم استبعاداً منهم له ، وتكديماً به .

رابعاً : تكبر ثمود

من هم ثمود؟

قبيلة مشهورة من العرب العاربة ، سموها باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وكانوا يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ، وكانوا بعد عاد الذين خلفوا قوم نوح عليه السلام^(١) ، كما مر ذلك قريباً ، وكما عبد قوم نوح ومن بعدهم عاد الأصنام من دون الله تعالى ، فعل ذلك قوم ثمود فأشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً ، وعبدوا من دونه آلهة باطلة لاتغني عن نفسها ولاعن عابديها شيئاً ، ولاتملك ضراً ولانفعاً ولاموتاً ولاحياة ولانشوراً ، فأرسل الله تعالى إليهم نبيه صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى إفراد الله تعالى وحده بالعبادة ، وخلع الأصنام التي اتخذوها آلهة من دونه ، فما كان من القوم إلا القليل إلا أن حذوا حذو قوم نوح وعاد فاستكبروا عن الإيمان ، وأصروا على استكبارهم ، حتى أخذهم الله كما فعل بالمستكبرين قبلهم أخذ عزيز مقتدر .

القصة من القرآن الكريم

قال الله تعالى : ﴿وَإِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٥] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥] .

هذا ما يبعث الله عز وجل به رسله جميعاً ، دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ما لهم من إله غيره ، فيؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر على بينة ، وما ربك بظلام للعبيد .

ولقد بلغ صالح عليه السلام رسالة ربه ودعاهم إلى إفراده بالعبادة ، وبين لهم أنه مرسل من ربه إليهم بهذا ، وأنه أمين عليه لا يفتره من عنده ، وأمين لا يخونهم في تبليغ رسالة ربهم إليهم ، وحتى لا يظنوا أنه يتغني دنياهم بدعوته ،

(١) انظر : البداية والنهاية ١/١٢٣ .

بين لهم أنه لا ينتظر منهم جزاء ولا شكورا ولا يسألهم على دعوته لهم أجراً، فإن أجره على رب العالمين الذي أرسله وحمله أمانة الدعوة إلى توحيده عز وجل، فعليهم أن يتقوا الله تعالى ويطيعوا رسله فإن فعلوا فذلك هو الفوز العظيم، وإن استكبروا فجهنم مثوى المتكبرين.

وقرن صالح دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ عبادة الأصنام بتذكيرهم ببعض نعم الله عز وجل عليهم، لعلهم يتذكرونها فيشكروا ربهم تعالى ولا يكفروه، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخبراً عما قاله صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، يقول صالح عليه السلام: يا قوم اذكروا نعمة الله تعالى عليكم حين جعلكم تخلفون عاداً في الأرض بعد هلاكها، وأنزلكم في الأرض وجعلها لكم مباءة، أي: منزلاً تسكنونه، وسخرها لكم تبون في سهولها القصور^(١) «وسهول الأرض ترابها يتخذون منه اللبن والآجر فيبنون به القصور»^(٢)، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾، أي: تتخذون في الجبال التي هي صخور بيوتاً تسكنون فيها، وهذه نعمة من نعم الله عز وجل عليهم إذ متعهم بالقوة والشدة التي تمكنهم من نقب الجبال ونحتها ليتخذوا فيها كهوفاً يسكنونها، قيل: لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم^(٣)، وهذه نعمة أخرى من الله تعالى عليهم إذ متعهم بطول الأعمار، ولهذا قال صالح عليه السلام ﴿فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾، أي: اذكروا نعمه هذه عليكم ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، أي: ولا تكونوا من الذين يطغون عند النعمة فيسعون في الأرض فساداً، «والعشي أشد الفساد، فقيل لهم: لاتمادوا في الفساد في حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه»^(٤).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٣١/٨، والبداية والنهاية ١٢٥/١، وفتح القدير ٢٢١/٢.

(٢) فتح القدير ٢٢٠/٢.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) فتح القدير ٩١/١، ونسب هذا القول إلى الكشاف.

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴿٦١﴾ [هود: ٦١] ، أي : ابتداء خلقكم منها^(١) ، وجعلكم عُمَارَهَا وسكانها ، وقيل : أطال أعماركم فيها ، وقيل : أَمَرَكُم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار^(٢) .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٢] ، أي : آمِنين من عذاب الله ، وقيل : آمِنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال ، وقيل : آمِنين من الموت^(٣) ، وقيل : «أي : من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً»^(٤) ، ونظير هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ . وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦، ١٤٩] ، أي : قال لهم ذلك نبهم صالح عليه السلام وإعطاء لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبأ لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات^(٥) ، يقول : أتتركون في هذه النعم التي أعطاكم الله آمِنين من الموت والعذاب^(٦) ، والهضيم معناه : طلع الثمر اليانع النضيج اللين اللطيف^(٧) . وقوله ﴿ فَارِهِينَ ﴾ ، فيها قراءتان : بالألف (فارهِين) ، وبغيرها (فرهِين)^(٨) قيل معناهما واحد ، وقيل بالألف : حاذقين ماهرين في صنعتها ، وفرهِين : أشرين بطرين ، قيل : «ولامنافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير

(١) انظر : تفسير الطبري ٦٢/١٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥٠٧/٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٥٠/١٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ٥٧٦/٢ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٦/٣ .

(٦) انظر : فتح القدير ١١٢/٤ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ٩٩/١٩ .

(٨) بالألف قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ، ومن غير الألف قراءة نافع وابن

كثير وأبي عمر . انظر : السبعة في القراءات ص ٤٧٢

حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم»^(١).

هذا نبي الله صالح عليه السلام قد بلغ رسالة ربه كما أمره جل وعلا، ونصح لقومه غاية النصح، فهل قبلوا ماجاءهم به عليه السلام؟

كلا! فلقد استكبروا كما استكبر قوم نوح واستكبرت عاد، وكان حالهم كما بين الحق سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، يقول جل ذكره بينا لهم سبيل الحق وطريق الرشاد، وأعلمناهم الهدى والضلالة ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة وأمرناهم أن يتبعوا الهدى، ولكنهم اختاروا الكفر على الإيمان واستحبوا الضلالة والعماية على الهدى والبيان^(٢).

اختاروا الكفر على الإيمان واستحبوا الضلالة على الهدى حين استكبروا عن أفراد الله تعالى بالعبادة، وأصروا على عبادة الأصنام وأعرضوا عن آيات ربههم وكذبوا رسوله، وعقروا الناقة واستعجلوا العذاب.

أما استكبارهم عن أفراد الله تعالى وحده بالعبادة وإصرارهم على عبادة الأصنام فيبينه قولهم لصالح عليه السلام حين قال لهم: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، فقد قالوا له كما حكى القرآن عنهم: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، يقولون: قد كنا نرجو أن تكون فينا سيذاً مطاعاً نتتفع برأيك، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذي أظهرته من ادعائك النبوة، ودعوتك إلى التوحيد، وقيل: كان صالح يعيب آلهتهم، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله، قالوا: انقطع رجاؤنا منك ﴿أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، استفهام منهم على سبيل الإنكار^(٣)، أي: ينكرون عليه دعوتهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، «يعنون أنهم لا يعلمون صحة مايدعوههم إليه من توحيد

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٥٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠٤/٢٤-١٠٥، وفتح القدير ٥١١/٤.

(٣) انظر: فتح القدير ٥٠٨/٢.

الله وأن الألوهية لا تكون إلا له خالصاً ، وقوله : ﴿مُرِيبٌ﴾ ، أي : يوجب التهمة^(١) ، فلما قالوا ذلك ، قال لهم صالح عليه السلام : ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] ، أي : أرايتم إن كنت على حجة ظاهرة وبرهان صحيح وآتاني منه رحمة ، أي : آتاني منه النبوة .

وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع لكنها صُدرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين ؛ لأنهم من ذلك كما وصفوه عن أنفسهم ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ ، استفهام معناه النفي ، أي : لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ ، في تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب علي من البلاغ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ، أي : فما تزيدونني بتشيطكم إياي (غير تخسير) بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي ، والتعرض لعقوبة الله لي ، وقيل : المعنى : فما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم^(٢) .

وأما إعراضهم عن آيات الله تعالى فقد قال الله تعالى في بيانه : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨٠، ٨١] ، « يقول : وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحاً : فكانوا عن آياتنا التي آتيناهموها معرضين لا يعتبرون بها ولا يتعظون^(٣) » .

وأما تكذيبهم رسول الله صالحاً عليه السلام ففي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦] .

حوار دار بين الرؤساء المستكبرين ذوي السيادة وبين المستضعفين من المؤمنين من قوم صالح ، يقول المستكبرون للمستضعفين على سبيل التكذيب لصالح عليه السلام والهزاء والسخرية به وبالمؤمنين : ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً

(١) تفسير الطبري ٦٣/١٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥٠٨/٢ .

(٣) تفسير الطبري ٥٠/١٤ .

مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ»، أي : أتعلمون صدقه فيما قال لنا بأن الله أرسله إلينا وإليكم؟ فأجاب المستضعفون ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ «أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم ، هل تعلمون برسالته أم لا؟ مسارعة إلى إظهار مالهم من الإيمان ، وتنبهاً على أن كونه مرسلًا أمر واضح مكشوف لا يحتاج إلى السؤال عنه»^(١) ، فرد الملاء المستكبرون عناداً وتمرداً^(٢) ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ، أي : إنا بالذي صدقتم به من نبوة صالح ، وأن الذي جاء به حق من عند الله ، جاحدون منكرون لانصدق به ولانقر^(٣) .

إنهم لا يصدقون برسالة صالح عليه السلام لأنه بشر مثلهم وفي زعمهم أن الرسول لا ينبغي أن يكون بشراً فإن الله تعالى لو أراد أن يرسل رسولاً إلى البشر لكان من الملائكة ، ولذا فإنهم يقولون كما بين ذلك الحق في كتابه بقوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبَّنَا أَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤، ١٣] ، وبقوله سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣، ١٥٤] ، وبقوله سبحانه وتعالى : ﴿كَذَبْتَ ثُمُودَ بِالنَّذْرِ . فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . أَلَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥] ، يقولون : لو شاء الله أن يرسل إلينا رسولاً لكان من الملائكة ، أما أنت يا صالح فبشر مثلنا (من المسحرين) ، أي : من المخلوقين الذين يعللون بالطعام والشراب مثلنا ولست رباً ولا ملكاً فطيعك ، ونعلم أنك صادق فيما تقول^(٤) ، والمسحّر : الذي له سحرٌ وهو الرئة^(٥) ، وقيل : معنى (من المسحرين) أي :

(١) فتح القدير ٢/٢٢٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٨/٢٣٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٩/١٠٢ .

(٥) انظر : فتح القدير ٤/١١٢ .

من المسحورين ، ثم يقولون : فإن اتبعناك وصدقناك وأنت بشر مثلنا ، فلقد خبنا إذاً وخسرنا^(١) ، وكنا في خطأ وذهب عن الحق وفي عناء وشدة^(٢) ، ثم يعاودون الاستنكار والاستبعاد لنبوته فيقولون : ﴿أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥] ، أي : كيف خص من بيننا بالوحي والنبوة وفينا من هو أحق منه بذلك؟ ثم أضربوا عن الاستنكار وانتقلوا إلى الجزم بأنه كذاب أشر ، والأشر : المرح والنشاط أو البطر والتكبر ، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام ، قالوا : ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ، ثم تهددهم الله تعالى وتوعدهم بقوله : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ [القمر: ٢٦] ، أي : حين يقع عليهم العذاب^(٣) .

ومن دلائل تكذيبهم لصالح عليه السلام هزؤهم به وبمن معه من المؤمنين حين دعاهم إلى عبادة الله تعالى ونصحهم بأن لا يستعجلوا عذاب الله قبل رحمته ، فقالوا كما جاء في كتاب الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ . قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٦-٤٧] ، يقول صالح لقومه : لأي شيء تستعجلون بعذاب الله قبل الرحمة؟ أي : لم تؤخروا الإيمان الذي يجلب لكم الثواب وتقدمون الكفر الذي يجلب لكم العقوبة؟ فهلا تتوبون إلى الله من كفركم فيغفر لكم ربكم عظيم جرمكم ويرحمكم فلا يعذبكم^(٤)؟ فلما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم ﴿أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ ، أي : «تشاء منا بك وبمن معك من أتباعنا ، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكارة والمصائب»^(٥) ، «وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشقاهاهم بها ، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢٨٤/٤ .

(٢) انظر : فتح القدير ١٢٦/٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٧/١٩ ، وفتح القدير ١٤٣/٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٧١/١٩ .

من الأمور نفّروا طائراً من وكّره ، فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه ، وإن طار يسرة تركوا ذلك»^(١) ، فلما قالوا ذلك قال لهم صالح عليه السلام : ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ، «أي : ما زجرتم من الطير لما يصيكم من المكاره عند الله علمه ، لا يُدرى أي ذلك كائن ، أما تظنون من المصائب أو المكاره أم مالا ترجونه من العافية والرجاء والمحاب»^(٢) . المعنى : ليس ذلك بسبب الطير الذي تتشاءمون به ، بل سبب ذلك عند الله وهو ما يقدره عليكم ، والمعنى : أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم^(٣) . ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي : تمتحنون أتؤمنون أم تكفرون ، «وقيل : تعذبون بذنوبكم ، وقيل : يفتنكم غيركم ، وقيل : يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون»^(٤) .

ولم يقف أمرهم عند تكذيبه وتسفيهه ومن آمن معه ، بل لقد تأمروا على قتله عليه السلام ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩] ، يخبر الحق سبحانه وتعالى أنه كان في مدينة صالح وهي الحجر حجر ثمود تسعة أنفس من أبناء الأشراف^(٥) ، وكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة ، شأن هؤلاء الرهط وعملهم الفساد في الأرض الذي لا يخالطه صلاح^(٦) ، وإنما خصهم الله جل ثناؤه بهذه وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين ؛ لأن هؤلاء التسعة كما قيل هم الذين سعوا في عقر الناقة وتعاونوا عليه ، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود^(٧) ، ثم أخبر الحق سبحانه وتعالى

(١) فتح القدير ١٤٣/٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٧١/١٩ .

(٣) انظر : فتح القدير ١٤٣/٤ .

(٤) فتح القدير ١٤٣/٤ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٧٢/١٩ ، وفتح القدير ١٤٣/٤ .

(٦) انظر : فتح القدير ١٤٣/٤ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ١٧٢/١٩ .

عن صورة من صور إفسادهم فقال: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، يقول هؤلاء التسعة: ليحلف بعضكم لبعض لنأتين صالحاً بغتة في وقت البيات فلنقتله وأهله^(١)، ثم لنقولن لرهطه وجماعته: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾، أي: ما حضرنا قتلهم ولاندرى من قتله وقتل أهله، ونفيهم لشهود مكان الهلاك يدل على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى^(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]، ومكرهم تحالفهم على قتل صالح وأهله، ومكر الله بهم مجازاته سبحانه وتعالى لهم بفعلهم بأن أهلكهم وقومهم أجمعين^(٣)، حتى خوت بيوتهم كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

وأما عقربهم الناقة واستعجالهم العذاب، فقد ذكر المفسرون أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديتهم فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك- ناقةً من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعتوا وتشددوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: رأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عليهم عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه، فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يحييهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه والصفة التي طلبوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً، فأمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وعنادهم^(٤)، وفي طلبهم الآية ثم كفرهم بها يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا

(١) انظر: تفسير الطبري ١٧٢/١٩.

(٢) انظر: فتح القدير ١٤٣/٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٧٢/١٩، وفتح القدير ١٤٣/٤.

(٤) انظر: البداية والنهاية ١٢٦/١.

أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿الشعراء: ١٥٣، ١٥٤﴾ ، ويقول تعالى : ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] ، أي : آتيناهم تلك الناقة آية باهرة عظيمة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ، فكفروا بها ، ولم يتبع الحق أكثرهم بسببها ، ثم كان من أمرهم أن قتلوها فآل أمرهم إلى الهلاك^(١) .

فلما طلب قوم صالح آية وبرهاناً على صدقه فأجيبوا ، وأخرج الله عز وجل لهم تلك الناقة العشرة من الصخرة الصماء ، أخذ نبيهم صالح عليه السلام يبين لهم مسئوليتهم تجاه ناقة الله ، ويحذرهم من التعرض لها بالأذى والشر ، فإن فعلوا فلينتظروا عذاب الله فإنه واقع بهم لامحالة ، قال الله تعالى في بيان ما قاله صالح : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] ، وقال تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] ، وقال تعالى : ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ، وقال تعالى : ﴿قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣] .

لقد كانت هذه الناقة آية على صدق صالح عليه السلام وفتنة لقومه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] ، وكان من شأنها أن الله عز وجل قسم الماء بينها وبين القوم ، فيوم تشرب فيه الناقة جميع الماء ، ويوم آخر يكون للناس يشربون ويسقون ويدخرون ، وكانت في يومها الذي تشرب فيه الماء تسقيهم اللبن ، تصبه صباً ، وكانت كما قيل تتأذى منها مواشيهم وتنفر ، فلما طال بهم هذا الحال تآمروا على قتلها ، فانبرى لذلك شقي منهم بل هو أشقاهاهم يقال له : قدار بن سالف ، فعقرها ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَذَبْتَ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥٢/٣ ، والبداية والنهاية ١٢٦/١ .

ثُمُودٌ بِطُغَوَاهَا . إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿الشَّمْسُ: ١٣، ١٤﴾ ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ ﴿القمر: ٢٩﴾ ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿الأعراف: ٧٧﴾ ، ويقول الله تعالى : ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ﴿الشعراء: ١٥٧﴾ .

فلما عتت ثمود عن أمر ربها وعقروا الناقة التي كانت لهم آية وفتنة جاءهم نبيهم صالح عليه السلام وكانوا قد قالوا له بعد عقربهم الناقة مستعجلين العذاب الذي حذرهم منه وخافه عليهم : ﴿يَا صَالِحُ انْتَبِهْ بَمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿الأعراف: ٧٧﴾ ، جاءهم فبشرهم بعذاب الله ونقمته ، فقالوا له وهم يهزءون به : ومتى ذلك يا صالح؟ وما آية ذلك؟ فقال لهم كما أمره الله تعالى أن يقول لهم : ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿هود: ٦٥﴾ ، وذكر لهم أن علامة ذلك أن تصبح وجوههم في اليوم الأول مُصْفَرَّةً ، وفي الثاني مُحْمَرَّةً ، وفي الثالث مُسْوَدَّةً ، ثم يكون العذاب ، قيل : فلما كان اليوم الثالث وأيقنوا الهلاك -بعد أن رأوا صدق ما أخبرهم به نبيهم- تكفئوا وتحنطوا ، ثم أخذتهم الصيحة فأهمدتهم^(١) .

قال الحق سبحانه وتعالى في بيان إهلاكه ثمود : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ﴿الأعراف: ٧٨﴾ ، المراد بالرجفة هنا : الصيحة الشديدة التي خلعت قلوبهم ، وبها أهلكوا^(٢) ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ﴿هود: ٦٧﴾ ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿الحجر: ٨٣﴾ ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ ﴿القمر: ٣١﴾ ، وهي الصيحة التي ذكرها الله بقوله : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿فصلت: ١٧﴾ ، وبقوله : ﴿فَأَمَّا ثُمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ﴿الحاقة: ٥٠﴾ ، والطاغية هي التي تجاوزت مقادير الصياح وطغت

(١) انظر تفاصيل القصة في : تفسير الطبري ١٢٤/٨ - ٢٣١ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٣٣/٨ ، وفتح القدير ٢٢٠/٢ .

عليها^(١)، وقد أهلكوا بهذا العذاب المذل المهين جزاء استكبارهم واستعلائهم على الحق .

ويصف الحق سبحانه وتعالى شدة إهلاكه لهم فيقول : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨] ، والمعنى : أصبحوا في بلدهم وفي دورهم صرعى ميتين لا يتحركون لأنهم لأرواح فيهم^(٢) ، ومعنى (جاثمين) : لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم^(٣) .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَبِئْسَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢] ، وهذا يعني أنهم دُمروا فلم يبق منهم أحد ، حتى أضحت بيوتهم خاوية منهم كما قال الله تعالى : ﴿ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [هود: ٦٨] ، أي : كأن لم يعيشوا فيها ولم يعمروا بها^(٤) .

وقال تعالى يصف حال أولئك الأشقياء وقد نزل بهم ما استحقوه بكفرهم وعتوهم من عذاب الله العزيز القدير : ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ . فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَصَرِّينَ ﴾ [الذاريات: ٤٤، ٤٥] ، والمعنى : أنهم لما تكبروا عن امتثال أمر ربهم^(٥) تبارك وتعالى وكذبوا رسوله وعقروا الناقة ، أهلكهم الله سبحانه وتعالى بالصاعقة وهي كما قدمنا الصيحة الشديدة التي صعقتهم فأهلكتهم فلم تبق منهم ولم تذر ، ولم يكن هذا العذاب المهلك قد نزل بهم غفلة ، بل رأوه عياناً وحينها لم يقدروا على القيام والنهوض من صرعتهم تلك ، بمعنى أنهم عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب ، ثم أيضاً وقد عجزوا عن دفع ذلك العذاب عنهم فإنه مادفعه ومنعه عنهم أحدٌ غيرهم^(٦) .

(١) انظر : تفسير الطبري ٤٩/٢٩ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٣٣/٨ ، وفتح القدير ٢٢٠/٢ .

(٣) انظر : فتح القدير ٢٢٠/٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٦٨/١٢ .

(٥) انظر : فتح القدير ٩١/١٥ .

(٦) انظر : المصدر السابق .

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ [القمر: ٣١]، هكذا أخذتهم الصيحة فأهلكتهم فصاروا كالشجر إذا يس في الحظيرة وداسته الغنم بعد سقوطه^(١)، وقال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، أي: أهلكهم وأطبق عليهم العذاب، وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب وترديده، والدمدمة: إهلاك باستئصال، ودمدمت الشيء: إذا ألزقته بالأرض وطحطحته، ودمدم الله عليهم، أي: أهلكهم، ودمدم: إذا عذب عذاباً تاماً، والضمير في (فسواها) يعود إلى الدمدمة، أي: فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت على كبيرهم وصغيرهم، وقيل: يعود إلى الأرض، أي: فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب، وقيل: يعود إلى الأمة، أي: أنزل العذاب بالأمة -أمة ثمود- صغيرها وكبيرها، بمعنى: سوى بينهم^(٢).

ونجى الله تعالى عبده ورسوله صالحاً والذين آمنوا معه، فلم يصبهم ما نزل بقومهم، ذلك أنه سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة وكتب رحمته لمن آمن به واتقاه وخضع له وأذعن لأمره ونهيه فهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في بيان إنجائه لصالح عليه السلام ومن آمن معه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨].

وهكذا أهلك الحق سبحانه وتعالى أولئك المستكبرين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، ونجى عباده المؤمنين جزاءً بما كانوا يعملون، وفي إهلاك المستكبرين وإنجاء المؤمنين آية وعبرة لقوم يعلمون، كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٥٨، ١٥٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتِلْكَ

(١) انظر: فتح القدير ١٧٦/٥.

(٢) انظر: فتح القدير ٤٥٠/٥.

يُؤْتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ [النمل: ٥٢] .

ونختم هذه القصة بمشهد الناصح الأمين نبي الله صالح عليه السلام وهو يقف موجهاً إلى قومه آخر كلماته قبل أن يهلكوا أو هو يقف عليهم بعد هلاكهم فيخاطبهم أسى وحسرة، يخاطبهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية، يقول كما ذكر الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] .

يقول صالح عليه السلام: يا قوم لقد أراد الله تعالى بكم الخير، وأراد لكم الهداية، حين أرسلني إليكم أدعوكم إلى توحيد الله وطاعته، وأردت لكم ذلك حين كنت أميناً على رسالة ربي فبلغتكم إياها، وأخلصت في النصيحة لكم رجاء أن تؤمنوا، فتنجوا من هذا العذاب الأليم المخزي المهين، ثم من العذاب الأخزى في يوم الدين، ولكن ما أفعل وما عليّ إلا البلاغ؟ وماذا أفعل وقد كرهتموني لنصحي لكم، فلم تقبلوا مني ولم تستجيبوا لي، وهأنتم قد نزل بكم عذاب الله الذي حذرتكم إياه، فاستعجلتموه، فكيف وجدتموه؟

ملخص أبرز مظاهر استكبار ثمود على سلوكهم :

١ - استكبارهم عن توحيد الله عز وجل وإصرارهم على عبادة ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام .

٢ - تكذيبهم نبي الله صالح عليه السلام في كونه رسولاً من رب العالمين .

٣ - هزؤهم بصالح عليه السلام ومن آمن به من المستضعفين .

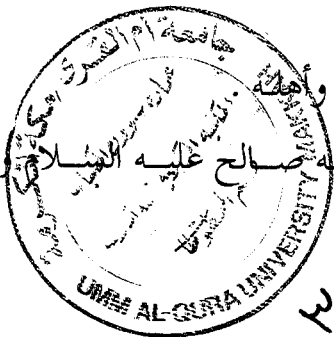
٤ - طلبهم آية على صدق صالح عليه السلام وتعنتهم في ذلك .

٥ - عقرهم الناقة التي أخرجها الله عز وجل من الصخرة آية لهم كما طلبوا .

٦ - بناؤهم البيوت ونحتهم لها من الجبال لالحاجة إليها، بل أشراً وبطراً ولهواً ولعباً .

٧ - تأمرهم على قتل صالح عليه السلام وأهله .

٨ - استعجالهم العذاب الذي توعدهم به صالح عليه السلام وحذرهم من نزوله بهم .



خامساً : استكبار مدين

من هم أهل مدين؟

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم : مدين ، التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام ، ممايلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة ، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام^(١) .

لماذا أرسل الله تعالى إلى مدين نبيه شعبياً عليه السلام؟

بنص القرآن الكريم كما سيأتي كان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة (شجرة من الأيكة) ، وكانوا من أسوء الناس معاملة ، يبخسون الكيل والميزان ، يستوفون لأنفسهم ويأخذون بالزائد ، ويدفعون لغيرهم بالناقص ، فأراد الله عزوجل بهم الرحمة ، فبعث فيهم رجلاً منهم وهو رسوله شعيب عليه السلام ، بعثه إليهم ليخرجهم بإذنه من الظلمات إلى النور ، فدعا شعيب عليه السلام قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ونبذ مايعبدون من دونه ، ونهاهم عن تعاطي تلك الأفاعيل القبيحة ، من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في طرقاتهم ، فأمن بشعيب قليل منهم ، وكفر أكثرهم حتى أحل الله تعالى بهم بأسه الشديد وأذاقهم عذابه الأليم^(٢) .

قصة استكبار مدين كما جاءت في القرآن الكريم

قال الله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، وقال تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْسُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] .

يدعو شعيب عليه السلام أهل مدين إلى أفراد الله تعالى بالعبادة وترك عبادة كل ماسواه ، فإنه لاإله لهذا الوجود ظاهره وباطنه إلا الله سبحانه وتعالى ، وهذه هي عقيدة التوحيد التي بعث الله تعالى بها أنبياءه ورسله جميعاً ، وأيدهم بالآيات المعجزات ، والدلائل الواضحات والحجج

(١) انظر : البداية والنهاية ١/ ١٧٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

القاطعات : ليصدق الناس ويؤمنوا ، ولهذا قال شعيب عليه السلام وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، أي : قد جاءكم علامة وحجة من الله تعالى بحقيقة ما أقول وصدق ما أدعوكم إليه ^(١) ، ويعني عليه السلام ما أيده الله تعالى به من المعجزات التي لم تنقل إلينا ، وقد دل هذا اللفظ عليها إجمالاً ^(٢) ، ونحن نؤمن بها ونصدق على ما جاءت .

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٠] ، أصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب عليه السلام من أنفسهم ، وإنما لم يقل هاهنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة كانوا يعبدونها ، فقطع الحق سبحانه وتعالى نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان شعيب عليه السلام أخاهم نسباً ^(٣) .

ومعنى الآيات : أن شعيبا عليه السلام دعا قومه إلى تقوى الله عز وجل واتقاء عذابه وسخطه بترك ما يعبدون من دونه ، وطاعة رسوله الذي أرسله إليهم -وهو شعيب عليه السلام- ، فإنه رسول إليهم أمين على رسالة ربه في تبليغها لهم ، مبيناً لهم عليه السلام أنه مادعاهم إلى مادعاهم إليه يستجدي بذلك دنياهم ويطمع فيما لديهم ، فإنما أجره وثوابه على الله رب العالمين .

ثم دعاهم إلى العدل وأمرهم به ، ونهاهم عن الظلم وتوعدهم عليه ، وقد مر بنا أنهم كانوا قطاع طريق ، كما كانوا يبخسون الناس أشياءهم ويعيثون في الأرض فساداً ، قال شعيب عليه السلام لقومه كما بين الحق سبحانه وتعالى ذلك في كتابه : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، يقول عليه السلام لقومه : أتموا للناس حقوقهم بالكيل

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٣٧/٨ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ١٧٤/١ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٧/٣ ، ٣٥٨ .

الذي تكيلون به ، وبالوزن الذي تزنون به ، ولا تظلموهم حقوقهم ولا تنقصوهم إياها^(١) ، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ، البخس : النقص ، ويكون بالتعيب للسلعة أو التزهد فيها ، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه ، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وظاهر قوله (أشياءهم) أنهم كانوا يبخسون الناس في كل الأشياء ، وقيل : كانوا مكّاسين^(٢) ، يمكسون كل مادخل إلى أسواقهم^(٣) ، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ، ينهى شعيب عليه السلام قومه عن الفساد في الأرض بأي وجه من وجوه الفساد ، والتي منها ما كانوا يتعاطونه ويفعلون من عبادة غير الله تعالى ومن تطفيف الكيل والوزن وبخس الناس أشياءهم... ، ومعنى ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ، أي : بعد أن أصلحها الله عز وجل بابتعاث نبيه فيكم يأمركم بما يصلحكم ويصلح دينكم ودنياكم وينهاكم عما يكرهه الله تعالى ولا يحل لكم^(٤) ، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ، أي : « هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن ، وترك الفساد في الأرض خير لكم في عاجل دنياكم وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة »^(٥) ، ﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ، يقول : إن كنتم مصدقين لي فيما أقوله لكم وأبلغكم من أمر الله ونهيه^(٦) ، يقول بعد ذلك ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ ، قيل : كانوا يقعدون في الطرقات المؤدية إلى شعيب عليه السلام ، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويخوفونهم ، ويقولون عن شعيب : إنه كذاب فلا تذهبوا إليه ، وقيل المراد : القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها ، وليس المراد به القعود على الطريق حقيقة ، ويؤيده قوله بعده ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٣٧/٨ .

(٢) الماكس هو : العشار ، والمكس : هي الضريبة التي يأخذها . انظر : النهاية في

غريب الحديث والأثر ٣٤٩/٤ .

(٣) انظر : فتح القدير ٢٢٤/٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٢٣٨/٨ .

(٥) تفسير الطبري ٢٣٨/٨ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ٢٣٨/٨ .

آمَنَ بِهِ ﴿١﴾ ، وقيل المراد بالآية : النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب ، وكانوا يفعلونه ، وقيل : إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس فنهوا عن ذلك ، والقول الأول أولى مع أنه لا مانع من حمل النهي على هذه الأقوال جميعها^(١) ، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ، أي : تلتمسون لها الزيف وتطلبون أن تكون سبيل الله معوجة غير مستقيمة .

ونظير هذه الآيات في نهى شعيب قومه عن هذه الأمور السيئة وأمرهم بضدها قوله تعالى : ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مَّحِيْطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيْظٍ﴾ [هود: ٨٤-٨٦] ، ينهى شعيب قومه عن نقص الكيل والوزن محذرا لهم من أن يحق الله تعالى بركة مافي أيديهم ويفقرهم ويذهب ماهم فيه من النعمة والثروة والسعة في الرزق إن هم استمروا على ماهم عليه من هذا الفساد ، ومحذرا لهم كذلك من عذاب الله تعالى يوم القيامة العذاب المحيط الذي لا يشذ منهم عنه أحدٌ ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهرباً ، وفي هذا تقرع لهم وتعنيف ووعد شديد^(٢) ، ثم قال لهم : ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ ، أي : ما يقيه الله لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيراً وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الأرض ، وقيل : بقية الله : طاعته ، وقيل : حظكم من ربكم خير لكم ، وقيل : رزق الله خير لكم^(٣) ، وقوله : ﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ، أي : إن كنتم مصدقين بوعده الله ووعيده وحلاله وحرامه^(٤) ، وقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيْظٍ﴾ ، أي : أحفظكم من الوقوع في هذه المعاصي والسيئات ، أو أحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها ، فافعلوا ما أمرتكم به ، وذروا ما نهيتكم عنه ، افعلوه لله

(١) انظر : فتح القدير ٢/٢٢٤ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ١/١٧٤ ، وفتح القدير ٢/٥١٨ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٢/١٠١ ، وفتح القدير ٢/٥١٩ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٢/١٠٠ .

عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس^(١).

ونظير ذلك أيضاً قول شعيب لقومه كما أخبر الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١، ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وذكر شعيب عليه السلام قومه بنعم الله عليهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ﴾ [الأعراف: ٨٦]، يذكرهم نعمة الله تعالى عندهم بأن كثر جماعتهم وقد كانوا قليلاً، ورفعهم من الذلة والخسة^(٢)، وقيل: أغناهم بعد فقر^(٣)، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بطاعته، واحذروا نقمته بترك معصيته^(٤)، وقال لهم شعيب عليه السلام وهو يذكرهم كذلك نعمة ربهم عليهم: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٤]، يعني: خير الدنيا وزينتها من المال وسعة الرزق والعيش ورخص الأسعار وسواها^(٥).

ثم أخذ شعيب عليه السلام يحذر قومه ويخوفهم عذاب الله تعالى مذكراً لهم بما أصاب المفسدين قبلهم لعلهم يعتبرون، فقال لهم: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، يذكرهم بما آل إليه أمر المستكبرين من الأمم التي خلت من قبلهم، وهم: قوم نوح وعاد وثمود ولوط كما جاء ذلك صريحاً في آية أخرى هي قول الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، فهؤلاء قد أهلكهم الله تعالى بسبب استكبارهم عن توحيده وطاعة رسله كما مر بنا قبل، ولذا قال شعيب لقومه: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤٧٢/٢، وفتح القدير ٥١٩/٢.

(٢) انظر: فتح القدير ٢٢٤/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٣٩/٨.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٩٩/١٢.

عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ مَّحِيطٌ ﴿١﴾ ، أراد بذلك عذاباً في الدنيا يحيط بهم فلا يبقى منهم أحداً كما فعل بأشيعاهم من قبل ، أو عذاب يوم القيامة وهو العذاب الأخرى والأشد^(١) .

وقال شعيب لقومه مُحذِّراً مُهذِّداً مُوعِداً : ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] ، وفي هذا تصبير للمؤمنين ووعدهم بأن العقوبة والتكفير لهم ، ووعد المستكبرين بأن مآلهم إلى الدمار والهلاك^(٢) .

هذا شأن شعيب عليه السلام وهو يبلغ قومه رسالة ربه جل وعلا ، فكيف قابله قومه؟

لقد حذا أصحاب الأيكة قوم شعيب عليه السلام حذو من سبقهم من الأمم فما آمن معه إلا طائفة منهم ، أما أكثرهم وبقية الملة فقد كذبوه ووقفوا في طريق دعوته ، يصدون عن سبيل الله ، ويكذبون بآياته ويتوعدون ويسخرون من أوليائه معلنين أنهم لن يتركوا ماعبه أباًؤهم ، ولن يتوبوا مما هم فيهم من الفساد في الأرض ، وظلوا كذلك حتى أنزل الله تعالى بهم بأسه الذي لا يرد ، فبعداً للقوم الظالمين .

وفي هذا الشأن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبَّنَا وَسِعَ رَبَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عَلِماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ . وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمُ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٩٠] ، يقول الملة المستكبرون عن الإيمان بالله وبرسوله شعيب عليه السلام غير مكتفين بترك الإيمان والتمرد والاستكبار عن الإجابة إلى مدعاهم إليه ، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشراً إلى توعد نبيهم ومن آمن معه بالإخراج من قريتهم إن لم يعودوا في ملتهم

(١) انظر : فتح القدير ٥١٨/٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٤٢/٢ .

الكفرية^(١)، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، أي: لابد من أحد الأمرين، ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾، أي: قال نبي الله شعيب عليه السلام أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها، أو أخرجوننا من قريبتكم في حال كراهتنا للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأمرين جميعاً، والمعنى: أنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ولا يصح لكم ذلك، فإن المكره لا اختيار له ولا تعد موافقته مكرهاً موافقة ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً^(٢). ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾، ملة الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، بالإيمان والهداية ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾، أي: ما يصح لنا ولا يستقيم بحال من الأحوال أن نرجع إلى ملتكم فندين بها ونترك الحق الذي نحن عليه^(٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبَّنَا﴾، أي: «إلا أن يكون سبق لنا في علم الله أننا نعود فيها فيمضي فينا حينئذ قضاء الله فينفذ مشيئته علينا»^(٤)، ﴿وَسِعَ رَبَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، فلا يخفى عليه شيء كان ولا شيء هو كائن^(٥)، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، أي على الله نعتمد في أن يثبتنا على الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله، ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نعمته^(٦)، فإنه سبحانه وتعالى كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجؤنا في جميع أمرنا^(٧)، ثم فزع نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام إلى ربه بالدعاء على قومه إذ أيس من فلاحهم وانقطع رجاءه من إذعانهم لله بالطاعة، والإقرار له بالرسالة، وخاف على نفسه والمؤمنين معه من فسق قومه، ففزع إلى ربه بتعجيل النعمة بالمستكبرين، فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، أي: أحكم بيننا وبين قومنا بحكمك الحق الذي لا جور فيه

(١) انظر: فتح القدير ٢/٢٢٥.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١/٩، وفتح القدير ٢/٢٢٥.

(٤) تفسير الطبري ٢/٩.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٢/٩.

(٦) انظر: فتح القدير ٢/٢٢٥.

(٧) انظر: البداية والنهاية ١/١٧٧.

ولكنه عدل وحق، وأنت خير الحاكمين^(١)، وهنا عاد الملاء الكافرون يقولون: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعْيَا﴾، أي: فيما يدعوكم إليه وصدقتم وآمنتم به ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾، «وخسرانهم: هلاكهم، أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي كانوا يعاملون الناس به»^(٢).

وقال الحق سبحانه وتعالى وهو يبين تكذيب قوم مدين لنبيهم شعيب عليه السلام واستهزاءهم به وإصرارهم على شركهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، يقولون له -على سبيل التهكم والإنكار- أقرأتك أو أدينك يأمرك أن نترك ما عبده آبائنا من الآلهة لنعبد إلها واحداً، كما يأمرك بأن لانكون أحراراً في أموالنا نفعل ما نشاء وما يحلو لنا فيها من الأخذ والإعطاء والزياد والنقص^(٣)، ثم وصفوه بوصفين عظيمين، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، يقولون ذلك إما على سبيل الاستهزاء والتهكم لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما أو يريدون: إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك وفي اعتقادك، والمعنى: إن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ماتعتقد في نفسك من الحلم والرشد، وقيل: إنهم قالوا ذلك لاعلى طريقة الاستهزاء، بل هو عندهم كذلك وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم^(٤).

فلما قالوا ذلك لشعيب عليه السلام قال لهم متلطفاً معهم في العبارة داعياً لهم إلى الحق بأبين إشارة^(٥): ﴿قَالَ يَأْقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، يقول: أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي فيما

(١) انظر: تفسير الطبري ٢/٩.

(٢) فتح القدير ٢/٢٢٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٢/١٠١، ١٠٢، وفتح القدير ٢/٥١٩.

(٤) انظر: فتح القدير ٢/٥١٩.

(٥) انظر: البداية والنهاية ١/١٧٥.

أمرتكم به ونهيتمكم عنه، ورزقني ربي من فضله وخزائنه ملكه رزقاً كثيراً واسعاً حلالاً طيباً، وقد كان عليه السلام كثير المال، وقيل: أراد بالرزق النبوة، وقيل: الحكمة، وقيل: العلم، وقيل: التوفيق: أخبروني إن كان الأمر كذلك أترك أمركم ونهيكم، أو أتقولون في شأني ماتقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء^(١)، ثم يقول: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَّا إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ﴾، يقول: وما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعل خلافه، بل لأفعل إلا بما أمركم به، ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه^(٢)، فلا تظنون أنني حين نهيتكم عن التطفيف والبخس أنني أخالفكم إلى فعله^(٣)، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾، أي: ما أريد بالأمر والنهي إلا الإصلاح لكم ودفع الفساد عنكم في دينكم ومعاملاتكم، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾، أي: ما بلغت إليه استطاعتي وتمكنت منه طاقتي^(٤)، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾، يقول: وما إصابتي الحق في محاولتي إصلاحكم وإصلاح أمركم إلا بالله، فإنه هو المعين على ذلك، إن لا يعنني عليه لم أصب الحق فيه^(٥)، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يقول: إلى الله أفوض أمري^(٦)، ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: أقبل بالطاعة وأرجع بالتوبة^(٧).

وبعد هذا التلطف في العبارة، انتقل شعيب عليه السلام إلى أسلوب التهريب، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طِ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، يقول لهم: يا قوم لا يحملنكم بغضي وعداوتي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد وترك الإنابة والتوبة فيصيبكم من العذاب مثل ما أصاب هؤلاء الأقوام عندما أصرروا على كفرهم واستكبارهم، يقول لهم ذلك ليتعظوا

(١) انظر: فتح القدير ٥١٩/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠٣/١٢.

(٣) انظر: فتح القدير ٥١٩/٢.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) تفسير الطبري ١٠٣/١٢.

(٦) انظر: المصدر السابق.

(٧) انظر: تفسير الطبري ١٠٣/١٢.

ويعتبروا بهم^(١)، فلا يسلکوا طریقهم في الاستکبار فيحق عليهم غضب الواحد القهار .

ثم بعد هذا الترهيب عاد عليه السلام إلى الترغيب فقال : ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] ، يأمرهم بالتوبة والإنابة إلى الله عزوجل وطلبه أن يغفر لهم ماكان من عصيانهم ، مبيناً لهم أن الله تعالى عظيم الرحمة والمحبة لمن تاب وأناب إليه ، فلا يعذبه بعد توبته وإنابته^(٢) .

وسبحان الله من يضلل الله فلا هادي له ، كل هذا النصح الممزوج بالوعد والوعيد تارة والترغيب والترهيب أخرى النابع من المحبة والمودة الصادقة الخالصة ، مألقي من القوم إلا صدوداً وإعراضاً ، وإصراراً على الباطل وإمعاناً في العتو والفساد ، فلقد كان لهم قلوب لاتفقه الحق ، وأعين لاتبصره ، وآذان لاتسمعه ، ولتقرأ ماسطره كتاب الله تعالى وهو يخبرنا عن أولئك القوم ، ماكان جوابهم لنبيهم شعيب عليه السلام بعد أن بذل جهده وطاقته في النصح لهم ، قال الله تعالى : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] ، يقولون : يا شعيب مانفهم ولانعقل كثيراً مما تقول له لنا وتخبرنا به ؛ لأننا لانحبه ولانريده ، وليس لنا إقبال عليه ولاهمة إليه^(٣) ، ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ ، يعنون : واحداً ذليلاً لأن عشيرته ليست على دينه^(٤) ، وقيل : يعنون أنه ضيرير البصر لاقوة له ، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ، أي : لولا عشيرتك ومعزتهم علينا لرجمناك بالحجارة ، وقيل : لسببناك^(٥) ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ، أي :

(١) انظر : تفسير الطبري ١٢/١٠٤ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٢/١٠٥ ، والبداية والنهاية ١/١٧٦ ، وفتح القدير ٢/٥١٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ١/١٧٦ ، وفتح القدير ٢/٥٢٠ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٤٧٢ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٢/١٠٥ ، وتفسير ابن كثير ٢/٤٧٤ ، وفتح القدير

لست ممن يكرم علينا ، فيعظم علينا إذلاله وهوانه ، بل ذلك علينا هين^(١) .
 فلما قالوا ذلك أجابهم شعيب عليه السلام بقوله المتضمن للتهديد
 والوعيد : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا
 إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢] ، يقول : متعجباً منهم مستكراً عليهم
 ما قالوا^(٢) : « يا قوم أعزّزتم قومكم فكانوا أعزّ عليكم من الله ، واستخفتم بربكم
 فجعلتموه خلف ظهوركم ، لاتأتمرون لأمره ، ولاتخافون عقابه ، ولاتعظمونه
 حق عظمته »^(٣) ، ثم يتوعدهم ويخوفهم بقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ ﴾ ، أي : هو سبحانه وتعالى عليم بما تعملونه وماتصنعونه محيط بذلك
 كله^(٤) ، لا يخفى عليه منه شيء ، وهو مجازيكم عليه عاجلاً وآجلاً^(٥) .

وزاد نبي الله شعيب عليه السلام في تقريع قومه ووعيدهم
 فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
 عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣] ، يقول
 لهم لما يئس من استجابتهم^(٦) ، وعلم إصرارهم على الكفر وتمسكهم بدين
 آبائهم ، ورأى عدم تأثير الموعظة فيهم^(٧) : اعملوا على طريقكم على قدر
 تمكنكم ونهاية استطاعتكم (إني عامل) على طريقي وحسب ما يمكنني الله
 ويقدره لي (سوف تعلمون) أينا الحاني على نفسه والمخطئ عليها ، والمصيب
 في فعله ، المحسن إلى نفسه^(٨) ، (من يأتيه عذاب يخزيه) يذله ويهينه في الحياة
 الدنيا ، ثم في الآخرة^(٩) ، (ومن هو كاذب) مني ومنكم (وارتقبوا إني معكم
 رقيب) أي : انتظروا إني معكم منتظر لما يقضي الله بيننا ، فإن العاقبة للمتقين

(١) انظر : تفسير الطبري ١٠٦/١٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥٢٠/٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٠٦/١٢ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ١٧٦/١ .

(٥) تفسير الطبري ١٠٦/١٢ .

(٦) انظر : تفسير ابن كثير ٤٧٤/٢ .

(٧) انظر : فتح القدير ٥٢١/٢ .

(٨) انظر : تفسير الطبري ١٠٨/١٢ ، وتفسير ابن كثير ٤٧٤/٢ .

(٩) انظر : تفسير الطبري ١٠٨/١٢ ، والبداية والنهاية ١٧٦/١ .

والدمار والهلاك للكافرين^(١).

وقال تعالى في آيات أخرى وهو يقص علينا نبأ استكبار مدين عن الاستجابة لله ولرسوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٨]، يقولون لنبههم وقد بلغهم رسالة ربه كما قيل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾، أي: من المسحورين أو من المخلوقين الذين يأكلون ويشربون ولست ملكاً حتى نصدقك ونؤمن بك^(٢)، ولذا قالوا ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، تأكل وتشرب فلست برسول، بل ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، أي: نحسبك فيما تخبرنا وتدعونا إلا ممن يكذب فيما يقول، فإن كنت صادقاً فيما تقول وفيما تتوعدنا به من العذاب^(٣)، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، قطعاً أو جانباً أو عذاباً^(٤)، يقولون ذلك تعتاً واستبعاداً وتعجيزاً^(٥)، فلما قالوا ذلك أجابهم شعيب عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، فهو مجازيكم عليه إن شاء^(٦).

ولما تمادى القوم في طغيانهم وأصروا على استكبارهم، واستعجلوا عذاب ربهم متلبسين بالكفر والتكذيب، تحققت فيهم سنة الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتحول وهي أخذه لمن كفر به وكذب رسله -بعد إمهاله- أخذ عزيز مقتدر، سبحانه جل ذكره وعز ثناؤه.

ولقد جمع الله تعالى عليهم أنواعاً من العقوبات وصنوفاً من المثالات وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، فسلط عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة

(١) انظر: فتح القدير ٥٢١/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠٩/١٩، وتفسير ابن كثير ٣٥٨/٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٠٩/١٩، وفتح القدير ١١٥/٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٠٩/١٩، وتفسير ابن كثير ٣٥٨/٣.

(٥) انظر: فتح القدير ١١٥/٤.

(٦) انظر: تفسير الطبري ١٠٩/١٩، وتفسير ابن كثير ٣٥٩/٣، وفتح القدير

أرسل عليهم فيها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ، فغدوا جثثاً هامدة جاثية لأرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها ، وأصبحت ديارهم خاوية هامدة كأن لم تسكن ولم تعمر ، ونجى الله عبده ورسوله شعبياً عليه السلام والذين آمنوا معه وجعل العاقبة لهم ، ومرد الجميع إلى الله عز وجل يوم البعث والنشور ، وفي ذلك اليوم الفصل يعرض الظالمون على أيديهم ويقولون : يا ليتنا اتخذنا مع الرسول سبيلاً ، ويفرح المؤمنون ويقولون : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٧٤] ، وفي بيان إهلاك المستكبرين من قوم شعيب يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢] ، وهذا مقابل قولهم كما سبق : ﴿ لَّئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠] ، فيبين الحق سبحانه وتعالى من الخاسر حقاً .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، « يعني بالظلة : سحابة ظللتهم ، فلما تماموا تحتها التهب عليهم نارا وأحرقتهم »^(١) .

ومن هذه الآيات يتبين لنا أن المستكبرين من قوم مدين أهلكوا بثلاثة أنواع من العذاب : الرجفة والصيحة والظلة ، وقد أخبر الحق جل جلاله عن ذلك في كل سورة بما يناسب المقام ، ففي سورة الأعراف بين سبحانه وتعالى أنهم أرجفوا نبي الله شعبياً عليه السلام وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم ، ثم بين إهلاكهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١] ، فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وفي سورة هود ذكر سبحانه أنهم أخذتهم الصيحة ، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله شعيب عليه السلام على سبيل

(١) تفسير الطبري ١٩/١٠٩ .

التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به نبيهم عليه السلام الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم، وفي سورة الشعراء ناسب أن يذكر أنه سبحانه وتعالى أهلكتهم بعذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة منه جل وعلا إلى ما طلبوا وبه رغبوا فقد قالوا لشعيب^(١): ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقد قال الحق سبحانه وتعالى يصف عذاب يوم الظلة: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، قال ابن كثير: «ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولادخولهم في الأسراب، فهربوا من محلّتهم إلى البرية، فأظلمت سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح فأصبحوا في دارهم جاثمين»^(٢).

وكان في إهلاك أولئك المستكبرين من قوم مدين آية وعبرة لمن يأتي من بعدهم إلى يوم الدين، كما كان ذلك في إهلاك من سبقهم من المستكبرين، ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠]، وحتى يطمئن المؤمنون ويستبشروا ولا يئس المذنبون إن أقبلوا تائبين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩١].

ونسدل ستار قصة استكبار قوم مدين على مشهد نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام وهو يُعرض عنهم مولياً عن محلّتهم بعد هلكتهم ينعامهم إلى أنفسهم موبخاً مؤنباً، يقول: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢]، يقول: يا قوم قد أدبت

(١) انظر: البداية والنهاية ١/١٧٧.

(٢) البداية والنهاية ١/١٧٨.

ماكان واجباً علي من البلاغ والنصح ، وحرصت على هدايتكم قدر طاقتي ، فلم ينفعكم ذلك ؛ لأن الله تعالى لا يهدي من يضل ، فلست بعد هذا أتأسف وأحزن عليكم ؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة ، فكيف أحزن على قوم كاذبين ، لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ، فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا دافع له ولا مفر لأحد منه^(١) .

ملخص آثار الاستكبار على سلوك أهل مدين :

- ١ - الإصرار على عبادة الأوثان التي عبدها آبائهم من دون الله سبحانه وتعالى .
- ٢ - الإفساد في الأرض بقطع الطريق وأخذ المكوس ، وتطفيف الكيل والوزن .
- ٣ - اتهم نبي الله تعالى شعيب عليه السلام بالكذب ووصفهم له بالمسحور ، واستهزأؤهم به وبمن آمن معه ، وتهديدهم لهم بالإخراج من قريتهم إن لم يعودوا إلى ملتهم .
- ٤ - قولهم بأن من اتبع شعيباً خسر وما أفلح .
- ٥ - قولهم لشعيب عليه السلام ما أنت إلا بشر مثلنا ، وفي ذلك أنفة من الانقياد لبشر مثلهم .
- ٦ - طلبهم العذاب واستعجالهم له ليتبينوا صدق شعيب عليه السلام بدل أن يطلبوا منه أن يدعو الله تعالى ليهديهم إن كان من الصادقين .

(١) انظر : البداية والنهاية ١/١٧٨ .

سادساً : استكبار نمرود

من هو نمرود؟

ذكر أنه ملك بابل، نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح؛ وقيل : نمرود بن فالخ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح : وكان زمن إبراهيم الخليل عليه السلام * وكان ملك الدنيا مشارقها ومغاربها ، ومكث في ملكه أربعمائة عام ، فتجبر وطغى حتى ادعى الألوهية وأنكر أن يكون إله غيره^(١) ، وهو الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه كما سنذكر الآن .

نمرود يحاج إبراهيم في ربه تبارك وتعالى

قص الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم خبر تلك المحاجة فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

حاج نمرود إبراهيم عليه السلام في ربه تبارك وتعالى منكرًا وجاحدًا له ، وقاده إلى ذلك كما قيل طول مدته في الملك ، فقد قيل أنه مكث في ملكه أربعمائة عام^(٢) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ ، أي : ألم ينته علمك أو نظرك إلى هذا الذي صدرت منه هذه المحاجة ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ ، « أي : لأن آتاه الله الملك ، أو من أجل أن آتاه الله ، على معنى أن إيتاء الملك ، أبطره وأورثه الكبر والعتو ، فحاج لذلك ؛ أو على أنه وضع المحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر ، كما يقال : عاديتني لأنني أحسنت إليك ، أو وقت أن آتاه الله الملك^(٣) . » إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ ﴾ ، قال له إبراهيم ذلك حين طلب منه دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه ، والمعنى : إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٣٢٠، ٣٢١.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١/٣٢٠، ٣٢١.

(٣) فتح القدير ١/٢٧٧.

وجود الفاعل المختار ضرورة ؛ لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لاشريك له^(١) ، فقال النمرود عندئذ ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ، قيل : أراد أنه يعفو عن القتل فيكون في ذلك إحياء ويأمر به فيكون في ذلك إماتة^(٢) ، قال ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا ؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ، ولا في معناه ؛ لأنه مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت ، كما اقتدى به فرعون في قوله : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ، ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ، أي : إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود ، في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت ، فأنت بها من المغرب ، فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام (بهت) أي : أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة ، قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ، أي : لا يلهمهم حجة ولا برهاناً بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد^(٣) .

هذا ماجاء في كتاب الله تعالى من ذكر أمر محاجة نمرود عليه لعنة الله لإبراهيم الخليل عليه السلام في وجود ربه تبارك وتعالى ، وفيه بيان لطغيان نمرود وعتوه ، إذ أنكر أن يكون له إله غيره وادعى لنفسه من خصائص الألوهية ما ليس لها ، ولكن الله تعالى ألهم خليله عليه السلام فألقمه الحجة ، وأبطل مادعاه وبين كذبه وزوره .

كيف أهلك الله تعالى نمرود

حسب ظني لم يرد في كتاب الله الكريم ذكر ذلك ، ولا في سنة

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٣٢١ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٢١ .

صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أورد المفسرون بعض الآثار مفادها : أن الله عز وجل أرسل إلى ذلك الملك الجبار ملكاً أن آمن وأتركك على ملكك ، قال : فهل رب غيري؟ فجاءه الثانية فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك فأجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه ، فأمر الله تعالى الملك ففتح عليه باباً من البعوض ، وطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها ، فبعثها الله عليهم ، فأكلت شحومهم وشربت دماءهم ، فلم يبق إلا العظام والملك كما هو لا يصيبه من ذلك شيء ، فزاد عتوا واستكباراً ، فبعث الله تعالى عليه بعوضة فدخلت في منخره ، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه ، وكان جباراً أربعمئة سنة ، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه ، ثم أماته^(١) .

وقد ذكر المفسرون أيضاً آثاراً عند قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ، وكذلك عند قوله تعالى : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] ، مفاد هذه الآثار أن المعني بهاتين الآيتين هو نمرود الذي حاج الخليل عليه السلام في ربه قالوا : أخذ ذلك الجبار نسرين صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا ، فأوثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت ، وجوّعهُمَا وقعد وهو ورجل آخر في التابوت ، ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم ، فطارا ، وجعل يقول لصاحبه : انظر ماذا ترى ، قال : أرى كذا وكذا ، حتى قال : أرى الدنيا كلها كأنها ذباب ، قال فصوّب العصا ، فصوبها فهبطا جميعاً .

قالوا : وما فعل ذلك إلا لأنه حلف أن يطلب إله إبراهيم ، فلما رأى أنه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣٢١/١ ، وفتح القدير ٢٨٧/١ ، وذكر الشوكاني أن هذا

المذكور أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة .

قلت : هو في « العظمة » ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ . قال المحقق : مصطفى عاشور ومجدي

السيد إبراهيم : إسناده ضعيف ، فيه عبدالرحمن بن زيد من الضعفاء .

لا يطيق شيئاً أخذ بيني صرحاً عظيماً حتى إذا شيده إلى السماء ارتقى فوقه ،
ينظر كما يزعم إلى إله إبراهيم فأخذ الله تعالى بنيانه من القواعد ، أي : من
أساسه فسقط وخر عليهم من فوقهم وأتاهم عذاب الله من حيث لا يشعرون ،
ثم يوم القيامة يكون الخزي والعذاب الأكبر^(١) .

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٤٤/١٣ ، ٢٤٥ ، ٩٧،٩٦/١٤ ، وتفسير ابن كثير
٥٦٢/٢ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٥٠/٩/٥ ، وفتح القدير ١١٧/١٣ .

سابعاً : تكبر فرعون وقومه وطغيانهم

من هو فرعون؟

اختلف في اسم فرعون ، ف قيل : (فرعون) لقب لكل عات ، وقد تفرعن وهوذ وفرعنة أي : دهاء ومكر . وقيل : هو اسم لكل ملك من ملوك العمالة ، وكل من ولي القبط ومصر فهو فرعون .

وفرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام قيل : إن هذا اسمه ، وقيل : هو قابوس ، وقيل : هو الوليد بن مصعب بن الريان ، وكنيته : أبومرة ، وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان فارسياً من أهل اصطخر . وذكر أنه عمّر أربعمئة سنة أو أكثر . والله تعالى أعلم^(١) .

صور استكبار فرعون من خلال قصصه في القرآن الكريم :

فرعون يجحد الرب جل جلاله ويدعي الربوبية والألوهية

لقد بلغ فرعون في الكفر والتمرد والطغيان درجة تقاصر إبليس اللعين عنها ، ومابلغها قبله إلا نمرود ، فلقد جحد فرعون رب العالمين جل جلاله وأنكره ، وادّعى أنه الرب الأعلى والإله الذي لاإله غيره ، واستخف قومه بذلك فأطاعوه واتخذوه رباً لهم وإلهاً .

هذا الطغيان الفرعوني بينه الحق في كتابه الكريم فقال تعالى مخبراً عن جواب فرعون حين جاءه موسى وهارون عليهما السلام فقالا له كما أمرهما الله تعالى : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] ، : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، وقال تعالى في آية أخرى عن فرعون : ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩] ، بادر فرعون إلى هذا السؤال على سبيل الإنكار والجحد أن يكون رب وإله سواه ، يقول : ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، فسؤال فرعون ليس سؤالاً عن الماهية ، فإنه لم يكن مقراً بالخالق حتى يسأل عن ماهيته ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه^(٢) .

(١) انظر : تفسير البغوي «معالم التنزيل» ٦٩/١ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٦١/١/١ ،

وفتح القدير ٨٢/١ ، ٨٣ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٤٥/٣ .

ومن قول فرعون لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ ، يتبين ما كان فيه فرعون من الأنفة والاستعلاء ، حيث قال له موسى وهارون : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] ، فلم يقل : فمن ربي؟ وإنما قال : فمن ربكما؟ أنفة واستعلاء أن يقر بأن رب موسى وهارون عليهما السلام الذي يدعوانه إلى الإيمان به هو ربه^(١) .

وما اكتفى -لعنه الله- بجحد ربوبية الله للعالمين ، بل تعدى على مقام ربوبيته وإلهيته فادعاهما لنفسه ، فهو الذي يقول لموسى عليه السلام : ﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] ، يتهدده بالسجن إن هو اتخذ الله إلها له دونه ، وهو الذي جمع قومه فنادى فيهم قائلاً : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ، وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] .

وهذا غاية العتو والطغيان من فرعون إذ يقول للملأ من قومه : لاتصدقوا موسى الذي يزعم أن لكم رباً وإلهاً غيري ، فلا إله لكم سواي ، وإصراراً على عتوه يطلب من وزيره هامان عليهما لعنة الله أن يبنى له قصرًا عظيمًا يرقى عليه ليطلع إلى إله موسى الذي يزعمه ، ولا يفعل ذلك إلا ليبين أن موسى كاذب فيما قال ، فليس هناك رب غيره -أحزاه الله- ولهذا قال كما أخبر عنه الحق جل وعلا : ﴿وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ، وما كان إنكار فرعون وجحده لله رب العالمين وادعائه الربوبية والألوهية إلا معاندة واستعلاء وطغياناً ، وإلا فهو مستيقن أنه عبد مربوب لرب خالق بارئ مصور إله حق هو الله رب العالمين^(٢) ، كما قال الله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] ، أي : أن فرعون وقومه لما جاءهم موسى بالبينات من ربه كذبوا بها

(١) انظر : في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٦ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ١/ ٢٣٤ .

مع أنهم مستيقنون في أنفسهم أنها من عند الله^(١)، ولكنهم فعلوا ذلك اعتداءً منهم وتكبراً^(٢)، وهذا يعني أن فرعون مستيقن في نفسه أن الله الذي أنكره ظلماً واستعلاء هو الإله الحق، ولهذا قال له موسى عليه السلام حين كذب بالآيات التي جاء بها من ربه تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء: ١٠٢]، يؤكد موسى عليه السلام لفرعون أنه يعلم أن تلك الآيات التي جاء بها فجحدها هي حق وصدق أنزلها رب السموات والأرض حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به، ولكن حقت كلمة الله أنك من الهالكين المغلوبين^(٣).

فهذه إذا هي أشنع صورة لتكبر فرعون وعتوه، وكل صورة غيرها إنما هي ثمرة لها، فمن زعم أنه رب العالمين وإلههم فلا عجب بعد ذلك من أي فساد يظهره ويحدثه وييديه.

– فرعون وملؤه يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها

يخبرنا الحق جل جلاله أن فرعون عليه اللعنة حين قال له موسى عليه السلام: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥]، كان جوابه: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، فلما أظهر موسى عليه السلام ما أيده به ربه تبارك وتعالى اسمه من المعجزات والآيات كما قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]، سارع فرعون وملؤه إلى تكذيبه، وقالوا: ما هذا الذي جئت به من انقلاب العصى حية عظيمة تسعى، وخروج اليد بيضاء نقية من غير سوء، إلا سحر سحرتنا به، وما أنت إلا ساحر عليم بالسحر، تريد بسحرك هذا أن تخرجنا من أرضنا وتصرفنا عن آلهتنا، وتريد

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/١٧٤، وتفسير ابن كثير ٣/٣٧٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٩/١٤٠.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٧١.

أن يكون لك ولأخيك الملك والسلطان ، ولذا فما نحن لك بمؤمنين ،
ولالقولك مصدقين ولالدينك متبعين .

وفي بيان هذا الذي أشرت إليه يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ
حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٤، ٣٥] .

هذا قول فرعون ، وقال الملاء مثل ما قال ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ
مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ
وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرِمِينَ .
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ
عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنَّهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٩] ، يقول
قوم فرعون بكل عتو وتمرد وعناد للحق وإصرار على الباطل^(١) ، يقولون
لموسى- عليه السلام- مهما جئتنا به من الآيات وأقمت علينا من الحجج فلسنا
نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية^(٢) .

فلما قالوا ذلك نزلت بهم العقوبات الإلهية المبينة ، قال الله
تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ
مَفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ، أي : أرسل الله
تعالى عليهم هذه الآيات البينات : الطوفان ، وهو الماء الغزير المغرق المتلف
للزروع والثمار ، وقيل : هو الموت ، وقيل : هو أمر من الله طاف بهم^(٣) ،
والجراد وهو الحيوان المعروف أرسله الله تعالى لأكل زروعهم فأكلها^(٤) ،

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٠٥ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ١/٢٤٨ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٩/٣١، ٣٢ ، وتفسير ابن كثير ٢/٢٥٠ ، وفتح القدير ٢/٢٣٨ .

(٤) انظر : فتح القدير ٢/٢٣٨ .

والقمل ، وهو : السوس الذي يخرج من الحنطة ، وقيل : هو الدباء ، وهو الجراد قبل أن يطير ، وقيل : البراغيث ، وقيل : دواب سود صغار ، وقيل غير ذلك^(١) ، والضفادع وهو الحيوان المعروف ، والدم ، قيل : سال النيل عليهم دماً ، وقيل : هو الرعاف^(٢) .

فلما أرسل الله تعالى عليهم هذه الآيات كانوا لا يتهنون بعيش أبدأ ، ومع هذا فإنهم لم يؤمنوا ولم يصدقوا كما أخبر الحق سبحانه وتعالى بذلك بقوله : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَّجْرِمِينَ ﴾ ، أي : استكبروا عن الإيمان بالله تعالى ، وتصديق رسوله موسى عليه السلام واتباعه على مادعاهم إليه ، وتعظموا على الله وعتوا عليه ، وكانوا مجرمين يعملون بما يكرهه الله تعالى من الفسق والمعاصي عتوا وتمردوا^(٣) .

ويخبرنا الحق جل جلاله أن قوم فرعون لما نزل بهم هذا العذاب لجئوا إلى موسى عليه السلام طالبين منه أن يدعو الله ربه ليكشف عنهم هذا العذاب ، فإن فعل فإنهم سيؤمنون ويطلقون سراح بني إسرائيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤] ، فدعا موسى ربه تعالى فكشف عنهم العذاب ، فإذا هم لا يوفون بماعاهدوا عليه ربهم ونبههم ، بل يقيمون على كفرهم وضلالهم^(٤) ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوءِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٥] ، فلما نكثوا عهودهم أحل الله تعالى بهم نقمته وعذابه^(٥) ، قال تعالى : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] ، فاستحقوا الإغراق في البحر ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين .

(١) انظر : تفسير الطبري ٩/٣٢، ٣٣ .

(٢) انظر : فتح القدير ٢/٢٣٨ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٩/٤٠ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٩/٤٢ .

(٥) انظر : المصدر السابق .

ونحو هذه الآيات قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ . وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦، ٥٠] .

وما كذب فرعون وقومه بآيات الله وكذبوا رسوله إلا لأنهم كانوا قوماً عالين ، فقد قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَبِشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٤، ٤٨] ، فإذا هو العلو في الأرض بغير الحق ، والأنفة من الانقياد لبشر جعل القوم يستكبرون عن الإيمان بآيات الله ، يقولون : أنؤمن لبشرين مثلنا فتتبعهما ونصبح تابعين بعد أن كنا متبوعين؟ كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما بنو إسرائيل لنا مطيعون متذللون؟ إننا إن فعلنا ذلك رفعناهم فوقنا وصرنا تحتهم ، ونحن اليوم فوقهم عالين عليهم قاهرين لهم وهم تحتنا خاضعين^(١) ، وهم الذين قالوا كما أخبر الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ، والكبرياء هي : العلو والملك والسلطان ، يظنون أن موسى عليه السلام يطلب ذلك ، ولذا فإنهم يكذبونه ولا يؤمنون به حتى لا تكون له الكبرياء دونهم .

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤] .

يبين الحق سبحانه وتعالى أن فرعون وقومه لما جاءهم موسى عليه السلام بآيات الله البينات المعجزات الواضحات الدالات على صدق ما جاءهم به ودعاهم إليه قالوا عنه ساحر ، وقالوا عنها : سحر ، وكذبوا بها ولم يصدقوا ، كذبوا بها في الظاهر مع أنهم كانوا مستيقنين في أنفسهم بأنها حق من الله ،

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٥/١٨ .

ولكنهم كذبوا بها وححدوها ظلماً واعتداءً وتكبراً^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا . قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢]، يخبر الحق سبحانه وتعالى أنه أيد نبيه موسى عليه السلام بتسع من الآيات البينات الشاهدات على صدقه وحقيقة نبوته، فكذب بها فرعون وقال لموسى عليه السلام: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحر، فقال له موسى عليه السلام: لقد علمت يا فرعون واستيقنت في نفسك أنه ما أنزل هذه الآيات حجة لي على حقيقة ما أدعوك إليه وشاهدة على صدق قلبي إله الرب السموات والأرض، لأن ذلك لا يقدر عليه ولا على أمثاله أحد سواه (بصائر) لمن استبصر بهن وهدى لمن اهتدى بهن، يعرف بهن من رآهن أن من جاء بهن فمحقق، وأنهن من عند الله لا من عند غيره إذ كن معجزات لا يقدر عليهن ولا على شيء منهن سوى رب السموات والأرض. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: مغلوباً أو هالكاً أو مبدلاً مغيراً أو مخبولاً لا عقل لك^(٢).

هذه أبرز الآيات التي تبين تكذيب فرعون وقومه بآيات الله البينات التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وتذكر أن سبب تكذيبهم بها هو علوهم وتكبرهم في الأرض بغير حق، وهناك آيات أخرى في هذا المجال قد أغنى عن ذكرها ذكر هذه الآيات. والله أعلم.

فرعون يجمع السحرة لينصروه، ثم يقتلهم لإيمانهم بالله رب العالمين
اتهم فرعون وقومه موسى عليه السلام بالسحر عندما أراهم من الآيات المعجزات مابهرهم وبهتهم، وأخذوا يتشاورون في أمره ماذا يفعلون؟ كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ .

(١) انظر: تفسير الطبري ١٩/١٤٠، وفتح القدير ٤/١٢٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٥/١٧٣ - ١٧٥.

الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج^(١) .

فلما ضرب الموعد وحدد المكان والزمان ، أخذ فرعون يجمع السحرة من مدائن مملكته حتى جمع منهم خلقاً كثيراً قيل : ثمانين ألفاً ، وقيل : سبعين ، وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً^(٢) ، قال الله تعالى : ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٠] .

وحان الموعد فحضر فرعون وأمرأؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم يقولون^(٣) كما ذكر ذلك الله تعالى في كتابه : ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مَجْتَمِعُونَ . لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠] ، ينتظرون فوز السحرة ليتبعوهم ، ولكن الله تعالى غالب على أمره .

وجلس فرعون على سرير مملكته ، واصطف له أكابر دولته ، ووقف الناس يُمَنَّة ويسرة ، وأقبل نبي الله موسى عليه السلام متكئاً على عصاه ومعه أخاه هارون ، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم ، يقولون^(٤) كما بين الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١] ، فيحييهم فرعون بقوله : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٢] ، يمنيهم أن يكونوا من جلسائه المقربين عنده^(٥) .

وقبل أن تبدأ المباراة التفت موسى عليه السلام إلى السحرة منذراً مخوفاً لهم عذاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ [طه: ٦١] ، يقول لهم : لاتخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لاحقائق لها ، وأنها مخلوقة ، وليست كذلك

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٤/٣ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٠، ١٩/٩ ، والبداية والنهاية ٢٣٨/١ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ٢٣٨/١ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٥/٣ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٣٤٦/٣ .

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿[الأعراف: ١٠٩-١١٢] ، وقال تعالى : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٣٤-٣٧] .

يقولون ما للسحر إلا السحر ، فإن كان موسى وأخوه هارون على هذه الدرجة منه ، فأنظرهما وأمهلهما حتى تجمع السحرة من كل المدائن فيقابلوا سحرهما بسحرهم ويكفوننا أمرهما ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾[طه: ٥٦-٥٨] ، يكذب فرعون وقومه بآيات الله البينات ، ويزعمون أن ماجاء به موسى سحر ولذا كان قرارهم أن يعارضوه بمثله فطلبوا من موسى أن يواعدوه إلى وقت معلوم ومكان معلوم ، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ، أي : موعداً لاتعدها لنحيى بسحر مثل الذي جئت به ، فننظر أينما يغلب صاحبه ، لانخلف ذلك الموعد نحن ولا أنت بمكان عدل بيننا وبينك ونصف ، أو مكان مُستَوٍ يتبين للناس مافيه ، فأجابهم موسى عليه السلام إلى ماطلبوا وحدد الموعد : ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[طه: ٥٩] ، ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ ، يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ، ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ ، أي : يساقون ويجمعون من كل ناحية ، ويكون موعد الاجتماع للمناظرة وقت الضحى^(١) ، وأراد موسى عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم ليشاهدوا قدرة الله تعالى على مايشاء ، ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ، واختار عليه السلام وقت الضحى ليكون الحق أظهر وأبين وأجلى ، وهكذا شأن

(١) انظر : البداية والنهاية ٢٣٨/١ : تفسير الطبري ١٦/ ١٧٦ .

فيهلككم الله بعذاب من عنده ، هلاكاً لابقية له^(١) .

وكان السحرة لازالوا في ضلالتهم فلم يؤثر فيهم تخويف موسى عليه السلام وزجره ، بل قالوا : إن موسى وأخاه ساحران عليمان متقنان لهذه الصناعة ، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرأ عليكم بهذه الصناعة^(٢) ، قال تعالى : ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى . قَالُوا إِن هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه:٦٢،٦٣] ، ثم تواصلوا بأن يأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان^(٣) ؛ لتكون لهم الغلبة والعلو ، قال تعالى مبيناً تواصلهم : ﴿فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَصَّفَاءً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ [طه:٦٤] .

واصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم ، وتعلقت بهم أنظار الناس ينظرون لمن تكون الغلبة ، بل ينتظر أكثرهم انجلاء الموقف عن نصر مبین للسحرة وغلبة أكيدة لموسى وهارون عليهما السلام ، ولكن كما يقول ابن كثير : «وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنى يعارض البهتان والسحر والهديان ، خوارق العادات التي أجراها الديان على يد عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذي يهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان»^(٤) .

وحانت لحظة الحسم ، فقال السحرة لموسى عليه السلام إما أن تلقي قبلنا أو نلقي قبلك ، أي : إما أن تبدأ فتبدي ما عندك أو نكون نحن الذين نبدأ ، فقال لهم موسى : كونوا أنتم البادين ، قال الله تعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه:٦٥،٦٦] ، أي :

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٥/٣ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ٢٣٨/١ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ٢٣٨/١ .

(٤) البداية والنهاية ٢٣٩/١ .

أَلْقُوا أَنْتُمْ أَوَّلًا ، لنرى ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جليلة أمركم^(١) .
 وكان السحرة قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزئبق وغيره من
 الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها
 تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك وعندما قال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا
 مَا أَنْتُمْ مَلْقُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٣] ، ألقوا تلك الحبال والعصي وهم يقولون : بعزة
 فرعون إنا لنحن الغالبون ، وسحروا أعين الناس بما فعلوا واسترهبوهم بما
 صنعوا ، عندما خيل لهم أن تلك الحبال والعصي ^{تتحرك} وهي كثيرة كما قيل : أن كل
 ساحر ألقى بحبل وعصا ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا
 بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا
 أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦] .
 فلما رأى موسى عليه السلام هذا السحر العظيم خاف أن يفتن به الناس
 قبل أن يلقي مافي يده ، فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر^(٢) ، قال تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ
 أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي
 نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ [طه: ٦٦، ٦٧] ، فأوحى الله إليه عندها وأمره أن يلقي عصاه ،
 قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ
 مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩] .
 وألقى موسى عليه السلام عصاه كما أمره ربه فإذا هي حية عظيمة ، ذات
 قوائم وعنق عظيم ، فأقبلت على ما ألقوه من الحبال والعصي ، وجعلت تلتفقه
 واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون
 منها ، حتى أتت على جميعه^(٣) ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ
 عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧] ، ورأى السحرة ما هالهم
 وحيرهم في أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن في بالهم ولا يدخل تحت
 صناعتهم ، وعندها تحققوا بما عندهم من العلم أن الذي جاء به موسى عليه
 السلام ليس بسحر ولا خيال ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٦/٣ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ٢٣٩/١ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ٢٣٩/١ .

الذي ابتعث هذا المؤيد بالحق، وكشف الله تعالى عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى فأنابوا إلى ربهم وخرروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى^(١)، آمنوا بالله رب العالمين كما قال تعالى في بيان ذلك: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧، ١٢٢] .

فلما سجد السحرة لله رب العالمين وآمنوا به أسقط في يد فرعون ورأى أن كبريائه وعزته خدشت ويوشك أن لا تكون، فقام يرغي ويزبد ويهدد ويتوعد، ويمكر ويكيد ويكذب ويفتري^(٢)، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩] .

ففي هذه الآيات إخبار من الحق جل وعلا عن كفر فرعون وعناده وبغيه واستعلائه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى مارأى من المعجزة الباهرة والآية الظاهرة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم، وقال آمنتهم له فصدقتموه وسجدتم لربه قبل أن آذن لكم وما أمرتكم بذلك، ثم قال قولاً يعلم هو ومن حضر الموقف جميعاً أنه بهت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ﴾، يعني بذلك موسى

(١) انظر: البداية والنهاية ٢٣٩/١ .

(٢) انظر: البداية والنهاية ٢٣٩/١ .

عليه السلام وأنهم تعلموا السحر وتلقوه عنه ، ثم اتفقوا سوياً عليه وعلى رعيته ليظهر موسى عليهم^(١)، ولهذا قال : ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] ، يقول : إنها لخدعة خدعتم بها من في مدينتنا لتخرجوهم منها^(٢) ، وقوله : إن السحرة تعلموا السحر من موسى واتفقوا عليه كذب وبهتان وهذيان يعلمه كل من حضر ذلك الموقف ، فإنهم يعلمون أن موسى عليه السلام لم ير هؤلاء السحرة يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ، من حواضر بلاد مصر والأطراف ومن المدن والأرياف^(٣) ، فكيف يتفق معهم موسى عليه السلام ومارآهم ولا رأوه إلا في ساحة المبارزة؟ لكن فرعون يقول ذلك مكرراً وخداعاً وإفلاساً من كل حجة وبرهان ، خشية أن يؤمن الجميع بموسى عليه السلام فيذهب عنه عزه وجاهه وسلطانه .

وهكذا هم المستكبرون دائماً حين تفلت أزمّة الأمور من أيديهم ولا يستطيعون مقارعة الحجة بالحجة يلجئون إلى الكذب والبهتان والمكر والهذيان ، ثم يدركون أن ذلك لن يجدي نفعاً بعد أن انكشفوا وخلعت عنهم أفعنة الزيف والباطل التي كانوا يتسترون بها ، فيلجئون إلى الإزباد والإرعاد والتهديد والوعيد ، فإذا لم يفد ذلك أطلقوا أيديهم في المؤمنين والمصلحين بطشاً وتنكيلاً وتعذيباً وتقتيلاً ، وذلك كما فعل فرعون بالسحرة حين آمنوا بالله رب العالمين .

لكن النفوس حين يخالطها الإيمان ترتفع وتسموا فلا تغريها شهوة ولا يفتنها بلاء ، وهذا ما فعله الإيمان في نفوس أولئك السحرة ، فما أثر فيهم ولافتنهم تهديد الطاغية عن إيمانهم بالله ، بل آثروا الآخرة على العاجلة ، واختاروا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة ؛ لأن الأول عذاب قليل تعقبه سعادة الأبد ، والآخر عذاب مقيم فيه شقاء الأبد ، فردوا على تهديد فرعون بقولهم

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٣/٩ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٣/٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ٢٤٠/١ .

كما أخبر الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . وَمَا نُنْقِصُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦] ، وقال تعالى : ﴿قَالُوا لَنْ نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٢-٧٦] ، وقال تعالى : ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١] .

يقول السحرة لفرعون وقد توعدهم بما توعدهم به من القتل والصلب وقطع الأرجل والأيدي من خلاف : لاحرج ولا يضرنا ذلك ولانبالي به^(١) ، فإن منقلبنا ومرجعنا ومصيرنا إلى ربنا الذي آمننا به واتبعنا رسوله وصدقنا بآياته فنقمت منا ذلك وتوعدتنا عليه بما توعدتنا ، وقد تحققنا من رجوعنا إليه ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله أنكى من نكالك على ماتدعوننا إليه اليوم وماأكرهتنا عليه من السحر ، فلنصبر اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله^(٢) ، إنا يافرعون قد آمننا بالله ربنا وخالقنا فلن نؤثرَكَ فتبعك ونكفر بربنا ونكذب بآياته ، فاصنع ماأنت صانع وافعل بنا ماأنت فاعل ، فإنما سلطانك في هذه الحياة الدنيا الفانية ، فأنت تقدر أن تفعل بنا إن شاء ربنا ماقلت ، ثم لاسلطان لك بعد ذلك فافعل في دنيانا ماابدا لك ، فإننا قد رغبنا في دار القرار وآثرناها على دار الفناء والبوار^(٣) ، يافرعون لقد آمننا بربنا ليغفر لنا ذنوبنا ويكفر عنا سيئاتنا التي منها ماأكرهتنا عليه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٣٤٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٣٤٧ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٦/١٨٩ ، وتفسير ابن كثير ٣/١٦٧ .

من السحر وقد قيل : إنه هو الذي أمرهم بتعلمه^(١) ، والله خير منك إن أطعناه وأبقى منك عذاباً إن عصيناه^(٢) ، يافرعون إنه من يأت ربه يوم القيامة كافراً به فإن جهنم مسكنه ومأواه يعذب فيها لا يموت فينتهي عذابه ولا يحيا حياة طيبة ، يافرعون إنه من يأت ربه يوم القيامة مؤمناً به قد عمل مأمراً به وانتهى عما نهاه عنه فأولئك لهم الدرجات العلى في جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد ولا فناء لها ، خالدين مخلدين في تلك الجنات التي تجري من تحتها وتحت أشجارها الأنهار ، جزاء لهم على تطهرهم من دنس الذنوب ورجس المعاصي^(٣) .

ثم لانسى فزعهم والتجاوزهم إلى الله تعالى وفرعون قد تهددهم بذلك البطش والتكيل ، فقد قالوا كما جاء عنهم في كتاب الله تعالى : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] ، يفوضون أمرهم إلى ربهم جل جلاله له طالبين منه عز وجل أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين : (ربنا أفرغ علينا صبراً) أي : أصببه علينا حتى يفيض ويغمرنا ، طلبوا أبلغ أنواع الصبر استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله ، وتوطينا لأنفسهم على التصلب في الحق وثبوت القدم على الإيمان ، ثم قالوا : (وتوفنا مسلمين) أي : توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين^(٤) .

هذه قصة فرعون والسحرة بشكل موجز ، وهي قصة يظهر فيها استعلاء فرعون وجبروته وتكبره وغروره ، فقد جاءته آيات الله البينات وانجلى له الحق أمام ناظريه ، فما أذعن ولا استسلم له ، بل ما قبل أن يذعن غيره ففعل ما فعل بالسحرة حين آمنوا بالله رب العالمين وخروا له ساجدين .

فرعون وملؤه يطفون على بني إسرائيل :

ولطغيانهم هذا صورتان :

(١) انظر : تفسير الطبري ١٨٩/١٦ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٨٩/١٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٩٠/١٦ ، ١٩١ .

(٤) انظر : فتح القدير ٢/٢٣٥ .

أ - العلو عليهم وقهرهم بالسلطان ، واستضعافهم وجعلهم عبيداً وخداماً يصرفونهم في الأعمال الشاقة والرديئة دون أن يعطوا أجراً على ذلك .

ب - قتل أبنائهم واستحياء نسائهم .

قال الله تعالى ممتناً على بني إسرائيل : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦] .

وقال تعالى آمراً نبيه موسى وهارون عليهما السلام وهو يرسلهما إلى فرعون : ﴿فَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ﴾ [طه: ٤٧] ، وقال تعالى إخباراً عن نبيه موسى عليه السلام أنه قال لفرعون : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] .

وقال تعالى يصف فرعون عليه اللعنة : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١] .

فمن هذه الآيات البينات يتبين ما كان الإسرائيليون يعانونه من الذل والاضطهاد والقهر والاستعباد من الأقباط ، فرعون وقومه ، فلقد سلط الله تعالى عليهم هذا الملك الجبار العتيد الطاغية الباغي يستعملهم في أحسن الأعمال وأشقها ، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبنائهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً وإمعاناً في إذلالهم واستضعافهم^(١) .

وكما هو ظاهر الآيات القرآنية فقد ذكر أهل التفسير أن قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم فعله فرعون وقومه مرتين ، مرة قبل بعثة موسى

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٢ .

وأخرى بعدها ، ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام كما أخبر الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٩] .

وقد كان سبب قتل الأبناء واستبقاء البنات في المرة الأولى خوف فرعون وأهل مملكته من أن يوجد الغلام الذي كان ينتظره بنو إسرائيل منهم ، ويكون سبب هلاك فرعون وذهاب ملكه ودولته على يديه ، قالوا : وهذا أمر كان قد تلقاه القبط من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسون من أن إبراهيم عليه السلام بولد من صلبه وذريته يكون هلاك مصر على يديه ، وكذلك قالوا : إن فرعون لعنه الله رأى رؤيا أفزعته وخوفته ، ففسرها له الكهنة بأن غلاماً من بني إسرائيل يولد فيكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، وعندها عمد فرعون عليه لعنة الله إلى قتل الذكور من بني إسرائيل حتى لا يولد ذلك الغلام^(١) ، وهذا غاية الحمق من فرعون ، فإن كان الكهنة صادقين عنده فيما قالوا فما ينفع القتل ؟ وإن كانوا كاذبين فلامعنى له^(٢) .

أقول : وإذا قضى الله تعالى أمراً أن يكون ، فإنه كائن رغم أنف كل طاغية ومتجبر ، سبحانه الحق إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

ولأن حكم الله نافذ لا مانع له فقد ولد المولود الذي تخوفه فرعون وحذره وقتل بسببه من الولدان ما الله به عليم ، بل كان منشؤه ومرباه على فراشه وفي داره ، وغذاؤه من طعامه ؛ ليعلم وكل طغاة الأرض أن رب السموات والأرض هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن^(٣) ، وكان هذا الغلام هو موسى عليه السلام .

وأما المرة الثانية التي قتل فرعون فيها أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم فقد كانت بعد بعثة موسى عليه السلام وبعد أن آمن السحرة برب العالمين بعد تلك المناظرة العظيمة التي جرت بينهم وبين موسى عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

(١) انظر : البداية والنهاية ١/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) انظر : فتح القدير ٤/ ١٥٩ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٢ .

وَيَذَرُكَ وَالْهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ [الأعراف: ١٢٧] ، يقول الملأ من قوم فرعون له : أتدع موسى وقومه من بني إسرائيل كي يفسدوا خدمك وعبيدك عليك في أرضك من مصر ، ويدع موسى خدمتك وعبادتك وعبادة آلهتك^(١) ، وقد قيل : إن فرعون كان يعبد بقرة ، وقيل : كان يعبد النجوم ، وقيل : كان له أصنام يعبدها قومه تقرباً إليه فنسبت إليه ، ولهذا قال : أنا ربكم الأعلى^(٢) ، قال اللعين : ستقتل أبناءهم ونستبقي نساءهم^(٣) ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ، أي : مستعلون عليهم غالبون قاهرون لهم ماشئنا أن نفعله بهم فعلناه^(٤) .

إنهم بفعلهم هذا يريدون إذلال وإهانة من يتبع موسى عليه السلام على دينه ويريدون أن يصدونهم بهذا التهديد والوعيد عن الإيمان بالله رب العالمين ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٣-٢٥] .

فرعون يمتن على موسى عليه السلام ويهزأ به ويستصغره ويتوعده بالسجن ويتهده بالقتل

جاء موسى عليه السلام إلى فرعون عليه اللعنة يبلغه رسالة ربه ، ومعه أخوه هارون ، فقالا له بأمر الله ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧] ، أي : أرسلنا رب العالمين إليك يأمرك أن تطلق بني إسرائيل من أسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباده المؤمنون ، وهم معك في العذاب المهين ، فلما قالوا له ذلك أعرض عن هارون والتفت إلى موسى ناظراً إليه بعين الازدراء والغمص قائلاً : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٤/٩ .

(٢) انظر : فتح القدير ٢٣٤/٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢٧، ٢٦/٩ .

(٤) انظر : فتح القدير ٢٣٥/٢ .

يقول : ألسنت أنت الذي ربنا فيه وفي بيتنا وعلى فراشنا وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم قابلت إحساننا بقتل رجل منا وكنت بفعلتك هذه من الجاحدين لنعمتنا عليك^(١) ، فلما قال ذلك أجابه موسى بأن ذلك الفعل كان منه في حال جهله قبل أن يوحى إليه وينعم عليه ربه بالرسالة : ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢] .

قيل : كان هذا من موسى على جهة الإقرار بالنعمة^(٢) ، كأنه قال : نعم هي نعمة منك إلي مقابل ما كنت تفعله ببني إسرائيل من القهر والاستعباد^(٣) ، لكن ذلك لا يدفع رسالتي^(٤) ، فيجعلني أترك تبليغها كونك أنعمت علي صغيراً . وقيل : كان هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ، أي : أتمن علي بأن ربيتنني صغيراً وأنت قد استعبدت قومي وقتلتهم^(٥)؟ وما إحسانك إلي مقابل إساءتك إلي قومي؟ أفيفضي إحسانك إلي رجل واحد منهم بما أسأت إلي مجموعهم؟ فليس مافعلته بي شيئاً يذكر مقابل مافعلته بهم^(٦) . وبلغ استخفاف فرعون بموسى عليه السلام أن توعدته بالسجن إن عبد غيره : ﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] ، وكان هذا من فرعون حين انقطع عن الحجة فإنه رجع إلى الاستعلاء ، فتوعد موسى بالسجن ، قيل : وكان سجن فرعون أشد من القتل ؛ لأنه إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت^(٧) .

وإنها لسبيل يسلكها الطغاة المستكبرون في كل أوان حين تقوم عليهم

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٣٤٤ .

(٢) انظر : فتح القدير ٤/٩٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٩/٦٨ .

(٤) انظر : فتح القدير ٤/٩٦ .

(٥) انظر : فتح القدير ٤/٩٦ .

(٦) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٣٤٥ .

(٧) انظر : فتح القدير ٤/٩٨ .

حجج الدعاء المصلحين ، فلا يملكون إلا أن يرغبوا ويزيدوا ويتهددوا ويتوعدوا ، لعل ذلك يخيف أهل الحق ، فيسلموا لهم القياد ، وحين لا يجدي ذلك ينتقلون من المقال إلى الفعال فيطلقون زبانتهم المسعورين يفعلون العجائب في أهل الحق الميين .

وبعد التهديد بالسجن يتهدد فرعون موسى بالقتل كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُدَلِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] .

استخفاف إثر استخفاف من الطاغية اللعين ، يقول : اتركوني أقتل موسى وليدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا^(١) ، فلإني لا أبالي به^(٢) ، وليمنعه ربه من القتل إن قدر عليه^(٣) .

وليس هذا فحسب ، بل يصير فرعون واعظاً مذكراً يشفق على الناس من موسى^(٤) .

يقول معللاً عزمه على قتل موسى عليه السلام ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُدَلِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ ، أي : أخشى أن يوقع موسى بين الناس الفتنة والخلاف والفرقة وأن يضلهم ويغير رسومهم وعاداتهم بدينه الذي جاء به .

وباللعجب : فرعون شر الخلق بطغيانه وعتوه على ربه جل جلاله وتعديه على مقام ربوبيته وألوهيته واستعباده للناس بغير حق وقهرهم وقتل أبناءهم واستحياء نسائهم ، فرعون بكل هذا الجبروت مصلح مشفق ناصح ، يريد الخير والصالح للناس ، ويعمل على إسعادهم ، بينما رسول الله موسى عليه السلام وقد جاء بالبينات والنور من ربه تعالى ليهدي الناس بإذن الله إلى الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى الرضوان والنعيم ، وبقية عذاب الجحيم ، موسى عليه السلام بما جاء به من الهدى والنور هو في زعم فرعون

(١) انظر : فتح القدير ٤/ ٤٨٨ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٨٣ .

(٣) انظر : فتح القدير ٤/ ٤٨٨ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٨٣ .

مفسد يبغي الفساد في الأرض ، فالفساد عنده أن يعمل بطاعة الله^(١) .
ولكن لا عجب أن يزعم الطاغية مازعم فدخان كبره قد ران على قلبه
وبصيرته ، فعاد أعمى لا يرى الحق والصالح والخير إلا باطلاً وفساداً وشرّاً .
وفي الحقيقة أن هذا من فرعون هذيان ومكر يهدف من ورائه أن يبقى له
العلو في الأرض ، فإنه يدرك أن الناس إن آمنوا بموسى واتبعوه خلعوا عنهم
ربقة العبودية والخضوع له ، فعاد ذليلاً مهيناً بعد أن كان يزعم أنه الرب والإله
الأعلى .

والأمر لا يختص بفرعون لعنه الله ، بل كل طغاة الأرض هذا دأبهم
يشوشون ويمكرون ، يلبسون الباطل لباس الحق ، والحق لباس الباطل ،
يتهمون الدعاة والمصلحين بالتخريب والإفساد ، ويظهرون أنفسهم في مقام
المصلحين ، والحق أنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ولا يعلمون .

ولما كان هذا الفعل من فرعون هو فعل المتكبرين بادر موسى عليه
السلام فلجأ إلى ربه وخالقه ذي القوة والحول والطول والاقترار سبحانه
وتعالى ، فقال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧] .

واستمر فرعون يستخف قومه بما يموه عليهم من زخرف القول ، فبعد أن
سمع نصيحة المؤمن من قومه الذي قال كما أخبر الحق تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ
مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ
بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَأْقُومُ لَكُمْ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ
جَاءَنَا ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩] .

لما سمع فرعون ماقاله الرجل المؤمن من النصيح الصحيح قام يمكر
ويراوغ قومه ، يظهر لهم أنه لهم من الرعاية والنصيحة بمكان أمين ، وأنه
لا يريد بهم إلا كل خير ونفع^(٢) ، قال : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ ، أي :

(١) انظر : تفسير الطبري ٥٧/٢٤ .

(٢) انظر : فتح القدير ٤٨٩/٤ .

مَا أَقُولَ لَكُمْ وَمَا أَشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي ۖ ﴿١﴾ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ۖ ﴿٢﴾ أَي : وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والرشد ١ .

ومن صور استخفاف فرعون بنبي الله موسى عليه السلام أنه وصفه
بالمهين وغمزه بما في لسانه من الثقل ، فقال كما أخبر الله تعالى : ﴿ وَنَادَى
فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن
تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ
يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢] ، يعني : حقير ولا يكاد يفهم ما يقول .

وكذب فرعون اللعين ، بل ليس الحقير المهين سواه ، أما موسى عليه
السلام فرسول رب العالمين ، الكريم الرفيع الصادق البار الراشد ٢ .

ومن صور ذلك الاستخفاف وصف فرعون موسى عليه السلام بالسحر
والجنون ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذِ ارْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ
مَّيِّينَ . فَتَوَلَّىٰ بِرْكَئِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩] .

من قمة الاستكبار إلى قاع البحار

بعد كل ذلك التمرد والعتو والطغيان من فرعون ومن استخفهم من قومه
فأطاعوه ، كان لابد أن يحيق بهم استكبارهم كما حاق بالمستكبرين قبلهم
استكبارهم : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ
الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣] .

ولما أراد الله عز وجل أن يهلك فرعون ومن معه أوحى إلى نبيه وكليمه
موسى عليه السلام أن يخرج بعباده المؤمنين بني إسرائيل ليلاً مخبراً إياه بأن
فرعون سيلحق بهم ليوقع بهم ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ أَهْلَ
بِعَادِي إِنَّكُمْ مَّتَّبِعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢] ، وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي
لَيْلًا إِنَّكُمْ مَّتَّبِعُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣] .

وفعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه ، فخرج ببني إسرائيل في جنح

تد :

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٥/٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٤٠/٤ .

الظلام، فعلم فرعون بمسيرهم، فجمع جيشه وأتباعه من كل مكان، وقام فيهم خطيباً: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦]، يقول: هؤلاء الهاربون جمع وطائفة حقيرة قليلة، وقد غاظونا بخروجهم من غير إذننا، ونحن جمع كثير مستعدون متيقظون^(١).

وانطلق فرعون وجنوده خلف موسى عليه السلام وبني إسرائيل، فلحقوا بهم عند شروق الشمس، ورأى كل فريق الآخر، ونظر بنو إسرائيل أمامهم فرأوا البحر، ونظروا خلفهم فرأوا فرعون وجنوده، فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، البحر أمامنا، وفرعون خلفنا، لن نفلت من فرعون، سيلحق بنا، فيقتلنا، فلا طاقة لنا به وبقنوده^(٢).

قالوا ذلك حين قاسوا الأمر بمقياس أهل الدنيا، فالأمر بالنسبة لهم واضح لالبس فيه، فماذا تصنع شردمة قليلة يتبعها جيش جرار؟ لكن موسى عليه السلام واثق من معية الله، عالم بقوته وقدرته، مؤمن بأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد وعده سبحانه وتعالى وهو لا يخلف الميعاد، لهذا قال بلسان الواثق بربه المتوكل عليه المحتمي بحماه: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، أي: ليس الأمر كما ذكرتُم، إن معي ربي، ومن كان الله معه لن يخيب أبداً، إن ربي سيهدين لطريق النجاة من فرعون وجنوده^(٣).

وصدق كليم الله تعالى عليه السلام، فما كان الله ليسلمه لعدوه، ولهذا جاءه الفرج منه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

ضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه كما أمره الله، فإذا البحر ينفلق اثنتي عشرة فلقة على عدد أسباط بني إسرائيل، وتقف الأمواج على جوانب

(١) انظر: فتح القدير ٤/١٠٠، ١٠١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٩/٧٩، وفتح القدير ٤/١٠١.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٩/٧٩.

سبحان ربك رب العرش العظيم

تلك الطرق كالجبال الشامخات^(١)، فيسلك بنو إسرائيل تلك الطرق لينجوا
بإذن ربهم من فرعون وقومه .

ووصل فرعون وقومه فرأوا البحر قد انفلق لبني إسرائيل ، فجازوا فيه إلى
الجنب الآخر ، فدخلوا فيه متبعين لهم ، حتى إذا اكتملوا دخولاً فيه أطبقه الله
عز وجل عليهم ، فكانوا من المغرقين ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ
أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦] .

وهنا تنجلي الحقيقة فلا يملك ذلك الجبار الذي كان يزعم أنه الرب
الأعلى والإله الأوحده أن يدفع عنه عذاب الله ، تتقاذفه أمواج البحر ويعاين
الموت والهلاك ، فلا يملك إلا أن يطلق صيحة الاستغاثة ، قال الله
تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا
حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] ،

أهذا ذلك الطاغية العاتي؟ أهذا فرعون الذي قال للناس : أنا ربكم
الأعلى ، وقال : ما علمت لكم من إله غيري؟ الآن يعلن إيمانه قائلاً : ﴿ لَا إِلَهَ
إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، الآن يقرّ بربوبية رب
العالمين ، والذي أنكره وجحدته من قبل ، وقال : وما رب العالمين؟

ولهذا جاء جواب استغاثة : ﴿ آلاَ وَكَذَٰلِكَ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩١، ٩٢] .

إنها لحظات لا ينفع فيها نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت
في إيمانها خيراً ، فلقد علت فرعون أمواج البحر وغشيته سكرات الموت ،
والأمر هنا كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ
وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٨] .

فمعنى قول الله تعالى : ﴿ آلاَ وَكَذَٰلِكَ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، الآن تقر لله بالعبودية وتستسلم له بالذلة وتخلص له الأولوية ،

(١) انظر : تفسير الطبري ٨٠/١٩ .

وقد عصيته في حال صحتك وعافيتك قبل نزول نعمته بك وكنت من
المفسدين في الأرض ، فهلا وأنت في مهل وباب التوبة مفتوح لك ، أقررت
بما أنت به الآن مقر^(١)؟ إن هذا لن يغني عنك من الله شيئاً .

وانتهت هذه القصة من العتو والاستكبار بأن أهلك الله عز وجل الطاغية
المتكبر فرعون وحزبه ، وجعلهم آية للاعتبار ، كما قال الله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ
نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] ، قيل : المعنى : أن الله
تعالى نجى بدن فرعون ، فألقاه البحر على نجوة^(٢) من الأرض دون سائر من
أهلك من قومه ، وذلك ليكون علامة يعرف بها بنو إسرائيل هلاكه وموته ،
وذلك أنهم كما قيل : لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنًا من
ذلك .

وقيل المراد : ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ ، أي : ليكون طرحك على
الساحل دون المغرقين من قومك آية من آيات الله يعتبر بها من يخلفك من
بعدك من الناس ، أو يعتبر بها كل من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك ، حتى
يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله تعالى وعلى رسله وآياته ، والسعي
في الأرض بالفساد ، فهذه عاقبته القبيحة^(٣) .

ولما كان الناس تغلب عليهم الغفلة قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِّ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢] ، ليكون في ذلك دلالة على أن
الاستكبار والطغيان في الأرض بغير الحق لن ينتهي بإهلاك فرعون ، بل سيُطِل
برأسه البشع ووجهه الخبيث كلما غفل الناس عن آيات الله «التي توجب
الاعتبار والتفكير وتوقظ من سنة الغفلة»^(٤) .

فالطغاة يمرون على تلك العبر والآيات وهم معرضون ، قلوبهم ميتة
لا حياة لها ، وبصائرهم مطموسة لانور بها ، كما قال الله تعالى : ﴿صُمُّ بُكْمٌ
عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] .

(١) انظر : تفسير الطبري ١٦٤/١١ .

(٢) مكان مرتفع .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٦٤/١١ ، وفتح القدير ٤٧٠/٢ .

(٤) فتح القدير ٤٧١/٢ .

وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

ثامناً : تكبر قارون

من هو قارون؟

ذكر الله جل جلاله في كتابه الكريم أن قارون كان من قبيلة وعشيرة نبيه وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] ، وقد جاء عن بعض السلف الصالح عليهم رضوان الله أن قارون ابن عم لموسى عليه السلام ، وأن اسمه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب^(١) ، وعلى هذا أكثر أهل العلم كما ذكر ذلك ابن جرير عن ابن جريج ، وقيل : كان عمّاً لموسى عليه السلام^(٢) . والله أعلم .

قصة تكبر قارون من القرآن الكريم

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ

(١) انظر : تفسير الطبري ١٠٥/٢٠ ، وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وعبدالله بن

الحرث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج . انظر : البداية

والنهاية ٢٨٨/٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٠٥/٢٠ ، وهو قول ابن إسحاق كما ذكر ذلك الطبري .

لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[القصص: ٧٦-٨٤] .

تبين هذه الآيات القرآنية الكريمة وتقرر أن قارون هو من عشيرة نبي الله تعالى موسى عليه السلام، وقومه بني إسرائيل، وأنه سلك مع قومه مسلك البغي عليهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾، وكيف بغى قارون على قومه؟ هذا ما لم تحدد له الآيات البيّنات صورة معينة، بل ذكرت أنه بغى عليهم، وأطلقت البغي وجعلته مجهولاً ليشمل شتى صوره وأشكاله، وقد ذكر أهل التفسير بعض صور بغى قارون على قومه، فقالوا: (بغى عليهم) أي: تجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم، وقيل: خرج عن طاعة موسى وكفر بالله تعالى، وقيل: بغيه على بني إسرائيل استخفافه بهم بكثرة ماله وولده، وقيل: زاد في ثيابه شبراً تطاولاً عليهم وترفعاً، وقيل: كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم، وقيل: بغيه بنسبة ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته^(١).

قلت: وهذه كلها من صور البغي التي ليست ببعيدة على قارون، وعلى سائر المتكبرين.

قال صاحب الظلال: «ولا يذكر فيم كان البغي ليدعه مجهلاً يشتمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال، حق الفقراء في أموال الأغنياء، كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم، ومن حولهم محاويج إلى شيء منه، فتفسد القلوب، وتفسد الحياة، وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب»^(٢).

وبينت الآيات الكريمة أن السبب الذي دعا قارون إلى هذا البغي على قومه هو المال الكثير الذي أعطاه الله تعالى له ومتعه به، كما قال سبحانه

(١) انظر: تفسير الطبري ١٠٦/٢٠، تفسير البغوي ٤٥٤/٣، تفسير ابن كثير

٤٠٩/٣، فتح القدير ١٨٥/٤، ١٨٦، وقد جمع كل هذه الأقوال.

(٢) في ظلال القرآن ٢٧١١/٥.

وتعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾،
فما أوتي قارون كنزاً واحداً بل كنوزاً كثيرة، حتى إن مفاتيح هذه الكنوز يعيى
الرجال الكثيرون الأشداء عن حملها وتثقل كواهلهم، فلا يستطيعون حملها
إلا بتعب ومشقة، وقد ذكر أن تلك المفاتيح كانت من الجلود وكانت تحمل
على ستين بغلاً، ما يزيد كل مفتاح منها على أصبع، لكل مفتاح منها كنز^(١)،
والله تعالى أعلم.

وتقرر الآيات الكريمة أن قارون كان مزهواً بماله أشراً بطراً ناسياً بالمنعم
غير شاكر له على نعمته، كما أنه كان غير محسن في ماله ولا مؤد لحق الله
فيه، بل هو باغ مفسد، متطاول بكنوزه متفاخر بها على العباد، ولذلك فإن
النصحاء الصالحين من قومه لما رأوه على هذه الحال قاموا يعظونه ويذكرونه،
وقالوا له على سبيل النصيح والإرشاد كما بين ذلك الحق سبحانه وتعالى
بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ
اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

هذا مانصح به الصالحون من قوم قارون، فنصحوه أولاً بأن لا يفرح
بكنوزه وأمواله فرح البطرين الأشقرين المعتزين بزينة وزخرف الحياة الدنيا،
الذين تبطروهم النعمة فينسون المنعم وما يجب له على نعمته من الحمد والثناء
والشكران، ويستخفهم المال والمتاع الزائل فتشغل به قلوبهم وتطير له
ألبابهم، فيتطاولون به على العباد، وينسون مافيه من الحقوق والواجبات،
مغترين به ظانين أنه دائم لهم وأنهم فيه مخلصون، ينصحونه بأن يترك هذا
الفرح الباغي مذكرين له أن الله عز وجل لا يحب الفرحين على هذا الحال.

وهنا ينبغي أن نتنبه إلى أن الفرح بنعمة الله تعالى المقرون بالحمد والثناء
وأداء الحقوق وبالتواضع والاستكانة للخالق والمخلوق لا يدخل تحت هذا
النهي عن الفرح، فإن الفرح المنهي عنه إنما هو كما تبين لنا هو فرح البطر
والأشر الذي لا تواضع فيه ولا سكينة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

(١) انظر: تفسير الطبري ١٠٦/٢٠، ١٠٧.

وبعد أن نصحوه بهذه النصيحة بينوا له المنهج السوي الذي ينبغي له أن يسلكه فيما آتاه الله تعالى من المال ، وهذه ثاني نصائحهم له ، فقالوا له كما أخبر الله تعالى بذلك بقوله : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] ، يقولون له : اطلب فيما أعطاك الله من المال الدار الآخرة ، فاستعمل هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة^(١) .

ثم يقولون له : وأنت تطلب الدار الآخرة في مالك فلا تنس ولا تضع حظك من الحياة الدنيا ، بل تناول منها بمالك ما أباح الله لك ، وتمتع بالملاذ الطيبة الحلال من كل مأكّل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح^(٢) .

ثم نصحوه ثالثاً بقولهم ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ، يذكرونه أن ما يبيده من المال إنما هو إحسان من الله تعالى إليه ، فاللائق به أن يقابل الإحسان بالإحسان ، لا بالكفر والطغيان ، قال صاحب الظلال : «فهذا المال هبة من الله وإحسان ، فليقابل بالإحسان فيه ، إحسان التقبل وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران»^(٣) .

ونصحوه رابعاً بقولهم : ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ، وهي تنمة ما قبلها من النصائح ، يقولون له : ولا تتجبر وتبطر بمالك فتسعى في الأرض فساداً ، والمعنى بالفساد في الأرض كل صورته وألوانه ، ولهذا أطلق ولم يحدد ، قال صاحب الظلال : ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ ، الفساد بالبغي والظلم ، والفساد بالمتاع المطلق ، والفساد بإنفاق

(١) انظر : تفسير الطبري ١١٢/٢٠ ، وتفسير ابن كثير ٤١٠/٣ ، وفتح القدير ١٨٦/٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤١٠/٣ ، والبداية والنهاية ٢٨٨/٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٧١١/٥ .

المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال»^(١) .

وقد قيل : ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ ، اي : لاتعمل فيها بمعاصي الله^(٢) .

إذاً هذا هو المنهج السوي الذي ينبغي على صاحب المال أن يلتزمه ، وهو أن يطلب به مرضاة الله والدار الآخرة مع عدم نسيانه حظه من حياته الدنيا ، الحظ الحلال الطيب من غير أشر ولا بطر به ، ولأناسٍ حق الله تعالى وحق عباده فيه ، مبتغ به الصلاح لا الفساد في الأرض ، فمن سلك هذا الطريق ولزم هذا المنهج فاز وأفلح ، ومن حاد عنه خاب وخسر ، وهذا ماتسفر عنه هذه القصة فلنكمل تفاصيلها .

كان قارون قد بلغ من البغي والكبر عتياً ، وشأن الكبر أن يمنع صاحبه من قبول نصح ناصح ، والإصغاء لتذكير واعظ ، فإنه قال مخاطباً الناصحين له : ﴿إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ، مقالة تنفث كبراً وغروراً ، يقول : «إنما أوتيت هذه الكنوز على فضل علم عندي علمه الله مني ، فرضي بذلك عني ، وفضلني بهذا المال عليكم ، لعلمه بفضلي عليكم»^(٣) ، فأنا لأحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشترتم^(٤) ، يقول صاحب الظلال عند هذه الآية : «إنما أوتيت هذا المال استحقاقاً على عملي الذي طوع لي جمعه وتحصيله ، فمالكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه ، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص ، واستحققته بعلمي الخاص ، إنها قولة المغرور المظموس الذي نسي مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ويعميه الشراء ، وهو نموذج مكرر في البشرية ، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه ، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير حاسب لله حساباً ، ولاناظر إلى غضبه ورضاه»^(٥) .

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر : فتح القدير ١٨٧/٤ .

(٣) تفسير الطبري ١١٣/٢٠ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ٢٨٩/٢ .

(٥) في ظلال القرآن ٢٧١٢/٥ .

ولما قال قارون قولته المغرور هذه ، وزعم كرامته وفضله عند الله سبحانه وتعالى بسبب مامتعه به من المال الطائل ، رد الله عز وجل عليه زعمه هذا بقوله سبحانه وتعالى : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، أي : أولم يعلم قارون حين زعم مازعم أن الله تعالى قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشاً وأكثر مالا ، ولو كان سبحانه وتعالى يؤتي المال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ، ولرضاه عنه ، لم يكن ليهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالا ، لأن من كان الله عنه راضياً فمحال أن يهلكه ، وإنما يهلك من كان عليه ساءلاً^(١) .

وتضمنت الآية توبيخاً وتقريعاً لقارون ؛ لأنه قد قرأ التوراة وعلم علم القرون الأولى وإهلاك الله لهم^(٢) ، فكان عليه أن لا يبغي كما بغوا وقد علم عاقبة بغيهم ، كما تضمنت الآية تهديداً ووعيداً له بأن عاقبة بغيه هي نفس عاقبة بغي من سبقه ، وهي الهلاك والإذلال ، وقد كان ذلك كما سيأتي . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، أي : لا تسأل الملائكة عنهم ؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم^(٣) .

وتصور لنا الآيات البينات مشهداً لقارون وهو يخرج ذات مرة على قومه في زينة عظيمة انبهر لها من رآها ، وتمنى الناظرون إليه «ممن يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها»^(٤) ، تمنوا أن يكون لهم مثل زينته ، وقالوا عنه : إنه لذو حظ ونصيب وافر من الدنيا^(٥) ، قال الله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩] ، أي : خرج قارون ذات

(١) انظر : تفسير الطبري ١١٤/٢٠ .

(٢) انظر : فتح القدير ١٨٧/٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١١٤/٢٠ ، وهناك معان أخر ، منها : أنهم لا يسألون عنها لكثرتها وظهورها ، ومنها : أنهم يدخلون النار بغير حساب .

(٤) في ظلال القرآن ٢٧١٣/٥ ، وارجع إليه لتقرأ لطائف أخرى في هذا المعنى .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١١٤/٢٠ ، وفتح القدير ١٨٧/٤ .

يوم على قومه في زينة عظيمة وتحمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي ، فإنه ذو حظ وافر من الدنيا^(١) .

ولم يكن كل من نظر إلى قارون في زينته تلك من المبهوتين بها ، بل كان بينهم علماء ألباء زهادٌ أتقياء لا يعدلون بقيمة الإيمان أي قيمة أخرى ، ولذا لما رأوا أولئك الذين يريدون الحياة الدنيا قد بهتوا بزينة قارون وتمنوا مثلها وقالوا عن قارون : إنه لذو حظ عظيم ، قاموا فيهم مذكرين كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ، أي : قال الذين أوتوا العلم بالله^(٢) للمبهوتين المأخوذين بزينة قارون المتمنين مثلها : ثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وعمل الصالحات في الآخرة خير مما تتمنونه من زينة قارون^(٣) ، فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل وكونوا من طلاب نعيم الآخرة الدائم أبداً .

وقوله : ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ، أي : وما يلقي هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده^(٤) ، فكان من الصابرين على طاعة الله المصبرين أنفسهم عن زينة الحياة الدنيا وشهواتها^(٥) .

وتحقق وعيد الله عز وجل لقارون وحق عليه كلمته فأهلكه وأذله وأحزاه ، وأمر أرضه أن تبتلعه وداره ، فإذا هو يهوي في بطنها ، وقد كان على ظهرها يستعلي ويتناول^(٦) ، وذلك هو الجزاء العدل الحق من الحكم العدل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا رَبِّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] ، وقال

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤١١/٣ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١١٦/٢٠ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١١٦/٢ ، وفتح القدير ١٨٧/٤ ، وفي ظلال القرآن ٢٧١٣/٥ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ٢٨٩/٢ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١١٦/٢٠ ، وفتح القدير ١٨٧/٤ ، وقرأ ماسطره صاحب الظلال في ظلاله ٢٧١٣/٥ فهو من اللطائف .

(٦) انظر : في ظلال القرآن ٢٧١٣/٥

تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ ، أي : حينما أهلكه الله وخسف به الأرض ما كان له من جماعة ولا جند يدفعون عنه ما نزل به ، وما كان هو ممن ينتصر من الله إذا أحل به نقمته ، فيمتنع لقوته منها^(١) .

وفي كيفية أخذ الله تعالى لقارون رويت آثار عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن قتادة رحمه الله مفادها : أن قارون جعل لبغي من بني إسرائيل جعلاً على أن تقذف موسى عليه السلام في ملاء من الناس بالزنى بها ، وذلك بغياً وحسداً من قارون ، ثم جاء موسى وطلب منه أن يجمع بني إسرائيل ليأمرهم وينهاهم ، فكان مما قال لهم : وأمرني ربي إذا زنا أحد وقد أحصن أن يرجم ، فقالوا له : وإن كنت أنت؟ قال : نعم ، قالوا : فإنك قد زنت بفلانة ، قال : ادعوها ، فلما جاءت استحلفها بالله تعالى أن تصدق ، فقالت : أشهد أنك بريء ، وأنت رسول الله وأقرت بما كان من قارون وجعله لها جعلاً على أن تقذف موسى بالزنى بها .

عندها خر موسى عليه السلام ساجداً يبكي ، فأوحى الله إليه : ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض ، فمرها بما شئت ، قال : يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثم جعل موسى عليه السلام يقول : يا أرض خذهم ، وهي تأخذهم شيئاً فشيئاً وهم يقولون : ياموسى ياموسى ! حتى انطبقت عليهم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه موسى عليه السلام : ياموسى يقول لك عبادي : ياموسى فلا ترحمهم؟ أمالو إياي دعوا لوجدوني قريباً مجيئاً^(٢) .

وعاين من كان مأخوذاً مبهوراً بزينة قارون متمنياً مثلهما ظاناً أن قارون بها ذو حظ عظيم ، عاينوا قارون وكنوزه وزينته يخسف بهم الأرض ولاناصر لقارون ولا مانع ، فإذا الغشاوة نزول عن بصائرهم فتجري الحقيقة التي غابت عنهم قبل على ألسنتهم ، يقولون : ﴿ وَيَكَاَنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاَنَّه لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٢] .

(١) انظر : تفسير الطبري ١١٩/٢٠ ، وفتح القدير ١٨٧/٤ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١١٦/٢٠ — ١١٩ .

هذا هو الحق المبين ، فليس كل من بُسط له في الرزق ومُتّع بزينة الحياة الدنيا ذو حظ عظيم ، وليس كل من قدر عليه رزقه ذو حظ قليل ، لأن ذلك ليس دليلاً على محبة الله تعالى ورضاه ، أو بغضه وسخطه ، فإن الله تعالى يعطي من هذه الدنيا من يشاء من عباده مؤمنهم وكافرهم ، ثم تكون العاقبة للمؤمنين ولايفلح الكافرون ، ولو كان بسط الرزق في الدنيا دليلاً على رضى الله تعالى لما أخذ قارون هذا الأخذ الأليم الشديد .

هذه الحقيقة يأتي التأكيد الإلهي عليها بآيتين كريمتين في ختام هذه القصة ، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٣، ٨٤] .

إن الحياة الدنيا يشترك في زخرفها ومتاعها المحسن والمسيء ، أما الآخرة فهي خالصة للمحسنين ، ولما كان البغي والتكبر خلق أهل السوء ، كانت الدار الآخرة خالصة لأهل التواضع والسكينة الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وأكرم بها من عاقبة للمتقين .

إن الإنسان خلق في هذه الحياة الدنيا ليعمل لآخرته ، فإن أحسن فله الحسنى ، وإن أساء فله السوء جزاءً وفاقاً .

من هنا كان في هاتين الآيتين حثٌّ على ترك طلب العلو والفساد في الأرض ، وترغيب في عمل الصالحات واكتساب الحسنات ، وترهيب عن مقارفة المعاصي والسيئات .

ونسدل الستار على قصة بغي قارون بتلخيص مظاهر تكبره واستعلائه ، وهي كما يلي :

١ - خروجه عن طاعة موسى عليه السلام ، وكفره بالله تبارك وتعالى .

٢ - تعديه على قومه وظلمه لهم حين عمل لفرعون كما قيل .

٣ - زيادته في ثيابه شبراً ترفعاً وتطاولاً على قومه .

٤ - زعمه مكانته وقدره عند الله تعالى .

٥ - خروجه مختالاً في زينته .

٦ - جعله الجعل للبغي على أن تتهم موسى بنفسها .

٧ - قوله عن موسى بأنه ساحر كذاب واشتراكه مع فرعون في الأمر
بقتل أبناء من آمن بموسى عليه السلام واستحياء نسائهم ، كما قال
الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ
عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا
كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٥] .

مَتَشَبِهَاً : تكبر المنسلخ من آيات الله

قال الله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧] .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تعيين هذا الذي قص الله تبارك وتعالى خبره ههنا وضربه مثلاً للمكذبين بآياته ، ف قيل : هو رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم بن باعوراء ، أو ابن أبر ، وقيل : كان رجلاً من أهل البلقاء ، وقيل : هو رجل من أهل اليمن ، وقيل : كان من الكنعانيين من مدينة الجبارين ، وقيل : هو أمية بن أبي الصلت ، وقيل فيه غير ذلك^(١) .

قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكره اختلاف الأقوال في تعيين المقصود في هذه الآيات الكريمة : «وأما المشهور في نزول هذه الآية الكريمة ، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف»^(٢) .

ماهي الآيات التي أوتيها ، وكيف انسلخ منها؟

أما الآيات التي أوتيها فقد اختلف فيها على أقوال ، ف قيل : كان يعلم اسم الله الأعظم ، وقيل : أوتي كتاباً من كتب الله ، وقيل : أوتي النبوة ، وقيل : حجج التوحيد وفهم أدلته^(٣) .

وأما كيف انسلخ من آيات الله ، فإنه ذكر أن موسى عليه السلام غزا البلد الذي هو فيه ، فجاءه قومه وأهل بلده يسألونه أن يدعو على موسى عليه السلام وقومه ، فامتنع وقال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنيائي وآخرتي ، وقيل قال لهم : حتى أوامر ربي ، فأمر في الدعاء عليهم فنهى

(١) انظر هذه الأقوال : تفسير الطبري ١١٩/٩-١١٢ ، تفسير البغوي ٢/٢١٣ ، زاد

المسير ٢٨٩/٣ ، تفسير ابن كثير ٢/٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٧٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٢٢/٩ ، وتفسير ابن كثير ٢/٢٧٦ .

عن ذلك ، لكن قومه ألحوا عليه ، فركب حمارة له ، ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل ، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته ، فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت ، فضربها أشد من الأول فقامت ، ثم ربضت فضربها ، فأنطقها الله تعالى حجة عليه ، فقالت له : أين تذهب يا بلعام؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فضربها حتى سارت به ، حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسان ، ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل ، فأخذ يدعو عليهم ، فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ، ويدعو على قومه هو ، فلامه قومه ، وقالوا : إنك تدعو علينا لأعلى موسى ، فقال : ما يجري على لساني إلا هكذا ، وعندها اندلع لسانه إلى صدره ، فقال لقومه : ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق لي إلا المكر والحيلة ، ثم أمرهم أن يزينوا النساء ويعثوهن يتعرضن لبني إسرائيل ، لعلهم يقعون في الزنى ، وعندها لا يفلحون ولا ينتصرون عليهم ، ففعلوا ، فوقع أحد بني إسرائيل وكان من عظمائهم فزنى بامرأة منهن ، فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل ، فأهلك منهم خلقاً كثيراً في ساعة من الساعات ، قيل : أهلك منهم سبعين ألفاً ، وجاء صاحب أمر موسى واسمه : فنحاص بن العزار بن هارون ، وكان رجلاً قوياً ، ولم يكن حين وقع ما وقع حاضراً ، فلما جاء وعلم بالخبر دخل على ذلك الزاني وتلك الزانية فطعنهما بحربته ، فانتظمهما جميعاً فيها ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده ، وقد اعتمد على خاصرته ، وأسندها إلى لحيته ، ورفعهما نحو السماء ، وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، قيل : ورفع الله الطاعون عن بني إسرائيل^(١) .

تفسير الآيات

قال الله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ ، يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقص على المكذبين بآيات الله تعالى التي جاء بها من قومه ومن أهل الكتاب نبأ وقصة الذي أنعم الله

(١) انظر : تفسير الطبري ١٢٤/٩ - ١٢٦ ، وتفسير ابن كثير ٢/٢٧٧ ، والبداية والنهاية

تعالى عليه بأن آتاه آياته ، فكفر بها وخرج منها لعلهم يرجعون عن غيهم حين يرون جزاء المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها ، ﴿فَانْسَلْخَ مِنْهَا﴾ ، أي : خرج وتبرأ من آيات الله كما تنسلخ الشاة عن جلدها ، فلم يبق له بها اتصال^(١) . ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ، أي : عند انسلاخه من آيات الله ، أي : لحقه فأدركه وصار قريناً له أو فأتبعه خطواته^(٢) ، « يقول : فصيروه تابعاً ينتهي إلى أمره في معصية الله ، ويخالف أمر ربه في معصية الشيطان ، وطاعة الرحمن »^(٣) ، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ، أي : « الهالكين لضلاله وخلافه أمر ربه وطاعة الشيطان »^(٤) ، وقيل : « المتمكنين في الغواية وهم الكفار »^(٥) ، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ ، أي : لو شاء الله عز وجل لرفعه بتلك الآيات التي آتاه إياها والرفع يعم معان كثيرة ، منها : الرفع في المنزلة عند الله تعالى ، ومنها : الرفع في شرف الدنيا ومكارمها ، ومنها : الرفع في الذكر الجميل والثناء الرفيع ، وجائز أن يكون الله تعالى عنى كل ذلك ، وأنه جل جلاله لو شاء لرفعه فأعطاه كل ذلك بتوقيفه للعمل بما آتاه من آياته جل جلاله^(٦) ، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ، أي : مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وآثرها على الحياة الآخرة ، وغرته الدنيا كما غرت غيره من أولي البصائر والنهي^(٧) ، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ، أي : اتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله ، وقيل كان هواه مع الكفار^(٨) . ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ ، أي : فمثل هذا الذي انسلخ من آيات الله مثل الكلب الذي يلهث طردته أو تركته^(٩) ، والمعنى : أنه لما انسلخ من

(١) انظر : تفسير الطبري ١٢٣/٩ ، وفتح القدير ٢٦٥/٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ٢٦٥/٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٢٤/٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٢٤/٩ .

(٥) فتح القدير ٢٦٥/٢ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ١٢٧/٩ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ٢٧٦/٢ ، وفتح القدير ٢٦٥/٢ .

(٨) انظر : فتح القدير ٢٦٥/٢ .

(٩) انظر : تفسير الطبري ١٢٨/٩ .

الآيات ولم يعمل بها صار منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة، مماثلاً له في أقبح صفاته، وهو أنه يلهث سواء زجر أو ترك، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء، فهذا المنسلخ من الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله، سواء وعظ وزجر وذكر أم لم يكن ذلك^(١).

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: هذا المثل الذي ضرب لهذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، مثل القوم الذين كذبوا بالحجج والأدلة التي جاءتهم من عند الله سبحانه وتعالى فسلكوا في ذلك سبيل هذا المنسلخ من الآيات التي أوتيتها في تركه العمل بها^(٢)، وهو مثل لكل من كذب بآيات الله تعالى وبخاصة أهل الكتاب الذين كذبوا بها بعد أن علموها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا^(٣).

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، هذه من أجل الحكيم التي يرمي إليها القرآن الكريم في قصصه، التفكير والتأمل والتدبر، فاقصص يارسولي هذا القصص الذي قص عليك من نبأ المنسلخ من آيات الله، وكذلك ما قص عليك قبل في هذه السورة من أنباء من حَلَّتْ بهم عقوبة الله ونزل بهم بأسه حين كذبوا رسله وجحدوا آياته، قُصَّ نبأهم على قومك من قريش، ومن قَبْلِكَ من يهود بني إسرائيل؛ ليتفكروا في ذلك فيعتبروا وينيبوا إلى طاعة ربهم، قبل أن يحل بهم ماحل بالمكذبين قبلهم، وليتدبره اليهود بخاصة فلا يجحدوا نبوتك ويكتموا صفتك، وهم الذين يعرفونك كما يعرفون أنبأهم من خلال ما ذكر لهم من البشارة بك ومن أوصافك في كتبهم المنزلة على أنبيائهم، فإن فعلوا ذلك فلينتظروا أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين قبلهم^(٤).

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، أي: ساء مثلاً مثل القوم المكذبين بآيات الله، أي: ساء مثلهم إن شبهوا بالكلاب

(١) انظر: تفسير الطبري ١٢٨/٩، ١٢٩، وفتح القدير ٢/٢٦٥، وتأمل ماسطره صاحب الظلال حول هذه الآيات، فإنه جدير بالتأمل ٣/١٣٩٦-١٤٠١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٩/١٣٠.

(٣) انظر: فتح القدير ٢/٢٦٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٩/١٣٠.

التي لاهمة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه وابتغى هواه صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله^(١).

﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، أي: ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الهدى، وركونهم إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى^(٢).

صور تكبر المنسلخ من آيات الله :

عند التأمل في هذه القصة وما ورد فيها من آيات وآثار، نجد أن هذا المذكور مثله في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا....﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، هو أحد المتكبرين الذين أصابهم الذل والصغار بسبب ما قادهم تكبرهم إليه من الكفر بالله والتكذيب بآياته والإعراض عنها، ويظهر لنا تكبر هذا المذكور من خلال ما يأتي :

أولاً: لقد ضل عن سواء السبيل وتنكب الصراط المستقيم لا عن جهل، ولكن عن علم، ومن يتبين له الحق من الباطل ويتميز عنده الهدى من الضلال ثم هو يختار الضلال وينصر الباطل فهو المتكبر المغرور، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُغُورًا﴾ [النمل: ١٤].

ثانياً: فيما جاء من الآثار ذكر أن قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى عليه السلام، ومن معه من بني إسرائيل، فقال: ويلكم! نبي الله ومن معه من الملائكة والمؤمنين! كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! فلم يزالوا به يرفعونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه، فافتتن^(٣).

وهذا يعني أنهم حين رفعوا من شأنه وعظموه وعظموا له نفسه افتتن بذلك، فأخذته العزة بالإثم وقام يدعو على نبي الله والمؤمنين معه، ومن هنا ندرك سر النهي عن مدح الإنسان بما ليس فيه أو بزيادة على ما فيه، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاخْشَوْا فِي وُجُوهِهِمْ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢٦٨.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٩/١٢٥.

التراب»^(١) ، فإن ذلك قد يؤدي بالممدوح إلى مثل هذه الحالة من الكبر والتعظم .

ثالثاً : وفيما جاء من آثار أيضاً ذكر أن الله جلت قدرته أنطق حمارة التي ركبها ، فكلمه حجة عليه ، فقالت : ويحك يا بلعم ! أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة تردني عن وجهي هذا ؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فما كان منه إلا أن ضربها لتسير به نحو بغيته^(٢) .

لقد أصر على ما عزم عليه من الدعاء على موسى عليه السلام والمؤمنين على الرغم من هذه الآية الباهرة ، وما كان ليفعل ذلك لولا أن عزته وعظمته أبت عليه الرجوع إلى الحق والإنابة إلى الهدى ؛ لأنه أنف أن يرجع إلى قومه الذين رفعوه وعظموه دون أن يحقق لهم رغبتهم وأملهم فيه . والله أعلم .

(١) أخرجه مسلم في كتاب « الزهد والرقائق » باب « النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة الممدوح » ٢٢٩٧/٤ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٢٥/٩ .

عاشراً: تكبر صاحب الجنتين

ضرب الله تعالى في سورة الكهف مثلاً للمستكبرين المشركين من قريش ، الذين أنفوا من مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم^(١) ، ضرب الله جل جلاله مثلاً لهؤلاء ولكل متكبر ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢] .

قصة تحكي حال رجلين أحدهما كافر والآخر مؤمن ، فأما الكافر فكان ذا مال وبنين ، وأما المؤمن فكان فقيراً من ذلك ، لكنه غني بالإيمان ، بينما ذاك فقير مفلس منه ، وشتان ما بين غني بالإيمان فقير من عرض الحياة الدنيا ، وفقير من الإيمان غني بعرض من الدنيا قليل فان ، ذلك أن الإيمان نور وسعادة في الدنيا والآخرة ، وبدونه يشقى العبد فيهما ، وهذه الحقيقة تبينها هذه القصة التي بين أيدينا ، فمنها يتبين لنا كيف أن فاقد الإيمان تغره دنياه ، ثم لا يلبث أن تزول عنه ، فيقلب كفيه حسرة وأسفاً عليها ، وسوف يعرض على يديه يوم القيامة ، يوم ييؤ بالخزي والندامة نتيجة كفره بخالقه سبحانه وتعالى .

ومنها يتبين لنا كيف أن صاحب الإيمان أدرك ببصيرته المتفتحة أن ماتفاخر به صاحبه عليه واستصغره بسببه إنما هو متاع زائل يعطيه الله تعالى من يشاء من عباده ، ثم هو قادر على أخذه وحرمان من أعطاه إياه متى شاء سبحانه وتعالى ، وأن ماعنده لعباده المؤمنين خير وأبقى ، لذا فهو راض بما قسم الله له في دنياه ، طامع فيما عنده من النعيم المقيم ، وهكذا كان الإيمان نوراً لصاحبه في الدنيا رأى به الأمور والقيم على حقيقتها ، وسيكون له نوراً يسعى بين يديه وييمينه يوم البعث والنشور حتى يلقي ربه جل جلاله في الجنة دار الفرح والحبور .

القصة من القرآن الكريم :

قال الله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤] .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٧/٣ .

يأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وقد استصغر الملائكة المستكبرون من قريش المستضعفين من المؤمنين وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه ؛ ليجلسوا هم إليه ، فهم السادة والعلية ولا يليق بهم أن يجلسوا بجوار الضعفاء والمساكين ، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضرب لهم هذا المثل ؛ ليعلموا أو لعلهم يعلموا أن التعزز بالدنيا وزينتها لا يغني عنهم شيئاً ، وأنهم بدون الإيمان جيفٌ لا قيمة لهم ولاكرامة ، وأن القيمة والكرامة والعزة لأولئك المستضعفين الذين استرذلوهم ؛ لأنهم حملوا أعلى قيمة وأرفع وسام في الدنيا وهو الإيمان ، فما يضرهم بعد ذلك أن صُرفت عنهم الدنيا لتكون لهم الآخرة ، والآخرة خير وأبقى .

هذان رجلان أحدهما : متعه الله بزهرة الحياة الدنيا ، فجعل له بستانين من أعناب محفوفين بالنخيل المحذقة في جنباتهما ، وفي خلاليهما الزروع ، وكلٌّ من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا ﴾ ، أي : أخرجت ثمرها ، ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً ﴾ ، أي : لم تنقص منه شيئاً ، ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ ، أي : والأنهار متفرقة فيما ههنا وههنا^(١) ، ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ ، بفتح الشاء والميم على قراءة^(٢) ، وفي قراءة (ثُمَر) بضم الشاء والميم^(٣) ، وفي قراءة (ثُمَر) بضم الشاء وإسكان الميم^(٤) ، والمقصود به : الثمر ، وقيل : المال ، والأظهر أنه الثمار^(٥) . فلما مُتّع هذا بزيينة الحياة الدنيا هذه كان حاله كما بين الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٧/٣ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٨٧/٣ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٨٧/٣ .

(٤) قراءة عاصم ، انظر : كتاب السبعة في القراءة ، لابن مجاهد ص ٣٩٠ .

(٥) قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ، انظر : السبعة في القراءات ص ٣٩٠ .

(٦) قراءة أبي عمرو ، انظر : السبعة في القراءات ص ٣٩٠ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ٨٧/٣ .

وَأَعَزَّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٤﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦] ، إذاً هو مغرور متعال ، كافر غير شاكر ، بطر غير مستكين ، لا يخفي كفره وتعظمه وبطره واستعلاءه ، بل يتبجح به ، فهو أولاً يفخر على صاحبه الفقير ويتباهى عليه بكثرة ماله وولده وأتباعه ، يقول : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ، أي : أكثر منك مالاً وخدماء وحشماً وأعز عشيرة ورهطاً ، وتلك والله أمنية الفاجر ، كثرة المال وعزة النفر^(١) ؛ وهو ثانياً : يدخل جنته فيراها على تلك الحال من الجمال والكمال ، فيأخذ به العجب والغرور كل مأخذ ، فيقول : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ ، أي : لا تنفني ولا تخرب ولا تهلك^(٢) ، وهكذا هم المغرورون بزينة الحياة الدنيا يظنون أنهم مخلدون فيها ، وأنها خالدة لهم ، وما ذاك إلا لسفاهة عقولهم وضعف يقينهم ؛ وهو ثالثاً يرقى درجة أخرى في سلم الغرور والكبر ، فيكذب ويحدد بيوم القيامة ويقول : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ ؛ ثم هو يبقى في عليائه وغروره فيقول بعد أن جحد البعث والمعاد ، ﴿ وَلَئِنْ رَدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ ، يقول : ولئن كان هناك معاد ورجعة إلى الله تعالى ليكونن لي عنده أحسن من هذا الحظ الذي أنا فيه^(٣) ، هكذا يخيل له غروره فيفترض أن قيام الساعة كائن ، فإن كان ذلك فإنه سيلقى خيراً مما هو فيه الآن ؛ لأنه يظن أن له حظوة عند ربه وكرامة ، وإلا لما متعه بما متعه به من زخرف الحياة الدنيا ، وهذا ظن كل مغرور مخذول مختوم على قلبه وسمعه ، وعلى بصره غشاوة ، وإلا فإن الحياة الدنيا لا قيمة لها عند الله عز وجل ، ولهوانها عليه يعطيها ، بل يعطي منها التقى من عباده والفاجر ، بل لربما كان الفاجر أوفر نصيباً منها^(٤) ، ثم ليس له في الآخرة من نصيب ، وقد قال الله

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٤٦/١٥ ، وتفسير ابن كثير ٨٨، ٨٧/٣ ، وقوله : وتلك... الخ قول قتادة رحمه الله.

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٤٦/١٥ ، وتفسير ابن كثير ٨٨، ٨٧/٣ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣ .

(٤) وهذه هو الغالب والله تعالى أعلم .

تعالى : ﴿لَا يَغُرَّنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَيُنْسُ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧] .

وبينما ذلك الشقي في غروره وعليائه سمع صاحبه الفقير مقالته الكافرة ، فأخذ في وعظه وتذكيره ، كما قال الله تعالى : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا . لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٧-٤١] .

ينكر الفقير على صاحبه الغني المغرور ويعظم له ماوقع فيه من جحود ربه الذي خلقه من نطفة من ماء مهين ، بعد أن خلق أباه آدم عليه السلام من تراب وطين^(١) ، ثم سوى خلقه فجعله معتدل القامة والخلق^(٢) ، بشراً سوياً رجلاً لا أنثى^(٣) ، وفي هذا تذكير له بأنه كفر بمن فعل به هذا وهو قادر على إعادته بعد موته ، يقول : أكفرت بمن خلقك من عدم أن يعيدك خلقاً جديداً بعدما تصير رفاتاً^(٤)؟! فالخالق من عدم أهون عليه أن يعيد خلق من يموت ، فهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] .

ثم يبين الفقير لصاحبه أنه لن يفعل مثل فعله ، فيكفر بربه وخالقه ويشرك به ، بل هو معترف له بالوحدانية والربوبية ، وهو معبوده وحده لا شريك له^(٥) . ثم أردف الفقير يبين لصاحبه ما كان اللائق به أن يفعله وقد دخل جنته فراها قد آتت أكلها وأخذت زخرفها وازينت فأضحت بهجة للناظرين ، فقال له : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٦٣/١٠ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢٤٧/١٥ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣ .

مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ [الكهف: ٣٩] ، وهذا تحضيض وحث على ذلك ، يقول له : هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ماأنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعط غيرك ، وقلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله^(١) .

هذه هي عقيدة المؤمن بالله يعلم أن الله تعالى هو المعطي وهو الآخذ وهو الحكيم الخبير ، فإن أعطاه تواضع واستكان له ، حامداً شاكراً له ، مثيلاً عليه بما هو أهله ، وإن قدر عليه رضي وصبر لاهجاً بحمده والثناء عليه كذلك ، وفي الحالين يعلم أن الحول والقوة لله وبالله تعالى وحده ، فيستمد منه العون على الصبر والتوفيق للشكر .

ثم يواصل الفقير الموعظة والتذكير لصاحبه فيذكره بقدرته الله تعالى على كل شيء ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يرزقه خيراً من بستانه وماله وولده الذي تفاخر عليه به في الدنيا ، وقادر سبحانه على إفناء جنته التي ظن أنها لاتفنى ولاتبيد أبداً^(٢) ، قادر على أن يرسل عليها عذاباً من السماء فتصبح أرضاً ملساء لاشيء فيها ، قد ذهب غرسها ونبتها وعادت خراباً^(٣) تراباً أملساً لايبث فيه قدم^(٤) ، أو يذهب الله تعالى بمائها فيصبح غائراً في الأرض ذاهباً فيها لايسطيع أن يدركه إن طلبه^(٥) ، وفي هذا يقول تعالى مبيناً ماقال الفقير لصاحبه : ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤٠، ٤١] .

وحدث ماحذر المؤمن منه صاحبه الكافر ، وخوفه منه من بطش الله وعذابه ، فأهلك الله تعالى بقدرته جنته التي اغتر بها وألهته عن ربه

(١) انظر : المصدر السابق.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢٤٩/١٥ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ٢٥٠، ٢٤٩/١٥ .

عزوجل^(١)، وظن أنها لن تبید أبداً، فإذا هي خاوية على عروشها كأن لم يكن فيها نبات وزروع وثمر، وإذا بذلك المغرور يضرب يداً بيد متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها وأنفقها فيها^(٢)، يقول: ياليتني لم أشرك بربي أحداً، يتمنى هذا الكافر بعد ما أصيب بجنته أنه لم يكن أشرك بربه أحداً، يعني: أنه إذا هلك وزالت عنه دنياه وانفرد بعمله، ودَّ أنه لم يكن كفر بالله ولا أشرك به شيئاً^(٣).

قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]، ويبين الله تعالى عجز ذلك المغرور عن نصرة نفسه حيث لم يكن ممتنعاً من عذاب الله حين حل به، كما لم يكن لعشيرته وولده الذين استعز بهم وافتخر أي نفع حين وقع به بأس الله، قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣].

وختم الحق سبحانه وتعالى هذه القصة وهذا المثل بقوله: ﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].

ومعنى الآية: هنالك في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلامنقذ له، وهذا المعنى على قراءة الوقف على (هنالك) والابتداء بـ(الولاية لله..)^(٤). وعلى الوقف على (منتصرا) والابتداء بـ(هنالك) يكون المعنى: أحد أمرين:

١ - على قراءة فتح الواو من (الولاية)^(٥) يكون المعنى: هنالك الموالة لله، هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٨٩/٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٥٠/١٥.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٨٩/٣.

(٥) قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم. انظر: السبعة، لابن مجاهد

إذا وقع العذاب^(١) .

٢ - على قراءة كسر الواو من (الولاية)^(٢) يكون المعنى : هنالك الحكم لله الحق^(٣) ، فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في ذلك الحال وفي كل حال لله الحق^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ خَيْرُ ثَوَابٍ وَخَيْرُ عُقْبٍ﴾ ، معناه : الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير^(٥) .

مظاهر تكبر صاحب الجنتين ملخصة :

- ١ - افتخاره على صاحبه بماله وعشيرته .
- ٢ - زهوه بجنته الدنيوية وظنه خلودها وأنها لا تنفنى أبداً .
- ٣ - جحده البعث والمعاد .
- ٤ - غروره وزعمه أن له عند الله إن رجع إليه خيراً مما هو فيه في دنياه ، وذلك ظناً منه أن له حظوة وكرامة خاصة عند الله تبارك وتعالى .
- ٥ - إعراضه عن نصيحة صاحبه ، ويدل على هذا أن الله تعالى عاقبه بإهلاك جنته ، فلو كان رجع عن غيه وغروره واستكان لربه عاملاً بنصيحة المؤمن لما آل أمره إلى ما آل إليه . والله تعالى أعلم .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٩/٣ .

(٢) قراءة حمزة والكسائي . انظر : السبعة ، لابن مجاهد ص ٣٩٢ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٨٩/٣ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ١٠٩/١ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٨٩/٣ .

الفصل السادس: أحكام الكبر.

سبق أن ذكرنا في أقسام الكبر أنه ينقسم باعتبار المتكبر عليه إلى ثلاثة أقسام ، وهي : تكبر على الله تعالى ، وتكبر على رسله الكرام ، وتكبر على الأقران والنظرء ، وعلى هذا ، ومن خلال النصوص من الكتاب والسنة يتبين لنا أن للكبر ثلاثة أحكام : كفر ، وكبيرة من الكبائر ، ومباح .

١ - فالتكبر على الله تعالى والاستنكاف عن عبادته والأنفة من الخضوع لأمره ونهيه ، هو أشنع أنواع الكبر وأفحشها ، وأعظم درجاته جرماً وأقبحها خلقاً ، وهو كفر بالله تعالى ، إن مات عليه صاحبه ، ولم يتب منه قبل موته ، دخل جهنم خالداً مخلداً ، وهو الجزاء العادل من الواحد القهار ، ذي العزة والكبرياء لمن تكبر عن طاعته واستنكف أن يكون عبداً له يخضع ويتذلل له ويخر ساجداً بين يديه ، ويطيع أمره ونهيه .

ولقد كان إبليس الرجيم أول المتكبرين الذين حققت عليهم لعنة الله ، أمره ربه تبارك وتعالى بالسجود لآدم عليه السلام حين خلقه ، فأبى أمر ربه واستكبر عن طاعته ، فلم يسجد له ، ولهذا قال الله تبارك وتعالى مبيناً كفره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ . فَاذْأَسَوِيَّتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦، ٧١] .

لقد تعظم إبليس في نفسه وظن أنه خير من آدم عليه السلام فتكبر أن يسجد له ، فكان ذلك منه استكباراً عن أمر ربه ، ولذلك استحق لعنته له ، وطرده من رحمته وإخراجه من جنته ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص: ٧٧، ٧٨] ، واستحق أن تكون جهنم هي مستقره ومأواه هو ومن اتبعه في استكباره وكفره بالله رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥] .

وممن اتبع إبليس في استكباره على الله رب العالمين نمرود، الذي قيل :
بأنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء^(١)، وهو الذي حاج إبراهيم في
ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون إله غيره، وهذا طغيان كبير وكفر مبین، حمله
عليه كما ذكر تحجره وطول مكثه في الملك، حيث يقال : إنه مكث في ملكه
أربعمئة عام^(٢).

وقد قال الله تعالى في بيان كفر نمرود ومحاخته إبراهيم في ربه : ﴿ أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ومن المتكبرين على هذه الصورة الشنيعة فرعون مصر الذي أرسل إليه
موسى عليه السلام، فقد تكبر وعلا في الأرض، وأفسد فيها، واستطال على
بني إسرائيل، بل بلغ به كبره إلى التطاول على مقام الربوبية والألوهية فادعاهما
لنفسه.

قال تعالى في شأن فرعون: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصاص: ٤].

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ
الْأَسْبَابَ . أَلسَّابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ كَاذِبًا
وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي
تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي
فَأَوْقَدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى
وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصاص: ٣٨].

وقال تعالى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

(١) انظر : الإحياء ٤/ ١٤٦.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٠.

٢ - والتكبر على رسل الله الكرام وعدم قبول الحق الذي جاؤوا به أنفة أن يخضعوا لبشر مثلهم ، هو كسابقه ، أي : أنه كفر مخلدٌ صاحبه في النار إن مات عليه ، وإن كان في درجة بشاعته أقل من التكبر على الله تعالى ، لأن التكبر على الله تعالى فيه استعلاء وتطاول على مقام الربوبية والألوهية ذاتها ، بينما التكبر على الرسل هو استنكافٌ وانصرافٌ عن الإيمان أنفةً وتعزراً عن الانقياد لبشر^(١) .

وإنما كان التكبر على الرسل كفر مخلد في النار ، لأنه في حقيقته تكبر على أوامر الله تعالى وطاعته وإن بدا بصورة الأنفة من الانقياد لبشر ، فالتكبر على الرسل يعني : الانصراف عن الإيمان ، وعدم قبول الحق والهدى الذي جاؤوا به ، ومعلوم أن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ماجأوا إلا بتوحيد الله تعالى ، وتنزيهه عن كل ما يليق به ، وهداية الناس إلى عبادته التي فيها سعادتهم ، إذا فمن استكبر عليهم ولم يؤمن بهم وأنف من متابعتهم والانقياد لهم فقد كفر بربه ، وإذا ذاك فقد ضل وخسر خسراناً مبيناً^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩] .

٣ - والتكبر على سائر الناس من الأقران والنظرء إن صرف صاحبه عن الإيمان والهدى فهو كفر ، وإن لم يصرفه عنه فهو كبيرة من الكبائر التي توجب النار ، لا الخلود فيها - إن لم يعف الله تعالى عن صاحبها ، وعامله بعدله سبحانه وتعالى - .

وممن صرفه كبره على الخلق عن الإيمان وقاده إلى الكفر إبليس الرجيم ، الذي أنف أن يسجد لآدم عليه السلام ، وعصى أمر ربه له بذلك ،

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٢/ ١٤٦ .

(٢) انظر : موارد الظمآن لدروس الزمان ٤/ ٥١٦ .

فكان من الكافرين .

وممن صرفه كبره على الخلق كذلك عن الإيمان إلى الكفر المأذو
الجاه والغنى والمكانة من كل أمة جاءها رسول يدعوها إلى الإيمان بالله تعالى
وتوحيده ، فلقد استكبر المأذو ورأوا في الإيمان بالله تعالى واتباع رسله عليهم
السلام مساواة لهم بالضعفاء والمساكين الذين ليسوا من عليّة القوم
ووجهائهم ، فأنفوا أن يؤمنوا كما آمنوا فيكونون سواءً .

فهؤلاء المأذو من قوم نوح عليه السلام يقولون له كما أخبر الحق سبحانه
وتعالى عنهم : ﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] ، وقال
تعالى مبينا كفر المأذو من قوم نوح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة
الله : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ
اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ
نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [مر: ٢٧] .

والمأذو من قوم صالح عليه السلام يكفرون بالله تعالى لأن الضعفاء آمنوا
به ، وقد قال تعالى في شأنهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُم بِهِ
كَافِرُونَ . فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ
كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] .

يقول المستكبرون للمستضعفين : لانؤمن بالذي آمنتهم به ؛ لأن إيمانكم
به وأنتم الضعفاء دليل على أن لاخير فيه ، فلو كان خيراً ماسبقونا إليه ، هذا
مفهوم استهزائهم بهم . والله أعلم .

واستكبر مشركوا قريش وأنفوا أن يتساواوا وضعفاء المؤمنين أمثال عمار
وبلال وصهيب وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم فطلبوا من رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن يطردهم ليجلسوا هم إليه ، وقالوا في ازدراء واستصغار :
كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَلِكَ
فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ
فُرْطًا ﴿[الكهف: ٢٨]﴾.

والوجه الثاني من وجهي التكبر على سائر الناس : تكبر غير صارف عن
الإيمان ، ولكنه منتقص منه بقدر تمكنه من قلب صاحبه ، وبمقدار حظه منه
وتلبسه منه .

فهذا الوجه من التكبر وإن لم يكن كفراً مخرجاً من الملة ، مخلداً في
النار ، إلا أنه كبيرة من كبائر الذنوب ، يستوجب العذاب ودخول النار إلا أن
يعفو الله تعالى عنه ، شأنه شأن سائر الكبائر الداخلة تحت قول الحق
تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] .

إذا فالتكبر على هذا الوجه وإن كان دون التكبر على الله تعالى ، وعلى
رسله الكرام ، إلا أنه عظيم ، وصاحبه على شفا حفرة من النار .
وتعظم رذيلة الكبر هذا من وجوه :

الأول : كون الكبر والعز والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر ، القوي
القاهر ، والعظمة لا تكون إلا له سبحانه وتعالى ، أما العبد المملوك الذي
لا يملك من أمره شيئاً ، فليس له أن يتكبر ، فإن فعل فهو منازع لله تعالى في
صفة من صفات جلاله التي لا تليق إلا به ، وقد قال الحق فيما يرويه عنه
نبيه صلى الله عليه وسلم : « العظمة إزارى والكبرياء ردائي ، فمن نازعني
فيهما قصمته » .

ويضرب الإمام الغزالي مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - بغلام الملك يأخذ
قلنسوته ، فيضعها على رأسه ويجلس على سريره ، يقول الغزالي : « فما أعظم
استحقاقه للمقت ! وما أعظم تهدفه للخزي والنكال ! وما أشد استجراؤه على
مولاه ! وما أقبح ماتعاطاه »^(١) .

ثم إن الخلق الذين يتكبر عليهم المتكبر هم عباد الله تعالى ، وله عليهم
العظمة والكبر ، فمن تكبر على عبد من عباده جل جلاله فقد نازعه في حقه
تعالى على عبده ، يقول الغزالي : « كالذي يستخدم غلمان الملك ويترفع

(١) إحياء علوم الدين ٤/١٤٧، ١٤٨ .

عليهم ، ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم ، فهو منازع له في بعض أمره ، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه»^(١) .

فهاهنا إذاً منازعتان للحق جل وعلا : الأولى منازعته في صفته ، والثانية : منازعته في حقه على عباده ، لكن ليست الثانية كالأولى ، فالذي ينازع الحق جل جلاله في صفة من صفاته كما فعل نمرود وفرعون حين ادّعى الألوهية ، ليس كمن يتكبر على عباده فقط .

يقول الغزالي : «نعم ، الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ، ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم ، وبين منازعته في أصل الملك»^(٢) .

الوجه الثاني الذي تعظم به رذيلة الكبر كونه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره ، والتكبر عليها ، فالمتكبر إذا سمع الحق من غيره ، وكان مخالفاً لرأيه وهواه ، استنكف عن قبوله وتشمر لجحده وإنكاره ، لأنه لا همّ له إلا أن تعلو مرتبته على مراتب الآخرين ، ويعلو قوله أقوالهم ، فتراه إن ناظر أو جادل ينتصر لقوله ورأيه ، ومهما اتضح الحق على لسان الآخرين جحده وأنف من قبوله ، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس والتشويش والمغالطة ، وهذا العياذ بالله من أخلاق الكافرين وأوصاف المنافقين ، فلقد كانوا يتواصون فيما بينهم أن لا يطيعوا القرآن الكريم ولا ينقادوا لأوامره ، وأن يحدوه وينكروه ويعادوه ، وأن يعيروه ويلغوا فيه بالمكاء^(٣) والتفسير والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأه^(٤) ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] .

والمتكبر يحمله كبره على الأنفة من قبول الوعظ والنصح لتخليه أنه

(١) إحياء علوم الدين ٤/١٤٧، ١٤٨ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤/١٤٧، ١٤٨ .

(٣) المكاء : الصفير . انظر : المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث ، للأصفهاني ٣/٢٢٣ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٠٥ .

فوقه ، فإن أمره أمر بخير أو دله عليه أو نهاه عن سوء وحذره منه ، أنف من قبول ذلك منه وأخذته العزة فردّ الحق بالغضب استعزازاً للكبر الذي في قلبه ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦] .

كما أن كبره يحمله على الأنفة من بذل الوعظ والنصح لمن يستحقه تعزراً أن يلقي أو يسمع ما يكره ممن يرى أنه أقل منه ، أو أنفة أن يخاطب من هو دونه في ظنه ، وهو بهذا يخالف أمر الله تعالى له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد قال تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] . ومن هنا فالتكبر على العباد عظيم ، لأنه يدعو ويجر إلى مخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه .

الوجه الثالث الذي تعظم به رذيلة التكبر على الخلق كونه ربما آل بصاحبه إلى التكبر بينه وبين الخالق سبحانه وتعالى كما حصل ذلك من أول المتكبرين وقائدهم إبليس الرجيم ، حين رأى أنه خير من آدم عليه السلام فأنف أن يسجد له وتكبر عليه ، فأخرجه كبره هذا إلى أن ردّ على الله تعالى أمره ، فكفر بذلك ، فلعنه الله تعالى ، وجعله ملعناً أبداً الآبدى^(١) .

وكما حصل ذلك من الملاء المستكبرين من أقوام المرسلين الذين كفروا بالله تعالى وكذبوا رسله أنفة أن ينقادوا لبشر مثلهم ، أو أنفة أن يتساووا والمستضعفين أتباع الرسل عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

الوجه الرابع الذي تعظم به رذيلة الكبر هو : أنه إضافة إلى كونه أول ذنب عصي به الله تعالى مع الحسد ، فهو باب عظيم من أبواب الشر ، وأصل من أصول الخطايا ، ورأس من رؤوس الأخلاق المذمومة ، بل هو ركن من أركان الكفر ، كما ذكر ذلك الإمام ابن القيم^(٢) عليه رحمة الله تعالى حيث

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ٣٨٢ ، وإحياء علوم الدين ١٤٨/٤ .

(٢) هو : شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، الحنبلي ، ولد بدمشق في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة ، ونشأ في أسرة كريمة شريفة ، درس على أبيه وأفاد منه وتأثر به ، وعاش في زمنه كثرت فيه

قال : « أصول الخطايا كلها ثلاث :

- ١ - الكبير ، وهو الذي أصر إبليس إلى ما أصره .
- ٢ - والحرص ، وهو الذي أخرج آدم من الجنة .
- ٣ - والحسد ، وهو الذي جرّأ ابن آدم على قتل أخيه ، فمن وُقِيَ شرّ هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشر ، فالكفر من الكبير ، والمعاصي من الحرص ، والبغي والظلم من الحسد»^(١) .

وقال : « أصل الأخلاق المذمومة كلها : الكبير ، والمهانة ، والدناءة ، فالفخر والبطر والأشر والعجب ، والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإبء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو ، وحب الجاه والرئاسة ، وأن يحمد بمالم يفعل ، وأمثال ذلك ، كلها ناشئة من الكبير ، وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفرع والجبن والبخل والعجر والكسل والذل لغير الله ، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ونحو ذلك ، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس»^(٢) ، ثم يقول تلخيصاً لما سبق : « فمن دنت همته ، وطغت نفسه ، اتصف بكل خلق رذيل»^(٣) .

وقال : « أركان الكفر أربعة : الكبير ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، فالكبر يمنع الانقياد ، والحسد يمنع قبول النصيحة وبذلها ، والغضب يمنع العدل ، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة ، فإذا تهدّم ركن الكبير سهل عليه الانقياد ، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصيحة وبذله ، وإذا انهدم

المحن والنوائب على الدولة الإسلامية ، تتلمذ على شيخه الإمام ابن تيمية وأوذي وحبس معه في القلعة ، كان غزير العلم ، كثير التصنيف . من مؤلفاته : مدارج السالكين ، الوابل الصيب من الكلم الطيب ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، إعلام الموقعين عن رب العالمين . توفي في الثالث عشر من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة رحمه الله تعالى وأسكنه جنته . انظر : البداية والنهاية ٢٤٦/١٤ .

(١) الفوائد ٨٩ .

(٢) الفوائد ٢١٠ .

(٣) الفوائد ٢١١ .

ركن الغضب سهل عليه العدل ، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة»^(١) .

ثم يذكر ابن القيم عليه رحمة الله أن زوال هذه الأركان الأربعة عمن يُلي بها أمر عسير ، لاسيما إذا صارت هيئات راسخة ، وصفات ثابتة ، فحينئذ لا يستقيم له معها عمل ، ولا تزكو نفسه مع قيامها ، وهذه الأربعة تفسد العمل وتتولد عنها كل الآفات ، وأنها إذا استحكمت في القلب أرتته الحق باطلاً والباطل حقاً ، والمنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، وقربت إليه ومنه الدنيا ، وبعدت الآخرة ، فهي أبواب من فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشر كلها^(٢) ، ثم يقول : « وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئاً منها ، وعليها يقع العذاب ، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها »^(٣) .

وخلاصة القول في التكبر على الخلق : أنه كبيرة من الكبائر وموبقة من الموبقات ، يدل على ذلك تلك النصوص من كتاب وسنة ، والتي جاءت بالنهاي عنه والتحذير منه ، وبالوعيد الشديد عليه بأنواع من العقوبات وألوان من العذاب في الدنيا والآخرة ، والتي بعون الله تعالى ستطلع عليها في فصل : منهج القرآن والسنة في عرض قضية الكبر وعلاجه ، وكذلك من خلال مباحث هذه الرسالة المختلفة ، ولكن لا بأس أن أذكر شيئاً منها للاستشهاد به وهنا :

أولاً : من القرآن الكريم :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠] .

(١) الفوائد ٢٢٩ .

(٢) انظر : الفوائد ٢٢٩ .

(٣) الفوائد ٢٢٩ .

ثانياً : من السنة النبوية :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال :
« الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي
النَّارِ »^(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ
مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ »^(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ
خِيَلًا »^(٣).

فهذه النصوص وغيرها تدل دلالة لاشك فيها على أن التكبر من كبائر
الذنوب الموبقات ، وأن من ابتلي بالكبر فهو على خطر عظيم ، فينبغي عليه أن
يبادر بالتوبة إلى الله عز وجل منه ، مجتهداً أن يطهر نفسه من رجسه ، بطلب
العلاج الذي يستأصله من جذوره ، ويقلعه من أصوله ، ويتزعه من منابته ، وإنه
ليسير على من يسره الله عليه ، فصدق بطلب الخلاص منه ، والتجأ إلى الله
تعالى ولاذ به ، وبذل الأسباب في التخلص منه .

وعلاج التكبر له مبحثه الخاص في الرسالة فليرجع إليه ، وبالله التوفيق .
هذا فيما يتعلق بالقسمين الأولين من أقسام الكبر من حيث حكمه ، وهما
محرمان ، أحدهما كفر ، والثاني كبيرة من الكبائر .

أما القسم الثالث فهو الممدوح ، ولا يراد به الكبر المفسر بقول رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ »^(٤) ، فهذا محرم
ومذموم أبداً ، إنما الممدوح ما كان فيه إعزاز للحق واعتزاز به وإذلال للباطل
وأهله ، ثم ما كان فيه ترفع عن الدنيا والردائل .

فما هو الكبر الممدوح؟

قد سبق عند تعريف الكبر القول بأنه العزة ، فالعزة هذه إما أن يراد بها

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه .

شرف النفس وصيانتها عن تلك الدنيا والمطامع التي تقطع أعناق الرجال ، أو يراد بها التيه والكبر . و فرق كبير بين هذا وهذا ، فالأول يتولد من خلقين كريمين : إعزاز النفس وإكرامها ، وتعظيم سيدها ومالكها أن يكون عبده دنيئاً وضيعاً خسيساً .

والثاني خلق مذموم يتولد بين أمرين مذمومين كذلك : إعجابه بنفسه ، وإرادته بغيره .

ثم إن العزة التي يراد بها شرف النفس وصونها عن التلبس بالردائل تثمر أخلاقاً وأعمالاً طيبة محمودة ، فهي تثمر تواضعاً لعظمة الله تعالى وخضوعاً لعزته وكبريائه . وتعظيماً لأوامره وحقوقه وحدوده ، كما تثمر عزة بعزة الله وقوة بقوته ، كما تثمر صيانة النفس عن كل دنية ، وترفعها عن مواضع المهانة^(١) ، كما تثمر ارتياح ضمير صاحبها وسلامته من أليم الهوان الذي يلاقيه من لا يحتفظ بكرامته ، كما تثمر المهابة والوقار مع الاحترام والمكانة في النفوس^(٢) .

ولهذا لما تخلت أمتنا عن هذه العزة أصيبت بما أصيبت به من الذلة وتداعي الأمم عليها ، ولن ترفع عنها هذه الذلة حتى ترجع إلى مصدر العزة ، ربها ذي العزة والجلال سبحانه وتعالى فتعزز به وبدينه فتكون لها العزة ، فليس يعز إلا الله ، وليس يذل إلا الله له العزة جميعاً سبحانه وتعالى .

أما العزة التي يراد بها التكبر فلا تثمر إلا كل خلق وسلوك مذموم ؛ لأنه لا يراد بها إلا تعظيم النفس وإرضاء هواها وتلبية رغبتها في التفرد بالرياسة ونفاذ الكلمة بكل سبيل ، حتى لو عارض ذلك أمر الله تعالى ومرضاته .

وللعزة المحمودة صور بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « إِنَّ مِنْ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْهَا مَا يَنْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْ الْخِيَلِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْهَا مَا يَنْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيَّةِ وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يَنْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيَّةٍ وَالْاِخْتِيَالُ الَّذِي يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اِخْتِيَالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ

(١) انظر : الروح لابن القيم ص ٣٤٨ .

(٢) انظر : رسائل الإصلاح ، محمد الخضر حسين ١/١٢٥ .

الْقِتَالِ وَعِنْدَ الصَّدَقَةِ وَالْاِخْتِيَالِ الَّذِي يُغْضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخِيْلَاءَ فِي الْبَاطِلِ»^(١) ، وفي رواية : « وَأَمَّا الْخِيْلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَتَخَيَّلَ الْعَبْدُ بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَأَنْ يَتَخَيَّلَ بِالصَّدَقَةِ »^(٢) ، وفي رواية « وَالْخِيْلَاءُ الَّتِي يُغْضُ اللَّهُ الْخِيْلَاءَ فِي الْفَخْرِ وَالْكَبْرِ »^(٣) ، وفي المستدرك : « ... ومخيلتان إحداهما : يحبها الله والأخرى يبغضها الله... ، والمخيلة : إذا تصدق الرجل يحبها الله ، والمخيلة من الكبر يبغضها الله »^(٤) .

فهاتان صورتان من صور العزة المباحة : الخيلاء في قتال أعداء الله ، والاختيال بالصدقة .

أما الاختيال في ساحة الحرب والقتال فيراد به : التقدم في الحرب بنشاط وقوة ونخوة وعدم جبن^(٥) ، ليكون في ذلك توهينا لصفوف أعداء الله وكسراً لشوكتهم .

في معركة أحد جعل الصحابي أبودجانة^(٦) رضي الله عنه يختال ويتبختر بين الصفين ، جند الله وحزب الشيطان ، وقد عصب رأسه بعصابتة الحمراء إعلاماً منه بأنه سيقا تل قتال الموت ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

(١) أخرجه النسائي عن جابر بن عتيك رضي الله عنه في كتاب الزكاة ، باب الاختيال في الصدقة ٧٨/٥ ، وأخرجه أحمد في مسنده ٥٤٥/٥ ، ٥٤٦ ، وأخرجه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ١٥٤/٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥٤٥/٥ ، ٥٤٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥٤٥/٥ ، ٥٤٦ .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الزكاة ، وقال : « صحيح ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبي . انظر : المستدرك ٤١٨/١ .

(٥) انظر : شرح السيوطي وحاشية السندي على سنن النسائي ٧٩، ٧٨/٥ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٩٤/٢ .

(٦) هو : سماك بن خرشة ، وقيل : ابن أوس بن خرشة ، الأنصاري ، شهد بدرأ ، وكان أحد الشجعان ، له مقامات محمودة في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من كبار الأنصار . استشهد باليمامة ، وقيل : كان ممن شارك في قتل مسيلمة الكذاب ، وقيل : عاش حتى شهد صفين مع علي رضي الله عنه .

انظر : الاستيعاب ٢/٢١٢ ، الإصابة ٥٨/٤ .

يتبخر ، فقال : « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن »^(١) .

« إنها لمشية يبغضها الله » لأنها مشية المتكبرين ، والله تعالى لا يحب المتكبرين ، « إلا في مثل هذا الموطن » موطن العزة بالله والتقوي بقوته وإعلاء كلمته ، ونصرة الحق وإذلال الباطل وأهله .

إن اعتزاز المؤمن بعزة ربه جل جلاله وتقويه بقوته على الكافرين والطغاة والجبابرة والمستكبرين الذين يعتزون بقواهم المادية وبشياطينهم ودهاتهم ، ليس هو من قبيل التكبر المذموم ؛ لأنه « لاحظاً فيه للنفس والهوى ، ولاعدوان فيه على الحق ، بل فيه إعلاء له واعتزاز به وإذلال للباطل ودحض له »^(٢) ، ومن يقف موقف أبي دجانة في وجه الباطل ووجه كل طاغوت غير آبه به ولامتلفت لجبروته إنما يفعل ذلك اعتزازاً وثقة واستغناء بالله تعالى وتوكلاً عليه . وعزته تلك هي العزة التي امتدح الله تعالى بها عباده المؤمنين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وهي العزة التي جعلها الله تعالى له ولرسوله وللمؤمنين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النفاقون: ٨] .

إن الإسلام حين يريد لأهله أن يكونوا ظاهرين في الأرض ، فلا يريد منهم ذلك من أجل إرضاء الأهواء في نفوسهم بأن يكونوا كذلك ، فهذا ليس مطلباً إسلامياً بحد ذاته ، وإنما هو وسيلة لغاية ، فالمسلمون يعتلون عرش السلطان ، ولكن مع تواضع لله وحرص كامل على إعلاء كلمته وتطبيق شريعته ونشر دينه وإقامة العدل بين الناس مع عدم الترفع عن ضعفائهم وذوي الحاجات فيهم ، بخلاف غير المؤمنين فإن الكبرياء في الأرض هي غايتهم وهمهم الأعظم ، ولذلك وقفوا في وجه الرسل والرسالات حين خافوا على علوهم ولم يفهموا من دعوة الرسل إلا أنها جاءت لتسلبهم ذلك العلو فيكون للمرسلين ، ولهذا

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٣٤/٣ ، وهو في السيرة النبوية لابن هشام ٦٦/٢ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ٧٠٧/١ .

قال فرعون وحاشيته لموسى وهارون عليهما السلام^(١) : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٧٨] .

ونعود لتأمل الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ
دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، ففي
الآية الكريمة بيان لصفات المؤمنين الكمل الذين يحبهم الله سبحانه
ويحبونه ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أي : أرقاء متواضعون لهم رحماء بهم^(٢) ،
وهي صفة مأخوذة من الطوعية واليسر واللين ، فالمؤمن ذلول للمؤمن غير
عصي عليه ولا يصعب ، هين لين ميسر سمح ودود مستجيب ، وهذه هي الذلة
للمؤمنين ، ومافيها من مذلة ولا مهانة ، إنما هي الأخوة التي ترفع الحواجز
وتزيل التكلف وتحلط النفس بالنفس فلا يبقى فيها ما يستعصى وما يحتجز دون
الآخرين^(٣) .

﴿ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، أي : أشداء غلاظ متعززون مترفعون
عليهم^(٤) ، فيهم إباء واستعلاء ، وإنها ليست العزة للذات ولا الاستعلاء للنفس ،
إنما هي العزة للعقيدة والاستعلاء للرأية التي يقفون تحتها في مواجهة
الكافرين ، إنها الثقة بأن مامعهم هو الخير ، وأن دورهم هو أن يطوعوا
الآخرين للخير الذي معهم ، لا أن يطوعوهم لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم
لهم وما عندهم .

ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى ، وبغلبة قوة الله على تلك
القوى ، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية ، فهم الأعلون حتى وهم
ينهزمون في بعض المعارك في أثناء الطريق الطويل^(٥) .

وفي قول الله تعالى ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، دلالة على أن التذلل

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٧٠٨ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٢/٤٦ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ٢/٩١٩ .

(٤) انظر : تفسير البغوي ٢/٤٧ ، فتح القدير ٢/٥١ .

(٥) انظر : في ظلال القرآن ٢/٩١٩ .

المقصود هو من المودة والرحمة لامن الضعة والمهانة ، فإن الأصل في مادة (ذل) أن تتعدى بحرف اللام ، لبحرف (على) ، فيقال : ذلّ له ، ولا يقال : ذلّ عليه ، لكن التعبير القرآني هنا جاء بالتعدية بـ(على) ، والسّر في ذلك : أن الذلّ يستدعي الانخفاض ، وحرف (على) يستدعي الاستعلاء ، فإذا جُمع بينهما في تركيب متكامل كان المعنى يدل على أن التذلل المطلوب ليس تذلاً من ضَعَة ومهانة ، بل هو تذلل مع رفعة وعزة نفس ، وعلى هذا لا يكون إلا على سبيل عطاء التذلل من عطف ورحمة ، فالعبارة القرآنية على تقدير أدلة عطفاً على المؤمنين ، فهو تذلل عطف وخُـنـو مع عزة نفس ، واستغناء بالله ، لاتذلل مهانة وضعة وحقارة نفس ، وطمع بمنافع دنيوية^(١) .

وزبدة القول : إن اختيال المجاهد في سبيل الله بين الصفيين ليس هو من باب الاختيال المذموم ؛ لأن الاختيال المذموم فيه عدوان على الحق ، والمجاهد في سبيل الله لا يريد إلا إحقاق الحق وإعلاءه ، وتحقير الباطل وإذلاله ، فالمجاهد في سبيل الله يلاقي عدواً مستصغراً مستضعفاً له ، معترأً مستكبراً بقوته ، يريد لباطله أن يعلو على الحق ، فإذا اختال المجاهد في سبيل الله فإنما يفعل ذلك عن عزة بالله وحوله وقوته ؛ ليعلم أعداء الله تعالى أنه مادام معترأً بالله فلن يأبه بهم ولن ترهبه قوتهم أو يخيفه عددهم أو يضيره استضعافهم ، فإنهم هم الأذلون وإن استكبروا واستعلوا ففي اختياله بين الصفيين توهين لصف الكافرين وإشعار لهم بضآلتهم وحقارتهم وزيف قوتهم وعزتهم ودناءة غايتهم ومقصدهم ، وبالمقابل تثبيت لصف المؤمنين وتقوية لعزائمهم ، حتى يقفوا في وجه الباطل شامخين بعزة الإيمان فوق كل عزة تافهة ، يقاتلون في سبيل الله لا يخافون فيه لومة لائم .

وخلاصة ما ذكر أن العزة المحمودة هي عزة المؤمن بربه جل جلاله ، فمن يؤمن بالله تعالى ويشرف نفسه بعبوديته لا يسمح لنفسه أن تذلل إلا حيث يكون التذلل والخضوع جالباً لمرضاته ومحققاً لمصلحة اجتماعية أو نفسية يهدف الإسلام لتحقيقها ، ومن ذلك التذلل والخضوع للوالدين برّاً وإحساناً والتذلل للمؤمنين مودة ورحمة .

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٧١٢ .

أما العزة المذمومة فهي الكبرياء والتي تعني : استنكاف النفس أن تأتي صالحاً بتخييل أن ذلك العمل لا يليق بمنزلتها^(١) .

هذا بالنسبة للصورة الأولى من صور الكبر المباح ، وأما الصورة الثانية فهي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والمخيلة إذا تصدق الرجل يحبها الله » ، ومعنى الاختيال عند الصدقة كما ذكر أهل العلم : أن تهزه أريحية السخاء ، فيعطي طيبة بها نفسه ، فلا يستكثر كثيراً ، ولا يعطي شيئاً إلا وهو مستقل له^(٢) .

هذه هي صورة الاختيال عند الصدقة ، أن لا يستكثر كثيرها ، بل كلما أعطى وجد في نفسه أريحية لهذا العطاء ، فأكثر منه طيبة بها نفسه ، وهذا أمر يحبه الله تعالى ويرضاه من عبده ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه كل ليلة من رمضان ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة^(٣) .

وليس المقصود بالاختيال بالصدقة وعندها التباهي بها والفخر والتطاول على المتصدق عليهم والمن بها عليهم واستحقارهم ، ورؤية النفس فوقهم لأجلها ، فهذا هو الاختيال المذموم والتكبر الممقوت الذي هو بطل الحق وغمط الناس ، والذي جاء ذمه والتحذير منه والوعيد عليه في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى ذلك .

صورة أخرى للتكبر المباح :

ذكر بعض أهل العلم صورة ثالثة من صور التكبر المباح وهي : التكبر على المتكبرين والمبطلين ، قالوا ليكون في ذلك تأديب لهم وتربية ، ومن ثم قالوا : التكبر على المتكبر صدقة ، ويعنون أنك حين ترى متكبراً فتظهر أنك

(١) انظر : رسائل الإصلاح ١٢٤/١ .

(٢) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٩٤/٢ .

(٣) نص حديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ٦٢/١ .

وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة ١٨٠٣/٤ .

لاتأبه به ، فإن ذلك قد يكون علاجاً ورادعاً وزاجراً وتبصرة ، لعله يصلح من حاله فيترك ما هو فيه من التعظم ، فيكون ذلك منك صدقة عليه .

جاء في التفسير الكبير عند قول الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ، « واعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية قوله ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ لأن إظهار الكبر على الغير قد يكون بالحق ، فإن للمحق أن يتكبر على المبطل ، وفي الكلام المشهور : التكبر على المتكبر صدقة»^(١) .

وفي كتاب « الأخلاق الإسلامية وأسسها » قال : « ومن التكبر غير المذموم ما يكون لمعالجة المتكبرين وتصغير نفوسهم المستكبرة بغير حق ، وتأديبهم حتى يعرفوا مواقعهم ، فهو مظهر من المظاهر التي يكون الغرض منها التربية والتأديب ، بشرط أن لا يكون في واقع حالة تكبراً قليلاً »^(٢) .

قلت : وهذا - والله أعلم - من باب الاعتزاز بالحق وعدم التذلل لإلله ، فالتكبر بتكبره عليك يريد أنه أعلى منك ، فلا يرضى منك إلا بالذلة بين يديه ، وهنا لابد من الوقوف في وجهه وإظهار العزة التي تعني ترفع النفس عن كل ما يلحق بها المهانة والصغار ، ومن ذلك : التذلل لذلك المتكبر ، ولعل ما ذكر عن كثير من كرام أهل العلم من أنهم كانوا لا يحبون أن يكونوا من جلساء أهل السلطان والمال هو من هذا الباب وقاية لدينهم أن يفتنوا فيه ، وضناً بكرامتهم وعزتهم أن تبذل وتمتهن .

وهذه المسألة - التكبر على المتكبر - بالمعنى الذي أشرت إليه ينبغي أن لا تكون ثغرة يدخل منها الشيطان إلى النفس ، فيلبس عليها الأمر ، فإذا الكبر على حقيقته مستقر فيها من حيث إنه لم يرد ذلك ، فالشيطان - لعنه الله - حريص غاية الحرص على إغواء الإنسان بأي طريق كان ، وقد أقسم على ذلك غليظ الأيمان ، والتلبس إحدى وسائله للإغواء والإضلال ، فلعله هنا يدخل على النفس فيقول هذا متكبر لا يصلح في ردعه عن تكبره إلا إظهار العزة عليه ، وشيئاً فشيئاً وخطوة تليها أخرى حتى يتمكن من تلبس الأمر عليه ، فإذا

(١) تفسير الرازي (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب).

(٢) ٧٠٧/١ .

هو قد اكتسب الكبر فأصبح خلقاً له .

ومن هنا وجب الحذر من الوقوع في حائل الشيطان ، فإنه عدو مضل مبين ، يأمر بالفحشاء ويدعو إلى المنكر ، ويلبس ذلك لباس المعروف والصلاح والفضيلة ليخدع به النفوس الضعيفة ، فتنقاد له وتضل عن سواء الصراط ، وهذه هي غايته التي لا ينفك يسعى إليها كما قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] .

خلاصة أحكام الكبر :

جاء في كتاب « الفروق » : « أصل الكبر التحريم ، وقد يعرض له ما ينقله عن التحريم إما إلى الوجوب كما في الكبر على الكفار في الحروب وغيرها ، وإما إلى الندب كما هو على أهل البدع قليلاً للبدعة ، والإباحة فيه بعيدة »^(١) .

قلت : وهذا على الصورة المفصلة سابقاً . والله أعلم .

(١) الفروق ، للقرافي ٢٢٥، ٢٢٦ .

الفصل السابع : آثار الكبر

الكبر من أعظم الذنوب وأخطر الأمراض التي لا يقتصر سوءها وشرها على صاحبها ، بل يتجاوزها ليطول المجتمع والأمة ، غير أن شر الكبر وسوءه على المتكبر أخطر وأدهى ، إذ يصيبه في الدنيا ولا يسلم منه في الآخرة ، بينما يقتصر أثره المباشر على المجتمع والأمة على الحياة الدنيوية ، أما في الآخرة فتجزى كل نفس بما كسبت ، فلا يلحق غير المتكبر من سوءه إلا بقدر ما كسب من آثاره في الحياة الدنيا كالبغي والحسد والبغضاء...

فهاهنا مبحثان : المبحث الأول : آثار الكبر على المتكبر ، والمبحث الثاني : آثار الكبر على المجتمع والأمة .

المبحث الأول : آثار الكبر على المتكبر

أولاً : الآثار الدنيوية .

وتتمثل فيما يلي :

١ - يشقى في حياته :

المتكبر يشقى في حياته ولا يهنأ بها أو يسعد فيها ، وذلك لأنه مبغوض من الله جل جلاله ، فقد قال تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] ، فالمتكبر محروم من هذه النعمة الجليلة : محبة الله سبحانه وتعالى ، فمعنى هذا أنه سيعيش في هذه الحياة يتخبط على غير هدى ، فإن الله تعالى إذا أحب عبداً رزقه التوفيق والسداد في كل أموره ، ونور له بصيرته وحفظه في كل أحواله وأوقاته ، وإذا أبغض عبداً - ولا يبغض إلا الأشرقياء - خذله وحرمه معونته وتوفيقه وتسديده ، ووكله إلى نفسه ، فمثل هذا أنى يسعد في حياته؟ أنى يكون ذلك وقد جانبه التوفيق والحفظ الرباني ووكل إلى نفسه الأمانة بالسوء القائدة إلى المهالك وانفرد به الشيطان الرجيم؟

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

ففي هاتين الآيتين إشارة إلى ما ذكرته آنفاً من أن المتكبر يخذله الله عز وجل ويمنعه توفيقه وحفظه ، وعلامة ذلك أن يطبع على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً^(١) ، وأنه يمنعه فهم الحجج والأدلة الدالة على

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٦/٤ .

عظمته وشريعته وأحكامه سبحانه وتعالى^(١)، فلا يهتدي بعد ذلك إلى الإيمان بتلك الآيات البينات والحجج الواضحات، ويتنكب عن سبيل الرشاد ويسلك سبيل الغي والضلال.

ومن هذا حاله لاشك أنه سيحيى حياة شقية ويعيش عيشة ضنكى شأنه شأن كل معرض عن ذكر الله، فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]، أما الحياة الطيبة فلن ينالها؛ لأنها حياة كفلها الله سبحانه وتعالى لمن أحبه من عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والمتكبر عمله غير صالح، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فلا ينال الحياة الطيبة منازع العليّ الجليل صفته المتفرد بها، ومتكبر عن امثال أوامره واجتناب نواهيه إلا أن يتوب توبة نصوحاً ويعود إلى حضيرة العبودية لمن له الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم سبحانه جل ذكره وعز ثناؤه وتقدست أسماؤه.

٢ - يئس بغض الخلق :

المتكبر يبغضه العباد، ويكون له كل عدا؛ أولاً: لأن الله عز وجل إذا أبغض عبداً ببغضه إلى خلقه، وثانياً: لاستعلائه وبغيه وتطاوله عليهم. وبغض الناس للمتكبر يجعلهم يتربصون به الشر ويتمنون له السوء، ويقابلونه بالجفاء وينفرون من مخالطته ومعاشرته، كما أنف هو من فعل ذلك معهم، ثم إن وقع يوماً وليس يبعد في ضائقة أو ألمت به مصيبة أو نزلت به نازلة، فتبدل حاله من يسر إلى عسر، ومن غنى إلى فقر، ومن صحة إلى سقم، ومن قوة إلى ضعف...، فإنهم لا يغيثونه ولا يرحمونه ولا يشفقون عليه، ولا يتوقع منهم إلا أن يسرهم منازل به، وإن لم يكن فلا يحزنهم ما أصابه، ذلك أنه في حال رخائه وقوته وسلامته وفرجه، لم يرحم ضعف ضعيف، ولم يُشفق على عاجز أو يرق لحال مصاب وذي مسكنة، أو يلين لذي بلاء أو فاقة، بل استعلى على الجميع، فحقه أن يعود عليه بعض ما قدم، وكما تدين تدان.

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢٥٧.

٣ - يذله الله ويخزيه :

يريد المتكبر بتكبره الرفعة ، وينشد العلو ، ويطلب العزة ، فهل ينال مايرجو؟ كلا! لأنه سلك طريقاً معوجاً هو طريق الضعة والذلة والصغار ، فليس بالتكبر والتعظم يرتفع قدره ويعلو شأنه ، بل بالتواضع واللين ، ففي الحديث : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةٌ رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيْنِ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةٌ وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ »^(١) .

ومصدق ذلك في كتاب الله تعالى ، فقد قال تعالى في شأن إبليس اللعين : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف: ١٨] ، وهكذا حين ترفع وتعزز عن السجود لآدم عليه السلام كان جزاؤه أن يسوء بهذا الذل والصغار .

وقال تعالى في من يدفعه كبره إلى المجادلة في آيات ربه بغير بينة ولاسلطان : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٨، ٩] .

له في الدنيا خزي ، أي : يفتضح ويذل في الدنيا قبل الآخرة ، وهذا من عجيب آيات الله عز وجل وصنعه بالمتكبرين ، فإنه لا يوجد متكبر إلا وله من المقت والذم والبغض والمهانة بين العالمين ما هو حقيق به جزاء ترفعه واستعلائه بغير حق^(٢) .

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . ٧٦/٣ .

وقد أخرجه بلفظ قريب من هذا ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر ٥٥٧/٢ ، وقال البوصيري : انفرد به عن الكتب التسعة ، وفي إسناده دراج بن سمعان أبوالسمح البصري ، وفيه خلاف ، وثقه ابن معين وأبوداود وغيره ، وقال ابن عدي في الكامل : « أحاديث دراج مما يتابع عليه » ، وضعفه أبوحاتم والنسائي والدارقطني .

انظر : سنن ابن ماجه وبهامشه كفاية الحاجه ٥٥٧/٢ .

(٢) انظر : تفسير السعدي ص ٤٨٤ .

فالمتكبر له من ربه تبارك وتعالى غاية الإذلال ، وإنه لارافع لمن أذل الله
ولامكرم لمن أهانه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
مَكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨] .

جاء في الحديث « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي
عَلِيِّنَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ
السَّافِلِينَ »^(١) .

المتواضع في نفسه صغير ؛ لأنه لا يرى لنفسه مقاماً بين يدي ربه جل
جلاله ، فهو خاشع مستكين لا يبطر الحق ولا يستصغر الخلق ، وهو في أعين
الناس عظيم ؛ لأن الله تعالى كساه ثوب العز والرفعة بتواضعه واستكانته .
والمتكبر في نفسه كبير ؛ لأنه يراها فوق الحق والخلق ، وفي أعين الناس
صغير ؛ لأن الله تعالى كساه ثوب الذلة والمهانة بتكبره وتعاليه بغير حق .

يقول الشيخ عبدالرحمن الميداني : « فالاستكبار خطة غبية وفاشلة لنيل
المجد والمحافظة عليه بين الناس ، وذلك لأن الناس الآخرين مثله يعرفون
دوافع النفوس ويحقرون في نفوسهم المستكبرين ويستصغرونهم ويعطون
المجد الحقيقي للذين يقبلون الحق ويرجعون إليه ولا يستكبرون عنه ، الناس
يكرهون المستكبرين ويحبون المتواضعين موطئي الأكناف ويعطون المجد
الحقيقي للذين يحبونهم ، أما الذين يستكبرون عليهم فيستصغرونهم
ويحتقرونهم ، وهذا من الجزاء الرباني الساري ضمن سنن الله الاجتماعية التي
فطر الناس عليها ، يضاف إلى ذلك أن الله تبارك وتعالى يسر للذين يتواضعون
ابتغاء مرضاته ما يرفعهم ويعلي أقدارهم ، ويضع في طريق المستكبرين عقبات
تصددهم عن بلوغ المجد ، ومزالق تزلق بهم إلى المهانة والصغار ، فمن استكبر
عن الحق وضعه الله ، ومن تواضع لله رفعه الله »^(٢) .

٤ - المتكبر معرض للعقوبة العاجلة :

لا يأمن المتكبر أن تعجل له العقوبة في دنياه ، فيفنى ويذهب ويزول
ماتكبر به من علم أو مال أو جاه أو جمال أو قوة...أو يأخذه الله عز وجل ،

(١) سبغ قرظيما .

(٢) الأخلاق الإسلامية ١/٦٦٤ .

فما هو بمعجزه .

وقصص المتكبرين في القرآن الكريم والسنة النبوية شاهدة بأنهم عوجلوا بالعقوبة في الحياة الدنيا ، مع ماتوعدوا به من الخزي والعذاب الأكبر في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَأْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٤٠] .

وقد صح في الحديث أن رجلاً أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله فقال : « كل بيمينك » قال : لا أستطيع ، قال : « لا استطعت ، مامنعه إلا الكبير » ، فما رفعها إلى فيه^(١) .

وإذا لم يعاجل المتكبر بالعقوبة مع إصراره على تكبره ، فلا يغتر بذلك ، فإنما هو إملاء وإمهال واستدراج له ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] .

٥ - قلق ووسواس :

لاشك أن المتكبر حين يشعر بيبغض الناس من حوله ومقتهم له ، من خلال مخافته وابتعادهم عنه ، وعدم التعاون معه ، ومن خلال نظراتهم القاسية ، فإنه سيتأثر نفسياً ، وسيحس بالوحدة ويشعر بالقلق الدائم والوسواس المتواصل من جراء توقعه أنه سيلقى منهم الأذى والشر ، وهذا الوسواس والقلق عذاب نفسي لا يرتاح معه بال ولا تهدأ نفس ولا يطمئن فؤاد .

فأي مطمع لعاقل في الكبير ، وهذه آثاره أو بعض آثاره على الأصح ، وهي آثار دنيوية والآثار الأخروية أشد وأنكى .

(١) أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع في كتاب الأشربة ، باب آداب الطعام ١٥٩٩/٣ .

ثانياً : الآثار الأخروية :

تبدأ الحياة الأخروية للإنسان منذ لحظات مفارقة روحه لجسده ، ومنذ تلك اللحظات وحتى يستقر المتكبر في مثواه الأخير ، عندما يفصل بين العباد ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، يلقي ألواناً من العذاب وصنوفاً من الإذلال .

هذا ماتبينه النصوص الشرعية من كتاب وسنة بياناً شافياً وافياً ، وذلك على النحو التالي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] .

يبين الله عزوجل حال الظالمين وهم في سكرات الموت وغمراته وكرباته والملائكة باسطوا أيديهم إليهم بالضرب والعذاب حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ثم ييشرونهم وبئس البشارة ، ولكنها الغاية في التبييت ييشرونهم بالعذاب الذي يهانون به غاية الإهانة ، ويدلون به منتهى الإذلال ، جراء تقولهم على الله عزوجل غير الحق ، وجزاء استكبارهم عن اتباع آياته والإيمان به والخضوع له والانقياد لرسله^(١) .

هذا لون من العذاب المهين يلقيه المتكبر وهو يفارق الدنيا ويستقبل الآخرة ، ضربٌ وتعذيب من الملائكة الغلاظ الشداد ، ثم تبييتٌ وزيادة في الإذلال بتلك البشارة ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ ، لقد تعظموا في أنفسهم فقالوا على الله غير الحق حين جعلوا له شركاء ونسبوا له ما لا يليق به سبحانه وتعالى كالصاحبة والولد ، وحين قال قائلهم - وكذب فيما قال - سأنزل مثل ما أنزل الله ، فكان الجزاء من جنس العمل حيث نالهم هذا الصغار وبشروا بالعذاب المهين جزاء استكبارهم بغير حق .

٢ - وقال تعالى في شأن آل فرعون المستكبرين : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] .

هذه الآية مما يستدل على عذاب القبر في الحياة البرزخية التي تتوسط

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٢/٢ ، ١٦٣ .

الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وفيها أن فرعون وآله المستكبرين تعرض أرواحهم على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة أدخلوا نار جهنم وأذيقوا فيها أشد العذاب ألماً وأعظمه نكالاً^(١).

ومعلوم لدينا ما كان عليه فرعون وآله من الكبر والاستعلاء، فكأن في الآية الكريمة إشارة إلى عذاب كل متكبر في حياته البرزخية كل على قدر درجته من التكبر، والله تعالى أعلم.

فالتكبر إذاً من نكال إلى نكال ومن خزي إلى خزي، فحياته الدنيا ضنكى، وموته في عذاب وهوان، وحياته البرزخية في ذل ونكال، ثم يكون الخزي والعذاب الأكبر في دار الخلود.

٣ - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيَسْأَفُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»^(٢)، وفي رواية: «... أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ...»^(٣).

بهذه الصورة من الإذلال وعلى هذه الحال من المهانة والصغار يحشر المتكبرون من قبورهم ويعثون للجزاء والحساب أمثال الذر في صور الناس. ولنا أن نتخيل ذلك المشهد الذي يرسمه الحديث الشريف لحشر أولئك المتكبرين في تلك الحال، صورهم صور الناس وأحجامهم أحجام الذر، فكيف يكون حالهم وقد خرج الأولون والآخرون من قبورهم كأنهم جراد منتشر، مسرعين يتدافعون خائفين مشفقين؟ كيف يكون حالهم وهم تحت أقدامهم ذراً لا يأبھون بهم ولا يلتفون إليهم؟

لقد استعلى المتكبرون في حياتهم الدنيا وانتفخوا وانتفشوا وتعظّموا

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٨٨/٤.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما في كتاب صفة القيامة، باب ٤٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح ٦٥٥/٤. وأخرجه أحمد

١٧٩/٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٧٩/٢.

وتطاولوا حتى بدا الناس لهم من حولهم كالذر لاقيمة له ولا وزن ، وهاهم الآن
يجاوزن بتعظمهم وتطاولهم ذلك!

هاهم على الحقيقة لا الظن والتخيل ، في أحجام الذر يطوهم أهل
المحشر بأقدامهم ويغشاهم الذل من كل مكان ، ولا يظلم ربك أحداً .

٤ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه
خيلاء »^(١) ، وفي رواية : وفي رواية : « من جرّ ثوبه مخيلة لم ينظر الله إليه
يوم القيامة »^(٢) ، وفي رواية عن أبي هريرة : « لا ينظرُ الله يومَ القيامةِ إلى مَنْ
جرَّ إزارَهُ بطراً »^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثةٌ لا يكلمُهُمُ اللهُ يومَ القيامةِ
ولا يُزَكِّيهِمْ ولا ينظرُ إليهِمْ ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ،
وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ »^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشْيِهِ
لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَان »^(٥) .

المقصود من الخيلاء والبطر هو : التكبر ، وكذلك المخيلة ، وفي قوله
صلى الله عليه وسلم : « ثلاثةٌ لا يكلمُهُمُ اللهُ » ، « أي : لا يكلمهم تكليم أهل
الخيرات ويظهر الرضى ، بل بكلام أهل السخط والغضب ، وقيل :
المراد الإعراض عنهم . وقال جمهور المفسرين لا يكلمهم كلاماً ينفعهم
ويسرهم ، وقيل : لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية ، ومعنى « ولا ينظرُ إليهِمْ »
أي : يعرض عنهم ، ونظيره سبحانه وتعالى لعباده : رحمته ولطفه بهم »^(٦) ،
ويحتمل أن يكون المراد : لا ينظر إليهم نظر رحمة ، فعبر عن المعنى الكائن
عند النظر بالنظر ؛ لأن من نظر إلى متواضع رحمه ، ومن نظر إلى متكبر

(١) أخرجه البخاري وسبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري وسبق تخريجه .

(٣) رواية مسلم وسبق تخريجه .

(٤) أخرجه مسلم وسبق تخريجه .

(٥) أخرجه أحمد وسبق تخريجه .

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١١٦ .

مقته ، فالرحمة والمقت متسبيان عن النظر^(١) .

ومعنى « وَلَا يُزَكِّيهِمْ » : لا يطهرهم من دنس ذنوبهم ، وقيل معناه : لا ينقي عليهم ، ومعنى « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » : مؤلم ، قيل : هو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم وجعه ، قال : والعذاب : كل ما يغيي الإنسان ويشق عليه^(٢) .
« وقوله : « يَوْمَ الْقِيَامَةِ » إشارة إلى أنه محل الرحمة المستمرة ، بخلاف رحمة الدنيا فإنها قد تنقطع بما يتجدد من الحوادث^(٣) .

فهذه صورة أخرى لما يلقاه المتكبر من ألوان العذاب في الدار الآخرة ، فإنه يلقى رباً عليه غضبان وله ساخط لا يكلمه تكليم من يحب ويرضى ، بل تكليم من ييغض ويسخط ، ولا ينظر إليه نظر رحمة ورضوان بل نظر مقت وغضب ، ولا يزكيه ويطهره من ذنوبه بالعفو عنها ومغفرتها ، ثم هو إلى العذاب الأليم الموجه صائر .

هكذا في ذلك اليوم العظيم المهول الذي تشيب من أهواله الولدان لا يجد المتكبر من ربه رضى ورحمة ولطفاً فإلى من يلتجأ وبمن يلوذ والملك الواحد الجبار عليه غضبان؟ ومن يقيه تلك الأهوال ورب العرش ساخط عليه لا يكلمه ولا ينظر إليه؟!

هـ - وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ . لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسْوَدَةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الرمز: ٦٠] .
وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ

(١) انظر : فتح الباري ٣١٧/١٠ .

(٢) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١١٦/١ .

(٣) فتح الباري ٣١٧/١٠ .

مَثَقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ^(١) .

هذه النصوص وغيرها مما يأتي بيانه^(٢) تبين المصير الذي إليه المتكبر صائر يوم البعث والنشور ، فتذكر أن نهاية طريق التكبر هي الحرمان من الجنة دار النعيم والرضوان والسلام ، والاستقرار في النار دار النكال والعذاب المهين المقيم ، لكن لا يخفى أن من كان تكبره صارفاً له عن الإيمان بالله تعالى فهو المحروم من الجنة أبداً ، المستقر في جهنم أبداً ، هذا إن مات على ذلك ؛ أما من كان تكبره غير صارف له عن الإيمان ، بل كان تكبراً على النظراء والأقران فهو مرتكب كبيرة من الكبائر ، وأهل الكبائر تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم بقدر ما كسبوا ، ثم تداركهم برحمته ، فأخرجهم من النار وأسكنهم الجنة ، والله يحكم ويفعل ما يريد ، وهو أحكم الحاكمين .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وقد سبق تخريجه .

(٢) في فصل : أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية في عرض قضية الكبر وعلاجه .

المبحث الثاني :

آثار الكبر على المجتمع والأمة

إذا كان الكبر له آثاره السيئة على صاحبه ، فإن له أيضاً آثاراً سيئة تصيب المجتمع والأمة ، فلو عُدنا إلى بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للكبر لوجدناه قد فسره بأعظم وأبرز أثرين له على سلوك المتكبرين ، هما : بطر الحق ، وغمط الناس ، ولاشك أنهما سلوكان ذميان سيئان يعودان على المجتمع والأمة بأوخم العواقب .

فأما بطر الحق ، فيعني : الاستعلاء عليه والأنفة من الانقياد له ، كما يعني رده وتسفيهه ، ونصرة الباطل عليه ، فما هو الحق الذي يقابله المتكبر بهذا السلوك المعوج؟

إنه أولاً : الإيمان بالله عز وجل وتوحيده والرضى به رباً وإلهاً له الأمر والحكم كله ، وإعلان الخضوع له وحده سبحانه وتعالى ، والتصديق بآياته والانقياد لرسله ، والمتكبر عليه يأنف من هذا كله ، يأنف أن يكون عبداً لإله واحد يخضع له ويرضى بحكمه وأمره وشرعه ، ويأنف من الانقياد لرسله وأتباعهم ، بل يقف في وجوههم وما جاءوا به من الحق ، تكذيباً وصدأً ، ومحاربة وكيداً ليبقى في عليائه التي يتخيلها وعظمتها التي يزعمها .

وإنه ثانياً : كل خير ومعروف وحق أمر الله تعالى به وحث عليه كبر الوالدين وطاعتهم والإحسان إلى الأبناء والزوجة والأقارب والأرحام والجيران ، والعطف على المساكين والرحمة بالضعفاء ، والشفقة على العاجزين ، ومد يد العون للمحتاجين ، وتفريج كرب المكروبين ، والتيسير على المعسرين ... ، وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم ، وكالأمر بحسن الخلق مع الناس أجمعين ... ، والمتكبر يأنف من هذا كله ويلوي رأسه عنه غروراً وكبراً .

فكيف يتصور حال مجتمع أو أمة بطرت هذه الحقوق فيها؟

وأما غمط الناس فيعني السخرية بهم واحتقارهم واستصغارهم ورؤية النفس فوقهم ، وهذا يجعله لا يعترف لهم بحق أو واجب ، فلن يرعى حرمتهم وعوراتهم ، ولن يحفظ أماناتهم وعهودهم ومواثيقهم ، ولن تكون معاملتهم

إلا كمعاملة السيد لخدمه ومواليه ، إضافة إلى أنه سيسعى إلى الاستئثار بكل خير دونهم .

والتكبر بهذه الصورة يعني انقسام المجتمع إلى فريقين : الفريق الأول : فريق المتكبرين الذين يشعرون بالفوقية والاستعلاء ، والفريق الثاني : فريق المستضعفين الذين يشعرون بالظلم الواقع عليهم من جراء هذا البغي والطغيان من قبل المتكبرين .

وهنا نخلص إلى القول بأن آثار الكبر على المجتمع والأمة تتمثل في الآتي :

١ - زوال النعم وحلول النقم :

إنه بالإيمان والطاعة يفتح الله تعالى على عباده بركات من السماء والأرض ، وينشر رحمته عليهم ويمن عليهم بسائر النعم ظاهرها وباطنها ، فإذا كان التكبر يعني الاستكبار عن الإيمان والتعظيم على العباد فهو كفر أو ذنب عظيم ينتج عنه ذنوب عظيمة أخرى ، فأى خير يرجى لمجتمع أو لأمة بعد الاستنكاف عن عبودية الله تعالى ومبارزته بهذا الذنب العظيم؟

فإن الذنوب -ومن أعظمها الكبر- سبب لظهور الفساد في البر والبحر ، سبب لمحق بركات الأنفس والأموال والأوقات والثمرات ، سبب لقلّة الخيرات ، سبب لنزول البلاء وحلول الضراء ، وتبدل الطيبات ، فالله تبارك وتعالى يقول : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] ، وأنه لولا عفو الله عزوجل عن كثير مما يكسبه العباد من الذنوب لكان الأمر أدهى وأعظم ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] .

٢ - الفرقة والشقاق :

ذكرنا أن الكبر يقسم المجتمع إلى طبقتين : طبقة المستكبرين ، وطبقة المستضعفين .

وهذا يعني أن الظلم سيقع على الطبقة الثانية ، وهو أمر له المردود السيء على الجميع إذ ستكون كل طبقة للأخرى كل بغض وعداء ، وذلك يؤدي إلى أن لا يأمن كل جانب الجانب الآخر ، وعندها يفقد التعاون والتآلف والترابط بين أفراد المجتمع والأمة ، وتتفكك عرى المحبة والمودة ، وتقطع أواصر

القربى ووشائج الرحم بينهم ، ويبقى كل واحد يعمل لنفسه لا لأمته ومجتمعه ، وحينها ينحدر المجتمع إلى الحضيض ، وتهوى الأمة في غياهب التأخر والانحطاط .

لقد حرص الإسلام على غرس التأخي والتآلف بين أفراد المجتمع والأمة وأراد الله عز وجل أن يكونوا كالبنیان المرصوص والجسد الواحد ، ومن هنا أمر بكل ما يحقق هذا البناء المحكم ، ونهى عن كل ما يؤثر فيه ، فأمر بالرفق والإحسان والتعاون والتواضع وسائر مكارم الأخلاق ، ونهى عن البغي والحسد والعدوان والسخرية والظن السيئ وسائر مساوئ الأخلاق التي يعد الكبر من أعظمها خطورة على تآلف الأمة ووحدة صفها ، ولهذا بالغ في النهي عنه وشدد في التحذير منه ، والوعيد عليه ، كما نلاحظ ذلك من خلال نصوص الشرع الواردة في هذا الشأن .

ونزيد الأمر وضوحاً في كون الكبر طريق لتفريق الصف واختلاف الكلمة وفقد التكافل والترابط الاجتماعي ، فنقول : أنى تتحقق تلك الصورة الجميلة المشرقة للتكافل والتآلف في مجتمع أو في أمة الحاكم فيها مستكبر مستبد بالمحكومين ، والابن متكبر على أبيه عاق لهما ، وذوالعلم متكبر على الجاهل ، وذوالمال متكبر على الفقير والمسكين ، والجار لا يأمن كبر جاره ، والقريب يحس باستعلاء قريبه ، والضعيف واقع عليه كبر القوي...

لقد أمر الله سبحانه وتعالى بتوحيده وبالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت الأيمان من الخدم والموالي ، ثم بين بعد ذلك أنه سبحانه وتعالى لا يحب من كان مختالاً فخوراً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] .

فماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن المتكبر بأنف من كل هذا ، فهو في أعنى درجات تكبره ، يأنف من توحيد ربه ، ثم هو بعد ذلك يأنف من الإحسان إلى كل من ذكر في هذه الآية الكريمة ، ثم إذا هو يأنف من الإحسان إلى سائر الناس .

فمجتمع أو أمة يفقد فيها هذا الإحسان ويحل محله البغي والطغيان حقيق أن لا يبقى فيه أي أثر للتكافل الاجتماعي الذي يعود على المجتمع والأمة بالقوة والعزة والمجد والتمكين .

٣ - صورة أخرى للفساد والسوء الذي يلحق المجتمع والأمة من جراء التكبر ، تتمثل في كون التكبر هو بطل الحق ، أي : الوقوف في وجه كل ماهو حق وخير وفضيلة ، وتسفيه كل قيمة سامية والاستهانة بكل المثل العليا ، ومن ثم الانتصار لكل فساد وقبح ودناءة وباطل ورذيلة .

فالمتكبرون يسفّهون الحق ؛ لأنه ضد أهوائهم ، ويحاربون الفضيلة ؛ لأنها ضد شهواتهم ، وينتصرون للباطل ؛ لأنهم أهله ، وينصرون السّفه ؛ لأنهم ألّوه ، ومن هنا يمكننا أن ندرك مقدار الشر وحجم الفساد الذي يصيب المجتمع والأمة من جراء تسفيه القيم المثلى ، ونصرة الباطل على الحق ، واستعلاء الرذيلة على الفضيلة ، إنه لاشك شر مستطير ، وفساد كبير ، ولسنا بحاجة إلى الاستدلال على ذلك بكثير أدلة ، بل يكفي أن نشير إلى أن التاريخ يشهد بأن كل أمة جال الباطل فيها على الحق وحجب دخان الرذيلة نور الفضيلة ، فإن أمرها آل إلى الذلة وانتهى إلى البوار ، وقد مرت بك قصص المتكبرين ، ورأيت ماحل بهم من الحزي ، وكيف آل أمرهم إلى الهلاك ، وفي ذلك ذكرى للذاكرين .

٤ - ومن صور السوء الذي يلحقه التكبر بالمجتمع والأمة أن التكبر يمنع العالم من التعليم ، كما يمنعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة ، كما أنه يمنع الجاهل من التعلم وقبول النصيحة والالتزام بالمعروف وترك المنكر ، وهذا الأمر يمكن أن نلحقه بما سبقه ، حيث يؤدي إلى نفس السوء والفساد ، وذلك حين لا يؤمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، ويعم الجهل وينتشر الضلال فتقع الأمة في الذلة والمهانة التي لا يرفعها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق .

قال الله تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مَّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] ، وقال تعالى في مدح أمة الإسلام : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿آل عمران: ١١٠﴾ .

هـ - وصورة أخرى من صور السوء الذي يلحق التكبر بالمجتمع والأمة تتمثل في كون المتكبر يظهر في الأرض الفساد، وبخاصة إذا كان من ذوي الطُّول والجاه والسلطة، فإنه في هذه الحال لا يردعه رادع عن الفساد والإفساد، وذلك لقدرته ووسطوته، كالحاكم الطاغية الجبار، فإنه يستغل سلطته فيستعبد الناس بغير حق، ويقتلهم بغير جرم، ويحبس منهم بغير ذنب، ويعذب ويضطهد ويُهَجِّر بغير حق، ويقف في وجه كل صلاح ومصلح؛ لأنه يخالف هواه وشهواته .

وفيما قصه علينا كتاب ربنا جل وعلا من قصص المتكبرين يظهر لنا هذا الجانب من جوانب الكبر السيئة - وكل جوانبه كذلك-، فارجع إلى تلك القصص لترى ذلك الفساد الكبير الذي أحدثه المتكبرون في الأرض، لترى بني إسرائيل وقد أدى بهم استكبارهم إلى قتل أنبياء الله تعالى، لترى طغيان فرعون كيف جعله يستضعف الإسرائيليين فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وكيف جعله يقول: ذروني أقتل موسى، وكيف جعله يهدد بقطع أرجل وأيدي السحرة حين آمنوا بالله تعالى، لترى قوم عاد وهم يبطشون بطش الجبارين، لترى قوم ثمود، وقد قتلوا ناقة الله التي كانت تدر لهم اللبن دراً كثيراً، لترى قوم مدين وهم يطففون الكيل ويخسرون الميزان، لترى هذه الصور من الإفساد في الأرض وغيرها والتي يحدثها المتكبرون، ثم قس على ذلك ماتراه وتسمع به من قصص المتكبرين والطغاة في حاضر الأمة، وستجد أن المتكبرين هم المتكبرون في سائر الأزمنة والأمكنة لا يتورعون عن أي إفساد وفساد، إلا أن أساليبهم ربما اختلفت في ذلك، لكن النتيجة دائماً هي الفساد والإفساد، ولهذا كان الأمر من الله جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعين به من الكبر أن يصيبه داؤه، ومن المتكبرين أن يلحقه أذاهم وشرهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] .

ختاماً لعل هذه أبرز الآثار السيئة التي يتركها التكبر على المجتمع والأمة، وإن كانت هناك آثار أخرى فهي تندرج تحت هذه الآثار، ويجمع الجميع قول الرسول صلى الله عليه وسلم في بيان الكبر: «الكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»، فإنه لا ينتج عن بطر الحق وغمط الناس إلا كل سوء .

الفصل الثامن : علاج الكبر.

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : منهج القرآن الكريم والسنة
المطهرة في عرض قضية الكبر
وعلاجه .

المبحث الثاني : علاج الكبر جملة وتفصيلاً .

هذا الفصل معقود لبيان العلاج الذي بإذن الله تعالى يساعد في اقتلاع شجرة الكبر الخبيثة من جذورها ومنابتها في النفوس ، وفيه مبحثان :
المبحث الأول : منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة في عرض قضية الكبر وعلاجه .

وسأحاول فيه التعرف على الأساليب القرآنية والنبوية التي أبرزت هذه القضية وعملت على استئصال آثارها السيئة من النفوس مقدمة لذلك العلاج الناجع .

المبحث الثاني : علاج الكبر جملة وتفصيلاً .

وهو مكمل للأول في استيضاح طرق معالجة النفوس من مرض الكبر الفتاك ، وفيه أعرض لمعالجة دواعي الكبر كلاً على حدة ، وهي الدواعي المذكورة في الفصل الثاني من الرسالة .

وعسى الله أن يمدني بعونه وتوفيقه إنه جواد كريم .

المبحث الأول : منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة

في عرض قضية الكبر وعلاجه .

عند التأمل في الآيات والأحاديث الواردة في قضية التكبر نجد أن أساليهما تعددت وتنوعت في عرض هذه القضية ذات الأبعاد الخطيرة والآثار السيئة الكثيرة ، وبيانها وتقديم العلاج الناجع لاقتلاعها من الأنفس وتطهيرها منها ، فتارة تعرضها بأسلوب الأمر والنهي ، وأخرى بأسلوب القصة ، وثالثة بأسلوب الترغيب والترهيب ، ورابعة بأسلوب الحوار ، وخامسة بأسلوب التهكم والسخرية ، وهكذا كما سنتبين ذلك من خلال ماسيأتي بإذن الله تعالى .

لكن قبل ذلك بدا لي التنبيه على بعض الأمور وهي :
أولاً : ينبغي أن لا نغفل عن حقيقة ، وهي : أن القرآن الكريم كتاب تقعيد لاتفريع ، بمعنى أنه عندما يتناول قضية ما ، فإنه يؤصلها بذكر القواعد الكلية لها ، فهو يعرضها وحدة متكاملة الجوانب في بوتقة واحدة في غاية الجمال والكمال والإعجاز والبيان ، أما التفريعات فهي إichاءات وإرشادات يستشفها من ألهمه الله تعالى ونور بصيرته ورزقه الفهم من خلال ذلك العرض والبيان القرآني المعجز البديع .

ولهذا فإننا حين نتبع آيات القرآن الكريم وهي تعرض قضية الكبر وتعالجها نجد القرآن الكريم لا يعنى بتعريف الكبر وذكر أقسامه ، بل يعنى بالصفات ، فهو يعرض الصورة التي ينبغي أن تقتدى وتحتذى ، وبالمقابل يعرض الصورة التي ينبغي أن تجتنب وتُقلَى ، يعرض ذلك وحدة متكاملة بأسلوبه المعجز البديع .

أما السنة النبوية فهي شارحة للقرآن الكريم ، ولذلك فإننا قد نجد فيها بعض التفريعات تفصيلاً لما أجمل في القرآن الكريم ، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان الكبر : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ » ، وكتفصيله صلى الله عليه وسلم في قضية حسن الهيئة والتفريق من يفعل ذلك تكبراً ومن يفعله تجملاً .

فالسنة النبوية مينة للقرآن الكريم تخرج كنوزه ودرره وتكشف عن

أسراره وحكمه ، فلاعجب إن وجد فيها من التفريعات ما هو مستتب من القواعد الكلية للقرآن الكريم .

ثانياً : حين نتأمل آيات القرآن الكريم الواردة في الكبر والمتكبرين ، نجد أنها تركّز تركيزاً أكبر على أقصى وأشنع درجات التكبر ، وهي : الاستكبار عن الإيمان بالله تعالى وطاعته والاستتكاف عن عبادته وتوحيده ، والأنفة من الانقياد لرسله ، ذلك أن القرآن الكريم في المقام الأول كتاب عقيدة وتوحيد ، مهمته الأولى تصحيح العقيدة وتقويم التوحيد ؛ لأنه متى ماتم ذلك تهذبت الأخلاق وتقومت السلوكيات ، فبالإصلاح الباطن يصلح الظاهر ، وإنه ما يتكبر متكبر إلا وفي عقيدته دخنٌ .

والقرآن الكريم حين يولي هذا الجانب عظيم اهتمامه وعنايته ، فإنه لا يغفل الجانب الآخر ، وهو : تكبر العبد على عبد مثله تكبراً غير صارف له عن الإيمان ، بل نجد فيه توجيهات سامية للتخلق بخلق التواضع ومجانبة التكبر والاستعلاء كما سيأتي .

وفي المقابل نجد أن السنة النبوية كان تركيزها الأكبر على الجانب الذي أجمل فيه القرآن الكريم وأوجز .

ولعل السرف في ذلك هو أنه وبعد أن عمل القرآن الكريم عمله في النفوس فغرس فيها عقيدة التوحيد ، وطهرها من عقيدة الشرك ، وأوجد المجتمع المؤمن لم يبق إلا أن يُعالج ما قد يظهر من بعض أفراد ذلك المجتمع من سلوكيات وأخلاق تخدش العقيدة وتنقض الإيمان ، وهي من بقايا الجاهلية ، ومنها خلق التكبر والاستعلاء ، فكان دور رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الباني والمربي أن يتلقى كتاب ربه جل جلاله ويفهم عنه تعليماته فيُفصّل ما أجمل ويشرح ما أوجز .

وكان دوره صلى الله عليه وسلم أيضاً وهو يعيش وسط أفراد مجتمع الإيمان أن يلحظ الأخطاء التي تحدث ، فيصححها ، ويقوم السلوك حين يعوج ، ويهدي السائر حين يضل ، ومن هنا كان الكبر واحداً من السلوكيات التي عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلامة وحماية المجتمع المؤمن منها قولاً وفعلاً منه صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : بنظرة عامة حول أساليب القرآن والسنة في عرض الكبر وعلاجه ،

نجد أن الألفاظ فيها تتميز بالقوة والجزالة والوضوح ، كما تتميز الأساليب بالتنوع والبيان والإعجاز ، شأن القرآن والسنة في إبراز كل قضية في القوالب المناسبة لها .

كما نجد أن تلك الأساليب تمتزج مع بعضها ليكون العرض وافياً والعلاج بإذن الله تعالى نافعاً شافياً .

بعد هذا الإيجاز حول منهج القرآن والسنة وأساليبها في عرض قضية الكبر وعلاجه ، أبدأ مستعيناً بالله في تفصيل الأساليب المشار إليها ، وهي ستة أساليب رئيسية ، كما بدا لي -والله أعلم :

١ - أسلوب القصة .

٢ - أسلوب الحوار .

٣ - أسلوب الأمر والنهي .

٤ - أسلوب الترغيب والترهيب .

٥ - أسلوب التهكم .

٦ - أسلوب التصوير .

وإن كان هناك أساليب أخرى فهي داخلية تحت هذه الأساليب الرئيسية .

أولاً : أسلوب القصة .

هو أحد الأساليب القرآنية والنبوية في ترسيخ العقائد والقيم وتصحيح المفاهيم ومعالجة الأدواء المهلكة ، وغرس الفضائل ، وتطهير النفوس من القبائح والردائل ، فالقصة لها وقعها وأثرها على قارئها والمستمع إليها ، ذلك أن النفوس تميل إلى القصص ، وتفتح لها مداركها وأحاسيسها ، فتؤثر فيها إيجاباً إذا كانت حقةً وقيمةً ، وسلباً إذا كانت زائفة وتافهة ، ولأسمى وأرفع وأحسن وأصدق من قصص القرآن الكريم والسنة النبوية ، ذلك أن القرآن كلام الله عز وجل ، ومن أصدق من الله حديثاً؟ والسنة كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كلام أنجز سبحانه وتعالى عنه بقوله : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤، ٣] ، وهو القائل سبحانه وتعالى عن قصصه في كتابه الكريم : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] .

إذا فقصص القرآن الكريم والسنة هي أبداع وأروع وأصدق ما يكون

القصص ، أسلوبها يأخذ بالألباب ويأسر الأفتدة في غاية البيان والفصاحة والإعجاز ، تحمل في طياتها أجل الحكم والأسرار ، فيها الأسوة والقذوة والتذكرة والتبصرة ، والعظة والعبرة ، والأمر والنهي ، والترغيب والترهيب ، والبشارة والنذارة ، كل ذلك في أفصح عبارة وأصدق لهجة وأروع بيان .

وفيما يختص بجانب المستكبرين فهي قصص تكشف بأساليبها المعجزة عن خبايا المستكبرين ، وتبرز صفاتهم وسلوكياتهم ، وتبين طريقة تقديرهم للقيم والمثل ، وتحكي مواقفهم من قضايا الحق ، وكيف يجادلون الحق بالباطل ، كما تضرب المثل بماحل بالمستكبرين السابقين ؛ ليكون لمن خلفهم في ذلك عبرة ، فلا يكونوا مثلهم فيلقوا مصيرهم ، فهي قصص أبرزت كافة جوانب قضية التكبر بأسلوبها الفريد المعجز .

وكان من حق تلك القصص أن تستعرض هنا ، ولكن قد سبق عرضها في فصل مستقل من فصول هذه الرسالة مما أغنى عن إعادتها ، والله تعالى أسأل أن يجعلنا من المهتدين بهدى كتابه وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن يغفر لنا كل ذنب ، ويعفو عن كل تقصير وزلل ، إنه سميع مجيب .

ثانياً : أسلوب الحوار .

هو أسلوب يجعل المتكبر يفصح ويعبر عما في نفسه بنفسه ، فلا يخفى على أحد يستمع إلى ذلك الحوار أو يقرأه ، ما يكتنه المتكبر من ترفع وتعظم بغيض ، واعتقادات فاسدة ، وظنون سيئة ، وادعاءات واهية .

نقرأ في كتاب الله تعالى حواراً دار بين رب العزة جل جلاله وبين إبليس اللعين ، فيتبين من خلال ماتفوه به إبليس ما كان يخفيه في نفسه من التعظم الذي جعله يأبى أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢] ، وفي آيات أخر : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٢، ٣٣] ، وفي موضع آخر قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً . قَالَ أَرَأَيْتَكَ

هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿[الإسراء: ٦١، ٦٢] .

يكشف لنا هذا الحوار ما كان إبليس يعتقد في نفسه بأنه خير من آدم عليه السلام، فهو يجادل ربه تبارك وتعالى في ذلك محتقراً آدم مستصغراً له، يقول مدعياً وزاعماً بغير علم ولا حجة: أنا خير منه، يقول ذلك بكل تعال وتكبر أمام رب السموات والأرض الذي يعلم حاله وحال آدم، ويعلم من منهما خير من الآخر.

ولم يكن لإبليس ما يقوله تبريراً لإبائه أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام، إلا ذلك الزعم بأنه خلق من نار وآدم خلق من تراب، والنار في زعمه أفضل وأشرف من التراب، فلا يصح لمن أصله شريف أن يسجد لمن أصله حقير.

وهل كان لإبليس الرجيم على تقوله هذا برهان بين؟ كلا، بل كان ذلك منه جدلاً بالباطل لدحض الحق المبين، الذي لم يخف عليه، وهو كون آدم خيراً منه إذ خلقه الله عز وجل بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، فمن كان له هذا المقام عند الله عز وجل، هل يكون غيره خيراً منه؟ هذا قول لا يقوله وزعم لا يزعمه إلا متعاضم، معاند، حسود، وقد كان هذا شأن إبليس لعنه الله وأخزاه.

ولقد كان اللائق بإبليس حين زلت به القدم فعصى ربه واتبع هواه، أن يقر بخطيئته ويتوب إلى ربه منها، ولكن قد سبق عليه الكتاب، فكان تعظمه مانعاً له من التوبة، فأصر على العناد والمكابرة، فلعنه الله عز وجل وطرده وجعله ملعوناً إلى يوم القيامة،: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥].

ولا ينقطع الحوار عند هذا الحد، بل لازال فيه بقية تكشف لنا خبث تلك النفس التي بين ضلوع اللعين إبليس وماتكنه في خباياها من الغل والحسد والعداء لآدم عليه السلام وذريته من بعده، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٧]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ

لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴿[الإسراء: ٦٢] .

أقسم اللعين بعزة الله عز وجل بعد أن أمهله إلى يوم الوقت المعلوم لهلاك جميع خلقه حين لا يبقى على وجه الأرض من بني آدم ديار^(١)، يقسم على أن يئذل وسعه وجهه في إغواء بني آدم وإضلالهم عن صراط الله المستقيم، ويسلك لتحقيق هذه الغاية الخبيثة التي تقطر بغياً وغلاً وحسداً كل سبيل أمكنه .

لقد انقطعت حجة اللعين، وإن كانت من أصلها داحضة، فلجأ إلى هذا التهديد والوعيد؛ لينتقم من آدم عليه السلام الذي كان سبباً في استحقاقه اللعنة، بإغواء بنيه، فيكونوا معه في أصحاب السعير .

ولقد أخذ سائر المتكبرين هذا الخلق من قائلهم إبليس، يلجئون إليه حين تنقطع حججهم الواهية، ويدمغ الحق باطلهم، فتأخذهم العزة بالإثم، ويأنفون من الرجوع إلى الحق الذي تبين لهم وقد ضلوا من قبل طريقه، ثم يعلنون الحسد والعداء والبغضاء له ولأهله، وما يخفون في صدورهم من ذلك أكبر، فتراهم يتهددون ويتوعدون، وإن قدروا على شيء فعلوه .

وقد مر بنا في قصص المتكبرين من هذا القبيل ما يشهد لما ذكرت، فمر بنا قول قوم نوح عليه السلام له وهم يحاورونه في دعوته ورسالته: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، ومر بنا قول قوم شعيب عليه السلام له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ومر بنا حوار موسى عليه السلام مع فرعون عليه اللعنة، وقول فرعون لموسى عليه السلام بعد أن انقطع عن الحجة^(٢)، وخصمه موسى عليه السلام بالحق: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، كما مر بنا حوار فرعون مع السحرة، وكيف لجأ إلى التهديد والوعيد حين آمنوا وسجدوا لله رب العالمين، وقول الله تعالى في بيان ذلك: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٢/١٤ .

(٢) انظر: فتح القدير ٩٨/٤ .

فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطَّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُ لَكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿الشعراء: ٤٦-٤٩﴾ .

ومما قصه القرآن الكريم حوار دار بين المملأ المستكبرين من قوم صالح عليه السلام وبين المستضعفين المؤمنين، أعلن فيه المستكبرون تكذيبهم لصالح عليه وإصرارهم على الكفر، وهزئهم بمن آمن من المستضعفين، وأعلن المستضعفون المؤمنون ثباتهم على الإيمان بالله وبرسوله عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُم بِهِ كَاْفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] .

وحوار دار بين قارون الباغي بكنوزه، وبين العقلاء من قومه، ثم حوار دار بين المبهورين بزينة قارون ممن يريد الحياة الدنيا ويغفل عن الآخرة، وبين الذين أوتوا العلم فعلموا أن ما عند الله للمؤمنين خير مما أوتي قارون من زينة الحياة الدنيا، فأخذت بألباب الجاهلين، قال الله تعالى: ﴿إِن قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِذَا مَفَاتِحُهُ لِنُفُوسِ الْعُصَبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٠] .

وحوار دار بين غني متكبر وصاحبه الفقير المؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢] ، إلى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] .

وهذه قصة قد سبق ذكرها كما سبق ذكر ما قبلها، ولهذا أجد فيما سبق غنية عن الإطالة هنا . والله أعلم .

ولاننسى الحوار الذي دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أحد المتكبرين، وقد كان يأكل بشماله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قال: لأستطيع، قال: «لَا اسْتَطَعْتُ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ»، أي: مامنه من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الكبر والعظمة التي كان عليها، فكان أن دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «لَا اسْتَطَعْتُ»، فإذا هو عاجز عن رفعها إلى فيه.

وخلاصة القول: أن هذه الحوارات تكشف عن حال المستكبرين في الدنيا وماهم فيه من الإباء والإعراض والجدال والعناد والعتو والطغيان والاستكبار، ومايزعمونه من خيريتهم وأفضليتهم على سائر الناس، ولا يقال ذلك عنهم، بل تدينهم به أقوالهم، إضافة إلى أفعالهم.

وإذا كان هذا حال المتكبرين في الدنيا، فكيف يكون حالهم في الآخرة، هذا ماسنحاول معرفته من خلال نماذج من حوارات تدور في تلك الدار، وطرف من أطرافها أولئكم المستكبرون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

حوار يدور في سكرات الموت، أول لحظات الآخرة، حوار يسكت فيه المستكبرون ولا ينطقون، وليس سكوتهم ذلك عن تعظم واستكبار كما كان من قبل، ولكنه سكوت عن مهانة وذلة وصغار.

الذين ظلموا أنفسهم بافتراءهم واستكبارهم وقولهم على الله تعالى بغير حق في غمرات الموت وكرباته وسكراته وملائكة الجبار عز وجل باسطون إليهم أيديهم بالضرب والعذاب، ينتزعون أرواحهم بشدة^(١)، ثم يقولون لهم إمعاناً في تبكيته وإهانتهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾، أي: أخرجوها من هذه الغمرات التي وقعت فيها، أو أخرجوها من أيدينا وخلصوها من العذاب، أو أخرجوها من أجسادكم وسلموها إلينا^(٢)، قيل وذلك؛ لأن أرواحهم تتفرق

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٧٥/٧، والتحرير والتنوير ٣٧٨/٧.

(٢) انظر: فتح القدير ١٤٠/٢.

في أجسادهم إذا بُشِّروا بغضب الله تعالى عليهم وبما هم إليه صائرون من أنواع العذاب ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم التي أبت الخروج من أجسادهم^(١) .

ثم تقول لهم الملائكة اليوم : ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ ، أي : العذاب الذي تصيرون به في إهانة وذلة بعدما كنتم فيه من الكبر والتعاضم^(٢) .

هذا ماتقوله الملائكة الكرام لأولئك المستكبرين فهل نسمع لهم جواباً؟ أين تلك الألسنة التي لطالما جادلت وخاصمت وسفهت؟ لقد وقعوا في أهوال أخرصتهم ، وتبين لهم عجزهم وضعفهم وانكشفت لهم حقيقة تعظمهم وتكبرهم ، فماذا يقولون والذلة محيطة بهم؟ وهل يملكون إخراج أنفسهم من أجسادهم أو إبقائها فيها؟ ألا فبعداً للمتكبرين .

ويوم القيامة تدور حوارات بين المتكبرين ومن أضلوهم من المستضعفين ، وأخرى بينهم وبين الملائكة .

أما التي بينهم وبين المستضعفين فيقول الله تعالى في بيانها : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ غَنَاءٍ أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مَجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذِ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿وَإِذِ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٣/٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ١٤٠/٢ .

لقد كان المستكبرون من القادة أهل الرئاسة والملك والمال يصدون المستضعفين من أتباعهم عن الإيمان ، ويقولون لهم : ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] ، ويقولون : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨] ، يستخفونهم بذلك ؛ ليظلوا أتباعاً لهم ويظلوا هم سادة متبوعين .

أما في ذلك اليوم وقد ظهر الجميع من قبورهم واجتمعوا سادة وأتباعاً في مكان بارز من الأرض ليس فيه شيء يستر أحداً^(١) ، فالحال غير الحال ، والمقال غير المقال .

يتحاررو الفريقان ويتراجعون القول ، يقول الذين استضعفوا ، وقد خرسوا في دنياهم وما نطقوا وهم يقادون إلى الضلال ، وفي ذلك اليوم ينطقون ويجابهون المستكبرين ، ولكن قد ضرهم سكوتهم في الدنيا ، فلا ينفعهم نطقهم يوم القيامة .

يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ ، أي : في الدنيا كنا أتباعكم تأمرونا وتنهونا ونحن نسمع ونطيع ، ونصدر عن رأيكم ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَّغْنُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، أي : هل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا^(٢) .

يجيب الرؤساء المتكبرون : ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ ، أي : لو بين لنا شيئاً ندفع به عذابه عنا اليوم لبيناكم ذلك ، حتى تدفعوا العذاب عن أنفسكم^(٣) .

لقد خلعت أُرْدِيَةُ العظيمة والاستعلاء عن أولئك الذين لبسوها ظلماً وعدواناً ، فإذا هم عراة إلا من لباس الذلة والصغار ، فلا يملكون دفع الضر عنهم ولا عمن غروهم ولا تحويلاً . يقولون أذلاء صاغرين : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ ، قيل : يقولون ذلك ومعناه : لا منجى لنا

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٩٩/١٣ .

ولامهرب من عذاب الله^(١) ، بعد أن يقول بعضهم لبعض : تعالوا إنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل ، فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم ، قالوا : تعالوا ! فما أدرك أهل الجنة الجنة إلا بالصبر ، تعالوا نصبر ، فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ ، أي : لا خلاص لنا مما نحن فيه من العذاب إن صبرنا عليه أو جزعنا منه^(٢) .

ويتلأوم أولئك الظالمون من كبراء متبوعين ومستضعفين تابعين ، وهم يتجاورون ، فيلقي كل فريق منهم اللائمة على الآخر ، يقول المستضعفون : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ، أي : لولا أنتم أيها الرؤساء والكبراء صددتمونا ومنعتمونا عن الإيمان بالله وآياته ورسله^(٣) ، لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به^(٤) ، فيجيب المستكبرون منكبين مستكبرين لما قالوه : ﴿أَنْحُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مَجْرِمِينَ﴾ ، أي : لم نمنعكم نحن عن الإيمان ، فما فعلنا بكم أكثر من أن ادعوناكم فاتبعتمونا من غير حجة ولا دليل ، وخالفتم الأدلة والبراهين التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك^(٥) ، فأنتم الذين منعتم أنفسكم من الإيمان وصددتموها عن الهدى بعد إذ جاءكم ؛ لأنكم كنتم كثيري الإجرام عظيمي الآثام^(٦) ، فأعاد المستضعفون الكرة وعادوا يؤكدون للمستكبرين أنهم هم الصادون لهم عن سبيل الهدى والإيمان ، قالوا : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ ، أي : بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً وتغروننا وتمنوننا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ، يقولون : لقد مكرتم بنا في الليل والنهار حين أمركم لنا أن نكفر بالله تعالى ونجعل له أمثلاً

(١) انظر : فتح القدير ١٠٣/٣ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٩٧/٢٢ ، وفتح القدير ٣٢٨/٤ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٥٤٧/٣ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ٩٧/٢٢ ، وفتح القدير ٣٢٨/٤ .

(٦) انظر : فتح القدير ٣٢٨/٤ .

وأشباهاً ونظراء في العبادة والألوهية^(١).

وينقطع هذا الحوار والتلاوم والعتاب الذي ليس بمجد عنهم شيئاً على شيء واحد اتفق الفريقان على إسراره ، كما أخبر بذلك الحق ، فقال : ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ، أي : أضمر كل فريق الندامة على ماسلف منهم من الكفر والتفريط في طاعة الله ، وأخفى كل فريق ندامته عن الآخر مخافة الشماتة ، وقيل : المراد بـ(أسروا) هنا : أظهروا ؛ لأنه من الأضداد ، يأتي بمعنى الإخفاء ، كما يأتي بمعنى الإظهار ، وقيل معنى أسروا الندامة : تبينت الندامة في أسرة وجوههم^(٢).

وسواء أسروا الندامة أو أظهروها ، فماهي بمنجيتهم من عذاب الله ، ولهذا قال الحق عز وجل : ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، أي : ربطوا بالسلاسل من الحديد مجموعة أيديهم مع أعناقهم^(٣) ، جُوزوا بذلك بسبب ماكانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الخبيثة^(٤) ، وأعظمها الشرك بالله والاستكبار عن توحيده وطاعته .

هذه أمثلة لحوارات تجري يوم القيامة بين المستكبرين والمستضعفين ، وهناك حوارات تجري بين المستكبرين والملائكة ، فالله تعالى يقول : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] ، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ . الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنِينَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ . ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي

(١) انظر : تفسير الطبري ٩٨/٢٢ .

(٢) انظر : فتح القدير ٣٢٩/٤ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٥٤٨/٣ ، وفتح القدير ٣٢٩/٤ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٩٨/٢٢ .

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ . ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٩﴾ [غافر: ٦٩-٧٦] .

وسياتي - بإذن الله - عند الحديث عن أسلوب الترهيب شيء من
التفصيل في هذه الآيات ، ولكن لأغفل هنا عن الإشارة إلى اعتراف أولئك
المستكبرين بأنهم كانوا على ضلالة حين استكبروا عن عبادة ربهم جل جلاله ،
وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً ، ولكنه اعتراف تأخر كثيراً
فما أغنى عنهم من الله شيئاً .

ثالثاً : أسلوب الأمر والنهي :

الأمر هو قول القائل لمن دونه : افعل^(١) ، والنهي ضده ، أي : قوله : لا تفعل^(٢) .

والأمر الناهي هنا هو الله عز وجل أو رسوله صلى الله عليه وسلم الذي يتلقى ذلك من الله تعالى ، فيقوم به في ذات نفسه ، ويأمر به غيره من الذين أرسل إليهم .

وأسلوب الأمر والنهي هو أسلوب إيجاب على العباد ، بأن يعملوا بمأمره وأن يعملوا به ، وأن ينتهوا عما نهوا عنه ، وأن يتصفوا بمأمره أن يتصفوا به من حسن الأخلاق وحميدها ، وأن يتجنبوا الاتصاف بكل سيئ نهوا عن الاتصاف به .

فإن خالفوا شيئاً من ذلك كانوا عُصاة يستحقون العقاب من الله تعالى كل بقدر معصيته ، إلا أن يعفو الله تعالى عمن يشاء ، فذلك إليه ، له الحكم والأمر سبحانه وتعالى .

وعلى ضوء ماسبق ، فإن أسلوب الأمر والنهي في قضية التكبر يأتي على صورتين :

١ - الأمر بالتواضع ، وهو ضد الكبر ، أي : الخضوع للحق والانقياد له ، وعدم الترفع على الناس . أو بما يدل عليه كالرفق واللين والإحسان والرحمة والخشوع والتضرع والوقار...

٢ - النهي عن التكبر ، أو ما يدل عليه من الصفات والآثار كالظلم والبغي والبطر والعدوان...

أولاً : الأمر بالتواضع :

قال الله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] ، وقال تعالى : ﴿لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] .

خفض فلان الشيء يخفضه خفضاً : هبط به ، والخفض : نقيض الرفع ،

(١) انظر : التعريفات ص ٥٣ .

(٢) انظر : التعريفات ص ٣١٦ .

والتخفيض : التسكين وتهوين الأمر ، فهو «تفعيل» من الخفض ، بمعنى : الدعة والسكون^(١) .

والجناح يطلق في الحقيقة على يخفق به الطائر عند الطيران ، وقد يطلق على يد الإنسان أو عضده أو جانبه ، ويطلق الجناح على الناحية^(٢) .
وخفض الجناح في الآيتين الكريمتين كناية عن التواضع ولين الجانب ، وأصله : أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفاً لتواضع الإنسان لأتباعه ، ويقال : فلان خافض الجناح ، أي : وقور ساكن^(٣) .

وخفض فلان جناحه لفلان : ألان له جانبه وتواضع معه وتفرق في معاملته ، وكأن الإنسان يهبط بنفسه كما يفعل الطائر عند هبوطه ، وذلك ليرفع الإنسان غيره في المعاملة^(٤) .

فإذاً ههنا أمر من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يتواضع لمن آمن به واتبعه ، ويرفق بهم ويلين جانبه وكلامه لهم ، ولا يغلظ عليهم^(٥) ، وأن يظهر لهم المحبة والكرامة ، وأن يتجاوز عنهم^(٦) .

وقد جاء الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الموضعين بأسلوب الأمر والطلب ، وفي هذا إشارة إلى علو مكانة هذه الفضيلة الأخلاقية ، فضيلة التواضع وشرفها ، وإلا لما طوّل الرسول صلى الله عليه وسلم بها أكثر من مرة ؛ ليكون قدوة للناس ومثالاً يحتذى في التمسك والتخلق بهذا الخلق الكريم^(٧) .

وتوجيه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الإمام والقدوة والقائد والمربي ، فما خوطب به صلى الله عليه وسلم شمل أمته ، فالأمر هنا

(١) انظر : موسوعة أخلاق القرآن ، للدكتور : أحمد الشرباصي ٢٨/٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : فتح القدير ١٤٢/٣ .

(٤) انظر : موسوعة أخلاق القرآن ٢٩/٣ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٢٣/١٩ ، ٦١/١٤ .

(٦) انظر : فتح القدير ١٢٠/٤ .

(٧) انظر : موسوعة أخلاق القرآن ٣٠/٣ .

يشمل كافة المؤمنين بالتخلق بخلق التواضع ، فكل مؤمن مطالب بأن يرفق بإخوانه ويتواضع ويلين لهم ويحسن إليهم .

وَأَلَمَح -والله تعالى أعلم- في توجيه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بالتواضع لأتباعه من المؤمنين ، إشارة إلى أن القائد والإمام عليه أن يحذر من التعالي على أتباعه ورعيته إذ ولاه الله تعالى أمرهم ، وذلك لأن الجاه والسلطان - كما سبق وذكرنا- من دواعي التكبر والتعالي .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] .

قضى بمعنى : أمر^(١) ، والمقصود : أن الله عزوجل أمر بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه لا إله إلا هو سبحانه وتعالى ، كما أمر عزوجل بالإحسان إلى الوالدين ، ثم بين سبحانه وتعالى صوراً من ذلك الإحسان الذي هو البر والإكرام^(٢) ، فقال : ﴿ إِمَّا يَنْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ ، أي : في كنفك وكفالتك ، وتوحيد الضمير في (عندك) و(لاتقل) وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهي بما فيه النهي ومأمور بما فيه الأمر^(٣) .

﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ ﴾ ، أي : لاتقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد^(٤) ، والمعنى : (لا تُسَمِّعُهُمَا قَوْلًا سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء^(٥)) ، والمراد : نهى الابن عن إظهار ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستئثار لهما^(٦) .

(١) انظر : تفسير الطبري ٦٢/١٥ .

(٢) انظر : زاد المسير ٢٢/٥ .

(٣) انظر : فتح القدير ٢١٨/٣ .

(٤) انظر : فتح القدير ٢١٨/٣ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٣٧/٣ .

(٦) انظر : فتح القدير ٢١٨/٣ .

﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ ، أي : لاتزجرهما وتغلظ لهما بالقول^(١) ، وقيل : لا يصدر إليهما منك فعل قبيح^(٢) .

وبعد نهى الولد عن مقابلة والديه بالقول والفعل القبيح ، أُمر بمقابلتهما بالحسن من القول والفعل^(٣) .

﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ، أي : لينا لطيفاً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم^(٤) .

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ ، أي : تواضع لهما فوق طاعتهما وحفظ حقوقهما ، ورعاية حرمتهما ، فاخفض لهما جناح الذل بليين المنطق وجميل اللقاء ولطف المعاملة وحسن المداراة والمبادرة إلى الخدمة والصبر على أمرهما ، وترك التبرم بمطالبهما^(٥) .

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ، أمر الابن بأن يدعو الله تعالى لوالديه بالرحمة قائلاً : رب ارحمهما كما رباني صغيراً ، أي : تعطف عليهما بمغفرتك ورحمتك كما تعطفاً عليّ في صغري ، فرحماني ورباني صغيراً حتى استقلت بنفسي واستغنيت عنهما^(٦) .

أقول : هذه إشارة فقط لما في الآية من الأمر بالتواضع للوالدين ، وقد خصا بذلك ؛ لأن حقهما يعلو على حقوق سواهما من سائر الناس ، والابن مهما قدم لهما من إحسان فإنه لا يستطيع أن يوفيهما بعض حقهما عليه ، ولهذا فإن الله عز وجل جعل الإحسان إليهما قرين توحيده كما قرن في آية أخرى شكرهما بشكره ، فقال : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] .

والإحسان إلى الوالدين وبرهما موضوع خاص من موضوعات القرآن

(١) انظر : تفسير الطبري ٦٥/١٥ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٧/٣ .

(٣) انظر : المصدر السابق .

(٤) انظر : المصدر السابق .

(٥) انظر : موسوعة أخلاق القرآن ٣٢/٣ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ٦٧/١٥ .

الكريم والسنة المطهرة ، أولياه عناية عظيمة ، وحوت الآيات والأحاديث فيه أسراراً وحكماً وفوائد ولطائف ودقائق جليلة بديعة ، تضيق هذه الأسطر عن بيانها ، وهي جديرة بأن يطلع عليها في مظانها من كتب التفسير والحديث .
ومن أمثلة الأمر بالتواضع في النصوص النبوية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، وَلَا يَغِي بِعِضْكُمْ عَلَى بَعْضٍ » ، فهذا أمر بالتواضع وبيان أن نتيجته أن لا يفخر ولا يغني أحد على أحد ، والتكبر ضده .

ومن قبيل الأمر بالتواضع الأمر بما يدل عليه ، كالإحسان والرفق والرحمة وغيرها ، ومن ذلك قول الله تعالى يصف رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَنفَضَّوْا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

يمدح الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه بسبب الرحمة العظيمة التي جعلها الله تعالى في قلبه لان وترفق بأصحابه ، وهذا من التواضع ، ولهذا بين الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه لو كان على الضد من ذلك بأن كان فظاً غليظ القلب ؛ لكان ذلك سبباً في تفرقهم من حوله هيبة له واحتشاماً منه .

والفظ : الغليظ الجافي ، وقيل : الكريه الخلق . وغلظ القلب : قساوته وقلة إشفاقه وعدم انفعاله للخير^(١) .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأمور تدل على التواضع واللين ، فقال : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ ، أي : فيما يتعلق بك من الحقوق ، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ، أي : استغفر لهم الله فيما هو إليه عز وجل^(٢) ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، الذي يرد عليك أي أمر كان مما يشاور في مثله ، وإن كان السياق يفيد المشاورة في أمر الحرب ؛ والمراد بالمشاورة في الأمور التي لم

(١) انظر : فتح القدير ٣٩٣/١ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

يرد بها الشرع ، وفي الأمر بها تطيب لخواطرهم واستجلاب لمودتهم ، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك ؛ حتى لا يأنف منه أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

ويستفاد من الآية الكريمة أن العفو عن الناس والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمور التي يحتاج إلى المشاورة فيها هي من التواضع واللين ، فدل ذلك على أن المتكبر يأنف من فعلها ، فلا يعفو عن أحد صدر منه بعض الخطأ في حقه ؛ لأنه يرى نفسه فوقه ، ولا يستغفر لأحد ؛ لأنه يرى نفسه ناجياً وغيره هالكاً ، ولا يشاور أحداً ؛ لأنه يرى الصواب ما يأتيه والحق ما يراه ، فلا يحتاج إلى أن يشاور أحداً في أي أمر ، وكيف يشاور من يراه أقل منها فهماً وإدراكاً وخبرة وعقلاً؟

ومن قبيل الأمر بما يدل على التواضع الأمر بالإحسان إلى كافة الناس ، كما قال الله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] ، ففي ختم الآية الكريمة ببيان بغض الله تعالى وعدم محبته للمختال الفخور ، بعد أمره جل جلاله بالإحسان إلى المذكورين فيها ، إشارة إلى أن المختال الفخور وهو المتكبر المعدد للمآثر يأنف من الإحسان إليهم ، وفي ذلك دلالة على أن الإحسان من أخلاق المتواضعين ، ولهذا أمر الله تعالى به .

ونظير هذه الآية في الدلالة على أن الإحسان من أخلاق المتواضعين التي يأمر الله تعالى بها ، قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] ، قيل : العدل هو : الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، وقيل : العدل : لإله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض ، وقيل : العدل : الفرض ، والإحسان : النافلة ، وقيل : العدل : استواء العلانية والسريرة ،

(١) انظر : فتح القدير ٣٩٣/١ .

والإحسان : أن تكون السريرة أفضل من العلانية^(١).

﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ ، أي : إعطاء القرابة ماتدعو إليه حاجتهم ، وهذا إرشاد إلى صلة الأرحام وترغيب في التصديق عليهم^(٢) ، وقد حض الله تعالى على إيتاء ذي القربى مع أنه داخل تحت عموم العدل والإحسان ؛ لتأكيد حقهم وتعين صلتهم وبرهم والحرص على ذلك^(٣).

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ ، قيل : الزنا^(٤) ، وقيل : البخل^(٥) ، وقيل : « كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق ، وغير ذلك من الفواحش »^(٦) .
﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ، ماأنكره الشرع ونهى عنه^(٧) ، فيعم كل ذنب ومعصية تتعلق بحق الله تعالى^(٨) ، وقيل : الشرك .

﴿وَالْبَغْيِ﴾ ، قيل هو : الكبر ، وقيل : الظلم^(٩) ، وقيل : الحقد ، وقيل : التعدي ، وحقيقة البغي : تجاوز الحد ، فيشمل هذه المذكورة ، ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر ، وإنما خص بالذكر ؛ لمزيد الاهتمام ببيانه لشدة ضرره ووبال عاقبته^(١٠) .

فهذه الآية كما ذكر آية جامعة لأصول التكليف كلها^(١١) ، جامعة لكل المأمورات والمنهيات ، لم يبق شيء إلا دخل فيها ، فهي قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات ، فكل مسألة مشتملة على عدل وإحسان أو إيتاء ذي القربى ،

(١) انظر : فتح القدير ٣/١٨٧، ١٨٨.

(٢) انظر : فتح القدير ٣/١٨٨.

(٣) انظر : تفسير السعدي ص ٣٩٩.

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٤/١٦٢.

(٥) انظر : فتح القدير ٣/١٨٨.

(٦) تفسير السعدي ص ٣٩٩.

(٧) انظر : فتح القدير ٣/١٨٨.

(٨) انظر : تفسير السعدي ص ٣٩٩.

(٩) انظر : تفسير الطبري ١٤/١٦٣.

(١٠) انظر : فتح القدير ٣/١٨٨.

(١١) انظر : فتح القدير ٣/١٨٨.

فهي مما أمر الله به ، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي ممانهى الله عنه^(١) .

قلت : فوجه الدلالة على أن الإحسان ومأمر به في الآية مما يدل على التواضع ، أنه قد جاء النهي عقب الأمر عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وقد رأيت أن البغي قد فسر بالكبر ، فإذا الكبر يمنع من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى . والله تعالى أعلم .

ومن قبيل الأمر بما يدل على التواضع قول الله عز وجل : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، فهذه آية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم بأخذ ماسمحت به أنفسهم وسهل عليهم من الأعمال والأخلاق ، فلا يكلفون مالا تسمح به طبائعهم ، بل يُشكرون على كل قول وفعل جميل صدر منهم ، ويتجاوز عن تقصيرهم ، ويغض الطرف عن نقصهم ، ولا يُتَكَبَّر على الصغير لصغره ، أو ناقص العقل لنقصه ، أو فقير وعاجز لفقره وعجزه ، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم^(٢) .

ثانياً : النهي عن التكبر :

لم يرد النهي بصيغته في القرآن الكريم عن التكبر بلفظه ، وإنما ورد النهي عن بعض مظاهره في السلوك ، وفي ذلك زيادة دلالة على أن الذي يمارس الكبر في الظاهر قد اكتمل واستقر عنده في نفسه ، وقد ورد في السنة النبوية هذا وذاك .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

هذه آية ضمن آيات بينات من سورة الإسراء جاء فيها مجموعة من الأوامر والنواهي بدءاً بالنهي عن عبادة غير الله والأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وانتهاءً بما جاء في هذه الآية من النهي عن المشي في الأرض على سبيل التكبر والخيلاء ، وبينهما أوامر ونواهي أوجز ذكرها للفائدة فيما يلي :

(١) انظر : تفسير السعدي ص ٤٠٠ .

(٢) انظر : تفسير السعدي ص ٢٧٦ .

١ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما ، والتواضع والدعاء لهما وإسماعهما كريم القول ، والنهي عن الإساءة لهما بقول أو فعل وإن دق وصغر ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] .

٢ - الأمر بإعطاء كل من ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقه ، وإذا لم يجد ما يعطيهم وقد طلبوه ، فإنه مأمور بالقول الميسور لهم ، وهو : أن يعدهم بلين ورفق أنه يصلهم إذا جاء رزق الله^(١) .

٣ - النهي عن التبذير وهو الإنفاق في غير حق .

٤ - النهي عن الإسراف في الإنفاق بأن يعطي فوق طاقته ويخرج أكثر من دخله .

٥ - النهي عن البخل والتقتير .

ودليل هذه الأربعة قول الله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٩] .

٦ - النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر والحاجة ، وقد كان هذا يحدث في الجاهلية قبل الإسلام ، ومنه وأد البنات ودفنهن أحياء ، وهو يحدث في الجاهلية المتحضرة الحاضرة بصورة أو بأخرى ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١] .

٧ - النهي عن جريمة الزنى ، بل عن مقاربتة ومخالطة أسبابه ودواعيه ، فإنه ذنب عظيم ، وبئس الطريق هو يسلكه المرء لقضاء شهوته^(٢) ، قال الله

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٠/٣ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤١/٣ .

تعالى : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] .

٨ - النهي عن قتل النفس التي حرم الله بغير حق شرعي ، قال الله

تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣] .

٩ - النهي عن أكل مال اليتيم أو التصرف فيه ، وصرفه في غير وجهه ،

قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤] .

١٠ - الأمر بالوفاء بالعهد ، قال الله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ

كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] .

١١ - الأمر بإيفاء الكيل والوزن بالعدل من غير تطفيف ولا بخس ، قال

الله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] .

١٢ - النهي عن القول بغير علم ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

هذه هي الأوامر والنواهي التي أشرت إليها وقد ختمت بقول الحق

سبحانه وتعالى : ﴿كُلَّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨] .

﴿سَيِّئُهُ﴾ ، فيها قراءتان :

الأولى : (سَيِّئَةً) : بالتأنيث والتنوين غير مضاف^(١) ، والمعنى على هذه

القراءة : أن كل أمر ورد النهي عنه من قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ ،

إلى قوله : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ، فهو سيئة فاحشة مؤاخذ عليها ،

مكروها عند الله عز وجل لا يحبه ولا يرضاه^(٢) .

الثانية : (سَيِّئُهُ) بالتذكير والإضافة^(٣) ، والمعنى على هذه القراءة : أن

ماسبق ذكره من الأوامر والنواهي من قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ...﴾ ، إلى

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو . انظر : السبعة لابن مجاهد ص ٣٨٠ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤٤/٣ .

(٣) وهي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي . انظر : السبعة لابن مجاهد

قوله : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ، فهو إما أمر بحسن أو نهى عن سيء ، فالسيء منه مكروه عند الله مؤاخذ عليه فاعله^(١) .

ثم ختمت الآية بمثل ما افتتحت به ، فربطت هذه الأوامر والنواهي بعقيدة التوحيد والتحذير من الشرك ، قال الله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] .

وقال تعالى في آية أخرى في معرض النهي عن التكبر بالنهي عن مظاهره في السلوك وهو سبحانه وتعالى يقص وصية لقمان الحكيم لابنه ، فكان من وصاياه قوله : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩] ، ينهاه عن إمالة خده ولبي عنقه ، وعن المشي في الأرض على سبيل التكبر والخيلاء مبنياً له أن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور هذه صفته .

ثم بين له أمراً طريقة المشي الحسن والقول الحسن ، وهو : أن يكون قصداً متوسطاً ، فخير الأمور دائماً الوسط .

ولاننسى الآية التي ذكرت عند الحديث عن الأمر بالتواضع ، فإنها كذلك ورد فيها النهي عن البغي ، وفسر بأنه التكبر - كما سبق - وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] .

هذا ماجاء في القرآن الكريم من النهي عن التكبر نهياً مباشراً مع الإشارة بأنه قد جاء فيه النهي عن أخلاق لها صلة بالكبر بوجه من الوجوه ، كالظلم والبطر والعدوان.... فالنهي عنها نهى عن التكبر كذلك ؛ لأنه يفضي إليها ، وهي موضوعات مستقلة بذاتها ينبغي أن تبحث في كافة جوانبها ، ولهذا آثرت الإشارة إليها لا التفصيل فيها . والله أعلم .

ومن أسلوب الأمر والنهي في القرآن الكريم - في مجال التكبر - الأمر بما ينافي التكبر والنهي عن طاعة المتكبرين فيما يطلبون من الباطل ، والأمر

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٤/٣ .

بالاستعاذة من المتكبرين وكبرهم لعظيم شرهم وفسادهم .

قال الله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ . إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥-٢٠٦] .

أمر من الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذكره في الأنفس ؛ لأن ذلك أدخل في الإخلاص وأدعى للقبول^(١) ، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ ، أي : مخلصاً خالياً^(٢) .

﴿تَضَرَّعاً وَخِيفَةً﴾ ، أي : اعمل ذلك تخشعاً لله وتواضعاً له^(٣) .

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ، أي : في خفاء لاجهار^(٤) .

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ، أول النهار وآخره ، وفي هذا إشارة إلى مزية وفضيلة هذين الوقتين على غيرهما^(٥) .

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ، عن ذكر الله الذين نسوه فأنساهم أنفسهم ، فحرموا خيري الدنيا والآخرة بإعراضهم عن من كل السعادة والفلاح في ذكره وعبوديته وإقبالهم على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به^(٦) . قيل : والمراد من الآية : الحض على الإكثار من ذكر الله عزوجل آناء الليل والنهار^(٧) ، خصوصاً طرفي النهار لشرفهما ، بإخلاص وخشوع وتضرع وتذلل وأدب ووقار وإقبال على الدعاء والذكر بالقلب واللسان وعدم الغفلة ، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلبه غافل لاه^(٨) .

(١) انظر : فتح القدير ٢/ ٢٨٠ .

(٢) انظر : تفسير السعدي ص ٢٧٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٦٦ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٦٦ .

(٥) انظر : تفسير السعدي ص ٢٧٧ .

(٦) انظر : تفسير السعدي ص ٢٧٧ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٣ .

(٨) انظر : تفسير السعدي ص ٢٧٧ .

وقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لِأَوْ» . قال <=

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ...﴾، فيه مدح للملائكة بأنهم خاضعون لله عز وجل بالعبادة، متواضعون متخشعون متذللون بين يديه بالسجود الذي هو أشرف عباده، يعظمون الله عز وجل وينزهونه عن كل ما لا يليق بقدسيته وجلاله يسبحونه الليل والنهار لا يفترون^(١). قيل: وإنما ذكرهم الله سبحانه وتعالى ومدحهم بهذا ليقترن بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم^(٢)، وأيضاً ليعلم العباد أن الله عز وجل لا يريد أن يستكثر بعبادتهم من قلة، أو يتعزز بها من ذلة، وإنما يريد عز وجل نفع أنفسهم، وأن يضاعف لهم الأجر والثواب أضعافاً مضاعفة^(٣).

ونظير هذه الآية الكريمة في الأمر بالعبادة التي هي دليل التواضع والخشوع، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهذا أمر بما ينافي التكبر، فإن الإخلاص لله تعالى في العبادة والخشوع له والركوع والسجود تذلل بين يديه طريق لاكتساب التواضع في سائر الأحوال.

وهناك نهي عن طاعة المتكبرين فيما يطلبون من الباطل وموافقتهم عليه، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد عرفنا من قبل أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلب منه كبراء قريش أن يطرد المستضعفين المؤمنين من حوله،

الترمذي: غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، سمعت عباساً العنبري يقول: اكتبوا عن عبد الله بن معاوية الجمحي، فإنه ثقة. انظر: سنن الترمذي ٥١٧/٥. والحديث عند الحاكم في المستدرک ٤٣٩/١، وقال: مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري، وقال الذهبي عنه: متروك.

(١) انظر: تفسير الطبري ١٦٨/٩، وتفسير ابن كثير ٢٩٣/٢، وفتح القدير ٢٨١/٢، وتفسير السعدي ص ٢٧٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢٩٣/٢.

(٣) انظر: تفسير السعدي ص ٢٧٧.

أمثال بلال وعمار وابن مسعود...رضي الله عنهم؛ ليجلسوا إليه ويسمعوا منه، أنفة أن يتساواوا بالمستضعفين، فجاء هذا الأمر الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم بأن لا يلتفت إلى ما يقولون ولا يطيعهم فيما يطلبون.

أما فيما يتعلق بالأمر بالاستعاذة من الكبر وأهله، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، قيل: المعنى: فاستجر بالله من شر هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء^(١)، أو من مثل ما ابتلوا به من الكفر والكبر^(٢).

وكما ورد النهي عن التكبر في القرآن الكريم، فكذلك ورد في السنة النبوية تارة بلفظه وأخرى بمعناه وما يدل عليه، ومن ذلك ما يأتي:

١ - قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إياكم والكبر، فإن الكبر يكون في الرجل وإن عليه العباءة»^(٣).

٢ - قوله صلى الله عليه وسلم «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا غير إسراف ولا مخيلة»^(٤).

٣ - قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، وَلَا يَبْغِي بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ»^(٥).

٤ - قوله صلى الله عليه وسلم: «وإياك والمخيلة، فإن الله تبارك وتعالى لا يحب المخيلة»، وفي رواية: «وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة»، وفي رواية أخرى: «وإياك وإسبال

(١) انظر: تفسير الطبري ٧٧/٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١١٢/١٥/٨.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ١٧٣/١، وقال في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات ٢٢٦/١٠.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

الإزار فإنه من الخيلاء»^(١).

٥ - وذكره صلى الله عليه وسلم لأصحابه وصية نوح عليه السلام لابنه وفي رواية لابنيه ، وفيها : «وَأَنْهَاكُمَا عَنِ الشُّرْكِ وَالْكَبْرِ»^(٢).

٦ - وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله عن الاستبرق : وما أظن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا حين نهى عنه إلا للتجبر والتكبر^(٣).

الاستبرق : ما غلظ من الحرير ، منسوج بالذهب ، وفيه بريق^(٤).

فهذه النصوص النبوية لا يخفى مافيها من النهي عن التكبر إما بلفظه «إياكم والكبر» ، «وَأَنْهَاكُمَا عَنِ الشُّرْكِ وَالْكَبْرِ» ، وإما بمرادفه ومظهر من مظاهره في السلوك : «وإياك وإسبال الإزار ، فإنها من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة» ، وإما بما هو من آثاره ونتائجه : «وَلَا يَغِي بِعُضُكُمُ عَلَى بَعْضٍ».

والخلاصة أنه عندما يأتي الأمر والنهي في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنما هو أمر بخير أو نهى عن سوء ، فعلى العبد لله أن يتلقى أوامره ونواهيه بالطاعة والانقياد ، فبذلك تستقيم دنياه وتصلح آخراه ، وبسواه يشقى ويخزى هنا وهناك .

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه أحمد ١/٣٢٠ ، ٣٥٣ .

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث ٩٧/٢ ، وتفسير الطبري ١٥/٢٤٣ ، وتفسير ابن

كثير ٣/٨٧ ، وفتح القدير ٣/٢٨٣ .

رابعاً : أسلوب الترغيب والترهيب .

هذا الأسلوب من أعظم خصائص القرآن الكريم والسنة النبوية في معالجة النفوس من انحرافها ، والسلوك بها سبيل الخير والرشاد ، وذلك لأن للترغيب والترهيب أثر بالغ في النفوس .

فالترهيب يكبح جماح شهواتها ، ويهذب سلوكها ورغباتها ، ويقوم اعوجاجها ، ويعالج أمراضها وأدواءها ، ويجعلها تنتهي عن كل سوء خشية أن تلقى من الجزاء عليه مالا طاقة لها به .

والترغيب يجعلها تسعى إلى الخير وتحرص على الفضائل رجاء الفوز والظفر بثمارها وخيراتها .

ذلك أن النفس البشرية مجبولة على الطمع والرغبة وحب ما يجلب لها السعادة ، وعلى الخوف والحذر وبغض ما يسبب لها الآلام ، ويجلب لها الشقاء والهوان والعذاب ، ويتأكد ويشتد طمعها أو فزعها ورهبتها عندما يأتيها الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ممن لا يخلف وعده ، وهو القادر على إنفاذ وعيده ، ولا مرية أن أقدر القادرين وأصدق الواعدين هو الله العظيم الجليل الكريم ، ذو العرش المجيد ، الفعال لما يريد سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن النفس المؤمنة به ترتعد وجلًا وهي تقرأ وعيده الحق في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتغمرها الطمأنينة ويدخلها الأمن وهي تتطلع إلى وعده الحق لمن أطاعه واتقاه بما لا يقدر قدره من النعيم المقيم .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] .

ولا يقتصر الخوف من وعيد الحق سبحانه وتعالى على النفوس المؤمنة به وبرسوله وآياته ، فحتى النفوس الكافرة المستكبرة إذا سمعت ذلك الوعيد ينالها من الرعب والفرع ما لا يوصف ، وأقرب مثال على ذلك ما كان من أمر عتبة بن ربيعة وقد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه في دينه ويعرض عليه أموراً من الدنيا ليرك الدعوة إلى توحيد الله ، فقرأ عليه الرسول صلى الله عليه

وسلم سورة فصلت من أولها حتى وصل قول الله عزوجل : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣] ، فقال له عتبة : حسبك! حسبك! وأمسك على فيه ، وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم ، فجاءوه وأغلظ له أبوجهل بالقول ، فكان مما قال لهم : فقرأ عليّ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ ، فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب^(١) .

ولا يكون الترهيب إلا من أمر يغيضه الله عزوجل لسوئه وقبحه ، ولا يكون الترغيب إلا في أمر يحبه الله عزوجل لحسنه وعظيم نفعه .

والتكبر خلق في غاية القبح من العباد ، ويمثل انحرافاً خلقياً خطيراً يدفع إلى الانحراف في المفاهيم الفكرية ويجنح بالإنسان عن سبيل الحق^(٢) ، ولهذا فإن الترهيب منه والترغيب في ضده من أعظم وسائل القرآن والسنة في علاج النفوس ووقايتها منه .

ولقد أخذ الترهيب والترغيب في مجال الكبر في القرآن والسنة صوراً متعددة ، منها :

١ - النار مثوى المتكبرين .

٢ - الجنة لا يدخلها متكبر .

الجنة والنار داران في الآخرة لاثالث لهما ، فالجنة نزل أولياء الله ، والنار مصير حزب الشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى . يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى . وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى . فَأَمَّا مَنْ طَفَى . وَآثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦٧٢/٥ ، ونسبه إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبي يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن جابر بن عبد الله .

قلت : هو في مصنف ابن أبي شيبة ٣٣٢، ٣٣١/٧ ، وفي مسند أبي يعلى ٣/٣٤٩ ، وفي دلائل النبوة ، لأبي نعيم ص ١٨٤ ، وفي مستدرک الحاكم ٢/٢٤٣ ، وفي سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٥٩ .

وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿[النازعات: ٣٤-٤٠] .

أما الجنة فما أدراك ما الجنة؟ نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، دار كرامة ورضوان، وفرح وحبور، فيها مما أعد الله لأهلها كما ورد في الحديث: «مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

وأما النار، فما أدراك ما النار، عذاب أليم مهين، وبؤس وشقاء لا ينتهي، وحسرات وكربات، فيها مما أعد لأهلها من صنوف العذاب ما تسقط الأفئدة عند سماعه وتقشع الأبدان وتشيب من هول ذكره الولدان.

ويكفي أن نقرأ بعض آيات من كتاب الله في وصف الجنة والنار لنعلم الفرق بين الدارين وأي فوز لأهل الجنة، وأي خسارة لأهل النار.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩-٣١] .

وقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

(١) الحديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٥٦١/٤، وفي كتاب التفسير سورة السجدة باب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، ٤٨١/٦، وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، ٨١٦/٩ .

وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٧٤/٤ .

وَلَوْ لَوُوا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ
الْحَمِيدِ ﴿[الحج: ١٩-٢٤] .

وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ . ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا
مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ . إِنَّ
الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ . وَنَادَوْا يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ
قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ . لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ
كَارِهُونَ ﴿[الزخرف: ٦٩-٧٨] .

وبعد فهذه إشارة لبعض مافي الجنة من نعيم لأهلها ، ومافي النار من
عذاب لأهلها ، الغرض منها : بيان أن المتكبرين قد توعّدوا في كتاب الله
تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بأن النار مثواهم وأنهم لا يدخلون
الجنة ، وفي هذا أعظم تهيب وأشد وعيد ، فمن الذي يسمع بالجنة على تلك
الصفة فلا يشاق إليها ويتمناها ويطلبها؟ ومن الذي يسمع بالنار على تلك
الصفة فلا يرجو السلامة منها؟

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ . لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿[الأعراف: ٤٠، ٤١] .

منتهى الوعيد والترهيب للمكذبين بآيات الله تعالى الذين تعظموا في
أنفسهم ، فأنفوا من قبولها وتمردوا عن الالتزام بها^(١) ، بأنهم أولاً : ﴿لَا تُفَتَّحُ
لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ ، أي : لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا ، وقيل : لأدعيتهم ،
وقيل : لأعمالهم فلا تقبل^(٢) ، وقيل : لا تفتح لهم أبواب الجنة فيدخلونها ؛ لأن
الجنة في السماء ، قيل : ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء

(١) انظر : تفسير الفخر الرازي ٧/١٤/٧٤ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٨/١٧٥، ١٧٦ ، وفتح القدير ٢/٢٠٥ .

وتوعدوا ثانياً بأنهم: ﴿لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، أي: لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، ولهذا عُلِقَ بالمستحيل وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة ولا يكون ذلك أبداً^(١).

ولما نفى الله عز وجل عن المستكبرين دخول الجنة كان ذلك دليلاً على دخولهم النار، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

وفي هذا ترهيب عظيم بأسلوب فيه تهكم بالمستكبرين، فلهم «مهاد» أي: فرش، ولهم «غواش» أي: لحف^(٢)، ولكن أي فرش وأي لحف؟ إنها من جهنم، وما في جهنم إلا النار، فنار من تحتهم ونار من فوقهم.

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

هذا وصف لحال الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالى والاستكبار عن الإيمان به عند احتضارهم ومجيء الملائكة لقبض أرواحهم بأنهم يظهرون السمع والطاعة والانقياد^(٣)، ويجحدون وينكرون ما كانوا يعبدونه من دون الله^(٤)، قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، عنده يقال لهم: بل كنتم تعملون السوء، وما خفي ذلك على الله تعالى، فإنه عليم بالذي كنتم تعملون، فمجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب وهذا الجحود شيئاً^(٥)، ثم يقال لهم: ﴿فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قيل: أبوابها السبعة، على قدر

(١) انظر: فتح القدير ٢/٢٠٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٨/١٨٢، وتفسير ابن كثير ٢/٢٢٣.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٥٨٨.

(٤) انظر: تفسير السعدي ص ٣٩٢.

(٥) انظر: فتح القدير ٣/١٥٩، وتفسير السعدي ص ٣٩٢.

منازلهم فيها^(١)، كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بهم^(٢)، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكنين فيها لا ينقلون عنها إلى غيرها^(٣)، ﴿فَلْبَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فلبس المنزل والمقام والمقيل من دار هوان وعذاب لمن كان متكبراً في الدنيا عن توحيد الله والإيمان بآياته واتباع رسله^(٤)، قال ابن كثير: «وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم»^(٥).

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ . ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٥، ٧٦].

وهكذا فإن هذه الآيات البينات تثبت أن النار مسكن المتكبرين، أما الجنة فإنهم لا يدخلونها، وفي هذا ترهيب وتخويف ووعيد شديد يردع النفوس عن غيها، ويجعلها تطامن من كبريائها خشية أن تحرم من جنة النعيم، وتصلى

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٤/٢٤.

(٢) انظر: تفسير السعدي ص ٣٩٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٣٤/٢٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٩٩/١٤، وتفسير ابن كثير ٥٨٨/٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٥٨٨/٢.

عذاب الجحيم .

ومما جاء في السنة في هذا المجال ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ »^(١) ، وفي رواية : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرِيَاءٍ »^(٢) ، وفي رواية : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ « ذَرَّةٌ » مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ »^(٣) .

وفي حديث آخر : « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ أَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ »^(٤) ، وفي رواية أخرى : « إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنَ الْكِبَرِ الْجَنَّةَ »^(٥) .

فدللت هذه الأحاديث النبوية على أن المتكبرين محرمون من الجنة ومأواهم النار ، وانظر كيف كان التهيب عظيمًا بأن توعده على أقل شيء من الكبر ، فمن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة ، وليس هذا فحسب ، بل إنه لا يجد ريحها ولا يراها .

وقد ذكر في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ... »

(١) راوي الحديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيان عنه ابن مسعود ، وفي رواية « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ » ٩٣/١ ، وأخرجه غيره من أهل السنن بألفاظ متقاربة .

انظر : سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ ، وسنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ٣٦٠/٤ ، ٣٦١ ، وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب في الإيمان ٣٥/١ ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع ٥٥٧/٢ ، مسند الإمام أحمد ٣٩٩/١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١ .

(٢) عند مسلم ٩٣/١ .

(٣) عند ابن ماجه في المقدمة ، باب في الإيمان ٣٥/١ ، وفي كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر ٥٥٧/٢ .

(٤) أخرجه أحمد عن عبدالله بن عمرو ٢١٥/٢ .

(٥) أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر ١٥١/٤ .

الحديث ، أن المراد بذلك التكبر عن الإيمان بالله تعالى وبكل ما أمر بالإيمان به ، وعن طاعته وكل من أمر بطاعته ، فذلك هو المحروم من الجنة أبداً ، لا يدخلها أصلاً إذا مات على ذلك ، ويدل على ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرن بين الكبر والكفر^(١) ، فمن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان دخل الجنة ، ومن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخلها .

وقيل : بل المراد أن الله تعالى ينزع الكبر من قلبه إذا أراد أن يدخله الجنة ، فلا يكون في قلبه كبر حال دخولها ، وذلك كما ينزع سبحانه وتعالى الغل من صدور أهل الجنة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧] .

واستبعد الإمام النووي رحمه الله هذين المعنيين ، وقال : « وهذان التأويلان فيهما بعد ، فإن هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف ، وهو الارتفاع على الناس واحتقارهم ، ودفع الحق ، فلا ينبغي أن يحمل على هذين التأويلين المخرجين له عن المطلوب ، بل الظاهر ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه ، وقيل : هذا جزاؤه لو جازاه ، وقد يتكرم بأنه لا يجازيه ، بل لابد أن يدخل كل الموحيدين الجنة ، إما أولاً ، وإما ثانياً ، بعد تعذيب بعض أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها ، وقيل : لا يدخلها مع المتقين أول وهلة^(٢) .

وحاصل القول : أن الكبر الذي يحرم من دخول الجنة أبداً هو الكبر عن الإيمان ، أما كبر الناس بعضهم على بعض دون أن يؤثر على قضية الإيمان فهو من كبائر الذنوب ، وكبائر الذنوب لا تخرج من دائرة الإيمان إلى الكفر ، وأصحابها يوم القيامة تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفر لهم وسترهم فأدخلهم الجنة برحمته ، وإن شاء جازاهم عليها وطهرهم بالنار منها بعدله ، ثم أدخلهم الجنة ، وهو سبحانه وتعالى الفعال لما يريد ، أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين سبحانه وتعالى .

(١) انظر : شرح النووي على مسلم ٩١/٢ ، وشرح السنة ١٦٦/١٣ ، والأخلاق الإسلامية ٦٧٠/١ .

(٢) شرح النووي على مسلم ٩١/٢ .

ولكن ليس معنى هذا أن يبقى العبد مرتكباً للكبائر دون توبة ورجوع إلى الله عزوجل ، يسول له الشيطان أن ذلك من حسن الظن بربه ، وكذب عدو الله ، فإن حسن الظن بالله يؤدي إلى حسن العمل ، أما أن يظل مصراً على مبارزة ربه بالمعاصي دون خوف ووجل منه ، ودون إجلال وتعظيم له ، ثم يقول : أنا أحسن الظن بربي ، فذلك غرر وليس بعده غرر^(١) ، بل فيه مشابهة للقوم الكافرين الذين يقول قائلهم مع كفره بربه وجحدته يوم لقائه : ﴿وَلَكِن رُّدِدْتَ إِلَىٰ رَبِّي لَا جِدْنَ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] .

ثم إن الله عزوجل قد قال في كتابه : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨] ، فمغفرة الله تعالى لعبده وتوبته عليه تتحقق على الوصف المذكور في هذه الآيات .

ثم ليحذر أصحاب الكبائر -ومنها الكبر- من أن يهُونَ عليهم الشيطان هذا الأمر ، فيوسوس لهم أنهم وإن دخلوا النار فإنما هي أيام معدودة ، ثم يخرجون إلى الجنة ، فإن مرد ذلك إلى الله ، ولا يعلم العبد ما عند الله ، ثم وإن أدخلوا النار ، ثم وسعتهم رحمة الله ، فأخرجوا منها إلى الجنة ، فهل لهم طاقة بعذاب النار ولوللحظة واحدة؟ إن غمسة واحدة في النار لكفيلة بأن تُنسى كل نعيم وكل لذة وجدها المغموس في دنياه ، ففي الحديث الصحيح : «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَارَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ

(١) انظر للفائدة ماسطره ابن القيم حول الفرق بين حسن الظن وبين الغرور في كتابه :

«الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ص ١٩-٤٥ .

فَيَقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ، فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَارَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(١).

ومما جاء في السنة النبوية من الترهيب بدخول المتكبرين النار وحرمانهم من الجنة، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلَأُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا كَ تَمْتَلِي وَيُزَوِّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا»^(٢).

فهذا الحديث إضافة إلى ما فيه من الترهيب بدخول الجبارين والمتكبرين النار، فإن فيه أيضاً دلالة على أن المتكبرين في الغالب هم العظماء والأشراف أصحاب الملك والجاه والسلطان.

وفيه أيضاً فضيلة الضعف والمسكنة والفقر بذكر أن أهل الجنة في الغالب هم ضعفاء الناس وعجزهم المحققون بينهم، الساقطون من أعينهم، وذلك بالنسبة إلى ما عند الأكثر من الناس، أما بالنسبة إلى ما عند الله فهم عظماء رفيعوا الدرجات، ووصفهم بالضعف والسقط بالنسبة إلى ما عند أنفسهم، فإنهم خاضعون لعظمة الله مظهرون فقرهم وضعفهم وعجزهم له سبحانه وتعالى، وهم لذلك في غاية التواضع والذلة في عبادته^(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة ٢١٦٢/٤.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة ق، باب قوله: (وتقول هل من مزيد) [ق: ٣٠] ٥١٥/٦.

وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢١٨٧، ٢١٨٦/٤.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧٦٨/٨.

ونحو هذا الحديث ماجاء في الصحيحين وغيرهما: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ غُتْلٍ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ» وفي رواية: «كُلُّ جَوَّازٍ زَنِيمٍ مُتَكَبِّرٍ»^(١).

ومن الأحاديث الواردة بالترهيب في دخول المتكبرين النار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(٢).

وخلاصة هذه الصورة من الترهيب: أن التكبر من أسباب دخول النار والحرمان من الجنة، وإنما كان كذلك؛ لأنه كما قال الغزالي: «يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها»^(٣)، ثم يذكر بعض تلك الأخلاق التي يحول الكبر بين العبد والتخلق بها، فالمتكبر لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، ولا يقدر على التواضع، وترك الحقد والغضب والإزاء بالناس واغتيالهم، كما لا يقدر على كظم الغيظ وقبول النصيحة...^(٤)، ثم يقول الغزالي: «فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه؛ ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هنا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه»^(٥).

وختاماً جاء في الحديث «مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثِ الْكِبْرِ وَالْغُلُولِ وَالَّذِينَ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٦)، وفي هذا ترغيب لمن ترك الكبر بأنه له على ذلك أن يجزيه الله تعالى فيدخله الجنة.

٣ - المتكبرون لهم عذاب أليم:

توعد الله عز وجل المتكبرين بأن يذيقهم من العذاب آلمه وأشدّه جزاء

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) إحياء علوم الدين ١٤٥/٤ .

(٤) انظر: إحياء علوم الدين ١٤٥/٤ .

(٥) إحياء علوم الدين ١٤٥/٤ .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه عن ثوبان رضي الله عنه، كتاب السير، باب ماجاء في

الغلول ١٣٨/٤، وابن ماجه في كتاب الصدقات، باب التشديد في الدين ١٠/٢،

وأحمد ٢٧٦/٥، وأخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي ٢٦/٢. المستدرک .

تكبرهم في الأرض بغير الحق ، وجاء ذلك الوعيد الحق في كتاب الله عز وجل
وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر ألوان من العذاب يذوقه المتكبرون
تنخلع من هول سماعه الأفتدة ، فهو عذاب أليم عظيم مهين .

قال الله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا
الَّذِينَ اسْتَكْفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣] .

يخبر الحق عز وجل أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام والملائكة
المقربين لن يأنفوا من الإقرار لله تعالى بالعبودية^(١) ، وفي هذا تقرير لمن اتخذ
عيسى والملائكة أرباباً من دون الله .

ثم قال تعالى ترغيباً وترهيباً : ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ، أي : من يعد نفسه كبيراً عن العبادة فيأنف تكبراً
عن عبادة الله تعالى والتذلل والخضوع له بالطاعة ، فإن مرد الجميع إلى الله
فيجازي كلاً بعمله ، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ﴾ ، أي : يوفي المؤمنين المقربين له بالوحدانية ، الخاضعين له بالطاعة
المتذللين له بالعبودية ، العاملين الصالحات من الأعمال ، يوفيهم جزاء أعمالهم
الصالحة وافياً تاماً ، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ، أي : ويزيدهم على ما وعدهم
من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب من الفضل والزيادة ما لم يعرفهم
مبلغه ولم يحد لهم منتهاه^(٢) ، ولم تنله أعمالهم أو تصل إليه أفعالهم أو يخطر
على قلوبهم ، ويدخل في ذلك كل مافي الجنة من نعيم للقلب والروح
والبدن ، بل يدخل فيه كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل
الصالح^(٣) .

ولما ذكر الله تعالى مالمؤمنين الخاضعين له الواجدين في العبودية له

(١) انظر : تفسير الطبري ٣٧/٦ ، ٣٨ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٣٨/٦ ، وفتح القدير ٥٤٢/١ .

(٣) انظر : تفسير السعدي ص ١٧٩ .

كل عزة ورفعة وسعادة ، ثنى سبحانه بذكر مالم تكبرين من العذاب الأليم ، فقال : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ [النساء: ١٧٣] .

إن المستكبرين عن التذلل لله بالطاعة والعبودية سيعذبهم الله عز وجل عذاباً أليماً موجعاً لا يدفعه عنهم دافع ، ولا ينقذهم وينجيهم منه ولي ولا نصير^(١) ، فإنهم في يوم لا حكم فيه إلا لله عز وجل ، وما حكم به سبحانه وتعالى فلا راد له ، وما قضاه فلا مغير له^(٢) .

وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ . ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨-١٠] .

وقد تقدم بعض البيان لهذه الآيات البينات ، وموضع الشاهد هنا هو ماتوعد الله به المتكبر المعرض عن الإيمان بالله المجادل فيه بغير هدى ولا بينة ، فقال تعالى : ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ، أي : نحرقه يوم القيامة بالنار جزاء ما قدمت يده في الدنيا من الذنوب والآثام واكتسبه من الإجمام^(٣) .

وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوّاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلى مُّسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦، ٧] .

ونحو هذا قول الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُوّاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ

(١) انظر : تفسير الطبري ٣٩/٦ .

(٢) انظر : تفسير السعدي ص ١٨٠ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٧/١٢٢ .

عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ أَلِيمٍ ﴿[الحاثية: ٧-١١] .

وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠] .

فهذه الآيات البينات قد جاء فيها الوعيد بالعذاب يذوقه المتكبرون ، ووصف ذلك العذاب تارة بأنه أليم ، اي : موحج^(١) ، وأخرى بأنه مهين ، أي : مذل مخزب^(٢) ، وثالثة بأنه : عظيم ، وفي هذا أعظم ترهيب من خلق الكبير الذميم .

وقد جاء في الحديث : « الْعِزُّ إِزَارَةٌ وَالْكَبرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذْبَتُهُ »^(٣) ، وفي حديث آخر : « ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ »^(٤) .

ولقد بين الله تعالى ألواناً من هذا العذاب الأليم المهين الذي سيذوقه المتكبرون ، فقال : ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مَنْ وَرَأَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَأَاهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [ابراهيم: ١٥-١٧] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مِمَّا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ . ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي

(١) انظر : تفسير الطبري ٦٤/٢١ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً في كتاب البر ٢٠٢٣/٤ ، باب تحريم الكبير .

(٤) أخرجه مسلم وسبق تخريجه .

الْأَرْضِ بغيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ . اذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٩-٧٦﴾ [غافر: ٦٩-٧٦] .

وأعظم بهذا من ترهيب يعمل عمله البالغ في النفوس حين لاتصم آذانها عنه، فيطهرها من دنس التكبر والتعظم ويزكيها بالتواضع والمسكنة .

٤ - المتكبر يبغيضه الله تعالى ولا يحبه وهو عليه غضبان لا يكلمه ولا ينظر إليه ولا يزيكه .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ، وقال تعالى : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] .

وفي الحديث : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشْيِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَان »^(١) ، وفي حديث آخر : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.... وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ »^(٢) ، وفي حديث آخر : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا »^(٣) ، وفي حديث آخر : « أَرْبَعَةٌ يَبْغِضُهُمُ اللَّهُ : الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي ، وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ »^(٤) .

ففي هذه النصوص وغيرها مما ذكر غير مرة صورة من الترهيب عظيمة ، فلا أعظم من أن يفقد العبد محبة الرب ويوء المخلوق بغضب الخالق .

إن الله تعالى إذا أحب عبداً كان به رحيماً ، وكان له ولياً ونصيراً وموفقاً ومسدداً ومعيناً وهادياً وحافظاً وراعياً ، فيحيى حياة السعداء في دنياه وقبره وآخرته ، وفي الحديث : « وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ »

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه .

وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ^(١) ، أي : أنه يسير في حياته على نور من الله مسدّد الخطأ ، موثقاً إلى كل خير ، محفوظاً من الزيغ والزلل ؛ لأن الله تعالى معه ، ومن كان الله معه فماذا يخاف؟ وماذا يرجو بعد ذلك؟

وإن الله تعالى إذا أبغض عبداً وكله إلى نفسه ، ثم لا يئالي به ، بأي واد هلك ، فيكفي المتكبر ترهيباً ، ويكفيه خسارة أن يفقد رعاية ربه عز وجل ومعيته وعنايته ورحمته وتوفيقه وتسديده .

وقد قيل في معنى : (لا يكلّمهم الله) ، أي : لا يكلّمهم تكليم أهل الخيرات ويأظهار الرضى ، بل بكلام أهل السخط والغضب؟ وقيل : المراد الإعراض عنهم ، وقال جمهور المفسرين : لا يكلّمهم كلاماً ينفعهم ويسرهم ، وقيل غير ذلك ، ومعنى : (لا يزيكهم) : لا يطهرهم من دنس ذنوبهم ، وقيل : لا يثني عليهم ، ومعنى : (لا ينظر إليهم) ، أي : يعرض عنهم ، وإذا أعرض الله تعالى عن أحد من خلقه لم يرحمه ولم يلفظ به^(٢) .

وتبعاً لمحبة الله تعالى وبغضه فإن رسوله صلى الله عليه وسلم يحب ما يحب ويبغض ما يبغض ، ولهذا فقد قال صلى الله عليه وسلم «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفِيهِقُونَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفِيهِقُونَ؟ قَالَ الْمُتَكَبِّرُونَ»^(٣) .

فتضمن هذا الحديث ترغيب أهل الأخلاق العالية الحسنة بمحبة رسول

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرقاق ، باب التواضع ٤٨٢/٨ .

(٢) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١١٦/٢ .

(٣) سبق تخريجه .

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ولم يذكر المتفيهقون . انظر : المسند ، ٣٦٩/٢ .

وأخرجه عن أبي ثعلبة الخشني بنحو حديث جابر عن الترمذي . انظر المسند ، ١٩٤-١٩٣/٤ .

الله صلى الله عليه وسلم لهم وبشارتهم بدخول الجنة ، حيث إنهم قرييون من الرسول صلى الله عليه وسلم مجلساً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى منازل الجنة .

كما تضمن ترهيب المتكبرين بغيض رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدهم منه مجلساً إما بحرمانهم من الجنة إن كانوا من أهل الخلود في النار ، أو بعدم نيلهم الدرجات العلى من الجنة . والله أعلم .

٥ - الطبع على قلوب المتكبرين :

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] ، أي : يختم الله عز وجل على قلوب المتكبرين ، فلا تعرف بعد ذلك معروفاً ولا تنكر منكراً^(١) ، ولا تعقل الرشاد ولا تقبل الحق^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ، والمعنى : سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ، ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي : كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل ، وقيل : سأصرفهم ، أي : سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا في الآيات ولا يعتبروا بها ولا ينتفعوا بها عقوبة ومجازاة لهم على تكبرهم^(٣) .

وذلك الصرف الذي توعد به المتكبرون هو بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها ، وذلك هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي وترك طريق الرشاد ما أوجب^(٤) .

إذاً ههنا ترهيب للمتكبرين بالطبع على قلوبهم ، فإذا هي لا تعرف معروفاً

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٦/٤ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٠٤/١٥/٨ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢٥٧/٢ .

(٤) انظر : تفسير السعدي ص ٢٦٦ .

ولا تنكر منكراً ، ولا تميز بين ضار ونافع ، ولا تفرق بين حق وباطل ، فإذا هم يتخبطون في الحياة على غير هدى ، وبئست الحياة حياة الحيرة والزيف والضلال .

٦ - الذلة والصغار للمتكبرين والرفعة للمتواضعين :

يقصد المتكبرون ويطلبون بتكبرهم علو الدرجة والمكانة ورفعة الشأن ، ولكنهم يجهلون الطريق الصحيح لنيل ذلك ، فيظنونهم بالتعظيم والتجبر ، وليس كذلك ، ولهذا فإنهم يُجازون بنقيض ما طلبوا ، حيث يهوي بهم تكبرهم إلى أسفل السافلين ، فينحط قدرهم من حيث بغوا رفعتهم ، ويحيط بهم الذل من حيث أرادوا العزة والاستعلاء .

ولقد مرت بنا قصص المتكبرين فرأينا من خلالها كيف أن الله تعالى أذلهم وأخزاهم ، وجعلهم عبرة لكل معتبر إلى يوم الدين .

كما مر بنا قريباً كيف أن الله تعالى توعد المتكبرين بالعذاب المهيمن الذين يُذَلُّون به غاية الإذلال ، مر بنا من ذلك ما يغني عن إعادته والتطويل فيه ههنا ، وإن كان مع ذلك لابد من الإشارة إلى بعض النصوص التي جاء فيها الترهيب بالذلة للمتكبرين ، والترغيب بالرفعة للمتواضعين ؛ لتطلع النفوس السليمة إلى التواضع وتنفر من التكبر .

قال الله تعالى مبيناً ما أنزله بإبليس من ذلة ومهانة حين استكبر عن طاعته في السجود لآدم عليه السلام : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣] ، وقال سبحانه تعالى : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً ﴾ [الأعراف: ١٨] ، (مذءوماً) ، أي : معيباً . (مدحوراً) ، أي : مطروداً^(١) .

طرد الله عز وجل إبليس من السماء أو من الجنة وكلاهما محل المطيعين لا يصلح أن يسكنها متكبر عن أمر الله ، وقال له : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ، أي : من أهل الصغار والهوان على الله تعالى وعلى صالحى عباده ، وهكذا يكون جزاء كل من تردى برداء الاستكبار أن يعاقب بلبس رداء الصغار

(١) انظر : تفسير الطبري ١٣٨/٨ .

والهوان ، ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء العزة والرفعة^(١) .

وقال تعالى عن عاد الذين قالوا : من أشد منا قوة : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لَّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦] .

وقال تعالى بعد ذكره إهلاكه قارون الباغي على قومه بكنوزه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] ، وهذا من باب الترغيب في التواضع بعد الترهيب من البغي والتكبر في قوله عن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ »^(٢) ، وفي سنن ابن ماجه « مَنْ يَتَوَاضَعُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دَرَجَةً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً وَمَنْ يَتَكَبَّرْ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً يَضَعُهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ »^(٣) ، وفي رواية : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ »^(٤) .

وعندما نتأمل هذه النصوص لا يخفى مافيهها من الترغيب والترهيب ، فالمتكبرون يضعهم الله ، وهذا ترهيب ، والمتواضعون يرفعهم الله ، وهذا ترغيب .

وفي هذه الصورة من صور الترغيب والترهيب نتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكور قريبا والذي فيه : « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ » ، وفي رواية : « أَلْقَيْتُهُ » ، فنرى كم تشعر هاتان اللفظتان : « قَذَفْتُهُ » ،

(١) انظر : فتح القدير ١٩٢/٢ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب العفو والتواضع ٢٠٠١/٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر ٥٥٨/٢ ، وفي إسناده أبو السمع المصري مختلف فيه .

(٤) أخرجه أحمد عن أبي سعيد ٧٦/٣ .

أَلْقَيْتُهُ» بما يلاقيه المتكبر من الهوان والذلة نظير ما كان عليه من تعظم واستكبار ، فإنه يُلقى ويقذف به ، فيستقر في دركات جهنم كما كان يتعالى ويتطاول في دنياه .

ومثل هذا ما فعل بقارون ، حيث خسف به الأرض ، فهو يتسافل فيها إلى يوم القيامة ، ومثله الرجل الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه خرج يخال ويتبختر فخسف به ، فهو كقارون يتسافل في الأرض حتى تقوم الساعة .

٧ - التواضع خلق مَنْ يحبه الله :

لقد وصف الله عز وجل ملائكته البررة ورسله الأخيار وعباده المؤمنين الأطهار مادحاً لهم بالتواضع والرفق والتضرع واللين ، وفي هذا ترغيب في سلوك طريقهم والتخلق بأخلاقهم ، فهم أولياء الله المقربون وكل فلاح في الاقتداء والتأسي بهم ، وكل خسارة في سلوك سبيل غير سبيلهم .

قال الله تعالى في وصف نبيه عيسى عليه السلام والملائكة الكرام : ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] ، وقال تعالى في وصف الملائكة عليهم السلام : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] .

وقال تعالى في وصف خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ الكمال في التواضع واللين والرحمة والرفق كما شأنه ^{هو} صلى الله عليه وسلم في كل خلق حميد ، والشواهد على ذلك أكثر من أن يتسع المقام هنا لذكرها ، وهي معروفة مبثوثة في كتب السنة والسير ، ونذكر منها للاستئناس قوله صلى الله عليه وسلم : «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١) .

وكانت أحواله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وفي بيته كلها تواضع ،

(١) سبق تخريجه .

يجلس بين أصحابه فلا يميزه من لا يعرفه ، ويمازحهم ويداعبهم ، ويمشي مع الأرملة والمسكين والصغير ، يقضي لهم حوائجهم ، ويخدم في بيته لا يستنكف من ذلك^(١)... ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً ، ورزقنا حسن التأسي به ، وجعلنا من رفقائه في دار الخلود .

وقال تعالى في وصف زكريا عليه السلام وأهله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ، أي : كانوا متواضعين متذللين لله ، لا يستكبرون عن عبادته ودعائه والتضرع إليه في حالي الرخاء والشدة^(٢) .

ووصف الله عز وجل عباده المؤمنين الكُمَّل بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وبقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعاً سُجّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مَنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩] ، وبقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

وخلاصة القول : أن الله عز وجل امتدح عباده الذين يحبهم من ملائكته ورسله والمؤمنين بالتواضع والاستكانة ، فكان في ذلك ترغيب لمن أراد أن ينال مانالوه من محبته ومعيته ورعايته ورضوانه ، فمن أراد ذلك التكريم والتشريف الإلهي ، فليقتد بهم وليرض لنفسه مارضوا لأنفسهم من التذلل والتخضع لله تعالى والتواضع لإخوانه من رفقائه .

٨ - الترهيب بذكر ما آل إليه المتكبرون من نزول بأس الله بهم :

لقد قص الله علينا قصص المتكبرين ، فرأينا من خلالها كيف أن الله عز وجل أنزل بهم بأسه الذي لا يرد ، فكانوا من المهلكين ، بعد إنذار وإمهال وإعذار ، وفي ذلك عظيم ترهيب لمن جاء من بعدهم أن يسلك مسلكهم ، فينزل به من بأس الله ما نزل بهم ، ويصيبه من الدمار والذلة والصغار

(١) للاستزادة من هذا الجانب ، انظر : أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة ، لأحمد عبدالعزيز الحداد ١/٤٥٨ — ٤٧٦ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٧/٨٤ ، وفتح القدير ٣/٤٢٥ .

مأصابهم ، قال الله تعالى : ﴿وَالِى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَأْقُومُ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . وَعَادًا وَثُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسَاكِينِهِمْ
وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .
وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ
مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٤٠] .

أكتفي بهذه الإشارة هنا ؛ لأنه قد سبق ذكر قصص المتكبرين ، وكيف
كان الدمار والحزى نهاية وعاقبة استكبارهم في الأرض بغير الحق ، وفيما
سبق غنيه عن الإعادة . والله أعلم .

خامساً : أسلوب التهكم والسخرية :

وهو أسلوب لا يخفى أثره على النفوس تقويماً وتهذيباً ، ولهذا أولته
النصوص الشرعية اهتماماً واضحاً لتعالج به النفوس من كثير من السلوكيات
المنحرفة المعوجة ومنها التكبر والتعالي .

وحين يستعمل النص من القرآن أو السنة هذا الأسلوب ، فإنه أولاً
لا يستعمله إلا في حق من يستحق التهكم والسخرية من المبطلين .

وثانياً لا يستعمله للتهكم والهزاء ذاته ، بل لتبكيك المبطلين وتقريعهم
والتنكيل بهم ؛ ليدوقوا العذاب أضعافاً مضاعفة .

وثالثاً : للتحذير والتنفير مما استوجب التهكم والسخرية من الأخلاق
والسلوكيات المردولة .

إن القرآن الكريم ينهى عن التكبر والتعالي الذي يرى فيه مبتغوه مظهراً
للسيادة وبسطة النفوذ ورهبة الجانب ، فيدفعهم هذا إلى اصطناع مظاهر فضة
خشنة من السلوك والحركات في المشي وفي الكلام وفي اللباس ... ، لكن
القرآن لا يسلك في النهي عن هذا أسلوب المعاني المجردة ، أو الوعيد
والترهيب فقط ، بل يسلك مع ذلك أسلوب السخرية اللاذعة البالغة التي ترسم
في ذهن السامع صورة شديدة النكر لمن يسلك هذا المسلك ، وبذلك
تتحول صورة المظاهر التي كان يصطنعها السادة وطلاب السيادة إلى صورة

منفرة لاثير إعجاباً ولا إكباراً ، ولا توههم سيادة ولا إرهاباً ، وإنما تثير سخرية وازدراء لمن يدنو منها^(١) .

ومثال ذلك ماجاء في القرآن الكريم من وصف لمظاهر الكبرياء التي كان يتمثل بها السادة ومقلدوهم ، والتي يمكن أن توجد في أي مجتمع بدافع حب السيادة أو التعالي على الناس ، فقد صور القرآن الكريم صورة لشخص متعال على الناس يمشي شامخاً بأنفة ، معرضاً عنهم بوجهه ، مختالاً مزهواً بكبريائه ، وقرن هذه الصورة ، بصورة جمل مريض بداء الصعر وهو داء يصيب الواحد من الإبل فيلوي عنقه فلا يستطيع أن يمشي معتدل العنق ، وإنما يمشي دائماً مُعوج الرقبة ملتويها^(٢) ، قال تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] .

ومظهر آخر للخيلاء والتعالي يصطنعه طلاب السيادة والترأس وهو اصطناع مشية خاصة تدل على بروز موضع صاحبها في المجتمع ، وتميزه عن غيره من الناس ، واصطناع صوت خاص أيضاً يتسلح به حين يحتك بالناس ويريد أن تبرز رَهْبَتُهُ ويظهر جبروته لهم ، وهذا الصوت يجنح إلى الإرهاب والتخويف بأن يكون قوياً شديداً ، فيأتي القرآن الكريم بأسلوب التهكم ليشوه تلك المشية بأن يجعلها بغیضة ممقوتة ، ثم يقرن ذلك الصوت المصطنع بأنكر صورة وهي صورة حمار ناهق ، وبذلك يفقد هذا الصوت تأثيره وهدفه ، بل يتحول إلى عكس المقصود منه ، فبدل أن يثير في نفس سامعيه الوجمل والرهبة ، يصبح بسخرية القرآن الكريم منه ، لا يثير إلا السخرية والتهكم بصاحبه^(٣) ، قال تعالى : ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] .

ومن صور التهكم بالمتكبرين ماجاء في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ . لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ

(١) انظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د/عبدالحليم حفني ص ٥٧، ٥٨ .

(٢) انظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د/عبدالحليم حفني ص ٥٧، ٥٨ .

(٣) انظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ٥٨ .

مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١] ، فههنا تهكم بالمتكبرين وهزاء بهم في موضعين :

الأول في قوله : ﴿ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ ، فالتعبير بكلمة « حتى » التي تفيد انتهاء الغاية يمثل للمستكبرين ويحمل في طياته لهم بصيص أمل في أن تفتح لهم أبواب السماء ويدخلون الجنة في وقت ما يأتي تحديده بعد « حتى » ، وقد حُدِّدَ ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ ، فلينتظروا حتى يحدث ذلك ، ولن يحدث أبداً ، فإذا لن تفتح لهم أبواب السماء ولن يدخلوا الجنة أبداً .

الثاني في قوله : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ ، فالمهاد هو الفراش ، وماهو بالفراش العادي ، بل هو الفراش الوثير المريح كما توحى بذلك كلمة «مهاد» ، والغواش هي : الأغطية واللحف ، ومن فراشه وثير لابد أن يكون لحافه ودثاره وثير ، ولكن أي فراش يتقلب فيه المتكبر؟ وأي لحاف يتدثره؟ إنهما من جهنم نارٌ تُلْطَى ، توقد عليهم من تحتهم وتغشاهم من فوقهم ، إذاً هو التهكم الذي يزيد المتكبرين عذاباً فوق عذابهم .

ومن صور التهكم بالمتكبرين كذلك ماجاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٦، ٧] .

وآية أخرى مشابهة لهذه الآية هي قوله تعالى : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحائية: ٨، ٧] ، الذي نعرفه من البشارة أنها في الأمر الحسن المحبوب ، ولكن المتكبر هنا يبشر بالعذاب الأليم ، فإذا حين تأتي البشارة بالأمر السيئ المبعوض لا يكون ذلك إلا من باب التهكم للتبكيك والتقريع ، والمنازع لله عزوجل صفة كبريائه أهل لذلك .

ومن صور التهكم بالمتكبرين كذلك ماجاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ، تهكم بالمتكبر من حيث إنه لا شيء بجوار جماد لا يعقل ولا يدرك ، فإذا هو مشى مختالاً يضرب الأرض بقدميه ، فلينظر هل يقدر على التأثير فيها؟! وإذا

هو تطاول قتلك الجبال إلى جواره مهما تطاول أيسطيع أن يطاول الجبال؟! كلا! إنه أضعف من أن يقدر على هذا وذاك .

وتأمل معي التعبير بكلمة (في الأرض) وهنا وفي القصص في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] ، وفيها أيضاً: ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤٤] ، وفي الأعراف في قوله: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ، وفي لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨] ، وفي الأحقاف: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠] .

تأمل هذا التعبير القرآني العجيب ، حيث لم يقل (على الأرض) ، وإنما قال: (في الأرض) لترى عظيم التهكم بالمتكبر المتطاول المتعالي ، فإنه مهما تطاول يبقى في الأرض ، ثم كرّر التأمل ، فستجد أنك كلما هممت أن ترفع بصرك ورأسك نحو الأعلى لترى المتكبر المتعالي في عليائه إذا بالتعبير القرآني يعيدك بسرعة لتتظر تحت قدميك ، فتري ذلك المتعالي لم يبرح ذلك المكان ، فأنت تهكم وأي تبكيت في هذا لكل متكبر لبس رداءً ليس له بأهل؟

ومن صور التهكم بالمتكبرين كذلك ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٩] ، قيل: نزلت هذه الآيات في شأن أبي جهل ، لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى . ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ ، فتزع ثوبه من يده وقال: ماتستطيع أنت ولاصاحبك من شيء ، ولقد علمت أنني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، قال: فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته ، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]» ^(١) .

(١) ذكره القرطبي في تفسيره عن عكرمة ١٠١/١٦/٨ ، وابن كثير ، ونسبه إلى الأموي في مغازيه أنه قال: حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا أبو بكر الهذلي ، عن عكرمة ، فذكره . انظر: تفسير ابن كثير ١٥٧/٤ ، والخبر في أسباب النزول ، للواحدي <=

قال ابن كثير: «والأثيم، أي: في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبوجهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به»^(١).

وموضع الشاهد من الآيات هو قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، فهذا القول يقال له على سبيل الاستخفاف والتهكم والتقريع والاستهزاء والتوبيخ والإهانة والتنقيص^(٢)، والمعنى: إنك أنت الذليل المهان، لست بعزيز ولا كريم كما زعمت^(٣)؛ نعم إنه استخفاف وتهكم بذلك الأثيم، فالعزيز الكريم حقاً معافى من ذلك العذاب الأليم المهيّن، وإنما يهان به من ليس بعزيز ولا كريم.

وحاصل ماسبق أن التهكم أسلوب قرآني نبوي يأتي للتنفير من أي سلوك غير سوي، لمعالجة النفوس منه، ولتبيكيت المصريين على التخلق به، وقد علمنا أن التكبر من أشنع السلوكيات وأسوأها التي يحرص القرآن والسنة على استئصالها من النفوس بكل أسلوب ووسيلة، ومنها هذا الأسلوب المذكور. والله أعلم.

سادساً: أسلوب التصوير :

يعرض القرآن والسنة مشاهد حية يظهر المتكبرون من خلالها في صورة بشعة منفرة تأبى كل نفس سليمة أن تتمثل فيها، وذلك بغرض التنفير من خلق التكبر البالغ ذروة السوء والقبح.

ومن ذلك ما مر ذكره في أسلوب التهكم عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

ص ٤٣٦ .

(١) تفسير ابن كثير ١٥٧/٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠١/١٦/٨، وفتح القدير ٥٧٩/٤، وتفسير ابن كثير ١٥٧/٤.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٥٧/٤، فتح القدير ٥٧٩/٤.

ومن ذلك ماجاء في قول الله عزوجل : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] .

ومن ذلك ماجاء في تصوير المستكبرين المعرضين وهم ينفرون من التذكرة والوعظ نفور الحمر من الأسد في قول الله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩، ٥١] .

ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصوير حال المتكبرين عند البعث وما يكونون عليه من ذلة ومهانة : «يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ...» ، وفي رواية : «... يُخْشَرُ الْجَبَّارُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ...»^(١) ، وفي رواية أخرى : «يُخْشَرُ الْجَبَّارُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ»^(٢) .

ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدْهَدُهُ الْخِرَاءُ بِأَنْفِهِ»^(٣) .

الجعل : دويبة صغيرة كالخنفساء^(٤) .

يدهده : يدحرج^(٥) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه أبوداود في كتاب الأدب ، باب في التفاخر بالأحساب ٣٣/٤ ، وأخرجه الترمذي في كتاب المناقب ، باب في فضل الشام واليمن ٧٣٤/٥ ، وقال : حسن غريب ، وأخرجه أحمد ٣٦١/١ ، ٥٢٤ .

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث ٢٧٧/١ ، والترغيب والترهيب ٥٧٦/٣ .

(٥) انظر : النهاية في غريب الحديث ١٤٣/٢ .

عندما نتأمل هذه النصوص التي أمامنا نجد أنها ترسم للمتكبرين صوراً في غاية الشناعة والقبح تمجها النفوس المستقيمة وتنفر منها الطباع السليمة، فمن بعير به صعر إلى كلب يلهث، وحمار ينهق إلى حمير هاربة، إلى جعل يدحرج التتن بأنفه، إلى ذر تداس بالأقدام، فمن هو ذو قطرة سليمة يرضى لنفسه أن يتشبه بهذا ويتصور به؟

وتعرض النصوص مشاهد أخرى غير هذه، فيها وعيد وترهيب وعبرة وذكرى لتأخذ النفوس السليمة حذرهما من أن تصاب بهذا الداء المفسد، وكذا تعمل النفوس المصابة بشيء منه على التخلص من ذلك. ومن تلك المشاهد المشار إليها مشاهد مصارع المستكبرين في غاية الذلة والعذاب المهين (سبق ذكر مصارع المستكبرين في الفصل الخامس من الرسالة).

ومنها: مشاهد للمستكبرين عندما يصلون نار جهنم في اليوم الآخر. (راجع أسلوب الترغيب والترهيب في هذا الفصل).

ومنها: مشاهد لحوارات تدور بين المستكبرين ورسلمهم أو المؤمنين أو الملائكة في الدار الآخرة. (راجع أسلوب الحوار من هذا الفصل).

ومختصر القول وخلاصته: أن هذه المشاهد المصورة التي تعرضها النصوص لها وقعها وأثرها في النفوس، فحين نتأمل في النصوص فنرى ما حلّ بالمستكبرين في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة من العذاب المهين كأنما واقع محسوس تشاهده رأي العين، فإنها تتبين مفاصد التكبر وسوءه وعظيم خطره، فترتدع عن غيها وتقصر عن طغيانها وبغيها. والله أعلم.

المبحث الثاني : علاج الكبر جملة وتفصيلاً .

قد تبين لنا من خلال مامرّ في ثانياً مباحث هذه الرسالة خطورة الكبر وسوؤه ، وأنه مرض خبيث يصيب القلب فيميتّه ، فإذا هو لا يميز بين حق وباطل ، ولا يفرق بين خير وشر وحسن وقبح ، وتشتبه عليه الرذيلة بالفضيلة ، بل يغدو محارباً للمثل العليا والقيم السامية ، ناصراً لكل سفه وباطل ورذيلة .

هذا إلى جانب أن المتكبر منازع لجبار السموات والأرض صفة مجده وعظمته وعزته ، فهو مرتكب لكبيرة موبقة تصل به في أعتى درجاتها إلى الكفر والإلحاد بالله الخالق الجليل سبحانه وتعالى .

ثم أيضاً لانتسى مالتكبر من آثار سيئة يطال شرها الفرد والمجتمع والأمة كما سبقت الإشارة إلى أبرزها في الفصل السابع من هذه الرسالة .

هذا وإنه مما يزيد التكبر خطورة أن كل نفس تطمح إلى العلو والرفعة ، وتطمع بالتفرد والتميز ، فإذا كبحت رغبتها في تحقيق ماتريد بكوابح الإيمان ، سلكت في تحقيقه الطريق الصحيح ، فطلبت العلو الحق المحمود الذي لا بطر فيه ولا كبر ، وإذا تركت وشأنها دون تربية إيمانية ، انجرفت وراء شهواتها ، فانحرفت تطلب المجد والرفعة بالكبر والبغي .

ولما كان التكبر على هذه الدرجة الكبيرة من الخطورة والسوء ، كان لازماً على كل ذي لب أن يحذر غاية الحذر من أن يصاب به ، وأن يبحث عن سبل الوقاية ووسائل النجاة منه ، وأن يفتش في خبايا نفسه لعله يظفر به كامناً فيها مستخفياً يتحين الفرصة للبروز والظهور ، فيأخذ حينها بالعلاج الناجع الذي يستأصله من جذوره قبل أن يخرج من مكمنه ويصلب عوده ، فيصعب علاجه ، وبغير ذلك لن يسلم من غوائله في الدنيا والآخرة .

وإني هنا أحاول قدر الاستطاعة أن أذكر من الأدوية الناجعة في علاج الكبر مايفتح الله تعالى عليّ به من رحمته فيوفقني لاستنباطه من النصوص القرآنية والحديثية ، مع الإشارة إلى أن المبحث الأول من هذا الفصل هو الأصل في العلاج ، وهذا المبحث تنمة له ، فما كان من توفيق فمن الله ، فله الحمد والثناء ، وما كان غير ذلك فمن نفسي ، والله تعالى يغفر ويرحم ، وهو أملي ومقصودي سبحانه وتعالى .

وإني سأسلك في هذا المبحث مسلكين : الأول : علاج التكبر جملة ،
والثاني : علاجه تفصيلاً .

**المسلك الأول : علاج الكبر جملة ، وهو قسمان : علمي
وعلمي .**

أما العلاج العلمي فيتمثل في معرفة الأمور الآتية :

**أ - معرفة أنه لاحول ولا قوة على التخلص من هذا المرض الخبيث
إلا بالله تعالى .**

فمن عرف هذا الأمر واستيقنه فإنه يأخذ بأعظم وسائل السلامة وأطواق
النجاة من الكبر ، وأنفع الأدوية له ولكل داء سواه وهي : صدق الالتجاء إلى
الله عز وجل والملاذبه مستجيراً مستعيذاً به منه .

ولهذا لما كانت هذه هي أعظم وسائل النجاة والسلامة من هذا الداء
الخطير ، فقد أرشد الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إليها ، فقال
سبحانه آمراً إياه أن يستعيذ به تعالى من المتكبرين أن يلحقه أذاهم وكيدهم
أو يصاب بدائهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ
فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦] .

ولقد امتثل الرسول صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، فكان يستعيذ بالله من
الشیطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه ، وفسر نفخه بأنه الكبر^(١) .

ومن قبل خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم التجأ كليم الله موسى عليه
السلام إلى ربه عز وجل مستعيذاً به من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، كما
قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٦، ٢٧] .

إن الاستعاذة بالله جل وعلا وصدق الالتجاء إليه هي أول خطوة في
طريق النجاة والسلامة من الكبر وأهله ، وهو سبحانه نعم الملاذ لمن لاذ به ،
ونعم المجير لمن استجار به واستعاذ ، وبدون ذلك لانجاة ولا سلامة ؛ لأن

(١) سبق ذكر هذا في الفصل الأول من الرسالة.

المرء عاجز عن جلب نفع لنفسه أو دفع ضرر عنها إلا بحول الله تعالى وقوته ،
فالحول والطول كله لله وحده جل ذكره وعز ثناؤه وتقدست أسماؤه ، فليس
للمرء إلا أن يضرع إلى الله تعالى أن يحفظه من الكبر وأهله وأن يوفقه للتواضع
ويجعله من أهله الذين يحبهم ويرضى عملهم .

ب - معرفة الله تعالى حق المعرفة وقدره حق قدره ، ومعرفة صفاته
وأسمائه معرفة يستقيم الإنسان المسلم على أساسها على طاعة الله إيماناً به
وإسلاماً له وإقبالاً عليه وحباً وولاء له وبراءً مما سواه .

فما وقع في هذا الذنب العظيم وفي كل ذنب سواه وماتجراً على منازعة
الحق صفقة كبريائه وجلاله إلا جاهل بأنه عبد من له الكبرياء وحده الذي
علاكل ماسواه وقهره وملكه ، الغني عن كل ماسواه ، الواحد في ذاته
وصفاته ، عجزت الأفهام عن إدراك كنهه ، وإحصاء صفات جلاله وعظمته
وعزته وقدرته .

ولوعرف العبد ربه تبارك وتعالى حق المعرفة لاستقر إجلاله وتعظيمه
وتقديسه في قلبه ولملك عليه نفسه وجوارحه ، ولما رضي لنفسه إلا الاستكانة
والتذلل بين يديه ، فلا ينازعه صفة من صفاته المتفرد بها سبحانه وتعالى
ولا يعصي له أمراً ولا يأتي له نهياً .

إن العبد إذا عرف ربه حق المعرفة علم أنه قادر عليه لا يعجزه شيء في
الأرض ولا في السماء ، وعلم كذلك أنه راجع إليه وهو قاصم الجبابرة
والمتكبرين ماله من دونه من ولي ولا نصير ، فكيف يتكبر وقد علم ذلك
واستيقنه؟

ولورجعنا إلى كتاب الله عز وجل لوجدناه يوجه العباد إلى النظر والتفكير
في ملكوت السموات والأرض ؛ ليشاهدوا في هذا الملكوت كمال جلال الله
وكمال عظمته وقدرته فيخروا له ساجدين ، وتخضع له أعناقهم ، وتذل
لجبروته رقابهم ، ويكفي في هذا المجال الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية
دون تعليق ، فهي ناطقة شاهدة بجلال الله وقدرته وعزته في غاية البيان .

قال الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ

دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿[الشورى: ٢٩]﴾ .

وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رَزَقْنَا لِّلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿[ق: ٦-١١]﴾ .

وخلاصة القول أن الجهل بالله عز وجل وعدم قدره حق قدره طريق إلى التكبر والاستعلاء وأن معرفته سبحانه وتعالى بماله من صفات الكبرياء والعظمة... ، طريق إلى التواضع والاستكانة ، فعلى العبد أن يتزود من معرفة ربه عز وجل بما يجعله يحله حق إجلاله ، ويقدسه حق تقديسه ويخشاه حق خشيته ، لتحصل له بذلك السعادة في الدارين .

ج - معرفة قدر الإنسان وحجمه :

غير ذي مرة قد سبقت الإشارة إلى أن الضعف والعجز والذل والافتقار شأن الإنسان وحاله الذي لا يفارقه منذ بداية خلقه وحتى تفارق روحه جسده ، ثم هو كذلك بل أشد في حياته البرزخية ، ثم في حياته في الآخرة ، فلو مثلت هذه الحقيقة أمام ناظره لما وجد في نفسه ما يدعو إلى التعظيم والاستكبار ، ولكنها تحجب عنه ، فتجره نفسه الأمارة بالسوء إلى هذا المزلق المهلك .

فقليل من التفكير في النفس يكشف حقيقتها ، فتبدو عارية من أي وصف يخولها أن تتكبر وتستعلي ، وعندها لن تطلب ما ليس لها بحق من التكبر الذي هو لله رب العالمين وحده .

وسأأتي شيء من التفصيل قريباً عند الحديث عن علاج التكبر بالقوة وبالنسب وبالجمال بإذن الله تعالى .

د - معرفة قدر ما يتكبر به :

عرفنا فيما مضى أن الدواعي للكبر ترجع إلى كمال ديني أو دنيوي ، فأما الديني فالمعتقد والعلم والعمل ، وأما الدنيوي فالمال والجاه والنسب والقوة والجمال ، والأولاد والأنصار والعشيرة ، فيتكبر من معه شيء من هذه الأمور على من ليس معه شيء منها ، أو على من هو دونه فيها .

فعلى المتكبر بهذه الأمور أن يعرف قدرها ومكانتها وقيمتها ؛ لينظر

أحق له التكبر بها أم لا

أما المعتقد - إن كان صحيحاً - والعلم والعمل فلاشك أنها كمال ديني مطلوب ومرغوب ؛ لكن حقيقتها الخشوع والاستكانة والتواضع ، فمن تكبر بها دلّ ذلك على أنه ليس له نصيب من الإخلاص فيها .

وأما بقية الدواعي فهي من الكمالات والقيم الدنيوية ، وهي إضافة إلى أنها تفنى وتزول لقيمة لها مالم تقترن بعلم أو عمل ، ولن يأتي في ميزان حسنات العبد ماله وحسبه وقوته... إذا جاء خاوياً من التقوى ، فقد قال الله تعالى : ﴿ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وانظر فصل دواعي الكبر وأسبابه وكذلك مبحث علاج الكبر تفصيلاً ، فستجد هنالك بإذن الله شيئاً من التفصيل في هذا الأمر .

هـ - التفكير فيما حلّ بالمتكبرين السابقين :

قد مرت بنا قصص المتكبرين واطلعنا على ماحلّ بهم من النكال والدمار ، ومالحقهم من الذل والصغار ، وماهم منتقلون إليه من ذلك ، كما توعدهم من وعده ووعيده حق لا يخلف الله جلّ جلاله ، فالتفكر في ذلك المصير الذي صار إليه المتكبرون يوجب الخشية والخوف ، وتلك وسيلة من وسائل العلاج النافعة في ردع النفس عن غيها واستكبارها وإلزامها الخضوع والتواضع طريق السلامة وطوق النجاة من ذلك المصير المخزي .

فلقد لقي المتكبرون الذين أصروا على استكبارهم كل ذلة وصغار من حيث قصدوا العزة وأرادوا الرفعة والفخار ، وحل بهم عذاب الواحد القهار ، فمارده عنهم رادٌّ ، ولاصده عنهم صاّدٌ .

وسنة الله لا تتبدل ، فمن لم يعتبر بمانزل بأولئك المستكبرين ، فسار على دربهم فلا يأمن أن يجازى بمثل ما جوزوا به ، وأن يصير إلى مثل مصيرهم جزاءً وفاقاً .

فمن تفكر في ذلك وتفكر في الوعيد الشديد الذي توعد الحق جلا وعلا المتكبرين به في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم - كما مرّ بنا في المبحث السابق - ذلت نفسه وخضعت وتصاغرت ، وتذللت جوارحه وسكنت ، ومن لم يلق لذلك بالاً ، ولم يعره انتباهاً فلا يأمن أن تسول له نفسه الجنوح إلى التعظم والاستكبار .

و - معرفة أن هناك يوماً آخر للجزاء والحساب :

وهذا من أعظم الأدوية نفعاً في علاج التكبر ، فتفكر العبد بيوم الدين
اليوم الذي سيقف فيه بين يدي من أحصى عليه كل صغيرة وكبيرة في كتاب
لا يضل ولا ينسى جبار السموات والأرض سبحانه وتعالى ، يقف بين يديه
للمسائلة والمحاسبة ذليلاً منكسراً خائفاً وجلاً ، يسأله وهو العليم الخبير
أكنت أهلاً لأن تتكبر وتتجبر؟ أكان لك أن تطغى وتبطر؟ بأي وجه لك من
العظمة والعزة نازعتني إزاري وجاذبتني ردائي؟ فلعمر الله ماجوابه؟ ولعمر الله
ماعذره؟ ولعمر الله أين المفر؟

لقد تعظم في حياته يوم أن حجبت سحب الهوى نور الإيمان فأظلمت
البصيرة ، أما في ذلك اليوم قد انكشف الغطاء فإذا البصر حديد ، وإذا هو
يتذكر ماتقدم إليه من الوعيد ، فيتمنى أن لو كان نسياً منسياً قبل أن يطيع هواه
في منازعة خالقه ومولاه ، صفة عزته وعظمته ، ويندم كأشد ما يكون الندم ،
ولكن هيهات أن ينفعه فأوانه قد فات ، فليس له إلا الحسرات ، وليست بمغنية
عنه شيئاً ، وإنما هو عذاب فوق العذاب ، وصغار فوق صغار .

إن الإيمان باليوم الآخر وتذكره ومافيه من كربات عظام وأهوال جسام
له وقعه وأثره على النفوس ، وهو طريق لكل خير وصلاح ، ومانع من كل
سوء وفساد ، وهو سبيل للتواضع والإحبات .

ولقد كان عدم الإيمان باليوم الآخر وجحده وإنكاره سبباً من أسباب
استكبار المستكبرين وطغيان المتجبرين ؛ لأنهم ظنوا أنهم إلى الله لا يرجعون ،
فما خافوا عقاباً على بطر ، وما خشوا حساباً على استكبار .

قال الله تعالى : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ
مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩] ، وقال
تعالى : ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ
فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ

لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْذِرُ مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ
بِمُتَّقِنِينَ ﴿ [الحاثية: ٢٨-٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧] .

فهذه الآيات وغيرها تؤكد أن مبادع المستكبرين إلى الاستكبار هو
عدم إيمانهم بأن هناك يوماً يبعثون فيه من قبورهم ليلقوا جزاء عتوهم
واستكبارهم ، ففي الآية الأولى بيان أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة
أن يكون الإله إلهاً واحداً وهم مستكبرون عن عبادته مع إنكار قلوبهم
لتوحيده^(١) .

وفي الآية الثانية إخبار عن فرعون وجنوده بأنهم استكبروا في الأرض
بغير الحق حين لم يؤمنوا بأنهم إلى الله راجعون .

وفي الآية الثالثة بيان لحال الناس يوم القيامة وقد نشرت الصحف
فاستبشر المؤمنون وفازوا ، وخاب غيرهم وهلك ، وفيها أن أولئك الخاسرين
استكبروا عن آيات الله حين لم يؤمنوا ببلقائه عز وجل .

أما الآية الرابعة ففيها أن موسى عليه السلام توجه إلى ربه مستعيذاً من
شر الطاغية فرعون حين أراد قتله ، ووصف موسى عليه السلام فرعون وكل
متكبر بأنه لا يؤمن بيوم الحساب .

إذاً فإنكار اليوم الآخر أو الغفلة عنه أو نسيانه طريق للتعظم والاستعلاء ،
فعلاج ذلك يكون بالإيمان بذلك اليوم وتذكره الدائم واستحضار أهواله
وكرباته التي لا ينجو منها إلا المؤمنون ، جعلنا الله تعالى منهم .

وأما العلاج العملي :

فيكون أولاً بأن يعرف أخلاق المتواضعين فيلزم نفسه التخلق بها لله
تعالى ثم لسائر خلقه^(٢) ، مواظباً على ذلك أبداً .

أما في جانب الله تعالى فيكون لازماً تقواه ومراقبته في سره وعلنه ،
مؤدياً فرائضه ، واقفاً عند حدوده ، غير متتهك لحرماته ، مُجِلاً له ومعظماً أن

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥٨٦/٢ .

(٢) كما أشار إلى ذلك الغزالي في الإحياء ١٦٤/٤ .

يعصيه في أمر أو نهى ، إذا ذكر وجل قلبه رغبة ورهبة ، وإذا تليت عليه آياته زادته إيماناً ، إذا أنعم عليه شكر ، وإذا قدر عليه صبر ، وفي الجملة يكون لله تعالى ظاهراً وباطناً يعمل بمحابه ومراضيه ، ويجتنب مساخطه سبحانه وتعالى .

وأما في جانب العباد فيكون صافي النية نقي السريرة نحوهم ، يحفظ لهم حقوقهم ، ويحسن عشرتهم ، فلا يترفع عنهم في سائر أحواله معهم ، لا يأنف من فقيرهم ومسكينهم ، ولا يتأفف من عاجزهم وضعيفهم ، لا يسخر من أحد منهم أو يحتقره على آية صورة من صور الاحتقار إشارة أو قولاً أو فعلاً ، يوقر كبيرهم ، ويحنو على صغيرهم ، وفي الجملة يكون محسناً في كل أحواله معهم .

ويكون ثانياً بأن يعرف أخلاق المتكبرين ، فيجتنبها ويواظب على نقيضها ، فمثلاً لا يجادل بالباطل ليدحض به حق ، ولا يترفع عن قبول الحق من صاحبه كائناً من كان ، ولا يمشي مشي المختالين ، ولا يأنف أن يخدم نفسه وأهله ، كما لا يأنف أن يجالس مستضعفاً أو يقف إلى جوار مسكين ، ولا تكون القسوة خلقه ، ولا سيء القول منطقته... ، وفي الجملة يدع كل قول أو فعل أو سلوك يدل على الكبر أو يؤدي إليه .

وخلاصة ماسبق أن المقصود هو أن يتعاهد الإنسان نفسه ، ويمسك بزمامها ليلزمها السير في طريق التواضع والمتواضعين ، فهي طريق الرفعة والعلو ، ولا يدعها تنحرف إلى طريق التكبر والمتكبرين ، فهي طريق الذلة والمهانة .

المسلك الثاني : علاج الكبر تفصيلاً :

- وفيه ذكر علاج كل داع من دواعي الكبر على حده على النحو التالي :
- أولاً : علاج التكبر بالمعتقد .
 - ثانياً : علاج التكبر بالعلم .
 - ثالثاً : علاج التكبر بالعمل .
 - رابعاً : علاج التكبر بالمال .
 - خامساً : علاج التكبر بالحسب والنسب .
 - سادساً : علاج التكبر بالقوة .
 - سابعاً : علاج التكبر بالعدد .
 - ثامناً : علاج التكبر بالسلطان والجاه والمنصب .
 - تاسعاً : علاج التكبر بالجمال .

أولاً : علاج التكبر بالمعتقد :

أهم نقطة في علاج التكبر بالمعتقد أن يعلم المتكبر به ويدرك أنه إن كان معتقداً صحيحاً فإنه بتكبره يخالف تعاليمه ولايسير على هداه ، ذلك أن المعتقد الصحيح يدعو إلى التواضع والسكينة ، وهو أعظم وسيلة للتخلص من سائر الأدواء والآفات التي يعد الكبر من أخطئها .

إن صاحب العقيدة الصحيحة يعيش في حياته على نور وهدى ، تدعوه عقيدته إلى كل خير وترشده إلى كل بر وتسمو به عن كل سفه وحُـمق ، وتطهره من كل رجس وسوء ، فيعيش في حياته عبداً صالحاً غايته الصلاح والإصلاح ، قد عرف مقام ربه عزوجل فأجله وعظمه حق إجلاله وتعظيمه ، وعرف مقام نفسه اللائق به وهو مقام العبودية لربه وإلهه سبحانه وتعالى ، فلزم ذلك المقام -وهو مقام عزه ورفعته- لايتعداه ولايتغى به بدلاً .

ولينظر صاحب العقيدة الصحيحة إلى أئـمته وقادته فيها رسل الله تعالى وأنبيائه الكرام عليهم صلوات الله وسلامه وبركاته ، وكيف كانوا معتزين بعقيدتهم في غاية التواضع والمسكنة ، يقابلون سفه المبطلين من أقوامهم بالحلم والعفو ، ويدحضون باطلهم بالحق المبين ، ويدعونهم إلى الحق ويحادلونهم بالتي هي أحسن ، كما كانوا عليهم الصلاة والسلام مع أتباعهم في غاية التواضع والرفق واللين والشفقة والرأفة والرحمة ، فهم فليقتد ، وبما رضوا لأنفسهم من خلق التواضع والاستكانة فليرض ، فالخير كل الخير في السير على هداهم وابتغاء سبيلهم .

فإذا من يتكبر بمعتقد صحيح فإنه على غير هدى معتقده يسير ، فاليزم نفسه بزمam الحق ، وليعد إلى الهدى الذي حاد عن طريقه ، حتى لا يهلك مع من هلك من الخاسرين .

أما المتكبر بمعتقد غير صحيح ، فهو متبع للشيطان الرجيم الذي لاشك أنه وواء كل معتقد فاسد سقيم ، فلاعجب إن تكبر ، ومن أضله بذلك المعتقد الفاسد هو قائد المتكبرين ، فعليه أن يعود إلى الحق ويسلك سبيله ، وحينها ستتهدب نفسه وتركو ، وسيلحق بركب المتواضعين الفائزين برضوان رب العالمين .

ثانياً : علاج التكبر بالعلم :

للعلم فضيلة وعزة يصعب على العالم معها أن لا يرى نفسه ويستعظم شأنه بالإضافة إلى الجاهل أو عامة الناس إلا أن يمنحه الله تعالى نور اليقين ويعينه على نفسه فيسلم من غائلة ذلك ، فالعالم على خطر عظيم من داء الكبر .

هذا الخطر المحقق بالعالم إذا ما أراد أن يدفعه عن نفسه ويقيها من آفاته ، فإن النقطة الأولى في العلاج هي : العزيمة الأكيدة والنية الصادقة على التخلص من الكبر وآفاته مع صدق الالتجاء إلى الله عزوجل والاستعاذة به من شره ، واستمداد العون والتوفيق منه عزوجل ، فإنه لاحول ولاقوة لعبد على أي أمر من فعل طاعة أو ترك معصية أو جلب نفع أو دفع ضرر ، إلا بالله عزوجل الذي له الحول والقوة وحده ، وأي حول لعبد فمنه وبه عزوجل .

ثم يكون العلاج الآخر وهو علاج علمي وعملي :

أما العلاج العملي فيتمثل في النظر إلى كل خلق وسلوك يقتضيه الكبر ويشيره ويدعو إليه ، ومن ثم المواظبة على نقيضه من الأخلاق الحسنة وإلزام النفس بها ، فمن لم يكن التواضع طبعاً له فعليه بالتطبع به حتى يصير كذلك . وللاستزادة في هذا المجال يراجع علاج الكبر جملة .

وأما العلاج العلمي فيتمثل فيما يلي :

أولاً : ينبغي على كل من أوتي شيئاً من العلم أن يعلم أن المقصود من العلم حقيقته ، وهي العمل وتربية النفس ، وتهذيب السلوك به ، لا التشاغل بصورته والوقوف عندها ليقال عالم .

ومتى ما وقف العالم عند صورة علمه وتشاغل بها عن حقيقته فقد تمت خسارته وعظمت بليته ، ولا فرق حينئذ بينه وبين الحمار الذي تثقل ظهره كتب العلم والحكمة ناقلاً لها من مكان لآخر دون أن يدرك قيمة ماتحويه من العلم والحكمة ، فهو محروم من هذا الخير العظيم .

إن الوقوف عند صورة العلم سبب للتكبر والتعالي به ، إذ يعجب العالم بما جمع فيخرجه عجه هذا إلى التعظم والاستعلاء .

وعلاج ذلك أن يقف العالم عند حقيقة العلم وهي العمل به ، فإنه إن فعل ذلك لن يجد التكبر والاستعلاء إليه سبيلاً ، بل سيكون التواضع والسكينة خلقه

وديدنه ، لأنهما من أعظم ثمار وآثار العمل بالعلم ، وذلك لأنه بالعلم يعرف الإنسان ما لله تبارك وتعالى من صفات الجلال والجمال والكمال والعزة والعظمة والكبرياء والسلطان التي لا يستحقها سواه ، ولاتليق إلا به سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه وحده المتفرد بكل المحامد المنزه عن كل النقائص .

فإذا عرف العبد ربه هذه المعرفة الحققة ذل له وخضع وانكسر بين يديه وخشع ، وخاف وعيده الذي توعد به المتكبرين المنازعين له في كبريائه ، أنه يذلهم ويقصمهم ويذيقهم بأسه وعذابه ، وهو القادر سبحانه وتعالى عليهم لا يعجزه أمرهم .

وبالعلم يعرف العبد نفسه ، وتظهر له حقيقة ضعفه وعجزه وافتقاره إلى ربه تبارك وتعالى في كل لحظة ونفس ، ويعلم أنه لا يملك من أمره شيئاً ، ولا يقدر على شيء إلا بأمر الله تعالى ومشيئته وبحوله تعالى وقوته : ومن ثم يعلم أن اللائق به وهذا شأنه وحاله لزوم التواضع والإخبات والسكينة ، وترك التكبر والاستعلاء الذي لا يليق به ولا بأحد من العبيد ، بل هو لله تعالى وحده له الكبرياء في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

وبالعلم كذلك يعرف العالم للناس حقوقهم التي أوجبها الله تعالى عليه ، ومنها : التواضع لهم وترك التكبر والتعالي عليهم ، ويعلم أنه والناس أجمعين في العبودية لله تعالى سواء ، أكرمهم عنده أتقاهم له ، لأكثرهم علماً أو مالاً أو أشرفهم حسباً ونسباً أو أعظمهم جاهاً وسلطاناً ، أو أشدهم قوة وفتوة .

فإذا عرف ذلك لزم اللين والتواضع لهم ، إرضاءً لربه سبحانه وتعالى وطاعة لأمره ، وخوفاً من وعيده الحق الأكيد الذي توعد به المتكبرين .

وثمة أمر آخر هاهنا ينبغي على العالم أن يتنبه له وهو : أن تكبره دليل على عدم عمله بعلمه ، وعدم العمل بالعلم دليل على أنه لم يقصد به وجه الله تعالى ، بل قصد التوصل به إلى تحقيق مصلحة ذاتية وغرض دنيوي كالسمعة والذكر والجاه والمنصب والثروة وغيرها ، وأي عمل على هذه الصورة فإنه يدخل تحت هذا الوعيد الشديد الوارد في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْجَسُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦] .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨] .

وقوله تعالى محذراً عباده المؤمنين من القول بلاعمل، مبيناً عظيم مقتبه لهذا الخلق : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] .

وخلاصة ماسبق أن للعلم حقيقة وصورة، فمن اشتغل بصورته عن حقيقته تكبر وتعظم، ومن وقف عند حقيقته فعمل به تواضع واستكان، فالعمل بالعلم ليس له إلاتيجة واحدة هي : الخشية والذل لله رب العالمين، والتواضع واللين لعباده المخلوقين .

ثانياً^(١) : ينبغي عليه أن يعلم أن حجة الله تعالى عليه أعظم وأكد منها على غيره، فقد منّ الله تعالى عليه ورزقه الفهم والعلم وآتاه من الحكمة ما لم يؤت غيره، فلم يقم بحق الله تبارك وتعالى عليه في هذه النعمة الجليلة، بل كفرها ولم يشكرها، وعصى ربه وخالف أمره وتجراً عليه عن علم ومعرفة، فهو إذاً على خطر عظيم ليس الجاهل على مثله، فكما أنه والجاهل لا يستويان في القدر والشرف والمكانة، فكذلك لا يستويان في المحاسبة والمساءلة على التقصير والعصيان، بل قد يعفى عن الجاهل ويغفر له ما لا يغفر للعالم ويعفى عنه، ذلك أن العالم عصى الله عز وجل بعد أن علم عظمته وعظم معصيته، فجنايته أفحش من جناية الجاهل الذي لربما لولاجهله ماعصى وماوقع في الذنب .

ومن هنا فإن تكبر العالم يعظم من هذا الوجه لعلمه أن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى، ولعلمه نهى الله تعالى عنه ووعيده عليه، وبغضيه لمن اتصف به، علم كل هذا فجعله وراء ظهره، وخالف أمر ربه، وعمل خلاف ما يقتضي علمه، وهذا دليل على أن الكبر متأصل في نفسه ممتدة عروقه في أعماقها، لذا كان منه ما كان من مخالفة أمر ربه ومنازعتة كبرياءه، وتخلقه بما لا يليق بمثله، فهو إذاً على خطر عظيم يوم يأتي علمه حجة وشاهداً عليه بسوء فعله

(١) هذا الأمر ذكره الحارث المحاسبي في الرعاية ص ٤٠٩، والغزالي في الإحياء

وعظيم ذنبه .

فإذا ما أراد العالم علاج نفسه من داء الكبر فعليه أن يتفكر في هذا الخطر العظيم المحقق به من جراء كفرانه نعمة ربه ، وبما ضيعه من أوامره ونواهيهِ ، بجناياته على جوارحه ، وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والغمز والبغي والغرور والنفاق وغيرها من الذنوب التي للكبر دور كبير في إثارتها^(١) ، فإذا فعل ذلك ذل وانكسر وخضع واستكان وخاف من الواحد الديان ، وفارقه كبره وغروره وزال عنه بالكلية لامحالة .

ثالثاً : مما يبعث على التواضع وترك الكبر لدى العالم معرفته أن الله تعالى أمره بالتواضع ورضيه له وأحبه منه ، ونهاه عن التكبر وسخطه منه ، وتوعده عليه ، وهذا يوجب عليه أن يحل الله تعالى ويعظمه في أمره ونهيه بفعل ما يحبه واجتناب ما يبغضه ، وبقدر إجلاله وتعظيمه لله تعالى لا بقدر ما جمع وحوى من العلم يرفع الله تعالى قدره ومكاته ، ويعلي في الدنيا والآخرة شأنه ، لكنه إذا تعدّى حدود الله وأتى مانهاه وفعل ما يبغضه كان ذلك منه دليلاً على عدم إجلاله وتوقيره وتعظيمه عز وجل ، وحيث يهون عنده وعند خلقه ، فكم ممن أنفق عمره في العلم حتى حوى كثيراً منه ، لكنه تعدّى حدود الله تعالى وأتى مناهيه ولم يصن علمه بحق الله تعالى فيه من الإخبات والتذلل له ، والتواضع لخلقهِ ، فهان عند الله وهان عند الخلق ، وكانوا لا يلتفتون إليه مع سعة معرفته وغزارة علمه ، ذلك أنه من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر عليه وضعه^(٢) .

هذا الأمر إذا انتبه له العالم ، فإنه لا يبقى في نفسه مكان للتعظيم والكبر ، لأن إجلال الله تعالى وتعظيمه قد ملأ جوانبها فلم يبق لغيره أمل أن يسكنها .
رابعاً : شعور العالم وظنه أنه قد بلغ قمة العلم ، فلم يعد يخفى عليه منه شيء ، هذا الشعور والظن سبب من أسباب تكبره واستعلائه ، فعليه والحال هذه أن يتفكر في قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وفي قوله عز وجل : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ

(١) انظر : إحياء علوم الدين ١٦٨، ١٦٩ .

(٢) انظر في المعنى هذا : صيد الخاطر ص ١٩٤ .

عَلِيمٌ» [يوسف: ٧٦] ، ليدرك أن العلم بحر لا يعرف له ساحل ولا يسبر له غور ، وأن العبد مهما حوى وجمع منه ، فسيبقى مايجهله أكثر وأكثر ، وستبقى من خفاياه وخباياه وأسراره ما لا يدركه ولا يصل إليه ، وإن قضى عمره كله غائصاً فيه .

فلا يغير إنسان بما أوتي من العلم ، ولا يظن أنه وصل إلى منتهاه وجمعه من أطرافه ، ولا يظن كذلك أن أحداً لم يصل إلى ما وصل إليه فيه ، فكم ممن قد سبقه أو ربما عاصره أو ربما يأتي بعده هو أغزر منه علماً قد أوتي منه ما لم يؤت وأطلع على كثير من أسرارهِ لم يطلع عليها ، ذلك أن الله عز وجل هو واهب ومانح العلم ، يعلم من عباده من يشاء ما يشاء ، ويطلع غيره على ما لم يطلعه عليه ، وفق مشيئته وحكمته وهو الحكيم الخبير سبحانه وتعالى .

ويبقى العلم المطلق ، العلم الكامل الذي لا حدود له ولا نفاذ ، العلم الذي لا يسع البشرية جمعاء أن تتصوره أو تعقله وتدركه ، يبقى هذا العلم المطلق لله العليم الخبير الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً .

ومهما أوتي الأولون والآخرون إنسهم وجنهم من العلم ، فإنه بجانب علم الله لأشياء ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف: ١٠٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] .

ذكر أن المشركين قالوا : ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ... ﴾ أي : لو كان شجر الأرض أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه^(١) .

وقد روى أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود ، روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أحبار يهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : « أرايت قوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلاً » ، فقالوا : أأنت

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٠ .

تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم»، فأنزل الله عليه فيما سأله من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾، أي: التوراة في هذا من علم الله قليل^(١).

وخلاصة ما نرمي إليه هو أن العالم متى ماتفكر في هذه الأمور، واستقرت في نفسه هذه المعاني فإنه لاشك لن يتكبر ويستعلي، فعلام يستعلي ويستكبر، وما أوتي الأولون والآخرون من العلم إلا قليلاً، فكم يكون حظه من هذا القليل؟

وعلام يستعلي ويستكبر وهو يجهل أكثر مما يعلم؟

وعلام يستعلي ويستكبر وفوقه من هو أعلم منه، ولربما كان من تلاميذه وهو أمر مشاهد وحاصل، فكم من عالم تراه بلغ في علمه مبلغاً عظيماً حتى تظن أنه لم يخف عليه شيء، وإذا بأحد تلاميذه يفتح الله عليه من رحمته فيفوقه ويطلع على ما لم يطلع عليه، بل ولربما وقع من الشيخ أخطاء وهفوات فيأتي التلميذ ليسبر تلك الأخطاء ويبين الهفوات، ثم يقع في أخطاء وهفوات فيأتي من بعده من تلاميذه من يصحح الأخطاء ويعالج الهفوات.... وهكذا.

ومن هنا ينبغي على من أوتي شيئاً من العلم أن يعلم أنه لن يبرح مرحلة طالب العلم، وأنه لن يصل إلى منتهاه ولن يحيط بكل أسرارهِ ودقائقهِ فليتواضع له ولا يتكبر به.

(١) تفسير الطبري ٨٢/٢١، وروى نحو هذا عن عكرمة وعن عطاء بن يسار -رحمهم

الله-، وانظر للفائدة ماسطره صاحب الظلال في معنى هذه الآيات ٢٢٩٦/٤،

ثالثاً : علاج التكبر بالعمل :

إذا أراد العامل العابد أن يقلع شجرة الكبر من قلبه ، أو يكف نفسه عن التطلع إليه ويحميها من شره ، فليكن بعد استعانته بالله تعالى زاجراً لها بالتفكير في الأمور التالية :

أولاً : العمل مِنةً وتوفيق من الله تعالى :

فينبغي على العامل العابد أن يتذكر نعمة ربه جل جلاله عليه في توفيقه للعمل وهدايته للعبادة والطاعة وإعانتة على ذلك ، فلولا أن الله تعالى هداه ووفقه وأعانه لما استطاع إليه سبيلاً ، فليس هو بذاته شيئاً أو يقدر على شيء ، إنما هو بالله تعالى وبحوله وقوته ، محتاج إليه سبحانه وتعالى ما طرفت له عين أو جرى نفسٌ ، ولو خلى بينه وبين نفسه لكان أحقر وأصغر من أن يملك من أمره شيئاً ، ولهذا فإن أهل الجنة يقولون وهم في نعيمها يتقلبون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقد جاء في الحديث القدسي : يقول الله عز وجل : « يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِيَكُمْ »^(١) .

وصحّ في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل التراب يوم الخندق^(٢) حتى أغبر بطنه ، وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا^(٣)

(١) الحديث في صحيح مسلم ، عن أبي ذر في كتاب البر والصلوة ١٩٩٤/٤ .

(٢) أي في غزوة الخندق أو الأحزاب التي كانت في شوال سنة أربع من الهجرة ، وسميت بالخندق لأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشورة من سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وسميت الأحزاب لاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين وهم قريش وغطفان ومن تبعهم . انظر : فتح الباري شرح البخاري ٧/٤٩٩ ، ٥٠٠ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ٥/٢١٣ ، ٢١٤ ، من حديث البراء رضي الله عنه ، وفي إحدى الروايتين أن هذا الرجز من كلام عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتجز به ، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ٣/١٤٣٠ .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن هذا

فعلى من هداه الله تعالى ووفقه للعمل أن يعرف قدر منة الله تعالى عليه في ذلك فيشكره ولا يكفره .

وشكره جل جلاله كما يكون بأن تلهج الألسن بذكره وحمده والثناء عليه ، يكون بأن تذلل له القلوب وسائر الحوارح ، وتخضع وتستكين لعظمته ، وتتواضع لجلاله راضية بالعبودية له سبحانه وتعالى ، فهذا مقامها الذي ليس لها أن تتجاوزه ، وهو مقام عزها وشرفها وسموها ، إن جنحت إلى سواه سقطت صاغرة ذليلة مهانة .

ثانياً : الجنة برحمة الله لا بالعمل :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا ، وَلَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ »^(١) .

هذا الحديث الشريف أصل في علاج النفس من الاغترار والعجب والتكبر بالعمل ، ففيه أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقرر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد ، وأنه لولا رحمة الله تعالى لعبده لما أدخله الجنة ؛ لأن العمل بمجرده ولوتناهى لا يوجب دخول الجنة ، ولأن يكون عوضاً لها ؛ لأنه ولو وقع على الوجه الذي يحبه الله لا يقاوم نعمة الله ، بل كله لا يوازي نعمة واحدة ، فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها ، وهو لم يوفها حق شكرها ، فلو عذبه الله عز وجل في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ، وإذا رحمه

==

الرجز من كلام عامر بن الأكوع ، كتاب الجهاد والسير ٣/١٤٢٧-١٤٣٠ .

(١) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وكذا من حديث عائشة رضي الله عنها بألفاظ متقاربة. أخرجه البخاري في كتاب المرضى باب تمنى المريض الموت ٧/٢٢٦ ، وفي كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ٨/٤٦٩ ، وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٦-٢١٧ ، والحديث عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٧١ .

كانت رحمته خيراً من عمله^(١) .

ومن هنا فإن لله تعالى نعم عظيمة على العبد في عمله ، فبرحمته وفضله وفقه وهداه إليه ، وبرحمته وفضله تقبله منه على نقصانه وقصوره عن مكافأة نعمة من نعمه ، وبفضله ورحمته جعله سبباً لدخول جنته .

فإذا كان المتكبر بعمله إنما يفعل ذلك لاعتقاده أنه به شيئاً عظيماً ، فليتفكر في هذه الحقيقة حتى تنكسر نفسه وتذل بين يدي العزيز الجليل ، رجاء أن يتقبل منه عمله تفضلاً منه وامتناناً ورحمة وإحساناً .

ثالثاً : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] .

هذه آية من كتاب الله تعالى تبين أنه ليس كل عمل يتقبله الله جل جلاله ، إنما يتقبل عمل عباده المتقين الذين يعملون العمل خالصاً له، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، يعملون العمل الصالح الخالص وقلوبهم وجلة خائفة أن لا يتقبله الله تعالى منهم كما وصفهم سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مَّشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] .

فقوله تعالى : ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ ، معناه : أنهم يعطون العطاء وهم خائفون أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروطه ، فلا يتقبله الله تعالى منهم^(٢) .

وقد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يارسول الله: ﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ ، أهو الرجل يزني ويسرق ويسرق ويشرب الخمر ، قال : « لَا يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ »^(٣) .

(١) انظر : فتح الباري ١١/١٥٧، ١٥٨ ، وللفاءة : انظر كلام الإمام النووي في معنى

الحديث في شرحه لصحيح مسلم ١٧/١٥٩-١٦٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٢٥٨ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب التوقي على العمل ٢/٥٦٣ ، وأخرجه الإمام

أحمد في مسنده ٦/١٥٩، ٢٠٥ .

فإذا كان الله عز وجل إنما يتقبل الله من المتقين فهل المتكبر منهم؟
معاذ الله تعالى أن يكون المتكبر من المتقين ، فما يتكبر إلا مغترّاً آمن ،
وليس هذا حال المتقين ، وكيف يكون من المتقين وهو ينازع مولاه جل
جلاله صفته المتفرد بها ، وكيف يكون من المتقين وهو يستحقر ويستصغر
عباد رب العباد؟

فإذا كان الحال كذلك كان حقاً على المتكبر أن يكون أشد خوفاً
وإشفاقاً وتذلاً من غيره ، وكان حقاً عليه أن يبادر إلى إصلاح نفسه وتزكيتها
بالتواضع والإخبات ، وإصلاح عمله وتنقيته من شوائب العُجب والكبر ، بعدها
يكون من المتقين ، الذين يتقبل الله تعالى منهم .

رابعاً : إلزام القلب التواضع لسائر العباد^(١) :

على العابد أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، فإنه إن نظر إلى حاله معهم
وجده وإياهم على حالين :

الحال الأولى : أن يكون غيره أعلم منه ، فهذا حقه عليه أن يعرف قدره
ومنزله ، وفضل ما آتاه الله عز وجل من العلم ، فلا ينبغي له أن يتكبر عليه وهو
بما أوتي من العلم أفضل منه ، وحاجته إليه ماسة لحاجة عبادته في صحتها إلى
علمه .

الحال الثانية : أن لا يكون غيره عالماً ، بل من العوام فهو معه على
حالين : إما أن يكون مستوراً لا يعلم من حاله شيئاً ، أو يكون قد اطلع على
بعض حاله ، فرأى ذنباً وعورات .

فأما المستور حاله عليه فينبغي أن لا يتكبر عليه ، فلعله أكثر منه عبادة
وأعظم طاعة وأزكى عملاً وأشد صلة بربه جل جلاله وأصدق محبة وإجلالاً ،
ولعله أقل ذنباً منه وعصياناً ، وحينئذ يكون تكبره عليه تكبراً على من هو
أكرم منه قدراً وأشرف منزلة وأعلى درجة .

وأما من انكشف بعض حاله له فرأى على ظاهره ذنباً وسوءات فليعلم
أن كبره وما يثمر من الذنوب الباطنة والظاهرة كالحسد والرياء والحقد والهزء
وغيرها أعظم مما بداله من ذنوب غيره .

(١) هذا الأمر ذكره الغزالي في إحيائه . انظر ١٧١/٤ ، ١٧٢ .

ثم إن ذلك العاصي ظاهراً قد يكون في باطنه مقراً بذنبه خائفاً منه ، فيورثه ذلك توبة نصوحاً تمحو خطاياہ ، وقد يكون هو آمناً على نفسه راكناً إلى عمله الذي خفيت عليه آفاته يظن أنه ناجياً بسبب ظاهر طاعته ، بينما يغفل عن مافي نفسه من الذنوب الموبقة ، فيكون ذاك العاصي مع خوفه خيراً منه في طاعته المغتر المتكبر بها .

ثم أيضاً ينبغي له أن يعلم أن كل نفس تحاسب على ما قدمت وهي بما كسبت رهينة ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، فلا يتفكر في الخطر على غيره ويخاف عليه ، بل يتفكر في نفسه وما يخاف عليها من عذاب الله ، فإن عذاب غيره لو عذب لا يخفف شيئاً من عذابه ، فليكن على نفسه أكثر خوفاً وإشفاقاً .

ثم أيضاً ينبغي أن لا يغفل عن التفكير في الخاتمة فإنما الأعمال والعبرة بالخواتيم ، فعمل ذلك الذي بدا له مذنباً سيئاً يتداركه الله تعالى برحمته فيهديه إلى التوبة النصوح ، ويختتم له بأحسن الأعمال فيلقاه وهو راض عنه ، وقد كفر ذنوبه وستر عيوبه وعفا عن سيئاته وأقال عثراته ورفع في الجنات درجاته .

ولعله هو قد سبق عليه الكتاب بأن يختتم له بالشقاء والعذاب فإذا هو من الخاسرين .

ولأجل ذلك ينبغي له ملازمة الخوف والإشفاق على نفسه ، والتواضع دليل ذلك ، وهو طريق سعادته وفلاحه ، أما التكبر فهو دليل الأمن ، وفي ذلك هلاكه وشقاؤه .

فالخوف والإشفاق إذاً علاج ناجع لكبر النفوس وتعظيمها ، على العابد إن سولت له نفسه التكبر بعمله أن يتجرعه ، ليقلع جذور تلك الشجرة الخبيثة من أصولها .

رابعاً : علاج التكبر بالمال :

لا يتكبر متكبر بمال إلا وقد غابت عنه حقائق لو استحضرها لكان في ذلك مانع له من التكبر الذي ليس له بحق .

وأوجز الحقائق المشار إليها فيما يأتي :

أولاً: المال مال الله تعالى :

ليس المال من ذات الإنسان يملكه بقوته وحيلته وجهده وذكائه ، بل هو مال الله تعالى ، يهب منه ما يشاء لمن يشاء من عباده ، فهو عز وجل المالك للعباد وما يملكون ، وهو المنعم المتفضل الرزاق يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو الحكيم العليم ، كما قال تعالى في شأن المكاتبين : ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] ، فنسب المال إليه سبحانه وتعالى ؛ لأنه واهبه والمتفضل به .

وكما قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢] ، وكما قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦٦] .

حين يجهل من أعطي من مال الله تعالى شيئاً هذه الحقيقة أو ينساها ، فيظن أن ذلك المال ملكه بقوته وحيلته وذكائه ، فإنه يجنح إلى الطغيان والاستعلاء به .

ولو علم ذلك المستعلي بما أوتي من مال أن الله تعالى هو الذي رزقه وبسط له ، وأن قوته وذكاءه وحيلته التي يزعمها هي أيضاً منة أخرى من منن الله تعالى عليه هو الذي متعه بها ليلوّه أي شكر أم يكفر ، ولو شاء سبحانه وتعالى لذهب بها ، فإذا هو عاجز لا يقدر على شيء ، لو علم المستعلي بماله هذا لكان في ذلك أعظم زاجر له عن التكبر بماليس له ، ومن هنا ندرك سرّ قول الفقير لصاحبه المتطاول عليه بماله : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] ، تحضيضاً له على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز وأن ماتي سر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته^(١) .

(١) انظر : فتح القدير ٢٨٧/٣ .

وأقرب مثال نتذكره على نسيان المستعلي بالمال أنه منة من الله تعالى عليه هو ما قصه علينا كتاب ربنا سبحانه وتعالى من خبر قارون الذي بغى بماله الكثير ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] ، وقد سبق ذكر أن هذا من قارون على سبيل الاعتداد بقوته وذكائه ، وأنه يزعم أنه ملك المال بذلك على قول وإن كان مرجوحاً . والله أعلم .

ثانياً : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

يظن ذو المال أنه إنما أوتيته لفضله وكرامته عند ربه تبارك وتعالى كما حصل من قارون وغيره ، وذكر فيما سبق ولو كان الأمر كما زعم لكان الأولى به أن لا يطر نعمته الله تعالى عليه ، ويقابل إكرامه له بمنازعته إزاره ورداءه عز وجل ، فلا يليق بعبد أكرمه ربه ورفعته إلا التواضع له والتذلل والاستكانة بين يديه سبحانه وتعالى ، فكيف والأمر ليس كما زعم؟ فليس إعطاء المال دليلاً على محبة الله تعالى وإكرامه لمن أعطاه ، كما أن منعه ليس دليلاً على بغضه وإذلاله لمن منعه ، وإنما يعطي سبحانه وتعالى ويمنع لحكم هو سبحانه أعلم بها ، أما الإكرام والإعزاز والمحبة فميزانها عنده ماجاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣٣] ، فالتقي كريم على ربه وإن كان فقيراً ، والعاصي ذليل مهان وإن كان ثرياً .

ولو كان المال عنواناً للكرامة ودليلاً على شرف القدر والمكانة لما متع الله تعالى به من كفر به وأشرك وبارزه بالفسوق والعصيان ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨] .

والله عز وجل قد بين في كتابه أن المستكبرين يقولون كبيراً وطغياناً : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥] ، فرد الحق تعالى عليهم زعمهم وافتراءهم هذا بقوله : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الصَّغْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ . وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٨، ٣٧] .

كما بين سبحانه وتعالى أن الأمر في إعطائه ومنعه الرزق ليس كما يزعم الجاهلون دليلاً على الإكرام والإذلال ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ . كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] ، أي : ليس الأمر كذلك .

ثالثاً : المال وصاحبه مصيرهما الفناء :

يغترّ ذوالمال بماله فيظن أنه لن يفنى ولن يبيد ، ويحسب أنه مُخلّده في الدنيا ، ومن ثم يستعلى به ويطغى ويتكبر ، ولو أدرك أو تذكر أن الأمر على غير ماظن وحسب ، فإنه ميت وماله فان ، لما فعل .

وهذا الأمر الذي أشرت إليه قد دلّ عليه قول الله تعالى في بيان حال صاحب الجنتين : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] .

وأيضاً دلّ عليه قول الله تعالى : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ [الهمزة: ١-٣] ، فهنا يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فيدع في رسم صورة واقعية تتكرر في كل بيئة ، صورة اللئيم صغير النفس- كما يقول صاحب الظلال- الذي يؤتى المال فيشعر أنه القيمة العليا التي تهون أمامها جميع القيم والأقدار ، وأنه ملك به كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب ، كما يحسب أنه إله قادر على كل شيء حتى دفع الموت وتخليد الحياة ، ومن ثم ينطلق في هوس به ، يجمعه فيظنه كفيلاً بالخلود ، ويعدده ويستلذ تعداده ، وتنطلق في كيانه نفخة مستعلية فاجرة تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم فيهمزهم ويلمزهم ، ويسخر منهم ويعيهم بالقول والإشارة والحركة^(١) .

فإذا ظنُّ صاحب المال عن جهل أو غفلة أن ماله لن يفنى وأنه به سينال الخلود في الدنيا ، دافعٌ للاستعلاء والتكبر بهذا المال ، فالعلاج يكون بإدراك هذه الحقيقة ، فما المال باق!! وماهو بمخلده!! وماهو بمغن عنه شيئاً!! كما قال الله تعالى في شأن قارون الباغي بكنوزه على قومه : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ

(١) انظر : في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٢ .

قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعاً ﴿[القصص: ٧٨]﴾ ، وكما قال الله تعالى في شأن أهل النار : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ . يَا لَيْتَهَا
كَانَتْ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٨] .

خامساً : علاج التكبر بالحسب والنسب :

ينبغي على من ابتلي بذلك أو جاذبته نفسه إليه أن يجدّ في طلب الخلاص منه ، وإن مما يساعده على ذلك معرفة هذه الأمور :

أولاً : معرفة قدر الحسب والنسب بلاقوى ، وأنهما لا يأتيان في الميزان الذي تنقل به الأعمال يوم القيامة ، فإنه ميزان لا تنقله إلا الحسنات والسيئات ، فمن جاء بالحسنات عزّ وكرم وشرف ، ومن جاء بالسيئات ذل وخزي ، والتكبر من أسوء السيئات .

فليعلم علم اليقين كل متكبر بحسبه ونسبه أنه لن ينال عبداً عند ربه تعالى درجة رفيعة وقدراً جليلاً لكونه حسيباً نسيباً ، ولن تنحط منزلة آخر ويسفل قدره بسبب تأخر نسبه وحسبه .

وشاهد ذلك أن الله تعالى أذلّ الملاء المستكبرين وأخزاهم وما نفعهم كونهم أهل الوجاهة والنسب ، بينما رفع شأن المستضعفين الذين آمنوا به وصدقوا رسله ، وأورثهم^{الأرض} ومكن لهم فيها ، ووعدهم وعد الحق الدرجات العلى في جنات النعيم ، وما ضرهم أن كانوا مستضعفين لا يؤبه بهم من قبل أهل القيم الدنيوية السفلية الهابطة .

ثانياً : معرفة أن التكبر بالحسب والنسب جهل وحمق ، وذلك لأن المتكبر إنما هو متعزز بصفات ليست من صفاته ، وبمآثر وأمجاد ليست له ، بل هي لغيره ، فغاية الجهل أن يتفاخر بما ليس له ، وأن يتعزز بكمال غيره ، وفي ذات الوقت هو في ذات نفسه ضيع لتكبره ، فإن التكبر دليل على خسة ودناءة في النفس ووضاعة وانحطاط في الخلق .

ولا يظن متكبر على هذه الصورة أنه يعلو بفضائل غيره ، وأن ذلك يرفع مادل عليه تكبره من خسته ووضاعته ، وهل إذا تفاخر الأقرع بشعر أخيه زالت قرعته؟! أو البخيل بكرم أبيه انتفى بخله؟! كلا ، بل كان ذلك أدعى للسخرية منه واستنقاصه .

ثم إن المتكبر المختال بفضائل نفسه ومآثره ومكرماته ، يعد أهلاً للمقت والاستصغار ، أفلا يكون المتكبر بفضائل ومكرمات غيره أحق بذلك المقت

والاستصغار منه؟^(١) .

ثالثاً : معرفة نسبه الحقيقي ، فبمعرفة يزول كبره به .

على المرء أن ينظر بعين بصيرته ليعرف نسبه الحقيقي ، فإن له أصلاً وفصلاً :
فأما أصله فتراب وطين ، وأما فصله فنطفة من ماء مهين ، كما بين الحق سبحانه وتعالى ذلك فقال : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سجدة: ٧-٩] .

هذا هو الإنسان في أصله وفصله ، وهولاقيمة له ، لولا أن من الله تعالى عليه وكرمه ، فخلقه فسواه فعده ، وخلقه في أحسن تقويم ، لكنه إن تكبر رجع إلى دناءة أصله وحقارة فصله ، فيرده الله تعالى أسفل سافلين .

رابعاً : معرفة أنه في أصل نسبه لا يختلف وسائر البشر :

هذه حقيقة لا ينبغي أن تغرب عن ذهن المتكبر بنسبه ؛ لأنه متى ما استحضرها زال عنه كبره ، إذ كيف يتكبر على من له نفس النسب الذي له؟
فالبشر جميعاً مردهم إلى أصل واحد ، أب واحد هو آدم عليه السلام وأم واحدة هي حواء عليها رحمة الله ورضوانه ، فقد قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : « فجميع الناس في الشرف بالنسبة إلى الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً منبهاً على تساويهم في البشرية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ، أي : ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته»^(٢) .

وخلاصة القول : أن الناس جميعاً مرجعهم إلى آدم وحواء عليهما السلام ، فلا يفخر أحدٌ بنسبه على أحد ، فإن له نفس النسب . والله أعلم .

(١) انظر : في هذا المعنى : إحياء علوم الدين ٤/ ١٦٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣٢ .

سادساً : علاج التكبر بالقوة :

لا يتكبر أحد بقوته إلا حين يجهل أموراً بمعرفتها يرتدع وينزجر عن التكبر بغير حق ، وهذه الأمور أخصها فيما يلي :

١ - القوة لله جميعاً :

إن الله عز وجل هو القوي الذي لامتهى لقوته ، وأمام قوته تضحل وتتلاشى كل قوى الكون مجتمعة ، ومعرفة الله عز وجل بهذه الصورة الجلية تجعل العبد يذل ويتواضع إجلالاً وتعظيماً لربه ، ولا يبقى له مع هذه المعرفة أدنى سبيل ؛ ليتكبر ويتناول بقوته .

فعلى العبد أن يذكر نفسه بقوة الله تعالى كلما أحس منها الرغبة في التعظم بقوتها ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

٢ - القوة من الله تعالى :

إن أي قوة للعبد ليست من ذاته ، بل هي محض منة من الله تعالى هو خالقها والمتفضل بها ، وعليه يلزم العبد أن يقابل تلك النعمة بالشكر والاستكانة لابلاطر والطغيان فمن أعطاه إياها قادر على أن يزيلها عنه متى شاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] .

وبالمقابل فإن ضعف الضعيف ليس منه ولا إليه ، بل هو محض ابتلاء من الحق تعالى ، فلا يحق للقوي أن يختال عليه بقوته ، وأن يزدريه لضعفه فالأول كفر بنعمة الله والآخر سخرية بقدر الله وعدم تسليم لحكمته سبحانه وتعالى وكلاهما يوجب غاية المقت والخسران .

٣ - القوة لاتدوم والعافية ذاهبة :

يظن المتكبر بقوته أنها باقية غير زائلة عنه ، أو يتجاهل ذهابها وزوالها وعندها يتكبر بها ويطغى ولو أدرك أنه إلى الضعف والعجز صائر كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِّن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] ، لما جنح إلى التكبر والطغيان بها .

٤ - ضعف وضعف وضعف :

هذه هي حقيقة الإنسان فأوله ضعف وأوسطه ضعف وآخره ضعف ،

فمن نطفة مهينة خلق ، ثم انتقل في بطن أمه من ضعف إلى ضعف ، حتى خرج طفلاً لا يقوى على إمالة الأذى عن نفسه ، ثم هو رجلاً يغتر بقوته وشبابه ، تصيبه الحمى فتسقمه ، وتعضه بعوضة أو نحلة فتؤلمه ، ويضطرب عرق في جسمه فلا يقر له قرار ، وتتسلط عليه مخلوقة لا ترى بالعين فتجعله طريح الفراش لا حراك به ، ويحبس ما يأكله أو يشربه في أمعائه فإذا هو لا يهنأ له عيش ، يحصل له كل ذلك في حال يزعم أنه قوي شديد فيتكبر ، بينما هو عاجز لا يقدر على شيء أمام ما ذكر .

ثم يأتيه الموت فلا يدفعه ، وإذا هو في قبره لا يقدر أن يصد أو يرد عن نفسه هجوم الدود على جسده تنهشه وتأكله ، ثم يعود تراباً كأصله الذي خلق منه .

فإذا عرف العبد هذه الحقيقة عن نفسه لم يبق له أدنى تطلع للتكبر بقوته .

٥ - الحمار أشد قوة :

العجب من الإنسان يزهو ويختال بقوته ، وهي صفة يسبقه فيها كثير من البهائم والجمادات ، وإنه لولا منحة العقل التي وهبه الله تعالى إياها وكرمه بها لما كان هناك فرق بينه وبين حمار أو بقرة أو جمل... ، بل لكانت أفضل منه حين استويا في العقل وكانت أشد منه قوة .

فماذا يتعظم وهو في ميزان القوى البدنية لا يساوي حماراً؟!

٦ - قوة الإيمان لا قوة الأبدان :

ليعلم المتكبر بقوته أن مراد الله عز وجل من عباده هو قوة إيمانهم لا قوة أبدانهم ، فكم من قوى في بدنه هان على ربه لفقده الإيمان؟ وكم من ضعيف في بدنه نال رضاه وكرامته حين قوي إيمانه .

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ »^(١) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة الكهف باب قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ٤٤٧/٦ .

وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٧/٤ .

إن العِظَمَ والسَّمَنَ وضخامة الأجسام وما يشبه ذلك من مظاهر ، ليس لها ثقل في ميزان قيم الناس وأقدارهم يوم القيامة إنما الثقل ثقل الإيمان والتقوى^(١) .

٧ - كانوا أشد منهم قوة :

هذا درس من قصص المتكبرين في القرآن الكريم لكل متكبر فيه أعظم زاجر له عن الاغترار والتكبر بقوته ، فلقد كان السابقون له في التكبر أطول أجساماً وأعظم أبداناً وأشد قوة ، فلم يغن عنهم ذلك شيئاً حين أهلكهم الله تعالى بكبرهم .

قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢] .

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٩٣ .

سابعاً : علاج التكبر بالعدد :

العدد - عدد الآباء والأبناء والجند والأتباع... هو إحدى القيم الدنيوية التي يركن إليها الجاهلون فيعتزون بها مستعلين متفاخرين ، ولوتفكروا في حقيقتها لكان في معرفتها زاجر لهم عن ذلك .

ومما يعين المتكبر بذلك على التخلص من كبريائه معرفته أمرين :

الأول : معرفة أنه ليس بكثرة المال والولد والأهل والجند... ، يكون الفلاح وتحصل النجاة ، فلا يغتر مغتر فيستعلي بذلك الظل الزائل والزخرف الباطل والمتاع الآفل .

الثاني : تفكره في مدى انتفاعه بالمتفاخر المتكاثر بهم ، في دنياه وأخراه .

أما في الدنيا فقد يحصل له قليل انتفاع بهم ، ولكنه لوتفكر لوجد أن نفعهم له ليس حياً خالصاً له ، ورغبة صافية في إيصال الخير إليه ، بل هم يرجون بالمقام الأول من وراء ذلك نفع أنفسهم وتحصيل الخير لها ، ولذا فإنهم لو شعروا بأنهم لا ينتفعون منه بشيء لربما أداروا له ظهورهم .

والمنفعة التي يرجوها أولئك الملتفون حوله ، المظهرون مودته إما منفعة دنيوية أو دينية ، كتحصيل مال أو منصب ، أو كالاتفاع بعلم العالم في الدنيا والآخرة ، والغالب على الناس طلب منافع الدنيا ، وهو أمر مشاهد ملموس وبخاصة في الأزمنة المادية التي يقل فيها منسوب الإيمان في القلوب ، ويرين عليها حب الشهوات ، فيصبح الناس يتوادون أو هكذا يظهرون لابما تحمله النفوس من إيمان وتقى ، بل بما تطلبه من شهوات ولذات عابرة ، فمن تحققت لهم من ورائه تلك الشهوات أظهروا حبه وتسابقوا في القرب منه والتقرب إليه وإن كان فاجراً شقياً ، ومن لا يملك ما يطلبوه منها نفروا منه وتأففوا من مودته وإن كان صديقاً تقياً .

والحق الذي غفلوا عنه وجهلوه هو أن المحبة للدنيا لاتدوم ، فقد تنقلب عداوة فيها ، وانقلابها في الآخرة حقاً لامرية فيه ، وأن ما يبقى وينفع في الدنيا والآخرة فالمحبة لله وفي الله ، وقد جاء في كتاب الله تعالى قوله : ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ، والمعنى : ان الأخلاء المتحايين في الدنيا ولها يعادي بعضهم بعضاً يوم القيامة ؛ لأن العلائق بينهم قد

انقطعت واشتغل كل واحد بنفسه ، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها
أخلاء أسباباً للعذاب ، فصاروا أعداءً (إلا المتقين) ، فإنهم أخلاء في الدنيا
والآخرة ؛ لأنهم وجدوا تلك الخلّة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب
فبقيت خلّتهم على حالها^(١) .

وأما انتفاعه بهم في الآخرة فإن كان ممن نال رضى الله عزوجل فإنه
ينتفع بما أحسن فيهم وإليهم ابتغاء وجه ربه جلا وعلا ، فيجد ذلك الإحسان
في ميزان أعماله الصالحة التي جعلها الله تعالى بفضله ورحمته سبباً للفوز
بالسعادة والرضوان ونعيم الجنان .

أما إن كان ممن سخط الله تعالى عليهم ، فليسوا بمغنين عنه من الله
شيئاً ، ولو كانوا لا يحصون عدداً ولو كانوا أقرب الأقربين ، قال الله
تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ .
وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣، ٣٧] ، ولو كانوا
لا ينفعون فحسب ؛ لهان عليه الخطب ، ولكنهم قد يكونون وبالاً عليه وسبباً
في مضاعفة عذابه ونكاله بما أضلهم في الدنيا عن صراط الله المستقيم حين
اتبعوه واقتدوا به ، فإذا هو يوم القيامة يحمل من أوزارهم مع أوزاره فيكرّس
في سواء الجحيم .

إن شأن الأتباع والمتبوعين من الضالين يوم القيامة أن لا يغني بعضهم عن
بعض شيئاً ، بل يتبرأ كل فريق من الآخر ، وتلعن كل طائفة الطائفة الأخرى ،
وكلهم في النار وبئس القرار ، قال تعالى : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ .
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِنْ
شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ . هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ . قَالُوا
بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ ثَمُمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ . قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا
هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾ [ص: ٥٥-٦١] .

وقد كان هذا شأنهم في الحياة الدنيا حين حقت على المتبوعين
المستكبرين كلمة الله ، فما دفعوا عنهم عذابه ، وما هم بقادرين على ذلك .
فما أغنت عن فرعون جنوده وعساكره وملؤه شيئاً حين أغرقه الله ، بل

(١) انظر : فتح القدير ٤/ ٥٦٣ .

أغرقوا معه ، وما أغنى عن صاحب الجنتين ما استعز به وتفاخر على صاحبه من
كثرة النفر والبنين .

وما كان لقارون حين بغى على قومه فحسف الله به الأرض ، من فئة
ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين .

ولقد أهلك الله عز وجل أمما كثيرة فما أغنت عنهم كثرتهم
شيئاً : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿ [النمل: ٥٢] .

وخلاصة القول : أن التفكير في هذا الأمر يساعد في علاج النفس من
التعظم بمن لا يملك لها ضراً ولا نفعاً ، من بنين وعشرة وأتباع... والله أعلم .

ثامناً : علاج التكبر بالسلطان والجاه والمنصب :

قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ . وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَهٗ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحْضَرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ . وَلَا يُحْضِرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٣٧] .

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ﴾ ، هذه الآية الكريمة أصل عظيم في علاج التكبر بالسلطان والجاه والمنصب ، فهي عبارة فيها من الأسى والحسرة مافيها ، يقولها ذاك الذي غره سلطانه وملكه وجاهه في الحياة الدنيا فركن إليه واعتز به ، فشغله عن الاستعداد ليوم معاده ، يقولها في يوم الحساب حين يتلفت حوله فإذا عذاب الله تعالى قد أحاط به ، فينظر هل من دافع له عنه من ملك أو جاه أو سواه ، فيرجع إليه بصره خاسئاً وهو حسير ، فلامعين له ولا مجير ، وليس له من دون الله من ولي ولا نصير ، فتخرج هذه الكلمات من أحشائه المحترقة : ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ . وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَهٗ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٩] ، يتمنى أن لم يؤت صحيفته فيخزيه سوء مافيها ، ولم يطلع على حسابه ، فهو عسير واطلاعه عليه عذاب قبل العذاب ، بل يتمنى أن لم يقم من رقدته ولم يبعث من موته ليواجه هذا المصير ، ثم يتذكر ماله وسلطانه في الدنيا الذي كان به مغروراً ، وعن طاعة ربه مشغولاً ، فلا يراه يغني عنه في ذلك اليوم شيئاً ، فيقول : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ﴾ ، أي : لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه^(١) ، فقد ذهب واضمحل ، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العُدَّة ولا العُدَد والجاه العريض ، بل ذهب كله أدراج الرياح ، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح ، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح^(٢) .

فتفكرُ ذي الجاه والسلطان بهذا الأمر الجلل يجعله يدرك حقيقة جاهه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٤٤ .

(٢) انظر : تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للسعدي ص ٨١٨ .

وسلطانه الذي لم يدم له في الدنيا ولم يخلده فيها ، وما هو بدافع عنه العذاب في الآخرة إن عُدب .

وفي إدراك هذه الحقيقة دواء نافع له بإذن الله تعالى من داء التكبر والخيلاء بجاهٍ وسلطانٍ يفقده أحوج ما يكون إليه .

وثمة أمر آخر ينفع بإذن الله تعالى في هذا المجال ، وهو : استشعار عظم المسؤولية وثقل الأمانة في ذلك ، فإن مما يدفع ذلك الجاه والسلطان إلى التكبر به ظنه أنه تشریف وتكريم له ، ولو كان الأمر كذلك لكان خليقاً به أن يتواضع ويستكين اعترافاً بنعمة ربه عليه وشكراً له عز وجل عليها ، ولكن الأمر على غير ما ظنه ، فهو تكليف شاق أنيط به ، وأمانة عظيمة حُمِّلها ، ومسئولية ثقيلة أُلقيت على كاهله ، ولُفَّت حول عنقه ، لو استشعر عظمها وثقلها لرجا أن يخرج منها سالماً ، ولما عنَّ له أن يتعزز ويتعظم بما قد يكون وبالأعلى عليه ، بل هو كذلك في حالة خيالاته وطغيانه به ؛ لأن فيه تضييعاً للأمانة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »^(١) .

فهذا الحديث الشريف يقرر فيه صلى الله عليه وسلم أن الإمام والأمير وكذا كل ذي منصب وسائر من ذكرهم الحديث إنما هم رعاة ، والراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ماؤتمن على حفظه ، فهو مطلوب بالعدل فيه

(١) الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

أخرجه البخاري في كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن ٤١٤/٢ ، وفي كتاب الاستقراض ، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه ٢٥١/٣ ، وفي كتاب العتق ، باب كراهية التطاول على الرقيق ٣٠٥/٣ ، وباب العبد راع في مال سيده ٣٠٦/٣ .

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب استحقاق الولي الغاش لرعيته النار ١٢٥/١ ، وفي كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ١٤٦٠/٣ .

والقيام بمصالحه ، وسوف يسأل عن ذلك^(١) .

ولما كان الأمر كذلك ، كان حقاً على كل ذي سلطان وجاه أن يتفكر في موقفه للمساءلة والحساب بين يدي مالك يوم الدين سبحانه وتعالى ، في يوم لا يقدر قدر هوله وشدته إلا الله جل جلاله ، وقد أحاط به خصماؤه ممن استرعاه الله تعالى عليهم ، هذا كان له حق لم يوفّه إياه ، وآخر ظلم فلم ينصفه ، وثالث احتاج فاحتجب دون حاجته ، ورابع كان ضعيفاً فأنف منه واستذله ، وخامس كان عاجزاً فلم يرحم عجزه ، وسادس وسابع... كل أخذ بتلاييه يقول : يارب استرعت عبدك هذا علينا فضعينا فخذلنا يارب منه بحقنا .

إن في تكبر ذي الجاه والسلطان بجاهه وسلطانه تضييعاً للأمانة التي حمّلها وغشاً للرعية الذين استرعى عليهم ، وذلك دليل الشقاء وعلامة الخسران ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطَها بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »^(٢) ، وفي رواية : « مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ »^(٣) ، وفي رواية : « مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ »^(٤) .

ففي الحديث وعيد شديد لمن استرعاه الله تعالى رعية من المسلمين وولاه أمراً من أمورهم فغشهم ، ولم يجتهد في مصالحهم والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم^(٥) ، والحال أن الله تعالى إنما ولاه على عباده ليديم لهم

(١) انظر : فتح الباري شرح البخاري ١٤١/١٣ .

(٢) الحديث متفق عليه من رواية معقل بن يسار رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح ٧٠٤/٩ ، وهذا لفظه .

وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ١٤٦/٣ .

(٣) المصدران السابقان ، وهذا لفظ البخاري .

(٤) هذه الرواية عند الإمام مسلم ١٤٦٠/٣ كتاب الإمارة .

(٥) انظر : شرح النووي على مسلم ٢١٥/١٢ .

النصيحة لالغشهم ، حتى يموت على ذلك فلما قلب القضية استحق أن يعاقب^(١) ، وأي عقاب استحقه؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» .

وفي معنى (حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) وجهان :
أحدهما : أن يكون مستحلاً لغشهم ، فتحرم عليه الجنة ، ويخلد في النار .

والثاني : أن لا يستحل غشهم ، فلا يدخل الجنة أول وهلة مع الفائزين ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الرواية الأخرى «لم يدخل معهم الجنة» أي : وقت دخولهم ، بل يؤخر عنهم ، عقوبة له ، إما في النار وإما في الحساب^(٢) .

ويدخل في هذا الوعيد المتكبر بجاهه وسلطانه ومنصبه ، فإن المتكبر به يأبى عليه كبره أن يكون ناصحاً لرعيته ، أميناً على حقوقهم ، مجتهداً في مصالح دينهم ودنياهم ، فشأنه أن يأنف منهم ويترفع عليهم ، وتلك خلة في المتكبر لاتفارقه ، فالكبر كما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ» .

وخلاصة القول فيما سبق : أن تفكر ذي السلطان والمنصب في عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه واستشعاره ثقل الأمانة التي حملها ، ويسأل عنها بين يدي ربه العلي الأعلى ، يجعله لايركن إلى جاهه وسلطانه ولايستعلي ويختال به ولايطغى فيه .

(١) انظر : فتح الباري شرح البخاري ١٣/١٦٠ .

(٢) انظر : شرح النووي على مسلم ١٢/٢١٤ ، ٢١٥ .

تاسعاً : علاج التكبر بالجمال :

من الأدوية الناجعة لعلاج النفس من التكبر بالجمال معرفة الأمور التالية :

١ - معرفة أن الجمال وحسن الخلقة نعمة تتوجب شكر المنعم بها عز وجل ؛
ليحفظها على عبده ويزيده منها ، وليس من شكرها أن يتكبر ويطغى بها .

٢ - معرفة أن الجمال زينة دنيوية إعطاؤه ومنعه لا يدل على إكرام أو إذلال من الله تعالى ، ولو كان الأمر كذلك لما أعطي المنافقون الذين يستقرون في الدرك الأسفل من النار حسن الأشكال وفصاحة الألسن وبلاغة القول ، فقد وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوّ فَاخْذَرْهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] .

ولو كان الأمر كذلك ، لما نال العبد الحبشي الأسود سيدنا بلال رضي الله عنه منزلة في الإسلام تقاصر عنها كثير من العرب ذوي القسامة والوسامة والنضرة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » ، وفي رواية : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »^(١) .

إن الله تعالى لا ينظر إلى عباده أيهم أحسن وأجمل صورة وهيئة ، بل ينظر إلى قلوبهم موضع التقوى فيهم ، فالتقي ينال محبته وإكرامه ، والشقي يسوء بسخطه وإذلاله .

٣ - معرفة أن الجمال لا يبقى والنضرة لا تدوم ، فطراوة الطفولة وريعان الشباب ونضارته يعقبها تجاعيد الشيب وترهل الكهولة ، هذا إن بلغ الإنسان هذه المرحلة ولم تسلط عليه من الآفات والعلل ماتذهب بحسنه ولا تبقى أثراً لما كان يغتر ويزهو به من جمال .

٤ - معرفة ماسيئول إليه بعد الموت الذي لاشك نازل به من حال توجل منها القلوب وتتصدع ، فبينما هو في خيالاته إذ جاء أجله ، فأضحى رهين

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ١٩٨٧/٤ .

القبور ، يتوسد التراب ، ويعلوه التراب ، طامراً محاسنه التي زهى بها زمناً ، ثم إذا بالدود يفتك بمفاته فتكاً ذريعاً ، ثم إذا هو يتحلل ويتعفن فيضحى جيفة تزكم الأنوف رائحتها الممتنة ، وإذا هو في حالة تقشعر منها جلود وقلوب الناظرين إليه لونها ، ثم إذا هو يعود تراباً كما بدأ .

فمن أوله تراب ، ومصيره إلى التراب ، بأي جمال يتكبر ويزهو ويختال؟!

٥ - معرفة أن الجمال المطلق الذي لا يصفه واصف ، ولا يدركه مدرك هو لله عز وجل ذي الجلال والجمال والكمال ، فليذل لربه ولتواضع لإخوانه مدركاً نقصه على كل حال ، فالكمال للكبير المتعال سبحانه وتعالى .

٦ - معرفة أن جماله لا يبلغ معشار جمال سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم تر الأعين له نظيراً ، ومع ذلك كان صلى الله عليه وسلم سيد المتواضعين ، فبه فليقتد من أراد سعادة الدنيا والآخرة .

٧ - معرفة ما جعل في نفسه من الأمور المستقذرة التي لوتفكر فيها لما رأى للجمال فيه موضعاً حتى يتعظم به ويزهو ، فالبول والغائط والصدید والمخاط والبزاق.... كلها أقدار يحملها الإنسان أينما حل .

فالتفكر في النفس وما أحاط بها من أقدار ظاهرة وباطنة بالغ النفع لتخليصها من خيالاتها بمبادلها من بعض جمال في صورتها الظاهرة ، ذلك الجمال الذي لو لم يكن يصاحبه جمال الباطن لما كان له قيمة أبداً .

٨ - معرفة أن الجمال وضده محض ابتلاء من الله تعالى ليشكر الجميل ويصبر غيره ، فينال هذا عاقبة الشكر ، وهذا عاقبة الصبر .

وليس جمال الجميل إليه ومنه حتى يطر به ويختال ، كما أنه ليس قبح القبيح إليه ومنه حتى يزدري وينتقص .

الخاتمة

ختاماً لهذا البحث الذي بحمد الله تعالى تمت فصوله ، ألخص النتائج المستفادة منه في النقاط التالية :

١ - أصل الكبر في النفس ، وهو إرادة كل نفس وجبها أن تتميز وتنفرد عن غيرها ، فإذا وجدت من التربية والتهذيب والتعليم والتقويم ما يوجهها الوجهة الصحيحة لنيل ذلك التميز المراد من الطريق الحق كان ذلك مانعاً لها من التخلق بخلق الكبر المذموم ، وإذا لم تجد ذلك ووجدت الأسباب التي ذكرت في فصل دواعي الكبر وأسبابه كان ذلك مدعاة لأن تعظم تلك الرغبة بالتميز والانفراد فتتحول إلى كبر مقيت ، تظهر آثاره السيئة على سلوك المتخلق به .

٢ - الكبر درجات بعضها أشد من بعض ، وأولها ما استقر في النفس من العجب واعتقاد الخيرية والأفضلية على الغير ، وأشدّها وأشنعها وأقبحها على الإطلاق التكبر على الله رب العالمين ذي العظمة والعزّة والكبرياء سبحانه وتعالى .

٣ - كان تركيز القرآن الكريم أكبر على أعظم درجات الكبر وهو التكبر على الله عزوجل ؛ لأن هذا هو الشر والفساد الذي ليس بعده شر ولا فساد ؛ ولأنه متى ماتكبر العبد على ربه وخالفه المقتدر الجبار تكبر من باب أولى على المخلوق مثله ، ومتى ماتواضع واستكان للخالق أثمر ذلك فيه تواضعاً للمخلوقين .

والقرآن الكريم لم يهمل جانب التكبر على الخلق ، بل أجمل فيه وأوجز ، فجاءت السنة المطهرة بتفصيل ذلك الإجمال والإيجاز .

٤ - لا يولد المتكبر متكبراً ، لكنه يكتسب الكبر في سن مبكرة حينما تهمل تربيته على حميد الصفات وجميل السمائل فيميل إلى سواها من السيئات ، والكبر من أسوئها ؛ لذا نوصي الآباء وكل من يتولى رعاية الناشئة بأن يتقوا الله فيهم ، فيغرسوا في قلوبهم النقية ، ويكتبوا في صفحات أفئدتهم البيضاء كل خلق نبيل وصفة كريمة ، وأن لا يدعوهم لقمة سائغة للشيطان والهوى ، فيتلقفونهم ويهوون بهم في مهاوي الردى والهلاك .

٥ - يزداد المتكبر كبراً وطغياناً حينما لا يجد من يردعه عن كبره

وتعالیه ، ولا يكون ذلك إلا حين يفقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتقاعس الناس عنه ، وهذا يعني أن نرجع معشر المسلمين إلى هذه القاعدة الجليلة من قواعد ديننا الحق ، فبرجوعنا إليها ستصلح بإذن الله عز وجل كثير من السلبات التي برزت في مجتمعاتنا يوم أن أهملنا هذا الأمر العظيم .

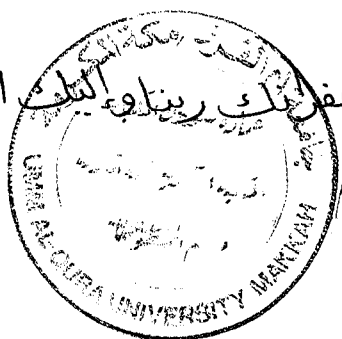
٦ - على كل واحد منا أن يفتش في خبايا نفسه لعله يظفر بشيء من الكبر كامناً فيها وهو لا يشعر ، فأحياناً قد يصدر من أحدنا ما يدل على عظمة وكبر في النفس ، ولكن نفسه تخادعه والشیطان يراجعه فلا يعتقد أن ذلك من الكبر ، ولوقوف مع نفسه وقفة حازمة وحاسبها بصدق لتبين له أنه غير بعيد عن الكبر ودائه الخطير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه وبركاته على نبيه محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .

ختاماً أتمثل بأبيات قالها الإمام الشاطبي^(١) - رحمه الله - وهو ينظم قصيدته الفائقة في القراءات المسماة "بحرز الأماضي ووجه التهاني" وأتمثل بها على الحقيقة :

أقولُ لحُرٍّ والمروءة مرؤها	لإخوته المرأة ذو النور مكحلا
أخي أيها المجتاز نظمي ببابه	ينادي عليه كاسد السوق أجولا
وظنَّ به خيراً وسامح نسيجه	بالاغضاء والحسنى وإن كان هلهلا
وسلم لإحدى الحسنين إصابة	والأخرى اجتهد رام صوباً فأمحلا
وإن كان خرق فادرَّكه بفضلة	من الحلم وليصلحه من جاد مقولا ^(٢)

غفر لي ربنا و لك المصير .



٢٧٠٧

(١) هو الإمام محمد قاسم بن فيره الرعيني الشاطبي ، ولد سنة ٥٣٨هـ ، وتوفي

سنة ٥٩٠هـ عليه رحمة الله . انظر : سراج القارئ ص ٤٣ .

(٢) انظر : سراج القارئ المبتدئ ص ٢٢ ، ٢٣ .

الفهارس

وتضم الفهارس الآتية :

- ١ - فهرس الآيات .
- ٢ - فهرس الأحاديث .
- ٣ - فهرس المصادر والمراجع .
- ٤ - فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات .

- ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ...﴾ [يونس: ٩٢، ٩١] ٤٥٤
- ﴿أَنَا أَكْثَرَ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] ١٦٥
- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [ص: ٧٦] ٢٩
- ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ٣
- ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ٣٧١
- ﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥] ٤٠٤
- ﴿أَإِن لَّنَا لَاجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] ٤٣٩
- ﴿أَبَشِّرْنَا مِنْهُ وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ. أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٤-٢٥] ٣٣٥
- ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] ٣٣٥ ، ٢٧٨
- ﴿أَتُبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ...﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١] ٣٨٩
- ﴿أَتُبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَسْجُدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠] ١٩٧
- ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١] ٩٣
- ﴿أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ. وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي تُتَوَاتَأُ فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦، ١٤٩] ٤٠٠
- ﴿أُحِجَّتْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥] ٣٣١
- ﴿أُحِجَّتْنَا لِنَلْقِيَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨] ٤٩٤
- ﴿أُحِجَّتْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] ٣٣١
- ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] ٢٨٢
- ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] ٣٠
- ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] ٤٢٥ ، ٣١٠
- ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] ١٥٥
- ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا...﴾ [ق: ٦-١١] ٥٧٧
- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] ٧٢
- ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذَرُكُمُ الْوَلُوءُ الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] ١١٩
- ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ﴾ [الرعد: ١٩] ١٢٥
- ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] ١٦٦
- ﴿أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ٥٧٨
- ﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] ٦٧
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ...﴾ [البقرة: ٢٥٨] ٣٢٧
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ...﴾ [البقرة: ٢٥٨] ٤٢٧ ، ٤٨٢

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ٢٦١
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُحَادُّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ...﴾ [غافر: ٧٦-٦٩] ٥٦٠, ٥٣٠
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَيْضًا﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿ [النساء: ٤٩, ٥٠] ٢٤٧
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩] ٢٤٧
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ...﴾ [النساء: ٦٠-٦١] ٣٠٤
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِن بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى...﴾ [البقرة: ٢٤٦, ٢٤٧] ١٨٠
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ [الفجر: ٦-٨] ٣٩٤
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨] ١٩٦
- ﴿أَلَمْ نَرْبِكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨, ١٩] ٤٤٩
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ...﴾ [إبراهيم: ٩, ١٠] ٣١٠
- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ٣١
- ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] ٢٦٨
- ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣] ٤٤١
- ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١, ٢] ٢٠١
- ﴿أَمِنَ هَذَا الَّذِي يُرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَحْوٌ فِي عُنُوقِهِمْ وَتُفُورٌ﴾ [الملك: ٢١] ٦٩
- ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَرةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٢, ٥٣] ٢٧٠
- ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] ٣١٠
- ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] ١٩٢
- ﴿أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] ٢٣٣
- ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزَّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] ٢٦٨
- ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزَّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] ٢٧٢
- ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزَّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] ٢٠٠, ٧٤
- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١] ٣٧٠
- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] ٣٢٥, ٢٦٨
- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] ١٩٠
- ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ٤٣٢, ١٨٣
- ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ٢١٦
- ﴿أَنْزَلْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْضْدُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ٢٧١
- ﴿أَنْزَلْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْضْدُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ١٩١
- ﴿أَنْزَلْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْضْدُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ٣٠
- ﴿أَنْزَلْنَا لِشَرِّينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] ٣٣٥
- ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ٢٧٠
- ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ [القمر: ١٠] ٣٨٢

- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [الزخرف: ٣٢]..... ٢٠٣
- ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ...﴾ [يس: ٧٧، ٧٨]..... ٣٢٨
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]..... ١٩٧، ٧٦
- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ [غافر: ٢١، ٢٢]..... ٦٠٣
- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢]..... ١٧٩
- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢]..... ١٧٨
- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]..... ٥٩٨
- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٨٧]..... ٧٥
- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ...﴾ [الشعراء: ١٨١، ١٨٣]..... ٤١٦
- ﴿أَيَتَّبِعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]..... ٨٥
- ﴿أَيَتَّبِعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩]..... ٨٨
- ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥-١]..... ٣١٧
- ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]..... ٤٠
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ...﴾ [ص: ٧١، ٧٦]..... ٤٨١
- ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]..... ١٠٣
- ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ...﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]..... ١٧١
- ﴿إِرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ [الفجر: ٨، ٧]..... ٣٩٦
- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤]..... ٣٦٩
- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤٠]..... ٣٦٩
- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]..... ٣٦٩
- ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مَّكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]..... ٥٧٩
- ﴿إِمَّا يَلِغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]..... ١٥
- ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩]..... ٥٣
- ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠]..... ١٠٢
- ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]..... ٤٣٣، ٣١١
- ﴿إِنْ نَقُولْ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]..... ٣٠٧
- ﴿إِنْ نَقُولْ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]..... ٣٩٠
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]..... ٤٥
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]..... ٥٤١، ٥٣٦
- ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]..... ٢٣١
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا...﴾ [النساء: ٣٦-٣٨]..... ٣٤٢

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] ٤٨٥
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] ٥٦٠, ٥٠١, ٣١٥
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] ٥٦٥
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ...﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١] ٥٦٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١] ٥٤٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١] ٥٠٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ...﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] ٥٩٢
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] ٥٧٥
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] ٥١٥
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ...﴾ [غافر: ٥٦] ٥٤٤
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾ [غافر: ٥٦] ٣٣٦
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾ [غافر: ٥٦-٥٨] ٢٦٤
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾ [غافر: ٥٦] ٢٨٨
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٥٦] ٢٢
- ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّوْمِ . طَعَامُ الْأَيْمِ...﴾ [الدخان: ٤٣-٤٩] ٥٧٠
- ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصاص: ٤] ٨٢
- ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصاص: ٤] ٤٨٢, ٤٤٦, ٣١٨
- ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٤] ٥٧٠
- ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠] ٤٢٥
- ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لِنُوءٍ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصاص: ٧٦] ١٧١
- ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...﴾ [القصاص: ٧٦-٨٠] ٥٢٤
- ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصاص: ٧٦] ٤٥٧
- ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصاص: ٧٦] ٤٦
- ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى...﴾ [القصاص: ٧٦-٨٤] ٤٥٨
- ﴿إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] ٨٤
- ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] ٣١١
- ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] ٤٤٣
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠] ٣٩٤
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] ٤١٠, ٤٠٨

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ... ﴾ [نوح: ٤-١]..... ٣٧٣
- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: ١]..... ١١٠
- ﴿ إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٦]..... ١٩٢
- ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧]..... ٤٣٢
- ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٧٠، ١٦]..... ٤٤٨
- ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦]..... ٤٣١
- ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]..... ٦٧
- ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦]..... ٣٧٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣١ ، ٣٠٩
- ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠]..... ٣٧٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣١
- ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴾ [القمر: ٢٧]..... ٤٠٧
- ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]..... ١٩١ ، ١١٢
- ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦]..... ٣٣٥
- ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨]..... ٥٩٦ ، ٢١٦
- ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨]..... ٧٥
- ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨]..... ٣٦٠
- ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]..... ٧٥
- ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
- حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]..... ٢٥٩
- ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤٢]..... ٤٣
- ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٣]..... ٣٩٢
- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا... ﴾ [الأنفال: ٢٠١]..... ٢٣٥
- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ... ﴾ [الأنفال: ٢-٤]..... ٥٤٦
- ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]..... ٥٩٢
- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]..... ١٢٦ ، ١٢١
- ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ تِسَاءٍ لَشَاعِرٍ
- مُحْنُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]..... ٣٠٠
- ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]..... ٥٦٦
- ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٥]..... ٣٨٩
- ﴿ إِنِّي غَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧]..... ٤٥١
- ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٠٧]..... ٣٣٤
- ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٧٨]..... ٣٣٥
- ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٢٥]..... ٣٣٥
- ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]..... ٣٣٢
- ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]..... ١٦٦
- ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]..... ٥٩٦
- ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣٣]..... ٥٩٦

- ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ١٢٧
- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ٢٩
- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ [التوبة: ١١١] ١٦٠
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] ٢٩١
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٥٦] ٣٢
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] ٢١
- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ٣٣٣
- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ٣٣٤
- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ...﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠] ٣٠١
- ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] ٢٢
- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ١٣٠
- ﴿إِنَّهُ لِكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] ١٦
- ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] ٣٣٥ , ٣٠٨
- ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١] ٣٨٧
- ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] ١٠٢
- ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] ٢٨
- ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] ٣٣٦
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨] ٣٨٧ , ٣٣٥ , ٣٠٧
- ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] ٢٠٦
- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] ٩٩
- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] ٢٠٢
- ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ١-٣] ٣١١
- ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ١-٣] ٢٨٥
- ﴿الْأَحْيَاءُ يَوْمَئِذٍ بِغُضِّهِمْ لِبَعْضِ عَدُوٍّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ٦٠٤
- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٥٦] ٢٩١
- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى. وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنُّقُولِ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ السِّرَّ وَأَخْفَى. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨٥] ٩٤
- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٤] ٥١
- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] ٦٠١

- ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢] ٥٩٥
- ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ١٩٤
- ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] ٥٠٦
- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] ١١٤
- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ...﴾ [الزحرف: ٦٩-٧٨] ٥٤٩
- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ٥٤٦
- ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ...﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩] ٥٥٠
- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ ...﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٨٠] ١٥٩
- ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] ٨٧، ٨٤
- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ٥٦٢، ٥٠١
- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ...﴾ [غافر: ٣٥] ٣٣٨
- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٣٥] ٢٣
- ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ...﴾ [سجدة: ٧-٩] ٦٠٠
- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ...﴾ [البقرة: ٢٧٤] ١٦٠
- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ٥٩٠
- ﴿بَلِ رَبِّكُمْ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦] ٣٣٢
- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢] ٨٩، ٨٨، ٨٥
- ﴿بَلِ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مَنَشُورَةً﴾ [المذثر: ٥٢] ٢٦٧
- ﴿بِسْمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠] ٤٦
- ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] ٤٠٦، ٣١٢
- ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] ٤٠٨
- ﴿تَنَزَّاعَ النَّاسُ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَحْلٍ مَنْقَعٍ﴾ [القمر: ٢٠] ٣٩٦
- ﴿تَنَزَّيْلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ٤] ٩٦
- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣] ٥٦٤، ٢١٢، ١٨٢، ١٥٨، ٩٥
- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ...﴾ [القصاص: ٨٣، ٨٤] ٤٦٥
- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٨٣] ٥٧٠
- ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] ٨١
- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ...﴾ [المؤمنون: ٤٨، ٤٩] ٤٣٦
- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ...﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٧] ٢١٥
- ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ...﴾ [المؤمنون: ٣١، ٣٢] ٣٨٥
- ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٣] ٣٦١

- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]..... ٢٣٣
- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩٠، ٨]..... ٣٧٤
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَيْنَاهُمَا آيَاتِنَا﴾ [يونس: ٧٥]..... ١١٢
- ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْلَهُمْ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]..... ٦٩
- ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]..... ١١١
- ﴿جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مَقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥، ٥٤]..... ١٥٧
- ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١، ٩٠]..... ١٦٨
- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ...﴾ [هود: ٤١، ٤٠]..... ٣٨٣
- ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٧]..... ٣٦٨
- ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]..... ١٠٣
- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ...﴾ [الرحمن: ١٥، ١٤]..... ٣٦٧
- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]..... ٥٣٨
- ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦]..... ٤٥
- ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]..... ٣٧٩
- ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾ [المدثر: ١١-٣٠]..... ٢٠١
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]..... ٩٣
- ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]..... ٥٤١
- ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ. كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦٢، ٦٣]..... ١٣٦
- ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]..... ١٠٣، ١٠٤
- ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ [غافر: ٧٥، ٧٦]..... ٥٥١
- ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]..... ٥٧٠
- ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]..... ٨٩
- ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]..... ٣٨٣
- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا. إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]..... ٣٨٢
- ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]..... ٤٤٥
- ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤]..... ١٥٨
- ﴿سَاءَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ١٤٦]..... ٥٦٢، ٥٠١
- ﴿سَاءَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]..... ٥٧٠، ٤٩٧
- ﴿سَاءَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]..... ٤٨٩
- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]..... ٩٥، ٩٣
- ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

- شَهِيدٌ ﴿فصلت: ٥٤، ٥٣﴾ ١٣٦
- ﴿سَتْرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
- شَهِيدٌ ﴿فصلت: ٥٤، ٥٣﴾ ٥٧٦
- ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشِيرِ﴾ [القمر: ٢٦] ٤٠٤
- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] ١٢٠
- ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] ١١٢
- ﴿صَرَغَىٰ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ٧٦
- ﴿صَمَّ بَصْمُ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ٤٥٥
- ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] ٥١٢
- ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ٩٥، ٩٤
- ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢] ٩٥، ٩٣
- ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ٨٤
- ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [النحل: ٩٠] ٤٧
- ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِنِي خَيْرًا مِّنْ حَتَّىٰكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا. أَوْ يُصْبِحَ مَأْوُهَا
- غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١، ٤٠] ١٦٧
- ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِنِي خَيْرًا مِّنْ حَتَّىٰكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا. أَوْ يُصْبِحَ مَأْوُهَا
- غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١، ٤٠] ٤٧٧
- ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤] ٤٤٠
- ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤] ٩٥
- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ...﴾ [الأعراف: ٩٢، ٩١] ٤٢٤
- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] ٤٠٨
- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ [الأعراف: ٩١] ٤٢٤
- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١] ٣٩٤
- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣] ٤٠٨
- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] ٤٠٨
- ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾
- [الشعراء: ١٥٨، ١٥٩] ٤١٠
- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَحَمِيمٌ
- حَازِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦] ٤٥٣
- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مَّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
- مَّجْرُمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ٤٣٤
- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّجِسَاتٍ لَّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ
- وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦] ٥٦٤
- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّجِسَاتٍ...﴾ [فصلت: ١٦] ٣٩٤
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣] ٤٥٢
- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] ٤٢٥

- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّئِيهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]..... ١٧٨
- ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]..... ٤٠٩
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ [الروم: ٣٠]..... ٢٢٧
- ﴿فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]..... ٤٤١
- ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ...﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]..... ٤٣٣
- ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]..... ٣١١
- ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]..... ٥٩٧
- ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]..... ١٥٦
- ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]..... ١٩٧
- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]..... ٤٧
- ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]..... ٤٠٨
- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]..... ٣٩٥
- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾ [الأعراف: ٧٢]..... ٣٩٤
- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ...﴾ [الشعراء: ١١٩-١١٢]..... ٣٨٣
- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]..... ٤٥٣
- ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...﴾ [الأعراف: ٨٥]..... ٤١٣
- ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ...﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٩]..... ٥٢٤
- ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى...﴾ [طه: ٧٠، ٧١]..... ٣١٨
- ﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]..... ٤٤٦
- ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣، ٣٧]..... ٦٠٥
- ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى...﴾ [النازعات: ٣٤-٤٠]..... ٥٤٨
- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]..... ١٥٨
- ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا...﴾ [الزمر: ٤٩، ٥١]..... ١٧٨
- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ...﴾ [هود: ٥٧]..... ٣٩١
- ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢]..... ٣٧٦
- ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ [القصاص: ٥٠]..... ٢٨٤
- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ...﴾ [فصلت: ١٤، ١٣]..... ٤٠٣، ٣٨٥
- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]..... ٥٤٧
- ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]..... ٢٣٣
- ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]..... ١٦
- ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]..... ١٢١
- ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠]..... ٥٧٠

- ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢]..... ٤٥٥
- ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ...﴾ [النمل: ٥٢، ٥١]..... ٤٠٩
- ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]..... ٤٣٥
- ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]..... ٥٠٣
- ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]..... ٣٢٧
- ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]..... ٥٦٥
- ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]..... ١٤٢
- ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥٩]..... ٥٣٥
- ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ...﴾ [النساء: ١٥٥]..... ٣١٢
- ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧]..... ٣٩٦
- ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]..... ١٢٧
- ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]..... ١٠٣
- ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى . قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ أَوْ...﴾ [طه: ٦٢، ٦٣]..... ٤٤٠
- ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]..... ٤١١
- ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٦٠]..... ٤٣٩
- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]..... ٦٠٦، ٤١١
- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]..... ٤٠٦
- ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨]..... ٤٣٩
- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]..... ٤٨٢
- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]..... ٤٦٢
- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]..... ٥٦٤، ٢١٧
- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]..... ٧٥
- ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]..... ٤١٠
- ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]..... ٥٠٥
- ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]..... ١٠٢
- ﴿فَسَحَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٣، ٧٤]..... ٣٦٨
- ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]..... ٥٦٦
- ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ...﴾ [الذاريات: ٤٤، ٤٥]..... ٤٠٩
- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]..... ٣١١
- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]..... ٦٩
- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]..... ٤٠٨
- ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧]..... ٤٠٨
- ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ...﴾ [القمر: ١١، ١٢]..... ٣٨٣
- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ...﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥]..... ٣٧٧

- ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ... ﴾ [هود: ٢٧] ٣٧٧
- ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا... ﴾ [هو: ٢٧] ٤٨٤
- ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا... ﴾ [هود: ٢٧] ٣١٣
- ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس: ١٣] ٤٠٧
- ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثْلَنَا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٌ وَسُعْرٌ . أَلَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِيرٌ ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥] ٣٠٥
- ﴿ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧] ٣٠٦
- ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا... ﴾ [نوح: ١٠-١٢] ٣٧٤
- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ٤٢٥
- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٩] ٣٩٧
- ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٨] ٢١٥
- ﴿ فَلَا تُقَطِّعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلِّبَتْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [طه: ٧١] ٢١٦
- ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢] ٢٤٩
- ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢] ٧٨
- ﴿ فَلَا عُذْرَآءَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] ٨٣
- ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] ٣٨٤
- ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٦] ٦٩
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ... ﴾ [هود: ٦٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٣] ٤١٠
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ [النمل: ٣٦] ١٠٣
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ... ﴾ [النمل: ١٤، ١٣] ٤٣٦
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٣] ١٠٣
- ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤] ١٦٨
- ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ... ﴾ [الأحقاف: ٢٥، ٢٤] ٣٩٤
- ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ١٠٣
- ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١] ١٦
- ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحاثية: ٣٦، ٣٧] ١٢٧
- ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت: ٢٤] ٣٠٨
- ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَانَهُمْ حُمُرٌ مَسْتَفِيرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] ٢٦٧
- ﴿ فَمَنْ رَبِّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٤٩] ٣٢٧
- ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٨، ٧] ١٣٥
- ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٣١] ٨١

- ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [النحل: ١١٥] ٤٣
- ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] ٤٠٨
- ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ٣٢٧
- ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾ [طه: ٧١] ٤٤٢
- ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾ [الشعراء: ٤٩] ٤٤٢
- ﴿قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا. قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦١] ٣٦٨
- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] ٥٢٣
- ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] ٤٤١
- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ٣٦٨
- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] ٣٧٠ ، ٢٧٦
- ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ١٨١
- ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] ٢٦٨
- ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَعْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣] ٢٦٢
- ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ...﴾ [هود: ٥٤-٥٦] ٣٩٠
- ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْخُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] ٥٦٣
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ...﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] ٣١
- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ...﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] ٤٨٤
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ [الأعراف: ٨٨-٩٠] ٤١٧
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦] ٤٠٢
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ...﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] ٣١٤
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ...﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] ٥٢٤
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] ٣٨٦
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ...﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٢] ٤٣٨
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] ٤٣٤
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] ٣٧٧
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَكِينٍ﴾ [الأعراف: ٨٨] ٣٠٧
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ...﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] ٣٢٣
- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] ٣٠٦
- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٦٦، ٦٧] ٤٤١
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُون. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨] ٣٨٢
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] ٣٨٤

- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا... ﴾ [نوح: ٥-٢٠] ٣٧٣
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥-٧] ٣٧٧
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا... ﴾ [نوح: ٥-٧] ٣٨٠
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ [نوح: ٥] ٣٧٣
- ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥] ٥٢٢
- ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص: ٧٧، ٧٨] ٤٨١
- ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥] ٤٨١
- ﴿ قَالَ فَامْهِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣] ٥٦٣
- ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] ٥٢٢
- ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ... ﴾ [الأعراف: ١٤-١٧] ٥٢٢
- ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ... ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] ٤٩٨
- ﴿ قَالَ فَعَلَيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٢] ٤٤٩
- ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبِّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٤٩] ٤٣١ ، ٢٦١
- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ... ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤] ٤٤٢
- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] ٤٣١
- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] ٨٢
- ﴿ قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩] ٤٤٩ ، ٤٣٢
- ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤] ٣٣١
- ﴿ قَالَ لِمَ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣] ٣٦٨
- ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ... ﴾ [الكهف: ٣٧-٤١] ٤٧٦
- ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه: ٦١] ٤٣٩
- ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ... ﴾ [الشعراء: ٢٤، ٣٥] ٤٣٤
- ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ... ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٧] ٤٣٨
- ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدِدْتَ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥] ٢٦٨
- ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] ٣٦٨
- ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] ٣
- ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى ﴾ [طه: ٥٩] ٤٣٨
- ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٢] ٤٣٩
- ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا... ﴾ [نوح: ٢١-٢٤] ٣٧٧
- ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا... ﴾ [نوح: ٢١-٢٤] ٣٨١
- ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ... ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ٤٠٧
- ﴿ قَالَ يٰٓإِنِّي لَيْسَ مَا لَكَ آلَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لِمَ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٢، ٣٣] ٥٢١

- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] ٣٧٠
- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] ٣٦٨
- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يُنصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] ٤٠٢
- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ...﴾ [هود: ٨٨] ٤١٩
- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيَّ إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢] ٤٢٢
- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ...﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٩] ٣٨٧
- ﴿قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] ٣٠
- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] ٥٣
- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّكِفَا عَنْ آلِهَتِنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] ٣٩٢
- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ٤٣٦
- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨] ٢٧٠
- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ...﴾ [يونس: ٧٨] ٢٠٧
- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] ٣٢٣
- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] ٢٩٩, ٣٨٦, ٣٩٢
- ﴿قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُثُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ٤٨٤, ٣٧٧, ٣١٣
- ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] ٤٤٧
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ...﴾ [الشعراء: ١٥٣, ١٥٤] ٤٠٣
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ...﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٨] ٤٢٣
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣, ١٥٤] ٤٠٧
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥, ١٨٦] ٣٠٦
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] ٣٠٧
- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ...﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨] ٣٨٩
- ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠, ٥١] ٤٤٤
- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] ٣٠٧
- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] ٥٢٣, ٣٧٧, ٣٠٦
- ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ...﴾ [طه: ٧٢-٧٦] ٤٤٤
- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥, ٦٦] ٤٤٠
- ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُثِرْتُ جِدَالُنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] ٣٨٢
- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] ٤٧
- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧] ١١١
- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ

- الرَّشِيدُ ﴿[هود: ٨٧]..... ٤١٩
- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴿[هود: ٨٧]..... ٣٠٠
- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ
- الرَّشِيدُ ﴿[هود: ٨٧]..... ٢٧٠
- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا... ﴿[هود: ٩١]..... ٤٢١
- ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ
- مُرِيبٍ ﴿[هود: ٦٢]..... ٤٠١
- ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا... ﴿[هود: ٦٢]..... ٣٠٠
- ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿[هود: ٥٣]..... ٣٩٢, ٣٠٠
- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿[الأعراف: ٧٠]..... ١١١
- ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . وَمَا نُنْقِمْ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا
- مُسْلِمِينَ ﴿[الأعراف: ١٢٥، ١٢٦]..... ٤٤٤
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ
- إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿[الشعراء: ١٥٣-١٥٤]..... ٣٣٥
- ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿[الزمر: ٥٠]..... ١٧٨
- ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا
- تَهْجُرُونَ ﴿[المؤمنون: ٦٦، ٦٧]..... ٨٩
- ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ... ﴿[النحل: ٢٦]..... ٤٢٩
- ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ... ﴿[الأعراف: ٧١]..... ٣٩٣
- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ
- مَدَدًا ﴿[الكهف: ١٠٩]..... ٥٨٨
- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ
- الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[آل عمران: ٢٦]..... ٨٨
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
- لِلْمُشْرِكِينَ ﴿[فصلت: ٦]..... ١١٢
- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
- سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣٣]..... ٤٦, ٤٤
- ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿[يونس: ٥٨]..... ١٠٢
- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
- الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣٢]..... ٦٢
- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
- وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[يوسف: ١٠٨]..... ١٢٢
- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿[الكهف: ١٠٢]..... ١٥٣
- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿[الزمر: ٩]..... ١٢٠
- ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
- حَيْثُ أَتَى ﴿[طه: ٦٨، ٦٩]..... ٤٤١

- ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ٣٠٨
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾ [غافر: ٥] ٣٤٠
- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] ٤٠٩
- ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩، ٥١] ٥٧٢
- ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ٥٥، ٥٢
- ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ٥٣
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ...﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٥] ٣٩٨
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ...﴾ [القمر: ٢٣-٢٥] ٤٠٣
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣، ١٤] ٤٠٨
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ...﴾ [الحاقة: ٤-٨] ١٩٨
- ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ...﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٦] ٣٨٥
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْنُوتٌ آزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩] ٣٧٧
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ...﴾ [ص: ١٢، ١٤] ٣٢٣
- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ...﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٠] ٤١٣
- ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ . أُنْزِلَتْ فِيهِ الْقُرْآنُ بِالْهُدَىٰ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٦، ٨] ٦٨
- ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ . أُنْزِلَتْ فِيهِ الْقُرْآنُ بِالْهُدَىٰ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٦، ٧] ٢١٦
- ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ . أُنْزِلَتْ فِيهِ الْقُرْآنُ بِالْهُدَىٰ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٧، ٨] ٦٧
- ﴿كَلاَّ بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ...﴾ [الفجر: ١٧، ٢٠] ١٦٢
- ﴿كَلاَّ نَمِذْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] ١٥٦
- ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] ٦٨
- ﴿كُلْ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨] ٥٤٠
- ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] ١١٥، ١١٠
- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ٢٥٦
- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ٥١٥
- ﴿لَا تَحْسَبِ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاوْا وَيُجِبُونَ أَنْ يُخَمِدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةِ مَنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨] ٢٤٨
- ﴿لَا تَحْسَبِ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاوْا﴾ [آل عمران: ١٨٨] ١٠٢
- ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ٢٧٨
- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] ٥٣١
- ﴿لَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ٢٨٤
- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] ٢٢٣
- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] ٥٦٠، ٥٠١
- ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] ٣٦٨
- ﴿لَا يَغْرَنكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ...﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨] ٥٩٦

- ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَقْسُ الْجِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]..... ٤٧٦
- ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ...﴾ [فصلت: ٤٩، ٥١]..... ١٧٦
- ﴿لَكَيْلًا تَأْسَرُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]..... ١٠٣، ٩٨، ٦٠
- ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا مِنْكُمْ إِذَا لَحَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]..... ٤٢٤
- ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]..... ٥٢٣
- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]..... ٣٥٦
- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا
- كَلَّمَآ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ...﴾ [المائدة: ٧٠]..... ٣١٢
- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]..... ٣٧٢
- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠]..... ٣٢٣
- ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]..... ٥٦٥
- ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]..... ٤٣٣
- ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]..... ٢٧٥
- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]..... ٢٧٣
- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]..... ٧٢
- ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]..... ٣٧١
- ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]..... ٣٦١
- ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]..... ٥٢٣
- ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١]..... ٥٥٠
- ﴿لَوْ شَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]..... ٣٨٧
- ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]..... ٣١
- ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]..... ٢٢٠
- ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]..... ٢٧٩، ٢٧١
- ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]..... ١٨٥
- ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]..... ١٨٤
- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]..... ٩٤، ٢
- ﴿لَئِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]..... ٥١٤
- ﴿لَئِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ...﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]..... ٢٥٦
- ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]..... ٣٣٩

- ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤] ١٠٢
- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ ...﴾ [يوسف: ٧-١٠] ٢٤١
- ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] ٣٤١
- ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] ٥٦٥
- ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ...﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣] ٥٥٧
- ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ...﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٥] ٢١٥
- ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] ٣٨
- ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥] ٧٤
- ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤] ٣١٠
- ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ٣٣٦
- ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] ٣٧٠
- ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧-٨] ٣٣٦
- ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ٣٢٥
- ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧] ٣٠
- ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ...﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤] ٣٣٥
- ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُرِيدُ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥] ٣٣٥
- ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُرِيدُ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ٢٧٨
- ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ٣٣١
- ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُرِيدُ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ٢١٥
- ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ...﴾ [غافر: ٥٤] ٣٢٦
- ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] ٣٦٨
- ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] ٣٧٩
- ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُرِيدُ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ٣٧٩
- ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] ٢٢١
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١] ٨٨
- ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُرِيدُ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ٣٠٥
- ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ ...﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤] ٣٨٧
- ﴿مِثْلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] ١٢٨
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ ...﴾ [هود: ١٥، ١٦] ٥٨٥
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] ٨٧، ٨٥

- ﴿مَنْ أَشَدَّ مِمَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ٢٦٨
- ﴿مَنْ أَشَدَّ مِمَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ٧٥
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَتَتْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ٥٠٢
- ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢] ٣١١
- ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] ١٠٣
- ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ...﴾ [فاطر: ٢] ١٣٥
- ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ...﴾ [الفتح: ٢٩] ٥٦٦
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨] ٥٨٦
- ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥] ٥٩٦
- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] ٥٢٠
- ﴿هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا...﴾ [ص: ٤-٧] ٣٣٢
- ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ [الحج: ١٩-٢٤] ٥٤٩
- ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ...﴾ [ص: ٥٥-٦١] ٦٠٥
- ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] ٥٢٤ , ٤٧٨
- ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] ١٦٧ , ٧٥
- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ [هود: ٦١] ١١٦
- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣] ٣٧
- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ...﴾ [يونس: ٥] ٣٧٥
- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] ١٥٨ , ١١٦
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرِّسْلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ...﴾ [البقرة: ٨٧] ٢٨٣
- ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] ١٥
- ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ٢٣٤
- ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] ١٦
- ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كِبَآئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ [الشورى: ٣٧] ١٦
- ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] ١٤٤
- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ٢٩
- ﴿وَذَكَرْ فَإِن الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] ١٤٤
- ﴿وَآتَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] ٤٠٧
- ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنُفُّهُمْ﴾ [الحاثية: ١٧] ٤٦
- ﴿وَأَتُوا الْبَيِّنَاتِ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] ١٦٠
- ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] ٥٩٥
- ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٩] ٥٣٩

- ﴿وَأَخْرُوجُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] ٤٦
- ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ [هود: ٦٧] ٤٠٨
- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] ١١٦
- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [المزمل: ٢٠] ١٦١
- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] ١٦١
- ﴿وَأَنفُسُكُمْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ الْأَمْرِ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠] ٣١٢
- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مَن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣] ٥٥٨
- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الحاثية: ٣١] ٣٠٣
- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] ٩٧
- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] ٤٠١
- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ...﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٨] ٥٩٨
- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ...﴾ [الحاقة: ٢٥، ٣٧] ٦٠٧
- ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ...﴾ [الحاقة: ٦-٨] ٣٩٥
- ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦] ٤٥٤
- ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ١٦١
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] ٤٥٢
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] ٤٤١
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ...﴾ [الأعراف: ١١٧، ١٢٢] ٤٤٢
- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] ٥٤٠
- ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] ٥٤٠
- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ١٦٧
- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ٤٧٨
- ﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ...﴾ [هود: ٣٦-٣٩] ٣٨٢
- ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] ٢٣٢
- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] ١٠٣
- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] ٣٥٣
- ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] ٣٩٦
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢] ١٤٥
- ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] ٢٢١

- ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]..... ٣١٠
- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ...﴾ [المنافقون: ٤]..... ٦١١
- ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ [الكهف: ٥٠]..... ٣٦٧
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦]..... ٤٨٧
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]..... ٨٥
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]..... ٣٠٠
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]..... ٣٥٢
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٣]..... ٣٧٩
- ﴿وَإِذَا قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنحَاكُم...﴾ [إبراهيم: ٦]..... ٤٤٦
- ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا...﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]..... ٥٢٢
- ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]..... ٣٢٢
- ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]..... ٣٢٢
- ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]..... ٣٦٨، ٤٨١
- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَ كُفٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُفٍّ وَفِي ذِكْرِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]..... ٤٤٦
- ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا...﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]..... ٥٢٧
- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]..... ٣٠٧
- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ [الأعراف: ٧٣]..... ٤٠٧
- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]..... ٣٩٨
- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦٢]..... ١١١
- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ [هود: ٦١]..... ٤٠٠
- ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]..... ٣٨٥
- ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]..... ٣٨٥
- ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥، ٦٦] . وقال الله تعالى : ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠]..... ٣٢٣
- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا الْيَوْمَ الْأَخِيرَ وَلَا تَعْبَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]..... ٤١٢
- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]..... ٤١٢
- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ [هود: ٨٤-٨٦]..... ٤١٥
- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ [العنكبوت: ٣٦-٤٠]..... ٥٠٥
- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ [العنكبوت: ٣٦-٤٠]..... ٥٦٧
- ﴿وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ إِيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]..... ٤٧
- ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]..... ١٧٩

- ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]..... ٤١٧
- ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]..... ١٣٥
- ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]..... ٣٢٦
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]..... ٣٩٧
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩١]..... ٤٢٥
- ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]..... ٩٥
- ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]..... ٤٥٥
- ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحَ بِهَا وَإِنْ تَوَسَّيْتُمْ سَبِيَّةً بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ فإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]..... ١٠٣
- ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]..... ٥٥٤ , ٣٩٧
- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ...﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]..... ٨٧
- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]..... ٢٩٩
- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢، ١٣٤]..... ٣٨٨
- ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]..... ١١٢
- ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ...﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]..... ٢٨٣
- ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا...﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧]..... ٤٦٧
- ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا...﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]..... ٥٧٢
- ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]..... ٥٣١
- ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]..... ١٤٢
- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]..... ١٩٧
- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ...﴾ [الأعراف: ٦٩]..... ٣٨٨
- ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَذُوقَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ...﴾ [الأعراف: ٢٠٥-٢٠٦]..... ٥٤٢
- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٤]..... ١٩٨
- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ...﴾ [الأعراف: ٧٤]..... ٣٩٩
- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]..... ٤١٦
- ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]..... ٣٨٦
- ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]..... ٤٢١
- ﴿وَاسْتَغْفِرُوا وَخَابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ...﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧]..... ٥٥٩
- ﴿وَاسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ لَنَّا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]..... ٥٧٩
- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الكهف: ٢٨]..... ٥٤٣
- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الكهف: ٢٨]..... ٤٨٥

- ﴿وَاضْرِبْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾ [الكهف: ٢٨]..... ٢٢١
- ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا
- زُرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]..... ٤٧٣
- ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ...﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤]..... ٤٧٣
- ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
- وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا
- فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]..... ٩٨
- ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
- وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا
- فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]..... ٥٩
- ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ [النساء: ٣٦]..... ٣٤١
- ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
- وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [النساء: ٣٦]..... ٥٣٦
- ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ [النساء: ٣٦]..... ٥١٣
- ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ...﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧]..... ٢٣٥
- ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]..... ٥٦٨
- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ
- تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]..... ١٧٩
- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]..... ٩٧
- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]..... ٦١
- ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]..... ١٠٢
- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا
- عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]..... ٢٥٩
- ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]..... ١٦١
- ﴿وَالْحَاثِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]..... ٣٦٧
- ﴿وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [النساء: ٣٦]..... ٣٢٤
- ﴿وَبَرَّزُوا لِلَّهِ حَمِيْعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا...﴾ [إبراهيم: ٢١]..... ٥٢٦
- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]..... ٥٢
- ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ...﴾ [الحاثية: ٢٨-٣٢]..... ٥٨٠
- ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]..... ١٢٢
- ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]..... ٢٢
- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]..... ٤٤٦
- ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]..... ١٩٨
- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى...﴾ [يس: ٢٠-٢٥]..... ٣١٩
- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا...﴾ [يونس: ٩٠]..... ٤٥٤
- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]..... ٤٣٢

- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ٤٧١
- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ٢١٧
- ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ٣٣١
- ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ٩٤
- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [الإسراء: ١٢] ٣٧٥
- ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَان...﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١] ٣٣٢
- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] ٥٩٧
- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١١٠] ١١٧
- ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ٤١٠
- ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ...﴾ [النساء: ١٧، ١٨] ٥٥٤
- ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] ٩٤
- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ [الزمر: ٧١] ٥٢٩
- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢] ٥٥١
- ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّذْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ٧٣
- ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ...﴾ [ص: ٤-٧] ٣٠١
- ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] ٨٨
- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ٢٦٠
- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ٣٤٥
- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ٥٦٦
- ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] ١٠٣
- ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ٥٨٨
- ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ١٤٤
- ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢] ٣٩٤
- ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانِهِ قَالُوا مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩] ٤٥٢
- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَلَقَنَا وَغَدَّه...﴾ [الزمر: ٧٤] ٤٢٤
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ٤٨٦
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فصلت: ٢٦] ٣٢٣
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] ٦٩
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] ٢٢

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] ٢٩٠ ، ٢٨٧

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا... ﴾ [الفرقان: ٢١] ٢١٥

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٣] ١٥٣

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨] ٢٦٢

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١] ١٩

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ... ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ٤٤٨

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ... ﴾ [المؤمنون: ٣٨] ٣٩٢

﴿ وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِي يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] ٥٥١ ، ٥٤٣ ، ٥٠٩

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ... ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩] ٤٥١

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَامَانُ ابْنِ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ... ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] ٤٨٢

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] ٤٥٠

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ... ﴾ [غافر: ٢٦، ٢٧] ٥٧٥

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي... ﴾ [القصص: ٣٨] ٤٨٢

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧] ٥٨٠

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣] ١١٥

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ... ﴾ [المائدة: ١٨] ١١٣

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨] ١١٥

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩] ٥٢٧

﴿ وَقَالُوا بَعِزَّةٌ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] ٨٨

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥] ٢٧٨

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] ٣٠٠

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] ١١١

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا... ﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩٣] ١٨٥

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] ١١٣

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة: ١١١] ١١٥

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧] ٢٦٢

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] ٢٦٩

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا... ﴾ [الفرقان: ٧-٩] ٢٦٩

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ... ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٩] ٤٣٤

- ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٠] ٣٣٩
- ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ [طه: ٦٤] ٩٦
- ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَزَوَّلُ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ٤٢٩
- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] ٥٣٣، ٥٣٩
- ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤] ٩٥
- ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ... ﴾ [الكهف: ٢٩-٣١] ٥٤٨
- ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠] ٤٣٩
- ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الطلاق: ٨] ٧٠
- ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ... ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩] ٤٠٥
- ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ... ﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦] ٤٧٥
- ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥] ٢٣٢
- ﴿ وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٢] ٤٠٠
- ﴿ وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٢] ١٩٨
- ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ
- أُمَّةٍ.... ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٥] ٣٠
- ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام: ٥٣] ٣١
- ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ
- مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] ١١٣
- ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا... ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤] ٢٣٠
- ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ
- الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨] ١٠٥
- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا... ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ١٠٢
- ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ [طه: ٨١] ٦٧
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
- مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧] ١٠٤
- ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ٢٦٦
- ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ٣٤٤، ١٠٤، ٥٧
- ﴿ وَلَا تُصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
- وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩] ٣٥٠
- ﴿ وَلَا تُصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] ٣٤٤
- ﴿ وَلَا تُصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] ٣٤١
- ﴿ وَلَا تُصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] ٥٦٠، ٣٨
- ﴿ وَلَا تُصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] ٦٦
- ﴿ وَلَا تُصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] ١٠٤، ٩٨
- ﴿ وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يونس: ٦٥] ٨٥
- ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ

- تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٨٨﴾ ١٥٩
- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ...﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٦] ١٩٩
- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] ٢١٨
- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] ٣١٤
- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣] ٤٨٤
- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] ٢٢٠
- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣] ٢١٩
- ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدُوِّ﴾ [المائدة: ٢] ٨٣
- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣] ٥٤٠
- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] ٥٣٩
- ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] ٥٤٠
- ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤] ٥٤٠
- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ٥٤٠
- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ٥٦٩، ٥٣٨
- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ٢١١
- ﴿وَلَا تَصْعَقْ رُحَاكَ ذَلِكَ لِلَّهِ أَسَاسٌ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ٥٦٨، ٤٨٩، ٣١٦
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُجِيبُ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ٥٧١، ٥٤١
- ﴿وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا...﴾ [لقمان: ١٨، ١٩] ٥٧٠
- ﴿وَلَا تَكْرَهُوا قِتَالَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾ [النور: ٣٣] ٤٧
- ﴿وَلَا يَجِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأُولَئِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
- تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] ٤٥٢
- ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] ٣٨٢
- ﴿وَلَئِنْ رَدِدْتَ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] ٣٦١
- ﴿وَلَئِنْ رَدِدْتَ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] ٥٥٤
- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوسُ كُفُورًا. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ
- السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ [هود: ٩-١٠] ٩٩
- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوسُ كُفُورًا﴾ [هود: ٩] ١٠٣
- ﴿وَلَيْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] ٢٦٧
- ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] ١٨٣
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرَّسْلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ...﴾ [البقرة: ٨٧] ٣١٢
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢] ٤٣٧
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِآيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى...﴾ [طه: ٥٦-٥٨] ٤٣٨
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ [النمل: ٤٦-٤٧] ٤٠٤
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥] ٣٩٨
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ [الزخرف: ٤٦، ٥٠] ٤٣٦

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ...﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٥] ٤٦٦
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ...﴾ [غافر: ٢٣-٢٥] ٤٤٨
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ...﴾ [هود: ٢٥-٢٧] ٣٢٣
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦] ٣٧٢
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣] ١١١
- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ٢٩٩
- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ [النحل: ٣٦] ٤٨٣
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ...﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧] ٣٦٧
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ٢٣٣
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ...﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] ٣٧٤
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ٣٦١
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ [الأعراف: ١١، ١٢] ٥٢١
- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ...﴾ [الأعراف: ١٧٩] ٤٥٦
- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨٠، ٨١] ٤٠٢
- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١] ٣٢٣
- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١] ٤٤٦
- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ٣٣٩
- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ [هود: ٩٤، ٩٥] ٤٢٤
- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ...﴾ [هود: ٥٨-٦٠] ٣٩٤
- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] ٣٩٦
- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ...﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠] ٢٧٦
- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ...﴾ [الأعراف: ١٣٤] ٤٣٥
- ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨] ٣٣٣
- ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] ٣٣٤
- ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣] ٤٧٨
- ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣] ١٦٧
- ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢] ٥٣
- ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] ١١٧
- ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحاثية: ٣٧] ١٥
- ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحاثية: ٢٣] ٣٧
- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] ٥٨٨
- ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

- وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿[الأنعام: ١١١]..... ٢٦٢
- ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧] ٤٦
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ [الأنعام: ٩٣]..... ٣٠٣
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ...﴾ [الأنعام: ٩٣]..... ٥٠٦
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...﴾ [الأنعام: ٩٤]..... ٥٢٥
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ...﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]..... ٥٢٦
- ﴿وَلَوْ يَرَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]..... ٦٠١
- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآيِبَةٍ﴾ [النحل: ٦١]..... ٥١٢
- ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]..... ٤٧٧
- ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]..... ٥٩٥
- ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]..... ١٦٧
- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ...﴾ [النساء: ١٨]..... ٢٥٩
- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...﴾ [النساء: ١٨]..... ٤٥٤
- ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]..... ٤٩٣
- ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]..... ٨٨ , ٨٦
- ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]..... ٤٨٧
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ...﴾ [سبأ: ٣٤, ٣٥]..... ٢٠٠
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤, ٣٥]..... ٢٦٩ , ٢٦٨
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤, ٣٥]..... ١٨٥
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]..... ١٢٢
- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧]..... ٣٨٧
- ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَّتْ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]..... ٧٤
- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]..... ١٢٧
- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ...﴾ [سبأ: ٣٧, ٣٨]..... ٥٩٦
- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ...﴾ [سبأ: ٣٧]..... ١٦١
- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ...﴾ [سبأ: ٣٧, ٣٨]..... ١٥٨
- ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]..... ٢٧٨
- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]..... ٢٦٢
- ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]..... ٥٨٧
- ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]..... ٣٨١
- ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]..... ٥٣
- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ...﴾ [هود: ٢٩, ٣٠]..... ٣١٤
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]..... ٢٩

- ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ٦٠١
- ﴿وَمَا تَفْقَهُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] ٤٦
- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ٢٣٣
- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ٢٩٨
- ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ٣٢٧
- ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ٤٦٣
- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ٢٦٢
- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ٢٦٢
- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] ٣٠٦
- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ٥٩٥
- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨] ٥٢٧, ٣٩١
- ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] ١٩١
- ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ...﴾ [البروج: ٩٠, ٨] ٣١٣
- ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ [الأنعام: ٤٨, ٤٩] ٤٨٣
- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤, ٣] ٥٢٠
- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤, ٣] ١٨٨
- ﴿وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠, ٥١] ٤٠٦
- ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] ١٣٥
- ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] ٥٠٤
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ...﴾ [الأنعام: ٩٣] ٣٦١
- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤] ٥٠٢
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا...﴾ [لقمان: ٦, ٧] ٥٠٨, ٥٦٩
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ...﴾ [الحج: ٨-١٠] ٣٢٩
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ...﴾ [الحج: ٨, ٩] ٥٠٣
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ...﴾ [الحج: ٨-١٠] ٥٥٨
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلَّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٨-٩] ٣٥٠
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] ٣٢٩
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦] ٨٨
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ١٤٥
- ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] ١٢٢
- ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] ٥٧٧

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ [الأنعام: ٢٥]..... ٣٣٨
- ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي...﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤]..... ٢٠٧
- ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ...﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]..... ٤٥٢
- ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ...﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٦]..... ١٨٣
- ﴿وَنَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]..... ٤١٠
- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]..... ٥٥٣
- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]..... ١٣٥
- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]..... ١٣٦
- ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]..... ١٢٧
- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]..... ٢٠٣
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]..... ٤٧٦
- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ...﴾ [هود: ٤٢، ٤٣]..... ٣٨٣
- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]..... ٥٣٤
- ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا...﴾ [هود: ٥٢]..... ٣٨٩
- ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ...﴾ [هود: ٩٣]..... ٤٢٢
- ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]..... ٣٧٦
- ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ...﴾ [هود: ٨٩]..... ٤٢٠، ٤١٦
- ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ...﴾ [هود: ٦٤]..... ٤٠٧
- ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَجِرًا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]..... ٣٠٩
- ﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]..... ٦٧
- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]..... ٥٠٩
- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوَّلًا كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]..... ٥٥١، ٤٨٩
- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]..... ٣٨
- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ...﴾ [الأحقاف: ٢٠]..... ٥٥٩
- ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ...﴾ [النور: ٤٧-٥٢]..... ٣٠٤
- ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَحَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّه لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]..... ١٨٢
- ﴿وَيَلْ لَكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ...﴾ [الحاثية: ٧-١١]..... ٥٥٩

- ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحاقة: ٨٠، ٨١] ٥٦٩
- ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٣] ٥٩٧
- ﴿وَيَلَّكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] ١٨٢
- ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ...﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٩] ١٥٧
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] ٢٣٣
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١] ١٤٤
- ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٩] ٦٠٧
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ٦٠٠، ٣٦٣
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] ١٥٨
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] ١٦١
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٤٥] ٨٤
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة: ٥٤، ٤٩٣، ٤٩٤] ٢٣٨
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...﴾ [التحریم: ٦] ٢٣٠
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ...﴾ [الحجرات: ١١، ١٣] ٣٦٣
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] ٥٨٦
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ [القصص: ٣٨] ٤٣٢
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ٢١٦
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ١٨٣
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] ٣٢٨
- ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧، ٢٩] ١٨٥
- ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] ٣٨٣
- ﴿يَا بَنِي إِدْرِيسَ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] ٣٥١
- ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يُعْبَدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] ٣٣١
- ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يُعْبَدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧] ٢١٦
- ﴿يَا صَالِحُ اتَّبِئْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] ٤٠٨
- ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ

- ﴿مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢] ٣٣١
- ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥] ٤٣٣
- ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥] ٣٣٥
- ﴿يَا قَوْمِ أَنسِلْ لِي مَلَكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢] ٢١٦
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] ٢٩٩
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] ٣٣١
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] ٣٣١
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] ٣٣١
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣] ٣٣١
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١] ٣٠٠
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤] ٣٠٠
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] ٢٩٩
- ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] ٤١٦
- ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُم فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢] ٤٢٥
- ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩] ١٨٢
- ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ١٦٧
- ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] ٨٦

فهرس الأحاديث .

- أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ... ١٩٠.....
- أربعة ييغضهم الله : البياغ الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزاني ، والإمام الجائر ٢٦ ، ٥٦٠.....
- أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ ٢٤٢.....
- أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْحَنَّةِ؟... ٣٥٨.....
- أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ ٥٥٦.....
- ألا أخبركم بشر عباد الله؟... ٣٥٩.....
- أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثي في وجوه المداحين التراب ٢٥٠.....
- أَنَا سَيِّدٌ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ وَيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ... ٩٨.....
- أهلكم- أو قطعتم ظهر الرجل ٢٤٩.....
- أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم ٢٥٧.....
- أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا... ١٦٠.....
- إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْشُوا فِي وَجُوهِهِمُ التُّرَابُ ٢٥٠.....
- إذا مشت أمتي لمطيما... الحديث ٣٤٤.....
- الإسبال في الإزار والقميص والعمامة ٣٤٩.....
- الإسبال في الإزار والقميص والعمامة ، من جرَّ شيئاً خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ٣٤٦.....
- إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ ١٤٢.....
- إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَتَبَغَّضَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ٩٩ ، ٤٦ ، ٣١٥.....
- إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَتَبَغَّضَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ٤٨.....
- إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، وَلَا يَتَبَغَّضَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ٥٤٤ ، ٥٣٥ ، ٤٤.....
- إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ١٩٤.....
- إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس ٢٥٥.....
- إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس ٣٤٧.....
- إن الله عز وجل ييغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها ٣٥٥.....
- إن الله عز وجل يتدلَّى في جوف الليل فيغفر إلا ما كان من الشرك والبعي ٤٤.....
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ١٢٣.....
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ ٦١١.....
- إن الله لا ينظر إلى صوركم ، وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ٣٢.....
- إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتُ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ ١٢٣.....
- إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ ١٤٤.....
- إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَخَفَتُ فِي حُلَّةٍ... ٥٠.....
- إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهَدَاةُ ١٢٣.....

- إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا... ٣٥٤
- إِنَّ مِنْ الْغِيَرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ... ٤٩٢
- إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ... ١٤٣
- إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ خِيَلًا... ٢٥١
- إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ... ٦٠٢
- إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ ، وَعِنْدَكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَكْفِيكُمْ... ٥٨٩
- إِنَّهَا لَمَشِيَّةٌ يَغْضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ... ٤٩٣
- إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ وَالزَّهْوَ... ٣٥
- إِيَّاكُمْ وَالْكِبْرَ ، فَإِنَّ الْكِبْرَ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ وَإِنْ عَلَيْهِ الْعِبَاءُ... ٥٤٤
- اتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ... ٢٤٢
- احْشُوا فِي وَجْهِ الْمَدَاحِينَ التُّرَابَ... ٢٥٢
- بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَنَّا وَطَعَى وَنَسِيَ الْمُبْتَدَأَ وَالْمُنْتَهَى... ٦٨
- بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَنَّا وَطَعَى... ٦٩
- يُنَبِّئُ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ :... ٢٣٦
- بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي بُرْدَيْنِ... ٥٠
- بينما رجل يتبختر يمشي في بردين قد أعجبته نفسه فحسف الله به الله الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة... ٢٧٢
- بينما رجل يتبختر يمشي في بردين... ٣٤٤
- بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ يَمْشِي فِي بُرْدَيْنِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَحَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... ٥٠
- بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمْتَهُ إِذْ حَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... ٢١١ ، ٧٧
- تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ... ٥٥٥
- ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصَمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ... ٢٩٥
- ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْعَائِلُ الْمَرْهُو... ٢٥
- ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... ٥٥٩ ، ٥٠٨ ، ٢٥
- خَلَقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخَلَقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخَلَقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ... ٣٦٧
- دَعَاؤُهُ وَهَرِيقَا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ... ١٤٣
- الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا... ١٢٣
- سفه الحق وغمط الناس... ٣٤٨
- سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ... ٨١
- الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكَبَرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَدْبَتُهُ... ٥٥٩ ، ٨٥
- العظمة إزارى والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما قصمته... ٤٨٥
- الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ ، فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ... ١٢٨
- غلظ القلوب والجفاء في المشرق ، والإيمان في أهل الحجاز... ٣٥٧
- الْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبْرِ وَالسَّكِينَةِ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ وَالْإِيمَانِ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ... ٦١
- الفخر والخيلاء في الفدَّادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم ، والإيمان يمانٍ والحكمة يمانية... ٣٥٦

- فَقِيَّةٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ ١٢٤
- قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ ٩١، ٥٥٦
- الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ ١٧، ٢٠، ٢٩١، ٣٢١
- الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ ٤٩٠، ٥٦٤
- كُلُّ بَيْعِيْنِكَ ٥٢٥
- كُلٌّ مَخْمُومٌ الْقَلْبِ، صَدُوقُ اللِّسَانِ ٤٤
- كُلٌّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عِبَدَهُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ، وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ٣٣٣
- كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ٢٥٧
- كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ٦٠٨
- كَلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ ٣٤٦، ٥٤٤
- لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغْدُو ١٥٨
- لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ١٦٠
- لَا وَلَكِنَّ الْكَبِيرَ مِنْ بَطَرِ الْحَقِّ وَغَمَطِ النَّاسِ ٣٤٧
- لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ ٧٨
- لَا يَزِنِي الزَّانِي حِينَ يَزِنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ بِهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ٢٥٩
- لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خِيَلَاءَ ٤٩٠
- لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنُ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ٢٥٠، ٥٦٥
- لَا ذَاكَ الْجَمَالَ، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَلَكِنَّ الْكَبِيرَ مِنْ سَفَهِ الْحَقِّ وَغَمَطِ النَّاسِ ٣٤٨
- لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُ ٥٩٢
- لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا ١٠٥، ٥٠٨
- لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ٢٣، ٢٥٤، ٢٩١، ٤٩٠، ٥١٠، ٥٥٢
- لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ٢٤٤، ٢٨٩، ٣٤٧
- لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ ٣٤٦، ٥٠٨
- لَسْتُ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خِيَلَاءَ ٢٥٤
- لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً لَوْ مَرَجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَرَجَتْهُ ٢٠٩
- لَمَا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي ٢٥٦
- لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ٥٩١
- لَيْسَ الْكِبَرُ هُنَالِكَ، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ أَنْ تَغْمَطَ النَّاسَ، وَتَبْطِرَ الْحَقَّ ٢٩١
- لَيْسَ الْكِبَرُ هُنَالِكَ، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ أَنْ تَغْمَطَ النَّاسَ، وَتَبْطِرَ الْحَقَّ ٢٤، ٢٨٩
- لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَعْلِ الَّذِي يَذْهَبُهُ الْخِرَاءُ بِأَنْفِهِ ٥٧٢
- مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فِي النَّارِ ٣٤٨
- مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ١٤٨
- مَا خَصَّ إِزَارًا وَلَا قَمِيصًا ٣٤٩
- مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يَعْجَلَ اللَّهُ لِمَا بِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ: الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ ٤٤

- ما من رجل يتعاضم في نفسه ويختال في مشيته إلا لقي الله وهو عليه غضبان ٣٤٥
- مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ... ٢٢٦
- مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ... ١٥٨
- مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْحَنَّةَ ٦٠٩
- مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَةً فَلَمْ يَحْطِهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْحَنَّةِ ٦٠٩
- مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحَنَّةَ ٦٠٩
- مالاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ٥٤٨
- المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ٣٥
- مَثَلُ مَا بَغَتْنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ... ١٣٠
- مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ وَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ٢٣١
- مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشْيِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ ٢٩١، ٢٨٩، ٢٢٤، ٩٢، ٧٨
- مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مَشْيِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ ٥٠٨، ٢٣
- مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيْنِ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ٥٦٤، ٥٠٣
- مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً... ٥٠٤، ٢٢٣
- مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٦١
- من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ٢٥٤
- من جر ثوبه مخيلة لم ينظر الله إليه يوم القيامة ٣٤٦
- مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجْهَهُ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ ١٥٠
- مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ أَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ ٥٥٢
- من كان منكم مادحاً أخاه لامحالة فليقل : أحسب فلاناً والله حسيه ولا أزكي على الله أحداً... ٢٤٩
- مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دَرَجَةً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً وَمَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً يَضَعُهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ٥٦٤
- مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ١٢٠
- نَعَمْ ، يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا وَيُحْيِيكَ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ ٣٢٨
- هو التقي النقي ، لاإثم فيه ولابغي ، ولاغل ولاحسد ٤٤
- وَأَمَّا الْخِيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَتَخَيَّلَ الْعَبْدُ بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَأَنْ يَتَخَيَّلَ بِالصَّدَقَةِ ٤٩٢
- وإياك وإسبال الإزار فإنه من الخيلاء ٣٤٩
- وإياك وإسبال الإزار فإنه من الخيلاء ٥٤٥
- وإياك وإسبال الإزار ، فإنها من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ٥٤٥، ٥٤٤
- وإياك والمخيلة ، فإن الله تبارك وتعالى لا يحب المخيلة ٥٤٤
- وإياك وتسبيل الإزار فإنه من الخيلاء والخيلاء لا يحبها الله عز وجل ٣٤٦
- والحفاء وغلظ القلب في الفدّادين عند أصول أذنان البقر ٣٥٧
- وَالْخِيَلَاءُ الَّتِي يُبْغِضُ اللَّهُ الْخِيَلَاءُ فِي الْفَخْرِ وَالْكَبَرِ ٤٩٢
- وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَبْسُتَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَشْرٍ وَبَطَرٍ وَلَعِبٍ وَلَهْوٍ ١٠٦
- وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ ٥٦٤

- ومخيلتان إحداهما : يحبها الله ... ٤٩٢
- وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ١٢٢
- وَهَلْ تَدْرِينَ لِمَ كَانَ قَوْمُكَ رَفَعُوا بَابَهَا؟ ٨٩
- وَيَحْ عَمَار! تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ ٤٥
- يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ٥٥٥
- يا بشير ألك ولد سوى هذا؟ ٢٤٢
- يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِيكُمْ ٥٩٠
- يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ... ٥٧٢
- يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ ... ٥٠٧
- يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ ... ١٢٩
- يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا ١٤٢
- يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفصل عباده ... ١٢٤

فهرس المصادر والمراجع

- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، لعلاء الدين علي بن بليان الفارسي (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٤١٢/١هـ .
- إحياء علوم الدين ، الغزالي : محمد بن محمد ، أبوحامد ، الغزالي . الطبعة الأولى ١٤١١هـ ، دار الخير - دمشق - بيروت .
- الأخلاق الإسلامية وأسسها ، لعبدالرحمن حنكة الميداني . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - دار القلم - دمشق .
- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة ، أحمد الحداد ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- أسباب النزول ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ) ، تحقيق : أحمد صقر . الطبعة الثالثة - دار القبلة - جدة .
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب . لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق وتعليق : علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبدالموجود ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير الجزري (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق : علي محمد معوض ، وعادل أحمد ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) . تحقيق : عبدالله محمود شحاته . طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٣٩٥هـ .
- الإصابة في تمييز الصحابة . للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢٩هـ ، مصورة عن النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣م بـكلكتا ، بالهند .

- أصول الفقه الإسلامي ، د/وهبة الزحيلي ، ط ١/١٤٠٦ هـ ، دار الفكر ، دمشق .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين الشنقيطي ، ط ٢/٤٠٠ هـ ، مطبعة المدني بمصر .
- الأعلام ، قاموس وتراجم ، لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة .
- الأنساب ، للإمام أبي سعيد عبدالكريم بن محمد ابن منصور السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الدكن ، الهند ، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ .
- البحر المحيط ، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) ، تحقيق : عادل أحمد وعلي محمد وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١/١٤١٣ هـ .
- البداية والنهاية ، لأبي الفداء ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، تحقيق : علي محمد معوض وعادل أحمد ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت ٨١٧ هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، مصر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .
- تأملات في سور الإسراء ، حسن باجودة ، مطابع الأهرام ، القاهرة .
- تأملات في سورة الفرقان ، حسن باجودة ، مطابع الروضة ، مصر .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، لأبي الفيض السيد محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت .
- التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩٤ هـ) ، الدار التونسية للنشر ، ١٣٩٨ هـ .
- تربية الأولاد في الإسلام ، عبدالله ناصح علوان ، دار السلام ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ .
- الترغيب والترهيب . لعبد العظيم المنذري (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق وتعليق :

- مصطفى محمد عمارة ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
- تفسير ابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ، تحقيق : أسعد محمد الطيب .
 - تفسير البغوي معالم التنزيل ، للإمام محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق : خالد العك ومروان سوار ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ، دار المعرفة ، بيروت .
 - تفسير الخازن (التأويل في معاني التنزيل) ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٤١هـ) ، الطبعة الثانية ، مصر ، مكتبة مصطفى البابي ١٣٧٥هـ .
 - تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، لأبي القاسم : جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، مصر ، المكتبة التجارية ١٣٥٤هـ .
 - تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ٣١٠هـ) ، الطبعة التاسعة ١٤١٨هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
 - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) . لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١/١٤٠٨هـ .
 - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين المشهور بابن خطيب الرّبيّ (ت ٦٠٦هـ) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، دار إحياء التراث ، ط ٣/ .
 - تهذيب الأسماء واللغات ، ليحيى بن شرف النووي (ت ٧٧١هـ) ، تحقيق : عبدالفتاح الحلو ، محمود الطناحي ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
 - تهذيب اللغة ، لأبي منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ) ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، ط ٣/١٣٨٨هـ ، مطبعة البابي الحلبي وأولادهم بمصر .
 - جامع العلوم والحكم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب

- الحنبلي ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧هـ .
- الحديث والمحدثون ، محمد محمد أبوزهو ، مطبعة مصر ، شركة مساهمة .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة . لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .
- دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي ، عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، دار عالم الكتب ، السعودية ، الرياض .
- رسائل الإصلاح ، محمد الخضر حسين ، طبع دار النصر للطباعة الإسلامية ، مصر .
- الرسالة المستطرفة ، لمحمد بن جعفر الكتاني (ت ١٣٤٥هـ) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط ٤/١٤٠٦هـ .
- الرعاية لحقوق الله ، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) ، تحقيق : عبدالقادر عطا ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- الروح ، لابن القيم (ت ٧٥١هـ) ، تحقيق : السيد الجميلي ، الطبعة الخامسة ١٤١٢هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- رياض الصالحين ، لمحي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، تعليق : محمد عمارة .
- الرياض الناضرة ، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ) ، مطابع النصر الحديثة ، الرياض .
- زاد المسير في علم التفسير . لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، المكتب الإسلامي ، ط ٣/١٤٠٤هـ .

- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، لأحمد بن محمد بن علي بن حجر المكي الهيثمي (ت ٩٧٤هـ) ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- السبعة (في القراءات السبع) ، لأحمد بن موسى ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) ، تحقيق : شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ٢ .
- سراج القاريء المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي ، لأبي القاسم علي بن عثمان بن الحسن الفاصح العذري البغدادي ، دار الفكر للطباعة ١٤٠١هـ .
- السراج المنير ، للخطيب ، دار المعرفة ، الطبعة الثانية .
- سنن أبي داود ، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ) ، دار إحياء التراث العربي .
- سنن ابن ماجه ، لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ، وبهامشه : كفاية الحاجة في تحقيق سنن ابن ماجه ، والزوائد من مصباح الزجاجة، للحافظ البوصيري (ت ٨٤٠هـ) ، تحقيق : صدقي جميل العطار ، طبع دار الفكر ، بيروت ، لبنان ١٤١٥هـ .
- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق : أحمد شاكر ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ .
- سنن النسائي (المجتبى) بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ، للإمام : أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، اعتنى به ورقمه ووضع فهارسه : عبدالفتاح أبوغدة ، الطبعة الثانية المفهرسة ١٤٠٩هـ ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - سوريا .
- سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، أشرف على تحقيقه : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢/٢٠٢هـ .
- السيرة النبوية ، لابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٦هـ .
- السيرة النبوية ، لأبي محمد عبدالملك بن هشام ، تحقيق : مصطفى السقا ، الأبياري ، شلبي ، ط ٢/١٣٧٥هـ ، مطبعة البابي بمصر .
- شرح أسماء الله الحسنى ، سعيد بن علي القحطاني ، الطبعة الثانية ١٤١١هـ ،

مطبعة سفير الرياض .

- شرح السنة ، للحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، المكتب الإسلامي ، ط ١/١٣٩٠هـ .
- الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ) ، تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور الرسول صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) ، لأبي عبدالله محمد إسماعيل إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، ط ١٤٠٧هـ . دار القلم ، بيروت ، لبنان .
- صحيح مسلم ، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ، تحقيق وترقيم : محمد فؤاد عبدالباقي ، طبعة : دار إحياء التراث العربي ، ط ١٤١٢/٤هـ .
- صحيح مسلم بشرح النووي ، طبعة دار الفكر ١٣٤٩هـ .
- العظمة ، لأبي الشيخ الأصبهاني (٣٦٩هـ) ، تحقيق : رضاء الله المباركفوري ، دار العاصمة ، الرياض ١٤٠٨هـ .
- عمدة الحفاظ في تفسير اشرف الألفاظ ، لشهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ، تحقيق : محمود الدغيم ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، دار السيد للنشر .
- غريب الحديث ، لابن قتيبة عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٩هـ) .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري . لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية ، للإمام محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠٣هـ ، بيروت .
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، لسليمان بن عمر العجيلي ، الشهير بابن الجمل (ت ١٢٠٤هـ) ، دار الاستقامة ، القاهرة .
- الفروق اللغوية ، لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، تحقيق :

- حسام الدين القدسي ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- الفروق ، للقرافي : أبو العباس ، شهاب الدين ، الصنهاجي ، عالم الكتب ، بيروت .
 - الفوائد ، لابن القيم (ت ٧٥١هـ) ، تحقيق : محمد عثمان الخشت ، الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
 - القاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٩٨٧/٢ م .
 - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة السابعة عشر ١٤١٢هـ .
 - الكبائر ، للذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق : أسامة منيمنة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، دار إحياء العلوم ، بيروت .
 - الكليات ، لأبي البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) ، تحقيق : عدنان درويش ، ومحمد المصري ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ، دار الكتاب الإسلامي ، مصر ١٤١٤هـ .
 - لباب النقول في أسباب النزول ، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، طبعة دار إحياء العلوم ، ط ١٩٧٩/٢ م .
 - لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت .
 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للهيتمي (ت ٨٠٧هـ) ، بتحرير العراقي وابن حجر ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .
 - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ، جمع وترتيب : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ، دار عالم الكتب ١٤١٢هـ .
 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ) ، تحقيق : عبدالسلام عبدالشافى ، طبعة محققة عن نسخة أياصوفيا ، استانبول ، دار الكتب العلمية ، ط ١٤١٣/١هـ .
 - المحكم والمحيط الأعظم ، لابن سيده علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، حسين نصار وآخرون ، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ ، مصطفى البابي .

- مسئولية الأب المسلم ، عدنان حسن باحارث ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ، دار المجتمع ، جدة .
- المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم (ت ٤٠٥ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- مسند أبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق : حسين أسد ، طبعة دار الثقافة العربية ، دمشق ، ط ١/١٤١٢ هـ .
- مسند الإمام أحمد ، للإمام : أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ، الطبعة : الثالثة ١٣٩٨ هـ ، مصورة عن دار صادر ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر ، طبعة دار المعارف بمصر ، ١٣٧٧ هـ .
- المصنف ، لأبي بكر ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ) ، تحقيق : عبد الخالق الأفغاني الدار السلفية بالهند ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ .
- المصنف ، للصنعاني أبي بكر عبدالرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق : الأعظمي .
- معاني القرآن وإعرابه ، لأبي إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج (ت ٣١١ هـ) ، تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، ط ١/١٤٠٨ هـ .
- المعجم الأوسط . للحافظ الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق : د. محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ .
- المعجم الكبير . للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق : حمدي عبد المجيد ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ، نشر د/أ.ي. ونسك/ مكتبة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٣٦ هـ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، لمحمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ، دار الفكر ، بيروت .
- مفتاح كنوز السنة ، لمحمد فؤاد عبد الباقي .

- المفردات في ألفاظ القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) ، تحقيق : محمد سيد كيلائي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .
- موسوعة أخلاق القرآن ، للدكتور : أحمد الشرباصي ، الطبعة الأولى ١٩٨٩م ، دار الرائد العربي .
- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ، لمحمد السعيد بسيوني زغلول ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الحوزي (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق : محمد الراضي ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- النشر في القراءات العشر ، لأبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري (٨٣٣هـ) . أشرف على تصحيحه : علي محمد الضباع . دار الفكر .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لأبي السعادات : محمد بن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق : محمود الطناحي ، وطاهر الزواوي ، طبعة أنصار السنة ، باكستان .
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، للشوكاني محمد بن علي (ت ١٢٥٥هـ) ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، لبنان .
- وجوه القرآن ، لأبي عبدالرحمن إسماعيل بن أحمد الضرير النيسابوري الحيري (ت ٤٣١هـ) ، تحقيق ودراسة : فضل الرحمن عبدالعليم الأفغاني ، رسالة ماجستير في مكتبة البحث العلمي بجامعة أم القرى ، ١٤٠٤هـ .

فهرس الموضوعات

٢	المقدمة
٢	أهمية الموضوع :
٥	أسباب اختياري للموضوع :
٦	وأما الأسباب الخاصة بالموضوع فهي :
٦	أولاً : أهمية الموضوع وخطره :
٦	ثانياً : عدم وجود كتابة مستقلة عنه :
٦	ثالثاً : صور التكبر في مجتمعاتنا :
٦	رابعاً : الإفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم :
٧	صعوبات اعترضت الطريق :
٨	منهجي في هذا البحث :
٩	محتويات البحث :
١٢	شكر وتقدير :
١٤	الفصل الأول : في التعريفات .
١٤	وفيه مباحث :
١٥	المبحث الأول : تعريف الكبر لغة واصطلاحاً .
١٥	أولاً : معنى الكبر لغة :
١٧	ثانياً : معنى الكبر في الاصطلاح :
٢٠	تعريف العلماء للكبر :
٢٠	التعاريف :
٢١	حول التعاريف :
٣٣	المبحث الثاني : في الفروقات .
٣٣	الاستكبار والاستنكاف والتكبر والكبر :
٣٩	الأنفة والحمية والكبر :
٣٩	١ - الأنفة :
٤٠	٢ - الحمية :
٤٢	البذخ والكبر :
٤٣	البغي والكبر :
٥٠	التبخر والكبر :
٥١	التجبر والكبر :
٥٦	التطاول ، الاستطالة والكبر :
٥٨	التمطي أو المطيمطاء والكبر :
٥٩	الخيلاء والكبر :

٦٤	الزهو والكبر :
٦٦	الصَّعَر والكبر :
٦٧	الطغيان والكبر :
٦٩	العتو والكبر :
٧١	العجب والكبر :
٨١	العدوان والكبر :
٨٢	العلاقة بين العدوان والكبر :
٨٣	أوجه العدوان في القرآن :
٨٤	العزة والكبر :
٨٨	العزة في القرآن الكريم :
٨٨	العلاقة بين العزة والكبر :
٩١	العظمة والكبر :
٩٣	العلو (الاستعلاء) والكبر :
٩٤	العلو في القرآن الكريم :
٩٤	١ - الارتفاع في المكان ، أو في القدر والمكانة .
٩٥	٢ - الغلبة والقهر :
٩٥	٣ - التنزه عما لا يليق :
٩٥	٤ - العظمة والتكبر والتعجب :
٩٦	٥ - الشرف :
٩٦	علاقة العلو بالكبر :
٩٧	الفخر والكبر :
١٠٠	الفرح والمرح والبطر والأشر ، والكبر :
١٠٧	الفصل الثاني : دواعي الكبر وأسبابه .
١٠٧	وفيه مباحث :
١٠٩	المبحث الأول : دواعي الكبر
١١٠	الداعي الأول من دواعي الكبر : المعتقد .
١١٥	واقع معكوس :
١١٩	الداعي الثاني من دواعي التكبر : التكبر بالعلم .
١٤٠	أبرز صفات المتكبر بالعلم :
١٥٢	تنبيه :
١٥٣	الداعي الثالث من دواعي التكبر : العمل .
١٥٤	متى يتكبر المتكبر بعمله؟
١٥٤	فائدة في إظهار أخلاق المتكبرين بالعلم والعمل .
١٥٦	الداعي الرابع من دواعي التكبر : المال .
١٥٨	أولاً : نصوص قرآنية :

١٥٨	ثانياً : نصوص نبوية :
١٦٣	أسباب التكبر بالمال :
١٦٣	١ - الشعور بالاستغناء الذاتي :
١٩٠	الداعي الخامس من دواعي الكبر : الحسب والنسب .
١٩٢	وقفة مع حاضر الأمة .
١٩٤	فائدة :
١٩٦	الداعي السادس من دواعي التكبر : القوة .
١٩٦	التكبر بالقوة :
٢٠٠	الداعي السابع من دواعي الكبر : العدد .
٢٠٣	الداعي الثامن من دواعي التكبر : الملك والسلطان والمنصب .
٢٠٨	الداعي التاسع من دواعي الكبر : الجمال .
٢٠٨	كيف يتكبر الجميل بجماله؟
٢٠٨	١ - الاختيال في المشي :
٢٠٩	٢ - الفخر والتباهي بالنفس وصفات جمالها واستصغار الآخرين .
٢١٠	٣ - الإسراف في الملابس :
٢١٠	٤ - الاهتمام الزائد بشعر الرأس :
٢١١	٥ - الأنفة من أهل البلاء :
٢١٢	٦ - إخفاء المحاسن وإبراز المعاييب :
٢١٣	المبحث الثاني : أسباب الكبر .
٢١٤	أولاً : الأسباب النفسية :
٢١٤	أولاً : الرغبة بعدم الخضوع لأحد :
٢١٧	ثانياً : الرغبة بالتفوق والامتياز على الآخرين ، والتقدم عليهم :
٢٢٣	ثالثاً : الرغبة بإخفاء ما يشعر به المتكبر من نقص في ذاته أو في عمله :
٢٢٥	ثانياً : الأسباب الاجتماعية .
٢٢٨	السبب الاجتماعي الأول : الوراثة والتقليد :
٢٣٠	السبب الاجتماعي الثاني : سوء التربية :
٢٣٨	ثانياً : الدلال الزائد المفسد للأبناء :
٢٤٦	السبب الاجتماعي الثالث من أسباب الكبر هو : المدح .
٢٥٣	السبب الاجتماعي الرابع من أسباب الكبر : التهمة لمجرد الظن .
٢٥٥	السبب الاجتماعي الخامس من أسباب الكبر : عدم الأخذ على يد السفیه .
٢٥٨	ثالثاً : الأسباب السلوكية .
٢٥٨	١ - الجهل :
٢٦٠	الصورة الأولى : الجهل بالله تبارك وتعالى :
٢٦٢	الصورة الثانية : الجهل بالنفس .
٢٦٦	الصورة الثالثة : الجهل بحقيقة ما يتكبر به :

- ٢ - العجب : ٢٧٢
 ٣ - الحقد : ٢٧٤
 ٤ - الحسد : ٢٧٦
 ٥ - الرياء : ٢٨٠
 ٦ - الهوى : ٢٨٢

٢٨٦ الفصل الثالث : أقسام الكبر .

- أولاً : ينقسم الكبر باعتبار حقيقته إلى قسمين : باطن ، وظاهر ٢٨٧
 ثانياً : ينقسم الكبر باعتبار أحكامه إلى ثلاثة أقسام : ٢٩٢
 ١ - كفر ٢٩٢
 ٢ - كبيرة من الكبائر ٢٩٢
 ٣ - مباح ٢٩٢
 ثالثاً : أقسام الكبر باعتبار أفراده ، وهي قسمان : ٢٩٣
 رابعاً : أقسام الكبر باعتبار المتكبر عليه ٢٩٨
 ١ - التكبر على الله عز وجل : ٢٩٨
 ٢ - التكبر على الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام : ٣٠٤
 أ - الأنفة من اتباعهم لبشريتهم ٣٠٤
 ب - إيذاؤهم بالقول والفعل ٣٠٦
 ج - الهزاء والسخرية بهم ٣٠٩
 د - طلب الآيات منهم ، ثم تكذيبها ٣١٠
 هـ - قتلهم ٣١٢
 ٣ - التكبر على سائر الناس : ٣١٣

٣٢٠ الفصل الرابع : علامات الكبر

- ١ - بطر الحق : ٣٢١
 ٢ - المجادلة : ٣٢٤
 ٣ - الفخر : ٣٤٠
 ٤ - البخل : ٣٤٢
 ٥ - الرياء : ٣٤٢
 ٦ - الاختيال والتبختر في المشي : ٣٤٤
 ٧ - الاختيال باللباس : ٣٤٥
 ٨ - لِيُ العنق أو الرأس أو الجانب وتصغير الخد : ٣٥٠
 ٩ - التشديق في الكلام : ٣٥٤
 ١٠ - القسوة والغلظة : ٣٥٥
 ١١ - الكذب : ٣٦٠
 ١٢ - غمط الناس : ٣٦٢

الفصل الخامس : أحداث تاريخية للكبر في ضوء الكتاب والسنة ٣٦٥

- أولاً : المتكبر الأول : إبليس عليه لعنة الله تعالى ٣٦٧
- من هو إبليس؟ ٣٦٧
- مامعنى إبليس؟ ٣٦٧
- على من تكبر إبليس؟ ولماذا؟ ٣٦٨
- هل أبى إبليس أولاً أم استكبر؟ ٣٦٩
- مظاهر تكبر إبليس على سلوكه : ٣٧١
- ثانياً : استكبار قوم نوح عليه السلام : ٣٧٢
- نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله : ٣٧٢
- موقف قوم نوح من الدعوة : ٣٧٦
- التفاته : ٣٧٩
- عودة إلى الآيات : ٣٧٩
- نهاية رحلة الاستكبار : ٣٨١
- ملخص مظاهر الاستكبار عند قوم نوح ٣٨٤
- ثالثاً : استكبار قوم عاد : ٣٨٥
- من هم قوم عاد؟ ٣٨٥
- القرآن يقص علينا خبر عاد ٣٨٥
- فلما بلغ هود قومه رسالة ربه ما كان موقفهم؟ ٣٨٦
- كيف أهلك الله قوم عاد ٣٩٤
- رابعاً : تكبر ثمود ٣٩٨
- من هم ثمود؟ ٣٩٨
- القصة من القرآن الكريم ٣٩٨
- ملخص أبرز مظاهر استكبار ثمود على سلوكهم : ٤١١
- خامساً : استكبار مدين ٤١٢
- من هم أهل مدين؟ ٤١٢
- لماذا أرسل الله تعالى إلى مدين نبيه شعباً عليه السلام؟ ٤١٢
- قصة استكبار مدين كما جاءت في القرآن الكريم ٤١٢
- ملخص آثار الاستكبار على سلوك أهل مدين : ٤٢٦
- سادساً : استكبار نمرود ٤٢٧
- من هو نمرود؟ ٤٢٧
- نمرود يحاج إبراهيم في ربه تبارك وتعالى ٤٢٧
- كيف أهلك الله تعالى نمرود ٤٢٨
- سابعاً : تكبر فرعون وقومه وطغيانهم ٤٣١
- من هو فرعون؟ ٤٣١
- ثانياً صور استكبار فرعون من خلال قصصه في القرآن الكريم : ٤٣١
- فرعون يجحد الرب جل جلاله ويدعي الربوبية والألوهية ٤٣١

٤٣٣	- فرعون وملؤه يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها
٤٣٧	فرعون يجمع السحرة لينصروه ، ثم يقتلهم لإيمانهم بالله رب العالمين
٤٤٥	فرعون وملؤه يطغون على بني إسرائيل :
٤٤٦	أ - العلو عليهم وقهرهم بالسلطان ، واستضعافهم وجعلهم عبيداً وخداماً يصرفونهم في الأعمال الشاقة والرديئة دون أن يعطوا أجراً على ذلك
٤٤٦	ب - قتل أبنائهم واستحياء نسائهم
٤٤٨	فرعون يمتن على موسى عليه السلام ويهزأ به ويستصغره ويتوعده بالسجن ويتهده بالقتل
٤٥٢	من قمة الاستكبار إلى قاع البحار
٤٥٧	ثامناً : تكبر قارون
٤٥٧	من هو قارون؟
٤٥٧	قصة تكبر قارون من القرآن الكريم
٤٦٧	تاسعاً : تكبر المنسلخ من آيات الله
٤٦٧	ماهي الآيات التي أوتيتها ، وكيف انسلخ منها؟
٤٦٨	تفسير الآيات
٤٧١	صور تكبر المنسلخ من آيات الله :
٤٧٣	عاشراً : تكبر صاحب الجنتين
٤٧٣	القصة من القرآن الكريم :
٤٧٩	مظاهر تكبر صاحب الجنتين ملخصة :
٤٨٠	الفصل السادس : أحكام الكبر
٤٨٩	أولاً : من القرآن الكريم :
٤٩٠	ثانياً : من السنة النبوية :
٤٩٩	الفصل السابع : آثار الكبر
٥٠١	المبحث الأول : آثار الكبر على المتكبر
٥٠١	أولاً : الآثار الدنيوية .
٥٠١	١ - يشقى في حياته :
٥٠٢	٢ - يبوء بغض الخلق :
٥٠٣	٣ - يذله الله ويخزيه :
٥٠٤	٤ - المتكبر معرض للعقوبة العاجلة :
٥٠٥	٥ - قلق ووسواس :
٥٠٦	ثانياً : الآثار الأخروية :
٥١١	المبحث الثاني : آثار الكبر على المجتمع والأمة
٥١٦	الفصل الثامن : علاج الكبر
٥١٦	وفيه مبحثان :

٥٩٥	رابعاً : علاج التكبر بالمال :
٥٩٥	أولاً: المال مال الله تعالى :
٥٩٦	ثانياً : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ..
٥٩٧	ثالثاً : المال وصاحبه مصيرهما الفناء :
٥٩٩	خامساً : علاج التكبر بالحسب والنسب :
٦٠١	سادساً : علاج التكبر بالقوة :
٦٠١	١ - القوة لله جميعاً :
٦٠١	٢ - القوة من الله تعالى :
٦٠١	٣ - القوة لاتدوم والعافية ذاهبة :
٦٠١	٤ - ضعف وضعف وضعف :
٦٠٢	٥ - الحمار أشد قوة :
٦٠٢	٦ - قوة الإيمان لاقوة الأبدان :
٦٠٣	٧ - كانوا أشد منهم قوة :
٦٠٤	سابعاً : علاج التكبر بالعدد :
٦٠٧	ثامناً : علاج التكبر بالسلطان والجاه والمنصب :
٦١١	تاسعاً : علاج التكبر بالجمال :

٦١٣ الخاتمة

٦١٥	الفهارس.....
٦١٦	فهرس الآيات .
٦٥٠	فهرس الأحاديث .
٦٥٥	فهرس المصادر والمراجع.....
٦٦٤	فهرس الموضوعات.....